

عالم الفكر

تصدر عن وزارة الاعلام ـ دولة الكويت

المجلد الثاني والعشرون ـ العدد الأول ـ يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر ١٩٩٣

الآثار النفسية السلبية للعدوان العراقي على الكويتيين

عالم الفكر

تصدر عن وزارة الإعلام - دولة الكويت

«عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع، في مجالات الآداب والفنون والعلوم التنظيرية والتطبيقية.

قواعد النشر بالمجلة

* ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية:

أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره.

ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة.

جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة - ١٦,٠٠٠ ألف كلمة.

د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري:

و) البحوث والدراسات التي يصرح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات اليها تعاد الى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.

* تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور.

** الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم، والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.

ترسل البحوث والدراسات باسم: رئيس التحرير
وزارة الاعلام - الكويت - ص.ب ١٩٣



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

عالم الفكر

تصدر عن وزارة الإعلام
دولة الكويت

المجلد الثاني والعشرون ـــــ العدد الأول

يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر
١٩٩٣

المحرر الضيف لملف العدد

الدكتور حامد الفقي

أستاذ مساعد بقسم علم النفس بجامعة الكويت . له عدة كتب مؤلفة ومترجمة ، كما أن له الكثير من الأبحاث العلمية المنشورة في مجلات عربية وأجنبية ، شارك في كثير من الأنشطة الأكاديمية والثقافية والتربوية في الكويت وغيرها من البلاد العربية والأجنبية .

محتويات العدد

الآثار النفسية السلبية للعدوان العراقي على الكويتيين

آفاق المعرفة

مطالعات

مناقشات

شخصيات وآراء

صدر حديثا

مفتتح

بقلم رئيس التحرير

يتسم عصرنا بالقلق، والتوتر النفسي النـاجم عن الكوارث الطبيعية وغير الطبيعية التي تجتاح قطاعا كبيرا من أرضنا هذه، كالمجاعات والأمراض والزلازل التي تخلف وراءها أعداداً كبيرة من البشر يعانـون ويلاتها وآثارهـا التي قد تمتد زمنـا يطول أو يقصر، ولعل أقسـاها وأمرهـا تلك الكوارث التي يفتعلها الإنسـان نفسه ضـد أخيه الإنسان، وضـد البيئة التي يعيش فيها، نـاسيا أو متنـاسيا حجم الدمار الذي يسببه لنفسه وللأجيال القادمة من بعده. وكلنا نذكر في هذا المجال تلك الحرب المجنونة التي شنهـا صدام العـراق ضد جـارته إيـران و امت ثماني سنوات عجـاف، أكلت موارد البلـدين، وخلفت وراءها آثارا مدمرة، طالت حتى البلـدان المجاورة لها، وكذا الأمر ذاته مع الحرب الأهلية في لبنـان، والصراع العربي الإسرائيلي، الـذي امتدت آثـاره، ولا تزال، زهـاء نصف قرن، نـاهيك عن الحرب الأفغانية، وحرب التحرير الأريترية الأثيـوبية، وحرب البوسنة والهرسك التي ما زالت وسائل الإعلام العالمية تنقل فظـائعها وويلاتها عبر الأقمار الصناعية ليشاهـدها ملايين البشر دون أن يبادر أحد لوضع حد لتلك المجازر الـوحشية التي تكشف دون ريب عن المستوى الأخلاقي الذي وصلت إليه بعض الشعوب التي تدعي أنها في الذروة من الحضارة والرقي والتقدم.

إذا كانت الحرب غير المبررة جريمة في حق الإنسان ورمزا لانـدحار العقل أمام القوة فإن ذيول الحرب ومخلفاتها أعظم مأساة وأشد وقعا ومعاناة في النفوس من الحرب ذاتها، إذ بعد الحرب يبدأ العقل في «الاستفاقة» من غلبة المشـاعر المحتـدمـة، والتحرر من أغـلال الغضب، والتأمل في حجم الكارثة التي جلبتها الحرب على مختلف الأصعدة، بدءًا من البيئة، وانتهاء بالإنسان نفسه، وإذا كان من الممكن بـالعزيمـة والتصميم تجاوز الآثار الماديـة للحرب، فإن جـروحها النفسية تبقـى غائرة في أعماق النفس لأجيال قادمة حسب فداحة فظائع الحرب، وسلوكيات الاحتلال.

وتبقى تجربة الإنسان الكـويتي مع الاحتلال العراقي تجربة فريدة في التـاريخ المعاصر، فلأول مرة تسقط القيـم العربية في مستنقع آسن، وتمتهـن الحُرَم على مشهد من الجميع وتضيع الكـرامات، وينقسم العرب فيما بينهم على قضيـة جلية، بل مضى بعضهـم إلى تأييد المعتـدي، والشد من أزره، من غير اعتبـار لقيم أو أخـلاق، أو منطق أوديـن، حتى أصبحنـا أضحـوكـة بين الأمم على المسرح السياسي، ومـادة صحفية تستغلهـا الهيئات الصهيـونية للتنـدر علينا في الصحف العـالمية. كـانت التجربة بشعة على كل المستـويات، مارس فيها جنود الاحتلال، أحط أنـواع السلوكيات التي تفتقر إلى الحس الحضاري، فـانغمسوا في سرقـة المال العام والخاص، فلم يتركـوا في الكويت أي شيء ذي نفع إلا نقلوه إلى بلادهم، وما لم يقدروا على سرقتـه أحرقوه حتى أصبحت سرقاتهم من أكبر السرقات في العالم المعاصر كما تشهد بها الوثائق التي يقدمونها إلى الأمم المتحدة عن حجم سرقاتهم التي تسعى الكويت إلى استردادها. وكانت نـزعة التدمير والانتقام تسيطر عليهم، مدفوعة بحقـد شديد كما لو كانوا يطلبون لهم ثأرا عند الكويت ناسين أو متناسين أو ناكرين موقف الكويت حين حزبتهم الحرب مع إيران، ودارت عليهـم الدوائر، وضـاقت عليهم أنفسهـم، فلم يكن لهم حينذاك من سنـد مادي ومعنوي سوى الكويت وشقيقاتها الخليجيـات اللاتي تحملن أقسى الظروف والمكاره حتى لا يتهاوى العراق، الذي كان قاب قوسين أو أدنى من السقوط، فكان الجزاء مئات الدبابات والطـائرات وآلاف الجنود يقتحمـون الكويت تحت جنح الظلام غـدرا، يصبون حمم آليـاتهم، التي اكتظت بها الشوارع والمنعطفات على كل من يعترض طريقهم، أو يستنكر وجودهم.

لم يقبل الكويتيـون الهوان، أو يهادنوا الغزاة رغم قسـوة الظروف بل هبوا في وجـوهم هبة رجل واحد، صغيرهم وكبيرهم ذكرهـم وأنثاهم ويكفي أن نشيد بأول مظاهرة نسائية، تلت الغزو مباشرة، تشجب الاحتلال والغدر وتنـدد بمدبره وقائده، فكان نصيبها الـرصاص الذي انطلق من كل اتجاه، فسـال الدم الـذي خضّب الأرض وأشعل كـوامن الثـورة والمقـاومة في نفـوس جميع فئـات الشعب. شملت المقاومـة كل شيء في الدولـة ابتداء من المقـاومة السلبية بـالامتناع عن التعـاون مع الاحتلال وتضليلـه والكتابـة على الجدران ضد وجـوده، وانتهاء بـالمقاومـة المسلحة، التي لم تكن في حسبـان المعتدي نتيجة لضخامة عدته وعتاده، وقسوة قمعه، وأساليب عقابه. ألهبت المقاومة حماس الشباب فانخـرطوا في صفـوف التنظيمات السرية المسلحـة التي ارعبت جنود الاحتلال، وزلـزلت الأرض من تحت أقدامهـم حتى أصبحوا لايتنقلـون إلاّ ضمن مجموعات مـدججة بـالسلاح، ومع ذلك كـانت المقاومة تفـاجئهم في وضح النهار وفي الشوارع الفسيحة فتـدك آلياتهم التي سرعان ماتتناثـر أجزاؤها على مشارف الطرق السريعة، مختلطة بأشلاء جنودهم. وكانت ردة فعل الاحتلال على هذه المقاومة، وعلى الشعب الذي يقف وراءها شرسـة إلى أبعد حدود الشراسة، ومنافيـة لأبسط مبادىء الأخلاق، ومجافية لأخلاقيـات الحرب. فمداهمة البيوت، وإلقاء القبض على الشباب والنسـاء والأطفال والزج

بهم في المعتقلات لأدنى شبهة من الأعمال اليومية لقوات الاحتلال، وليت الأمر وقف عند هذا بل تجاوزه إلى اغتصاب النساء علنا أمام ذويهم وفي المعتقلات، وعلى الرغم من أنه لم يكشف النقاب رسميا، لاعتبارات اجتماعية ونفسية، عن مجموع النسوة اللاتي اغتصبن على أيدي جنود الاحتلال، باستثناء أربعمائة حالة راجعت المراكز النفسية والاجتماعية المتخصصة، غير أنه يعتقد أن الأرقام كبيرة قد تصل إلى ستة آلاف حالة اغتصاب حسبما أشار إلى ذلك تقرير تقديري صادر عن الأمم المتحدة نقلته محطة التلفزيون الانجليزية SKY News، (انظر تفاصيل الموضوع في جريدة الوطن الكويتية العدد ٥٧١١/١٥٧ ـ ١ ـ يناير ١٩٩٢). ولاشك أن حالات الاغتصاب في مجتمعنا العربي المسلم بالغة الحساسية لما تسببه من آلام نفسية للضحية ولأسرتها، ولذا فالتستر ومحاولة نسيان الجريمة، وعدم التبليغ، أو الحديث عنها من الأمور المعتادة في المجتمع المسلم، ومع ذلك فقد نجحت Jean p Sasson أن تلتقي بثلاث نساء من ضحايا الاغتصاب، وأن تنقل لنا تفاصيل اغتصابهن في مشاهد يدمى لها القلب، ويندى لها الجبين، وتستنكرها شرائع الله، (انظر كتابها The rape of Kuwait) pp - 75 ff.Published by Kinghts - bridge Publishing connpany , New YorK1991).

وكان قتل الفتيان والفتيات الصغار المشتبه بهم يتم مع ساعات الصباح الأولى أمام عتبات بيوتهم بعد أن يجبر المحتلون سكان الحي على التجمهر أمام بيت الضحية لمشاهدة مشهد القتل الذي يتم بإطلاق رصاصة على مؤخرة رأس الضحية لتتهاوى أمام مدخل البيت، والويل لمن يحاول رفع الجثة حتى تمضي عدة ساعات على موتها، زيادة في الامتهان وبث الرعب في النفوس.

ولا ريب في أن همجية السلوك العدواني للمؤسسة العسكرية الصدامية كانت وراء ممارسة كل أشكال وسائل القمع والتعذيب، والقتل، والتمثيل بجثث الضحايا، والاغتصاب وانتهاك حرمة البيوت وممارسة أفعال وسلوكيات ـ في ليل أو نهار ـ يعف اللسان عن ذكرها، والقلم عن تسطيرها والتي ستبقى وصمة عار في جبينهم يذكرها التاريخ لهم بالسوء.

كانت الحساسية الشعرية الكويتية تحس بنبض هذه الممارسات اللا أخلاقية التي يرتكبها جنود الاحتلال فتسجل لنا بعضا من مشاهدها في صور درامية:

. . . آجل
هاهم السادة الظافرون الأباة
يجيئون بابنة جاري الصبية
مشطورة الوجه

مثقوبة الرأس
مقطوعة الكف
يرمون الجسد
المستحم ببحر الدماء
يديرون أكتافهم (د. خليفة الوقيان من قصيدة مخطوطة)

ويقول الشاعر المبدع خالد سعود الزيد عن الشهيدة أسرار القبندي التي كانت بطولاتها الفذة في مقاومة الغزاة أنموذجا لبطولة المرأة الكويتية التي استهانت بالموت واستعذبت نيل الشهادة:

إقلع عينيها
إقطع أذنيها
واخلع نعليها
وانزع نهديها
وابتر هذي الأضلاع
فلقد سويت الصورة من قبل
ولا تملك أن تمحوها
هي ذي عندي
تسجد تحت العرش أراها
تمسك قائمة العرش يداها
فاقلع عينيها
وابتر نهديها
واقطع أذنيها
سبقت من قبل لها الكلمة (بين واديك والقرى ٣٤ ـ ٣٦)

ويقول الشاعر ذاته عن الشهيد سالم:

لن أنسى جرحك قد حدثني
وحديث الجرح النازف دم
عيناك المقلوعه
أذن مجدوعه

أواه وكيٌّ بالخاصرة المنزوعه
إن الأقدام لمخلوعه
طعنوا وجهك
. . .
شاهدت الضربة
إن الفأس سطا
في رأسك . . واصطفت
أسنان المنشار ومسمار في الكتف اليمنى
ومزعة مخ طاش (المصدر ذاته ٤٣ ـ ٤٥)

إن هذه المشاهد المأساوية التي رصدها الشعر الكويتي، وخلدها في صور فنية، هي جزء من مشاهد أكثر فظاعة ودرامية من تلك، ووثائقهم الكثيرة التي تركوها خلفهم تشهد بسوآتهم، وانحطاط أخلاقهم، وموت ضمائرهم، ويكفي أن نشير هنا إلى وثيقتين أوردهما د. عبدالله محارب في كتابه "زيارة لبيت العنكبوت" ص١٣٨ ـ ١٣٩، (من منشورات مركز البحوث والدراسات الكويتية ـ الكويت ١٩٩٢) يتضمنان توجيهات من رئيس النظام نفسه بقطع الرقاب حتى لو تطلب الأمر أنهارا من الدم، وإطلاق الرصاص على المتظاهرين من الخلف، وقتلهم جميعا، وتحذير المدنيين من الاقتراب من قتلاهم إلى غير ذلك من وسائل الإرهاب والرعب التي ارتكبت ضد المدنيين زمن الاحتلال، ولم تكن المنظمات الدولية المعنية بحقوق الإنسان بعيدة أو غائبة عما تعانيه الساحة الكويتية من ويلات الاحتلال وسلوكياته الخارجة عن الأعراف والأديان، فقد كانت في قلب الأحداث وأصدرت عدة بيانات تندد فيها بسلوكيات الغزاة، وإني لأستميح العذر من قرائنا الأعزاء في أن أذيل في نهاية كلمتي هذه أحد البيانات التي أصدرتها "منظمة العفو الدولية" ليطلعوا على حجم المعاناة التي تعرض لها الكويتيون تحت الاحتلال العراقي.

لقد اندحر الاحتلال، وتحررت الكويت، لكن آثاره ونتائجه السلبية لازالت باقية تجثم على صدر الكويت، مسببة لها قلقا مستديما تحاول تجاوزه بكل الوسائل المتاحة لها. ويأتي في مقدمة اهتماماتها قضية أسراها المدنيين الستمائة الذين يقبعون في سجون طاغية العراق، وقد مضى على أسرهم ثلاث سنوات، وفيهم الشيخ الكبير والمرأة المسنة والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فضلا عن الآباء والأمهات الذين تقتلهم اللهفة على أولادهم، والأسر التي ما فتئت تحلم بعودتهم. وعلى الرغم من الجهود الدولية والإقليمية التي بذلت ولا تزال لإطلاق سراحهم فإن هذه الجهود لم تكلل بالنجاح نظرا لتعنت النظام العراقي ومراوغاته السياسية في إنكار وجودهم لديه، طمعا في استخدامهم ورقة

سياسية يضغط بها على الكويت من غير اعتبار للجوانب الإنسانية التي تنطوي عليها أحوال هؤلاء الأسرى وظروف اعتقالهم.

يشعر الكويتيون جميعا بالإحباط لعَجز العالم عن إرغام طاغية العراق على فك قيد أسراهم، كما شعروا من قبل بالإحباط أيضا حين فشل العرب في رد العدوان، وحين مضى بعضهم يتآمر مع الطاغية في محو الوجود الكويتي وكيانه.

لاريب في أن حجم الكارثة التي تعرض لها الكويتيون كان كبيرا، وكبيرا جدا بكل المقاييس المعروفة فقد زلزلت كيانهم، وغيرت بعض مفاهيمهم عن علاقاتهم بالآخرين وانعكست آثارها على مسيرة حياتهم اليومية فالشعور بالقلق، والخوف من المستقبل، وتخزين السلاح، والإحساس بعدم الأمن، وشراء العقارات في الخارج تحسبا من تكرار العدوان، وظهور بعض الأمراض الفصامية والعصابية لدى شرائح عديدة من المجتمع الكويتي، يدفع العلماء والمتخصصين إلى التصدي لمعالجة هذه الظواهر، ووضع الخطط والحلول التي تحد من انتشارها في طبقات المجتمع.

وقد ظهرت دراسات مبكرة تعالج بعضا من هذه الظواهر قبل التحرير وبعده نذكر منها دراستي الدكتورة أميرة الديب "حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسية والاجتماعية للطلبة الكويتيين" (١٩٩٠) و "رد الفعل المتأخر لصدمة الحرب، دراسة إكلينيكية (١٩٩٢)، كما نشير إلى تلك الندوة القيمة التي عقدتها "المجلة العربية للعلوم الإنسانية" في عددها الأربعين (١٩٩٢) عن "الآثار الاجتماعية والنفسية الناجمة عن الاحتلال العراقي للكويت، حيث شارك فيها نخبة من أساتذة الجامعة المتخصصين، ودراسة زين العابدين درويش « أثر العدوان العراقي في الحالة النفسية للشباب الكويتي - دراسة ميدانية. » المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد ٣٩ (١٩٩٢).

ولاتزال الدراسات في هذا الجانب منعقدة على معالجة هذه الظواهر غير الطبيعية في المجتمع الكويتي، وتأتي الأبحاث المولة من جامعة الكويت في الصدارة، حيث يتصدى المتخصصون في الجامعة لدراسة هذه المشكلات، وتقديم المقترحات والحلول لتجاوزها. ويسعد "مجلة عالم الفكر" أن تقدم في ملف هذا العدد إلى قرائها بعضا من الدراسات التي مولتها الجامعة، وقام بها أساتذة لهم خبرتهم الطويلة في هذا الميدان. ولا نريد أن نستعرض هذه الأبحاث أو نعلق عليها بل نتركها إلى قرائنا..

ولا يسعنا في النهاية إلاّ أن نتوجه بالشكر الجزيل إلى إدارة الأبحاث بجامعة الكويت على تمويلها هذه الأبحاث، كما نجزل الشكر أيضا إلى الزميل أ. د. حامد الفقي الذي أخذ على عاتقه متابعة هذه الأبحاث وتقديمها إلى مجلة عالم الفكر، والشكر أيضا إلى الزملاء المشاركين في هذا الملف على استجابتهم لنشر هذه الدراسات في مجلة عالم الفكر.

د. عبدالله أحمد المهنا

بيان صحفي
لمنظمة العفو الدولية

الأمانة الدولية

1 Easton Street, London, WC1X 8DJ,
United Kingdom

MDE 14/15/90 فهرس منظمة العفو الدولية:
SC/PO التوزيع:

حظر دولي:
يحظر نشر هذا البيان قبل الساعة ١٠٠٠ بتوقيت غرينتش من يوم الأربعاء ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠

3 October 1990

فريق منظمة العفو الدولية لتقصي الحقائق
يقول إنّ القوات العراقية تقوم بعمليات القتل والتعذيب في الكويت

قالت منظمة العفو الدولية اليوم (الأربعاء الموافق ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠)، إن القوات العراقية قد عذبت وأعدمت عشرات من الأشخاص، من بينهم صبية لا تزيد أعمارهم عن ١٥ عاماً، منذ غزت العراق الكويت في ٢ آب/أغسطس.

وقد أجرت المنظمة مقابلات مع عشرات من الأشخاص الذين هربوا من الكويت. كما أن اثنين من مندوبي المنظمة قد عادا لتوّهما من البحرين، حيث تحدثا هناك مع ضحايا الانتهاكات وشهودها العيان.

وتقول المنظمة إنه «شهاداتهم ترسم صورة مرعبة للاعتقالات الواسعة الانتشار، والتعذيب أثناء الاستجواب، والإعدام الفوري، والقتل الجماعي خارج نطاق القضاء.» ويُعتقد أن المئات من الكويتيين، ومن جنسيات أخرى، هم الآن في المعتقلات أو السجون في الكويت والعراق.

«ولم تكن القوات العراقية تكتفي بالقبض على من يُشتبه في قيامهم بهجمات مسلّحة ضدها، بل كانت تعتقل أيضاً الرجال والنساء والأطفال ممن تجد بحوزتهم مطبوعات معارضة لها، أو أعلام الكويت، أو صور أمير الكويت».

ويُقال إنّ حيازة هذه الأشياء تُعامل في الواقع كالجرائم الكبرى، التي عقوبتها الموت.

كما إن بعض الأشخاص قد ألقي القبض عليهم، أو قتلوا لأنهم لم يضعوا صورة رئيس العراق صدام حسين مكان صورة أمير الكويت.

ويُحتجز المعتقلون في مراكز الشرطة، والمدارس، والمباني العامة الأخرى في الكويت؛ وقد نُقل بعضهم إلى العراق.

«ويقول الذين أطلق سراحهم إن المخابرات العسكرية العراقية تعذّب المعتقلين بصورة روتينية».

لقد عُذّب بعضهم بالصدمات الكهربائية، أو قاسوا الضرب لفترات طويلة على أجزاء حساسة من أجسادهم؛ والبعض الآخر كسرت أطرافهم، ونُتفت شعورهم، ونُزعت أظافر أصابع أيديهم وأقدامهم، وهُدّدوا بالاعتداء عليهم

هاتف: ٥٥٠٠ ٤١٣ (٧١)(٤٤) برق: Amnesty London WC1 تلكس: ٢٨٥٠٢ (فاكس: ٩٥٦ ١١٥٧)

جنسيا أو إعدامهم.

وتقول منظمة العفو الدولية، ونحن لا نستطيع حتى نشر المزيد من التفصيلات من الضحايا السابقين للتعذيب، خشية أن تُعرف هويتهم أو هوية عائلاتهم، فيتعرضوا لمزيد من الانتقام».

وورد أن القوات العراقية قتلت أعداداً كبيرة من المدنيين العزل، تشمل صبية في الخامسة عشرة من العمر بإطلاق الرصاص على رؤوسهم، وألقيت جثثهم خارج منازلهم.

وقال الأطباء الذين عملوا في مستشفيات الكويت عقب الغزو، إن الجنود العراقيين أحضروا أعداداً كبيرة من جثث الشباب، وكان كثير منهم أطلق عليه الرصاص في القلب أو الرأس من مسافة قريبة. وأكره الأطباء على استخراج شهادات وفاة تقول إن الضحايا ماتوا بعد وصولهم إلى المستشفيات.

كما ورد أن أعداداً كبيرة من حالات الإعدام شنقاً جرت في حرم جامعة الكويت، وكان ضحاياها أفراد يُشتبه في معارضتهم ضم العراق للكويت. وقد أعدم هؤلاء فوراً بعد اتهامهم بارتكاب جرائم جنائية.

ولئن كانت منظمة العفو الدولية لم تتمكن من التثبت من بعض هذه الأخبار من انتهاكات حقوق الإنسان، فإن هذه الأنباء جاءت من مصادر متعددة من داخل الكويت وخارجه.

وهذه التقارير تحكي قصة لا تناقض فيها عن انتهاكات تعضد ما لدى منظمة العفو الدولية من معلومات عن سجل العراق في حقوق الإنسان».

ومنظمة العفو الدولية تدين ما قامت به القوات العراقية من عمليات الإعدام الفوري، والإعدام الخارج عن نطاق القضاء، والتعذيب.

وتعارض المنظمة أيضاً استخدام عقوبة الإعدام، التي فُرضت لمعاقبة من يأوون رعايا الدول الغربية، أو يقومون بأعمال النهب والسلب، أو اختزان الأغذية لأغراض تجارية؛ إذ أعدم مواطن كويتي في شهر أيلول/سبتمبر لإيوائه مواطناً أمريكياً، كما أكدت السلطات العراقية أن ١٠ أفراد قد أعدموا حتى الآن بسبب النهب.

ولا تزال مئات عديدة من المواطنين الغربيين محتجزين في بغداد، أو في أماكن سرية أخرى في العراق، في حين منع غيرهم من مغادرة الكويت أو العراق. وتكرر منظمة العفو الدولية إعلان رأيها أن هذا الاحتجاز تعسفي ويشكل انتهاكاً لمبادئ حقوق الإنسان.

يُحظر نشر هذا البيان حتى الساعة ٠٠٠١ بتوقيت غرينتش من يوم الأربعاء الموافق ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠.

ملحوظة للسادة المحررين:

سوف يكون من المتعذر إجراء مقابلات مع أعضاء فريق منظمة العفو الدولية لتقصي الحقائق، خوفاً على سلامتهم وسلامة المصادر التي اعتمدوا عليها في الحصول على المعلومات.

IRAQI FORCES KILLINGS AND TORTURING IN KUWAIT, SAYS AMNESTY INTERNATIONAL FACT-FINDING TEAM

وثيقة من وثائق منظمة العفو الدولية تكشف فيها جرائم الغزو العراقي في الكويت .

تقديم

بقلم المحرر الضيف

يعاني الإنسان المعاصر في هذا العقد الأخير من القرن العشرين من ألوان مختلفة من الاضطرابات النفسية، وعلى رأسها القلق والاكتئاب، نتيجة لما يتعرض له من ضغوط، وما يهدد حياته وأمنه ومستقبله من أخطار. فتلوث الهواء والماء والطعام والبيئة التي يعيش فيها الإنسان أصبح حقيقة مهددة ومروعة، فقد كثرت حوادث انفجارات المفاعلات النووية كما تتدفق النفايات والكيماويات كل يوم في مياه البحار والمحيطات وأصبحت سحب الدخان التي تنفثها المصانع أو تنجم عن احتراق آبار النفط تهدد الإنسان بكثير من الأمراض والأخطار، هذا بالإضافة إلى الحروب والزلازل والبراكين والفيضانات والجفاف والمجاعات التي باتت تحصد أرواح البشر. ويزداد حظ الإنسان العربي من الهم والقلق والاكتئاب، بسبب ما تتعرض له الشعوب العربية والإسلامية من بطش وظلم واضطهاد، وما تعانيه من حروب وفتن داخلية كما يحدث في أفغانستان، أو من حروب قائمة على العنصرية كما يحدث في البوسنة والهرسك.

أما ما تعرض له الشعب الكويتي في صبيحة الثاني من أغسطس ١٩٩٠م فقد ضاعف الهم والقلق، وفرق النفوس وشتت القلوب. إن أساليب الغدر والخيانة والترويع والتنكيل والقتل والتشريد التي تعرض لها الكويتيون على يد جار عربي مسلم، يعتبر بكل المقاييس ردة أخلاقية، وامتهانا لكل القيم العربية والدينية، واغتصابا لحرمة الدم والمال والعرض التي كفلها ديننا الإسلامي الحنيف.

إن ضياع المال العربي، واستنزاف الثروة النفطية بسبب هذه المغامرة المجنونة، يعتبر خسارة فادحة لأمة يعاني الكثير من شعوبها وشبابها من الفقر والبطالة والضياع. ولكن الخسارة الأكبر والتي قد يكون من الصعب تعويضها تتمثل في صور الفرقة والانقسام والشك، وفقد الثقة والمودة، وقطع الروابط، وغرس جذور العداوة والبغضاء بين أبناء الأمة العربية التي وصفها الله في كتابه العزيز بقوله «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله» (آل عمران الآية ١١٠). ولكنها وللأسف الشديد فقدت شروط الأهلية التي حددها الله في كتابه الكريم.

لقد أدخل الغزو العراقي للكويت الأمة العربية في متاهات مظلمة لا يعلم إلا الله وحده كيف ومتى تخرج منها؟ فالخسارة المادية مهما عظمت يمكن تعويضها، ولكن الجراح النفسية، وتدمير بنية الشخصية، وإهدار الكرامة، واستباحة العرض، ومصادرة الهوية والحرية، قد يصعب أو يستعصى تعويضها أو علاجها.

هذه هي الحقيقة المرة التي تتحدى جهود المخلصين والمصلحين والباحثين من أبناء الأمة العربية. إن الكشف عن هذه الجراح النفسية وعن اضطرابات الشخصية وتشخيص أعراضها ومظاهرها، ووضع الأسس العلمية للرعاية والعلاج، هي رسالة المتخصصين والباحثين في علم النفس، وهي الهدف الأكبر الذي يجب أن تكرس من أجله كل الجهود، ويتوجه إليه كل الاهتمام. فالإنسان الكويتي بالنسبة للكويت هو الهدف والغاية، وهو الحاضر والمستقبل. وقد يكون تدبيج المقالات وعقد الندوات القائمة على التحليلات والتأملات النظرية، هنا وهناك أمرا مفيدا في المرحلة التي تلت التحرير، والتي يحتاج الناس فيها إلى التحدث عما وقع لهم من أحداث وآلام وإلى تبادل التعازي والمواساة.

أما التشخيص العلمي الموضوعي للاضطرابات النفسية التي نتجت عن الاحتلال أو ظهرت بالفعل لدى بعض أفراد المجتمع، أو التي يمكن أن تظهر في المستقبل، فيحتاج إلى الكثير من المعاناة في البحث الامبيريقي والميداني، وإلى كثير من ألوان الضبط العلمي، وكثير من الوقت والجهد والإمكانيات، حتى يمكن تقويم الواقع النفسي في المجتمع الكويتي تقويما موضوعيا، والتعرف على أبعاده، ووضع الخطط اللازمة لمواجهته.

إن دور البحوث النفسية لا يتوقف عند حد التشخيص والعلاج للاضطرابات الناتجة عن الاحتلال، ولكنها تستطيع أن تتصدى بالدراسة العلمية للدوافع العدوانية والعقد النفسية التي يصاب بها بعض القادة والحكام والطغاة وتدفع ثمنها الشعوب المسالمة أو المغلوبة على أمرها. فكثيرا ما يصاب بعض الرؤساء أو الزعماء بالعدوانية المرضية الشديدة، أو بأمراض العظمة أو الاضطهاد، أو بعقد النقص ومشاعر الدونية، ويجدون في أساليب التعذيب والإيذاء تنفيسا أو إشباعا لعدوانيتهم المرضية، وكثيرا ما تساق الشعوب التي تبتلى بأمثال هؤلاء القادة للدخول كالقطعان المغيبة عقولها في معارك وحروب طاحنة لا هدف لها في الحقيقة إلا إشباع تلك الدوافع العدوانية أو التنفيس عن مشاعر العظمة أو الاضطهاد، أو عن عقد النقص أو الدونية.

ويضم هذا العدد الخاص من مجلة عالم الفكر والـذي يطيب لنا أن نقدمه للقارىء الكريم في هذه المعـالجة عددا من البحـوث الأصيلة التي قـام بها نخبة من أعضـاء هيئة التـدريس بقسم علم النفس بجهودهم الفردية، وبدعم من إدارة الأبحاث بجامعة الكويت، وقد تحملوا أعباء إنجاز هذه البحوث بالإضافة إلى أعبائهم العلمية والتدريسية الأخرى إيمانا منهم برسالتهم وواجبهم وتعبيرا عن ولائهم للمجتمع الكويتي المسالم.

وأستطيع أن أقرر في تواضع أن هـذه المجموعة من البحوث تتميز بقـدر كبير من الموضوعية، كما أنها في مجموعها تحقق قدرا ملحوظا من التكامل والتنوع الذي يملأ كثيرا من الفراغ في هذه النوعية من البحوث الامبيريقية في الوقت الراهن. فبالرغم من أن كل باحث قد انفرد باختيار مشكلة بحثه، وتحديـد أهدافـه، وأبعاد ومتغيرات دراستـه إلا أنها في النهـاية جـاءت متكـاملة، حيث تنـاولت في مجموعها دراسة الأطفال والمراهقين والشباب والرجال وتناولت الذكور والاناث من جميع هذه المراحل العمريـة، كما أنها تناولت بالـدراسة من كانـوا داخل الكويت ومن كانـوا خارجها أثنـاء الاحتلال، وبينت الفروق بين هذه الفئات جميعا على ضوء متغيرات السن، والجنس، ومكان الإقامة، ومستوى الضغط النفسي الـذي تعـرض لـه البعض من أفـراد العينـة بسبب استشهـاد أو أسر بعض أعضـاء الأسرة. وقـد عقدت هـذه البحوث المقـارنات بين الفئـات المختلفـة مستخدمـة الأساليب العلميـة الملائمة.

ولقد تنوعت الأهداف التي تبناها الباحثـون بتنوع المشكلات التي تصدوا لها بالدراسة، ورغم ذلك فإنها في مجمـوعها تندرج داخـل إطار عام مشترك، وهـو البحث عن التأثيرات النفسيـة السلبية للعـدوان العراقي. ويبـدو هـذا التعدد والتنـوع واضحـا فيما طرحتـه البحـوث من إطارات علميـة تنظيرية، وفيما عرضته مـن دراسات وبحوث سابقة. فقد أشارت إلى النظـريات النفسية التي تفسر ظهور أعـراض ما بعـد الصدمـة سواء عقبها أو بعـد زمن قريب أو بعيـد، وقدمت في هـذا الصدد أحدث ما توصلت إليه الهيئات العلمية من تصنيفات للأعراض النفسية المرضية الناتجة عن صدمات الحروب والكوارث في مـراحل العمر المختلفـة، وقدمت مسحـا يكاد يكون شـاملا للـدراسات التي أجـريت على ضحايـا الحروب والحصار، ومعسكـرات الأسر والاعتقال. وتنـاولت تلك الدراسـات الأعراض التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية، وعن حرب فيتنام، والحرب الأهلية في لبنان، وتأثير الحصار الاسرائيلي لبيروت، وعدوانها على قرى الجنوب اللبناني، وتأثيرات حرب اكتوبر على الأطفال الذين فقـدوا آباءهـم في هـذه الحرب، كما أشارت إلى الـدراسات المحدودة التي أجـريت على بعض الأطفال الكويتيين غداة التحـرير، أو التي أجريت على بعض الطلبة الكويتيين الذيـن كانوا يقيمون بالقاهرة أثناء الاحتلال. وأشارت الدراسات السابقة التي عرضها الباحثون إلى بعض النماذج العلمية

أو الإطارات التنظيرية التي توضح العوامل الشخصية والاجتماعية والأسرية التي تؤثر في استجابة الفرد، وتحدد ردود فعله للصدمات النفسية ومدى تأثره أو عدم تأثره بها.

وقد بلغ حجم العينات التي أجريت عليها الدراسات التي بين أيدينا الفين وخمسين (٢٠٥٠) من الكويتيين من مختلف الفئات ومن مختلف مناطق مدينة الكويت، وهذا العدد وإن كان لا يكفي لتمثيل المجتمع الكويتي وتعميم النتائج التي توصل إليها الباحثون على جميع أفراده، إلا أنهاوضعت الأسس الموضوعية للبحث والدراسة التجريبية الامبيريقية في مجال التعرف على التأثيرات النفسية السلبية للاحتلال العراقي، وقدمت مؤشرات علمية دالة على وجود الاضطرابات النفسية بمختلف مظاهرها العقلية والوجدانية والسلوكية بين مختلف فئات الشعب الكويتي، وسجلت وجود الأعراض العصابية والذهانية واضطرابات الشخصية، ووجود الانحرافات السلوكية، وسوء التوافق الشخصي والاجتماعي. أما مدى انتشار هذه الأعراض، ومدى حدتها على مستوى الشعب الكويتي كله، فيحتاج إلى عينات وإلى جهود أكبر مما يستطيعه الباحثون الذين قدموا الدراسات الحالية معتمدين في الأساس على جهودهم وإمكاناتهم الشخصية المتواضعة.

ويكفيهم في هذا الصدد أنهم بما توصلوا إليه من نتائج يثيرون الاهتمام، ويدقون نواقيس الخطر، وينادون كل المعنيين بسلامة هذا المجتمع بضرورة الإسراع في إجراء البحوث الشاملة على أعداد وعينات كافية لتحديد حجم الاضطرابات وأبعادها على مستوى المجتمع الكويتي، ووضع الأسس العلمية للتشخيص والعلاج.

أما طرق البحث ومناهجه التي سار عليها الباحثون في دراساتهم التي بين أيدينا. فقد تنوعت أيضا وتعددت وشملت أدوات جمع البيانات العلمية اللازمة لإجراء الدراسات الحالية والاستفتاءات أو الاستبيانات التي أعدها بعض الباحثين وحققوا لها معايير الصدق والثبات، وشملت تلك الأدوات أيضا بعض القوائم العلمية لقياس الشخصية، والاكتئاب، والاضطرابات الجسمية النفسية، و اختبارات التوافق الشخصي والاجتماعي، ومقاييس القلق والعدوان. وكلها أدوات معربة ومقننة على المجتمع الكويتي في أغلب الأحيان.

وتنوعت كذلك أساليب التحليل الإحصائي أو المعالجة الإحصائية للمادة العلمية التي جمعها الباحثون. وشملت تلك الأساليب التحليل العاملي، والمتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية، واختبارات «ت» «وكا»[٢] للتعرف على الفروق بين الفئات المتنوعة التي أجريت عليها الدراسات على ضوء المتغيرات الديموجرافية المختلفة، كما شملت أيضا معاملات الارتباط.

أما النتائج التي توصل إليها الباحثون في كـل من الدراسات التي يضمها هذا العدد والحقائق التي كشفـوا عنها والاضطـرابـات النفسية التي رصـدوهـا، وبرامج الـرعـاية والعـلاج النفسي التي اقترحوها. فإنني أفضل أن أدع البحوث تتحدث في هذا الصدد عن نفسها.

وبعد فإنني أتـوجه باسم الباحثين إلى الأستـاذ الدكتور عبـدالله المهنا رئيس تحرير مجلـة عالم الفكر بالشكـر والعرفان، إذ لولاه لما كان ظهـور هذه الباكورة من البحوث الامبيريقيـة في هذا العدد الخاص من المجلـة أمـرا ممكنا. فقـد دعـا وسعى، ولقيت دعـوتـه استجـابة طيبـة كما كلل مسعـاه بالنجاح.

والله اسأل أن ينتفع المجتمع الكويتي بهذا الإسهام المتواضع، وأن تكون هذه البحوث خطوة إيجابية في طريق تحقيق أسباب الصحة النفسية للكويتيين.

والله ولي التوفيق،

التأثيرات السلبية المعرفية والانفعالية والسلوكية التي يعاني منها الكويتيون نتيجة للاحتلال العراقي

د. حامد عبد العزيز الفقي

مقدمة

يشهد الإنسان المعاصر في عالم اليوم أجواء مشحونة بالسحب السوداء التي تتهدد حياته ومستقبله . فالهواء الذي يتنفسه والطعام الذي يتناوله والماء الذي يشربه أصبح ملوثا من جراء التجارب والنفايات الذرية وانفجارات المفاعلات النووية واحتراق آبار البترول واصطدام ناقلاته الضخمة وما يترتب عليه من تدفق ملايين الأطنان منه في الخلجان والبحار والمحيطات، ومن جراء دخان المصانع في شتى بلاد العالم بصفة عامة والمصانع الكيماوية بصفة خاصة . ويزيد من قلق الإنسان المعاصر على حياته ومستقبله كثرة الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وفيضانات تجتاح بعض المجتمعات وانتشار الجفاف والمجاعات والأمراض التي تحصد أرواح الآلاف كل يوم في بعضها الآخر . وهكذا ضاقت الأرض على الإنسان المعاصر بما رحبت ، أضف إلى ذلك مظاهر العنف والإرهاب والمؤامرات والاغتيالات والظلم والخيانة والغدر وتحطيم كل القيم الدينية والأخلاقية الفاضلة سواء بين الأفراد والطوائف داخل المجتمع الواحد أو بين الدول والشعوب المتجاورة أو المتباعدة. حتى أصبح الإنسان المسالم يشعر وكأنه يعيش في غابة تسكنها وحوش بشرية ويسودها سلطان القوة ويحكمها قانون البطش والافتراس والسيطرة . ولعل من أسوأ الأمثلة على ما يحدث في عالم اليوم من جرائم وطغيان ما حل بالكويت في صبيحة الثاني من أغسطس ١٩٩٠ ، إنه ردة أخلاقية وخروج على قيم الأخوة والجوار والعروبة والقومية، وتمزيق للأواصر والروابط الاجتماعية والسياسية بين أبناء الأمة الواحدة، وضياع لثروة شعوبها واستنزاف لاقتصادها وغرس لبذور الشك والشقاق والانقسام والفرقة وإشعال لنار الفتنة والحرب بين أبنائها. لقد أدخل الغزو العراقي للكويت الأمة العربية في دهاليز ومتاهات مظلمة لايعلم إلا الله وحده كيف تخرج منها. إن الأمل الوحيد في تلمس طريق النجاة ينعقد على جهود الصفوة المخلصة الرشيدة من أبناء الأمة العربية

وعلمائها وباحثيها، إن المسؤولية الكبرى في التعرف على آثار ما حدث وأسبابه وأبعاده ونتائجه وعلى الدروس المستفادة منه تقع على أكتاف الباحثين والدارسين من أبناء الأمة في مجالات علم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والبيئة.والصحة وغير ذلك مما نالت منه أو طالته الأحداث المؤسفة.

مشكلة الدراسة

إن الدراسة الحالية تعتبر تلبية متواضعة لنداء الواجب وتعبيرا عن الإحساس بالمسؤولية وقد تمت صياغتها على النحو التالي:

ما التأثيرات السلبية المعرفية والانفعالية والسلوكية التي يعاني منها الكويتيون نتيجة للاحتلال العراقي؟ وتهدف الدراسة إلى رصد بعض التغيرات السلبية في الاتجاهات والقيم، وإلى التعرف على بعض الأعراض العصابية والفصامية والمظاهر السلوكية السلبية التي نتجت عن العدوان العراقي لدى أفراد العينة من الكويتيين. وهكذا تتحدد أهداف الدراسة في جانبين من التأثيرات النفسية السلبية وهما:

أ ـ التأثيرات المعرفية
ب ـ التأثيرات الانفعالية (عصابية أو فصامية أو سلوكية)

ويهدف الباحث من وراء هذا الرصد إلى التعرف جزئيا على حجم التأثيرات النفسية السلبية وتقدير مدى عمقها أو شدتها تمهيدا لتحديد البرامج العلاجية والإرشادية اللازمة لمواجهة المشكلات والأعراض والاضطرابات التي تكشف عنها الدراسة. وهناك هدف فرعي آخر ينبني على الهدف الأساسي المشار إليه وهو التعرف على ما إذا كانت هناك فروق ذات دلالة بين فئات العينة على ضوء متغيرات الجنس والسن والوجود داخل الكويت أو خارجها أثناء الغزو، وعلى ضوء مستوى الضغط النفسي الذي تعرض له بعض أفراد العينة أو أسرهم.

المصطلحات

تتناول مشكلة الدراسة التأثيرات المعرفية والانفعالية السلبية الناتجة عن العدوان العراقي. ويقصد بالتأثيرات المعرفية التغيرات السلبية التي حدثت في اتجاهات الكويتيين نحو من أيدوا العدوان العراقي أو ساندوه، وكذلك تغير النظرة إلى القيم التي لم يحترمها المعتدون مثل قيم الجوار

والأخوة الإسلامية والعروبة والقومية ونحوها. وقد يكون من المهم في الجانب المعرفي التعرف على بعض الخواطر والتصورات والتوقعات والأفكار التي دارت برؤوس الكويتيين في اللحظات الأولى لوقوع المفاجأة. أما التغيرات السلبية الانفعالية والسلوكية فيقصد بها بعض الأعراض العصابية أو الفصامية التي ظهرت بعد العدوان ويمكن اعتبارها ردود فعل للصدمات النفسية التي يطلق عليها بعض من الباحثين والدارسين لنتائج الحروب والكوارث «اضطرابات ما بعد الصدمة» (post traumatic stress disorders (PTSD) وتشمل الأعراض العصابية القلق المرتبط بما وقع من عدوان والمخاوف المرتبطة كذلك بمظاهر العدوان ونتائجه كالخوف من الخروج ليلا أو الفزع لسماع أصوات الانفجارات والطائرات أو عند رؤية جنود يشبهون قوات الغزو أو نحو ذلك من مظاهر الحرب. وتشمل الأعراض العصابية أيضا مظاهر الهستيريا وأعراضها البدنية النفسية التي ربما ظهرت نتيجة للعدوان كنوبات الصداع أو ارتفاع نسبة السكر أو ضغط الدم أو غيرها من الآلام البدنية التي ترجع إلى أسباب نفسية. وتشير الأعراض الفصامية إلى مظاهر الشك وعدم الثقة والشرود الذهني والسلوك الانسحابي وفقد الحماس للعمل والنشاط وضعف التركيز والاكتئاب والحزن وعدم الشعور بالبهجة ونحو ذلك من الأعراض المرتبطة بصدمة الاحتلال والعدوان. ويقصد بالمظاهر السلوكية السلبية الاشتراك في أعمال العنف أو حمل السلاح والعدوان على الأشخاص والأشياء أو إلحاق الأذى بالآخرين ونحو ذلك من مظاهر سوء التوافق. فالتعرف على هذه المظاهر المعرفية والأعراض العصابية أو الفصامية والمظاهر السلوكية السلبية هي محور اهتمام الدراسة الحالية. وهذا هو المقصود بمصطلح «التأثيرات السلبية» وتؤكد الدراسة على أن تكون هذه التأثيرات ناتجة عن الغزو العراقي ويقصد بالصدمة "Trauma" في هذه الدراسة الخبرة المؤلمة الناتجة عن أحداث وكوارث الغزو العراقي للكويت وهي صدمة انفعالية "EMOTIONAL SHOCK" يمكن أن تترك تأثيرات دائمة ومؤلمة نفسيا أو بدنيا.

ويوضح الدليل الإحصائي والتشخيصي الذي تصدره الهيئة الأمريكية للطب النفسي الطبعة الثالثة (١٩٨٧) المصطلح Posttraumatic Stress Disorders (اضطرابات ضغط ما بعد الصدمة) بالقول بأن الفرد يخبر «أي يمر» بخبرة أو حادثة تعتبر خارج مجال الخبرة الإنسانية العادية، وهذه الخبرة تؤلم أي شخص يتعرض لها. ومن أمثلتها التهديد الخطير لحياة الفرد أو حياة أولاده أو زوجته أو أسرته أو أقاربه أو أخص أصدقائه، أو التهديد لسلامة بدنه أو أعضاء جسمه بالجراحة أو التهشيم أو التشويه أو البتر، أو التخريب أو الإتلاف أو الهدم لمنزله أو ممتلكاته على أن يقع ذلك في صورة حادث أو هجوم مفاجىء (Johnson.(1989), pp. 33-61)

الإطار النظري

ينبني الإطار النظري المعاصر الذي يتناول عملية ردود الفعل للصدمة والتي غالبا ما تظهر عقبها بفترة طويلة نتيجة لمتغيرات نفسية أو شخصية أو بينية معينةعلى نظريتي علم النفس المعرفي والتعلم، وتستند بعض المناقشات العلمية حولها إلى كتابات فرويد (١٩٢٠ ـ ١٩٢٦ و ١٩٣٩) والتي يفترض فيها وجود حاجز نفسي واق يحول دون استحضار المصاب للصدمة. ويمثل هذا الحاجز العتبة التي يؤدي تجاوزها أو تصدعها إلى توقف وظائف مبدأ اللذة أو إلى نكوص الضحية إلى مستوى بدائي من السلوك المبكر مع معاناة الشعور بالعجز الكامل. والتكرار الاستحواذي للمعلومات والصور المؤلمة للحادث. وقد يلجأ إلى الحيل الدفاعية اتقاء ظهور مظاهر الخبرة المؤلمة في دائرة الوعي.

وتضع نظريتا المعرفة والتعلم ثلاث مراحل لردود أفعال ما بعد الصدمة. وتشتمل ردود أفعال المرحلة الأولى على الإنكار denialوالخدر أو الخدل numbness . وتمثل هذه المرحلةمن ردود الفعل حيلة دفاعية ـ كما أشار إليه فرويد ـ تهدف إلى منع ظهور صور ومظاهر أحداث الخبرة الصادمة في دائرة الوعي، وقد تقترن ردود الفعل هذه بأعراض اكتئابية كالشعور بالاغتراب أو الانعزال عن خبرات الحياة اليومية العادية. والمرحلة الثانية يتم فيها بالتدريج تمثل المعلومات والصور المرتبطة بالصدمة: ويرجع تأخر ظهور ردود الفعل للصدمات إلى أن عملية التمثل والتكامل المشار إليها تستغرق وقتا طويلا بعد الصدمة وهذا هو السبب في تأخر ظهور ردود الفعل للصدمات عند ضحايا أو مشوهي الحرب الفيتنامية، وقد تؤدي عملية التمثل والتكامل المشار إليها إلى ظهور الأحلام الليلية المفزعة أو أحلام اليقظة وتكرار الأفكار الاستحواذية والتقلب المزاجي والثورات الانفعالية وقد يحدث خلالها السلوك العدواني المتجه نحو الذات، والخوف من فقد الضبط للسلوك القهري. وهذه الأعراض لم تظهر على ضحايا الحرب الفيتناميين الا بعد عدة سنوات من عودتهم إلى الحياة المدنية.

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة يتم التكامل والتمثل ويؤدي ذلك إلى تحقق التوافق (Horowitz & solomon, 1975) إن الصعوبة في تحقيق عملية التمثل والتكامل ثم التوافق لدى ضحايا الحرب الفيتنامية أدى إلى ظهور بعض المشكلات النفسية لديهم مثل الشعور بالدونية والخجل وضعف الشخصية والإحباط والعجز.

أما النموذج المبني على نظرية التعلم فيقدم تبريرا عقلانيا لردود الفعل لما بعد الصدمة التي تأخذ صورا من الاكتئاب والمخاوف المرضية. ويقرر هذا النموذج إنها ردود أفعال متعلمة حيث يتعلم

الضحية من خبراته السابقة أنه ليس لديه ضبط للأحداث ولا قدرة على التنبؤ بها ويؤدي ذلك إلى تعلم العجز والاستسلام وبالتالي يؤدي إلى ضعف الدفاعية وإلى توقف الضحية عن إصدار استجابات توافقية. وتأخذ ردود الأفعال صورا من الانسحاب والانعزال والاكتئاب كبديل منطقي ، كما تصبح المخاوف والقلق نتيجة لإدراك العالم على أنه مصدر للتهديد وأنه لا يمكن ضبطه ولا التنبؤ به (Seligman, & Garber, 1980). وكلا النظريتين المعرفية والتعلم كما قدمهما هوروويتز وسلومون ١٩٧٥ وسيليجمان وجاربر ١٩٨٠ تركزان على أن ردود أفعال ما بعد الصدمة تشمل نوبات من معاودة أحداث الخبرة وخدر أو خدل يفقد الضحية الإحساس بها ثم حدوث أشكال متنوعة من مظاهر السلوك غير المتوافق.

الدراسات السابقة

١ ــ عقد كيندل جونسون Kandall Johnson (١٩٨٩) في كتابه " صدمة في حياة الأطفال Trauma In The Lives of Children " فصلا عن ردود أفعال الأطفال والمراهقين للصدمة (٣٣ ـ ٦١) أشار فيه إلى أن الأعراض التي ناقشها في هذا الفصل تعتمد على الملاحظات الأولية وعلى المقابلات الشخصية عقب التعرض للأحداث الخطيرة. كما قرر أنه لاحظ أن ردود فعل الأطفال للصدمة يتصف بالمبالغة سواء المبالغة في الاستجابة أو المبالغة في عدم الاستجابة وصنف الأعراض التي لاحظها في أربع مجموعات: عقلية وانفعالية وبدنية وسلوكية: وقد اعتمد على توجيه الأسئلة المباشرة إلى (٢٨)من المراهقين الذين تعرضوا لخبرات صادمة قبل توجيه الأسئلة إليهم بوقت قصير. وجميع أفراد العينة من المهددين بالطرد من المدارس، وغالبيتهم من المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتوسط وتشتمل خلفياتهم وخلفيات أسرهم على أحداث مختلفة تشمل الاغتصاب ومحاولات الانتحار والطلاق وموت الآباء أو الأصدقاء والعدوان عليهم من الآباء، وقرر ٣٦٪ من الإناث إنهن تعرضن للاغتصاب والعدوان الجنسي. وفيما يلي ردود أفعال هذه العينة حسب التصنيف الذي سبقت الإشارة إليه:

أعراض معرفية

١ ـ التشوش العقلي ـ صعوبات في حل المشكلات ـ تشوه مفهوم الزمن ـ صعوبة تنظيم أو ترتيب الأولويات ـ مشكلات الذاكرة.

٢- أعراض انفعالية

سرعة الاستثارة - الخوف - القلق - الإحباط - الغضب - الهستيريا .

٣- أعراض بدنية

خفقان القلب - الغثيان - التقلصات - العرق - نوبات الصداع - تشوش السمع .

٤- أعراض سلوكية

البطء في الأداء - التجول بدون هدف - السلوك غير المنضبط - الحركة الزائدة بدون هدف .

وقرر الباحث أن من بين ردود الأفعال السابقة ما يظهر عقب الصدمة بوقت طويل قد يبلغ عدة أعوام. وقد صنفها على النحو التالي :

أ- في المجال العقلي والمعرفي

تشوش الفكر - الخوف من الإصابة بالجنون - انشغال الفكر بالصدمة بصفة دائمة - التوجه الدائم نحو الماضي - الإنكار أو التجاهل للصدمة .

ب- في المجال الانفعالي

الخوف من تكرر حدوث الصدمة - المخاوف المرضية (phobia) - الحساسية الزائدة - الاكتئاب والحزن - الشعور بالذنب أو الكراهية للذات وتحقيرها - القلق على البدن أوالصحة - تجنب مكان حدوث الصدمة .

ج- في المجال البدني

الشعور بالتعب بسرعة - كثرة الشكوى من المرض - مشكلات في النوم .

د- في المجال السلوكي

السلوك المخرب للعقل أو الذات كالشرب وتعاطي المخدرات أو المواد الضارة - العزلة الاجتماعية - الحديث بصورة قهرية عن الصدمة - مشكلات مع الأسرة - مشكلات في العلاقات .

وأشار الباحث إلى أن العينة التي لاحظها وصنف ردود أفعالها عينة غير عادية حيث إن لها خلفيات من المشكلات المدرسية ومن تعاطي المخدرات ومن السلوك التخريبي وذلك قبل أن

تتعرض للصدمات المشار إليها . أما أسباب تأخر ظهور أعراض الصدمة لمدد تتراوح بين عدة شهور وعدة سنين فقد عقد لها المؤلف فصلا خاصا ليس من أهداف دراستنا هذه التعرض له .

٢ـ في نشرة علم النفس الدولي psychology International التي يصدرها مكتب الشؤون الدولية التابع للهيئة الأمريكية لعلم النفس كتب جيمس جاربارينو James garbarino رئيس معهد أريكسون بشيكاغو بأمريكا إنه ذهب إلى الكويت على رأس وفد من اليونيسيف UNISEF لتقويم التأثيرات النفسية للاحتلال العراقي والحرب على الأطفال وأشار إلى أنهم دخلوا مدينة الكويت مع القوات الأمريكية عقب انسحاب العراقيين في أول مارس ١٩٩١ وخلال الأيام الثلاثة التي قضاها بالكويت عقد مقابلات مع ٤٥ طفلا وطفلة منهم ٢٥ ذكرا و ٢٠ انثى تتراوح أعمارهم بين سن ٥ إلى ١٣ وأن هذه العينة وإن كانت غير عشوائية إلا أنها تمثل الأطفال الكويتيين كما قابل بعض آباء الأطفال وأقاربهم من الكبار البالغين . وأشار إلى أن الفريق اهتم بما شاهده أطفال العينة أثناء الاحتلال من أحداث وما مروا به من خبرات صادمة كالقتل والضرب بالقنابل وفقد أحد أعضاء الأسرة أو الأصدقاء بالقتل أو بالخطف . كما اهتم الفريق أيضا بالأعراض أو التأثيرات النفسية ذات الارتباط بالصدمة مثل تكرار الأحلام المفزعة ومثل المخاوف والتغيرات في السلوك أو في الشخصية والتغيرات في الطموحات بالنسبة للمستقبل . وقد طلب من الأطفال أن يرسموا صورا تعبر عن أسوأ أو أبشع ما شاهدوه أثناء الاحتلال ، كما سألوا الآباء عما لاحظوه من تغيرات في سلوك أطفالهم ومن مجموع هذه الملاحظات والمقابلات والرسومات استنتج الباحث أن ٦٢٪ من أفراد العينة عانوا من خبرات صادمة Traumatic ex- periances حيث شاهدوا الجثث التي كان العراقيون يعلقونها في الشوارع أو يلقونها أمام البيوت ويرفضون دفنها لمدة ١٢ ساعة بعد القتل ، وتحدث أفراد من أطفال العينة عن مشاهدتهم لحوادث فردية من القتل والأسر وضرب بعض المنازل بالقنابل ونحو ذلك . وقرر ٢٠ ٪ منهم أنهم فقدوا بعض أفراد أسرهم بالقتل أو بالأسر ، وقد تحدث الأطفال عن مخاوفهم المرتبطة بالأحداث التي شاهدوها كالخوف من بعض الأماكن أو الأشياء التي لم يكونوا يخافون منها من قبل ، وأشار الباحث إلى أن حوالي ٥٠٪ من أطفال العينة بدت عليهم أعراض ما بعد الصدمة كتكرار الأحلام المفزعة والمخاوف المعممة أو الانخراط في نوبات من البكاء أو المعاناة من اضطرابات النوم ، كما يخاف كثير منهم عودة العراقيين بسبب أن صدام حسين لا يزال موجودا على رأس النظام العراقي . وقد أبدى كل الأطفال الذكور تقريبا رغبتهم في أن يصبحوا جنودا عندما يكبرون كما أبدي معظم الإناث الرغبة في أن يصبحن طبيبات أو ممرضات أو مدرسات Summer, 1991 Psychology - International Vol . , 2 , NO . 3 .

٣ ـ قام جليل شكور وآخرون ١٩٩٢ بدراسة « عصاب الحرب في لبنان » بهدف تحديد النسبة المئوية لمن يعانون من العصاب نتيجة للحرب اللبنانية . وأشار الباحث إلى أن جميع الدراسات التي أجريت قبل دراسته على نتائج وآثار الحرب اللبنانية قد توصلت إلى نتائج متقاربة من حيث تحديد نسبة انتشار العصاب الصدمي في لبنان بما يتراوح بين ٦٠٪ و ٨٠٪ من اللبنانيين الذين كانوا داخل لبنان خلال سنوات الحرب الأهلية الطويلة . أما دراسة جليل شكور وآخرون والتي نعرضها في هذه السطور فقد ذهب الباحث إلى أنها أجريت بعد فترة من هدوء الأوضاع في لبنان والأمل في عودة السلام إلى ربوعه ، وقد أجرى دراسته على عينة عشوائية من مائة مواطن لبناني من مختلف الأعمار والطوائف والمناطق ودون تحديد لمتغيرات ديموجرافية معينة ، واعتمد الباحث في جمع المادة العلمية لدراسته على اختبار يطلق عليه « تحري عوارض الشدة عقب الصدمية في لبنان » من وضع محمد النابلسي كما اعتمد على المقابلات التشخيصية ، وأفادت نتائج الدراسة أن ٩٥٪ تعدد تعرضهم للصدمات وأن ٩٣٪ لا يزالون يعيشون الخبرات المؤلمة أي تتكرر ذكريات معايشة واستحضار صور معاناة آلام المحن التي تعرضوا لها . وأن ٨٣٪ كانت الأحداث التي تعرضوا لها مهددة لحياتهم وأن ٧٠٪ لا يزالون يعانون من الأعراض المرضية الناتجة عن الأحداث وأن ٧٠٪ لا يزالون يتجنبون الأماكن أو الأشياء المرتبطة بالمحنة وأن ٤٠٪ يعانون من مشاعر الذنب . شكور وآخرون (١٩٩٢) .

وإلى جانب ما تقدم فهناك عدد من الدراسات النظرية والندوات واللقاءات العلمية التي عقدتها الكليات والمؤسسات العلمية المتعددة في الكويت والتي ناقشت الآثار التي ترتبت على العدوان العراقي على الكويت من مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والبيئية والتربوية والنفسية والاجتماعية والتي يضيق المقام عن تناولها وحصرها . بالإضافة إلى أنها في مجملها تعتمد على ما شاهده المشاركون من الكويتيين في هذه اللقاءات بأنفسهم من أحداث وما تناقله الذين عاشوا تحت الاحتلال من حديث عن الخبرات الصادمة التي مروا بها ، كما تعتمد على تحليل الأحداث والمعلومات التي تبثها وكالات الأنباء ووسائل الإعلام العالمية والعربية والكويتية . وربما لم يتسع الوقت بعد منذ تم التحرير إلى الآن لإنجاز دراسات ميدانية تشخيصية ترصد حجم الآثار السلبية وتحدد مداها وتقترح برامج العلاج الملائمة . وتعتبر الدراسة الحالية محاولة متواضعة في هذا الصدد . وقد انتفعت الدراسة الحالية بما تم عرضه من دراسات سابقة . ففي تحديدها لمجالات الآثار السلبية المعرفية والانفعالية والسلوكية سارت على المنهج الذي اتبعه كيندول جونسون (١٩٨٩) من حيث تصنيفه لمجالات أعراض ما بعد الصدمة لضحايا الحرب الفيتنامية كذلك رصدت الدراسة الحالية الأعراض الصادمة التي تحدثت عنها بقية الدراسات

التي تم عرضها وصاغت من كل ذلك بنود الأداة العلمية التي اعتمدت عليها بعد تمحيصها في جمع مادة البحث .

طريقة البحث أو خطة الدراسة

المشكلة

التأثيرات السلبية المعرفية والانفعالية والسلوكية التي يعاني منها الكويتيون نتيجة للاحتلال العراقي .

الهدف

التعرف على التأثيرات السلبية كما تم توضيحها في تحديد المصطلحات تمهيدا لتقدير حجم المشكلات النفسية التي أحدثها العدوان بصفة مبدئية وكمرحلة أولية تتلوها دراسات أكثر عمقا في طبيعة هذه المشكلات وأساليب مواجهتها وتحديد البرامج العلاجية اللازمة . ويعتبر المنهج الوصفي ملائما لتحقيق الهدف المشار إليه .

وصف العينة

تم اختيار عينة عشوائية من الكويتيين من مختلف مناطق مدينة الكويت تضم فئات من الذكور والإناث ومن الصغار والكبار وممن كانوا داخل الكويت وخارجها أثناء الغزو وممن فقدت أسرهم بعض أفرادها أثناء الاحتلال بالقتل أو الأسر ونحوه .

وفيما يلي جداول تفصيلية لوصف العينة :

جداول وصف العينة حسب متغيرات الدراسة
العدد الكلي للعينة ٦٠٠ جميعهم من الكويتيين

جدول (١) يوضح توزيع العينة حسب متغيرات الداخل والخارج

	العدد	النسبة
من كانوا داخل الكويت أثناء الغزو العراقي	٥٠٤	٨٤٪
من كانوا خارج الكويت أثناء الغزو العراقي	٩٦	١٦٪

يلاحظ من جدول (١) أن الغالبية العظمى من أفراد العينة كانوا داخل الكويت أثناء الغزو العراقي وهذا يضفي على آرائهم صفة الشهود الذين عاشوا ولاحظوا وواجهوا الأحداث والمخاطر التي طلب منهم تحديد آثارها السلبية عليهم من النواحي العقلية والانفعالية والسلوكية.

جدول (٢) يوضح توزيع العينة حسب متغير السن

	العدد	النسبة
الأصغر من ٢٥ عاما	٣٧٩	٦٣,٢٪
الأكبر من ٢٥ عاما	٢٢١	٣٦,٨٪

يلاحظ من جدول (٢) أن عدد من يقع من أفراد العينة في مرحلة الشباب الذين يقل عمرهم عن ٢٥ عاما هم الغالبية. وهذا يعني أن هذه الغالبية كانت في مرحلة تعتبر أكثر استهدافا للتعرض للمخاطر والشعور بالخوف لأنها المرحلة التي ربما ينظر إليها المحتل على أنها مصدر المقاومة والتهديد لقواته. وهذا يجعل لإجاباتهم على أدوات جمع المادة العلمية أهمية خاصة.

جدول (٣) يوضح توزيع العينة حسب متغيري الجنس والسن

المتغيرات	العدد الكلي	النسبة ٪	عدد الأصغر من ٢٥	النسبة ٪	عدد الأكبر من ٢٥	النسبة ٪
مجموع الذكور	٢٤٩	٤١,٥	١١٩	٤٧,٨	١٣٠	٥٢
مجموع الإناث	٣٥١	٥٨,٥	٢٦٠	٤٧,٨	٩١	٢٥,٩

يلاحظ من جدول (٣) أن العدد الكلي لعينة الإناث أكثر من العدد الكلي لعينة الذكور وقد أدى ذلك إلى ارتفاع أعداد الإناث وتكراراتهم في التوزيعات المختلفة لأفراد العينة حسب مختلف

المتغيرات . وينبغي أن يؤخذ ذلك في الاعتبار عند تفسير نتائج الدراسة . ويلاحظ من الجدول أيضا أن عدد الذكور الأكبر من ٢٥ عاما أكثر من عدد الإناث الأكبر من هذا السن كما أن عدد الإناث الأصغر من ٢٥ عاما أكثر من عدد الذكور الأصغر من هذا السن وربما يؤدي اختلاف عدد أفراد كل من الجنسين في فئات السن الأصغر أو الأكبر من ٢٥ عاما إلى تداخل تأثير متغيري السن والجنس عند المقارنة بتأثير المتغيرات الأخرى للدراسة .

جدول (٤) يوضح توزيع أفراد العينة حسب متغيري الجنس والتعليم

المتغيرات	المتوسط	ثانوي	جامعي	فوق جامعي
عدد الذكور	١٣	٩١	١٣٠٠	١٥
نسبة الذكور	٥,٢٪	٣٦,٥٪	٥٢,٢٪	٦٪
عدد الإناث	١٦	١٨٠	١٥٠	٥
نسبة الإناث	٤,٦٪	٥١,٣٪	٤٢,٧٪	١,٥٪

يلاحظ من جدول (٤) أن نسبة الذكور من طلبة الجامعة أعلى من نسبة الإناث الجامعيات بالرغم من أن عدد الإناث الجامعيات أكثر من عدد الذكور الجامعيين وذلك يرجع إلى أن العدد الكلي لعينة الإناث أكبر كما سبقت الإشارة إليه . ويلاحظ أن عدد عينة الإناث من طلبة المرحلة الثانوية وكذلك نسبتهن المئوية أعلى من عدد ونسبة الذكور في هذه المرحلة وبصفة عامة فإن عدد العينة الجامعية وما فوق الجامعية من الجنسين أكثر من عدد العينة من طلبة المرحلة الثانوية من الجنسين كذلك حيث يبلغ العدد الجامعي وما فوقه من الجنسين ٣٠٠ فرد وعدد الثانوي ٢٧١ فردا . وقد يضفي هذا على الإجابات مزيدا من النضج .

جدول (٥) يوضح توزيع أفراد العينة حسب متغير الضغوط النفسية

الضغط النفسي المتوقع	العدد	النسبة	ملاحظات
مرتفع	١٤٦	٢٤,٣	أفراد العينة الذين أتوا من أسر بها شهيد أو أسير أو مفقود
منخفض	٤٥٤	٧٥,٧	أفراد العينة الذين أتوا من أسر ليس بها شهيد أو أسير أو مفقود

يلاحظ من جدول (٥) أن حوالي ٢٥٪ تقريبا من مجموع العينة الكلية التي تبلغ ٦٠٠ فرد ربما يعانون من ضغط نفسي مرتفع للأسباب المشار إليها في الجدول. وهذا يعني أنه لو عممت هذه النسبة على الشعب الكويتي لأمكن القول بأن هناك عددا كبيرا من الأسر الكويتية التي فقدت أحد أو بعض أفرادها بالقتل أو الأسر وهذا بدوره يوحي بوجود درجة كبيرة من الحزن والألم في المجتمع الكويتي الذي توجد روابط قرابة قريبة بين جميع أفراده بسبب تقاليد الزواج الداخلي بين الأسر وقرب عهده بالنظام القبلي الذي لا يزال يوجد الكثير من قيمه وعاداته.

الأداة

قام الباحث بوضع أداة تتكون من ثلاثة أقسام كما ألحق بالأقسام الثلاثة قائمة إيزنك للشخصية.

١ - القسم الأول يتكون من مجموعة من الأسئلة المفتوحة الطرف Open - end وهذا النوع من الأسئلة هو الأنسب لتحقيق أهداف هذا القسم والتي تتلخص في محاولة التعرف على تفسيرات المجيب من أفراد العينة لما حدث من عدوان والتعرف على ألوان التفكير والخواطر والتوقعات التي تحدث أثناء الصدمة وكذلك التعرف على اتجاهات وقيم أفراد العينة وما حدث فيها من تغيرات سلبية نتيجة للعدوان.

٢ - القسم الثاني يتكون من مجموعة من البنود والعبارات التي تعبر عن أعراض عصابية ومشكلات سلوكية استمدها الباحث من بعض المراجع العلمية المتخصصة في مجال الأمراض النفسية والإرشاد والعلاج النفسي ومن الدراسات السابقة التي تناولت أعراض ما بعد الصدمة كما سبقت الإشارة إليه. وقد صيغت بنود هذا القسم في صورة أسئلة مقفلة الطرف Closed-end

وهذا النوع هو الأنسب في تحديد وجود أو عدم وجود العرض كما أنه يقدم مادة أكثر ثقة نتيجة لقلة تدخل الباحث في حسابها.

٣ ـ القسم الثالث يتكون من مجموعة من الأعراض الفصامية التي استقاها الباحث على النحو الذي تقدم في القسم الثاني وهو من الأسئلة المقفلة الطرف أيضا للأسباب المشار إليها في القسم الثاني.

٤ ـ القسم الرابع والأخير يتكون من قائمة ايزنك للشخصية وهي أداة مقننة معروفة ومستخدمة في كثير من دراسات الشخصية. وقد أجريت دراسة استطلاعية على الأقسام الثلاثة الأولى من الأداة على عينة مماثلة بلغت مائة تم على أثرها إعادة صياغة بعض البنود وحذف بعضها تفاديا للبس أو التكرار. كما أجرى تحليل عاملي لبنود القسمين الثاني والثالث من الأداة اللذين يشتملان على الأعراض العصابية والفصامية المشار إليهما وذلك باستخدام طريقة المكونات الرئيسة Principal Component Analysis كما تم تدوير المحاور بطريقة الـ Varimax.

وقد كشف التحليل عن وجود سبعة عوامل محددة على النحو التالي:

العامل الأول

أ ـ بنود تشير إلى أعراض عصابية أو فصامية

ع٧ ـ القلق وعدم الاستقرار	,٦٦
ع ٨ ـ الملل وفقد الحماس	,٦٠
ف٤ ـ الذهول وعدم الانتباه	,٥٨
ع٦ ـ صعوبة التركيز الذهني	,٥٧
ع١٢ ـ التردد في اتخاذ القرار	,٥١
ف٣ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر	,٥٠
ع١ ـ فقد القدرة على ضبط النفس	,٤٨
ع١١ ـ سرعة النسيان	,٤٨
ف٥ ـ الميل إلى العزلة والوحدة	,٣٩
ع١٥ ـ الأرق وعدم الاستغراق في النوم	,٣٩

ع١٠ ـ التعرض كثيرا لنوبات الصداع	,٤٠
ع١٣ ـ سرعة الشعور بالتعب	,٤٣
ف٢ ـ فقد الثقة في كثير من الناس	,٣٦

ويلاحظ أن درجة تشبع البنود بالعامل الأول تتراوح بين ٣٦, ، ٦٦ ,

* يشير الحرف «ع» إلى أن البند يعبر عن عرض عصابي كما يشير الحرف «ف» إلى أنه يعبر عن عرض فصامي. والرقم المجاور للحرف هو رقم البند في القسم الخاص به في أداة جمع المادة العلمية.

العامل الثاني

ب ـ بنود تشير إلى أعراض بدنية نفسية Psychosomatic

ع ١٥ ـ الأرق وعدم الاستغراق في النوم	,٣٤
ع ١٧ ـ الشعور بآلام وأعراض بدنية	,٧٣
ع ١٦ ـ الإصابة ببعض أمراض الحساسية	,٦٤
ع ٩ ـ عدم الرغبة في تناول الطعام	,٥٣
ع ١٠ ـ التعرض لنوبات صداع كثيرة	,٤٩
ع ١٣ ـ سرعة الشعور بالتعب	,٤٦
ع ٢١ ـ تناول المهدئات والأدوية بكثرة	,٣٦

ويتراوح تشبع بنود الأعراض النفسية البدنية المشار إليها بين ٣٤, و٧٣, ويلاحظ أن البنود ع١٥، ع١٠، ع١٣ والتي يشير محتواها إلى أعراض الأرق وعدم الاستغراق في النوم، ونوبات الصداع المتكررة، وسرعة الشعور بالتعب تواردت أو ارتبطت بالعاملين الأول والثاني ففي الوقت الذي تعبر فيه عن العصاب فهي في نفس الوقت أعراض بدنية نفسية أو نفس بدنية.

العامل الثالث

ج ـ بنود يشير محتواها إلى ميول أو مظاهر سلوكية عدوانية

ع ١ ـ فقد القدرة على ضبط النفس ,٣٧
ع ٤ ـ الميل إلى العنف ,٧٦
ع ٢ ـ التصرفات العدوانية ,٧٤
ع ٣ ـ كثرة التوتر وسرعة الاستثارة ,٧١

يتراوح تشبع هذه البنود بين ٣٧, ، ٧٦, ويلاحظ أن البند ع ١ يتداخل فيه العاملان الأول والثالث لأنه في الوقت الذي يعبر فيه عن مظهر عصابي هو في نفس الوقت يعبر عن العجز عن ضبط العدوان.

العامل الرابع

د ـ بنود تشير إلى أعراض فصامية اكتئابية:
ف ٣ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر ,٣٢
ع ٩ ـ عدم الرغبة في تناول الطعام ,٣٣
ع ١٨ ـ فقد الشعور بالسعادة في الحياة ,٦٩
ف ٨ ـ الشعور باليأس أو الضيق بالحياة ,٦١
ع ٢٠ ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل ,٦٠

ويتراوح تشبع البنود التي يعبر محتواها عن أعراض اكتئابية بين ٣٢, ، ٦٩, ويلاحظ أيضا تداخل العامل الرابع في بعض البنود مثل ف ٣، ف٨ مع العامل الثاني في ع ٩ لأن كل بند منها له تعبيرات متعددة كما سبقت الإشارة إليه.

العامل الخامس

هـ ـ بنود يشير محتواهاإلى أعراض فصامية انسحابية

ع ١٢ ـ التردد في اتخاذ القرارات ,٣١
ف ١ ـ التهرب من المسؤوليات ,٦٥
ف ٩ ـ فقد الاهتمام بكل شيء ,٦٢

ع ٢١ ـ تناول الأدوية والمهدئات بكثرة ,٤١
ف ١٠ ـ قضاء الوقت أمام التلفاز أو ما شابه ذلك ,٣٨
ف ٥ ـ الميل إلى العزلة والوحدة ,٣١

ويتراوح تشبع البنود في العامل الخامس والتي يشير محتواها إلى أعراض انسحابية بين ٣١ , ، ٦٥ , . كما يوجد تداخل بين العامل الخامس وبعض العوامل الأخرى في بعض هذه البنود الانسحابية .

العامل السادس

و ـ بنود يشير محتواها إلى أعراض فصامية

ف ٣ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر ,٢٣
ف ٦ ـ الكره الشديد لغير الكويتيين والخليجيين ,٧٢
ف ٧ ـ توقع الشر والأذى والعدوان ,٦٦
ف ٢ ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس ,٤٠
ف ١٠ ـ قضاء الوقت أمام التلفاز أو ما شابه ذلك ,٣٥

ويتراوح تشبع البنود في العامل السادس بين ٢٣ , ، ٧٢ , . كما يلاحظ تداخل أكثر من عامل في بعض البنود كما سبقت الإشارة إليه .

العامل السابع

ز ـ بنود يشير محتواها إلى أعراض القلق والخوف

ع ٢٠ ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل ,٣٣
ع ١٩ ـ الفزع عند سماع أصوات الانفجارات ,٧٦
ع ١٤ ـ الخوف من الخروج ليلا ,٦٩

ويتراوح تشبع البنود في العامل السابع بين ٣٣ , ، ٧٦ , . ويمكن القول بناء على ما سبق بأن البنود الخاصة بجمع المادة العلمية للتعرف على الأعراض النع ـابة ء الفصامة النـاتجة عن العدوان

العراقي لدى أفراد عينة الدراسة تربط بينها عوامل ذات تشبعات مقبولة تجعلها في نهاية الأمر أداة على درجة لا بأس بها من حيث الصدق .

المعالجة الإحصائية

أ ـ بالنسبة للأعراض العصابية والسلوكية تم استخراج النسب المئوية لظهور تلك الأعراض لدى أفراد العينة نتيجة للغزو العراقي وحساب قيم كا^2 للفروق في هذه الأعراض حسب :

١ ـ متغير الضغط النفسي المرتفع والمنخفض

٢ ـ متغير الداخل والخارج مع ضبط متغيري الجنس والعمر في الحالتين .

ب ـ بالنسبة للأعراض الفصامية تم استخراج النسب المئوية لظهور تلك الأعراض لدى أفراد العينة نتيجة للغزو العراقي وحساب قيم كا^2 للفروق في هذه الأعراض حسب :

١ ـ متغير الضغط النفسي المرتفع والمنخفض

٢ ـ متغير الداخل والخارج مع ضبط متغيرى الجنس والعمر في الحالتين

ج ـ بالنسبة لقائمة ايزنك تم تحليل التباين واستخراج قيم «ف» للفروق بين درجتي الانبساطية وبين درجتي العصابية قبل الغزو وبعده لدى الذكور من أفراد العينة حسب :

١ ـ متغير الضغط النفسي المرتفع والمنخفض

٢ ـ متغير الداخل والخارج مع ضبط متغيرى الجنس والعمر في الحالتين

د ـ تم تحليل التباين واستخراج قيم «ف» للفروق بين درجتي الانبساطية وبين درجتي العصابية قبل الغزو وبعده لدى الإناث من أفراد العينة على النحو الذي سبق مع عينة الذكور.

أما بالنسبة للقسم الأول من الأداة والخاص بالتعرف على التغيرات المعرفية السلبية فسوف يتم تصنيف وتجميع الإجابات على الأسئلة المفتوحة الخاصة بهذا القسم على ضوء التشابه في المحتوى والمضمون أو الفكرة العامة لكل مجموعة من الإجابات .

العرض والمناقشة

بعد أن تم عرض المشكلة وتحديد الأهداف وتوضيح المصطلحات وتقديم الإطار النظري والدراسات السابقة وشرح خطة الدراسة ووصف العينة والأداة وأساليب المعالجة الإحصائية الملائمة تم فيما يلي عرض النتائج الخاصة بالتأثيرات السلبية للعدوان العراقي في تفكير ووجهات نظر الكويتيين من أفراد العينة وفي قيمهم واتجاهاتهم وتوقعاتهم كما تم عرض الجد اول الإحصائية الموضحة للاضطرابات النفسية والأعراض العصابية أو الفصامية الناتجة عن العدوان وذلك على ضوء الدراسات السابقة وعلى ضوء متغيرات العمر والجنس والداخل والخارج والضغط النفسي المرتفع والمنخفض وغير ذلك مما تناولته الدراسة .

القسم الأول : التأثيرات المعرفية

يشتمل هذا القسم على إجابات العينة على ثمانية أسئلة من النوع المفتوح الطرف الذي سبقت الإشارة إليه في الخطة . وقد تم تصنيف الإجابات في مجموعات على ضوء التشابه في المضمون العام لها كما تم تخصيص جدول لكل سؤال على النحو التالي :

جدول (٦) يوضح الإجابات عن السؤال الأول

س١	ما الذي توقعت أن يحدث لك ولأسرتك عندما فوجئت باحتلال العراق للكويت؟	التكرارات	النسبة ٪
أ	توقعت القتل أو الأسر أو الطرد ـ التعذيب ـ انتهاك الأعراض ـ ضياع الهوية الكويتية .	٣٤٢	٪٥٧
ب	أصبت بالذهول وتوقف التفكير والجمود والحيرة وقت المفاجأة .	٢٥٨	٪٤٣

يلاحظ من جدول (٦) أن أفراد العينة تعرضوا لخبرة مهددة لحياتهم وحياة أسرهم ووجودهم وهويتهم . وكانت توقعات الغالبية وخواطرهم مؤلمة كتوقعات من ينتظر الحكم بالإعدام. أما المجموعة التي قررت أنها أصيبت بتوقف التفكير وبالذهول لحظة المفاجأة فيتفق ما حدث لها مع ما سجلته الدراسات السابقة من الأعراض المعرفية للصدمة والتي يصاب فيها الضحية بأعراض من الخدر أو الشعوري أو الانفعالي أو العقلي الذي يدل على الإنكار وعدم القدرة على تقبل ما وقع (johnson ١٩٨٩)

جدول (٧) يوضح مجموعات الإجابات عن السؤال الثاني

س٢	ما الأفكار التي خطرت لك لحظة المفاجأة لحماية نفسك وأسرتك؟	التكرارات	النسبة ٪
أ	خطر لي عدم المواجهة مع المحتل ومحاولة الخروج بالأسرة من الكويت ـ الاختفاء بالقدر المستطاع عن أعين جنود الاحتلال وعدم الاحتكاك بهم ـ التجمع مع الأسرة والأقارب في أماكن آمنة معظم الوقت ـ الصبر والتصرف بحكمة وهدوء ـ الالتجاء إلى الله بالدعاء وقراءة القرآن ـ تأمين الطعام والماء والدواء ـ تأمين النوافذ والأبواب وتخزين الضروريات.	٤٦٩	٪٧٩
ب	خطر لي ضرورة المواجهة وجلب السلاح أو المشاركة في المقاومة أو في العصيان المدني وعدم التعامل مع المعتدي وتضليله وعدم مغادرة الكويت والتشبث بالأرض والصمود في وجه العدوان.	١٠٦	٪١٧
ج	إخفاء الهويات والأموال والمجوهرات والممتلكات أو المقتنيات الهامة وتأمين الضروريات.	٢٥	٪٤

يلاحظ من جدول (٧) أن الإجابات في البند (أ) تشير إلى أن الغالبية من أفراد العينة كانت الأفكار التي خطرت لها لحظة المفاجأة تتسم باليأس وتعبر عن العجز الذي شعر به أفراد العينة العزل من السلاح حينما وجدوا أنفسهم أمام جنود مدججين بالسلاح يحيطون بهم من كل جانب فتوجهوا إلى الله بالدعاء لأنه سبحانه هو القوة المطلقة التي تتضاءل أمامها أية قوة . وهذا التوجه إلى الله في ساعات العجز المطلق يزود المؤمن بالسند النفسي والأمن الانفعالي الذي لولاه لحدث الانهيار الكامل

والتصرف الأهوج الذي يضيع بسببه كل شيء. ومن الطبيعي في حالات الصدمة المفاجئة أن يكون تفكير الفرد مركزا حول نفسه وأولاده وأسرته وحول السبل التي يستطيع بها أن يجنبهم الهلاك ويؤمن بها حياتهم وسلامتهم بقدر المستطاع. وهذا ما فكرت فيه الغالبية العظمى من أفراد العينة وتبلغ نسبتها ٧٩٪ وهناك قلة تبلغ نسبتها ١٧٪ خطرت لها أفكار المجابهة والمقاومة سواء بالسلاح أو بالعصيان المدني ونحوه من ألوان المقاومة السلبية. وفضلت هذه النسبة عدم مغادرة الكويت والتشبث بالأرض كلون من المقاومة.

وهناك قلة من أفراد العينة لاتتجاوز ٤٪ خطر لها أن تقاوم بطريقة ذكية تستطيع من خلالها إخفاء المستندات والسجلات أو التسجيلات سواء الشخصية أو الخاصة بالمؤسسات التي تعمل فيها. وكان لهذا اللون من التفكير فضل كبير في سرعة عودة مؤسسات الدولة ومرافقها إلى ماكانت عليه عقب التحرير.

جدول (٨) يوضح الإجابة عن السؤال الثالث

س٣	ما المواقف التي تعرضت فيها للخطر نتيجة للاحتكاك المباشر مع جنود الاحتلال؟	التكرارات	النسبة ٪
أ	حرصت على عدم الاحتكاك بجنود الاحتلال	٢١٦	٪٣٦,١
ب	عند مروري بنقاط التفتيش (السيطرة) بالشوارع والطرقات	١٧٧	٪٢٩,٥
ج	عند محاولة جنود الاحتلال دخول بيتي بدعوى التفتيش عن أسلحة أو رجال مقاومة أو عند محاولتهم سرقة السيارات من أمام المنازل.	١٢١	٪٢٠,٥
د	عندما كنت اضطر إلى الخروج ليلا ـ عندما اشتركت في مسيرات ـ أثناء محاولة الخروج من الكويت ـ بسبب حمل الهوية الكويتية أو النقود الكويتية ورفض العراقية ـ بسبب رفض طلبات الجنود العراقيين القيام بتوصيلهم إلى أماكن معينة وتزويدهم بالطعام أو أشياء أخرى.	٨٦	٪١٣,٩

يلاحظ من الإجابات في جدول (٨) أن كثيرا من الصدمات أو الخبرات الخطيرة التي تعرض لها الكويتيون الذين كانوا بالداخل أثناء الغزو العراقي كانت نتيجة لأمرين: اضطرار الكويتيين بالداخل إلى الخروج من منازلهم لتدبير شؤون حياتهم والسعي على رزقهم والتردد على الأسواق لشراء طعامهم وحاجياتهم،والأمر الثاني هو استغلال الجنود العراقيين لتلك الظروف لإرغام الشعب الكويتي على الاستسلام أو التسليم بالواقع وحمل الهويات والنقود العراقية وتنفيذ الأوامر والتعليمات التي تصدرها سلطات الاحتلال وإلا حرموا من ضروريات الحياة،ورغم ذلك فإن الغالبية من أفراد العينة حرصت على عدم الاحتكاك بجنود الاحتلال كما يتضح من الجدول. ولقد انطوت أساليب الجنود العراقيين في حمل الكويتيين على الاستسلام على كثير من ألوان التهديد والعدوان والإذلال والتعذيب فضلا عن التهديد الدائم لحياتهم وأعراضهم وأمنهم. ولاشك أن التعرض لخبرات التهديد والمهانة والإذلال والإحباط أثناء فترة الاحتلال كفيل بإحداث جراح نفسية غائرة في نفوس من تعرضوا لها ومن الممكن أن تعبر تلك الخبرات المؤلمة عن نفسها في صور من الأعراض السلوكية السلبية كالعنف والعدوان وحمل السلاح أو الاحتفاظ به وكالرغبة في الانتقام. ولما كان المحتل قد انسحب فقد تتوجه الرغبة في الانتقام أو تنتقل إلى أهداف بديلة وهذا ما يعبر عنه بالنقل أو الإزاحة Displacement وهي حيلة نفسية يلجأ إليها البعض عندما يتعذر عليه الانتقام من المصدر الأصلي للتهديد أو الإحباط (حامد الفقي ١٩٨٤). وحتى الذين كتموا أو كبتوا هذه الخبرات في نفوسهم ولم تظهر أعراضها في سلوكهم حتى الآن ليسوا بمأمن من الاضطراب الانفعالي أو السلوكي في المستقبل كما أشارت إليه الدراسات السابقة في الحديث عن أعراض ما بعد الصدمة.

جدول (٩) يوضح الإجابة عن السؤال الرابع

س٤	ما وجهة نظرك في التعامل مع الذين ساندوا العدوان العراقي؟	التكرارات	النسبة ٪
أ	أفضل محاولة توعيتهم بالحوار والإقناع ودحض وتفنيد الأكاذيب والادعاءات الباطلة للنظام العراقي ـ أفضل التسامح والعفو ـ أرى ضرورة العمل على تصفية النفوس.	٣٥٥	٪٥٥,٩
ب	أرى قطع العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية معهم ومقاطعة منتجاتهم ومطالبتهم بما لديهم من ديون وعدم مساعدتهم وعدم الثقة فيهم.	٢٦٥	٪٤٤,١

يلاحظ أن إجابات المجموعة (أ) في جدول (٩) والتي تعبر عن رأي الغالبية من أفراد العينة تفيد أن هذه الغالبية قد أدركت موقف الذين ساندوا العدوان العراقي على أنه كان نتيجة لعملية تضليل خبيثة ونتيجة لشعارات خادعة وادعاءات باطلة واستغلال لأوضاع اقتصادية متردية في بعض البلاد العربية ولذا فقد فضلت هذه الغالبية معالجة هؤلاء المخدوعين المضللين بالحوار والمنطق والإقناع وتفنيد الادعاءات وتوضيح الحقائق وكشف الخداع والزيف ودعت هذه الغالبية إلى الصفح والتسامح.

أما إجابة المجموعة (ب) بالجدول فتفيد بأن المجموعة التي تبلغ نسبتها ٤٤,١٪ وهي غالبية لا يستهان بها قد أدركت موقف هؤلاء الذين ساندوا العدوان على أنه موقف يكشف عن اتجاهات الغدر والخيانة والكراهية والعدوان، ويعبر عن التنكر لكل القيم الدينية والاجتماعية والقومية وقيم الجوار والأخوة الإسلامية والعربية والقومية وغيرها. ولذا رأت هذه المجموعة ضرورة معاقبة الدول والشعوب التي ساندت المعتدي بالمقاطعة وعدم الثقة وعدم التعامل أو التعاون معهم حكومات وأفرادا. وتدل إجابة هذه المجموعة على التغيرات السلبية التي حدثت في قيم واتجاهات فريق كبير من الكويتيين. كما تدل إجابة المجموعتين (ا، ب) بالجدول على الانقسام الخطير الذي أحدثه العدوان في الآراء والاتجاهات والقيم ليس بين الكويتيين فقط ولكن بين الشعوب والدول العربية.

جدول (١٠) يوضح الإجابة عن السؤال الخامس

س ٥	ما وجهة نظرك في ضمان أمن الكويت في المستقبل؟	التكرارات	النسبة ٪
ا	أرى ضرورة بناء جيش قوي - تدعيم الأمن الداخلي - مراقبة الحدود وتلغيمها بعد ترسيمها - ضبط التركيبة السكانية - العمل على زيادة أعداد الشعب الكويتي - الالتفاف إلى مصالح الكويت فقط دون سواها - التمسك بالدين - التسلح بالعلم - التحقق من معرفة من هو العدو ومن هو الصديق.	٣٨٤	٦٤٪
ب	السعي من أجل إقامة قاعدة أمريكية انجليزية بالكويت السعي من أجل توفير الحماية الدولية - بناء قوة خليجية وضع قوات للأمم المتحدة بين الكويت والعراق.	٢١٦	٣٦٪

تعبر إجابة الأغلبية في جدول (١٠) (أ) عن تصور مؤداه أن ضمان أمن الكويت في المستقبل يجب أن يعتمد على الداخل وعلى القوة الذاتية للكويتيين سواء أكانت مادية تتمثل في بناء جيش قوي وتحصين الحدود وتدعيم الأمن الداخلي والتقليل من أعداد غير الكويتيين أوما يعبر عنه بضبط التركيبة السكانية والالتفات إلى مصالح وقضايا الكويت فقط دون سواها أو كانت القوة الذاتية معنوية تتمثل في العلم والمعرفة والتمسك بالدين والتدقيق في معرفة من هو العدو ومن هو الصديق.

وترى غالبية محدودة تبلغ ٣٦٪ من العينة وهي المجموعة (ب) في الجدول السابق أن ضمان أمن الكويت في المستقبل ينبغي أن يعتمد على القوى الخارجية الغربية أو الدولية. ولم تشر أي من المجموعتين إلى تصور آخر غير الاعتماد على القوة لتأمين المستقبل وهذا يدل على أن الخبرة المؤلمة التي عاناها الكويتيون من جراء العدوان العراقي قد أفقدتهم الأمل في وجود سلام بين الدولتين الجارتين على المدى غير القصير، ولاشك أن فقدان الأمل في السلام بين العراق والكويت يثير القلق وعدم الاستقرار في نفوس الكويتيين، وقد يكون لذلك انعكاسات سلوكية ونفسية سلبية لأن الشعور بالأمان والطمأنينة والاستقرار من أهم وأقوى الدوافع الإنسانية ولاشك أن تهديدها قد يؤدي إلى انعكاسات خطيرة.

جدول (١١) يوضح الإجابة عن السؤال السادس

س ٦	ما وجهة نظرك فيما يتعلق بحل النزاع بين الكويت والعراق على المدى الطويل؟	التكرارات	النسبة ٪
ا	لايوجد حل غير القضاء على النظام الحالي في العراق وتدمير أسلحته.	٥١٥	٪٨٥,٨
ب	إقامة اتفاق ينهي النزاع على الحدود عن طريق الأمم المتحدة ويتضمن عودة الأسرى وعدم التدخل في الشئون الداخلية وتضمن الأمم المتحدة تنفيذه واحترامه.	٨٥	٪١٤,٢

يلاحظ من جدول (١١) أن إجابات المجموعة (أ) وهي التي تمثل الأغلبية المطلقة لأفراد العينة توحي باليأس من الوصول إلى حل قريب للنزاع بين الكويت والعراق، وتنسجم الإجابة في هذا الجدول مع ما سبق عرضه في جدول (١٠) من أفكار تتعلق بضمان أمن الكويت في المستقبل. وترى

المجموعة (ب) في الجدول(١١) السابق وهي قلة ضئيلة من أفراد العينة تبلغ ١٤,٢٪ أنه من الممكن فرض سلام يتضمن ترسيم الحدود والالتزام بعدم العدوان تحت إشراف الأمم المتحدة التي تضمن تنفيذه. والإجابة في المجموعتين (ا، ب) تعلقان حل النزاع على أمور غير مضمونة على الأقل في المدى المنظور لأن القضاء على النظام الحالي في العراق وعلى الأيديولوجية البعثية التي تلقن للأجيال الجديدة فيه والتي تقوم على الادعاء بأن الكويت جزء لايتجزأ من العراق أمر قد يستغرق أجيالا كما أن المتغيرات الدولية والتغير في موازين القوى العالمية تجعل ضمانات الأمم المتحدة غير ثابتة أو عرضة للتغير، ولذا فإن الأمر من وجهة النظر الموضوعية يحتاج إلى مزيد من التفكير، كما أنه من الناحية النفسية مثير للقلق.

جدول (١٢) يوضح الإجابة عن السؤال السابع

س٧	ما الدروس التي يجب أن يتعلمها كل كويتي من المحنة من وجهة نظرك؟	التكرارات	النسبة ٪
ا	الاستعداد الدائم للطوارىء والتسلح بالعلم والمعرفة وعدم الإسراف في الإنفاق والصبر وعدم اليأس.	٥٣٦	٨٩,٤٪
ب	عدم استبعاد احتمال تكرار العدوان وبالتالي ينبغي فتح حسابات في الخارج، وشراء مساكن في بلاد أكثر أمنا واستثمار الأموال في الخارج كذلك لتأمين المستقبل.	٦٤	١٠,٦٪

يلاحظ من جدول (١٢) أن إجابة الغالبية العظمى من أفراد العينة تدل على هدوء النفس والتعقل وتدعو إلى التفاؤل مع الاستعداد للطوارىء كأحد الدروس المستفادة والقصد في الإنفاق والتسلح بالعلم وكلها إيجابيات ينبغي تأكيدها على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع. ولكن إجابة الأقلية في (ب) تعكس مشاعر القلق والتشاؤم والخوف وتوقع تكرار العدوان. ولعل السبب في هذه النزعة التشاؤمية يرجع إلى أن المعتدي لايزال موجودا يردد ادعاءاته الباطلة ويكرر تهديداته من حين لآخر. وهذا التهديد المستمر من جانب النظام العراقي بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه في مناقشة الجدول السابق رقم (١١) من تغيرات محتمله في موازين القوى الدولية نتيجة لتعارض مصالحها الاقتصادية والسياسية هو المسؤول عن حالة القلق المسيطر على هذه القلة وعما يترتب عليه من نقل الأموال والاستثمارات خارج الكويت فضلا عما قد يسببه من أعراض سلوكية سلبية.

جدول (١٣) يوضح الإجابة عن السؤال الثامن

س٨	ماالدروس التي يمكن أن تستفيدها دولة الكويت من المحنة من وجهة نظرك؟	التكرارات	النسبة ٪
ا	الاعتماد على معاهدات الأمن مع الأمريكان والإنجليز والفرنسيين لحماية الكويت والتعاون مع الدول الأخرى التي ساهمت في تحرير الكويت إلى جانب الاهتمام ببناء القوة الذاتية الكويتية في الجوانب المختلفة .	٣٨٢	٪٦٣,٧
ب	الاعتماد على الكوادر الكويتية وبناء الفرد الكويتي وإزالة الفوارق بين الفئات وتحقيق المساواة من أجل تحقيق التماسك والتلاحم بين فئات الشعب وطوائفه .	٢١٨	٪٣٦,٣

تدل إجابة أفراد العينة في المجموعتين (ا،ب) على أن الدروس التي يمكن أن تستفيدها دولة الكويت من المحنة تنحصر في جانبين أساسيين: حماية أمن الكويت وأرضه من العدوان الخارجي، والاهتمام بالأوضاع الداخلية وتماسك المجتمع . وترى الغالبية في (أ) أن الجانب الأول يعتمد تحقيقه على الارتباط مع الدول الغربية الكبرى بمعاهدات أمنية وترى المجموعة الأقل أن الدروس يجب أن تنصب على إزالة الفوارق وتحقيق التلاحم والترابط ولاشك أن الاهتمام بالجانبين أمر ضروري بل أن تأمين الكويت وحمايتها من العدوان الخارجي يعتمد في الأساس على تماسك الجبهة الداخلية وتلاحمها .

وهكذا تدل المناقشة السابقة على أن الغالبية التي كانت بالداخل عاشت فترة تتوقع فيها القتل أو الأسر أو الطرد في أية لحظة وتعاني من الشعور بالعجز المطلق وهي تقف عزلاء أمام عدو يفوقها عددا وعدة ولذا فقد فضلت عدم المجابهة ولاذت بالصبر ولم تيأس من رحمة الله وتحملت المهانة والإذلال في كثير من مواقف الحياة اليومية العادية وهي تسعى لتأمين لقمة العيش، ومع ذلك فقد فضلت الغالبية اتباع سبيل الحكمة والإقناع والجدال بالتي هي أحسن مع من ساندوا العدوان ولكن فريقا لايستهان بحجمه من أفراد العينة أعلن كراهيته وبغضه لهم وعدم ثقته فيهم ونادى بعدم التعاون معهم بأي صورة ولم يعد لقيم الأخوة والجوار والعروبة والقومية أي مضمون عملي أو سلوكي في نظرهم . وفضلت الأغلبية نتيجة لفراغ القيم المشار إليها من مضمونها بسبب العدوان تأمين مستقبل الكويت عن طريق بناء القوة الذاتية وعقد المعاهدات الأمنية مع أمريكا وانجلترا وفرنسا حيث إنه لا أمل في حل النزاع مع العراق من وجهة نظر الأغلبية .

وتعكس الآراء والأفكار السابقة للعينة في مجملها وجود آلام نفسية دفينة في قلوب الكويتيين ووجود تغيرات معرفية سلبية في اتجاهاتهم وقيمهم التي سبقت الإشارة إليها كما تكشف عن وجود قلق على المستقبل ويأس من الوصول إلى نهاية للنزاع الحالي مع العراق ومثل هذه المشاعر والمخاوف والتوقعات كفيلة بإحداث الاضطرابات والأعراض النفسية العصابية أو الفصامية وهذا ما سوف نتناوله بالمناقشة في القسم التالي من الدراسة.

جدول (١٤) يوضح النسب المئوية لظهور الأعراض العصابية والسلوكية لدى أفراد العينة ممن كانوا داخل الكويت ومن كانوا خارجها ويوضح قيمة "كا^2" للفروق في هذه الأعراض حسب متغيري الداخل والخارج مع ضبط متغيري العمر والجنس.
(عدد العينة الكلية ٦٠٠ ـ عدد الذكور ٢٤٩ ـ عدد الإناث ٣٥١)

(أ) الذكور

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين		الذكور الأصغر من ٢٥ عاما العدد ١١٩			الذكور الأكبر من ٢٥ عاما العدد ١٣٠		
عدد العينة التي كانت بالداخل ٥٠٤ عدد العينة التي كانت بالخارج ٩٦ من الجنسين		النسب المئوية لظهور الأعراض ٪			النسب المئوية لظهور الأعراض ٪		
البنود الدالة على الأعراض العصابية والسلوكية :		مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا^2	مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا^2
١	فقد القدرة على ضبط النفس.	٤١,٤	٥٠,٠	٠,٢٢٤	٣٤,٧	٣٧,٠	٠,٣٨٧
٢	التصرفات والميول العدوانية.	٢٤,٣	٢٥,٠	٠,٠٠١	٢٧,٢١	٢٥,٩	٠,٠١٧
٣	كثرة التوتر وسرعة الاستثارة.	٢٩,٧١	٢٥,٠	٠,٠٨٠	٣٩,٨	٢٢,٢	٢,٨٦٥.
٤	الميل إلى العنف.	٢٠,٧	٢٥,٠	٠,٠٨٢	٢١,٤	١٤,٨	٠,٥٧٢
٥	التساهل الشديد مع الأطفال.	٣٧,٨	٣٧,٥	,٠٠٠٣	٣١,١	١٨,٥	١,٦٥٤
٦	صعوبة التركيز الذهني والعقلي.	٤٧,٧	٦٢,٥	٠,٦٥٠	٣٥,٩	٤٨,١	١,٣٥٠
٧	القلق وعدم الاستقرار.	٥٥,	٦٢,٥	٠,١٧٢	٥١,٥	٤٨,١	٠,٠٩٣

٨	الملل وفقد الحماس في العمل والنشاط .	٤٧,٧	٢٥,٠	١,٥٥٣	٤٧,٦	٤٨,١	٠,٠٠٢
٩	عدم الرغبة في تناول الطعام .	٤٩,٥	٦٢,٥	٠,٥٠٠	٢٨,٢	٣٣,٣	٠,٢٧٧
١٠	التعرض لنوبات الصداع كثيرا .	٣٧,٨	٣٧,٥	,٠٠٠٣	٢٤,٣	٣٣,٣	٠,٩٠٩
١١	سرعة النسيان .	٥١,٤	٣٧,٥	٠,٥٧٣	٣٥,٠	٣٧,٠	٠,٠٤٠
١٢	التردد في اتخاذ القرارات .	٤١,٤	٢٥,٠	٠,٨٣٨	٢٨,٢	٤٠,٧	١,٥٩٠
١٣	سرعة الشعور بالتعب .	٣٧,٨	٥٠,٠	٠,٤٦٥	٢٧,٢	٢٩,٦	٠,٠٦٣
١٤	الخوف من الخروج ليلا .	٢٩,٧	٢٥,٠	٠,٠٨٠	٢٤,٣	٣٣,٣	٠,٩٠٩
١٥	الأرق وعدم الاستغراق في النوم .	٥٥,	٢٥,٠	٢,٦٨٧	٣٥,٩	٣٣,٣	٠,٠٦٢
١٦	الإصابة ببعض أعراض الحساسية .	٢٣,٤	٢٥,٠	٠,٠١٠	١٣,٦	١١,١	٠,١١٦
١٧	الشعور بآلام وأعراض بدنية .	٢٤,٣	٥٠,٠	٢,٥٥٤	٢٢,٣	١٤,٨	٠,٧٣٤
١٨	فقد الشعور والإحساس بالسعادة .	٤٥,	٣٧,٥	٠,١٧١	٣٦,٩	٢٩,٦	٠,٤٩٤
١٩	الفزع عند سماع أصوات الانفجارات .	٥٤,١	٢٥,٠	٢,٥٢٤	٤٤,٧	٤٤,٤	,٠٠٠٤
٢٠	القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل .	٦٩,٤	٧٥,٠	٠,١١٢	٦٢,١	٧٤,١	١,٣٣٣
٢١	تناول الأدوية والمهدئات بكثرة	١٥,٣	٠٠٠	١,٤٢٩	١١,٧	٣,٧	١,٥٠١

(ب) الإناث

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين	الإناث الأصغر من ٢٥ عاما العدد ٢٦٠			الإناث الأكبر من ٢٥ عاما العدد ٩١		
عدد العينة التي كانت بالداخل ٥٠٤ عدد العينة التي كانت بالخارج ٩٦ من الجنسين	النسب المئوية لظهور الأعراض ٪			النسب المئوية لظهور الأعراض ٪		
البنود الدالة على الأعراض العصابية والسلوكية :	مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا٢	مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا٢

١	فقد القدرة على ضبط النفس.	٦١,٧	٥٨,٧	٠,١٤٢	٥٥,٣	٣٣,٣	٢,٤١٣
٢	التصرفات والميول العدوانية.	٣٦,٠	٣٤,٨	٠,٠٢٤	٣٢,٩	٢٠,٠	٠,٩٧٧
٣	كثرة التوتر وسرعة الاستثارة.	٣٦,٩	٤١,٣	٠,٣١٠	٣١,٦	٤٠,٠	٠,٤٠٢
٤	الميل إلى العنف.	٢٣,٤	٢١,٧	٠,٠٥٦	٢١,١	١٣,٣	٠,٤٧٠
٥	التساهل الشديد مع الأطفال.	٣٧,٤	٣٧,٠	٠,٠٠٢	٣٤,٢	٠,٢٠	١,١٦٥
٦	صعوبة التركيز الذهني والعقلي.	٦٥,٤	٦٣,٠	٠,٠٩٤	٥٠,٠	٤٠,٠	٠,٥٠٢
٧	القلق وعدم الاستقرار.	٧٢,	٦٠,٩	٢,٢١٨	٦٤,٥	٥٣,٣	٠,٦٦٤
٨	الملل وفقد الحماس في العمل والنشاط.	٦٢,٦	٥٤,٣	١,٠٨٩	٤٨,٧	٢٦,٧	٢,٤٥٣
٩	عدم الرغبة في تناول الطعام.	٤٩,١	٥٢,٢	٠,١٤٦	٣٩,٥	٢٦,٧	٠,٨٧٧
١٠	التعرض لنوبات الصداع كثيرا.	٥٠,٠	٥٤,٣	٠,٢٨٦	٤٠,٨	٢٠,٠	٢,٣١٣
١١	سرعة النسيان.	٦٤,٠	٤٧,٨	٤,١٧٨	٥٧,٩	٥٣,٣	٠,١٠٦
١٢	التردد في اتخاذ القرارات.	٥٦,١	٤٧,٨	١,٠٣٩	٣٩,٥	٥٣,٣	٠,٩٨٩
١٣	سرعة الشعور بالتعب.	٤٧,٧	٤٧,٨	,٠٠٠٤	٤٤,٧	٤٦,٧	٠,٠١٨
١٤	الخوف من الخروج ليلا.	٥٥,٦	٥٦,٥	٠,٠١٣	٦٠,٥	٤٠,٠	٢,١٥٥
١٥	الأرق وعدم الاستغراق في النوم.	٥٦,٥	٥٨,٧	٠,٠٧١	٤٦,١	٤٠,٠	٠,١٨٥
١٦	الإصابة ببعض أعراض الحساسية.	٣١,٨	٢١,٧	١,٨١٦	١٧,١	٦٠,٠	**١٢,٥٧٤
١٧	الشعور بآلام وأعراض بدنية.	٣٧,٤	٣٧,٠	٠,٠٠٢	٢٣,٧	٢٠,٠	٠,٠٩٥
١٨	فقد الشعور والإحساس بالسعادة.	٥١,٩	٥٨,٧	٠,٧٠٨	٤٧,٤	٢٦,٧	٢,١٧٩
١٩	الفزع عند سماع أصوات الانفجارات.	٧٠,١	٧١,٧	٠,٠٤٩	٧٢,٤	٨٠,	٠,٣٧٥
٢٠	القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل.	٨٠,٤	٨٢,٦	٠,١٢٢	٦٩,٧	٧٣,٣	٠,٠٧١
٢١	تناول الأدوية والمهدئات بكثرة	١٧,٣	٢١,٧	٠,٥٠٦	١١,٨	١٣,٣	٠,٠٢٦

** دال عند مستوى ٠١.

القسم الثاني (١) الأعراض العصابية والسلوكية

يلاحظ في جدول (١٤) بالنسبة للذكور الأصغر من ٢٥ عاما أن أعلى خمسة أعراض عصابية وسلوكية شيوعا بين من كان منهم داخل الكويت أثناء الغزو العراقي هي على الترتيب :

١ ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل ٤ , ٦٩٪ .
٢ ـ القلق وعدم الاستقرار بصفة عامة ٥٥٪ .
٣ ـ الأرق وعدم الاستغراق في النوم ٥٥٪ .
٤ ـ الفزع عند سماع أصوات الانفجارات ١ , ٥٤٪ .
٥ ـ سرعة النسيان ٤ , ٥١٪ .

اما بالنسبة لمن كان منهم خارج الكويت أثناء الغزو فإن أعلى خمسة أعراض شيوعا بينهم هي :

١ ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل ٧٥٪
٢ ـ القلق وعدم الاستقرار بصفة عامة ٥ , ٦٢٪
٣ ـ صعوبة التركيز العقلي ٥ , ٦٢٪
٤ ـ عدم الرغبة في الطعام ٥ , ٦٢٪
٥ ـ الشعور بآلام وأعراض بدنية ٥٠٪

ويلاحظ أن قيم كا^2 تدل على عدم وجود فروق ذات دلالة بين المجموعتين على ضوء متغير الداخل والخارج إلا أنه يلاحظ أن القلق على المستقبل والقلق وعدم الاستقرار بصفة عامة يحتلان المركزين الأول والثاني لدى المجموعتين. وتنفرد مجموعة الداخل بكثرة شيوع الأرق وعدم الاستغراق في النوم وبالفزع عند سماع أصوات الانفجارات. وربما يعود ذلك إلى الخبرات التي مرت بها جماعة الداخل كما تنفرد جماعة الخارج بشيوع الآلام والأعراض البدنية بينها .

أما بالنسبة للذكور الأكبر من ٢٥ عاما فإن أكثر أو أعلى الأعراض شيوعا بين مجموعة الداخل منها تشمل :

١ ـ القلق على المستقبل ١ , ٦٢٪
٢ ـ القلق وعدم الاستقرار بصفة عامة ٥ , ٥١٪

كما يشيع بين مجموعة الخارج منها :

١ ـ القلق على المستقبل ١ , ٧٤٪

وتدل قيم كا٢ على عدم وجود فروق بين فئتي الداخل والخارج من الذكور الأكبر من ٢٥ عاما. ويلاحظ أن القلق على المستقبل هو العرض العصابي العام المشترك والأكثر شيوعا بين فئتي الداخل والخارج من الذكور سواء أصغر أو أكبر من ٢٥ عاما.

ويلاحظ من جدول (١٤) بالنسبة للإناث الأصغر من ٢٥ عاما أن أعلى خمسة أعراض شيوعا بين مجموعة الداخل منهن تشمل:

١ ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل ٤ , ٨٠٪
٢ ـ القلق وعدم الاستقرار بصفة عامة ٧٢٪
٣ ـ الفزع عند سماع الانفجارات ١ , ٧٠٪
٤ ـ صعوبة التركيز الذهني والعقلي ٤ , ٦٥٪
٥ ـ سرعة النسيان ٦٤٪

وتكاد تتطابق الأعراض بين مجموعتي الداخل من الذكور والإناث الأصغر من ٢٥ عاما كما يتضح من القوائم السابقة

أما الإناث الأصغر من ٢٥ عاما اللاتي كن خارج الكويت فإن أعلى خمسة أعراض شاعت بينهن كانت كالتالي:

١ ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل ٦ , ٨٢٪
٢ ـ الفزع عند سماع صوت الانفجارات ٧ , ٧١٪
٣ ـ صعوبة التركيز العقلي ٦٣٪
٤ ـ القلق وعدم الاستقرار ٩ , ٦٠٪
٥ ـ فقد الإحساس بالبهجة في الحياة ٧ , ٥٨٪

وهناك عرضان لهما نفس النسبة من الشيوع

٦ ـ الأرق وعدم الاستغراق في النوم ٧ , ٥٨٪
٧ ـ فقد القدرة على ضبط النفس ٧ , ٥٨٪

ويلاحظ أن قيم كا² لا تدل على وجود فروق دالة على ضوء متغير الداخل والخارج بين الإناث الأصغر من ٢٥ عاما.

كما يلاحظ أن أعراض القلق تتصدر قائمة الأعراض العصابية لدى الإناث الأصغر من ٢٥ عاما كما تصدرت الأعراض الأخرى كذلك لدى الذكور من نفس السن بصرف النظر عن الداخل والخارج.

ومن الغريب أن يتشابه أهل الداخل والخارج في العرض الخاص بالفزع عند سماع صوت الانفجارات مما يدل على أن الفزع المشار إليه يعتبر رد فعل طبيعي وليس عصابيا أو أنه نتيجة لوجود عرض رئيسي آخر وهو القلق الذي يكاد يعاني منه الجميع.

ويلاحظ من جدول (١٤) بالنسبة للإناث الأكبر من ٢٥ عاما أن أعلى خمسة أعراض شيوعا بين مجموعة الداخل منهن تشمل:

١ ـ الفزع عند سماع أصوات الانفجارات ٧٢,٤٪

٢ ـ القلق وعدم الأطمئنان على المستقبل ٦٩,٧٪

٣ ـ القلق وعدم الاستقرار بصفة عامة ٦٤,٥٪

٤ ـ الخوف من الخروج ليلا ٦٠,٥٪

٥ ـ سرعة النسيان ٥٧,٩٪

أما بالنسبة لمجموعة الخارج من نفس السن فإن أعلى خمسة أعراض شيوعا بينهن تشمل:

١ ـ الفزع عند سماع أصوات الانفجارات ٨٠٪

٢ ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل ٧٢,٣٪

٣ ـ الإصابة ببعض أعراض الحساسية ٦٠٪

٤ ـ القلق وعدم الاستقرار بصفة عامة ٥٣,٣٪

٥ ـ سرعة النسيان ٥٣,٣٪

ويحتل الفزع لسماع أصوات الانفجارات المركز الأول بين الإناث الأكبر من ٢٥ عاما بصرف النظر عن متغير الداخل والخارج مما يؤكد أن هذا العرض نتيجة للقلق العام الذي يشيع بين جميع الفئات والقلق العصابي له تأثيراته السلبية انفعاليا وفكريا وسلوكيا (حامد الفقي ١٩٩٠).

ويلاحظ أن قيم كا^2 لا تدل على وجود فروق ذات دلالة على ضوء متغير الداخل والخارج بالنسبة لمجموعة الإناث الأكبر من ٢٥ عاما اللهم إلا في العرض الخاص بالإصابة ببعض أعراض الحساسية فإن هناك فرقا ذا دلالة عند مستوى ٠,٠١ بين مجموعتي الداخل والخارج حيث يشيع هذا العرض بين جماعة الخارج مما يوحي بأنه يعود إلى أسباب نفسية ولو كانت أسبابه تعود إلى تلوث البيئة بالكويت بآثار حرائق النفط لكان أجدر أن يظهر بكثرة لدى جماعة الداخل ولكن ما حدث هو العكس.

جدول (١٥) يوضح النسب المئوية لظهور الأعراض الفصامية لدى أفراد العينة ممن كانوا داخل الكويت أو خارجها ويوضح قيمة كا^2 للفروق في هذه الأعراض حسب متغيرات الداخل والخارج مع ضبط متغيري العمر والجنس.

(عدد العينة الكلية ٦٠٠ ـ عدد الذكور ٢٤٩ ـ عدد الإناث ٣٥١)

(١) الذكور

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين		الذكور الأصغر من ٢٥ عاما العدد ١١٩			الذكور الأكبر من ٢٥ عاما العدد ١٣٠		
عدد العينة التي كانت بالداخل ٥٠٤ عدد العينة التي كانت بالخارج ٩٦ من الجنسين		النسب المئوية لظهور الأعراض %			النسب المئوية لظهور الأعراض %		
البنود الدالة على الأعراض الفصامية:		مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا^2	مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا^2
١	التهرب من مواجهة المسؤوليات والمشكلات	١٥,٣	—	١,٤٢٩	١٧,٥	٣٣,٣	٣,٢٦٩
٢	فقد الثقة والشك في كثير من الناس	٥٣,٢	٦٢,٥	٠,٢٦٢	٥٦,٣	٤٤,٤	١,٢١٢
٣	الشعور بالحزن دون سبب ظاهر	٥٥,٠	٣٧,٥	٠,٩١٥	٣٥,٩	٤٠,٧	٠,٢١٣
٤	الذهول أو الشرود وعدم الانتباه	٥٤,١	٥٠,٠	٠,٠٤٩	٤٢,٧	٣٧,٠	٠,٢٨٤
٥	الميل إلى العزلة أو الوحدة	٣١,٥	٥٠,٠	١,١٥٥	٢٤,٣	٢٩,٦	٠,٣٢٤

م	البنود	مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا٢	مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا٢
٦	الكره الشديد لغير الكويتيين أو الخليجيين	٦٤,٠	٥٠,٠	٠,٦٢٤	٤١,٧	٣٣,٣	٠,٦١٣
٧	توقع الشر والأذى والعدوان	٣٢,٤	١٢,٥	١,٣٨٣	٢٢,٣	٢٩,٦	٠,٦٢٧
٨	الشعور باليأس أو الضيق بالحياة	٣٠,٦	٢٥,٠	٠,١١٢	١٧,٥	١٤,٨	٠,١٠٧
٩	فقد الاهتمام بكل شيء	٢٤,٣	٢٥,٠	٠,٠٠١	١٤,٦	٢٥,٩	١,٩٦٥
١٠	قضاء الوقت أمام التلفاز أو ما شابه ذلك	٣٦,٩	٥٠,٠	٠,٥٤٢	١٧,٥	٣٧,٠	٤,٨٤٤*

* دال عند مستوى ٠٥, ٠

(ب) الإناث

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين		الإناث الأصغر من ٢٥ عاما: العدد ٢٦٠			الإناث الأكبر من ٢٥ عاما العدد ٩١		
عدد العينة التي كانت بالداخل ٥٠٤ عدد العينة التي كانت بالخارج ٩٦ من الجنسين		النسب المئوية لظهور الأعراض ٪			النسب المئوية لظهور الأعراض ٪		
البنود الدالة على الأعراض الفصامية:		مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا٢	مجموعة الداخل (١)	مجموعة الخارج (٢)	قيمة كا٢
١	التهرب من مواجهة المسؤوليات والمشكلات	٢٨,٥	١٧,٤	٢,٣٩٨	٢٥,٠	٢٦,٧	٠,٠١٨
٢	فقد الثقة والشك في كثير من الناس	٧١,٠	٨٢,٦	٢,٥٨٠	٦٧,١	٨٠,٠	٠,٩٧٧
٣	الشعور بالحزن دون سبب ظاهر	٦٦,٨	٨٠,٤	٣,٢٩٤	٥٦,٦	٦٠,٠	٠,٠٥٩
٤	الذهول أو الشرود وعدم الانتباه	٦٧,٣	٧١,٧	٠,٣٤٥	٤٧,٤	٦٦,٧	١,٨٦٦

٥	الميل إلى العزلة أو الوحدة	٤١,٦	٤٧,٨	٠,٦٠٢	١٨,٤	٤٠,٠	٣,٤٠١
٦	الكره الشديد لغير الكويتيين أو الخليجيين	٦٩,٢	٧١,٧	٠,١١٩	٥٢,٦	٦٠,٠	٠,٢٧٤
٧	توقع الشر والأذى والعدوان	٤٥,٨	٣٧,٠	١,١٩٨	٢٨,٩	٣٣,٣	٠,١١٥
٨	الشعور باليأس أو الضيق بالحياة	٣٩,٧	٣٠,٤	١,٣٨٤	٢٢,٤	٢٦,٦	٠,١٣٠
٩	فقد الاهتمام بكل شيء	٢٩,٠	٣٤,٨	٠,٦٠٨	٢٢,٤	٢٦,٧	٠,١٣٠
١٠	قضاء الوقت أمام التلفاز أو ما شابه " '	٢١,٥	١٧,٤	٠,٣٨٧	١٧,١	٣٣,٣	٢,٠٧٩

يلاحظ من جدول (١٥) السابق بالنسبة للذكور الأصغر من ٢٥ عاما أن الأعراض الفصامية التي تزيد نسبة شيوعها عن ٥٠٪ بين مجموعة الداخل منهم تشمل على الترتيب ما يلي :

١ ـ الكره الشديد لغير الكويتيين أو الخليجيين ٦٤٪

٢ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر ٥٥٪

٣ ـ الذهول و الشرود وعدم الانتباه ٥٤,١٪

٤ ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس ٥٣,٢٪

أما بالنسبة لمجموعة الخارج منهم فتشيع بينهم الأعراض التالية على الترتيب :

١ ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس ٦٢,٥٪

٢ ـ الكره الشديد لغير الكويتيين أو الخليجيين ٥٠٪

٣ ـ الميل إلى العزلة والانفراد ٥٠٪

٤ ـ الذهول والشرود وعدم الانتباه ٥٠٪

٥ ـ قضاء معظم الوقت أمام التلفاز ونحوه ٥٠٪

ويلاحظ أن قيم " كا^2 " لا تدل على وجود فروق ذات دلالة بين مجموعتي الداخل والخارج من الذكور الأصغر من ٢٥ عاما في الأعراض الفصامية .

ويلاحظ أيضا من القوائم الأعراض التي شاعت بين اكثر من ٥٠٪ من المجموعتين وهي " الكره الشديد لغير الكويتيين " و " الشك وعدم الثقة في كثير من الناس " و " الذهول والشرود وعدم الانتباه " وهي أعراض فصامية مشتركة بين الذكور الأصغر من ٢٥ عاما .

أما بالنسبة لعينة الذكور الأكبر من ٢٥ عاما فإن الأعراض الفصامية التي تزيد نسبة شيوعها بين مجموعة الداخل منهم تنحصر في " فقد الثقة والشك في كثير من الناس ٣, ٥٦٪ " . أما مجموعة الخارج منهم فلم توجد لديهم أعراض فصامية تزيد نسبة شيوعها عن ٥٠٪ بينهم . وتدل قيمة " كا٢ " على عدم وجود فروق ذات دلالة بين مجموعتي الداخل والخارج من الذكور الأكبر من ٢٥ عاما إلا في عرض انسحابي واحد وهو " قضاء معظم الوقت أمام التلفاز ونحوه " حيث يوجد فرق دال بينهما عند مستوى ٠٥, .

أما بالنسبة لعينة الإناث الأصغر من ٢٥ عاما فإن الأعراض الفصامية التي تزيد نسة شيوعها عن ٥٠٪ بين المجموعة التي كانت داخل الكويت أثناء الغزو فتشمل على الترتيب :

١ ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس ٧١٪
٢ ـ الكره الشديد لغير الكويتيين والخليجيين ٢, ٦٩٪
٣ ـ الذهول والشرود وعدم الانتباه ٣, ٦٧٪
٤ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر ٨, ٦٦٪

أما بالنسبة للمجموعة التي كانت خارج الكويت أثناء الغزو من الإناث الأصغر من ٢٥ عاما فقد شاعت بينهن الأعراض الفصامية التالية :

١ ـ فقد الثقة في كثير من الناس ٦, ٨٢٪
٢ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر ٤, ٨٠٪
٣ ـ الذهول والشرود وعدم الانتباه ٧, ٧١٪
٤ ـ الكره الشديد لغير الكويتيين والخليجيين ٧, ٧١٪

هذا ولا تدل قيم " كا٢ " على وجود فروق ذات دلالة بين مجموعتي الداخل والخارج من الإناث الأصغر من ٢٥ عاما .

وبالنسبة للإناث الأكبر من ٢٥ عاما يتضح من جدول (١٥) السابق أن الأعراض الفصامية التي تزيد نسبة شيوعها عن ٥٠٪ بين مجموعة الداخل منهن تشمل ما يلى على الترتيب :

١ ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس ١, ٦٧٪
٢ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر ٦, ٥٦٪
٣ ـ الكره الشديد لغير الكويتيين وغير الخليجيين ٦, ٥٢٪

أما مجموعة الخارج منهن فقد شاعت الأعراض الفصامية التالية بين أكثر من ٥٠٪ منهم على الترتيب :

١ ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس ٨٠٪
٢ ـ الذهول والشرود وعدم الانتباه ٦٦,٧٪
٣ ـ الكره الشديد لغير الكويتيين والخليجيين ٦٠٪
٤ ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر ٦٠٪

ولا تدل قيم " كا² " كذلك على وجود فروق بين مجموعتي الداخل والخارج من الإناث الأكبر من ٢٥ عاما ويلاحظ من القوائم السابقة المستمدة من جدول (١٥) والتي تشيع بنسبة أكبر من ٥٠٪ لدى مجموعات الداخل والخارج الذكور منهم والإناث أن صدمة احتلال الكويت ومساندة بعض الأنظمة العربية للمحتل قد أحدثت أعراضا فصامية لدى الغالبية من أفراد العينة حيثما كانوا وأفقدتهم الثقة وملأت قلوبهم بالشك في كثير من الناس وبالكراهية كذلك لغير الكويتيين وغير الخليجيين وأصابتهم بألوان من الأعراض الفصامية التي قد تختلف في نسبة شيوعها وحدتها لدى الأفراد، فالشك الفصامي وفقد الثقة، والكراهية العنصرية، والشرود أو عدم الانتباه، والحزن دون سبب ظاهر، وغيرها مما سبق ذكره يؤكد الحاجة الملحة إلى برامج نفسية علاجية وإلى لون من الإعلام العلاجي والبرامج التربوية العلاجية، وغير ذلك من البرامج والخدمات النفسية الفردية والجماعية ذلك لأن الأعراض تتسم بالشيوع وبالتالي ينبغي الاستعانة بالبرامج العلاجية الجماعية إلى جانب العلاج الفردي للحالات الشديدة.

جدول (١٦) يوضح النسب المئوية لظهور الأعراض العصابية والسلوكية لدى أفراد العينة نتيجة للغزو العراقي ويوضح قيمة "كا²" للفروق في هذه الأعراض حسب متغير الضغط النفسي المرتفع والمنخفض مع ضبط متغيري العمر والجنس.
(عدد العينة الكلية ٦٠٠ ـ عدد الذكور ٢٤٩ ـ عدد الإناث ٣٥١)

(أ) الذكور

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين	الذكور الأصغر من ٢٥ عاما : العدد ١١٩	الذكور الأكبر من ٢٥ عاما : العدد ١٣٠

م	عدد عينة الضغط المرتفع ١٤٦ عدد عينة الضغط المنخفض ٤٥٤ من الجنسين	النسب المئوية لظهور الأعراض ٪			النسب المئوية لظهور الأعراض ٪		
	البنود الدالة على الأعراض العصابية والسلوكية	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض	قيمة كا ٢	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض	قيمة كا ٢
١	فقد القدرة على ضبط النفس .	٦٠,٠	٣٩,٤	٢٠,٧٨ **	٣٨,٩	٤٢,٩	,١٠٠٠
٢	التصرفات والميول العدوانية .	٥٣,٣	٢٠,٢	٧.٨١٢	٤٤.٤	٢٤,١	٣,٢٦٠
٣	كثرة التوتر وسرعة الاستثارة .	٤٠,٠	٢٧,٩	٠,٩٢٦	٥٥,٦	٣٣,٠	٣,٤٠٧
٤	الميل إلى العنف .	٤٠,٠	١٨,٣	٣,٧٣٠	٢٢,٢	١٩,٦	٠,٠٦٤
٥	التساهل الشديد مع الأطفال .	٤٠,٠	٣٧,٥	٠.٠٣٤	٣٨.٩	٢٦,٨	١,١١٥
٦	صعوبة التركيز الذهني والعقلي	٦٦,٧	٤٦,٢	٢,٢٠٧	٢٧,٨	٤٠,٢	١,٠٠٧
٧	القلق وعدم الاستقرار.	٨٠,٠	٥١,٩	٤,١٨٣	٣٨,٩	٥٢,٧	١,١٧٩
٨	الملل وفقد الحماس في العمل والنشاط .	٥٣,٣	٤٥,٢	٠,٣٤٩	٣٣,٣	٥٠,٠	١,٧٢٦
٩	عدم الرغبة في تناول الطعام .	٤٦,٧	٥١,٠	٠,٠٩٧	٢,٢٢	٣٠,٤	٠,٤٩٦
١٠	التعرض لنوبات الصداع كثيرا .	٥٣,٣	٣٥,٦	١,٧٥٧	٢٢,٢	٢٦,٨	٠,١٦٧
١١	سرعة النسيان .	٤٦,٧	٥١,٠	٠,٠٩٧	٢٢,٢	٣٧,٥	١.٥٨٣
١٢	التردد في اتخاذ القرارات .	٣٣,٣	٤١,٣	٠,٣٤٩	٢,٢٢	٣٢,١	٠,٧١٦
١٣	سرعة الشعور بالتعب .	٤٦,٧	٣٧,٥	٠,٤٦٤	١٦,٧	٢٩,٥	١,٢٦٨
١٤	الخوف من الخروج ليلا .	٣٣,٣	٢٨,٨	٠,١٢٧	١١,١	٢٨,٦	٢,٤٤٧
١٥	الأرق وعدم الاستغراق في النوم .	٦٦,٧	٥١,٠	١,٢٩٧	٢٢,٢	٣٧,٥	١,٥٣٨
١٦	الإصابة ببعض أعراض الحساسية .	٢٠,٠	٢٤,٠	٠,١١٨	٥,٦	١٤,٣	١,٠٣٩
١٧	الشعور بآلام وأعراض بدنية .	٢٦,٧	٢٦,٠	** ٠٠٣	٢٢,٢	٢٠,٥	٠,٠٢٦
١٨	فقد الشعور والإحساس بالسعادة .	٧٣,٣	٤٠,٤	٥,٧٦١	٢٧,٨	٣٦,٦	٠,٥٢٨
١٩	الفزع عند سماع أصوات الانفجارات .	٦٠,٠	٥١,٠	٠,٤٢٩	٣٣,٣	٤٦,٤	١,٠٧٦
٢٠	القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل .	٧٣,٣	٦٩,٢	٠,١٠٥	٤٤,٤	٦٧,٩	٣,٧١٧
٢١	تناول الأدوية والمهدئات بكثرة .	٢٠,٠	١٣,٥	٠,٤٥٧	١١,١	٩,٨	٠,٠٢٨

** دال عند مستوى ٠١ ,

(ب) الإناث

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين		الإناث الأصغر من ٢٥ عاما: العدد ٢٦٠			الإناث الأكبر من ٢٥ عاما: العدد ٩١		
عدد العينة التي كانت بالداخل ١٤٦ عدد العينة التي كانت بالخارج ٤٥٤ من الجنسين		النسب المئوية لظهور الأعراض ٪			النسب المئوية لظهور الأعراض ٪		
	البنود الدالة على الأعراض العصابية والسلوكية:	مجموعة الضغط المرتفع *	مجموعة الضغط المنخفض	قيمة كا ٢	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض	قيمة كا ٢
١	فقد القدرة على ضبط النفس.	٦٠,٣	٦١,٤	٠,٠٢٤	٥٦,٣	٥٠,٧	٠,١٥٦
٢	التصرفات والميول العدوانية.	٤٢,٩	٣٣,٥	١,٨١٨	٤٣,٨	٢٨,٠	١,٥٣٥
٣	كثرة التوتر وسرعة الاستثارة.	٤٤,٤	٣٥,٥	١,٦١٤	٤٣,٨	٣٠,٧	١,٠٢٢
٤	الميل إلى العنف.	٣٠,٢	٢٠,٨	٢,٣٤٩	٢٥,٠	١٨,٧	٠,٣٣٣
٥	التساهل الشديد مع الأطفال.	٣٦,٥	٣٧,٦	٠,٠٢٣	٣٧,٥	٣٠,٧	٠,٢٨٤
٦	صعوبة التركيز الذهني والعقلي.	٧٣,٠	٦٢,٤	٢,٣٤٨	٤٣,٨	٤٩,٣	٠,١٦٥
٧	القلق وعدم الاستقرار.	٧٦,٢	٦٨,٠	١,٥١٧	٦٢,٥	٦٢,٧	,٠٠٠١
٨	الملل وفقد الحماس في العمل والنشاط.	٦٦,٧	٥٩,٤	١,٠٦٤	٤٣,٨	٤٥,٣	٠,٠١٣
٩	عدم الرغبة في تناول الطعام.	٥٠,٠	٤٨,٢	٠,٦٣٠	٣٧,٥	٣٧,٣	,٠٠٠١
١٠	التعرض لنوبات الصداع كثيرا.	٥٧,١	٤٨,٧	١,٣٥١	٥٠,٠	٣٤,٧	١,٣٢٤
١١	سرعة النسيان.	٧١,٤	٥٧,٩	٣,٦٩٥	٧٥,٠	٥٣,٣	٢,٥٢٧
١٢	التردد في اتخاذ القرارات.	٥٠,٨	٥٥,٨	٠,٤٨٩	٥٦,٣	٣٨,٧	١,٦٧٦
١٣	سرعة الشعور بالتعب.	٥٤,٠	٤٥,٧	١,٣١٧	٤٣,٨	٤٥,٣	٠,٠١٣
١٤	الخوف من الخروج ليلا.	٥٥,٦	٥٥,٨	٠,٠٠١ *	٥٦,٣	٥٧,٣	٠,٠٠٦
١٥	الأرق وعدم الاستغراق في النوم.	٦٨,٣	٥٣,٣	٤,٣٥٤	٤٣,٨	٤٥,٣	٠,٠١٣
١٦	الإصابة ببعض أعراض الحساسية.	٣٦,٥	٢٧,٩	١,٦٧٦	٢٥,٠	٢٤,٠	٠,٠٠٧
١٧	الشعور بآلام وأعراض بدنية.	٣٣,٣	٣٨,٦	٠,٥٦١	١٨,٨	٢٤,٠	٠,٢٠٥

١٨	فقد الشعور والإحساس بالسعادة.	٥٣,٣	٥٢,٤	٠,٠١٦	٣٧,٥	٤٥,٣	٠,٣٢٨
١٩	الفزع عند سماع أصوات الانفجارات.	٧٢,١	٦٥,١	٠,١٢٣	٦٢,٥	٧٦,٠	١,٢٣٧*
٢٠	القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل.	٨١,٧	٧٧,٨	٠,٤٧٩	٥٠,٠	٧٤,٧	٣,٨٥٠
٢١	تناول الأدوية والمهدئات بكثرة.	٢٠,٦	١٧,٣	٠,٣٦٧	١٢,٥	١٢,٠	٠,٠٠٣

* دال عند مستوى ٠٥,

يلاحظ من جدول (١٦) السابق أن مجموعة الضغط المرتفع من الذكور الأصغر من ٢٥ عاما تنفرد بشيوع الأعراض العصابية والسلوكية التالية والتي ترتفع نسبة شيوعها عن ٥٠٪ :

١ـ فقد القدرة على ضبط النفس ٦٠٪

٢ ـ التصرفات والميول العدوانية ٥٣,٣٪ ويلاحظ وجود فرق دال في هذا العرض بين مجموعتي الضغط النفسي المرتفع والمنخفض عند مستوى ٠١,

٣ـ صعوبة التركيز الذهني والعقلي ٦٦,٧٪

٤ـ الملل وفقد الحماس للنشاط والعمل ٥٣,٣٪

٥ـ التعرض كثيرا لنوبات الصداع ٥٣,٣٪

وهذه القائمة تضم بعض الأعراض السلوكية كالعنف في التصرفات. والبدنية النفسية كنوبات الصداع. والعقلية كصعوبة التركيز. والانفعالية كالملل وفقد الحماس. وهناك عرض غير ما تقدم تنفرد به جماعة الضغط المرتفع يغلب عليه الطابع الاكتئابي وهو "فقد الشعور والإحساس بالسعادة أو البهجة في الحياة" وتبلغ نسبة شيوعه ٧٣,٣٪ ويوجد فرق دال عند مستوى ٠١, في هذا العرض بين مجموعتي الضغط المرتفع والمنخفض.

أما مجموعة الضغط المنخفض من الذكور الأصغر من ٢٥ عاما فتنفرد بالعرضين التاليين :

١ـ سرعة النسيان ٥١٪

٢ـ عدم الرغبة في تناول الطعام ٥١٪

وتشترك المجموعتان في الأعراض التالية مع الاختلاف في نسبة شيوع العرض بينهما :

	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض
١ـ القلق وعدم الاستقرار	٨٠٪ .	٥١,٩٪

وتدل القيمة " كا٢ " على وجود فرق دال بين الفئتين في هذا العرض عند مستوى ٠٥,

٢ـ الأرق وعدم الاستغراق في النوم	٦٦,٧٪	٥١٪
٣ـ الفزع عند سماع أصوات الانفجارات	٦٠٪	٥١٪
٤ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل	٧٣,٣٪	٦٩,٢٪

ويلاحظ أن الأعـراض الأربعة السـابقة وإن كانـت مشتركة إلا أن نسبة شيـوعها تـرتفع لدى مجموعة الضغط المرتفع عنها لدى مجموعة الضغط المنخفض .

أمـا الذكور الأكبر مـن ٢٥ عاما فإن مجموعة الضغط المرتفع بينهم يشيع بين أفـرادها عرض واحد وهو "التوتر وسرعة الاستثارة" بنسبة ٥٥,٦٪ ويبـدو أن هذه المجموعة لم تظهر لديها أعراض ما بعد الصـدمة التي أشارت دراسة ضحايـا الحرب الفيتنامية إلى أنها قد تظهر بعـد عدة سنوات من وقوع الصدمة، فهذا التوتر المستمر مع سرعة الاستثارة قد تكون له نتائج سلبية في المستقبل .

أما مجموعة الضغط المنخفض فتنفرد بعرضين هما :

١ـ القلق وعدم الاستقرار ٥٢,٧٪

٢ـ الملل وفقد الحماس ٥٠٪

وتدل قيم " كا٢ " على عدم وجـود فروق دالـة بين المجموعتين في بقيـة الأعراض التي لم يشر إليها في القوائم السـابقة .

أما بالنسبة للإناث فيلاحظ من جدول (١٦) السـابق أن المجموعة الأصغر من ٢٥ عاما من فئة الضغط النفسي المرتفع تنفرد بشيوع الأعراض التالية بنسبة ترتفع عن ٥٠٪ وهي :

١ـ التعرض كثيرا لنوبات الصداع ٥٧,١٪

٢ـ سرعة الشعور بالتعب ٥٤٪

٣ـ عدم الرغبة في تناول الطعام ٥٠٪

أمـا فئة الضغط النفسي المنخفـض من الإناث الأصغـر من ٢٥ عـاما فلـم تبلغ نسبة شيـوع الأعراض العصـابية والسلوكيـة لديها الموضحـة بالجدول (١٦) المشار إليـه ٥٠٪. هذا وتشترك فئتي الضغط النفسي المرتفع والمنخفض في بعض الأعراض مع الاختـلاف في نسبة شيوع العـرض لدى كل منهما، وفيما يلي أعلى خمسة أعراض في نسبة شيوعها لدى المجموعتين:

	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض
١ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل	٨١,٧٪	٧٧,٨٪
٢ـ الفزع عند سماع أصوات الانفجارات	٧٢,١٪	٦٥,١٪
٣ـ فقد الإحساس بالسعادة و البهجة	٥٣,٣٪	٥٢,٤٪
٤ـ الأرق وعدم الاستغراق في النوم	٦٨,٣٪	٥٣,٣٪

ويلاحظ وجود فرق دال في العرض الخاص بالأرق وعدم الاستغراق في النوم عند مستوى ٠٥, بين مجموعتي الضغط النفسي المرتفع والمنخفض.

٥ـ القلق وعدم الاستقرار	٦٧,٢٪	٦٨٪

ويلاحظ كـذلك أنه وإن اشتركت المجموعتان في الأعـراض السابقة إلا أن نسبة شيـوعها بين مجموعة الضغط المرتفع أعلى منها بين مجموعة الضغط المنخفض.

أما الإناث الأكبر من ٢٥ عاماً فتنفرد مجموعة الضغط النفسي المرتفع بشيوع العرضين التاليين بين أفرادها:

١ـ التعرض كثيرا لنوبات الصداع ٥٠٪

٢ـ التردد في اتخاذ القرارات ٥٦,٣٪

ولا تنفـرد مجمـوعـة الضغط المنخفض بأعـراض تـرتفع نسبـة شيـوعهـا عن ٥٠٪، وتشترك المجمـوعتان في شيـوع بعض الأعراض بين أفـرادهن بنسبـة ترتفع عن ٥٠٪ وفيما يلي أعلى الأعـراض نسبة في الشيوع لدى المجموعتين:

	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض
١ـ الفزع عند سماع أصوات الانفجارات	٥,٦٢٪	٥,٦٧٪
٢ـ القلق وعدم الاستقرار	٥,٦٢٪	٧,٦٢٪
٣ـ القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل	٥٠٪	٧,٧٤٪

ويلاحظ وجود فرق دال عند مستوى ٠٥, بين المجموعتين في هذا العرض الأخير.

٤ـ سرعة النسيان	٧٥٪	٣,٥٣٪

ولا تدل قيم " كا٢ " على وجود فروق ذات دلالة بين المجموعتين في غير ماأشير إليه من الأعراض العصابية والسلوكية الموضحة بجدول (١٦) السابق.

ويلاحظ من القوائم السابقة المبنية على البيانات الموضحة بجدول (١٦) وجود أعراض القلق العام والقلق على المستقبل لدى جميع المجموعات الموضحة بالجدول. وهذه النتيجة تنسجم مع ما سبقت الإشارة إليه في تحليل نتائج الجداول السابقة.

جدول (١٧) يوضح النسب المئوية لظهور الأعراض الفصامية لدى أفراد العينة نتيجة للغزو العراقي ويوضح قيمة كا٢ للفروق في هذه الأعراض حسب متغير الضغط النفسي المرتفع والمنخفض مع ضبط متغيري العمر والجنس..

(عدد العينة الكلية ٦٠٠ ـ عدد الذكور ٢٤٩ ـ عدد الإناث ٣٥١)

(أ) الذكور

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين	الذكور الأصغر من ٢٥ عاما: العدد ١١٩	الذكور الأكبر من ٢٥ عاما: العدد ١٣٠
عدد عينة الضغط النفسي المرتفع ١٤٦ عدد عينة الضغط النفسي المنخفض ٤٥٤ من الجنسين	النسب المئوية لظهور الأعراض ٪	النسب المئوية لظهور الأعراض ٪

م	البنود الدالة على الأعراض الفصامية :	مجموعة الضغط المرتفع (١)	مجموعة الضغط المنخفض (٢)	قيمة كا^2	مجموعة الضغط المرتفع (١)	مجموعة الضغط المنخفض (٢)	قيمة كا^2
١	التهرب من مواجهة المسئوليات والمشكلات	١٣,٣	١٤,٤	٠,٠١٢	١١,١	٢٢,٣	١,١٨٤
٢	فقد الثقة والشك في كثير من الناس	٨٠,٠	٥٠,٠	*٤,٧٤٦	٣٣,٣	٥٧,١	٣,٥٣٧
٣	الشعور بالحزن دون سبب ظاهر	٤٦,٧	٥٤,٨	٠,٣٤٩	٢٧,٨	٣٨,٤	٠,٧٥٠
٤	الذهول أو الشرود وعدم الانتباه	٧٣,٣	٥١,٠	٠,٦٣٩	٣٣,٣	٤٢,٩	٠,٥٧٩
٥	الميل إلى العزلة أو الوحدة	٦٠,٠	٢٨,٨	**٥,٧٧٥	٢٧,٨	٢٥,٠	٠,٠٦٣
٦	الكره الشديد لغير الكويتيين أو الخليجيين	٧٣,٣	٦١,٥	,٧٨٣	٣٨,٩	٤٠,٢	٠,٠١٠
٧	توقع الشر والأذى والعدوان	٢٦,٧	٣١,٧	,١٥٧	١٦,٧	٢٥,٠	٠,٥٩٣
٨	الشعور باليأس أو الضيق بالحياة	٤٦,٧	٢٧.٩	٢,١٩١	١٦,٧	١٧,٠	,٠٠٠٩
٩	فقد الاهتمام بكل شيء	٢٦,٧	٢٤,٠	,٠٤٩	١١,١	١٧,٩	٠,٥٠٢
١٠	قضاء الوقت أمام التلفاز أو ما شابه ذلك	٤٠,٠	٣٧,٥	,٠٣٥	١١,١	٢٣,٢	١,٣٤٤

* دال عند مستوى ٠٥ ,

** دال عند مستوى ٠١ ,

(ب) الإناث

عدد العينة الأصغر من ٢٥ عاما ٣٧٩ عدد العينة الأكبر من ٢٥ عاما ٢٢١ من الجنسين	الإناث الأصغر من ٢٥ عاما : العدد ٢٦٠	الإناث الأكبر من ٢٥ عاما : العدد ٩١
عدد العينة التي كانت بالداخل ٥٠٤ عدد العينة التي كانت بالخارج ٩٦ من الجنسين	النسب المئوية لظهور الأعراض ٪	النسب المئوية لظهور الأعراض ٪

	البنود الدالة على الأعراض الفصامية:	مجموعة الضغط المرتفع (١)	مجموعة الضغط المنخفض (٢)	قيمة كا٢	مجموعة الضغط المرتفع (١)	مجموعة الضغط المنخفض (٢)	قيمة كا٢
١	التهرب من مواجهة المسئوليات والمشكلات	٢٥,٤	٢٦,٩	٠,٠٥٥	١٨,٨	٢٦,٧	,٤٣٧
٢	فقد الثقة والشك في كثير من الناس	١٣,٠	٧٣,١	,٠٠٠١	٦٢,٥	٧٠,٧	,٤١٣
٣	الشعور بالحزن دون سبب ظاهر	٧٦,٢	٦٧,٠	١,٨٩٠	٧٥٠,٠	٥٣,٣	٢,٥٢٧
٤	الذهول أو الشرود وعدم الانتباه	٦٩,٨	٦٧,٥	,١١٩	٥٦,٣	٤٩,٣	,٢٥٢
٥	الميل إلى العزلة أو الوحدة	٥٠,٨	٤٠,١	٢,٢٣٠	٣١,٣	٢٠,٠	,٩٧٣
٦	الكره الشديد لغير الكويتيين أو الخليجيين	٦٨,٣	٧٠,١	,٠٧٣	٥٦,٣	٥٣,٣	,٠٤٥
٧	توقع الشر والأذى والعدوان	٥٤,٠	٤١,١	٣,١٩٦	٣١,٣	٢٩,٣	,٠٢٣
٨	الشعور باليأس أو الضيق بالحياة	٤١,٣	٣٧,١	,٣٥٩	٣٧,٥	٢٠,٠	٢,٢٧٥
٩	فقد الاهتمام بكل شيء	٤١,٣	٢٦,٤	٥,٠٢٨*	١٨,٨	٢٤,٠	,٢٠٥
١٠	قضاء الوقت أمام التلفاز أو ما شابه ذلك	٢٧,٠	١٨,٨	١,٩٥١	١٢,٥	٢١,٣	,٦٤٨

* دال عند مستوى ٠٥ ,

القسم الثالث(ب)

الأعراض الفصامية على ضوء متغير الضغط النفسي

يلاحظ من جدول (١٧) السابق والخاص بالأعراض الفصامية أن مجموعة الضغط النفسي المرتفع من الذكور الأصغر من ٢٥ عاما تنفرد بشيوع العرض الخاص «بالميل إلى العزلة والوحدة» بين أفرادها بنسبة ٦٠٪. وتدل قيمة «كا٢» على وجود فرق دال عند مستوى ٠٥ , بين مجموعتي الضغط النفسي المرتفع والمخفض في هذا العرض. وتنفرد مجموعة الضغط المنخفض بشيوع العرض الخاص «بالحزن دون سبب ظاهر» بنسبة ٥٤,٨٪ بين أفرادها. وتشترك المجموعتان في شيوع بعض الأعراض التالية بين أفرادهما مع الاختلاف في نسبة الشيوع لدى كل من المجموعتين:

	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض
١ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس	٨٠٪	٥٠٪

وتدل قيمة «كا٢» على وجود فرق دال عند مستوى ٠٥ , بين المجموعتين في هذا العرض

٢ـ الكره الشديد لغير الكويتيين والخليجيين	٧٣,٣٪	٦١,٥٪
٣ـ الذهول والشرود وعدم الانتباه	٧٣,٣٪	٥١٪

وتدل قيم «كا٢» على عدم وجود فروق دالـة بين المجموعتين في الأعراض المشار إليها أو غيرها سوى ما سبقت الإشارة إليه.

أمـا مجموعـة الضغط المرتفع من الـذكـور الأكبر من ٢٥ عـاما فلم يشع بين أفـرادهـا أي من الأعراض الفصامية المدونة بالجدول بنسبة ٥٠٪ فأكثر. وقد سبقت الإشارة إلى أن عدم ظهور أعراض ما بعد الصدمـة لايعني عدم وجودها ولا ينفي احتمال ظهورها بعد فترة معينـة. أما مجموعة الضغط النفسي المنخفض من الذكـور الأكبر من ٢٥ عامـا فقد شاع بين أفـرادها العـرض الفصامي الخاص بفقد الثقة والشك في كثير من النـاس بنسبة ٧٥,١٪. ولا تدل قيم «كا٢» على وجـود فروق دالة بين المجموعتين الأكبر من ٢٥ عاما من الذكور في الأعراض المدونة بالجدول (١٧).

أما الإناث الأصغر مـن ٢٥ عاما فتنفرد مجموعة الضغط المرتفع منهـا بشيوع العرضين التاليين بين أفرادها:

١ـ الميل إلى العزلة والوحدة ٥٠,٨٪

٢ـ توقع الشر والأذى والعدوان ٥٤٪

أما الإناث الأصغر من ٢٥ عاما من ذوات الضغط النفسي المنخفض فينفردن بشيـوع العرض الخاص «بفقـد الثقـة والشك في كثير من النـاس» بنسبة ٧٣,١٪. وتشترك المجمـوعتـان في شيـوع الأعراض التالية مع الاختلاف في نسبة شيوع العرض في كل منهما:

	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض
١ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر	٧٦,٢٪	٦٧٪
٢ـ الذهول والشرود وعدم الانتباه	٦٩,٨٪	٦٧,٥٪
٣ـ الكره الشديد لغير الكويتيين والخليجيين	٦٨,٣٪	٧٠,١٪

وبالرغم من عـدم شيوع العرض الخاص «بفقد الاهتمام بكل شيء» إلا أن هناك فـرقا دالا عند مستـوى ٠٥ , بين المجمـوعتين في هـذا العـرض. ولا تـدل قيم «كا٢» على وجـود فـروق دالـة بين المجموعتين في الأعراض الموضحة بجدول (١٧) غير ما تقدمت الإشارة إليه.

أما الإنـاث الأكبر من ٢٥ عاما فتنفـرد مجموعة الضغط المرتفع بينهن بشيـوع العرض الخاص «بالـذهول والشرود وعدم الانتبـاه» بنسبة ٥٦,٣٪. ولا تنفرد مجمـوعة الضغط المنخفض بشيـوع أية أعراض بين أفرادها بنسبة ٥٠٪ فأكثر. وتشترك المجموعتان في الأعراض التالية مع الاختلاف في نسبة شيوع كل عرض لدى كل منهما:

	مجموعة الضغط المرتفع	مجموعة الضغط المنخفض
١ـ فقد الثقة والشك في كثير من الناس	٦٢,٥٪	٧٠,٧٪
٢ـ الشعور بالحزن دون سبب ظاهر	٧٥٪	٥٣,٣٪
٣ـ الكره الشديد لغير الكويتيين والخليجيين	٥٦,٣٪	٥٣,٣٪

ولا تدل قيم «كا٢» على وجود فروق دالة بين المجموعتين في الأعراض المشار إليها بالجدول.

وتوحي قوائم الأعـراض السابقة بوجود درجـات من الإصابة بالبرانـويا تتمثل في الشك وفقد الثقة في كثير من الناس. وكـذلك بوجود مظاهر الاكتئاب الذي يعبر عنـه الشعور بالحزن دون سبب ظـاهـر ووجود اتجاهـات العنصريـة المرضيـة المتمثلـة في الكـراهية الشـديـدة لغير الكـويتيين وغير الخليجيين. وتعتبر جميعهـا أعراضـا نـاتجة عن الصـدمة التي تعـرض لها أفـراد العينـة نتيجة للغـزو العراقي.

جـدول (١٨) يوضـح تحليل التباين بين درجتـي الانبساطيـة قبل الغـزو وبعـد التحريـر. كما تقيسـها قـائمة إيزنك لدى الـذكور من أفراد العينـة حسب متغير الضغط ومتغير الداخل والخارج مع ضبط متغير العمر.

(الفرق = الدرجة بعد الغزو مطروحا منها الدرجة قبل الغزو) .
عدد عينة الذكور ٢٤٩

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات (التباين)	قيمة «ف»	الدلالة
تأثير التغاير لمتغير:					
العمر	٥,٧٤٤	١	٥,٧٤٤	٠,٤٢٢	٠,٥١٦
التأثير الأساسي لمتغيري :	٤٥,٣١٦	٢	٢٢,٦٥٨	١,٦٦٦	٠,١٩١
الضغط النفسي	٣٩,٢٧٥	١	٣٩,٢٧٥	٢,٨٨٨	٠,٠٩١
الداخل والخارج	٩,٢٧٥	١	٩,٢٧٥	٠,٦٨٢	٠,٤١٠
تأثير التفاعل بين :					
الضغط مع الداخل والخارج	٢٤,٠٥٣	١	٢٤,٠٥٣	١,٧٦٩	٠,١٨٥
ما تم تفسيره من التباين	٧٥,١١٣	٤	١٨,٧٧٨	١,٣٨١	٠,٢٤١
البواقي	٣٣١٦,٩٤٧	٢٤٤			
مجموع التباين	٣٣٩٣,٠٦٠	٢٨٤	١٣,٦٨٢		

١- من الجدول السابق يتضح أن قيم « ف» تدل على عدم وجود فروق ذات دلالة في الانبساطية بين المجموعة التي تعرضت لضغط نفسي مرتفع والتي تعرضت لضغط منخفض لدى عينة الذكور.
٢- كما تدل قيم « ف » في الجدول على عدم وجود فروق ذ ت دلالة في الانبساطية بين المجموعة التي كانت داخل الكويت أثناء الغزو العراقي والتي كانت خارج الكويت على أساس الضغط النفسي.
٣- ويتضح من الجدول أيضا عدم وجود فروق ذات دلالة في الانبساطية على أساس متغير العمر حيث إن قيمة « ف » لهذا المتغاير الذي تم ضبطه غير دالة.

جدول (١٩) يوضح تحليل التباين بين درجتي العصابية قبل الغزو وبعده كما تقيسها قائمة ايزنك لدى الذكور من أفراد العينة حسب متغير الضغط ومتغير الداخل والخارج مع ضبط متغير العمر.

(الفرق = الدرجة بعد الغزو مطروحا منها الدرجة قبل الغزو).
عدد عينة الذكور ٢٤٩

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات (التباين)	قيمة «ف»	الدلالة
تأثير التغاير لمتغير:					
العمر	٥,٤١٧	١	٥,٤١٧	٠,٣٧٢	٠,٥٤٢
التأثير الأساسي لمتغيري:	٢,٤٧٨	٢	٢٣٩,١	٠,٠٨٥	٠,٩١٨
الضغط النفسي	١,٤٠٧	١	١,٤٠٧	٠,٠٩٧	٠,٧٥٦
الداخل والخارج	٠,٨٤١	١	٠,٨٤١	٠,٠٥٨	٠,٨١٠
تأثير التفاعل بين:					
الضغط مع الداخل والخارج	١٩,٦٢٥	١	١٩,٦٢٥	١,٣٤٨	٠,٢٤٧
ما تم تفسيره من التباين	٢٧,٥٢٠	٤	٦,٨٨٠	٠,٤٧٢	٠,٧٥٦
البواقي	٣٥٥٣,٢٨٣	٢٤٤	١٤,٥٦٣		
مجموع التباين	٣٥٨٠,٨٠٣	٢٨٤	١٤,٤٣٩		

١- تدل قيم « ف » في الجدول (١٩) السابق على عدم وجود فروق ذات دلالة في العصابية قبل الغزو وبعده على أساس الضغط النفسي المرتفع أو المنخفض لدى عينة الذكور.

٢- كما تدل قيم « ف » في الجدول أيضا على عدم وجود فروق ذات دلالة في العصابية بين من كانوا داخل الكويت أو خارجها أثناء الغزو العراقي على أساس متغير الضغط النفسي.

٣- ويتضح من الجدول أيضا عدم وجود فروق ذات دلالة على أساس قيم « ف » في العصابية بناء على متغير العمر الذي تم ضبط تأثيره إحصائيا.

جدول (٢٠) يوضح تحليل التباين بين درجتي الانبساطية قبل الغزو وبعد الغزو. كما تقيسها قائمة إيزنك لدى الإناث من أفراد العينة حسب متغير الضغط النفسي ومتغير الداخل والخارج مع ضبط متغير العمر.

(الفرق = الدرجة بعد الغزو مطروحا منها الدرجة قبل الغزو) .
عدد عينة الإناث ٣٥١

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات (التباين)	قيمة «ف»	الدلالة
تأثير التغاير لمتغير:					
العمر	٦١,٨٢٤	١	٦١,٨٢٤	*٤,٦٧٨	٠,٠٣١
التأثير الأساسي لمتغيري :	٢٠,٣٨١	٢	١٠,١٩٠	٠,٧٧١	٠,٤٦٣
الضغط النفسي	١٩,٥٤٦	١	١٩,٥٤٦	١,٤٧٩	٠,٢٢٥
الداخل والخارج	٠,٥٩٤	١	٠,٥٩٤	٠,٠٤٥	٠,٨٣٢
تأثير التفاعل بين :					
الضغط مع الداخل والخارج	٣,١٢٨	١	٣,١٢٨	٠,٢٣٧	٠,٦٢٧
ما تم تفسيره من التباين	٨٥,٣٣٣	٤	٢١,٣٣٣	١,٦١٤	٠,١٧٠
البواقي	٤٥٧٢,٥٦٤	٣٤٦	١٣,٢١٦		
مجموع التباين	٤٦٥٧,٨٩٧	٣٥٠	١٣,٣٠٨		

١ـ تدل قيم « ف » في الجدول (٢٠) السابق على عدم وجود فروق ذات دلالة في الانبساطية على أساس الضغط النفسي المرتفع أو المنخفض لدى عينة الإناث .
٢ـ كما يتضح من قيم « ف » بالجدول أيضا عدم وجود فروق ذات دلالة في الانبساطية على أساس الوجود داخل الكويت أو خارجها أثناء الغزو حسب الضغط النفسي المرتفع أو المنخفض .
٣ـ ويلاحظ أن قيمة « ف » لمتغاير العمر كانت ذات دلالة إحصائية مما يشير إلى وجود فروق في الانبساطية تبعا للعمر لدى الإناث .

جدول (٢١) يوضح تحليل التباين بين درجتي العصابية قبل الغزو وبعد الغزو كما تقيسها قائمة إيزنك لدى الإناث من أفراد العينة حسب متغير الضغط النفسي ومتغير الداخل والخارج مع ضبط متغير العمر.

(الفرق = الدرجة بعد الغزو مطروحا منها الدرجة قبل الغزو) .

عدد عينة الإناث ٣٥١

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات (التباين)	قيمة «ف»	الدلالة
تأثير التغاير لمتغير:					
العمر	١٠,٦٠٨	١	١٠,٦٠٨	٠,٥٧٣	٠,٤٤٩
التأثير الأساسي لمتغيري :	٨,١٤٩	٢	٤,٠٧٤	٠,٢٢٠	٠,٨٠٢
الضغط النفسي	٢,٠٤١	١	٢,٠٤١	٠,١١٠	٠,٧٤٠
الداخل والخارج	٦,٣٣٠	١	٦,٣٣٠	٠,٣٤٢	٠,٥٥٩
تأثير التفاعل بين :					
الضغط مع الداخل والخارج	١٦,٨١٤	١	١٦,٨١٤	٠,٩٠٩	٠,٣٤١
ما تم تفسيره من التباين	٣٥,٥٧١	٤	٨,٨٩٣	٠,٤٨١	٠,٧٥٠
البواقي	٦٤٠٢,١٩٥	٣٤٦	١٨,٥٠٣		
مجموع التباين	٦٤٣٧,٧٦٦	٣٥٠	١٨,٣٩٤		

١- تدل قيم « ف » في الجدول (٢١) السابق على عدم وجود فروق ذات دلالة في العصابية على أساس الضغط النفسي المرتفع أو المنخفض لدى عينة الإناث .

٢- كما تدل قيم « ف » في الجدول أيضا على عدم وجود فروق ذات دلالة في العصابية على أساس الوجود داخل أو خارج الكويت أثناء الغزو حسب الضغط النفسي المرتفع أو المنخفض .

٣- وكذلك يتضح من الجدول السابق أن قيم « ف » تدل على عدم وجود فروق ذات دلالة في العصابية على أساس متغير العمر والذي تم ضبط تأثيره إحصائيا .

القسم الرابع : تحليل التباين بين درجات أفراد العينة في الإجابة على قائمة إيزنك للشخصية :

تناولت الجداول (١٨ , ١٩ , ٢٠ , ٢١) السابقة تحليل التباين بين درجات أفراد العينة في الانبساطية والعصابية قبل الغزو وبعده على ضوء متغيرات الضغط النفسي والداخل والخارج مع ضبط متغير العمر. وقد أمكن الحصول على درجتي ما قبل الغزو وبعده بإجراء تعديل طفيف على طريقة الإجابة على القائمة بما لا يخل بوظيفتها العلمية ألتي حددها إيزنك حيث وضعت عبارتا قبل الغزو ـ بعد الغزو على رأس عمودين للإجابة بنعم أو لا بحيث يستطيع المجيب أن يحدد بالنسبة للبند المعين الوقت الذي ظهر لديه فيه مضمون هذا البند. وقد تم التعليق على نتيجة كل جدول في أسفله بما يكفي للتعرف على نتيجة التحليل باستخدام اختبار " ف " . ولم يسجل التحليل فروقا ذات دلالة بين درجات الانبساطية والعصابية قبل الغزو وبعده إلا في متغير العمر.لدى الإناث جدول (٢٠) حيث كانت قيمة "ف" لهذا المتغير دالة في الانبساطية أي أن هناك فروقا في الانبساطية لدى الإناث تبعا لمتغاير العمر.

الملخص والاستنتاجات

١ ـ تركز الاهتمام الأساسي في هذه الدراسة على التأثيرات السلبية للعدوان العراقي على الكويت في المجالات المعرفية والانفعالية والسلوكية .

٢ ـ نظرا لأن حجم العينة محدود بالنسبة لعدد الشعب الكويتي فإنه ينبغي أخذ ذلك في الاعتبار عند فهم النتائج وتفسيرها .

٣ ـ إن ما تعرض له الكويتيون من احتلال وطنهم ومن تهديد لحياتهم ووجودهم يعتبر صدمة خطيرة حسب التحديد العلمي للصدمة النفسية التي تؤدي إلى أعراض نفسية وعقلية وسلوكية مرضية سواء في الحال أو في المستقبل كما سبقت الإشارة إليه في تحديد المصطلحات في مطلع هذه الدراسة .

٤ ـ بالنسبة للقسم الأول من الدراسة والخاص بالسلبيات المعرفية لوحظ أن توقعات غالبية أفراد العينة كانت تنطوي على الخوف والشعور بالعجز. واحتمالات القتل أو الأسر أو الطرد والتشريد أو التعذيب أو انتهاك الأعراض وسلب الأموال وغير ذلك مما يعتبر خبرات صادمة تؤدي إلى أعراض ضغط ما بعد الصدمة التي أشير إليها في عرض الدراسات السابقة . كما تعكس إجابات أفراد العينة على أسئلة هذا القسم من الدراسة الآلام النفسية الممزقة والأحزان المؤرقة الدفينة في

قلوب الكويتيين وتدل على وجود تغيرات معرفية سلبية في التفكير ووجهات النظر وفي الاتجاهات والقيم نحو المعتدي ونحو من ساندوه وحول المستقبل وحل النزاع بين العراق والكويت. وقد اتخذت تلك التغيرات المعرفية السلبية مظهرا سلوكيا عمليا في تصرفات الكويتيين تجاه المعتدين ومن ساندوهم.

٥ - بالنسبة للقسم الثاني الخاص بظهور الأعراض العصابية والسلوكية على ضوء متغير الداخل والخارج فقد لوحظ من عرض ومناقشة جدول (١٤) أن القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل وكذلك القلق بصفة عامة يعتبر أكثر الأعراض شيوعا بين مختلف فئات العينة، كما أن متغير الداخل والخارج لم يكن له أثر واضح في وجود فروق دالة في ظهور أو شيوع الأعراض العصابية والسلوكية واختلافها بين فئات العينة اللهم إلا في عدد محدود من هذه الأعراض التي أشير إليها في العرض والمناقشة للجدول المشار إليه. وقد بينت قوائم الأعراض العصابية المستمدة من جدول (١٤) أن الفئات المختلفة للعينة ينفرد كل منها ببعض الأعراض كما تشترك جميعها في البعض الآخر مع الاختلاف في النسبة المئوية لشيوعها لدى كل فئة.

٦ - بالنسبة لظهور وشيوع الأعراض الفصامية على ضوء متغير الداخل والخارج فقد لوحظ في عرض ومناقشة جدول (١٥) أن الغالبية من أفراد العينة يعانون من الشك الفصامي أو البرانووي.وفقد الثقة في كثير من الناس ومن الكراهية المرضية لغير الكويتيين وغير الخليجيين. وإن هذه الأعراض الفصامية تعتبر رد فعل للصدمة الحادة وللإحباط الشديد الذي أصاب أفراد العينة نتيجة للعدوان ومواقف الذين ساندوه. وقد ظهرت أعراض فصامية متنوعة لدى كل فئة من فئات العينة، كما شاعت أعراض أخرى لدى جميع الفئات مع الاختلاف في نسبة شيوعها لدى كل منها. كما أن متغير الداخل والخارج لم يكن له أثر واضح أيضا في ظهور وشيوع الأعراض الفصامية ولم توجد فروق دالة في معظم هذه الأعراض على ضوء هذا المتغير بين فئتي الداخل والخارج.

٧ - تدل مناقشة الأعراض العصابية والسلوكية وشيوعها لدى فئات العينة على ضوء متغير الضغط النفسي المرتفع أو المنخفض في جدول (١٦) على أن كل فئة تنفرد ببعض الأعراض كما أن هناك أعراضا مشتركة بين الفئتين. وتدل المناقشة المشار إليها على أن هذا المتغير لم يكن له أثر واضح في ظهور فروق دالة بين مجموعتي الضغط المرتفع والمنخفض إلا في عدد محدود من الأعراض التي اشير إليها خلال العرض والمناقشة لقوائم الأعراض الشائعة لدى أفراد كل مجموعة. وقد لوحظ أن

أكثر الأعراض العصابية والسلوكية شيوعا لدى مجموعة الضغط المرتفع من الذكور هو فقد الإحساس بالسعادة والبهجة في الحياة (٣, ٧٣٪) وبين مجموعة الإناث " التعرض كثيرا لنوبات الصداع" بالإضافة إلى فقد الإحساس بالسعادة. وهناك أعصبة أخرى شاعت بين كل من المجموعتين تمت مناقشتها وأعراض شائعة مشتركة بينهما يقع على رأسها" القلق وعدم الاطمئنان على المستقبل" "وكذلك القلق بصفة عامة" ويعتبر هذان العرضان من أكثر الأعصبة شيوعا بين فئات العينة والاختلاف بينهما ينحصر في نسبة شيوعها لدى كل فئة.

٨ـ وفيما يتعلق بالأعراض الفصامية وشيوعها لدى فئات العينة على ضوء متغير الضغط النفسي المرتفع والمنخفض فقد لوحظ في مناقشة جدول (١٧) أن كل مجموعة تنفرد بشيوع بعض الأعراض الفصامية لدي أفرادها، وأن المجموعتين تشتركان في بعض الأعراض مع الاختلاف في النسبة المئوية لشيوعها لدى كل مجموعة. ويتضح من قوائم الأعراض الفصامية الخاصة بكل مجموعة والمشتركة بين المجموعتين أن نسبة كبيرة من أفراد العينة يعانون من الشك الفضامي أو البرانووي ومن عدم الثقة في كثير من الناس ومن الكراهية المرضية والعدائية ضد المعتدين ومن ساندوهم، ومن مظاهر الاكتئاب المختلفة. وقد لوحظ أيضا أن قيم «كا٢» لم تدل على وجود فروق دالة بين المجموعتين إلا في أعراض محدودة سبقت الإشارة إليها في العرض والمناقشة لجدول (١٧).

٩ـ بالنسبة لتأثر الانبساطية أو العصابية لدى أفراد العينة قبل الغزو وبعده كما تقيسها قائمة إيزنك بمتغيرات الضغط النفسي والداخل والخارج مع ضبط متغير العمر أفاد تحليل التباين في الجداول (١٨ ,١٩ , ٢٠ , ٢١) أن قيم "ف" غير دالة. أي أن هذه المتغيرات لم تؤثر على سمة الانبساطية أو العصابية لدى أفراد العينة بجميع فئاتهم اللهم إلا في متغير العمر لدى الإناث جدول (٢٠) حيث كانت قيمة "ف" لهذا المتغير دالة بالنسبة للانبساطية كما سبقت الإشارة إليه في العرض والمناقشة. ويمكن تعليل عدم وجود فروق على ضوء المتغيرات المشار إليها بصغر حجم العينة وعدم تمثيلها تمثيلا كافيا للمجتمع الكويتي، ويمكن القول بأن الانبساطية والعصابية كما تقيسهما قائمة ايزنك تعتبران من سمات الشخصية التي تتصف بالثبات إلى حد يجعلها لا تتأثر بما يتعرض له الفرد من خبرات، حيث أنها ترتبط بعوامل دفينة في الشخصية.

وبعد. فإن تشخيص الاضطرابات أو الأعراض العصابية والسلوكية والفصامية التي كشفت عنها الدراسة الحالية يحتاج إلى تقويم كل حالة على حدة من خلال المقابلات العلاجية واستخدام الأساليب الملائمة لكل عرض أو اضطراب. فاحتلال الكويت بصفة عامة وما أدى إليه من تشتت

الأفراد والأسر وتعرض الجميع إلى الضغوط النفسية والتهديدات الخطيرة والأحداث الصادمة يعتبر سببا غير مباشر للاضطرابات والأعراض المشار إليها .

وينبغي أن يوضع في الاعتبار أن الأفراد الذين تعرضوا للأحداث المشار إليها لا يتساوون في درجة التأثر بها ويرجع ذلك إلى الخصائص الشخصية وإلى العوامل الاجتماعية والثقافية المحيطة بالفرد. فما لدى الفرد من مصادر قوة أو نواحي ضعف ودرجة حساسيته الشخصية ومستوى ذكائه وإدراكه وقدرته على مواجهة المشكلات والمواقف وعلاقاته الاجتماعية وروابطه العاطفية بالأسرة وغير ذلك من العوامل له دور هام في ظهور أو عدم ظهور الأعراض أو الاضطرابات النفسية وفي درجة الاضطراب ونوعه فيما لو حدث .

إن التشخيص المبكر للأعراض والاضطرابات والبدء في علاجها يعتبر عاملا هاما في سرعة الشفاء ، كما أن اكتشاف السبب المباشر لظهور العرض يساعد على نجاح عملية العلاج . فقد يكون السبب المباشر عند شخص ما هو الاعتقاد الراسخ لديه بأنه ارتكب خطأ أو أنه أحجم أو قصر في القيام بعمل معين وأن هذا الخطأ أو التقصير هو الذي أدي إلى حدوث الكارثة التي حلت به أو بأبنائه أو أسرته أو بأمواله أو بأصدقائه ، ويؤدي مثل هذا الاعتقاد إلى الندم الشديد والشعور بالذنب ومن ثم إلى لوم الذات أو لعن الذات وبالتالي يكون الندم والشعور بالذنب وإدانة الذات هي الأسباب المباشرة المؤدية إلى ظهور الأعراض .

وقد يكون السبب في الاضطراب عند شخص آخر راجعا إلى الفقدان . والفقدان أنواعه كثيرة والشعور به أسبابه متعددة . فقد يفقد الشخص فردا عزيزا عليه ابنا أو أبا أو أما أو زوجة أو صديقا حميما . وقد يفقد بفقد هؤلاء الحنان والعطف والرعاية ، وقد يفقد إنسان أو فتاة الشرف أو العرض ، أو يفقد الثقة بالآخرين ، أو يفقد الشعور بالأمان والطمأنينة ، وقد يفقد شخص حاسة أو عضوا من بدنه أو يفقد القدرة على الإنجاز العقلى أو البدني نتيجة لما ألم به .

فالتعرف على الأسباب المباشرة للاضطراب وظهور الأعراض يقتضي أن يكون العلاج فرديا حيث أن الأفراد نادرا ما يتشابهون في خصائصهم الشخصية . وظروفهم الاجتماعية والأسرية والثقافية . وبعد اكتمال التشخيص الدقيق على يد معالج متخصص يمكن وضع البرنامج العلاجي للمشكلة ويمكن البدء في خطوات العلاج .

وقد تكون الخطوة الأولى هي بناء علاقة قوامها الثقة والإخلاص والأمانة والتفهم الوجداني الدقيق مع متخصص، ومن خلال تلك العلاقة تتم الخطوة الثانية التي يتاح فيها للمريض التنفيس عن انفعالاته ومعايشة الخبرة الصادمة مرة ثانية بتذكر أحداثها وتصور تفاصيلها بما فيها من آلام وجراح وتمزق، وعندما يتحقق الاستبصار بالأسباب المباشرة للاضطراب أو المؤدية إلى ظهور الأعراض تبدأ عملية إعادة التقويم للموقف الصادم وإعادة التنظيم للإدراك والتفكير والتفسير والمشاعر وتغيير السلوك وتحقيق التوافق.

أما البرامج العلاجية العامة التي يمكن أن تقدم للأطفال وللجماهير من خلال المدرسة أو وسائل الإعلام ونحوها فتعتمد على استخدام أساليب التعبير اللغوي والفني بأنواعها المختلفة من الأغاني والأناشيد والرسم والتصوير والتمثيل ولعب الأدوار أو من خلال اللعب التعبيري أو اللعب الحر.

وفي جميع أنواع العلاج يعتبر الدعم الاجتماعي من الأسر والأقارب والأصدقاء ومن المجتمع ضروريا لتحقيق أهداف العلاج، والدعم الاجتماعي ليس ماديا فقط ولكنه دعم معنوي ونفسي في المقام الأول حيث يشعر معه المريض بالأهمية في نفسه وبالاهتمام ممن حوله وبالمشاركة العاطفية والوجدانية له فيما ألم به.

والله أعلم

الهوامش

*يطيب للباحث أن يتوجه بالشكر الى الزميل الدكتور عبدالفتاح القرشي على تفضله بقراءة البحث وعلى ما قدمه من مقترحات هامة تتعلق بالتحليل الاحصائي للبيانات.

*كما اتوجه بالشكر الى ادارة الابحاث بجامعة الكويت على تفضلها بدعم اجراءات هذه الدراسة تحت رقم ADP 040

المراجع العربية

(١) جابر عبدالحميد جابر وأحمد خيري كاظم. مناهج البحث في التربية وعلم النفس. دار النهضة العربية. القاهرة ٣٢ شارع عبدالخالق ثروت ١٩٧٣.

(٢) جليل شكور ومحمد النابلس ونشأت صبوح ومها خضر. عصاب الحرب اللبنانية". الثقافة النفسية. تصدر عن مركز الدراسات النفسية والنفسية ـ الجسدية. العدد العاشر ـ المجلد الثالث نيسان ١٩٩٢ ص ٩٩ ـ ١٠٥.

(٣) حامد عبدالعزيز الفقي. سيكولوجية الفرد في المجتمع. (ترجمة وتعريب). دار القلم ـ الكويت: ١٩٨٤.

(٤) حامد عبدالعزيز الفقي. نظريات الإرشاد والعلاج النفسي. (ترجمة) القسم الثاني. دار القلم ـ الكويت: ١٩٩٠.

(٥) عبدالستار ابراهيم. العلاج النفسي الحديث. الكويت دار الفلاح (١٩٧٨).

(٦) زين الدين درويش. أثر العدوان العراقي في الحالة النفسية للشباب الكويتي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية. ربيع ١٩٩٢. السنة العاشرة (٣٩).

(٧) المجلة العربية للعلوم الإنسانية. مجلس النشر العلمي ـ جامعة الكويت العدد الأربعون (١٩٩٢). السنة العاشرة. ندوة العدد عن الآثار الاجتماعية والنفسية الناجمة عن الاحتلال العراقي للكويت. شارك فيها مجموعة من أعضاء هيئة التدريس بقسمي الاجتماع وعلم النفس بجامعة الكويت.

(٨) انظر: تقرير المكتب التنفيذي لوزارة العمل والشئون الاجتماعية بدول مجلس التعاون الخليجي وبه دراسة قدمها بدر العمر عن الآثار النفسية والتربوية والاجتماعية للغزو العراقي للكويت ضمن التقرير المشار إليه.

المراجع الاجنبية

(1) American Psychologist. War - Related stress, addressing the Stress of War and other Traumatic Events. The American Psychological Association. August 1991. Vol. 46, No. 8, PP. 848 - 855.

(2) Annual Report. International Council for Rehabitation of torture Victims (IRCT). Copenhagen Denmark: 1990. P. 17.

(3) Brody Eugene. The Social Context and Psychological consequences of Community Violence. Proceedings of the World Federation for Mental Health Working Conference, Cairo, Egypt. April, 1988. PP. 43 - 64.

(4) Colman, Johns (fourth Edition). Abnormal Psychology and Modern Life. Scott, Foresman and Company, Glenview, 111, 1972.

(5) Farber, Barry A. (Editor). Stress and Burnbout in the Human Services Professions. Bergamon General Psychology Series. New York: 1988. P. 15.

(6) Freud, S., (1939). "Postroumatic stress disorders history", in Johnson, Kendall, Trauma in the lives of Children, hunter house, 1989, P. 38.

(7) Green, John. Introduction to Measurement and Evaluation. DODD, Mead & Company, New York: 1970.

(8) Henry, Laughlin P. The Neuroses. Washington: 1967.

(9) Horowitz, and Solomon, (1972) "Posttraumatic Stress disorders" "contemporary Theories. In Johnson, Kendall" Trauma in the lives of children, Hunter House, 1989.

(10) James, Beverly. Treating Traumatized children new Insights and Creative interventions Lexington Books, D.C. Heath and Company Massachusetts: 1989.

(11) Garbarina, James. "The Youngist Victims: Kuwaiti children hear Psychic scars of conflict in Gulf. Psychology International, Summer 1991, Vol. 2, No. 3, PP. 1 - 3.

(12) Johnson, Kendall. Trauma in the lives of children crisis and stress Management Techniques for counselors and other Professionals. Hunter - House. 1989, PP. 33 - 61.

(13) Manual of Eysenck Personality Inventory. H.J. Eysenck & Sybil B.G. Eysenck. University of London Press Ltd, 1964.

(14) Seligman, and Garber. "Children's Reaction to trauma", in Johnson, Kendall. Trauma in the lives of children. Hunter - House, 1989, PP. 40 - 61.

(15) Torture Quarterly Journal on Rehabilitation of torture Victims and Prevention of torture, "Kuwait gets first centre for treatment of torture Victims in the Middle East.'Vol. 3, No. 1, 1991, P. 5.



الضغوط التي تعرض لها الأطفال الكويتيون خلال العدوان العراقي وعلاقتها بمدى توافقهم النفسي والاجتماعي

د. عبدالفتاح القرشي *

* أستاذ مساعد بقسم علم النفس بكلية الآداب ـ جامعة الكويت، حاصل على الدكتوراه عام ١٩٨٠ من جامعة الزقازيق.

مقدمة

إن الحدث المؤسف الذي وقع في ٢ أغسطس الحزين سنة ١٩٩٠ من اعتداء وحشي مفاجىء من دولة عربية مسلمة على جارتها العربية المسلمة المسالمة، لم تقتصر آثاره وتداعياته على دول المنطقة وإنما امتدت لتشمل دول العالم بأسره.

وإذا كانت النتائج السياسية والاقتصادية للأزمة على المستوى الوطني أو الخليجي أو العربي أو العالمي قد لقيت نصيبها من الاهتمام والدراسة، فإن الآثار النفسية والاجتماعية التي لحقت بالإنسان الكويتي، الذي كان هدف الأزمة ومحورها، والذي عانى مرارتها بمختلف أبعادها، مازالت تمثل جوانب كامنة بحاجة إلى جهود علمية لرصد مظاهرها، وتحديد أبعادها، وتتبع نتائجها، واقتراح الأساليب والاستراتيجيات الملائمة لمواجهتها.

الإطار النظري لمشكلة البحث

إن الخبرات المؤلمة التي مرت بالكويتيين أثناء الأزمة، على حدتها، تدخل فيما يسميه علماء النفس بالأحداث الضاغطة في الحياة Stressful life events . وقد زاد الاهتمام بهذا المجال في العقدين الأخيرين وأصبح له مجلاته العلمية وهيئاته المتخصصة.

وقد يكون مفيدا في البداية أن نتناول بعض المصطلحات الأساسية المستخدمة في هذا المجال بالتوضيح، ونظرا لصعوبة التوصل إلى تعريفات متفق عليها للمصطلحات السيكولوجية، فلن نتقيد هنا برأي عالم واحد وإنما سنكامل بين عدة آراء للتوصل إلى تصور أوضح للمفهوم.

ونبدأ أولا بتحديد معنى الحدث الضاغط Stressor Event :

ويعرفه العلماء بأنه أي ظرف طبيعي أو اجتماعي جديد أو شديد يواجه الفرد، ولا تكفي استجاباته العادية لمواجهته مما يخل بتوازنه النفسي والاجتماعي. وقد يوصف الحدث بأنه مؤذ أو مرهق أو يتضمن تهديدا أو مخاطرة وقد يوصف في أقصى شدته بأنه كارثة حيث يكون في هذه الحالة مفاجئا وساحقا ويمثل خطورة على الفرد أو الأشخاص المهمين في حياته. (Boss, 1987; Golan, 1978; Mc Cann et al, 1988; Moos & Schaefer, 1987)

وإذا انتقلنا إلى المفهوم الثاني وهو الضغط النفسي Psychological Stress نجد أن التعريفات تميل إلى اعتباره يمثل حالة من التوتر الجسمي والنفسي، ويعتبر محصلة للقوى التي تمارسها الأحداث الضاغطة على الفرد، وتختلف درجة الضغط النفسي للحدث الواحد من شخص إلى آخر، ويتوقف ذلك على مدى إدراك الفرد لقدرته على السيطرة على الموقف والوفاء بمتطلباته بالاعتماد على إمكاناته الشخصية وخبراته السابقة وما يتوافر له من مصادر الدعم والمساندة الاجتماعية في بيئته. (Bruno, 1987; statt, 1991; stotland, 1984; Wolman, 1989)

ونتناول بعد ذلك مفهوما له أهميته في هذا المجال هو مفهوم التوافق Adaptation وقد استخدم في البداية في المجال البيولوجي للتعبير عن التغيرات الجسمية والسلوكية التي تزيد من فرص الكائن الحي في البقاء، ويستخدم في علم النفس ليعبر عن الإمكانات الشخصية والاجتماعية والثقافية التي تهيىء الفرد ليصبح قادرا على مواجهة متطلبات الموقف الجديد. وتشير الأبحاث المعاصرة إلى أن التغيرات الفسيولوجية الداخلية التي تشمل النشاط العصبي الكيميائي والنشاط الهرموني بعناصره المتعددة والوظائف المناعية تلعب جميعها دورا بارزا في السلوك التوافقي للفرد لمواجهة متطلبات الظروف الضاغطة التي يتعرض لها. (Anisman, 1984; Statt, 1991; Wolman, 1989)

ويرتبط بمفهوم التوافق مفهوم آخر أكثر خصوصية هو استراتيجية التوافق Coping Strategies ويقصد بها الأساليب الشعورية العاقلة التي يستخدمها الفرد في التعامل الإيجابي مع مصدر القلق وهي بذلك تختلف عن الأساليب الدفاعية التي تتجه للتخفيف من مشاعر القلق دون مصدره. وقد يشير إليها البعض بمهارات التوافق Coping Skills وتتضمن قدرة الفرد على إدراك الحدث وتقييمه بصورة واقعية وعقلانية، وإعادة تنظيم امكاناته وقدراته للتوافق معه. (Moos & Schaefer, 1986; Wolman, 1989)

ونأتي بعد ذلك لمصطلح جديد اكتسب أهمية كبيرة في السنوات الأخيرة هو : الاضطرابات المرضية الناتجة عن الضغوط (Post Traumatic Stress Disorders) (PTSD) وقد أدخل هذا المصطلح ضمن الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض العقلية، الطبعة الثالثة DSM III, 1980 وتعرف الاضطرابات المرضية الناتجة عن الضغوط (PTSD) بأنها مجموعة من الأعراض المميزة التي تعقب فشل الفرد في مواجهة متطلبات حدث مؤلم من خلال الأنماط العادية للسلوك المتوافر لديه وبخاصة في غياب المساندة الاجتماعية فيشعر بالعجز في مواجهة الحدث. وقد تأخذ هذه الأعراض إحدى صورتين :-

الأولى : استعادة خبرة الحدث المؤلم عن طريق التخيل والأحلام أو الأفكار التي يستدعيها الفرد أو التي تقتحم عليه تفكيره.

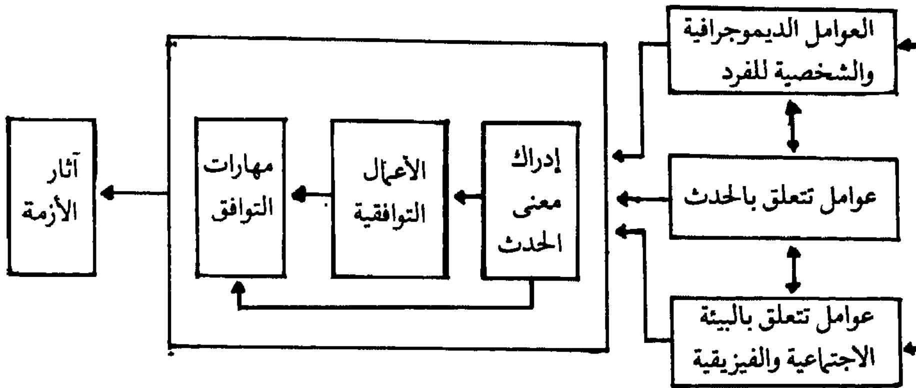
أما الصورة الثانية فتعتمد على إنكار الحدث، وتظهر في استجابات التجنب وتشمل التقليل من الاستجابات للعالم الخارجي والإحساس بالعزلة، وعدم الاهتمام بالأنشطة، وضعف الاستجابات الوجدانية، واللجوء إلى المخدرات.

ويضاف إلى هاتين المجموعتين بعض الأعراض الأخرى مثل اضطرابات النوم وضعف التركيز ونوبات الغضب. (Anisman, 1984; Mc Cann et al 1988)

وبعد أن تناولنا توضيح المفاهيم الأساسية المتعلقة بالموضوع، والتي بدونها يصعب فهم المراحل التي يمر بها الفرد في مواجهته للأزمة، ننتقل إلى استعراض بعض النماذج النظرية التي قدمت لتفسير هذه الظاهرة.

ومن أبرز العلماء الذين اهتموا بتقديم نماذج لتفسير الأزمة جبسون Gibson, 1989 وجور Gore, 1984 ومكان Mc Cann et al., 1988 وثنجتون وكسلر Wethington & Kesller, 1991، ولعل النموذج الذي قدمه موس وشيفر Moos & Schaefer, 1986 يعتبر من أشمل النماذج التي توضح المحددات الأساسية التي تؤثر في استجابات الفرد لضغوط الأزمة. وفيما يلي عرض موجز للإطار العام لهذا النموذج وعناصره:

شكل رقم (١)



المرحلة الأولى من النموذج وتشمل:

١ ـ العوامل الديموجرافية والشخصية للفرد: ويدخل في إطارها العمر والجنس والحالة الاقتصادية الاجتماعية والنضج المعرفي والوجداني وقوة الذات، والثقة في النفس، والمعتقدات الفلسفية أو الدينية، وخبرات الفرد السابقة في مواجهة الأحداث.

٢ ـ عوامل تتعلق بطبيعة الحدث: وقد حدد ميشيل وزملاؤه(Michael et al. 1980) خمسة أبعاد أساسيةيمكن تمييز طبيعة الحدث في ضوئها هي نوع الحدث وهل يرجع إلى الظروف الطبيعية كالزلازل أم إلى الإنسان كالحروب والعنف السياسي والأحداث الاجتماعية أم إلى عوامل بيولوجية كالمرض والموت، ومدة وقوع الحدث سواء كانت قصيرة أم طويلة، ومدى تعرض الفرد لأخطار الحدث وآثاره، واحتمال توقع الفردللحدث أو فجائيته، وإمكانية مواجهة الحدث والتحكم في آثاره.

٣ ـ عوامل تتعلق بالبيئة الاجتماعية والفيزيقية: وتشمل العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وأسرهم، ومدى تماسك المجتمع وإقبال الأفراد على التعاون والعمل التطوعي لمساعدة الآخرين، ومساندة المجتمع وتوقعاته، بالإضافة إلى ما توفره البيئة الفيزيقية من مصادر وإمكانات تساعد على مواجهة الأزمة.

وهذه المجموعات الثلاث من العوامل في القسم الأول من النموذج، بينها قدر من التفاعل وتمثل المرحلة الأولى لتلقي ضغوط الأزمة، وتؤثر بالتالي في إدراك الفرد للحدث وأساليب مواجهته وقدرته على تحمل آثاره.

المرحلة الثانية للنموذج وتشمل:

١ ـ إدراك الفرد لمعنى الحدث، ودلالته الشخصية بالنسبة له، وهذا الإدراك يبدأ بعد صدمة الحدث بصورة غامضة، ثم تزداد ملامحه عقلانية وواقعية بصورة تدريجية، بحيث تتضح أبعاده وتطوراته ونتائجه المحتملة مما يسهل على الفرد التعامل معه بالأساليب الملائمة.

٢ ـ الأعمال التي تهيىء الفرد للتوافق: ويتمثل ذلك في المحافظة على علاقات شخصية وثيقة مع أفراد الأسرة والأصدقاء ومختلف الأفراد والهيئات الذين يمكن أن يساعدوا في مواجهة الأزمة والتغلب على آثارها، وأن يحتفظ الفرد باتزانه الانفعالي ويتحكم في المشاعر السلبية التي خلفتها الأزمة، وأن يستعيد ثقته في نفسه، وإحساسه بكفاءته وقدرته على السيطرة على الموقف. ومثل هذه الأمور من شأنها أن توفر للفرد المساندة الاجتماعية والوجدانية، وتعده نفسيا لمواجهة متطلبات الموقف.

٣ ـ مهارات التوافق أو استراتيجيات التوافق: ويمكن أن تركز على تقييم الحدث واكتشاف نمط من المعنى أو الحكمة فيه، وقد تتخذ أسلوب حل المشكلة ومواجهة الموقف بحلول إيجابية، وقد تتجه إلى التخفيف أو التخلص من الانفعالات الحادة التي خلقتها الأزمة لكي يستعيد الفرد اتزانه النفسي. وهذه الأساليب الثلاثة للتوافق يمكن أن يستخدم الفرد أسلوبا واحدا منها أو أكثر في التعامل مع الموقف.

وبذلك فإن المرحلة الثانية من النموذج تمثل العمليات المختلفة لحشد طاقات الفرد المعرفية والوجدانية والنزوعية لمواجهة الموقف.

المرحلة الثالثة والأخيرة للنموذج وتتمثل في:

نتائج الأزمة وآثارها على الفرد، وتعتبر محصلة لتفاعل جميع العناصر السابقة، وتعبر عن مدى توافق الفرد في مواجهة الموقف، وقد يكون ذلك في صورة توافق ناجح بحيث يستفيد الفرد بالخبرات

التي مرت به أثناء الحدث في مواصلة حياته أو تطويرها، وقد يفشل الفرد في تحقيق التوافق فتظهر عليه الأعراض والاضطرابات التي تؤثر في صحته النفسية والجسمية.

الدراسات السابقة

وإذا حاولنا أن نستقصي الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع، لوجدنا أن السنوات العشر الماضية قد شهدت اهتماما متزايدا بهذا المجال، فقد صدرت مجلة متخصصة في عام ١٩٨٨، كما نشر عدد من الكتب المحررة التي اهتمت بجمع الدراسات المتعلقة بالموضوع. وقد تناولت الدراسات أنواع الضغوط في مختلف الظروف كالشيخوخة والتقاعد والعجز المالي والطلاق وفقدان الوالد أو أحد الأخوة، وأحداث الطبيعة، والاغتصاب، وقد كان للضغوط الناتجة عن الحروب والاحتجاز في معسكرات الاعتقال مكانا واضحا بين هذه الدراسات.
(Dohrenwend & Dohrenwend, 1984; MOOS, 1986; and Eckenrode, 1991).

وسيكتفي الباحث هنا باستعراض أهم الدراسات التي تناولت آثار الحروب على نفسية الأطفال باعتبارها الأكثر ارتباطا بموضوع البحث. ومن العجيب أن عديدا من الدراسات التي تناولت آثار الحروب قد أجريت على أطفال اسرائيليين، رغم قلة هذه الحالات، بينما آلاف من الأطفال العرب والمسلمين الذين تعرضوا لهذه الضغوط لم يهتم بدراستهم أحد.

ومن الدراسات التي اهتمت بالتعرف على استجابات الضغوط لدى الأطفال الصغار الذين فقدوا آباءهم في الحرب دراسة كافمان واليزور Kaffman & Elizur, 1984 التي أجريت على ٢٢ من الأطفال الاسرائيليين العاديين تتراوح أعمارهم بين سنتين وعشر سنوات من الذين فقدوا آباءهم في حرب أكتوبر ١٩٧٣ التي يطلقون عليها حرب يوم الغفران Yum Kabur. وقد استخدما في الدراسة مقابلة نصف مقننة مع الآباء والمدرسين وقد أوضحت نتائج الدراسة أن استجابات الحزن التي تظهر على الأطفال تتسم بالتنوع وتختلف مظاهرها من طفل لآخر، وتشمل الأسى والصراخ والتشوق للأب، وعدم تصديق الوفاة وتوقع عودته والبحث عن أب بديل، وزيادة الاعتماد على الأم والحرص على الارتباط بها، وتظهر هذه الأعراض لدى صغار الأطفال بوجه خاص، بينما يتجه الأطفال الأكبر سنا إلى محاولة فهم معنى الموت، ومحاولة تقليد الأب والتوحد مع شخصيته. وبالإضافة إلى استجابات الحزن فإن غالبية الأطفال تظهر لديهم مشكلات سلوكية تختلف نوعيتها وحدتها باختلاف عمر الطفل وخصائص شخصيته. ومن بين هذه المشكلات المخاوف المتنوعة كالخوف من الوحدة أو الظلام أو الحرب أو الموت، والقلق وعدم استقرار السلوك، وصعوبة التركيز، وقد يلجأ

الطفل للنشاط الزائد كأسلوب دفاعي ضد الشعور بالاكتئاب وقلة الحيلة، وقد تظهر لدى بعض الأطفال مشكلات غذائية كضعف الشهية أو نقص الوزن أو زيادة الوزن. وقد أظهر حوالي نصف الأطفال وبخاصة الكبار زيادة في السلوك العدواني وغالبا ما يتجه العدوان إلى الأم في صورة سلوك سلبي أو عصيان أو ثورات غضب، وقد يظهر العدوان بصورة أقل في المدرسة وفي حالات نادرة قد يظهر مع الرفاق في صورة حسد أو شعور بالنقص.

وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن الضغوط التي تعرضت لها الأمهات أثناء الحرب تنتقل إلى أبنائهم، فقد أوضحت المقارنة التي أجراها ميجر MEIJER, 1985 بين عينتين من الأطفال الإسرائيليين، العينة الأولى (ن=٥٧) ولدوا في العام الذي جرت فيه حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧، والثانية (ن=٦٣) ولدوا بعد سنتين من الحرب، وقد أجريت المقارنة حينما كان الأطفال في الصف الأول الابتدائي، وقد لوحظ أن الأطفال الذين ولدوا في سنة الحرب قد تأخر نموهم، وظهرت عليهم أعراض النكوص، وضعف الانتباه، والسلوك المعادي للمجتمع، وكان التأثير أكبر على الأطفال الذين كان عمرهم ستة شهور أثناء وقوع الحرب بالمقارنة بالأطفال الذين كانوا في رحم أمهاتهم في هذه الفترة.

وفي دراسة أجراها شميتي ونصر وخليفة Chimienti, Nasr & Khalifeh 1989 على عينة (ن=١٠٣٩) من الأطفال اللبنانيين تتراوح أعمارهم بين ٣ و٩ سنوات وجد أن مجموعة الأطفال الذين تعرضوا لخبرات مؤلمة تتمثل في موت أحد أفراد الأسرة أو تهدم منزلهم أو اضطرارهم للعيش مع أسرة أخرى ويمثلون حوالي ٣٠٪ من العينة قد أظهروا أعراضا للتوتر والنكوص والعدوان والاكتئاب بشكل أكبر من مجموعة الأطفال الذين لم يتعرضوا لمثل هذه الخبرات.

وقد توصلت دراسة بوناماكي Punamaki, 1982 على ١٢٨ طفلا اسرائيليا و١٢٨ طفلا فلسطينيا من الضفة الغربية إلى أن الأطفال الفلسطينيين لديهم خبرات مؤلمة وصراعات ومخاوف أكثر من الاسرائيليين، وتميزت نظرة الأطفال الفلسطينيين بتأكيد الجوانب الإيجابية الأيديولوجية في الحرب بينما اتخذ الأطفال الإسرائيليون موقفا واقعيا وأقل رومانسية. وقد أظهرت المجموعتان نفس مقدار العدوان حين تم قياسهم باختبار روزنويج Rosenweig Picture. Frustration Study . كما أظهرت الدراسة أن الأطفال الفلسطينيين لديهم اتجاهات تفضيل نحو المعركة، ويبدون اندماجا

شخصيا عميقـا ، ورغبة في أن يلعبوا أدوارا في الصراع الـوطني . ومثل هذه الآثار الايجابيـة للضغوط الشديدة تؤكـد أهمية العامل الأيديولوجـي في إدراك الأطفال للأحداث الضاغطة وطـريقة الاستجابة لها .

ويدخل ضمن إطار هذه النوعية من الدراسات تلك التي أجراها ملجرام وملجرام Milgram & Milgram, 1976 عن آثـار حرب أكتـوبـر ١٩٧٣ على ٨٥ طفلا إسرائيليـا من الصفين الخامس والسادس منهم ٤٢ ولـدا و٤٣ بنتا ، وقـد وجد أن درجـات القلق بعد الحرب زادت إلى الضعف عما كانت عليـه قبل الحرب ، وأن زيادة مستوى القلق كـانت أكثر لدى الـذكور منها لـدى الإناث . كما وجد تأثير للتفاعل بين متغير القلق وكل من متغيري الجنس والمستوى الاقتصادي الاجتماعي .

ومن الموضوعات التي اهتم العلماء بـدراستها مدى استمرار آثار الأزمـة مع مرور الزمن ، وفيما إذا كانت آثـارها عـارضة تـزول بعد فترة زمنية قصيرة أم أن آثـارها بعيـدة المدى تستمر لسنـوات بعد التعرض للحدث المؤلم . ومن أمثلة هذه الدراسات التتبعية تلك التي قام بها اليزور وكافمان Elizur & Kaffman,1982 على عينة عددها ٢٥ طفلا اسرائيليـا ثمانية منهم إناث و١٧ ذكور وتتراوح أعمارهم بين سنة إلى عشر سنوات من الذين فقدوا آباءهم في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وقد وجد أن حوالي ٤٥٪ يعانون من آثار نفسيـة ومشكلات سلوكية أثرت على توافقهم الأسري والمدرسي ، ويحتـاجون إلى رعاية نفسية ، وذلك حين تمت دراسة حالاتهم بعد فقد الوالـد مباشرة . وقد تم تتبع هذه الحالات بعد سنة ونصف ثم بعـد ثلاث سنـوات من الوفـاة واستخـدمت في الدراسـة الاختبارات السيكـولوجيـة على الأطفال ومقـابلة الأمهـات والمدرسين . وقد لـوحظت زيادة في السلـوك العدواني ومشكـلات النظام وعدم الاستقرار لـدى ثلث العينة بالمقارنـة بحالتهم بعد وفاة الـوالد مباشرة ، وقد لوحـظ ذلك بوجه خاص لدى الـذكور ولدى الأطفال الذين تـزيد أعمارهم عن السادسة . وفي العـامين الثالث والرابع بعد الـوفاة ، ظهـر تحسن ملحوظ في الحالـة النفسية لغـالبية الأطفـال ، تمثلت في تناقـص الأعراض الإكلينيكيـة سـواء في كميتهـا أو شدتها أو تكـرارهـا ، كما ظهـرت بعض المؤشرات الإيجابيـة كضبط الانفعالات وتحمـل المسؤولية للقيـام ببعض الأدوار التي كان يقـوم بها الأب . ومع ذلك فإن مظـاهر الاعتماديـة الـزائدة ظلت تميـز حـوالي ثلثي العينـة ، كما ظـل حـوالي ثلث العينـة يعـاني من القصـور الانفعالي . ولعل هـذه النتائج تؤكـد بوجه خـاص أهمية الـدراسات التتبعية لحالات الأطفـال الذين يتعرضون لمثل هذه الأحداث المؤلمة .

وقد اتجهت بعض الدراسات إلى تناول أحداث نوعية معينة من ضغوط الحرب كتأثير القصف المدفعي للمناطق السكانية وتعرض الأب للأسر ومحاولة التعرف على آثار هذه الأحداث على نفسية الأطفال.

ومن الدراسات التي تناولت آثار التعرض للقصف على نفسية الأطفال دراسة زيف و إسرائيلي Ziv & Israeli, 1973 على عينة من الأطفال الاسرائيليين عمر ١٠ سنوات من الذين تعرضت مناطقهم للقصف الجوي أثناء حرب الاستنزاف مع مصر ولم تسفر النتائج عن وجود فروق دالة بين الأطفال الاسرائيليين الذين كانوا في مواقع تتعرض للقصف والأطفال الذين كانوا في مواقع لا تتعرض للقصف، وقد فسر ذلك بأن الأطفال قد اعتادوا هذه الظروف.

وقد اتجهت بعض هذه الدراسات إلى استخدام رسوم الأطفال للتعرف على التأثيرات النفسية التي ظهرت عليهم كدراسة شوارز Schwarcz, 1982 على مجموعات الأطفال الإسرائيليين الذين كانوا يعيشون في مناطق تتعرض للصواريخ من سوريا أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣. وقد كشفت رسوم الأطفال عن تعبيرات للخوف والقلق ووجدت فروق بين الرسوم في أوقات الحرب والرسوم في أوقات السلم.

وفي دراسة أخرى قام بها زيف وآخرون Ziv et al. . 1974 على مجموعة من الأطفال الإسرائيليين (ن=٥٢١) تتعرض مناطقهم للقصف المتكرر من العرب ومجموعة أخرى (ن=٢٨٧) لا تتعرض مناطقهم للقصف، وتتوزع العينة على الصفوف الأربعة من الرابع إلى الثامن. وقد لاحظ الباحثان تغيرات إيجابية في المجموعة التي تعرضت لضغوط القصف بالمقارنة بالمجموعة التي لم تتعرض للقصف، حيث كانت الأولى أكثر اعتزازا بالانتهاء للمكان مما يعبر عن شعور بالبطولة المحلية، كما كانوا أكثر تقديرا لسمة الشجاعة فيمن يختارونهم كأصدقاء. كما لوحظ أن المجموعة التي تعرضت لظروف القصف كانت درجتها أعلى في الشعور بالعدوان الكامن بالمقارنة بالمجموعة الأخرى.

ولم يغفل الباحثون موضوع الظروف التي تعرض لها الأسرى، ومدى تأثيرها عليهم وعلى أطفالهم، ففي دراسة ليون وآخرون Leon et al.,1981 تمت مقارنة مجموعة (ن=٥٢) من الذين

تعرضوا لظروف معسكرات الأسر في الحرب العالمية الثانية بمجموعة أخرى ضابطة مماثلة للمجموعة الأولى في الخصائص ولكن لم تتعرض للأسر (ن=٢٩) . وقد وجد أن مستوى التكيف لدى الكبار الذين تعرضوا للأسر وأبنائهم كان في حدود المستوى العادي، كما لم توجد أي فروق دالة إحصائيا بين أبناء الأسرى السابقين وأبناء المجموعة الضابطة في صحتهم النفسية أو في اتجاهاتهم وسلوكهم نحو آبائهم. بينما نجد دراسة كيرتز Kurtz, 1989 التي أجريت على الإسرائيليين الذين نجوا من معسكرات الاعتقال النازية تشير إلى أنهم يعانون مما يسمى بأعراض معسكرات الاعتقال حيث ظهر عليهم القلق والاكتئاب والضجر واضطرابات النوم والكوابيس وصعوبات في العلاقات الاجتماعية، كما يعاني أبناؤهم من مشكلات شخصية من بينها مشاعر العدوان والإحساس بالذنب.

وتشير الملاحظات الإكلينيكية التي أوردها كرل Krell, 1990 إلى أنه لاحظ على مدى عشرين عاما من ممارسته الإكلينيكية حالات من أبناء الأسرى تظهر عليهم مظاهر الاكتئاب أو الانهيار النفسي أو غيرها من الأعراض التي لها ارتباط بخبرات الأسر التي تعرض لها آباؤهم.

وإذا انتقلنا إلى الدراسات التي أجريت عن الآثار النفسية للعدوان العراقي على وجه الخصوص، فلا نستطيع أن نغفل فضل الدراسة الرائدة التي قام بها عبد المتعال وآخرون ١٩٩١ عن المشكلات النفسية والاجتماعية في ضوء ظروف العدوان والتي أجريت في وقت مبكر على عينة من الطلاب الكويتيين من الجنسين قوامها ٣١٩ من الطلاب والطالبات بالمرحلتين المتوسطة والثانوية بالمدارس الكويتية بالقاهرة بالإضافة إلى بعض الطالبات الكويتيات (ن=١٦) بالجامعات المصرية كما استطلعت الدراسة آراء عينة (ن=٧٠) من النظار والوكلاء والمدرسين الأوائل والموجهين الاجتماعيين. وقد استخدم في جمع البيانات من الطلاب استبيان مقنن يشتمل على ٣٠ بندا كل منها يتناول مشكلة نفسية محددة وتعبر في مجموعها عن صور مختلفة من الاضطراب السلوكي، وقد أعدت هذه الاستمارة في ضوء استبيان مفتوح لجمع بيانات عن المشكلات التي يعاني منها الطلاب والطالبات. وتغطي الاستبانة استجابات الطالب لثلاث فترات زمنية، ما قبل الغزو، وأثناء الغزو، والتوقعات لما بعد الغزو. وقد قام درويش ١٩٩٢ بمعالجة موسعة ومفصلة لبيانات هذه الدراسة فيما يتعلق باستجابات الطلاب. وقد أوضحت دراسته أن أهم المشكلات التي يعاني منها الطلاب في الفترات الثلاث كانت على الترتيب التالي: التوتر والقلق ومشاعر الخوف من المستقبل وعدم الأمان بالإضافة إلى بعض المؤشرات الدالة على الاكتئاب النفسي كالشعور بالحزن والرغبة في البكاء واضطراب النوم والإحساس بالضياع. وقد وجدت فروق بين الطلاب والطالبات في مدى التأثر بالعدوان حيث كانت الطالبات

أعلى من الطلاب في المشكلات المتعلقة بالقلق وفقد الشهية للطعام والشعور بالتشاؤم. أما فيما يتعلق بالتوقعات باستمرار المعاناة في المستقبل فكانت الطالبات أعلى من الطلاب في مشكلات الشعور بعدم الأمان عموما، والخوف من المستقبل وغلبة الشعور بالوحدة وهبوط الهمة في العمل والدراسة، والإحساس بجرح المشاعر بسهولة. وتطرقت الدراسة إلى تحديد الأعراض المرضية في أربع منظومات إكلينيكية أساسية هي:

١ ـ **العصابية**: وقد ظهر ذلك في زيادة استجابات المشكلات المتعلقة بالتوتر والقلق وهما من أكثر المشكلات دلالة على العصابية، بالإضافة إلى الزيادة في المشكلات الخاصة بالخوف من المستقبل والشعور بالتهديد وعدم الأمان عموما واضطراب النوم وضيق الصدر في أغلب الأوقات.

٢ ـ **الاكتئاب**: وقد ظهر في زيادة استجابات مشاعر الحزن والهم، والرغبة الملحة في البكاء، والمعاناة من مشاعر اللاجيء، والإحساس بالضياع، والشعور بالذنب، وإن ما حدث هو عقاب إلهي، فضلا عن المشاعر الأخرى للانسحابية كالشعور بعدم استحقاق الحياة لأن تعاش، والشعور باليأس وعدم القيمة، والعجز عن اتخاذ قرار وضعف الثقة بالنفس.

٣ ـ **سوء التوافق النفسي الاجتماعي**: وتشمل بالإضافة إلى بعض الاضطرابات العصابية والاكتئابية المسهمة بقدر كبير في التوافق النفسي، بعض المؤشرات المتعلقة بالتوافق الاجتماعي، كسلوك الرفض والسخط على كل شيء، والرغبة في اعتزال الآخرين، والقلق من مواجهتهم.

٤ ـ **الكفاءة الذهنية**: وقد ظهرت في مؤشرات المعاناة من عدم القدرة على التركيز عموما، والتأثير السلبي لذلك على تلقي الدروس وسياقات المذاكرة.

وقد اعتمد هذا التقسيم أساسا على تكرار الاستجابات في كل مشكلة، وقد أيدته إلى حد بعيد نتائج التحليل العاملي التي أجراها الباحث.

وبمجرد عودة المواطنين إلى الكويت بعد التحرير وافتتاح المدارس قامت إدارة الخدمة الاجتماعية بوزارة التربية بإجراء دراسة عن الآثار الاجتماعية والنفسية للغزو العراقي على الطالب

الكويتي في ١٩٩١ . وقد أجريت الدراسة على غالبية مدارس رياض الأطفال والمدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية للبنين والبنات بالمناطق المختلفة (ن=٣٦٣ مدرسة) واعتمدت أسلوب الملاحظة التلقائية التي يقوم بها الأخصائيون الاجتماعيون لسلوك الطلاب ، وتقدير ذلك بذكر الآثار السلبية أو الإيجابية التي لوحظ زيادتها في كل مدرسة . وقد أظهرت الدراسة أن أهم الآثار السلبية التي ظهرت في مدارس الرياض كانت على الترتيب : مشاعر الخوف ، والسلوك العدواني ، وصعوبة التكيف مع الروضة ، والاضطراب النفسي ، والميل إلى الألعاب ذات الطابع العسكري ، أما في بقية المراحل التعليمية المختلفة فكانت : الاضطراب النفسي ، والخوف من المجهول ، والسلوك العدواني ، واهتزاز بعض القيم والثوابت الاجتماعية ومشكلات الخروج على النظام المدرسي . كما أظهرت الدراسة وجود تغيرات إيجابية في مرحلة الرياض كان أهمها على الترتيب : زيادة الحس الوطني ، واتساع مدارك الأطفال فيما يتعلق بالموضوعات العسكرية والسياسية ، وتحمل المسؤولية والاعتماد على النفس ، ومتانة الروابط الأسرية بين الوالدين والأبناء ، أما في المراحل التعليمية المختلفة فان أهم الآثار الايجابية التي لوحظت كانت على الترتيب : الحب والولاء للوطن ، بروز بعض القيم الاجتماعية النبيلة كالمودة والتعاون والعمل التطوعي ، والاعتماد على النفس وتحمل المسؤولية ، واحترام العمل اليدوي ونمو الوعي السياسي . وقد وجدت فروق في هذه المظاهر بحسب متغيرات المناطق التعليمية والمراحل التعليمية والجنس .

وفي دراسة أخرى أجراها جاربارينو Garbarino, 1991 على ٤٥ طفلا من الجنسين تراوحت أعمارهم بين ٥ و ١٣ سنة في أحد أحياء الكويت واستخدم أسلوب المقابلة ، أفاد ٦٢٪ من الأطفال أنهم تعرضوا لصدمات نفسية نتيجة مشاهدتهم لأحداث العنف والقتل ، وذكر ٥٠٪ من العينة أنهم تعرضوا لأحلام مزعجة والشعور بالخوف والبكاء والنوم غير المنتظم ، وقد كانت رسوم الأطفال تعبر عن تأثرهم بالحرب وظروفها .

ومن الدراسات ذات الأهمية في هذا المجال تلك التي أجراها سهل ١٩٩٢ على عينة من الأطفال الكويتيين (ن=٤٢٨) من البنين والبنات بمدارس الروضة والابتدائي من جميع المناطق التعليمية ، باستخدام استبانة وجهت إلى أولياء الأمور لتقدير بعض المظاهر النفسية والاجتماعية والجسمية لدى أطفالهم قبل الغزو وبعد التحرير . وقد أظهرت نتائج الدراسة زيادة بعض المشكلات النفسية بعد الغزو عما كانت عليه قبل الغزو ومن أهمها حسب تقدير أولياء الأمور ما يلي :

١ - اضطرابات النوم: كالفزع أثناء النوم والحركة المثيرة والاستيقاظ المتكرر والأحلام المزعجة حيث كانت نسبتها قبل الغزو ٢٢٫٢٪ وارتفعت إلى ٤٧٫١٪ بعد الغزو (وقد قام الباحث الحالي بحساب كا٢ فبلغت قيمتها ١٢٫٦١ بدلالة إحصائية عند مستوى ٠٫٠٠١)

٢ - اضطرابات انفعالية: وكانت نسبتها قبل الغزو ٣٠٫٩٪ وبلغت بعد الغزو ٥١٫٧ (قيمة كا٢= ٨٫٠٩ بدلالة إحصائية عند مستوى ٠٫٠١)

٣ - مخاوف مرضية: كما تظهر في الخوف من الدم وترك الباب مفتوحا ومشاهدة الملابس العسكرية وقد ارتفعت النسبة من ١٧٫٩٪ قبل الغزو إلى ٣٨٫٦٪ بعد الغزو (قيمة كا٢= ٩٫٥٧ بدلالة إحصائية عند مستوى ٠٫٠١)

٤ - العدوانية: وكانت نسبتها قبل الغزو ١٣٫١٪ وأصبحت بعد الغزو ٢٥٫٨٪ (قيمة كا٢= ٤٫٣٧ بدلالة إحصائية عند مستوى ٠٫٠٥)

ولم تظهر الدراسة فروقا ذات دلالة إحصائية في الآثار النفسية والاجتماعية والصحية بين الأطفال بحسب مكان وجودهم في الكويت أو خارجها أثناء الغزو وقد وجدت فروق بين الذكور والإناث في بعض المشكلات التى يتعرض لها الأطفال.

وباستعراض الدراسات التي تناولناها في الفقرات السابقة سواء منها ما عالج ظروف الحرب بوجه عام على نفسية الأطفال، أو ما كان متعلقا بآثار الغزو العراقي على أطفال الكويت على وجه التحديد، نلاحظ أنه بالرغم من اختلاف مناهجها وتباين المجتمعات التي أجريت فيها، إلاأن معظمها يشير إلى وجود آثار سلبية لظروف الحرب على نفسية الأطفال، وقد أشار بعضها إلى تحقق آثار نفسية إيجابية لهذه الظروف الضاغطة. غير أنه يلاحظ أن كثيرا من هذه الدراسات قد استخدمت عينات قليلة العدد، ولم تتناول قطاعات عريضة من الأطفال الذين تأثروا بالجو العام لظروف الحرب، مما لايتيح الفرصة لتكوين تصور شامل لهذه الظاهرة، أو تعميم النتائج التي توصلت إليها إلى نطاق أوسع. وفيما يتعلق بالدراسات العربية التي أجريت على الكويت بوجه خاص فإن معظمها قد تم جمع بياناته عقب التحرير مباشرة، وهي فترة ساخنة مشحونة بالانفعالات الحادة والمضطربة والتي يحتمل أن تكون مؤقتة وتتضاءل شدتها بعد فترة قصيرة من انتهاء الحدث المؤلم. هذا فضلا عن

أنها لم تستخدم في التحليل الأساليب الإحصائية الملائمة لضبط تأثير التغيرات المتعلقة بالعمر أو الجنس حتى يمكن التعرف بدقة على تأثير المتغيرات الرئيسية المتعلقة بظروف الحرب. ولم يعثر الباحث على دراسة تناولت تأثير ظروف الحرب على التوافق النفسي والاجتماعي للأطفال، أو تهتم بالتحديد بالتعرف على الفروق في التأثير بحسب مستويات الضغوط التي تعرض لها الأطفال خلال فترة الغزو. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى إجراء الدراسة الحالية، مستفيدة من الثراء العلمي الذي قدمته الدراسات السابقة، ومستكملة لمسيرتها في إطار عدد من المتغيرات المحددة ذات الأهمية في هذا المجال.

مشكلة الدراسة الحالية وأهدافها

تتناول الدراسة الحالية بحث العلاقة بين الظروف الضاغطة التي تعرض لها الأطفال الكويتيون خلال العدوان العراقي، ومدى توافقهم الشخصي والاجتماعي، وأي الجوانب في توافقهم الشخصي والاجتماعي كانت أكثر تأثرا بهذه الظروف من غيرها. ويمكن توضيح المتغيرات الأساسية التي تشملها الدراسة فيما يلي:

أولاً: متغيران مستقلان: وهما يمثلان الظروف الضاغطة التي تعرض لها الأطفال.

١ ـ الأحداث الضارة التي تعرض لها الأطفال وتنقسم إلى ثلاثة مستويات هي:
أ ـ أضرار بسيطة لا تذكر.
ب ـ خسائر في الماديات كفقد السيارة أو المنزل أو الأموال.
ج ـ خسائر في الأشخاص: كمشاهدة التعذيب أو وجود شهيد أو مفقود أو أسير في الأسرة.

٢ ـ مكان التواجد أثناء العدوان وينقسم إلى ثلاثة مستويات هي:
أ ـ داخل الكويت طوال فترة العدوان.
ب ـ داخل الكويت في بداية العدوان والخروج أثناء العدوان.
ج ـ خارج الكويت طوال فترة العدوان.

ثانيا: متغيران تابعان: وهما يمثلان مظاهر التوافق الشخصي والاجتماعي التي تأثرت بالعدوان.

١ ـ التوافق الشخصي: كما يتمثل في استجابات الأطفال على القسم الأول من اختبار الشخصية

للأطفال إعداد عطية هنا ويشمل هذا القسم ستة مقاييس فرعية هي الاعتماد على النفس والإحساس بالقيمة والشعور بالحرية والشعور بالانتماء والتحرر من الميل للانفراد والخلو من الأعراض العصابية .

٢ ـ **التوافق الاجتماعي**: ويتمثل في استجابات الأطفال على القسم الثاني للاختبار السابق ، ويشمل هذا القسم ستة مقاييس فرعية هي المستويات الاجتماعية والمهارات الاجتماعية والتحرر من الميول المضادة للمجتمع وعلاقات الطفل بالأسرة والمدرسة والبيئة المحلية .

ثالثا: المتغيران اللذان تم ضبطهما في الدراسة هما :

١ ـ **الجنس**: وقد تم ضبطه عن طريق تحليل نتائج كل من البنين والبنات على حدة .
٢ ـ **العمر**: وقد تم ضبطه عن طريق اعتباره متغايرا COVARIATE عند إجراء تحليل التباين .

فروض الدراسة

وفي ضوء هذا العرض للمتغيرات يمكن تحديد فروض الدراسة كما يلي :
١ ـ توجد فروق في التوافق الشخصي بين الأطفال الكويتيين بحسب نوع الأضرار التي تعرضوا لها أثناء الغزو العراقي .
٢ ـ توجد فروق في التوافق الاجتماعي بين الأطفال الكويتيين بحسب نوع الأضرار التي تعرضوا لها أثناء الغزو العراقي .
٣ ـ توجد فروق في التوافق الشخصي بين الأطفال الكويتيين بحسب مكان تواجدهم سواء في الكويت أم خارجها أثناء العدوان العراقي .
٤ ـ توجد فروق في التوافق الاجتماعي بين الأطفال الكويتيين بحسب مكان تواجدهم سواء داخل الكويت أم خارجها أثناء الغزو العراقي .

وقد تم التحقق من الفروض السابقة في كل من مجموعة البنين والبنات على حدة ولكل مقياس من المقاييس الفرعية للتوافق الشخصي أو الاجتماعي . ولم يشأ الباحث أن يحدد وجهة الفروض حيث لاتتوافر دراسات تسمح بتحديد هذه الوجهة ، فقد تظهر آثار الغزو في بعض أبعاد التوافق في صورة إيجابية ، وقد تظهر في بعضها الآخر في صورة سلبية ، وقد لاتظهر آثار للغزو في أبعاد أخرى .

أهمية الدراسة

وترمي الدراسة الحالية إلى تحقيق هدف نظري يتمثل في الكشف عن الآثار التي تركتها ظروف العدوان العراقي على نفسية الأطفال الكويتيين وأبعادها ودرجة حدتها بما يساعد على إثراء النماذج النظرية التي وضعت لتفسير هذه الظاهرة وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن الإفادة من نتائجها في الجانب التطبيقي في وضع برامج الإرشاد النفسي والعلاج الإكلينيكي والتوجيه التربوي والأسري، والإعلامي، بما يكفل الرعاية الملائمة لفئات الأطفال التي تضررت نفسيا بسبب ظروف العدوان العراقي.

منهج الدراسة

وسنتناول فيما يلي العناصر التي يشملها المنهج المتبع في هذه الدراسة

أولا : العينة

تشمل عينة الدراسة ٦٠٠ حالة نصفهم من البنين ونصفهم من البنات من الصفين الأول والثاني بالمرحلة المتوسطة ، تم اختيارهم بطريقة الحصص على أساس متغيرات الجنس والصف الدراسي والمناطق السكنية. وتتراوح أعمار مجموعة البنين بين ٩ سنوات و١٤ سنة بمتوسط ١١,٢٦ سنة وانحراف معياري ١,١٥ سنة ، كما تتراوح أعمار البنات بين ١٠ سنوات و١٥ سنة بمتوسط مقداره ١١,٣٣ سنة وانحراف معياري مقداره ٠,٨ سنة.

ونعرض فيما يلي أهم البيانات الوصفية المتعلقة بعينة البحث :

١ ـ عدد الأخوة للطفل

وكان أحد البنود التي تضمنتها استمارة البحث يتعلق بعدد أخوة الطفل باعتبار أن زيادة حجم الأسرة يمكن أن يقدم للطفل مساندة اجتماعية في مواجهة الأحداث الضاغطة . والجدول التالي رقم (١) يوضح توزيع عدد الأخوة في عينة البحث:

جدول رقم (١)
توزيع عدد الأخوة للطفل بين أفراد العينة

عدد الأخوة	مجموعة الذكور		مجموعة الإناث		المجموع	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
صفر	٤	١,٣	٤	١,٣	٨	١,٣
١	١٦	٥,٣	٥	١,٧	٢١	٣,٥
٢	١٩	٦,٣	١٤	٤,٧٠	٣٣	٥,٥
٣	٦٠	٢٠,٣	٣٣	١١	٩٣	١٥,٦٥
٤	٥٦	١٨,٧	٥٨	١٩,٣	١١٤	١٩
٥	٤٤	١٤,٧	٤٦	١٥,٣	٩٠	١٥
٦	٢٥	٨,٣	٤٣	١٤,٣	٦٨	١١,٣
٧	٢٧	٩	٢٩	٩,٧	٥٦	٩,٣٥
٨	١٦	٥,٣	٢٧	٩	٤٣	٧,١٥
٩	١٤	٤,٧	١٢	٤	٢٦	٤,٣٥
١٠	٨	٢,٧	١٣	٤,٣	٢١	٣,٥
أكثر من ١١	١١	٣,٧	١٦	٥,٣	٢٧	٤,٥
المجموع	٣٠٠	١٠٠,٣	٣٠٠	١٠٠	٦٠٠	١٠٠,١

ومما هو جدير بالملاحظة أن نسب الأسر صغيرة العدد التي لايوجد فيها أخ أو يوجد فيها أخ واحد كانت قليلة جدا، حيث بلغت نسبتها في المجموعة ككل ٤,٨٪، وأن الأسر متوسطة العدد التي يتراوح عدد الأخوة فيها بين ٢، ٤ أفراد قد بلغت نسبتها في المجموعة ككل ٤٠٪، أما الأسر كبيرة العدد التي يبلغ فيها عدد الأخوة للطفل ٥ أفراد فأكثر فقد بلغت نسبتها في المجموعة ككل

١ , ٥٥٪ مما يوضح أن غالبية أفراد العينة من الأطفـال كانوا يعيشون في أسر متوسطة أو كبيرة العدد ، وقد بلغ عدد الأخوة في بعض الحالات ٢١ أخا .

٢ـ تكوين الأسرة التي كان يعيش فيها الطفل

وقـد اهتمت الـدراسة بجمع بيـانـات عن تكـوين الأسرة التي يعيش فيهـا الطفل ، وهل يعيش مع الوالدين أو الوالدة فقط أو الوالد فقط أو مع الأقارب ، باعتبار أن الأسرة هي المصدر الأساسي الذي يستمد منه الطفل إحساسه بالأمن والذي يكون سندا له في تحمل ما يواجهه من أزمات والجدول التالي رقم (٢) يوضح توزيع العينة بحسب تكوين الأسرة .

جدول رقم (٢)
توزيع العينة بحسب الأشخاص الذين كان يعيش معهم الطفل أثناء العدوان

الأشخاص الذين كان يعيش معهم	مجموعة الذكور (ن = ٣٠٠)		مجموعة الإناث (ن = ٣٠٠)		مجموع العينة (ن = ٦٠٠)	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
مع الوالدين	٢٧٩	٩٣	٢٦٨	٨٩,٣	٥٤٧	٩١,٢
مع الوالدة فقط	١٧	٥,٧	٢٧	٩	٤٤	٧,٣
مع الوالد فقط	٢	٠,٧	٣	١	٥	٠,٨
مع الأقارب	٢	٠,٧	٢	٠,٧	٤	٠,٧
المجموع	٣٠٠	١٠٠	٣٠٠	١٠٠	٦٠٠	١٠٠

ويتضح من الجدول السابق أن غالبيـة الأطفال ٢ , ٩١٪ من المجموعة ككل كانوا يتمتعـون بالمعيشة مع الوالدين ، بينما النسب القليلة الباقية كانت محرومة من أحد الوالدين أو منهما معا .

٣ـ توزيع أفراد العينة بحسب مكان الإقامة أثناء العدوان

وقد تم تقسيم العينة بحسب مكان الإقامة أثناء العدوان سواء داخل الكويت أم خارج الكويت أم داخل وخارج الكويت وهي المجموعة التي حضرت بداية العدوان ثم خرجت أثناء العدوان، وتختلف نوعية الظروف التي تعرضت لها كل من المجموعات الثلاث. والجدول التالي رقم (٣) يوضح توزيع العينة بحسب مكان إقامتها أثناء العدوان.

جدول رقم (٣)
توزيع العينة بحسب مكان الإقامة أثناء العدوان

مكان الإقامة	مجموعة الذكور (ن = ٣٠٠)		مجموعة الإناث (ن = ٣٠٠)		مجموع العينة (ن = ٦٠٠)	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
داخل الكويت	١٣٤	٤٤,٧	١٦١	٥٣,٧	٢٩٥	٤٩,٢
خارج الكويت	٥٩	١٩,٧	٦١	٢٠,٣	١٢٠	٢٠
داخل وخارج الكويت	١٠٧	٣٥,٧	٧٨	٢٦	١٨٥	٣٠,٨
المجموع	٣٠٠	١٠٠	٣٠٠	١٠٠	٦٠٠	١٠٠

ويتضح من الجدول السابق أن حوالي نصف عدد العينة ٤٩,٢٪ من المجموعة ككل قد تحملت ظروف العدوان داخل الكويت طول فترة العدوان العراقي، وأن نسبة أقل تبلغ ٣٠,٨٪ من المجموعة ككل حضرت بداية العدوان في الكويت وخرجت أثناءه، بينما أقل النسب وتبلغ ٢٠٪ من المجموعة ككل فكانت للذين كانوا بالخارج قبل العدوان واستمروا بالخارج حتى التحرير. وجدير بالذكر أن بعض الأسر كان جزء منها بالخارج وبقية الأسرة بالداخل.

٤ ـ توزيع العينة بحسب نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال

وقد قسمت الأضرار التي تعرض لها الأطفال إلى ثلاثة أقسام، فالأولى تتعلق بالأضرار في الأشخاص كمشاهدة التعذيب أو فقد أحد أفراد الأسرة كأسير أو شهيد، والثانية تتعلق بالأضرار المادية كفقد المنزل أو السيارة أو الأموال أو تفتيش المنزل، والفئة الثالثة وهي التي أجابت بلا على جميع البنود المتعلقة بالأضرار المذكورة بالاستبيان وتعتبر أضرار بسيطة، فقد تكون هذه المجموعة تعرضت لأضرار أخرى لم تذكرها القائمة والجدول التالي رقم (٤) يوضح توزيع العينة بحسب نوع الأضرار حسب التقسيم السابق.

جدول رقم (٤)

توزيع العينة بحسب نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال أثناء العدوان

نوع الأضرار	مجموعة الذكور		مجموعة الإناث		مجموع العينة	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
أضرار بسيطة	٢٨	٩,٣	٥٣	١٧,٧	٨١	١٣,٥
أضرار في الأموال	١١٣	٣٧,٧	٩٧	٣٢,٣	٢١٠	٣٥
أضرار في الأنفس	١٥٩	٥٣	١٥٠	٥٠	٣٠٩	٥١,٥
المجموع	٣٠٠	١٠٠	٣٠٠	١٠٠	٦٠٠	١٠٠

ويلاحظ أن أعلى النسب كانت للأطفال الذين لحقت بهم أضرار تتعلق بالأشخاص حيث بلغت ٥١,٥٪ للمجموعة ككل، يليها الأطفال الذين تعرضوا لأضرار في الأموال حيث بلغت ٣٥,٠٪ للمجموعة ككل وأخيرا كانت أقل النسب للأطفال الذين تعرضوا لأضرار أخرى بسيطة حيث بلغت ١٣,٥٪ للمجموع ككل.

٥ ـ توزيع العينة بحسب الأحداث الضارة التي تعرضوا لها

ونتناول فيما يلي النسب المئوية لاستجابات الأطفال تفصيلا على كل بند من البنود التي تتعلق بالأحداث الضارة، كما يتضح من الجدول رقم (٥).

جدول رقم (٥)
توزيع العينة بحسب الأحداث الضارة التي تعرض لها الأطفال أثناء العدوان

الأحداث الضارة	مجموعة الذكور (ن = ٣٠٠)		مجموعة الإناث (ن = ٣٠٠)		مجموع العينة (ن = ٦٠٠)	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
خسارة السيارة	١٣٧	٤٥,٧	١١٦	٣٨,٧	٢٥٣	٤٢,٢
خسارة أثاث المنزل	١٣٦	٤٥,٣	٨٤	٢٨	٢١٠	٣٥
خسارة الأموال	١٠٦	٣٥,٣	٦٧	٢٢,٣	١٧٣	٢٨,٨
تفتيش المنزل	١٦٢	٥٤	١٣٧	٤٥,٧	٢٩٩	٤٩,٨
مشاهدة التعذيب	٧٢	٢٤	٥٥	١٨,٣	١٢٧	٢١,٢
أسر أحد أفراد الأسرة	١٥٣	٥١	١٣١	٤٣,٧	٢٨٤	٤١,٣
استشهاد أحد أفراد الأسرة	٣٥	١١,٧	٤١	١٣,٧	٧٦	١٢,٧

ويلاحظ من الجدول السابق أن أعلى النسب كانت لتفتيش المنزل حيث بلغت لدى المجموعة ككل ٤٩,٨٪ وكذلك لوجود أسير من أفراد الأسرة حيث بلغت لدى المجموعة ككل ٤٧,٣٪ بينما كانت أقل النسب لاستشهاد أحد أفراد الأسرة حيث بلغت لدى المجموعة ككل ١٢,٧٪.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن بعض الأفراد قد تعرضوا لأكثر من حدث ضار أثناء العدوان.

ثانيا ـ أدوات الدراسة

اعتمدت الدراسة على أداتين هما:

١ ـ استمارة بيانات: تشمل الاسم والعمر والمدرسة والصف الدراسي ووظيفة الأب وعدد الأخوة والأشخاص الذين كان يعيش معهم الطفل أثناء العدوان، ومكان إقامته أثناء العدوان، والأضرار التي تعرض لها كفقد السيارة أو الأثاث أو الأموال وتفتيش المنزل ومشاهدة التعذيب وتعرض أحد أفراد الأسرة للأسر أو الاستشهاد.

٢ ـ اختبار الشخصية للأطفال: وهو صورة معربة من اختبار كاليفورنيا للأطفال من تأليف ثورب وكلارك وتيجز THORPE. P: CLARK. C. & TIEGZ. W. قام بإعدادها عطية هنا، ١٩٨٦، ويقيس هذا الاختبار التوافق الشخصي والتوافق الاجتماعي للأطفال ويتكون من قسمين أساسيين:

الأول: التوافق الشخصي ويشمل ستة مقاييس فرعية هي:

أ ـ **الاعتماد على النفس**: ويعبر عن ميل الطفل إلى القيام بما يراه من عمل وقدرته على توجيه سلوكه وتحمل المسؤولية.

ب ـ **الإحساس بالقيمة الذاتية**: ويعبر عن شعور الطفل بأنه قادر على القيام بما يقوم به أقرانه وبأنه ينال تقدير ومحبة الآخرين.

ج ـ **الشعور بالحرية**: ويعبر عن شعور الطفل بأنه قادر على توجيه سلوكه، وله الحق في اختيار أصدقائه وحاجاته وأنشطته الخاصة، والمشاركة في اختيار مستقبله.

د ـ **الشعور بالانتماء**: ويعبر عن شعور الطفل بحب والديه وأسرته وزملائه واعتزازه بهم.

هـ ـ **التحرر من الميل إلى الانفراد**: ويعبر عن ابتعاد الطفل عن الانطواء والوحدة، فهو يشارك الآخرين في أنشطتهم ولا يشعر بالغربة أو الكراهية أو الغيرة ممن حوله.

و ـ **الخلو من الأعراض العصابية**: ويعبر عن عدم الشكوى من الأعراض العصابية كقضم الأظافر والخوف وكثرة البكاء واضطرابات النوم والإحساس بالتعب.

ويمكن الحصول من نتائج تطبيق الاختبار على درجة لكل من المقاييس الفرعية السابقة، كما نحصل من مجموع درجات هذه المقاييس على درجة تعبر عن التوافق الشخصي للطفل.

أما القسم الثاني فيختص بالتوافق الاجتماعي ويشمل ستة مقاييس فرعية أيضا هي:

أ ـ **الاعتراف بالمستويات الاجتماعية**: ويعبر عن إدراك الطفل لمراعاة حقوق الآخرين، ومعرفة الصواب والخطأ من وجهة نظر الجماعة وتقبل أحكامها برضى.

ب ـ **اكتساب المهارات الاجتماعية**: وتظهر في قدرة الطفل على التعبير عن مودته للآخرين، والقدرة على التعامل معهم، والحرص على مساعدتهم.

ج ـ التحرر من الميول المضادة للمجتمع : ويظهر ذلك من ابتعاد الطفل عن العراك والعصيان أو التدمير، وأن يكون عادلا في معاملته لا يرضى رغباته على حساب غيره .

د ـ العلاقات مع الأسرة : ويظهر ذلك في العلاقات الطيبة بين الطفل وأسرته ، وإحساسه بمحبتهم وتقديرهم، وتقبله لسلطة الوالدين المعتدلة في توجيه سلوكه .

هـ ـ العلاقات مع المدرسة : وتظهر من علاقات الطفل الطيبة في المدرسة مع زملائه ومدرسيه ، وإحساسه بمشاعر التقدير والمودة المتبادلة بينه وبينهم .

و ـ العلاقات في البيئة المحلية : وتظهر في مشاعر المودة المتبادلة بين الطفل وجيرانه ، ومراعاته لحقوقهم ، ومشاركته لهم في الألعاب وقضاء أوقات الفراغ .

ويمكن الحصول من نتائج تطبيق الاختبار على درجة لكل من المقاييس الفرعية السابقة ، ونحصل من مجموع درجات هذه المقاييس على درجة تعبر عن التوافق الاجتماعي للطفل .

كما يمكن الحصول من مجموع درجتي التوافق الشخصي والاجتماعي على درجة كلية تعبر عن التوافق العام للطفل (هنا، ١٩٨٦) .

وتتوافر بيانات كافية عن الخصائص السيكومترية للاختبار بصورته العربية ، حيث توصلت الدراسات في البيئة المصرية باستخدام طريقة كيودر رتشاردسون إلى معاملات ثبات ٠,٧ للتوافق الشخصي و ٠,٨٤ للتوافق الاجتماعي و ٠,٨٤ للتوافق العام (هنا، ١٩٨٦) . وقد قام الباحث الحالي بالتحقق من ثبات الاختبار بطريقة إعادة الاختبار بعد شهر على ٧٠ من الأطفال الكويتيين نصفهم من الذكور ونصفهم من الإناث تتراوح أعمارهم من ٩ إلى ١٣ سنة . وبلغ معامل الثبات للتوافق الشخصي ٠,٨١ وللتوافق الاجتماعي ٠,٨٠ وللتوافق العام ٠,٨٤ كما تراوح معامل ثبات المقاييس الفرعية بين ٠,٦٢ و ٠,٨٢ بوسيط مقداره ٠,٧٢ ويوضح الملحق رقم (١) تفاصيل معاملات الثبات للاختبار.

أما عن صدق الاختبار فتشير دراسة بثينة بالاعتماد على تقديرات المدرسين للأبعاد التي يقيسها الاختبار إلى وجود ارتباطات تتراوح بين ٠,٠٣ و ٠,٧٨ للأبعاد المختلفة ، كما تشير دراسة غالي باستخدام اختبار الصحة النفسية كمحك خارجي إلى معاملات ارتباط مقدارها ـ ٠,٧٩ للتوافق الشخصي و ـ ٠,٥٥ للتوافق الاجتماعي و ـ ٠,٦٥ للتوافق العام وهي مؤشرات جيدة لصدق الاختبار (هنا، ١٩٨٦) .

وقد حرص الباحث في الدراسة الحالية على التحقق من الصدق التكويني للاختبار في البيئة الكويتية باستخدام التحليل العاملي لنتائج استجابات عينة البحث (ن = ٦٠٠). وقد أسفرت نتائج التحليل العاملي بطريقة المكونات الرئيسية وتدوير المحاور بطريقة فاريماكس عن عاملين:

العامل الأول: وقد شمل جميع المقاييس الفرعية الستة التي تدخل تحت قسم التوافق الاجتماعي في الاختبار، وتراوحت تشبعات هذه المقاييس بالعامل الأول بين ٣٤٨,٠ لمقياس المهارات الاجتماعية و ٧٢١,٠ لمقياس التحرر من الميول المضادة للمجتمع، أما تشبعات بقية المقاييس الأخرى والتي تدخل في القسم الخاص بالتوافق الشخصي من الاختبار، فكانت تشبعاتها ضعيفة بهذا العامل. وقد اعتمد الباحث فقط على تشبعات المقاييس حين تصل قيمتها بعد التدوير إلى ٣,٠ فأكثر حيث أن هذا المستوى هو الذي يعتبر مقبولا ويمكن أن يكون لتفسيره معنى (Tabachnick, G. & Fidell, S., 1983).

أما العامل الثاني: فقد شمل جميع المقاييس الفرعية الستة التي تدخل في القسم الخاص بالتوافق الشخصي من الاختبار، وتراوحت تشبعات هذه المقاييس الفرعية بالعامل الثاني بين ٤٢٥,٠ لمقياس شعور الطفل بالانتماء و ٥٦٠,٠ للمقياس الخاص بخلو الطفل من الأعراض العصابية. أما تشبعات بقية المقاييس الأخرى والتي تدخل ضمن القسم الخاص بالتوافق الاجتماعي للاختبار فكانت تشبعاتها ضعيفة مع هذا العامل باستثناء المقياس الخاص بعلاقة الطفل بأسرته فقد كان تشبعه بالعامل الثاني ٣٢٢,٠، وإذا رجعنا إلى محتوى عبارات هذا المقياس لوجدنا أنها تتضمن دلالات ذات طابع وجداني بالإضافة إلى الدلالات الاجتماعية.

ويلاحظ مما سبق أن نتائج التحليل العاملي للمقاييس الفرعية للاختبار قد أسفرت عن وجود عاملين، أحدهما يجمع المقاييس الفرعية ذات الطابع الاجتماعي والآخر يجمع المقاييس الفرعية ذات الطابع الشخصي، وبذلك فإن هذه النتائج تتفق تماما مع تقسيم هذه المقاييس الفرعية في الاختبار إلى قسمين، مما يوضح الصدق التكويني لاختبار الشخصية للأطفال المستخدم في هذه الدراسة. (أنظر الملحق رقم ٢)

ثالثا ـ الأساليب الإحصائية المستخدمة في الدراسة

اعتمد الباحث في المعالجة الإحصائية للبيانات على الحاسب الآلي باستخدام حزمة برامج SPSS/ PC + 4.0، وقد استخدمت الأساليب الإحصائية التالية في المراحل المختلفة للدراسة:

١ ـ التكرارات والنسب المئوية لوصف بعض المتغيرات المنفصلة كعدد الأخوة، وتكوين الأسرة، مكان وجود الطفل أثناء العدوان، والأحداث الضارة.
٢ ـ المتوسطات والانحرافات المعيارية لوصف المتغيرات المتصلة كالعمر والمقاييس المتعلقة بالتوافق الشخصي والتوافق الاجتماعي.
٣ ـ معامل ارتباط بيرسون لتقدير ثبات الاختبار المستخدم بطريقة إعادة الاختبار Test - Retest.
٤ ـ التحليل العاملي بطريقة المكونات الرئيسية Prencipal Components Analysis وتدوير المحاور بطريقة الفاريماكس Varimax. للتحقق من الصدق التكويني للاختبار.
٥ ـ تحليل بارتلت Bartletts Test Of Sphericity للتحقق من مدى الحاجة إلى استخدام تحليل التباين المتعدد MANOVA.
٦ ـ تحليل التباين ANOVA لتحديد تأثير المتغيرات الرئيسية (المستقلة) وهي الأحداث الضارة التي تعرض لها الأطفال ومكان إقامتهم أثناء العدوان على التباين في مقاييس التوافق الشخصي والاجتماعي.

عرض النتائج

نظرا لأن تصميم الدراسة يتضمن أكثر من متغير مستقل وأكثر من متغير تابع فإن الأسلوب الملائم لمعالجة البيانات هو تحليل التباين المتعدد MANOVA، وحتى يتحقق الباحث من جدوى استخدام هذا الأسلوب فقد أجرى اختبار بارتلت Bartlett وأسفرت النتائج عن عدم وجود ارتباطات دالة إحصائيا لمصفوفات الارتباطات للمتغيرات التابعة سواء في مجموعة الذكور أم في مجموعة الإناث، وبذلك لم تكن هناك حاجة في هذه الحالة لاستخدام أسلوب تحليل التباين المتعدد (Norusis 1990 , a) لذلك فقد اكتفى الباحث باستخدام أسلوب تحليل التباين ANOVA.

وقد أجرى التحليل لمقاييس التوافق الشخصي والاجتماعي في كل من مجموعة الذكور ومجموعة الإناث على حدة وفيما يلي خلاصة النتائج التي أسفر عنها التحليل الإحصائي:

أولا: تأثير الضغوط التي تعرضت لها مجموعة الذكور على توافقهم الشخصي

يوضح جدول (٦) خلاصة نتائج تحليل التباين لمقاييس التوافق الشخصي مبينا بها التأثير الأساسي لكل من نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال ومكان الإقامة أثناء العدوان، وكذلك تأثير التفاعل بين هذين المتغيرين، مع اعتبار العمر متغايرا Covariate لضبط تأثيره على النتائج.

جدول (٦)
نتائج تحليل التباين للتوافق الشخصي بحسب الظروف
التي تعرضت له مجموعة الأطفال الذكور أثناء العدوان
(ن = ٣٠٠)

المقاييس الفرعية	مصدر التباين							
	تأثير التغاير		التأثير الأساسي				تأثير التفاعل	
	العمر درجات الحرية =١		الأضرار درجات الحرية =٢		الإقامة أثناء العدوان درجات الحرية =٢		الأضرار × الإقامة درجات الحرية =٤	
	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة
الاعتماد على النفس	٠,٠٩٢	غير دالة	٠,٨٧٧	غير دالة	٠,١٥٥	غير دالة	٠,٨٠٢	غير دالة
الإحساس بالقيمة	٠,٨٥٥	غير دالة	١,٢٠١	غير دالة	٠,٢٥٩	غير دالة	١,٣٥٥	غير دالة
الشعور بالحرية	٢,٨١٨	غير دالة	٢,٧٤	غير دالة	٠,٠١٣	غير دالة	٠,٦٧٨	غير دالة
الشعور بالانتماء	٠,١٠٥	غير دالة	٠,١١٥	غير دالة	٠,٧٥٩	غير دالة	٠,٢٥٥	غير دالة
التحرر من الميل للانفراد	٠,٥٢٣	غير دالة	١,٠١٣	غير دالة	١,٢٤١	غير دالة	١,٣٩٨	غير دالة
الخلو من الأعراض العصابية	١,٣٣١	غير دالة	٤,١٩٤	٠,٠١٦	٠,٢٥٥	غير دالة	١,٦٥٨	غير دالة
مجموع التوافق الشخصي	٠,٤٩١	غير دالة	٣,٣٢٦	٠,٠٣٧	٠,١٥١	غير دالة	٢,٣٠٥	غير دالة

ويلاحظ من النتائج المعروضة بالجدول رقم (٦) مايلي :

١ ـ إن التأثير الأساسي لنوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال (تتعلق بالأنفس/ تتعلق بالأموال/ أخرى) على توافقهم الشخصي لم يصل إلى مستوى الدلالة الإحصائية سوى في مقياس الخلو من الأعراض العصابية حيث بلغ ٠,٠١٦ وفي مجموع التوافق الشخصي حيث بلغ ٠,٠٣٧ وبالرجوع إلى الملحق رقم (٣) نجد أن أقل المتوسطات لدرجات الخلو من الأعراض العصابية كان للمجموعة التي تعرضت لأضرار في الأموال (٥,١٨) تليها المجموعة التي تعرضت لأضرار في الأنفس (٥,٧١) وكانت أعلى المجموعات في الخلو من الأعراض العصابية تلك التي تعرضت لأضرار بسيطة لاتذكر. وظهر نفس النمط في الترتيب أيضا في مجموع التوافق الشخصي، حيث كان أقل المتوسطات للمجموعة التي تعرضت لأضرار مالية (٣١,٢٧) تليها

المجموعة التي تعرضت لأضرار في الأنفس (٦٩ , ٣٢) وكانت أعلى المجموعات في التوافق الشخصي بوجه عام المجموعة التي تعرضت لأضرار بسيطة لاتذكر (٧٩, ٣٣). ونظرا لأن الدلالة الإحصائية تتأثر بحجم العينة، وبذلك لاتعبر بدقة عن قيمة هذا التأثير ومدى أهميته، فقد تم حساب حجم التأثير للمتغيرات الدالة إحصائيا على أساس الانحرافات عن المتوسط العام بعد تعديله في ضوء تأثير المتغيرات المستقلة الأخرى والتغاير (Norusis , 1990 b,) وقد بلغت قيمة حجم التأثير لنوع الأضرار على الخلو من الأعراض العصابية ٠٢٩ , ٠، كما بلغت ٠٢٣ , ٠ بالنسبة لمجموع التوافق الشخصي أي أن نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال أثناء العدوان يمكن أن تفسر حوالي ٣٪ من التباين في استجابات الخلو من الأعراض العصابية، كما تفسر ٢٪ من التباين لاستجابات التوافق الشخصي بوجه عام.

٢ ـ إن مكان الإقامة أثناء الغزو (داخل الكويت/ داخل الكويت وخارجها/ خارج الكويت) لم يصل تأثيره على مقاييس التوافق الشخصي إلى مستوى الدلالة الإحصائية.

٣ ـ إن تأثير التفاعل بين نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال ومكان إقامتهم أثناء الغزو لم يصل إلى مستوى الدلالة الإحصائية بالنسبة لمقاييس التفاعل الشخصي.

٤ ـ إن العمر باعتباره متغايرا Covariate في التحليل لم يصل تأثيره إلى مستوى الدلالة الإحصائية مع أي من مقاييس التوافق الشخصي.

ثانيا: تأثير الضغوط التي تعرضت لها مجموعة الذكور على توافقهم الاجتماعي

يوضح الجدول رقم (٧) خلاصة نتائج تحليل التباين لمقاييس التوافق الاجتماعي مبينا بها التأثير الأساسي لكل من الأضرار التي تعرضوا لها ومكان إقامتهم أثناء الغزو وكذلك تأثير التفاعل بين هذين المتغيرين، مع اعتبار العمر متغايرا Covariate لضبط تأثيره على النتائج.

جدول (٧)

نتائج تحليل التباين للتوافق الاجتماعي بحسب الظروف التي تعرضت لها مجموعة الأطفال الذكور أثناء العدوان

(ن = ٣٠٠)

المقاييس الفرعية	مصدر التباين							
	تأثير التغاير		التأثير الأساسي				تأثير التفاعل	
	العمر درجات الحرية = ١		الأضرار درجات الحرية = ٢		الإقامة أثناء الغزو درجات الحرية = ٢		الأضرار × الإقامة درجات الحرية = ٤	
	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة
المستويات الاجتماعية	٢٣,١٨	٠,٠٠٠	٠,٣٠٣	غير دالة	٣,٦٥٧	٠,٠٢٧	٠,٥٩١	غير دالة
المهارات الاجتماعية	٦,٢١٦	٠,٠١٣	١,٣٨٣	غير دالة	٠,٩٠٦	غير دالة	٠,٤٨٣	غير دالة
التحرر من الميول المضادة للمجتمع	٧,١٧٦	٠,٠٠٨	٠,٠٢١	غير دالة	١,١٠٩	غير دالة	٠,٩٦٩	غير دالة
العلاقات مع الأسرة	٧,٩٢١	٠,٠٠٥	٠,٦٥٩	غير دالة	٠,٩١٢	غير دالة	٠,٤٧	غير دالة
العلاقات في المدرسة	٤,٣٤٧	٠,٠٣٨	١,٨٧٨	غير دالة	٠,٢٨٥	غير دالة	٠,٥٤٥	غير دالة
العلاقات في البيئة المحلية	٩,٥٠٨	٠,٠٠٢	٠,٩٢٥	غير دالة	٠,٤٣٢	غير دالة	٣,٧٢٨	٠,٠٠٦
مجموع التوافق الاجتماعي	٢٠,٦٢	٠,٠٠٠	٠,٣٧١	غير دالة	٠,٩٩٣	غير دالة	١,٠٨٤	غير دالة

ويلاحظ من النتائج المعروضة بالجدول رقم (٧) مايلي :

١ـ إن التأثير الأساسي لنوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال أثناء العدوان (تتعلق بالأنفس/ بالأموال/ أخرى) على أي من مقاييس التوافق الاجتماعي لم يصل إلى مستوى الدلالة الإحصائية ، أي أن اختلاف نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال أثناء العدوان لم يظهر له تأثير يذكر على التوافق الاجتماعي لمجموعة الأطفال الكويتيين الذكور.

٢ـ إن التأثير الأساسي لمكان إقامة الأطفال أثناء العدوان (داخل الكويت/ داخل الكويت وخارجها/ خارج الكويت) قد ظهر فقط في مقياس اعتراف الطفل بالمستويات الاجتماعية حيث بلغت الدلالة الإحصائية ٠,٠٢٧ وبالرجوع إلى الملحق رقم (٤) نجد أن أعلى المتوسطات

لدرجات المستويات الاجتماعية كان للمجموعة التي كانت بالداخل ثم خرجت (١٤,٥) تليها المجموعة التي كانت بالخارج وكانت أقل المتوسطات للمجموعة التي كانت داخل الكويت. وقد بلغ حجم تأثير مكان الإقامة ٠,٠٢٣ يعني أن مكان الإقامة أثناء العدوان يمكن أن يفسر حوالي ٢٪ من التباين في درجات إدراك الأطفال الذكور للمستويات الاجتماعية.

٣ - ظهر تأثير للتفاعل بين نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال ومكان إقامتهم أثناء العدوان على علاقات الأطفال في البيئة المحلية بمستوى دلالة عند ٠,٠٠٦، وبالرغم من أن كلاً من المتغيرين على حدة لم يظهر له تأثير، إلا أن تفاعلهما معا كان له تأثير واضح الدلالة.

٤ - إن العمر باعتباره متغايرا في التحليل قد ظهرت له تأثيرات دالة إحصائيا على جميع مقاييس التوافق الاجتماعي، وتشير هذه النتائج إلى أن درجات الأطفال الذكور في أبعاد التوافق الاجتماعي تختلف بحسب العمر، مما يؤكد أهمية متغير العمر عند دراسة مدى تأثر التوافق الاجتماعي للأطفال بضغوط العدوان.

ثالثا: تأثير الضغوط التي تعرضت لها مجموعة الإناث على توافقهن الشخصي

يوضح جدول رقم (٨) خلاصة نتائج تحليل التباين لمقاييس التوافق الشخصي للأطفال الإناث، مبينا بها التأثير الأساسي للأضرار التي تعرضن لها ومكان إقامتهن أثناء العدوان وكذلك تأثير التفاعل بين هذين المتغيرين، مع اعتبار العمر متغايرا لضبط تأثيره على النتائج.

جدول (٨)

نتائج تحليل التباين للتوافق الشخصي بحسب الظروف
التي تعرضت لها مجموعة الأطفال الإناث أثناء العدوان
(ن = ٣٠٠)

المقاييس الفرعية	مصدر التباين							
	تأثير التغاير		التأثير الأساسي				تأثير التفاعل	
	العمر درجات الحرية = ١		الأضرار درجات الحرية =٢		الإقامة أثناء العدوان درجات الحرية = ٢		الأضرار × الإقامة درجات الحرية =٤	
	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة
الاعتماد على النفس	٣,١٩٣	غير دالة	٥,٢٠٥	٠,٠٠٦	٠,٢٣١	غير دالة	١,٢٣٤	غير دالة
الإحساس بالقيمة	٢,٣٤٤	غير دالة	١,٠٩٢	غير دالة	٣,١١٧	٠,٠٤٦	٠,٤٣٨	غير دالة
الشعور بالحرية	١,٦٤٩	غير دالة	٠,٦٠٧	غير دالة	٠,٣٩١	غير دالة	٠,٨٧٩	غير دالة
الشعور بالانتماء	٢,٨٥٢	غير دالة	٠,٧٠٤	غير دالة	١,٣٣٢	غير دالة	٠,١٠٨	غير دالة
التحرر من الميل للانفراد	٣,١٥٢	غير دالة	١,٦٣٧	غير دالة	٠,٥٧٢	غير دالة	٠,٩٠٤	غير دالة
الخلو من الأعراض العصابية	٣,٢٨١	غير دالة	٣,٦٤١	٠,٠٢٧	٠,٠٦٧	غير دالة	١,٩٤٤	غير دالة
مجموع التوافق الشخصي	٧,٨٢١	٠,٠٠٦	٢,١٨٢	غير دالة	٠,٨٧٧	غير دالة	١,٠٧٨	غير دالة

ويلاحظ من النتائج المعروضة بالجدول رقم (٨) ما يلي :

١ ـ إن التأثير الأساسي لنوع الأضرار التي تعرضت لها مجموعة الإناث أثناء العدوان (يتعلق بالأنفس/ بالأموال/ أخرى) على توافقهن الشخصي لم يصل إلى مستوى الدلالة سوى في مقياس الاعتماد على النفس حيث بلغ مستوى الدلالة الإحصائية ٠٠٦ , ٠ وكذلك في مقياس الخلو من الأعراض العصابية حيث بلغ مستوى الدلالة الإحصائية ٠٢٧ , ٠ وبالرجوع إلى الملحق رقم (٥) نجد أن أقل المتوسطات لدرجات الاعتماد على النفس كانت للمجموعة التي تعرضت لأضرار في الأنفس (٠١ , ٥) تليها المجموعة التي تعرضت لأضرار في الأموال (٤٧ , ٥) وكانت اعلى المجموعات في الاعتماد على النفس تلك التي تعرضت لأضرار أخرى بسيطة (٥٣ , ٥)، وقد بلغ حجم تأثير نوع الأضرار ٠٣٦ , ٠، وهذا يعني أن نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال الإناث يمكن أن يفسر

حوالي ٤٪ من التبـاين في درجاتهن في الاعتماد على النفس . كما يلاحظ أيضا أن أقل المتـوسطات لـدرجات الخلـو من الأعراض العصـابية كـانت للمجمـوعة التي تعـرضت لأضرار في الأنفس (٤,٩١) تليها المجموعة التي تعرضـت لأضرار في الأموال (٥,١٤) وكانت أعلى المتوسطات في الخلو من الأعراض العصابية للمجموعة التي تعرضت لأضرار أخرى بسيطة (٥,٦٨). وقد بلغ حجم تأثير نوع الأضرار ٠,٠٢٦ وهـذا يعني أن نوع الأضرار التي تعـرضت لها مجموعـة الإناث يمكن أن يفسر حوالي ٣٪ من التباين في درجاتهن للخلو من الأعراض العصابية .

٢ ـ وفيما يتعلق بتأثير مكان الإقامـة أثناء العدوان على التوافق الشخصي لمجموعـة الإناث فإن البعد الـوحيد الـذي ظهر فيـه هـذا التأثير هو المتعلق بإحسـاس الطفل بقيمتـه حيث بلغت الدلالـة الإحصائية ٠,٠٤٦ وبالرجوع إلى الملحق رقم (٥) نلاحظ أن أعلى المتوسطات لدرجات إحساس الطفل بقيمته كان للمجموعة التي أقامت بالداخل أثناء العدوان (٦,٠٤) تليها المجموعة التي حضرت العدوان ثم رحلت إلى الخارج (٥,٦٧) وكانت أقل المجموعات هي التي بالخارج طوال فترة الغزو (٥,٥٦). وقد بلغ حجم تأثير مكان الإقامة في هذه الحالة ٠,٠٢٣ ، وهذا يعني أن مكان الإقامة أثناء العدوان يمكن أن يفسر حـوالي ٢٪ من التباين في درجات الإحساس بالقيمة لدى مجموعة الأطفال الإناث .

٣ ـ لم يظهر تأثير دال إحصائيا للتفاعل بين متغيرى نوع الأضرار ومكان الإقامة أثناء الغزو في أي بعد من أبعاد التوافق الشخصي للأطفال الإناث .

٤ ـ لم يظهر للعمر باعتباره متغيرا تأثير على أبعاد التوافق الشخصي للأطفال الإناث سوى في مجموع التـوافق الشخصي ، حيث ظهر ذلك بـدلالـة إحصائيـة عنـد مستوى ٠,٠٠٦ وهـذا يعني أن درجات الأطفال الإناث في مجموع التوافق الشخصي تختلف بحسب العمر، مما يؤكد أهمية متغير العمر في هذه النوعية من الدراسات .

رابعا : تأثير الضغوط التي تعرضت لها مجموعة الإناث على توافقهن الاجتماعي

يـوضح الجدول رقم (٩) خـلاصة النتـائج التي أسفـر عنهـا تحليل التباين لمقـاييس التـوافق الاجتماعي للأطفال الإنـاث ، مبينا بها التأثير الأساسي لنوع الأضرار التي تعـرض لها الأطفال ومكان إقامتهم أثنـاء العدوان ، كما يبين أيضا تأثير التفاعل بين هـذين المتغيرين ، مع اعتبار العمر متغـايراً بضبط تأثيره على النتائج .

جدول (٩)
نتائج تحليل التباين للتوافق الاجتماعي بحسب الظروف
التي تعرضت لها مجموعة الأطفال الذكور أثناء العدوان
(ن = ٣٠٠)

المقاييس الفرعية	مصدر التباين							
	تأثير التغاير		التأثير الأساسي				تأثير التفاعل	
	العمر درجات الحرية=١		الأضرار درجات الحرية=٢		الإقامة أثناء العدوان درجات الحرية=٢		الأضرار × الإقامة درجات الحرية=٤	
	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة	ف	الدلالة
المستويات الاجتماعية	١٠,٧٦٢	٠,٠٠١	١,١٣١	غير دالة	١,٦٧	غير دالة	٠,٩٠٦	غير دالة
المهارات الاجتماعية	٤,٩٤٥	٠,٠٢٧	٠,٢٤٢	غير دالة	٥,٤٦٩	٠,٠٠٥	١,٩٢٩	غير دالة
التحرر من الميول المضادة للمجتمع	٤,٨٦٦	٠,٠٢٨	٠,٧٩٨	غير دالة	١,٤١٧	غير دالة	٢,١٦١	غير دالة
العلاقات مع الأسرة	١٧,٩٩٥	٠,٠٠٠	٠,٦٣٩	غير دالة	٣,٢٣٦	٠,٠٤١	٠,٥٩٥	غير دالة
العلاقات في المدرسة	٨,٨٢٣	٠,٠٠٣	٠,٧٦٥	غير دالة	١,٠٠٦	غير دالة	٢,٤٦٩	غير دالة
العلاقات في البيئة المحلية	٣,١٥٧	غير دالة	٠,٥٤٧	غير دالة	٢,١٠٤	غير دالة	٠,٩٣٩	غير دالة
مجموع التوافق الاجتماعي	١٨,٢١	٠,٠٠٠	٠,٥٤٤	غير دالة	٦,١٩	٠,٠٠٢	١,٧١٣	غير دالة

ويلاحظ من جدول رقم (٩) ما يلي :

١ـ إن التأثير الأساسي لنوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال الإناث أثناء العدوان (تتعلق بالأنفس/ بالأموال/ أخرى) على توافقهن الاجتماعي لم يصل إلى مستوى الدلالة الإحصائية في أي من أبعاد التوافق الاجتماعي التي تناولتها الدراسة .

٢ـ أما فيما يتعلق بتأثير مكان الإقامة أثناء العدوان (داخل الكويت/ داخل الكويت وخارجها/ خارج الكويت) على التوافق الاجتماعي للأطفال الإناث فقد ظهرت له دلالة إحصائية في

ثلاثـة من مقاييس التوافـق الاجتماعي، أولها اكتساب الطفل للمهارات الاجتماعيـة بمستوى دلالة عند ٠,٠٠٥ وبالرجوع إلى الملحق رقم (٦) يتضح أن أعلى المتوسطات لمقياس اكتساب المهارات الاجتماعيـة كان للمجمـوعة التي كـانت في الداخل أثنـاء الغزو حيث بلغ المتـوسط (٥,٣١) تليها المجموعة التي كانت في الخارج (٤,٨٤) وتأتي بعـدها بفارق بسيط المجموعة التي حضرت بداية العدوان في الكويت ثم رحلت إلى الخارج (٤,٨٢). وإذا حاولنا التعرف على حجم التأثير لمتغير مكـان الإقامـة على المهارات الاجتماعيـة فسنجد أنـه يبلغ ٠,٠٣٦، وهذا يعني أن متغير مكان الإقامة أثناء فترة العدوان يمكن أن يفسر حوالي ٤٪ من التباين في درجات الأطفال الإناث على مقياس اكتساب المهارات الاجتماعية.

أما المقياس الثاني الذي ظهر فيه تأثير مكان الإقامة على التوافق الاجتماعي فهو المتعلق بعلاقات الطفل بأسرتـه، حيث بلغ مستوى الدلالة الإحصائية للفـروق ٠,٠٤١، وبالرجوع إلى الملحق رقم (٦) نجد أن أعلى المتوسطات كان للمجمـوعة التي كانت بالداخل (٦,٩٠) تليها المجموعة التي كانت بالـداخل في بداية العدوان ثم رحلت إلى الخارج (٦,١٢) وكانت أقل المتوسطات للمجمـوعة التي كانت بالخارج (٦,٠٢). ويقـدر حجم تأثير متغير مكان الإقامـة في هذه الحالة بمقـدار ٠,٠٢٣، ويعنى هذا أن متغير مكـان الإقامة أثناء العدوان يمكن أن يفسر ٣٪ من التبـاين في درجـات مجمـوعـة الإناث على مقيـاس عـلاقـات الطفل بأسرته. كما ظهـرت فروق دالـة إحصائيا عنـد مستوى ٠,٠٠٢ في مجمـوع التوافق الاجتماعي بين المجموعات بحسب اختلاف مكان الإقامة أثناء العدوان. وبالرجوع إلى الملحق رقم (٦) يتضح أن أعلى المتوسطـات في التوافق الاجتماعي كان للمجموعـة التي كانت بالـداخل أثناء العـدوان (٣٥,٤٧) تليهـا المجمـوعـة التي حضرت بـدايـة العـدوان ثم رحلت للخارج (٣٣,٢٤) وكانت أقل المتـوسطات في التـوافق الاجتماعي للمجموعـة التي بقيت بالخارج ويقدر حجم تـأثير متغير مكان الإقامـة في هذه الحالـة بمقدار ٠,٠٤ ويعني هـذا أن مكان الإقامة أثنـاء العدوان يمكن أن يفسر ٤٪ من التباين في درجات مجموعـة الإناث على مقياس التوافق الاجتماعي.

٣- لم يظهـر تأثير للتفاعل بين متغيري نـوع الأضرار ومكان الإقـامـة سوى في مقيـاس علاقـات الطفل في المدرسة حيث بلغ مستـوى الدلالة ٠,٠٤٥ وبـالرغم من أن أي من المتغيرين على حدة لم يظهر له تأثير ذو دلالة إلا أن تفاعلهما معا قد أحدث هذا التأثير الذي أظهره التحليل الإحصائي.

٤ـ إن العمر باعتباره متغايرا في التحليل قد ظهرت له تأثيرات دالة إحصائيا على درجات مجموعة الإناث في جميع مقاييس التوافق الاجتماعي باستثناء علاقة الطفل في بيئته المحلية، وتشير هذه النتائج إلى أن درجات الأطفال الإناث في التوافق الاجتماعي بوجه عام تختلف بحسب اختلاف العمر، وتؤكد هذه النتائج أهمية متغير العمر عند دراسة التوافق الاجتماعي.

ونكتفي بهذا القدر في استعراض نتائج الدراسة لننتقل بعد ذلك إلى مناقشتها في محاولة لتفسير أهم جوانبها.

مناقشة النتائج

ونبدأ بأول تساؤل طرحته هذه الدراسة ويتعلق بمدى تأثير الأضرار التي تعرض لها الأطفال الكويتيون أثناء العدوان العراقي على توافقهم الشخصي. ويتضمن هذا التساؤل الفرض الأول للدراسة والذي ينص على وجود فروق في التوافق الشخصي بين الأطفال الكويتيين بحسب نوع الأضرار التي تعرضوا لها أثناء العدوان العراقي.

ويستفاد من النتائج المذكورة بالجدولين ٦، ٨ وجود فروق دالة إحصائيا لدى مجموعة الذكور في الخلو من الأعراض العصابية وكذلك في مجموع التوافق الشخصي، حيث كانت المجموعة التي تعرضت لأضرار في الأموال هي الأقل توافقا تليها المجموعة التي تعرضت لأضرار في الأنفس، وكانت أعلى الدرجات في التوافق في هذين المقياسين للمجموعة التي تعرضت لأضرار أخرى بسيطة (وهي المجموعة التي أجابت بلا على جميع الأضرار المذكورة في الاستبانة مع التسليم بأن هناك أضرارا أخرى مادية ونفسية يمكن أن تكون قد تعرضت لها هذه المجموعة).

اما في مجموعة الإناث فقد ظهرت فروق دالة إحصائيا في مقياس الاعتماد على النفس وكذلك في مقياس الخلو من الأعراض العصابية. وهنا نجد أن المجموعة التي تعرضت لأضرار في الأنفس كانت هي الأقل توافقا في هذين المقياسين، تليها المجموعة التي تعرضت لأضرار في الأموال، وكانت المجموعة الأقل تضررا هي الأعلى توافقا.

وتتفق هذه النتائج مع ما توصلت إليه دراسات سابقة من ظهور اعراض عصابية على الأطفال نتيجة للأحداث التي يتعرضون لها في ظروف الحرب (درويش ١٩٩١، سهل ١٩٩٢، وشميتي وزميليه، Shimienti et al 1989 وكافمان واليزور Kaffman & Elizur. 1984)، كما تتفق مع ما

أشارت إليه دراسه اليزور وكافمان Elizur & Kaffman. 1982 من زيادة الاعتمادية لدى عينة الأطفال الذين فقدوا آباءهم في الحرب.

وتؤيد النتائج التي توصلت إليها الدراسة الحالية صحة الفرض الأول في الحالات الأربع السابقة فقط. بينما لم تظهر دلالة إحصائية لنوع الأضرار فيما يتعلق ببقية مقاييس التوافق الشخصي، وهي لدى الذكور الاعتماد على النفس والإحساس بالقيمة والشعور بالحرية والشعور بالانتماء والتحرر من الميل للانفراد، كما لم تظهر دلالة إحصائية لنوع الأضرار لدى مجموعة الإناث، في مقاييس الإحساس بالقيمة، والشعور بالحرية والشعور بالانتماء، والتحرر من الميل للانفراد، وكذلك في مجموع التوافق الشخصي ولا شك أن ذلك يعتبر مؤشراً جيدا، وبالإضافة إلى قلة عدد أبعاد التوافق التي لحقها التأثير السلبي، فإن حجم هذا التأثير كان محدودا حيث تراوح بين ٢٪ و٤٪ من التباين الكلي.

ويؤكد اختلاف أنماط استجابات الذكور عن الإناث على أهمية متغير الجنس في هذا المجال وهو ما أشارت إليه عدة دراسات (اليزور وكافمان Elizur & Kaffman,1982 وسهل ١٩٩٢. وملجرام وملجرام Milgram& Milgram, 1976) وهي اختلافات قد ترجع إلى فروق في الخصائص الشخصية لكل جنس وإلى ظروف التنشئة الاجتماعية لكل منهما ونلمس هنا أكثر من فرق بين استجابات الجنسين.

أولها: إن تأثير نوع الأضرار كان أكثر في مجموعة الذكور عنه في مجموعة الإناث، حيث ظهر في مجموع التوافق الشخصي للمجموعة الأولى دون الثانية، وتتفق هذه النتيجة مع ما أشارت دراسة ملجرام وملجرام Milgram &Milgram,1976 ودراسة اليزور وكافمان Elizur & Kaffman,1982 وقد يكون ذلك راجعا إلى أن احتمالات التعرض للمخاطر أثناء العدوان كانت أكثر بالنسبة للذكور عنها بالنسبة للإناث. والثاني تفرد مجموعة الإناث بالتأثير السلبي للضغوط في جانب الاعتماد على النفس، ويتفق مع ما أشارت إليه دراسات سابقة عن أن زيادة تعلق الطفل بوالدته واعتماده على الكبار تمثل أحد الأعراض الأساسية التي تظهر بعد الأحداث الضاغطة وخصوصا فقد الأعزاء، لأنها تساعد على إشباع الإحساس بالأمن الذي يفتقده الطفل في هذه الظروف (اليزور وكافمان Elizur & Kaffman 1982، وكافمان واليزور Kaffman & Elizur, 1984 ودرويش ١٩٩٢).

وقد يرجع ظهور هذه الأعراض لدى الإناث خاصة إلى أن نشاطهن وعلاقاتهن خارج البيت محدودة بحيث لاتتيح لهن إشباع هذه الحاجة النفسية.

والفرق الثالث يتعلق بنوع الضرر الذي كان أكثر تأثيراً، فبينما نجد لدى الذكور أن فقد الأموال هو الذي كان له تأثير سلبي على التوافق، نجد لدى الإناث أن فقد الأنفس كان له التأثير الأكبر.

وقـد يثير هذا الأمـر تساؤلاً يتعلق بـالقيم لدى كل من الجنسين، وتفـاوت النظرة لـدى كل منهما في إدارك طبيعـة الأحداث الضـاغطة، ويمكن أن يضـاف إلى ذلك البعد الـوجداني حيث يـلاحظ أن الإناث عـادة في بيئتنا العربيـة يظهرن تأثـرا أكبر فى حالات فقد الأشخـاص بينما يكون الذكـور أكثر واقعية وتماسكا في مواجهة هذه الأحداث.

أما الفـرق الرابع فيتعلق بـاختلاف الأعـراض العصابيـة لدى كل من الجنسين، فبالـرغم من ظهور تأثير سلبـي على مقياس الخلو من الأعـراض العصابيـة لدى المجموعتين، إلا أنـه اتضح من التحليل التفصيلي الذي قام به الباحث للاستجابـات على بنود هذا المقياس أن الإناث تميزن في البند المتعلق بكثرة البكـاء، ويتفق هذا مع ما توصلت إليـه دراسة درويش من أن الرغبة فى البكـاء كانت أكثر لـدى البنات منها لـدى البنين، بينما تميزت الأعراض العصـابية لـدى البنين بزيادة استجـابات الخوف من الذهاب بمفرده لينـام وتتفق نتائج الدراسة الحالية في هذا المجال أيضـا مع ما أشارت إليه ملاحظات الأخصائيين الاجتماعيين في دراسة وزارة التربيـة من أن الخوف من الظلام يظهر لدى أبناء الأسرى والشهداء فى مدارس البنين أكثر من مدارس البنات، كما يتفق أيضا مع ما أشارت إليه دراسة سهل من أن اضطرابات النوم لدى الأولاد أكثر منها لدى البنات.

ولعل في ذلك ما يـؤكد أهمية الانتباه لتفـاصيل الأعراض لمحاولة التعـرف على أسبابها والعمل على علاجها، وعدم الاكتفاء بالتصنيفات العامة التي لاتفيد كثيرا فى هذا المجال.

وإذا انتقلنا إلى التساؤل الثـانى في هذه الدراسة والمتعلق بمـدى تأثير نوع الأضرار التي تعرض لها الأطفال أثناء العدوان على توافقهم الاجتماعي، والذي تضمنـه الفرض الثاني للدراسة الذي ينص على وجود فـروق فى التوافق الاجتماعـي بين أطفال الكويت بحسـب نوع الأضرار التي تعـرضوا لها، نجد أن النتائج المذكورة بالجدولين ٧، ٩ تشير إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية لدى مجموعة الذكور أو مجموعة الإناث في أي بعد من أبعاد التوافق الاجتماعي.

وهذا يعني أن الفـرض الثاني لم يتحقق، حيث أن نـوع الأضرار التي تعرض لها الأطفـال سواء كانت في الأنفس أو الأموال أو غيرهـا لم تؤثر على أبعاد توافقهـم الاجتماعى المتعلق بإدراك المستويات الاجتماعية، أو اكتسابهم للمهارات الاجتماعية أو تحررهم مـن الميول المضادة للمجتمع، أو علاقاتهم مع الأسرة أو المدرسة أو البيئة المحلية، كما لم تؤثـر كذلك على مجموع توافقهم الاجتماعى، ويمكن أن نعتبر ذلك مؤشرا للصحـة النفسية للأطفال، حيث إن هـذه الأحداث الضاغطة التي تعـرضوا لها لم يظهر لها تأثير سلبي في هذه الجوانب من التوافق الاجتماعي.

ونأتي بعد ذلك إلى الشق الثاني من الدراسة والمتعلق بمدى تأثير البقاء في الكويت أو الوجود بالخارج أثناء الغزو على توافق الأطفال والواقع أننا حين نتحدث عن مكان الإقامة، إنما نقصد أساسا الظروف الضاغطة التي تعرضت لها كل مجموعة بحسب مكان إقامتها، ولعل ذلك يدعونا إلى محاولة التعرف على أهم الظروف التي أحاطت بكل مجموعة. وموضوع البقاء في الكويت أو الوجود في الخارج أثناء العدوان من الموضوعات التي كان لها قدر من الحساسية، وقد أشارت دراسة وزارة التربية إلى وجود هذه الظاهرة في المدارس الثانوية للبنين بعد التحرير مباشرة. وبداية يمكن القول أن موضوع مكان الإقامة أثناء الغزو لم يكن في كثير من الحالات اختياراً للفرد بقدر ماكان أمرا فرضته طبيعة الغزو وتوقيته والظروف الخاصة بكل أسرة، فقد وقع العدوان غدرا فى بداية أغسطس فى وقت تكون فيه أعداد كبيرة من الكويتيين بالخارج لقضاء عطلة الصيف، وحين وقع العدوان تعذر على من بالخارج العودة، وأصبح الخروج مخاطرة لمن كانوا بالداخل، وآثر البعض البقاء باختيارهم لاعتبارات وطنية أو اقتصادية أو اجتماعية، واضطرت الظروف آخرين لتحمل مشقة الخروج في هذه الأوضاع القاسية، وفي كثير من الأحيان كان جزء من الأسرة بالداخل وبقية الأسرة بالخارج.

وكان لكل مجموعة ألوان المعاناة التي تحملتها، فالذين كانوا بالخارج عانوا من الإحساس بالغربة، ومشاعر اللاجىء خارج أرض الوطن، واللهفة على الأهل والأقارب بالداخل، وصعوبات مواجهة ظروف الحياة فى كثير من الأحيان، ومن خرجوا أثناء الغزو ذاقوا مرارة الخبرات القاسية فى بداية العدوان وتعرضوا لمخاطر الطريق وحقول الألغام ومطاردة العدو، وألوان الإهانة المختلفة على قواطع التفتيش. أما من كانوا بالداخل فكانت معاناتهم يومية حين يرون أبناءهم وأقاربهم يتعرضون للأسر والتعذيب والقتل، ويشاهدون العدو يختال زهوا وهو يعيث فسادا في أرضهم، ينهب أموالهم، ويفتش بيوتهم، ويحرمهم من الحصول على ضرورات الحياة، بالإضافة إلى احتمال تعرض مساكنهم للقصف البري أو الجوي والخوف من أخطار الأسلحة الكيميائية.

ومعنى ذلك أنه كان لكل مجموعة همومها ومعاناتها، بالإضافة إلى أن الجميع كانوا يعتصرون ألما لما تعرض له وطنهم من مخاطر وما أصابهم وأقاربهم من خسائر في الأنفس والأموال، وقد بذل كل منهم ـ بحسب موقعه ـ ما يقدر عليه من عمل في مختلف الجبهات سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالمال أو بالجهد، وكانت الكويت (أرض الديرة) بالنسبة للجميع في بؤرة العقل والقلب.

وفي ضوء هذا التوضيح نتناول بالمناقشة التساؤل الثالث للدراسة والمتعلق بتأثير مكان الإقامة أثناء العدوان على التوافق الشخصي للأطفال، والذي تضمنه الفرض الثالث للدراسة الذي ينص

على وجود فروق في التوافق الشخصي بين الأطفال بحسب مكان تواجدهم سواء داخل الكويت أم خارجها أثناء العدوان العراقي.

ويستفاد من النتائج المذكورة بالجدولين ٦، ٨ عدم وجود فروق في أي من أبعاد التوافق الشخصي بحسب مكان الإقامة لمجموعة الأطفال الذكور، أما في مجموعة الأطفال الإناث فإن البعد الوحيد الذي ظهرت له دلالة إحصائية هو الخاص بإحساس الطفل بقيمته وكان أكثر وضوحا لدى المجموعة التي كانت بالداخل، وهو أمر متوقع لأن الأفراد الذين تحملوا هذه الظروف الصعبة في مواجهة العدو ينموا لديهم الإحساس بالقيمة الذاتية والاعتزاز بما قاموا به أو قام به أقاربهم من بطولات، وتتفق هذه النتيجة مع ما توصلت إليه دراسة زيف وآخرين Ziv et al.1974 من أن الأطفال الذين تعرضت مناطقهم للقصف كانوا أكثر اعتزازا بالانتماء للمكان وشعورا بالبطولة وتقديرا لسمة الشجاعة.

ولعل مما يلفت الانتباه أن هذا الفرق ظهر لدى الأطفال الإناث دون الذكور وهو أمر بحاجة إلى مزيد من الدراسة.

وبذلك يكون الفرض الثالث للدراسة قد تحقق في حالة واحدة فقط هي الإحساس بالقيمة الذاتية لدى الأطفال الإناث، أما بقية الأبعاد الأخرى للتوافق الشخصي فإن الفرض لم يتحقق بالنسبة لها.

ونأتي بعد ذلك للتساؤل الأخير في هذه الدراسة والمتعلق بتأثير مكان الإقامة أثناء العدوان على التوافق الاجتماعي للأطفال، والذي تضمنه الفرض الرابع الذي ينص على وجود فروق في التوافق الاجتماعي للأطفال بحسب مكان إقامتهم أثناء العدوان العراقي.

ويستفاد من النتائج التي وردت بالجدولين ٧، ٩ أن اعتراف الطفل بالمستويات الاجتماعية هو المقياس الوحيد في التوافق الاجتماعي الذي أظهر فروقا دالة إحصائيا في مجموعة الأطفال الذكور، وهنا نجد أن أعلى المتوسطات كان للمجموعة التي كانت بالداخل ثم خرجت، وأقلها كان لمجموعة الداخل، وقد يبدو هذا الأمر مستغربا في ظاهره، ولكن المدقق في الظروف التي أحاطت بالمجموعة التي كانت بالداخل والتي استطاعت أن تنظم حياتها في غياب المؤسسات الشرعية وتعطيل القانون، هذه الظروف أكسبتهم مرونة وتحررا في التعامل مع أحكام الجماعة وسلطتها. وتشير دراسة وزارة

التربية ١٩٩١ إلى زيادة مشكلات الخروج على النظام المدرسي بعد الغزو عما كانت عليه قبل الغزو وبخاصة لدى البنين في المرحلة المتوسطة، مما يعزز ما توصلت إليه الدراسة الحالية.

أما فيما يتعلق بمجموعة الأطفال الإناث فقد أظهرت نتائج الدراسة وجود فروق دالة إحصائيا في ثلاث حالات أولها اكتساب المهارات الاجتماعية حيث كانت أعلى المتوسطات لمجموعة الداخل تليها مجموعة الخارج وتليها بدرجة بسيطة المجموعة التي كانت بالداخل وخرجت في بداية العدوان. وتعتبر هذه النتيجة أمرا متوقعا، حيث أن المجموعة التي كانت بالداخل قد واجهت أمر تدبير احتياجات معيشتها وحماية أمنها ومقاومة المحتل مما أكسبها خبرات ومهارات اجتماعية جديدة في الاتصال والتعاون والعمل الجماعي ساعدتها على التغلب على تلك الظروف الصعبة. وتتفق هذه النتيجة مع ما أشارت إليه دراسة وزارة التربية ١٩٩١ التي اعتمدت على الملاحظة التلقائية للأخصائيين الاجتماعيين من زيادة روح المودة والتعاون وإعلاء قيمة العمل والاعتماد على النفس وتحمل المسؤولية وإنها كانت أكثر ظهورا لدى الإناث وبخاصة في المرحلة الثانوية. كما أشارت دراسة سهل ١٩٩٢ إلى زيادة نسبة أولياء الأمور الذين أشاروا إلى تطوير الأطفال لعلاقاتهم الاجتماعية بعد الغزو، غير أن الفروق في هذه الدراسة لم تصل إلى مستوى الدلالة.

أما المقياس الثاني الذي ظهرت فيه فروق دالة فهو المتعلق بعلاقة الطفل بأسرته، وهنا أيضا كانت أعلى المتوسطات للمجموعة التي كانت بالداخل تليها المجموعة التي كانت بالداخل والخارج، وأخيرا المجموعة التي كانت بالخارج. و يمكن أن تعزى هذه النتيجة إلى أن كل أسرة كويتية أثناء العدوان كانت تتجمع في بيت واحد، تظلها روح التعاطف والتساند والتماسك في مواجهة الظروف القاسية التي كانت تمر بها، مما ساعد على توثيق الروابط الأسرية وتعميقها، وهذا ماظهرت آثاره في استجابات أطفال هذه المجموعة وقد أشارت دراسة وزارة التربية ١٩٩١ إلى متانة الروابط الأسرية خاصة بين الوالدين والأبناء وذلك في مرحلة الرياض.

و إذا نظرنا إلى مجموع التوافق الاجتماعي لمجموعة الأطفال الإناث نجد أن الفروق بين المجموعات على أساس مكان الإقامة كانت واضحة وذات دلالة، وقد أخذ ترتيب المجموعات نفس النمط السابق، حيث كانت أعلى المتوسطات لمجموعة الداخل، تليها مجموعة الداخل والخارج وكان أقل المتوسطات لمجموعة الخارج. أي أننا نستطيع القول أن مجموعة الأطفال التي بقيت داخل الكويت أثناء العدوان قد أكسبتهم ظروف حياتهم في هذه الفترة خبرات متنوعة ساعدت على زيادة توافقهم الاجتماعي بشكل عام، وقد ظهر ذلك في الإناث دون الذكور، ويمكن أن يفسر ذلك بأن ظروف العدوان كانت تجعل الأطفال الذكور معرضين لمخاطر الإيذاء من العدو، مما أعطى فرصا

أوسع للإناث للقيام بأدوار فعالة في كافة ماتتطلبه هذه المرحلة الصعبة من أعمال . وبذلك يكون الفرض الرابع في هذه الدراسة قد تحقق بالنسبة للذكور في مقياس واحد وهو الاعتراف بالمستويات الاجتماعية، وفي ثلاثة مقاييس بالنسبة للإناث هي اكتساب المهارات الاجتماعية والعلاقات مع الأسرة ومجموع التوافق الاجتماعي، أما بقية الحالات الأخرى فلم يتأيد فيها الفرض حيث لم تظهر فيها فروق دالة وهذه الحالات هي الاعتراف بالمستويات الاجتماعية في مجموعة الإناث واكتساب المهارات الاجتماعية والعلاقات مع الأسرة ومجموع التوافق الاجتماعي في مجموعة الذكور، كما لم تظهر فروق دالة أيضا لدى الذكور أو الإناث في مقاييس تحرر الطفل من الميول المضادة للمجتمع وعلاقات الطفل في المدرسة وعلاقاته في البيئة المحلية .

وقد أظهر هذا الجانب من الدراسة بشكل واضح وجود آثار إيجابية للظروف التي تعرض لها الأطفال الإناث الذين كانوا يقيمون بالكويت أثناء العدوان . ووجود هذه الآثار الإيجابية ليس بالأمر المستغرب حيث قد أشارت إليها دراسة وزارة التربية ١٩٩١ ودراسة سهل ١٩٩٢ كما أشارت إليها دراسات أجنبية أخرى في مثل هذه الحالات كدراسة اليزور وكافمان Elizur& Kaffman,1982 ودراسة بوناماكي Punamaki,1982 ودراسة زيف وآخرين Ziv et al,1974.

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أهم العوامل التي ساعدت على التخفيف من الآثار الضارة لظروف العدوان على توافق الأطفال، بل وأظهرت في بعض الحالات تغيرات إيجابية .

ويأتي على رأس هذه العوامل لجوء الكويتيين إلى الله وثقتهم في أن نصره قريب وكذلك إيمانهم بعدالة قضيتهم وشرعيتها، وبأنهم يدافعون عن أرضهم ضد عدوان غادر ، وإداركهم للأبعاد الحقيقية للغزو وأهدافه، وهذا الجانب يعبر عنه بعض العلماء بالعامل الأيدولوجي، وقد اعتبره جبسون Gibson,1989 أحد الدعائم الأساسية في النموذج الذي قدمه لتفسير العنف السياسي .

كما يضاف إلى ذلك مظاهر الترابط والتعاون داخل المجتمع، وقنوات الاتصال التي لم تنقطع بين من كانوا بالداخل وبين السلطة الشرعية في الخارج، وما لقيته الكويت من دعم إعلامي وسياسي وعسكري من الدول العربية الشقيقة والدول الإسلامية وكثير من دول العالم التي آثرت الوقوف مع الحق والشرعية . كما لانستطيع أن نغفل في هذا المجال ماأحاط بموضوع فقد الأشخاص من اهتمام ورعاية، حيث كان ينظر إلى هؤلاء كأبطال أو شهداء، يشعر أبناؤهم وأقاربهم بالفخر والاعتزاز، ويلقون الوفاء والتكريم والمساندة ممن حولهم على المستوى الشعبي والرسمي، كما تجدر الإشارة هنا أيضا إلى تقاليد المجتمع الكويتي بوجه عام في مواجهة ظاهرة الموت حيث يتقبله بالتسليم ولايسرف في مظاهر الحزن كما تفعل المجتمعات الأخرى، مستندا في ذلك إلى التقاليد العربية الإسلامية .

وهذه الاعتبارات التي أشرنا إليها وغيرها تعتبر من أهم العوامل المخففة للصدمات، ويرى علماء النفس المعاصرون أنها تمثل نظام المساندة Support system ويحرصون على إدخاله كأحد العناصر الأساسية في النماذج التي يقدمونها لتفسير ظاهرة الأحداث الضاغطة (Eckenrode,1991) ولاشك أن نظام المساندة بعناصره المتعددة قد لعب دورا هاما في التخفيف من الآثار النفسية للعدوان العراقي، مما ساعد المواطنين الكويتيين صغارا وكبارا على الصمود في مواجهة هذه الأحداث وتخطي كثير من آثارها، وهذا الموضوع مازال بحاجة إلى مزيد من الدراسة.

ونود في ختام هذه الدراسة أن نشير إلى بعض التحفظات المنهجية التي ينبغي أن نضعها في اعتبارنا عند تفسير نتائجها.

أولها: إن أسلوب المعالجة الإحصائية الذي اتبع في هذه الدراسة يستند أساسا إلى المتوسطات، سواء للمجموعة ككل أو للمجموعات الفرعية، ومعنى ذلك أن النتائج تشير إلى الحكم على متوسط المجموعة ولكن قد يختلف الأفراد في مدى تأثرهم، فقد يكون من بينهم من لم يتأثر إطلاقا أو من تأثر بدرجة بسيطة أو من تأثر بدرجة بالغة، ويبقى اكتشاف هذه الحالات الحرجة وتتبعها بحاجة إلى منهج آخر.

والأمر الثاني الذي ينبغي أن نضعه في اعتبارنا هو أن منهج هذه الدراسة يعتمد على المقارنة بين مجموعات من الأطفال تختلف في الظروف التي تعرضت لها أثناء العدوان سواء بحسب الأضرار أو مكان الإقامة. وعلى ذلك فإن الدراسة لاتدّعي أن أعراضا معينة قد تغيرت بعد العدوان عما كانت قبله، وأقصى مايمكن أن تقدمه هذه الدراسة ـ في حدود منهجها وأساليبها هو أن هناك فروقا بين مجموعات الأطفال ترجع إلى نوعية الأضرار أو اختلاف مكان الإقامة. وحتى في حالة عدم وجود فروق بين هذه المجموعات الفرعية فليس معنى ذلك أن الأطفال لم يتغيروا بسبب العدوان، حيث يحتمل أن يكون قد حدث تغير تأثرت به جميع المجموعات بدرجات متقاربة، أما أنها تختلف أولا تختلف عما كانت عليه فلانستطيع أن نحسم هذا الأمر في غياب إطار مرجعي عن حالتهم قبل العدوان يسمح بهذه المقارنة.

وختاما.. نأمل أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت في الكشف عن بعض الجوانب الهامة لهذه الظاهرة وتتبع آثارها وأن يكون لنتائجها بعض النفع للمهتمين بهذا المجال من إعلاميين وتربويين وآباء وأخصائيين في الإرشاد والعلاج النفسي، بحيث يتعاون الجميع في استثمار ذلك كله في بناء الإنسان الكويتي الجديد، إنسان لم تفقده الأحداث انتماءه الخليجي العربي الإسلامي، إنسان صهرته الأحداث ليخرج منها أصلب عودا، وأكثر نضجا وأبعد نظرا، وأكثر واقعية في نظرته إلى نفسه وإلى العالم من حوله.

المراجع العربية

درويش ، زين العابدين. أثر العدوان العراقي في الحالة النفسية للشباب الكويتي. دراسة ميدانية على عينات من الطلاب الكويتيين بمصر في ظروف العدوان. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. ١٩٩٢، السنة ١٠(٣٩) ٢٣٩ ـ ٢٧٤.

سهل، راشد. الآثار النفسية والاجتماعية التي خلفها العدوان العراقي على أطفال الكويت. دراسة مقدمة للمؤتمر التربوي الحادي والعشرين لجمعية المعلمين الكويتية عن التخطيط التربوي في مواجهة وتحدي آثار العدوان العراقي المنعقد بالكويت في الفترة من ١٨ إلى إبريل ١٩٩٢.

عبدالمتعال، صلاح وآخرون. المشكلات النفسية والاجتماعية في مجال التربية: بحث استطلاعي مقارن عن آراء واتجاهات الطلاب والطالبات الكويتيين والقيادات التعليمية في ضوء ظروف العدوان وتوقعات المستقبل. القاهرة: المركز التربوي الكويتي بالقاهرة، ١٩٩١.

هنا، عطية محمود. اختبار الشخصية للأطفال. الكويت: دار القلم، ١٩٨٦.

وزارة التربية. الآثار الاجتماعية والنفسية للغزو العراقي على الطالب الكويتي. الكويت: وزارة التربية (إدارة الخدمات الاجتماعية)، ١٩٩١.

* تم إعداد هذا البحث بتمويل من جامعة الكويت، مشروع بحث رقم ADP 038

المراجع الأجنبية

Anisman, H. Stress consequces. In R.J. Corsini. **Encyclopedia of psychology Vol. 3.** New York: John wiley & sons. 1984, 372-373.

Boss, P. Family stress. In Marvin Sussman & Syzanne Steimetz (eds.) **Handbook of marriage and family.** New York: Plenum Press, 1987.

Bruno, F.J. **Dictionary of Keywords in psychology.** New York: Routlege & Kegan Paul, 1987.

Chimienti, G.; Nasr, J.A. & Khalifeh, I. Children's reactions to war-related stress. **Social Psychiatry Psychiatr Epidemiol** (1989) 24, 282-287.

Dohrenwend, B.S. & Dohrenwend, B.P. (Eds.) **Stressful life events and their contexts.** New Bunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1984.

Eckenrode, J. (Ed.) **The social context of coping.** New York: Plenum Press, 1991.

Elizur, E.& Kaffman, M. Children's breavement reactions following death of the father. **Journal of the American Academy of Pediatrics,** 1982, 21, 474-480.

Garbarino, J. The Youngest Victims; Kuwaiti children bear psychic of conflict Gulf. **Psycology International.** 1991 Vol. 12 (3).



Gibson, K. Children in political violence. **Social Science & Medicine.** 1989, **Vol. 28** (7), 659-667.

Golan, N. **Treatment in crises situations.** New York: Free Press, 1978.

Gore, S. Stress-buffering functions of social supports: An Appraisal and clarification of research models. In Barbara S. D. & Bruce P.D. (Eds.) **Stressful life events & their contexts.** New Bunswick, N. J.: Rutgers University Press, 1984.

Kaffman, M. & Elizur, E. Children's bereavement reactions following death of the father. **International Journal of Family Therapy.** 1984, Vol. 6 (4) 259-283.

Krell, R. Holocaust survivors: A Clinical perspective. **Psychiatric Journal of the University of Ottawa,** 1990, **Vol. 15** (1) 18-21.

Kurtz, H. the Holocaust victims in Israel: A general view of their adjustment problems and of the problems of their families. **Psicopatologia,** 1989, **Vol. 9** (1) 27-30. **PSYCINFO** 00756016 27-78329.

Leon, Gloria R. et. al. Survivors of the Holocaust and their children: Current status and adjustment. **Journal of Personality & Social Psychology,** 1981, **Vol. 41** (3) 503-516.

McCann, L.; Sakheim, D. and Abrahamson, D. J. Trauma and victimization: A model for psychological adaptation. **The Counseling Psychologist,** 1988, **Vol. 16** (4), 531-594.

Meijer, A. Child psychiatric sequelae of maternal war stress. **Acta Psychiatrica Scandinavica.** 1985, **Vol. 72** (6), 505-511.

Milgram, R.M. & Milgrarm, N.A. The Effects of the Yom Kippur war on anxiety level in Israeli children. **Journal of Psychology,** 1976, **Vol.** (1), 107-113.

Moos, R.H. (ed.) **Coping with life crises.** New York: Plenum Press, 1986.

Moos, R.H. & Schaefer, J.A. Life transitions and crises: A Conceptual overview. In Rudolf H. Moos (Ed.) Coping with life crises, New York: Plenum Press, 1986, 3-27.

Nurusis, M.J. (a) **SPSS/PC+ Advanced Statistics 4.0** Chicago, Illinois: SPSS Inc. 1990.

Nurusis, M.J. (b) **SPSS/PC+ Statistics 4.0.** Chicago, Illinois: SPSS Inc., 1990.

Punamaki, R. Sota ja psykologinen tutkimus (War and Psychological research). **Psychologia. 1982, Vol. 17** (1), 3-11 **PSYCINFO** 00396772 68-03418.

Schwarcz, J.H. Guiding children's creative expession in the stress of war. **Series in Clinical & Community Psychology: Stress & Anxiety,** 1982, **Vol. 8**, 351-354

Statt, D. **The Concise dictionary of psychology.** London: Routlege, 1991.

Stotland, E, Stress. In R.J. Corsini, **Encyclopedia of psychology, Vol. 3.** New York: John Wiley & Sons, 1984, 370-371.

Tabachnick, Barbara G. & Fidell, Linda S. **Using multivalate statistics.** New York: Harper & Row, 1983.

Wethington, E. & Kessler, R.C. Situations and process of coping. In J. Eckenrode, **The social context of coping.** New York, NY.: Plenum Press, 1991, 13-29.

Wolman, B.B. **Dictionary of behavioral science,** 2nd ed. San Diego: Academic Press, 1989.

Ziv, A; Kruglanski, A. and Shulman, S. Children psychological reactions to wartime stress. **Journal of Personality & Social Psychology,** 1974, **Vol. 30** (1) 24-30.

Ziv, A. & Israeli, R. Effects of bombardment on the manifest anxiety level of children living in kibbutzim. **Journal of Consulting & Clinical Psychology,** 1973, 40, 287-291.

الشخصية وبعض اضطراباتها لدى طلاب جامعة الكويت أثناء العدوان العراقي «دراسة للفروق بين الصامدين والنازحين وبين الجنسين»

الدكتور / عويد سلطان المشعان. *

* يعمل مدرسا بقسم علم النفس بكلية الآداب - جامعة الكويت.

مقدمة

مما لاشك فيه أن للعدوان العراقي على الكويت آثاره السلبية على كل من الشخصية والصحة النفسية والوظائف الاجتماعية والبناء السيكولوجي للمواطن الكويتي، سواء أكان ذلك داخل الكويت أم خارجها خلال فترة العدوان، وذلك نتيجة لما خلفه العدوان العراقي من تغيير كبير في المستويات النفسية والاجتماعية والأخلاقية في قطاعات عريضة من المجتمع الكويتي، وقد كشفت البحوث السابقة والملاحظات الشخصية أن الحرب والعدوان ينتج عنهما اضطرابات في الشخصية. وقد نجم عن العدوان العراقي في حالتنا هذه أن عانى من وطأة هذه الاضطرابات قطاع كبير من الشباب الكويتي، والتي يبدو أنها ستستمر فترة طويلة حتى بعد اندحار هذا العدوان وهزيمته.

وبمراجعة الدراسات أو الأدبيات السابقة تبين أن الصدمات العنيفة و الأزمات والضغوط النفسية والخبرات المؤلمة والمواقف الإحباطية التي يمر بها الأفراد تؤدي إلى ارتفاع الإصابة باضطرابات الشخصية لديهم، وهذا ما أظهرته دراسة كل من «موليكا» (Molica, 1987) التي أشارت إلى أن هناك ارتفاعاً في الإصابة بالاضطرابات النفسية بين الجنسين. ودراسة «هنت» (Hunt 1988) التي أشارت إلى أن الإناث كن أكثر تعرضا للاكتئاب من الذكور، أما دراسة «لوكوود» (Lockwood 1986) فبينت أن الإناث كن أكثر تعرضاً لاضطرابات الشخصية من الذكور كرد فعل لظروف الحرب التي دارت بين اسرائيل وسكان بيروت ويتفق مع نتائج تلك الدراسات دراسة كل من زين العابدين درويش (١٩٩٢) وأميرة الديب (١٩٩١، ١٩٩٢) وهي الدراسات التي أجريت على المجتمع الكويتي أثناء العدوان العراقي. وقد لوحظ أثناء حرب (١٩٦٧) مع العدو الإسرائيلي أن

نسبة المرضى المصابين بالأمراض النفسية في المستشفيات العسكرية قبل البدء في القتال حوالي (١٦٪) من المستعدين لدخول المعركة، غير أن هذه النسبة ارتفعت إلى (٢٥٪) أثناء القتال (الزراد ١٩٨٤).

وقد أشارت الإحصائية العالمية أن جرائم الكبار تزيد بنسبة لاتقل عن ٢٥٪ خلال الحروب أو أعقابها (Tosi,1986) . كما لاحظ النابلسي (١٩٨٧) أن معظم اللبنانيين يعانون من الاضطرابات النفسية ـ والنفسية الجسدية الناجمة عن الحرب اللبنانية وتأكد ذلك من بعض الدراسات التي أشارت إلى انتشار نسبة الإصابة بالأمراض النفسية ـ والنفسية الجسدية إبان فترة الحروب والكوارث. وأشارت السجلات والإحصاءات إلى ارتفاع نسبة الإصابة المرضية لدى المتعرضين للكوارث (Moussong, 1989).

وكشفت دراسة صايغ (Saigh, 1984) أن هناك ارتباطاً دالاً بين المرض النفسي والعوامل النفسية والاجتماعية الناجمة عن الحروب والكوارث.

وتشير بعض الدراسات الأخرى إلى تغيّر نوعية الإصابة المرضية باختلاف نوعية الكوارث، وباختلاف الشعوب وباختلاف الشخصيات والحضارات والثقافات، فنجد أن الارتجاف الهستيري كاد أن يكون عاماً لدى الجنود الألمان في الحرب العالمية الأولى، وتفيد التقارير الانجليزية أن الإصابة بالقرحة قد ازدادت بنسبة ٤٠٠٪ إبان الغارات الألمانية على لندن خلال الحرب العالمية الثانية.

وكشفت دراسة على عينات من الفرنسيين عن معاناة عدد كبير من أسرى الحرب العالمية الثانية من الإصابة بالاضطرابات النفسية ـ الجسدية وكان بعضها حاداً، على حين ظهر تأثير بعضها الآخر بعد عشر سنوات من الحرب (النابلسي ١٩٩٢).

وتفيد تقارير الأمريكيين في حرب فيتنام عن زيادة ملحوظة في نسبة الإصابة لدى المقاتلين بالذبحة القلبية والأمراض الانسدادية (Bourne, 1970; Huffman, 1970; Merbaum and Hefze, 1979; – Saigh, 1984).

وتشير أميرة الديب (١٩٩١) في دراستها إلى ارتفاع نسبة الإصابة بالاضطرابات النفسية والاجتماعية لدى الطلاب الكويتيين من جراء حرب الكويت.

وأسفرت دراسات أخرى عن أن كارثة الحرب اللبنانية نتجت عنها أمراض عدة منها: مرض الجرب، الموجات الوبائية، داء الكلب، الكوليرا، التيفوئيد، ارتفاع الضغط، الأمراض الانسدادية، القرحة وغيرها. (النابلسي ١٩٩١)

وفي استبيان وجه إلى الممارسين الطبيين في ألمانيا وفرنسا والنمسا وسويسرا عام ١٩٧٣ تبين أن حوالي ١٠٪ من المرضى الذين يراجعون الأطباء يكشفون عن مظاهر اكتئابية وأن نصفهم يعاني من اكتئاب مقنع، ويشير إحصاء أولي أجري عام ١٩٨٥، إلى أن نسبة زيادة الإصابة بهذه الأمراض قد بلغت حدود ال ٨٠٠٪ وأن أكثر من ٤٠٪ من هؤلاء كانوا دون الثلاثين (محمد النابلسي ١٩٩١).

كما زادت الإصابة بالاضطرابات النفسية خلال الحرب اللبنانية (Nabaulsi, 1989)وتشير بعض الدراسات أن عنف الحرب اللبنانية وديمومتها الطويلة كانتا وراء تفشي (عصاب الحرب)بتسمياته العديدة والمختلفة من مدرسة إلى أخرى.

وفي هذا المجال تشير إحدى الدراسات (Pelicier and assaf,1989) إلى أن نسبة الإصابة بهذا العصاب قد بلغت حدود ال ٨٤٪ لدى المدنيين و ٦٤٪ لدى المقاتلين. وأكدت دراسات أخرى انتشار العصاب الصدمي في لبنان أثناء الحرب وكانت النتائج كما يلي: (دراسة جليل شكور ومحمد النابلسي ونشأت صبوح (١٩٩١) بنسبة ٧٠٪ - دراسة بيليسيه وعساف (١٩٨٩) بنسبة ٧٤٪ - ودراسة موسونج والنابلسي (١٩٨٩) بنسبة ٧٨٪، ودراسة النابلسي (١٩٩٠) بنسبة ٨٦٪، (جليل شكور ١٩٩١).

ونعرض فيما يلي لعدد من الدراسات السابقة في الموضوع بشيء من التفصيل..

الدراسات السابقة

١ - دراسة الديب (١٩٩١)
عن حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسية والاجتماعية للطلبة الكويتيين.

قامت الباحثة بتطبيق مقياس على الجوانب النفسية والاجتماعية الناجمة عن الغزو على عينة مكونة من ١٢٠ كويتياً تشتمل على مجموعتين فرعيتين:

المجموعة الأولى وتتكون من ٦٠ طالباً وطالبة من الصامدين، والمجموعة الثانية تتكون من ٦٠ طالباً وطالبة ممن كانوا خارج الكويت.

وأظهرت نتائج الدراسة مايلي:

١ ـ كانت مجموعة أفراد العينة داخل الكويت أكثر عداوة وبغضاً وكرهاً للعراق وميلاً إلى قصم العلاقات الاجتماعية والأسرية معه في المستقبل مقارنة بالمجموعة الموجودة خارج الكويت.
٢ ـ أن الذكور أكثر تشددا في العداوة والبغض نحو العراق من الإناث.
٣ ـ أن المجموعة الصامدة في الكويت أكثر اضطراباً نفسياً واجتماعياً من المجموعة الموجودة خارج الكويت.
٤ ـ أن الإناث بوجه عام أكثر اضطرابا نفسيا واجتماعيا من الذكور.

٢ ـ دراسة الديب (١٩٩٢)

ردود الفعل المتأخرة لصدمة الحرب

قامت الباحثة بتطبيق استبانة مقننة، ومقابلات كلينيكية، واختبار تفهم الموضوع (التات) T.A.T على حالة فردية واحدة من المواطنات الكويتيات الصامدات في الكويت، وأظهرت نتائج الدراسة ما يلي:

١ ـ أن اتجاه الحالة نحو العراق أكثر عداوة وكرها ولا مجال للتسامح أو المهاونة أو التعاون معهم.
٢ ـ أن الحالة تعاني من الاضطرابات النفسية ـ الجسدية.
٣ ـ أن الحالة تعاني من القلق والخوف وفقدان الثقة بالنفس والآخرين والإحساس باليأس والاكتئاب.
٤ ـ أن الحالة تعاني من اضطرابات في الشخصية.

٣ ـ دراسة درويش (١٩٩٢)

أثر العدوان العراقي في الحالة النفسية للشباب الكويتي.

قام هذا الباحث بتطبيق استبانة مقننة على عينة مكونة من ٣١٩ طالب وطالبة من الجامعيين بمدينة القاهرة وأظهرت نتائج الدراسة ما يلي :

١ ـ أن الاضطرابات العصابية Neurotic Disorders تحتل مكان الصدارة في قائمة المشكلات النفسية التي عانى منها ما يقارب ٦٠٪ من أفراد العينة .
٢ ـ عانى من الاضطرابات الاكتئابية ما يزيد على ٥٦٪ من أفراد العينة .
٣ ـ أظهرت الدراسة اختلال التوافق النفسي / الاجتماعي لدى أفراد العينة والمتمثل في تناقض المشاعر بين الحب والكراهية ، والرغبة في اعتزال الآخرين ، واللامبالاة بأي شيء .
٤ ـ أن الجوانب العقلية قد تأثرت في العدوان العراقي ، فقد عانت غالبية أفراد العينة من عدم القدرة على التركيز الذهني ، (أكثر من ٤٣٪ من أفراد العينة) .
٥ ـ أن الطالبات أكثر اضطرابا نفسيا من الطلاب .

٤ ـ دراسة صايغ (Saigh, 1984)

على عينة لبنانية مكونة من ٣٨ من الصامدين و٥٠ من النازحين إلى ضواحي أخرى ، وأظهرت نتائج الدراسة ما يلي :

١ ـ لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الدرجات التي تم الحصول عليها قبل الغزو من أولئك الأفراد الذين تم إجلاؤهم إلى المواقع الآمنة ، وبين درجات الأفراد الذين لم يتم إجلاؤهم .
٢ ـ لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين درجات ما بعد الغزو وبين الذين تم إجلاؤهم وبين أولئك الذين لم يتم إجلاؤهم .
٣ ـ الدرجات الكلية لكل من المجموعتين : من لم يتم إجلاؤهم ومن تم إجلاؤهم للمنبهات المرتبطة بالحرب كانت أقل عند قياسها بعد الحرب عن قياسها قبل الحرب بفرق جوهري إحصائياً .

٥ ـ دراسة سولومون (Solomon, 1988)

تأثير صدمة ما بعد الحرب على الأسرة

هدفت هذه الدراسة إلى فحص أثر ضغوط المعركة وما ارتبط بها من صدمات متأخرة ، ظهرت

أعراضها بعد انتهاء الحرب، على الجندي المحارب وأسرته. وقد أسفرت النتائج عما يلي:

١ ـ أن أهم الاضطرابات النفسية التي يعاني منها العائدون من المعركة كانت: ـ الشعور بالذنب والانسحاب العاطفي الانفعالي، وازدياد العدوانية أو العدائية نحو المجتمع.

٢ ـ معاناة زوجات هؤلاء الجنود وأبنائهم من بعض الاضطرابات النفسية مثل القلق والإحباط والشعور بالعزلة مع العزوف عن الأنشطة الاجتماعية.

٣ ـ إن أهم الضغوط التي تعرض لها الجندي خلال المعركة هي فقدان الأصدقاء، الشعور بالوحدة، عدم الانتظام في النوم، عدم توافر الظروف الملائمة للحياة، ارتفاع الحرارة.

٦ ـ دراسة توسي (Tosi, 1986)

هدفت إلى التعرف على ردود فعل خبرة صدمات الحرب، وأثرها على درجة مخاوف الأطفال من التعرض للأذى أو القتل. وقد تكونت العينة من ٢٤٨ طفلا وطفلة ممن اضطروا إلى الهجرة والرحيل من فيتنام بعد سقوط السلطة عام ١٩٧٥ والالتجاء إلى معسكرات في هونج كونج وقد أظهرت النتائج ما يلي:

ـ أن مجموعة الأطفال التي خبرت مشاهد القتل والاعتداء أو التعرض للاعتداء كانت أعلى في درجة مخاوفها من الاعتداء أو الأذى أو القتل، وذلك بمقارنتها بالمجموعة التي لم تخبر مثل هذه الصدمات.

ـ ارتبطت زيادة المخاوف بتعدد الصدمات للطفل وتكرارها.

ـ لم تكن للفروق بين الجنسين وبين الأعمار دلالة في درجة المخاوف.

ـ لم تكشف النتائج عن فروق دالة بين من شاهدوا المواقف البشعة ومن خبروها بأنفسهم.

ـ ومن أهم النتائج التي توصل إليهاهذا البحث أن أقل مجموعة تأثرت بالحرب وظروفها هي المجموعة التي لم تنفصل عن أسرتها طوال هذه الفترة الحرجة، فقد كانت هذه المجموعة تزاول ألعابها بصورة طبيعية، كما كانت إجاباتهم عن الأسئلة لا تختلف عن الطفل العادي الذي لم يمر بمثل هذه الخبرات. وقد أرجع الباحثون عدم قدرة بعض الأطفال على التكيف برغم وجودهم مع أسرهم إلى شعورهم بالاغتراب الثقافي وفقد الوطن.

٧ ـ لوكوود وصحبه (Lockwood et al, 1986)

هدفت إلى تحديد الفئات التي تقع على حافة الاضطراب العقلي كرد فعل لظروف الحرب التي دارت بين اسرائيل وسكان بيروت عام ١٩٨٢ .

وتتلخص نتائج هذا البحث فيما يلي :

- تكررت الأعراض النفسية والسلوكية لدى أفراد العينة ، وتراوحت هذه الاضطرابات بين عرض واحد من السلوك المضطرب إلى خمسة أعراض .
- تركزت الأعراض في البالغين (٣٤ سنة فأكثر) يليهم الأطفال في سن العاشرة أو أقل ، يليهم الأطفال الصغار والمراهقين .
- تركزت الأعراض لدى الإناث أكثر منها عند الذكور.
- تركزت الأعراض لدى اللبنانيين أكثر من الفلسطينيين .
- تركزت الأعراض لدى الأفراد الذين توقف تعليمهم عند المرحلة الابتدائية أكثر ممن واصلوا المرحلة الجامعية .

٨ ـ دراسة جيروم (Jerome, 1983)

عن أثر الخبرات السلبية في الحرب الفيتنامية وعلاقتها برد الفعل المتأخر من سلوك وخطر عداني .

أجرى هذا البحث من خلال وحدة نفسية للعناية المركزة للتوجيه لعينة من الجنود المرضى بالفصام منهم (٥٠) ممن شاركوا في المعارك (٣٠) جنديا ممن لم يشاركوا بالمعارك ، وقد كشفت الدراسة عن النتائج التالية :

١ ـ إن أكثر العوامل ارتباطا بالسلوك العدائي الخطر والهجومي هي القيام بالقتل أو مشاهدة القتل ومظاهر هذا السلوك كانت الغضب ، الرفض ، الإحباط ، إلقاء اللوم على الآخرين . وقد أرجع الباحث هذه المظاهر إلى الضغوط التي خبرها الجنود خلال المعارك .

٢ ـ أن الجنود المصابين بالفصام اكتسبوا سلوكهم العدائي من تجارب حياتهم اليومية ومن خبراتهم مع مواقف الإحباط، والنفسية المتدنية خلال فترة الحرب.

٩ ـ دراسة تارش (Tarch, 1985)

نظرة متعمقة لجندي حرب فيتنام

قام هذا الباحث بإجراء مقابلات شخصية مع ٣٦ حالة من الفيتناميين الذين تلقوا العلاج في بعض العيادات النفسية، وتوصل إلى النتائج التالية :ـ

ـ معاناة معظم أفراد العينة من مشكلات خاصة وبالتحديد مشكلات زوجية.
ـ مازالت نسبة كبيرة من العينة في حالة عزاء مستمر نظراً لموت أصدقائهم المقربين في هذه المعركة.
ـ معاناة نسبة عالية منهم من الشعور بالذنب لنجاتهم وموت الآخرين.
ـ إن خبرة المحارب (زوج ـ أب) للحرب جعلته أكثر عنفاً وعدوانية، وقد أقر أفراد العينة أنهم يجدون صعوبة في كبت مشاعر العدوان والعنف مما يخلق لديهم صراعاً نفسياً، وهم يؤكدون أن هذا الصراع ينعكس على من حولهم، الأمر الذي جعل زوجاتهم يشعرن بالألم النفسي والإحباط.

١٠ ـ دراسة صايغ (Saigh, 1984)

كان الهدف هو دراسة الضغوط النفسية الواقعة على مجموعة من الطلبة اللبنانيين إثر أزمة الحصار الإسرائيلي لغرب لبنان لعام ١٩٨٢ وقد تعرض سكان المنطقة للقصف والغارات الجوية، كما عانوا من الصعوبات البيئية مثل انقطاع المياه، ونقص الطعام، والأدوية والبنزين وغيرها من الحاجات الأساسية.

ولقد تكونت عينة هذا البحث من ٢٥ طالباً ممن صمدوا بالداخل من الذكور والإناث و٣٥ طالباً ممن نزحوا بعد أسبوع من الحصار إلى أماكن أكثر أمناً.

واستخدمت ثلاثة مقاييس لتحديد عدد من الضغوط والاضطرابات النفسية. وقد أشارت نتائج هذا البحث إلى ما يلي:

- معاناة أفراد العينة من الصامدين والنازحين من عديد من الأعراض كالقلق، والاكتئاب، واضطرابات النوم، وتبلد المشاعر.
- عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين درجات الصامدين والنازحين، سواء أكان ذلك في الاختبار القبلي أم في الاختبار البعدي في المقاييس الثلاثة.
- أن درجات العينة الكلية على قائمة المخاوف اللبنانية أكثر ارتفاعاً قبل الحصار عنه بعد أزمة الحصار.
- انخفاض درجة الأعراض انخفاضاً دالاً في الاختبار البعدي (ستة أشهر الحصار) عن الاختبار القبلي.

١١ ـ دراسة موليكا (Molica, 1987)

الآثار النفسية لصدمات الحرب والتعذيب على لاجيء جنوب شرق آسيا.

حاولت هذه الدراسة التعرف على تعدد (وحدّة) الخبرات الصادمة في علاقتها بالاضطرابات الشخصية والنفسية. وقد أجريت هذه الدراسة على ٥٢ حالة مرضية من الذكور والإناث البالغين والمترددين على العيادة النفسية لإحدى المستشفيات الأمريكية في بوسطن. وكشف البحث عن عدة نتائج إكلينيكية تشخيصية مهمة كما يلي:

- معاناة نسبة عالية من الأمراض العقلية والاضطرابات النفسية كالفصام والاكتئاب واليأس ومشاعر النقص والدونية، وكان من أهم الدلائل على هذه الاضطرابات الأحلام والكوابيس، والتي كانت تستعرض خبراتهم الثلاثة الصادمة وهي الحرب، المعاملة في المعسكر، محاولتهم الهرب.

١٢ ـ دراسة هنت (Hunt, 1988)

على عينة مكونة من ٦٣ مراهقاً فيتناميا من الذكور والإناث ممن التحقوا بدور الرعاية وقد قيس التوافق باستخدام مقياس التوافق للشباب، وكذلك بحساب تكرار مشكلات أفراد العينة في الأسرة البديلة التي انتقل إليها المراهق. وقد دلت النتائج على ما يلي:

* ٣٥٪ تعرضوا للاكتئاب .
* ٦٣٪ تكرار مرات تغيير الأسرة البديلة .
* ٢٥٪ مشكلات دراسية .
ـ كان الاكتئاب أكثر وضوحا بين الإناث عن الذكور.
ـ يزداد الاكتئاب بين الأفراد الذين التحقوا في سن كبيرة بدور الرعاية .

متغيرات البحث

أولا : استخبار ايزنك للشخصية EPQ الانبساط العصابية الذهانية

١ ـ الانبساط / الانطواء Extraversion/Introversion

تشير معاجم علم النفس إلى أن الانبساط/ الانطواءبعد فرضي Hypothtical Dimention ثنائي القطب Dipolar . والانبساط توجه شعور الفرد وأفكاره الخاصة نحو كل ما هو خارج الذات، أي اتجاه الطاقة النفسية خارج ذات الفرد نحو شخص أو شيء (المشعان ١٩٨٩) أما الانطواء فهو ميل الفرد إلى ذاته، ويتمثل في اعتزال الفرد الأنشطة الاجتماعية وانشغاله بأفكاره الخاصة، والمنطوى إذا شخص تتجه قيمه إلى الداخل، يعتزل الجماعة ويفضل الأنشطة والهوايات الفردية أي التي يقوم بها منفردا، يأخذ الحياة مأخذ الجد ينشغل بعالمه الداخلي مع عزوف عن العالم الخارجي .

وقد حدد ويتني Whitney الانطواء في معجمه الذي أطلق عليه "معجم العصر" بأنه الاتجاه إلى الداخل من الناحية الفيزيقية أو العقلية (محمد فارس ١٩٨٦) .

وأظهرت الدراسات السابقة أنه توجد فروق بين الذكور والإناث في الانبساط بمعنى أن الذكور أكثر انبساطا من الإناث (أنظر تركي ١٩٧٦ ،المشعان ١٩٨٩ ، حنورة ١٩٨٣ و ١٩٨٨ ، عوض ١٩٧٣ ، سويف ١٩٦٢ ، مليكة١٩٦٥ Eysenck,1969,1970,Abdel - khalek and (Eysenck,1983) ولكن هناك دراسات أخرى وجدت أن الإناث أكثر انبساطا من الذكور (انظر غالي ١٩٧٤ Onoda1974)

٢ ـ العصابية : Neuroticism

العصابية عند "انجلش وانجلش" ١٩٥٨ English and English

هي الصفة المجردة التي تميز الأمراض العصابية ويرى ايزنك Eysenck 1969 أن العصابية استعداد لدى الفرد للإصابة بالعصاب ، ويرى هيرشفيلد Hirchfield, 1983 أنه مظهر من مظاهر التوتر الانفعالي Davidson,1985 ويرى أحمد عبدالخالق (١٩٨٧) أن العصابية ليست هي الاضطرابات أو المرض النفسي ، بل هي الاستعداد للإصابة بالعصاب ، فالعصابية/ الاتزان الانفعالي مصطلحان يشيران إلى النقط المتطرقة للمتصل أو البعد الذي يتدرج من السواء وحسن التوافق والثبات الانفعالي أو قوة الأنا في طرف إلى سوء التوافق وعدم الثبات الانفعالي في الطرف المقابل ، إذا انعصب الأمر ، واشتد على الشخص ذي الدرجة المرتفعة على القطب الأخير أصبح عصابيا أي مضطربا نفسيا .

وقد أكدت بعض الدراسات السابقة أن الإناث أكثر عصابية وقلقا من الذكور (انظر تركي ١٩٧٦ ، المشعان ١٩٨٩ ، ايزنك ، ايزنك ١٩٩١ ، غالي ١٩٧٤ ،
Andreesson, 1987, Addston, 1986, Abdel-Khalek, Eysenck, 1983, Mc GeeCauifield, 1988, Coes, 1988, Chapman, 1986, Philips, 1987, Preston, 1987, Peterson, 1987, Onoda, 1974, Wilson, 1987, Weater, 1987, Ritter, 1988, Reilly, 1986, Zais, 1987, Young, 1987

٣ ـ الذهانية : psychoticism

الذهانية ليست درجة متطورة من العصابية ، ولكن الذهانية بعد مستقل عن بعد العصابية متعامدا or - thogonal عليه وغير مرتبط به .

وعلى الرغم من أن الذهانية ليست هي المرض العقلي أو الذهان Psychosis ، فإن المرضى العقليين يكشفون عن درجة مرتفعة على هذا البعد ولكنهم ليسوا وحدهم كما سنرى بعد قليل ويوصف الشخص الذي يحصل على درجة مرتفعة على بعد الذهانية بأنه : بارد وعدواني وقاسي ، مما يؤدى إلى أنواع من السلوك المضاد للمجتمع ، متمركز حول ذاته ، لا يتأثر بالمشاعر الشخصية .

وان الفصاميين ومرضى الهوس والسيكوباتيين والمجرمين يكشفون جميعا عن درجات مرتفعة على عامل الذهانية (أحمد عبدالخالق ١٩٩٣)

ويرى Eysenck,1980 الذهانية هي استعداد الفرد للإصابة بالذهان (Eysenck,1980) ويرى سويف أنها بعد من أبعاد الشخصية ،تضم مجموعة من الوظائف النفسية التي تنظم عملية توافق الفرد مع العالم الخارجي ، ويؤدي عدم توافقه إلى ظهور أعراض الذهانية (سويف ١٩٦٢) وكشفت بعض الدراسات أنه توجد فروق بين الذكور والإناث ، بمعنى أن الذكور أكثر استعدادا للإصابة بالاضطرابات الذهانية من الإناث (انظر حنورة ١٩٨٣ ، عبدالخالق ١٩٨٧ , ١٩٩١)

ثانيا : الاكتئاب : Depression

يعد الاكتئاب من أكثر الأعراض النفسية انتشارا ، ويختلف هذا العرض في شدته من مريض إلى آخر (عكاشة ١٩٧٧) وتشير التقديرات إلى أنه يوجد في المجتمع الأمريكي واحد من كل خمس عشرة نسمة يعاني من حالة الاكتئاب. (عزت ١٩٩٢)

والاكتئاب من أكثر الاضطرابات النفسية شيوعا وأشدها خطورة وإهلاكا ، وقد أجريت أبحاث عديدة تدور حول ما أطلق عليه في الأونة الأخيرة بالثورة المعرفية (سلامة ١٩٩١)

وقد قرر نورمان ساترويس Norman Satroius مدير الصحة النفسية بمنظمة الصحة العالمية أن هناك أكثر من مليون نسمة في العالم يعانون من اضطرابات اكتئابية تدخل في المعدل الاكلينيكي (عسكر ١٩٨٨)

ويعرف ستور Storr الاكتئاب بأنه مفهوم لحالة انفعالية يعاني فيها الفرد من الحزن وتأخر الاستجابة والميول التشاؤمية وقد تصل الدرجة في حالة الاكتئاب إلى الميل إلى الانتحار (موسى ١٩٩١) ويعرف حامد زهران ١٩٧٨ الاكتئاب بأنه حالة من الحزن الشديد المستمر تنتج عن الظروف المحزنة الأليمة ، وتعبر عن شيء مفقود وإن كان المريض لا يعي المصدر الحقيقي لأعراضه أو حالته.

وعلى الرغم من بعض الاستثناءات القليلة جدا، فإن مراجعة الأدبيات السيكولوجية في مجال الفروق بين الجنسين في الاكتئاب تشير إلى أن للنساء متوسط درجات أعلى من الرجال (انظر موسى ١٩٩١ ، سلامة ١٩٩١) Feinson,1984, Emery, 1988, Chino and Funabiki,1984, Baro-

netal.1986. Moxnes.1986. Lopez.1986. Knight.1984. Gallapher.1983. Shanfield and Benjaming.1985. Sawa. and Lustman. 1984

وعلى الرغم من هـذا الإجماع ، فقد كشفت إحدي الدراسـات على آن الذكور أكثر اكتئـابا من الإناث (انظر Bartell and Meynolds.1986) ومع كل ذلك فيجب أن نـؤكـد على أن الغـالبيـة العظمى من الدراسات أسفرت عن ارتفاع الاكتئاب لدى النساء بالنسبة إلى الرجال .

ثالثا : العدوانية : Aggression

لا شك أن عالم اليوم يسوده التصارع والتناحر ، عالم تعيش فيه كائنات اتسمت بالعدوان ، بل أنه ثبت من دراسات عديدة أن الإنسان هو الذي يدمر أفراد جنسه تدميرا بل تتملكه النشوة والتلذذ حين يفنيهم أو يؤذيهم أو يلحق بهم ضررا جسميا مـاديا أو نفسيا معنويـا ، بل تبدو الحقيقة المؤلمة في أن الإنسان أقسى الحيوانات التي عاشت على ظهر الأرض وأشدها ضراوة بل عنفا حين يعتدي الفرد على الفرد ، فهو لا يشبع إلا إذا أهلك عدوه ومثل به أشد تمثيل ودمره تدميرا بشعا (موسى ١٩٩١)، ولنا في العدوان العـراقي على الكويت مثالا يبين مدى صدق هذا القـول . ويعرف عسكر (١٩٨٨) العدوان بأنه تلك النزعة أو مجمل النزعات التي تتجسد في تصرفات حقيقيةأو خيالية ترمي إلى إلحاق الأذى بالآخـر تدميره و إكراهه و إذلالـه ؛ كما يعرفه بـاندورا Bandura.1983 بانه السلوك الذي ينجم عنه الأذى الشخصي أو تدمير الممتلكات . (موسى ١٩٩٢)

ولقد تنـوعت نتائج الـدراسات الـواقعية التي ألقت الضـوء على الفروق بين الجنسين في مجال العدوان فأسفرت معظم الـدراسات أنه توجد فـروق بين الذكور والإناث في العدوان لصـالح الذكور (انظـر : مـوسى ١٩٩١; Doyle,1988; Boldizar; 1988; Baietts; 1984; Gakes; 1987;Fonseca; 1986;Felman;1986; Hammock; 1987; Grohe; 1985; Gudes; 1986; Sherman; 1986; Richard; 1982; Luyster; 1984; Wiegand; 1983

وقام(dimaria and dinuovo.1986) بمقارنة الحكم على ثلاثة أنواع مختلفة من العدوان مثل عدوان المافيا ، والاغتصاب الجنسي والاغتيال السياسي على مجمـوعة من الذكور والإناث ، وقد انتهت النتائج إلى عـدم وجود فـروق دالة بين الجنسين في الحكم على الأنواع الثـلاثة المختلفـة من العدوان . وانتهت دراسة (Deturck.1987) إلى أن الـذكـور أكثـر استخـدامـا للعنـف البـدني مـن الإنـاث مـن أجـل تحقيـق الأهـداف الإقناعية Persuasive goals

ونستخلص مما سبق أن معظم نتائج الدراسات والبحوث المذكورة آنفا انتهت إلى أن الذكور أكثر عدوانا من الإناث في شتى المراحل العمرية ومن ناحية أخرى قام (Margalit and Maug-er,1985) بدراسة الفروق عبر الثقافات، في العدوان والتوكيدية بين (٥٨) أنثى و (٤٣) ذكرا من إسرائيل و (٥٦) أنثى (٤١) ذكرا من الطلاب الأمريكيين وقد انتهى التحليل إلى أن الإسرائيليين أكثر عدوانا من الأمريكيين ، كما تبين أن الذكور أكثر عدوانا من الإناث في الثقافتين .

هدف البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة بعض جوانب الشخصية والكشف عن معدلات بعض الاضطرابات النفسية الناجمة عن العدوان العراقي والذي خلف آثاراً نفسية سلبية لدى قطاعات عريضة من المجتمع وذلك تمهيدا لوضع خطة علاجية مكثفة للحالات التي تأثرت من صدمة العدوان ، والعناية بها وتوفير الرعاية النفسية لاستعادة الطمأنينة والأمن النفسي ، مع تعديل ما أصابها من آثار سلبية واضطرابات نفسية وذلك بتهيئة حياة مستقرة خالية من القلق لنشعر فيها بالرضا والإقبال على الحياة والعمل والإنتاج وبخاصة أن العناية بالصحة النفسية للأفراد وبناء شخصياتهم بناء سليما أصبحت موضع اهتمام القادة والمسؤولين والعاملين بعلم النفس والعلوم الإنسانية الأخرى .

ومن ناحية تفصيلية تتلخص أهداف هذا البحث فيما يلي :

١ ـ التعرف على الفروق بين الصامدين والنازحين في بعض متغيرات الشخصية والعدوانية والاكتئاب أثناء العدوان العراقي الآثم .

٢ ـ التعرف على الفروق بين الجنسين في الاكتئاب والعدوانية .

٣ـ التعرف على الفروق بين الجنسين في متغيرات الشخصية .

فروض البحث

١ ـ تختلف اضطرابات الشخصية بين الصامدين والنازحين أثناء العدوان العراقي .

٢ ـ توجد فروق بين الجنسين في متغيرات البحث .

منهج البحث

أ ـ العينة

تكونت عينة البحث من ٤٠٠ طالب وطالبة من المقيدين بجامعة الكويت بواقع (٢٠٠) من الذكور و (٢٠٠) من الإناث. ومن ناحية أخرى قسمت العينة الأصلية إلى مجموعتين :ـ

١ ـ المجموعة التي كانت مقيمة داخل الكويت أثناء الغزو بواقع (١٨٥) من الجنسين.
٢ ـ المجموعة التي كانت مقيمة أثناء الغزو خارج الكويت بواقع (٢١٥) من الجنسين.

ب ـ أدوات البحث

١ ـ استخبار أيزنك للشخصية (EPQ)

والذي قام بتعريبه الدكتور/ مصطفى سويف، ويتكون الاستخبار من «٩٠» عبارة ويقيس المتغيرات الآتية: الانبساط، العصابية، الذهانية، واستبعد مقياس الكذب. وقد استخدمت الصيغة العربية بنجاح مع عينات مصرية، وكويتية، وسعودية، ولبنانية، وتشير النتائج إلى الثبات المرتفع للاستخبار في المجتمعات التي استخدم فيها، كما تشير الدراسات إلى صدق مرتفع للاستخبار (ايزنك، ايزنك، ١٩٩١؛ عبد الخالق ١٩٩٣؛ العجيزي ١٩٧٩؛ حنورة ١٩٨٣، ١٩٨٨؛ المتعان ١٩٨٩) وقد كشفت هذه الدراسات عن كفاءة المقياس حيث توافرت له معاملات صدق وثبات مرتفعة في بلاد عديدة، مما يسوغ استخدامه في هذه الدراسة.

قائمة بيك للاكتئاب

من تأليف بيك Beck وزملائه وعربها غريب عبد الفتاح، وتتكون القائمة من ١٣ عرضا اكتئابيا أجريت على القائمة دراسات جد متعددة في أمريكا ومصر، وكشفت عن أن المقياس على درجة معقولة من الصدق والثبات وخاصة دراسات كل من (غريب ١٩٨٥؛ البحيري ١٩٨٥؛ سلامة ١٩٨٧) والتي كشفت عن ارتباط مقياس بيك بالصورة العربية مع الصورة العربية لمقياس الشخصية المتعدد الأوجه، ومقياس الشعور بالوحدة. وقام الباحث بحساب معامل الثبات للمقياس بطريقة إعادة الاختبار فوجد أنه ٨٤٪ مما جعل الأمر مطمئنا لاستخدامه في هذه الدراسة.

مقياس العدوانية

هذا المقيـاس من وضع «هـاثاواي مـاكنلي»، وتعريب عطيـة هنا وزمـلائه (١٩٥٦) ويتكون المقياس من ٢٢ عبارة مشتقة من اختبـار الشخصية المتعدد الأوجه MMPI ، وقد أجريت دراسات عليـه في كل من مصر والكويت والسعـوديـة، وكشفت عن ثبات مـرتفع، وقـام الباحث بحسـاب معامل ثبات المقياس بطريقة إعادة الاختبار فوجد أنه ٧٩٪ مما يجعل الأمر مطمئنا لاستخدامه في هذه الدراسة.

النتائج

ونعـرض فيما يلي لنتائج هـذه الدراسـة، فيبين جـدول (١) بعض المعالم الأسـاسية للمقيـاس الفرعي: الانبساط وهو أحد مقاييس استخبار ايزنك للشخصية

الإقامة	الذكور			الإناث			الذكور والإناث		
	ن	م	ع	ن	م	ع	ن	م	ع
داخل الكويت	٩١	١٤,٨١	٣,٥٨	٩٤	١١,٨٣	٤,٤٤	١٨٥	١٣,٤١	٤,١٦
خارج الكويت	١٠٩	١٣,٤٨	٣,٨٥	١٠٦	١٣,٣٣	٤,٤٧	٢١٥	١٣.٣٠	٤,٣٠
داخل وخارج الكويت	٢٠٠	١٤,٠٩	٣,٧٨	٢٠٠	١٢,٦٢	٤,٥٨	٤٠٠	١٣,٣٥	٤,٢٢

يتضح من جدول (١) أن متوسط درجـات الذكور داخل الكويت يزيـد عن متوسط درجات الإناث داخل الكـويت، وأن متوسط درجات الذكـور خارج الكويت متقارب مع متـوسط درجات الإنـاث خارج الكـويت، وأن متـوسط درجـات الانبساط لـدى الـذكـور في الداخل أعلى منهـا في الخارج، ولكن الـوضع معكـوس لـدى الإنـاث، متوسـط درجاتهن في خـارج الكـويت أعلى منهـا داخله، ويشير ذلك إلى أن الـذكور كانوا يتصرفون بطـريقة أكثر انبساطيـة داخل الوطن، على حين كانت الإناث تتصرفن بطريقة أكثر انبساطية خـارجه وأن متوسط درجات المجموعة ككل في الداخل تتقارب مع متوسط المجموعة التي في الخارج. .

جدول (٢) تحليل التباين المزدوج لدرجات الانبساط حسب الجنس والإقامة والتفاعل بينهما

مصدر التباين	متوسط المربعات	درجة المزية	قيمة «ف»	مستوى الدلالة
الجنس	٢١٤,١٨	١	١٢,٦٦	٠,٠٠٠
الإقامة داخل وخارج الكويت	٠,٨٠	١	٠,٠٥	٠,٨٣
تفاعل الجنس والإقامة	١٩٨,٦٤	١	١١,٧٤	٠,٠٠١
داخل المجموعات	٦٦٩٩,٧٧	٣٩٦	-	-
المجموع الكلي	٧١١٣,٨٨	٣٩٩	-	-

وبالنظر إلى جدول (٢) يتضح أنه توجد فروق بين الذكور والإناث في الانبساط، حيث إن نسبة «ف» للتباين (١٢,٦٦) وهي دالة احصائيا عند مستوى ٠,٠٠١ وبالرجوع إلى المتوسطات الواردة في جدول (١) نجد أن متوسط درجات الذكور (١٤,٠٩) ومتوسط درجات الإناث (١٢,٦٢)، وهذا يعني أن الذكور أكثر انبساطا من الإناث، كما نلاحظ من جدول (٢) أن التفاعل دال احصائيا عند مستوى ٠,٠٠١ وبفهم هذا التفاعل على ضوء النتيجتين الآتيتين:

١ ـ الذكور أكثر انبساطا من الإناث
٢ ـ الذكور المقيمون داخل الكويت كانوا أكثر انبساطا من الذكور خارجه، وعلى العكس من ذلك كانت الإناث المقيمات خارج الكويت أكثر انبساطا من المقيمات داخله.

نعرض فيما يلي لنتائج هذه الدراسة، فيبين جدول (٣) بعض المعالم الأساسية للمقياس الفرعي:
العصابية وهو أحد مقاييس استخبار ايزنك للشخصية

الإقامة	الذكور			الإناث			الذكور والإناث		
	ن	م	ع	ن	م	ع	ن	م	ع
داخل الكويت	٩١	١٣,٥٣	٤,٢٩	٩٤	١٥,٨٨	٤,٨٨	١٨٥	١٤,٩٣	٤,٥٢
خارج الكويت	١٠٩	١٣,٩٧	٤,٣٨	١٠٦	١٥,٩١	٤,٤٦	٢١٥	١٤,٧٣	٤,٥٩
داخل وخارج الكويت	٢٠٠	١٣,٧٧	٤,٣٣	٢٠٠	١٥,٨٩	٤,٥٠	٤٠٠	١٤,٨٣	٤,٥٤

من ملاحظة جدول (٣) يتضح أن النتيجة الأساسية هي الفروق الدالة بين الجنسين في العصابية، في اتجاه حصول الإناث على متوسط درجات أعلى في العصابية بالمقارنة إلى الذكور، وتنسحب هذه النتيجة على الجنسين سواء أكانوا داخل الكويت أثناء العدوان العراقي أم خارجه.

جدول (٤) تحليل التباين المزدوج لدرجات العصابية حسب الجنس والإقامة والتفاعل بينهما.

مصدر التباين	متوسط المربعات	درجة المزية	قيمة «ف»	مستوى الدلالة
الجنس	٤٥٠,٧٩	١	٢٢,٩٤	٠,٠٠٠
الإقامة داخل وخارج الكويت	٥,١٦	١	٠,٢٦	٠,٦١
تفاعل الجنس والإقامة	٤,٢٠٥	١	٠,٢١٤	٠,٦٤
داخل المجموعات	٧٧٨٢,٣٠٢	٣٩٦	-	-
المجموع الكلي	٨٢٤١,١١	٣٩٩	-	-

النتيجة الأساسية في جدول (٤) الفروق الدالة إحصائيا عند مستوى ٠,٠٠١ بين الذكور والإناث في العصابية، وبالرجوع إلى المتوسطات نجد أن متوسط الإناث أعلى من متوسط درجات الذكور، وهذا يعني أن الإناث أكثر عصابية من الذكور.

أما من حيث الإقامة فلا توجد فروق دالة إحصائيا بين من كانوا داخل الكويت أو خارجها كما لا يوجد تفاعل بين الجنس والإقامة.

ونعرض فيما يلي لنتائج الدراسة، فيبين جدول (٥) بعض المعالم الأساسية للمقياس الفرعي: الذهانية وهو أحد مقاييس استخبار ايزنك للشخصية.

الإقامة	الذكور			الإناث			الذكور والإناث		
	ن	م	ع	ن	م	ع	ن	م	ع
داخل الكويت	٩١	٥,٨٠	٣,٥٢	٩٤	٥,٢٩	٣,١٥	١٨٥	٥,٧٥	٣,١٧
خارج الكويت	١٠٩	٦,٢٥	٣,٢٨	١٠٦	٥,٢٣	٢,٩٩	٢١٥	٥,٥٤	٣,٣٤
داخل وخارج الكويت	٢٠٠	٦,٠٥	٣,٣٨	٢٠٠	٥,٢٦	٣,٠٥	٤٠٠	٥,٦٥	٣,٢٤

النتيجة الواضحة من جدول (٥) هي أن متوسط درجات الذكور داخل الكويت يزيد عن متوسط درجات الإناث داخل الكويت، ومتوسط درجات الذكور خارج الكويت يزيد عن متوسط درجات الإناث خارج الكويت، ومتوسط درجات الذكور في الذهانية أعلى من متوسط درجات الإناث، ومتوسط درجات المجموعة ككل في الداخل تتقارب مع متوسط المجموعةالتي في الخارج.

جدول (٦) تحليل التباين المزدوج لدرجات الذهـانية حسب الجنس والإقامة والتفاعل بينهما.

مصدر التباين	متوسط المربعات	درجة المزية	قيمة «ف»	مستوى الدلالة
الجنس	٦١,٩٢	١	٥,٩٣	٠,٠٢
الإقامة داخل وخارج الكويت	٤,٠٢	١	٠,٣٩	٠,٥٤
تفاعل الجنس والإقامة	٦,٣٧	١	٠,٦١	٠,٤٤
داخل المجموعات	٤١٣٣,٦٠	٣٩٦	-	-
المجموع الكلي	٤٢٠٦,٤٠	٣٩٩	-	-

ويبين جدول (٦) أنـه توجـد فروق بين الذكـور والإناث في الذهـانية، حيث إن نسبـة «ف» للتباين (٥,٩٣) وهي دالة إحصائيا عند مستوى ٠,٠٠٥ وبالرجوع إلى المتوسطات نجد أن متوسط درجات الذكور أعلى من متـوسط درجات الإناث وهذا يعني أن الـذكور أكثر استعدادا للاضطـراب الذهاني من الإناث. أمـا من حيث الإقامة فـلا توجد فـروق دالة إحصـائيا بين من كانـوا داخل الكويت أو خارجها كما لا يوجد تفاعل بين الجنس والإقامة.

ونعـرض فيما يلي لنتـائج الدراسـة، فيبين جـدول (٧) بعض المعـالم الأسـاسية لقـائمـة بيك للاكتئاب:

الإقامة	الذكور			الإناث			الذكور والإناث		
	ن	م	ع	ن	م	ع	ن	م	ع
داخل الكويت	٩١	٨,٦٤	٧,٣٠	٩٤	١٠,٧٨	٦,٦٩	١٨٥	٩,٧٣	٧,١٠
خارج الكويت	١٠٩	٨,٥٥	٦,٣٠	١٠٦	١٠,١٨	٦,١٩	٢١٥	٩,٣٥	٦,٥٥
داخل وخارج الكويت	٢٠٠	٨,٥٩	٦,٦٢	٢٠٠	١٠,٤٦	٦,٨٦	٤٠٠	٩,٥٢	٦,٨٠

يتضح من جدول (٧) أن متوسط درجات الإناث داخل الكـويت يزيد عن متوسط درجات الذكـور داخلها، وأن متـوسط درجات الإنـاث خارج الكويت يـزيد عن متـوسط درجات الـذكور خارجها، وأن متوسط درجات الإناث والذكور في الداخل يزيد عن متوسط درجات الإناث والذكور خارجها، ومتوسط درجات المجموعة المقيمة في الداخل يتقارب مع المجموعة المقيمة في الخارج.

جدول (٨) تحليل التباين المزدوج لدرجات الاكتئاب حسب الجنس والإقامة والتفاعل بينهما .

مصدر التباين	متوسط المربعات	درجة المزية	قيمة "ف"	مستوى الدلالة
الجنس	٣٤٥,٧٩	١	٧,٥٨	٠,٠٠٦
الإقامة داخل وخارج الكويت	١٢,٠٥	١	٠,٢٦	٠,٦١
تفاعل الجنس والإقامة	٦,٢	١	٠,١٤	٠,٧١
داخل المجموعات	٧٨٠٨٩	٣٩٦	-	-
المجموع الكلي	١٨٤٥٥,٧٠	٣٩٩	-	-

ويبين جدول (٨) أنه توجد فروق دالة إحصائياً عند مستوى ٠,٠١ بين الذكور والإناث في الاكتئاب حيث أن نسبة "ف" للتباين (٧,٥٨)، وبالرجوع إلى المتوسطات نجد أن متوسط درجات الإناث (١٠,٤٦) ومتوسط درجات الذكور (٨,٦٠) وهذا يعني أن الإناث أكثر اكتئاباً من الذكور.

أما من حيث الإقامة فلا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين من كانوا داخل الكويت أو خارجها . كما يلاحظ عدم وجود تفاعل من الجنس والإقامة .

ونعرض فيما يلي لنتائج الدراسة ، فيبين جدول (٩) بعض المعالم الأساسية لمقياس العدوانية .

الإقامة	الذكور			الإناث			الذكور والإناث		
	ن	م	ع	ن	م	ع	ن	م	ع
داخل الكويت	٩١	١١,٨٤	٥,٣٠٠	٩٤	١٠,٨٥	٤,٥١	١٨٥	١١,٣٤	٤,٩٣
خارج الكويت	١٠٩	١١,٢٤	٤,٤٠	١٠٦	١١,١٤	٥,٢٩	٢١٥	١١,٢٠	٤,٣٤
داخل وخارج الكويت	٢٠٠	١١,٥٢	٤,٦١	٢٠٠	١١,٠٠	٤,٨٣	٤٠٠	١١,٢٦	٤,٦١

يتبين من جدول (٩) أن متوسط درجات الإناث داخل الكويت في العدوانية أقل من متوسط درجات الذكور، وفيما عدا ذلك فالفروق طفيفة .

جدول (١٠) تحليل التباين المزدوج لدرجات العدوانية حسب الجنس والإقامة والتفاعل بينهما .

مصدر التباين	متوسط المربعات	درجة الحرية	قيمة "ف"	مستوى الدلالة
الجنس	٢٦,٧٥	١	١,٢٥	٠,٢٦
الإقامة داخل وخارج الكويت	٢,٣٣	١	٠,١١	٠,٧٤
تفاعل الجنس والإقامة	١٩,٦٤	١	٠,٩٢	٠,٣٤
داخل المجموعات	٨٤٤٨,٩	٣٩٦	-	-
المجموع الكلي	٨٤٩٧,٤٤	٣٩٩	-	-

يبين جدول (١٠) أنه لا توجد فروق دالة إحصائياً بين الذكور والإناث في العدوانية وكما يلاحظ أنه لا توجد فروق دالة إحصائيا بين من كانوا داخل الكويت وخارجها .

وكما لا يوجد تفاعل بين الجنس والإقامة .

مناقشة النتائج

لم يتحقق فرض الاختلاف في بناء الشخصية واضطراباتها بين الصامدين في الكويت والمقيمين خارجها أثناء العدوان العراقي . .

وكشفت الدراسة أن جميع قيم "ف" غير جوهرية ، بمعنى أنه لاتوجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الصامدين داخل الكويت أو خارجها أثناء العدوان العراقي ، ويرجع السبب في ذلك أن الضغوط النفسية والمعاناة والقلق والتوتر والاضطراب النفسي والصدمات العنيفة قد خلفت أثراً نفسيا سلبيا لدى كل من كانوا داخل الكويت أو خارجها سواء بسواء . إن من كانوا خارج الكويت قد عانوا إحباطا كبيرا وقلقا شديداً ، وذلك نظراً لبعدهم عن أرض الوطن ومعاناتهم في الحاضر، وغموض المستقبل بالنسبة لهم، هذا فضلاً عن الخوف المستمر، ذلك أنهم لا يشهدون ما يحدث في وطنهم لذويهم وممتلكاتهم وهم بعيدون أو مبعدون ، وهذه حالة نموذجية من الاغتراب النفسي والبدني، كما يجب ألا ينسى ما ينتابهم من شك في كفاية مصادر العيش واستمراريتها ، وكذلك تشتيت الأسرة في أماكن متفرقة ، كل ذلك يولد القلق والتوتر والاضطراب النفسي لمن كانوا خارج الوطن .

أما من كانوا داخل الوطن من الصامدين فلم يكونوا أحسن حالاً ممن كانوا خارجه؛ فهم في قلق مستمر، وتهديد دائم، وشعور بانعدام الأمن وهو حاجة اجتماعية مهمة. هذا فضلاً عن المشكلات التي واجهوها من نقص الاحتياجات الأساسية، وغدر المعتدي وغير ذلك. لقد كانوا يعيشون حالة من الخوف والقلق والغضب الشديد، والإحباط المستمر والمتكرر مما يشعرهم بالعجز بشكل يومي، وكانت المعاناة أشد حيث عاش الصامدون في ظروف غير طبيعية بسبب تعطل جميع مؤسسات الدولة نتيجة العصيان المدني الذي قام به جميع أفراد الشعب الكويتي ضد الاحتلال الآثم، بجانب معايشتهم المستمرة لمصادر القلق والخوف والفزع الذي ينتابهم بين فترة وأخرى من قبل الجيش العراقي، بسبب مداهماته المفاجئة والمستمرة وتفتيش البيوت بطريقة همجية وملاحقته للشباب، لاعتقالهم ومن ثم تعذيبهم جسدياً ونفسياً بطريقة غير إنسانية. كل ذلك ولد لديهم القلق والاضطراب النفسي، ولقد كان النازحون والصامدون يعانون من القلق والضيق وانعدام الأمان لذا اختفت الفروق بينهم في المقاييس الدالة على الاضطراب النفسي، وتتفق مع هذه النتيجة دراسات كل من (Saigh , 1984 "A" Saigh , 1984 "B" Tosi , 1986) .

ومن ناحية أخرى حققت نتائج هذه الدراسة الفرض الذي ينص على أنه :

توجد فروق بين الذكور والإناث في متغيرات البحث. وللتحقيق من هذا الفرض فحصت الفروق بين الجنسين عن طريق تحليل التباين، وكشف الدراسة أنه توجد فروق دالة إحصائيا بين الذكور والإناث في جميع المتغيرات ماعدا العدوانية. لقد ظهرت الفروق الجوهرية بين الذكور والإناث في مقياس الانبساط، الذكور أكثر انبساطاً من الإناث (انظر جدول "١").

وتتسق هذه النتيجة مع دراسات كل من (المشعان ١٩٨٩؛ تركي ١٩٧٦؛ حنورة وزملائه ١٩٨٣؛ عوض ١٩٨٥؛ سويف ١٩٦٢ (Eysenck,1969,1970, Abdel -Khalek* Eysenck ,1983)

أما من حيث العصابية فتوجد فروق جوهرية إحصائيا بين الذكور والإناث أكثر استعداداً للاضطراب العصابي من الذكور (انظر جدول "٣") وهذا يتسق مع معظم الدراسات السابقة (أنظر: المشعان ١٩٨٩؛ ايزنك،ايزنك ١٩٩١؛ تركي ١٩٧٦، عوض ١٩٨٥؛ غالي ١٩٧٤؛ موسى ١٩٩١؛ Onoda, 1974; Coes, 1988; Abdel -Khalek *Eysenck 1983; Sinick, 1956; Sais; 1987; Peterson, 1987; Wilson, 1987, Weater, 1987; Ritter, 1988.)

وكشفت دراسات كل من الديب (١٩٩١، ١٩٩٢)، درويش (١٩٩٢) على المجتمع

الكويتي أثناء العدوان العراقي عن ارتفاع في الإصابة بالاضطرابات النفسية، وخاصة الاضطرابات العصابية، والاكتئابية، وأن الإناث أكثر اضطراباً نفسياً من الذكور، على الرغم من أن دراسات النابلسي (١٩٨٧، ١٩٩٠) التي بينت أن معظم اللبنانيين سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً يعانون الاضطرابات النفسية الناجمة عن الحرب اللبنانية ومع ذلك كشفت دراسة Lockwood, 1986 أن الإناث أكثر اضطراباً في الشخصية من الذكور كرد فعل لظروف الحرب التي دارت بين إسرائيل وسكان بيروت.

وقد يرجع ارتفاع العصابية أو الاستعداد للاضطرابات العصابية بين النساء أكثر من الرجال، إلى أن الرجال لديهم فرص أكبر في مجتمعنا للتصرف في مشكلاتهم والتعبير عن انفعالاتهم، والتنفيس عن رغباتهم مما يقلل من حدة الصراع النفسي لديهم.

أما من حيث الذهانية فيلاحظ أنه توجد فروق بين الذكور والإناث في متغير الذهانية، وبالرجوع إلى جدول (٥) للمتوسطات نجد أن الذكور أكثر استعداداً للإصابة بالاضطرابات الذهانية من الإناث (أنظر جدول "٥") ويتفق ذلك مع معظم الدراسات السابقة (أنظر حنورة ١٩٨٣؛ عبدالخالق ١٩٨٧، ١٩٩١).

وكما أشارت Anastesi إلى أن النساء أقل اتزاناً نفسياً وفسيولوجياً وأكثر تعرضاً للاضطرابات النفسية والعقلية (عبدالفتاح ١٩٨٧) وكما كشفت Molica, 1987 في دراستها معاناة نسبة عالية من أفراد العينة بالإصابة بالأمراض العقلية (كالفصام)، والنفسية (كالاكتئاب)، وكما كشفت دراسة Saigh, 1984 أن هناك ارتباطا دالاً بين المرض العقلي والعوامل النفسية والاجتماعية الناجمة عن الحروب والكوارث.

أما من حيث الاكتئاب فتوجد فروق جوهرية بين الذكور والإناث، وبالرجوع إلى جدول (٧) يتضح أن الإناث أكثر اكتئابا من الذكور، وقد اتفق مع هذه النتيجة معظم الدراسات السابقة (أنظر: الديب ١٩٩٢؛ درويش ١٩٩١؛ عبدالخالق ١٩٨٣؛ موسى ١٩٩١؛ Bartell and Meynolds, 1986; Baron, 1986; Abdel - khalek, 1993; Hunt, 1986; Emery, 1988; Chino and Funbiki, 1984; Moxnes, 1986; Lockwood, 1986; Lopez,1986; Feinson, 1984; Nagelberg, 1983 ومن الملاحظ أن ارتفاع معدلات الإكتئاب يرتبط بالصدمات النفسية العنيفة والأزمات والحروب والكوارث التي يتعرض لها الإنسان مما يجعله أكثر استعداداً للإصابة بالاضطرابات الاكتئابية، وما الغزو العراقي للكويت وما خلفه من آثار نفسية سلبية إلا سبباً لارتفاع

معدلات الاضطرابات الاكتئابية، وهذا ما أكدته بعض الدراسات على المجتمع الكويتي كما سبق أن وضحنا.

وأما من حيث العدوانية فلم تظهر فروق جوهرية بين الذكور والإناث كما يتضح في جدول (٩) وهذا يرجع إلى أن المواقف الضاغطة والخبرات المؤلمة قد تعرض لها كل من الجنسين على حدسواء، مما أدى إلى اختفاء الفروق بين الجنسين في هذا المتغير.

النتيجة الأساسية لهذه الدراسة أن الصامدين والنازحين قد شاركوا المعدلات ذاتها تقريبا في كل من الانبساط والعصابية والذهانية والاكتئاب والعدوانية، وما ذلك إلا انعكاس لعنف الصدمة سواء أكان ذلك في داخل الكويت أو خارجها.

وعلى الرغم من ذلك فإن الفروق بين الجنسين قد تم الاحتفاظ بها ثابتة إن جاز التعبير، إشارة بوجه عام إلى أن للذكور متوسطا أعلى في الانبساط والذهانية، والإناث متوسط أعلى في العصابية والاكتئاب.

المراجع العربية

(١) أحمد عكاشة (١٩٧٧): علم النفس الفسيولوجي، دار المعارف ـ القاهرة ص ١٦٦.

(٢) أحمد محمد عبدالخالق (١٩٨٧): الأبعاد الأساسية للشخصية ـ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية. ص ٩٢.

(٣) أحمد محمد عبدالخالق (١٩٩٣): استخبارات الشخصية ـ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ص (٢٩ ـ ٣٠).

(٤) أميرة عبدالعزيز الديب (١٩٩٠): حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسية والاجتماعية للطلبة الكويتيين ـ الجمعية المصرية للدراسات النفسية ـ بحوث المؤتمر السابع لعلم النفس في مصر.

(٥) أميرة عبدالعزيز الديب (١٩٩٢): رد الفعل المتأخرة لصدمة الحرب "دراسة كلينيكية" دراسات نفسية، ابريل ١٩٩٢ : ٢ج ٣ ص (٢٩٧ ـ ٣٢٦).

(٦) اليزابيث موسون، ومحمد النابلسي (١٩٩٠): اختبار رسم الوقت في أوضاع الكارثة: محاضرة في المؤتمر الدولي الثامن للطب النفسي أثينا منشورة بالعربية في مجلة الثقافة النفسية العدد ٢، ١٩٩٠ ص (٦٠ ـ ٦٧).

(٧) ايذنك، ايزنك (١٩٩١) استخبارات ايزنك للشخصية. دليل تعليمات الصيغة العربي للأطفال والراشدين) تعريب أحمد عبدالخالق، الاسكندرية ـ دار المعرفة الجامعية.

(٨) جارى أمري (تعريب ممدوحة سلامة ١٩٨٨) : الخروج من الاكتئاب ـ مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد الثامن ص (١١٢ ـ ١٢٠).

(٩) بيليسيه. وعساف (١٩٩٠) : آثار الشدة الصدمية لدى المقاتلين والمدنيين في لبنان (المؤتمر الدولي الثامن للطب النفسي) الثقافة النفسية العدد (٢) ص ١٥٣.

(١٠) جليل شكور وزملاؤه (١٩٩٢): الثقافة النفسية، مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية، النهضة العربية بيروت ص ٩٩.

(١١) حامد عبدالعزيز زهران (١٩٧٨): الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب القاهرة ص ٤٢٩.

(١٢) رأفت السيد عبدالفتاح (١٩٨٧): الفروق بين الجنسين في خصائص الشخصية والرضا عن العمل لدى المستهدفين للحوادث في الصناعة. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس ـ كلية الآداب ـ القاهرة.

(١٣) رشاد عبدالعزيز موسى (١٩٨٩): النوع كمحدد سلوكي في الاكتئاب ـ مجلة علم النفس ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ العدد الحادي عشر ص (٦٢ ـ ٧٦).

(١٤) .... (١٩٩٢): الفروق بين الجنسين ـ مؤسسة مختار ص (١٩٤ ـ ١٦٢).

(١٥) رمضان محمد (١٩٨٤): العلاقة بين الواقعية للإنجاز والميل للعصابية مجلة علم النفس ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ العدد الثالث ـ القاهرة.

(١٦) رمضان محمد توفيق (١٩٨٧): مفهوم الذات لدى العصابيين دراسة كلينيكية مقارنة بين الأسوياء والعصابيين، رسالة ماجستير غير منشورة ـ جامعة عين شمس.

(١٧) زين العابدين درويش (١٩٩٢): أثر العدوان العراقي في الحالة النفسية للشباب الكويتي دراسة ميدانية على عينات من الطلبة المقيمين في مصر. المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد ٣٩ السنة العاشرة - الكويت. ص (٢٣٨ - ٢٥١).

(١٨) عبدالله عسكر (١٩٨٨): الاكتئاب النفسي - مكتبة - الانجلو - المصرية - القاهرة ص (١٩ - ٢٠)

(١٩) عزت سيد اسماعيل (١٩٩٣): الاكتئاب النفسي - وكالة المطبوعات - الكويت ص ٥٠.

(٢٠) عطية هنا وزملاؤه (١٩٥٦): اختبار الشخصية المتعددة الأوجه - النهضة العربية.

(٢١) عويد سلطان المشعان (١٩٩٣): الفروق بين الجنسين في الرضا المهني دار القلم - الكويت ص (٩٢ - ١٠٥).

(٢٢) عوض محمود عباس (١٩٨٥): دراسات في علم النفس الصناعى والمهني دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية.

(٢٣) غريب عبدالفتاح غريب (١٩٨٥): مقياس الاكتئاب - النهضة - القاهرة.

(٢٤) فيصل الزراد (١٩٨٤): الأمراض العصابية والذهانية والاضطرابات السلوكية دار القلم - بيروت ص (١٥٥ - ١٥٦).

(٢٥) كمال ابراهيم مرسي (١٩٧٩): القلق وعلاقته بالشخصية - في مرحلة المراهقة دار النهضة العربية القاهرة.

(٢٦) محمد أحمد النابلسي (١٩٨٧): الأمراض النفسية - وعلاجها، دراسة في مجتمع الحرب اللبنانية، مركز الدراسات النفسية - والنفسية الجسدية - دار النهضة العربية - بيروت.

(٢٧) .... (١٩٩٠): الحرب والمجتمعات النامية - مقال في مجلة (الثقافة النفسية) العدد الأول ١٩٩٠ ص (٤٥ - ٥٨).

(٢٨) محمد أحمد غالي (١٩٧٤): دراسة مقارنة لبعض أبعاد الشخصية باستخدام مقياس ايزنك - وزارة التربية - مركز البحوث النفسية والاجتماعية.

(٢٩) .... (١٩٧٤): دراسة العلاقة بين التوافق المهني وبعض المتغيرات الانفعالية لدى المدرسين بالكويت - مجلة كلية الآداب والتربية العدد السابع - جامعة الكويت.

(٣٠) محمد عبدالسلام فارسي (١٩٨٦): دراسة مقارنة بين المدخنين وغير المدخنين في بعض متغيرات الشخصية - رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الملك سعود - كلية التربية - الرياض.

(٣١) مجموعة من الباحثين (إشراف محمد النابلسي ١٩٩١): الصدمة النفسية في علم نفس الحروب والكوارث - دار النهضة العربية - بيروت.

(٣٢) مجموعة من الباحثين (١٩٩٢): الثقافة النفسية - مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية - العدد العاشر - النهضة العربية - بيروت ص (٩٩ - ١٠٥).

(٣٣) مصطفى أحمد تركي (١٩٧٦): الفروق بين الذكور والإناث من الكويتيين في بعض سمات الشخصية - مجلة كلية الآداب والتربية - ديسمبر الكويت.

(٣٤) .... (١٩٨٠): بحوث في الشخصية العربية - دار القلم - الكويت.

(٣٥) مصطفى سويف (١٩٦٢): اطار أساسي في الشخصية: دارسة حضارية مقارنة على نتائج التحليل العاملي، المجلة الجنائية القومية (١ - ٥٠)

(٣٦) ممدوحة محمد سلامة (١٩٨٩): التشويه المعرفي لـدى المكتئبين وغير المكتئبين مجلة علم النفس - الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد ١١ السنة الثالثة .

* أتوجه بالشكر إلى إدارة الأبحاث بجامعة الكويت على دعمها لإجراءات البحث

المراجع الأجنبيه

(37) Abdel-Khalek, A.M. (1993): Psychometric Properties of an Arabic from of the Beck Depression Inventory. Unpublished Manuscript.

(38) Abdel-Khalek, Eysenck, S.B.Q. (1983). Across-cultural study of personality: Egypt and England. Researchin Behaviour and Personality. Alxan. Dar Al-maarf 93. 215-226.

(39) Baron. P. and Perrom. L.M. (1986): Sex differences in the beck Depression Inventory scores of adolescents. Journal of Youth and Adolescents. 15. 156-171... ...

(40) Bryson, S. and Pilon, D. (1984): Sex differences in depression and the method of administering the beck Depression Inventory. Journal of clinical Psychology. 40.529-534 a

(41) Chino. A.T. and Funabiki, D (1984): Across-Validation of sex differences in the expression of depression. Sex roles. 11. 175-187.

(42) Devault. S.K. and Dambort, F. (1983): Sex of a case history and DSM - 111 Diagnosis of Depression. Journal of clinical psychology. a 39. 824 - 828.

(43) Davidson, J. et al (1985): Neuroticism and personality Disorder in Depression. Jr. of Affective Disorders. Vol.8. No.2.

(44) Emery. G. (1988): Getting undepressed. New York. Simmon and Schuster Inc

(45) Eysenck. H.J. and Eysenck. S. (1969): Personality Structures and Measurement Routeledge and Kagan Pauls London.

(46) .... (1980): The Causes and Effects of smoking Maurice Temple Smith London

(47) Haenel. T. and Kechols. P. (1982): Masked Depression and SuicdelTendencey. Basle. Switzerland Hexagon Roche. Volume. 10.

(48) Himmelfarb. S. (1984): Age sex differences in the mental health of older persons. Journal of consulting and clinical Psychology 52. 844-856.

(49) Hunt. Dennis. J. (1988): The effects of stressful life experiences on the adjustment of adolescent vietnames refuges. in Foster. Behavior Ress. 15. 375-378.

(50) Knight. R.G. (1984): Some general Population norms for the short form Beck Depression Inventory. Journal of clinical Psychology. 40. 751-753.

(51) Lockwood Laurel. and Haroutine. A. (1986): Apopulation based survey of loss and Psychological distress during war soc. sci med. Vol. 23-no. 3. 269-471

(52) Tsoi. Mona. et al (1986) Vietnames Refugee children in camps in Hong Kong. Soc. Sci. med. Vol. 23 - no. 11. 1147 - 1150.

(53) Moussong. E.K. et al: Psychoimmunology. in - 129 congres internationalde Neuropsychiatry - Pula.

(54) Naboulsi. M. (1990): War and Developing Societies. in-g terapeutica Honganica.

(55) Saigh. Philip. (1984) A: An Experimental Analysis of Delayed Post- traumatic stress. Behav. Res Ther. Vol. 22. No. 6. 679 - 682.

(56) Saigh. Philip. (1984) B: Pre- and Postinvasion Anxiety in Lebanon. Behavior Therapy. 15. 185-190.

(57) Sowa and Lustman (1984): Gender differences in rating stressfurl event, depression. and depressive cognition. Journal. of clinical psych. 40. 1334 - 1337.

(58) Shanfield. S.B. and Benjamin. A. (1985): Psychiatric distress in law students. Journal of legal Education. 35. 65 - 75.

(59) Solomon. 2 (1988): The effect of combat - related posttraumatic. AM J. Psychiatry. 146. 18 - 25.



الأستاذ الدكتور عثمان عبدالملك الصالح
مستشار مجلة عالم الفكر
في ذمة الله

فقدت الكويت وجامعة الكويت مساء يوم الثلاثاء الموافق ١٧/٨/١٩٩٣م الأستاذ الدكتور عثمان عبدالملك الصالح عميد كلية الحقوق، أحد أبرز العلماء الدستوريين لا في الكويت وحدها بل وفي العالم العربي أيضا، وكان لفقده رنة أسى وحزن في داخل الجامعة وخارجها. فقد كان الفقيد نصيرا للحريات وللديمقراطية، ومدافعا عن حقوق المرأة ونصيرا لقضاياها.

تخرج الفقيد في جامعة باريس ١٩٧٣، حيث حصل على دكتوراه الدولة في القانون العام وتدرج في الوظائف الجامعية حتى حصل على درجة الأستاذية، ثم عميدا لكلية الحقوق حتى وفاته.

له أبحاث ودراسات كثيرة بالفرنسية والعربية منها «التطور التاريخي لنظام الحكم وأجهزته في الكويت» صدر عام ١٩٧٣، والنظام الكويتي المعاصر صدر عام ١٩٧٧م، الى جانب العديد من الأبحاث المنشورة في الدوريات العربية والأجنبية.

رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله ومحبيه الصبر والسلوان

إنا لله وإنا إليه راجعون.

اضطراب الضغوط التالية للصدمة بوصفه أهم الآثار السلبية للعدوان العراقي على الكويت

د. أحمد محمد عبدالخالق *

* أستاذ بقسم علم النفس بكلية الآداب ـ جامعة الكويت، حاصل على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية والنفسية عام ١٩٨٨ من جمهورية مصر العربية، وله عدة كتب وبحوث منشورة في الدوريات العربية والأمريكية والانجليزية.

في العدوان وآثاره

لقد كان العـدوان العراقي الغادر على دولة الكويت في التـاريخ القريب (أغسطس ١٩٩٠ ـ فبراير ١٩٩١) حادثا جلـلا وأمرا مستطيرا ، توقف أمامه طويـلا كثير من المفكرين والباحثين فضلا عن عديد من الناس العاديين ، وكتب المؤلفون والمنظـرون والمؤرخون ولا يزالون يكتبون كثيرا عن هذه الحرب التي لم يكن لها مسوغ من عدل أو دين أو قومية أو حسن سياسة ، ومع ذلك فلا مراء في أن لها مسـوغا جليـا من طمع وجشع ، وخطط تـوسع ، ودعـاوى لا أساس تـاريخيـا ولا سياسيـا لها على الإطلاق ، فلـو أصغى أحد إلى مثـل هذه الدعـاوى لأصبح العالم فوضويا ، ولأصبح العـراق نفسه «محافظة فارسية»[١] ، ولانتفى حسن الجوار ، ولاعتدى القوي على الضعيف ، وساد قانون الغاب ، ولتنـاقض ذلك مع التنزيل الحكيم : «يـا أيها الناس إنا خلقنـاكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبـا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» (الحجرات : ١٣).

وعلى الـرغم من زخم البحـوث والدراسـات التي نشرت عن هـذا العـدوان الغادر مـن كافـة النواحي السياسية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية والبيئية والأدبية والدينية والاجتماعية والنفسية [٢] فإن الجوانب النفسيـة للغزو متمثلـة في آثاره كانت ولا تـزال في أمس الحاجة إلى مـزيد من التـأملات والنظرات ، وإلى عديد من البحوث والدراسات . ولا يعد ذلك نقصا في الجهود التي بذلها (ويبذلها) علماء النفس العرب المهتمون بدراسـة آثار هذا الغزو ، فالحق أن المسألة معقـدة والمشكلة متشابكة ، وقد تظهر الآثار النفسية حـادة وقد تبدو مزمنة ، وفي أحيان ثالثة قـد تكون مرجأة تطفو على السطح بعد حين ، ودليل ذلك أن عديدا من الأمراض والأعراض ظهرت على المحاربين الأمريكيين في فيتنام بعد عـودتهم إلى وطنهم بزمن غير قليل ، وتجدر الإشارة إلى أن البحوث النفسيـة على محاربي فيتنام لا تزال مـوصولة حتى الآن على الرغم من أن حـرب فيتنام قد وضعت أوزارها منـذ عام ١٩٧٥ . ولكل ذلك وغيره ، فليس بدعا من الأمر أن يكون ذلـك الخطب الجلل ، ونقصد العدوان العراقي على دولة الكويـت ، لا يزال قمينا بمواصلة البحوث بشأنه ، وباستمرار الدراسات بصدد آثاره .

ولاريب في أننا نتفق ـ سواء أكنا من المتخصصين في علم النفس أم من غير المتخصصين فيه ـ على أنه كان لهذا الغزو ولا يزال آثار نفسية عنيفة وعميقة ، ولا شك في أننا ستتفق ـ للمرة الثانية من دون أن نطلق القول على عواهنه ـ على أن هذه الآثار النفسية تعد آثارا سلبية في المقام الأول ، فما معنى الآثار السلبية وما أشكالها ؟

الآثار النفسية السلبية للغزو

يشير مصطلح «الآثار السلبية » Negative Effects بوجه عام إلى نتائج Outcomes غير مرغوبة ، وعواقب Consequences غير مفضلة ، وحصيلة ينجم عنها ـ في هذا المجال وهو علم النفس ـ أعراض مرضية محددة . وهي تسمى في مجالي علم النفس المرضي والطب النفسي بالآثار الجانبية المعاكسة Adverse side - effects كتلك الناتجة عن استخدام علاجات كيميائية أو عقاقير مهدئة أو مهبطة أو منومة مثلا ، والتي تنعكس على الحالة النفسية أو الجهاز العصبي أو الغدد الصماء أو الجهاز العضلي وغير ذلك .

ومن الممكن أن تظهر هذه الآثار الناجمة عن الغزو على أشكال شتى ، ومن أبرز هذه الأشكال : المشكلات الاجتماعية كالشقاق والفراق والطلاق ، وانحراف الأحداث والعدوانية والعنف وغير ذلك كثير ، هذا فضلا عن الاضطرابات النفسية . ومن الأهمية بمكان أن نجيب في هذا الصدد عن السؤال الآتي : ما أهم الاضطرابات النفسية المترتبة على الغزو والناجمة عنه كآثار سلبية له ؟

الاضطرابات النفسية بوصفها نواتج للغزو

الآثار النفسية السلبية للغزو العراقي عديدة ومتشابكة كما أسلفنا ، كما أنها تتخذ أشكالا متنوعة ظاهرة وباطنة . ومن هذه الأشكال : العدائية والعدوانية والعنف وانحراف الأحداث والطلاق والاضطرابات النفسية ، وتندرج تحت الفئة الأخيرة ـ على الأقل ـ أربعة تشخيصات نفسية هي : اضطراب الضغوط التالية للصدمة ، القلق ، الخوف ، الاكتئاب . ولم يدَّع أحد ولا يستطيع أن يدَّعي أن هذه المشكلات وتلك الآفات لم تكن موجودة في المجتمع الكويتي سالفا ، ولكن القول الصحيح : إن معدلاتها قد ارتفعت بعد الغزو .

ومن نافلة القول أن نفترض ـ ونحن نقف على أرض صلبة من الدراسات العملية العالمية ـ أن

معـدلات الإصابـة بمثل هذه الاضطـرابـات ونظائرهـا في المجتمع الكـويتي بعد الغـزو لابد أنها قـد ارتفعت عن ذي قبل ، وذلك مما يحتم ضرورة أن تلقى مزيدا من الاهتمام على المستويين : التشخيصي والعلاجي . ومع عدم إنكـار لأهمية الخسائر المادية التي أثرت في معدلات النمـو الاقتصادي في دولة الكويت ، فإن العوامل النفسية والاجتماعية قد تأتي في مكان الصدارة هنا ، فالإنسان عصب التنمية ومناط التقـدم وأساس الارتقاء . ومن المؤسف أن يقال ـ ومن المؤسف أيضا أنه قول فيـه جانب من الصواب : إن بذرة القلق قد وضعت ، وأسباب الاكتئاب قد استقرت ، ودواعي الخوف قد كمنت ، ولا غرو فقـد زلزل هـذا الغزو أركان المكـان ، ونسف أمان الإنسـان . فضلا عن أن عنصر المبـاغتة والمفاجأة وأخذ النـاس على غرة يضيف مزيدا من القتامة إلى هـذه الصورة المعقدة . لكل ذلك وغيره فليس بدعا من الأمر أن نفترض أن معدلات الاضطراب النفسي مرتفعة الآن في المجتمع الكويتي بعد الغزو وبـالقياس إلى مـا كان قبلـه . ويعن لنا الآن سـؤال مهم : إلى أى معـدل تكون الاضطـرابات النفسية قد ارتفعت بتأثير من هذا الغزو وكرد فعل له ؟

الحق أنه لا تتـوافر بحوث نفسيـة واقعية بدرجـة كافية على المجتمع الكـويتي قبل الغزو حتى يمكن مقارنة معدلات ما بعد الغزو بها ، ذلك أن التصميم التجريبي المثالي لهذه الدراسات المقارنة «تصميم قبلي ـ بعدي » Pre-post design . ومع ذلك فإن بعض الـدلائل متاحـة ، ومن بين هذه المؤشرات أربعـة كما يلي : الأول : الملاحظـات الشخصيـة الثـاقبـة لبعض المواطنين الكـويتيين من الثقات من أهل الاختصاص والخبرة[٣]، ممن عاشـوا في وطنهم وعايشوا أهله قبل الغـزو وبعده ، كما أنهم الأقدر بحكم مـوقعهم وتخصصهم (علم النفس) على الإدلاء برأيهم وتسجيل ملاحظـاتهم . أما الثاني فهـو ملاحظـات المدرسين التي تؤكـد زيادة مؤشرات الاضطـراب لدى تـلاميذهم بعـد الغزو بالمقارنة إلى مـاكان قبله [٤] . والمؤشر الثـالث دراسـة تجرى على طلاب جـامعـة الكـويت ، وتشير نتائجها المبدئية إلى عديد من الآثار النفسية السلبية على الطلاب ، نتيجة للغزو العراقي ، وذلك من وجهة نظر هـؤلاء الطلاب أنفسهم[٥] . أما الـدليل الرابـع فهو نتـاج البحوث العالميـة ، التي تحدد معدلات الـزيادة في الاضطرابـات النفسية بعد الحروب بـوجه عـام بأنها تصل إلى ضعف معدلها قبل الحرب على الأقل . فإذا كانت معدلات الاضطراب النفسي بوجه عام ودون تخصيص لتصنيف معين تصل إلى ٢٠/ ١٠٠٠ من السكان [٦] ، فإن التوقع أن تصل إلى ٤٠/ ١٠٠٠ على الأقل .

كما تشير الدراسـات الرائدة في علم النفس الحربي إلى أن معدلات الاضطـراب العصابي أو العصاب Neurosis هي التي تـزداد بعد نشـوب الحرب ، أما معـدلات المرض العقلي أو الذهـان Psychosis فلا تتأثر بالحرب إلا قليـلا . ويدلل ذلك ـ من بين ما يدلل ـ على الطبيعة الاستجابية Responsiveness المتعلقة برد الفعل Reaction في العصاب ، بما يعني أن الاضطـراب النفسي ـ في

جانب غير قليل منه - رد فعل أو استجابة من شخص لديه استعداد عصابي ، لمواقف عصبية ضاغطة تحدث في البيئة التي يعيش فيها هذا الشخص .

على أن الاضطراب النفسي الأساسي الذي يعد رد فعل أو استجابة للحرب بوصفها حادثا صدميا Traumatic event وخبرة صادمة ، ليس هو القلق العام ولا الخوف المرضي ولا الاكتئاب ، فماذا يكون إذن ؟

اضطراب الضغوط التالية للصدمة

إن اضطراب الضغوط التالية للصدمة Post Traumatic Stress Disorder (PTSD) من أهم الآثار النفسية السلبية المترتبة على العدوان العراقي ضد الشعب الكويتي ، وذلك لأسباب عدة . فإذا كان كل من القلق وقلق الموت والخوف والاكتئاب يمكن أن تكون من بين النواتج النفسية السلبية لهذا الغزو ، فإنها يمكن أن تكون أيضا أعراضا ثانوية لاضطراب الضغوط التالية للصدمة . ومن ثم ، ففي هذا الاضطراب يمكن أن تجتمع كل أشكال العصاب . ومن ناحية أخرى فإذا كان اضطراب الضغوط التالية للصدمة له عديد من المسببات (كالاغتصاب والزلازل وحوادث السيارات وغيرها) فليس كالحرب مسببا له ومحدثا ، إنها ذلك الحادث الجلل الذي يهز أركان المجتمع هزا ، ويهد مقومات أمان الإنسان هدا ، وقديما قال شاعرنا العربي المبدع «زهير بن أبي سلمى » :

وما الحرب إلا علمتم وذقتم   وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة   وتَضْرَ* إذا ضريتموها فَتَضْرَمِ

وثالثة الأثافي أن هذه الحرب على وجه الخصوص لم تكن كأي حرب شريفة تثور بين جيران أنداد ، كما ارتكب فيها ما ارتكب من فظائع ، وجرى فيها ما جرى من تجاوزات ، تذكرنا مرة ثانية بالشاعر ذاته في العمل نفسه إذ يقول :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

---

* تضر : أي تشتد وتستعر نارها .

كما تجدر الإشارة إلى عنصر المفاجأة والمباغتة وسرعة التنفيذ في هذا العمل العدواني الذي وصل إلى ذروته ومنتهاه في صورة غزو غاشم لم يهدف إلى ضم جزء من الأرض بل كان المعتدي عندئذ يروم ابتلاع دولة بأكملها ، وذلك مما ترك آثارا سلبية أعمق لدى الكويتيين ، ونقش على الحجر كره المعتدي . وإذا كان يقال ولا يزال : « يُؤتَى الحذر من مكمنه » ، فلم يكن إلا لقلة في الكويت أن يتصوروا أن يصل خبث المقاصد والإحكام في الوصول إليها إلى ما وصلت إليه . ومما زاد الطين بلة ألا يقتصر الأمر على ميدان الحرب والضرب والطعان بل تعداه إلى ما سمع العالم أجمع عنه من تجاوزات غير إنسانية ولا أخلاقية . لكل ذلك تعد هذه الظروف بيئة نموذجية مهيِّئة لظهور كثير من حالات اضطراب الضغوط التالية للصدمة .

وعلى الرغم من أن ما سنقول بعد قليل يتناقض مع الحديث النبوي الشريف فيما معناه « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » فإن الأمانة تقتضي التنبيه إلى أن بعض الآثار السلبية للغزو قد تجسدت في عديد من حالات الضغوط التالية للصدمة ، وليس هذا فحسب ، بل إن عددا من الحالات المؤجلة أو المرجأة Delayed سوف تظهر بعد حين ـ سواء أطال هذا الزمن أم قصر ، تسببها عوامل مفجرة بعضها واهن ضعيف كالقشة التي قصمت ظهر البعير . ويؤكد ذلك الدراسات السابقة التي ظهرت على المحاربين الأمريكيين في فيتنام ، حيث ظهرت أعراض اضطراب الضغوط التالية للصدمة بعد سنين عددا . هذا فضلا عن الحالات الحادة Acute والمزمنة Chronic من الاضطراب المشار إليه ذاته .

لكل ذلك تعد الأسباب قوية والعوامل متضافرة لفحص اضطراب الضغوط التالية للصدمة بوصفه أثرا مهما من الآثار السلبية للعدوان العراقي على الكويت ، والحق أننا أمام تربة خصبة لنمو هذا الاضطراب ، وحالة نموذجية قمينة بالفحص والدرس .

نقطة أخيرة جديرة بالتنويه ـ مؤداها أن عددا عديدا من البحوث المنشورة [٧] والجارية [٨] قد عالج (ويعالج) مختلف الآثار النفسية السلبية للغزو العراقي على الكويت مثل : الشخصية ، القلق ، قلق الموت ، الاكتئاب ، الخوف ، العدوانية . وحيث إنه لم تتح على الأغلب دراسات قَبْلِية (أي قبل العدوان) ، فقد قارن عديد من الباحثين النفسيين بين عينات كويتية من الصامدين والنازحين ــ وهذا إجراء علمي مسوغ . وعلى الرغم من هذا الزخم من البحوث والدراسات فإن التشخيص المستقل : « اضطراب الضغوط التالية للصدمة » لم يلق من الاهتمام ما يليق بكل من أهميته ووثاقة علاقته بالحرب وآثارها السلبية . وقبل أن نعالج مختلف جنبات هذه الفئة التشخيصية

المهمة، نجد لزاما علينا أن نعرض لمفهوم "الضغوط" Stress، وهو مصطلح مهم داخل هذا التشخيص وأحد مكوناته.

مفهوم الضغوط

الضغوط أو المشقة أو الانعصاب Stress[٩] مفهوم مستعار من الفيزياء، ويشير إلى إجهاد أو ضغط أوقوة تمارس ضغطها على الأجسام، مثال ذلك أن تضغط صخرة ضخمة سقطت من حالق على أرض رخوة فتغور فيها وتندفع داخلها، أو كأن تصطدم سيارة بأخرى تسيران بسرعة عالية، فتسبب كل منهما ضغطا شديدا على الأخرى فيتحطم مقدم السيارتين.

وقد استعار علم النفس ـ بوصفه علما حديث النشأة ـ مصطلح الضغوط أوالمشقة أو الانعصاب من الفيزياء، فتشير المشقة أو الانعصاب إلى درجة مرتفعة من الضغوط الواقعة علينا في حياتنا اليومية، والتي يمكن أن تضغط علينا أو تدفعنا أو تجذبنا. ومصادر المشقة أو الضغوط على الإنسان في هذا العصر عديدة ومتزايدة ومنها: تغيرات الحياة، وحوادث الوفاة (وبخاصة القرين: الزوج أو الزوجة)، والمرض العضوي، والألم، والضيق، والإحباط (إعاقة دوافعنا عن أن تصل إلى تحقيق أهدافها)، وصعوبات الحياة، ومشكلات محددة لانجد لها حلا... ومن الواضح أن مصادر المشقة أو الضغوط الواقعة على الإنسان المعاصر قد لاتنتهي، علما بأنها تختلف من فرد إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى من النمو أو التطور لدى الفرد الواحد. وقد دلت البحوث النفسية والطبية النفسية على أن التعرض للمواقف العصيبة التي تستمر زمنا لاتسبب القلق المزمن فحسب، بل إنها أيضا تغير من معدلات كل من المرض والوفاة ومظاهر تقدم العمر قبل الأوان.

على أن أخطر مشقة وأعظم ضغط يقع على الإنسان هو ذلك الموقف العصيب الذي يكسر الإيقاع السوي للحياة اليومية، ويعد خروجا على المألوف والعادي والمتوقع، وينجم عنه قدر متفاوت الدرجة من الذلة أو المهانة أو احتقار الإنسان لنفسه وعدم توقيره لها، ولا يكون ذلك غالبا لذنب جنته يداه، بل يكون نتيجة قسر أو قهر أو إكراه، إذ لا يكون للإنسان دخل فيما جرى، فهو لم يرده ولم يقصد إليه ولم يتمنه.

ولقد صُنِّف اضطراب الضغوط التالية للصدمة في الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث للاضطرابات العقلية، الصادر عن الرابطة الأمريكية للأطباء النفسيين ليستوعب أحداثا خطيرة مثل الحرب والاغتصاب والزلازل والبراكين والأعاصير... وغير ذلك مما سنفصله في فقرة تالية.

ويعد الأب المؤسس لبحوث الضغوط عالم الغدد الصماء Endocrinology «هانزسيلى» H.Syle. وفي السنين الأخيرة ظهر اهتمام كبير في علم النفس ببحوث الضغوط بوصفها مجالا محددا من البحث العلمي. وقد تركزت البحوث في البداية حول صدمة الحرب، مع التركيز على الأعراض المشتركة بين المحاربين الذين شاركوا في حرب فيتنام والحرب الكورية والحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، وأخيرا حرب الخليج (١٠). كما كشفت الدراسات على من بقوا على قيد الحياة من معسكرات الاعتقال عن الدليل على وجود استجابة « اضطراب الضغوط التالية للصدمة» PTSD وفي عام ١٩٨٥ تأسست جمعية دراسات ضغوط الصدمة The Society for Traumatic Stress Studies وبدأ الاهتمام بالبحوث التي تختص بصدمات مختلفة، وظهر سريعا أن هناك عناصر مشتركة في ردود أفعال الضحايا ومن بقوا على قيد الحياة من ضحايا الحرب والكوارث الطبيعية والاغتصاب والعنف الأسرى والرهائن وجرائم العنف. كما ظهرت عناصر مشتركة أيضا في الأفكار المهنية لدى كل من رجال الشرطة وإطفاء الحرائق ومن يعملون مع من بقوا على قيد الحياة بعد الصدمة (١١). وقبل أن نعرض لجوانب تفصيلية في اضطراب الضغوط التالية للصدمة فمن الأهمية بمكان أن نورد توطئة تاريخية للموضوع.

لمحة تاريخية عن الدراسة النفسية للضغوط

لم ينقطع حدوث الخبرات الصدمية Traumatic experiences عبر القرون، وذلك ما دامت الكوارث الطبيعية كالزلازل والأعاصير والبراكين تحدث، وكذلك الكوارث التي يصنعها البشر كالحروب والجرائم والعنف. ولا شك أن الرجال العاديين قد لاحظوا منذ قرون، الآثار النفسية الصدمية التي تنجم عن مثل هذه الأحداث غير العادية، ولا ريب في أنهم لاحظوا أيضا ما ينتج عن مثل هذه الحوادث التي تقطع الإيقاع السوي للحياة العادية من أعراض نفسية شتى. ولكن الحقيقة أن إفراد تشخيص نفسي مستقل، وتخصيص فئة محددة القسمات واضحة المعالم لهذا الاضطراب (ونقصد اضطراب الضغوط التالية للصدمة (PTSD) لم يحدث إلا عام ١٩٨٠ كما سنفصل بعد قليل. ولنورد فيما يلي شذرات من تاريخ هذا المصطلح أو هذه الفئة المرضية قبل أن تُعطى هذا الاسم المحدد.

لقد كتب «صامويل بيبيس» Pepys في مذكراته عام ١٦٦٦ بعد ستة شهور من مشاهدته حريق لندن الكبير، ما يلي: « إنه من الغريب أن أفكر كيف أنني في هذا اليوم المشهود لم أستطع أن أنام ليلة دون أن أرتعد بشدة من النار، وكيف أنني في هذه الليلة التي لا تنسى لم أتمكن من النوم إلا

في حوالي الساعة الثانية صباحا بسبب الأفكار المتركزة حول النار» . وفي عام ١٨٩٦ ، استخدم «إميل كربلين» Kraepelin ، الطبيب النفسي الألماني الشهير وصاحب التصنيف المهم ، مصطلح «عصاب الرعب» Fright Neurosis ، وذلك ليشير به إلى حالة إكلينيكية متفردة ، تشتمل على ظواهر عصبية ونفسية متعددة ، تنجم عن جَيَشَانٍ و فَوَرَانٍ انفعالي شديد أو رعب مفاجيء ينشأ عنه قلق عظيم ، ومن ثم يمكن ملاحظته بعد حوادث أو إصابات خطيرة وأهمها : النيران ، وخروج قطارات السكك الحديدية عن الخط أو التصادمات (١٢).

وقبل ذلك بقليل ، أي في عام ١٨٧٩ وضع «ريجلر» Rigler مصطلح عصاب التعويض Compensation neurosis ليشير به إلى زيادة معدل السقام Invalidism الذي أوردته التقارير بعد حوادث السكك الحديدية ، وذلك بعد إدخال قوانين التعويض في بروسيا . وقد تزايد عدد الدعاوى ضد شركات السكك الحديدية حتى أصبحت هذه الزملة (مجموعة الأعراض) معروفة باسم : «شوكة السكك الحديدية» . ونتيجة للحرب العالمية الأولى وضع «فردريك موت» Mott عام ١٩١٩ مصطلح «صدمة القذائف» Shell shock ليشير به إلى اضطراب نفسي يتسم بفقدان الذاكرة أو الكلام أو البصر ويصيب بعض الجنود المحاربين . وفي عام ١٩٤١ استخدم «كاردنر» Kardiner مصطلح «العُصاب الصدمى» Traumatic neurosis (١٣).

وبتأثير من أحداث الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية وضعت مصطلحات عديدة للإشارة إلى الزملة Syndrome (مجموعة الأعراض) ذاتها ، ومنها : « استنزاف المعركة » Combat exhaustion أو تعب القتال Combat fatigue إشارة إلى القوى الخائرة وحالة الإنهاك والإعياء والإجهاد الناتجة عن المعركة أو القتال . وكان تشخيص هذا الاضطراب أمر ا جدليا خلافيا ، ولكن كانت الاستجابة له في الحرب العالمية الأولى نظامية متسقة وطبية عضوية . وعد الجيش الألمانى صدمة القذائف أمرا خارجا على القانون ، وأعلن أن ضحايا هذا الاضطراب يجب أن يُعدموا ، وكانت النتيجة بطبيعة الحال أنه لم تسجل أية حالة . وقد اتخذت السلطات الإنجليزية والفرنسية معايير عقابية أخرى ضد الجنود الذين يستسلمون لصدمة القذائف دون أن يكونوا معرضين للقذائف المتفجرة .

بعد ذلك عولج الاضطراب التالي للصدمة بطريقة أكثر إنسانية في الحرب العالمية الثانية والحربين الكورية والفيتنامية ، فقد تعلم خبراء الصحة النفسية أن الإرشاد الفوري هو أكثر الطرق فاعلية لمساعدة الجنود الذين يعانون منه (١٤).

ولم يظهر اضطراب الضغوط التالية للصدمة في الدليل التشخيصي والإحصائي الأول Diagnostic & Statistical Manual I للاضطرابات النفسية الصادر عن الرابطة الأمريكية للأطباء النفسيين عام ١٩٥٢ ، ولا في الدليل التشخيصي الثاني DSM II الصادر عام ١٩٦٨ . وبعد جدال مستفيض في الرابطة المشار إليها ، ظهر تشخيص "اضطراب الضغوط التالية للصدمة" بوصفة فئة تشخيصية مستقلة في الدليل التشخيصي الثالث DSM III الصادر عام ١٩٨٠ . وحدث تنقية وتحسين في وصف هذا الاضطراب في الدليل التشخيصي الثالث المعدل DSM III - R الصادر عام ١٩٨٧ .

ولكن ما يجب أن نعرفه أن هذه الزملة المرضية لم تنتظر حتى الثمانينيات من هذا القرن حتى تكون معروفة للمتخصصين والممارسين في مجالي علم النفس المرضي والطب النفسي ، فقد كانت معروفة عبر القرون (كما أسلفنا في صدر هذه الفقرة) في التراث الطبي ولكن تحت أسماء أخرى وبتفسيرات نظرية مختلفة . ومن الأسماء السابقة لها : الصدمة العصبية Nervous shock ، واستنزاف المعركة ، وتعب القتال ، وكذلك صدمة القذائف Shell shock التي كان يُعتقد أنها تنتج عن تغيرات في الضغط الجوي أو زيادة أول أكسيد الكربون الناتج عن القتال .

وقد كان للتفسيرات السيكولوجية للصدمة العصبية دور مهم ، ففي بداية هذا القرن فُسرت الصدمة العصبية على أنها نوع من الهستيريا ، حيث أكد الكتاب المتحيزون للتحليل النفسي Psychoanalysis على مدلول الصدمة ومغزاها ، وفُسرت على أنها استثارة زائدة لحوافز الفرد المصدوم ، وقد فسرها " فينيخل " Fenichel بأنها زيادة إثارة أدت إلى اضطراب التوازن النفسي . ثم حدثت النقلة من التفسير التحليلي النفسي على أساس مفهوم الصدمة المثيرة للصراعات إلى مفهوم التكيف Adaptation . ويعني التكيف هنا محاولة الفرد الاستجابة لتغيرات البيئة ، واعتمادا على هذه النظرة كان ينظر إلى العصاب التالي للصدمة Post - traumatic neurosis على أنه نتيجة فشل في التكيف[١٤].

ولم يكتب شيء عن عصاب الصدمة بين عامي ١٩٥٠ ، ١٩٧٠ مع استثناءات قليلة . وفي الوقت ذاته حدثت تغيرات عديدة في علم النفس بوجه عام ، فأصبح للنظريات المعرفية والسلوكية تأثير متزايد في المجال ، كما أن تحديد الصحة والمرض على أساس نظريات متصلة بأجهزة الجسم والبيئة قد كسب أهمية كبيرة ، وشهدت السبعينيات والثمانينيات انفجارا في كمية البحوث المنشورة عن الاضطرابات المرتبطة بالصدمة . ومن الواضح أن الإصابات النفسية الناجمة عن حرب فيتنام كانت

مسؤولية تمت عن تحديد الاهتمام بعصاب ما بعد الصدمة. وقد عكس إيراد مصطلح "الضغوط" في تسمية الاضطراب ذاته (اضطراب الضغوط التالية للصدمة) الاهتمام بفحص مسببات هذه الضغوط ذاتها [١٠]. ويتبادر إلى الذهن الآن سؤال مهم: هل الحرب وحدها هي السبب في هذا النوع من الاضطراب على اختلاف تسمياته؟

الحقيقة أن الضغوط التي تقع على الإنسان كل يوم كثيرة ومتعددة وذات درجات متفاوتة، وإذ انصب الاهتمام على الضغوط المسببة للاضطراب - ولا شك أنها لابد أن تكون ذات درجة مرتفعة وجرعة كبيرة - فالحرب واحدة من أهم هذه الضغوط التي تمارس تأثيرها على الإنسان ولكنها ليست الوحيدة، فمصادر الضغوط عديدة، منها الكوارث الطبيعية، والحوادث التي هي من صنع البشر كتصادم السيارات وتحطم القطارات والطائرات... وغير ذلك كثير مما سنعرض له في الفقرة التالية.

على أن زيادة حالات الاغتصاب في بلد كبير العدد والعدة كالولايات المتحدة الأمريكية كان من بين أسباب الاهتمام الكبير بهذا الاضطراب التالي لهذه الصدمة، التي يترتب عليها قدر ضخم من العنت والذل والمهانة، والضرر النفسي البليغ، والأذى البدني الذي قد يصل إلى الإصابة الخطيرة أو القتل. وهناك حقيقة مهمة في هذا الصدد، من ناحية الاهتمام البحثي الكبير بمشكلة الاغتصاب، في بلد كأمريكا يوجد فيه أكبر عدد في العالم من علماء النفس والأطباء النفسيين، وهو أن عدد ضحايا الاغتصاب أكثر من عدد الرجال الذين يذهبون إلى الحرب. فقد "حددت حالات الاغتصاب عام ١٩٩١ في الولايات المتحدة بأنها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ ضحية تذهب إلى أقسام الشرطة كل عام (والعدد الحقيقي أكبر من ذلك بكثير جدا)، والحق أن تقارير الاغتصاب قد ارتفعت بمقدار أربع مرات أسرع من المعدل العام للجرائم خلال الثمانينيات" [١١]. ولقد ذكرنا الحرب والاغتصاب فقط كسببين من أسباب الصدمات النفسية في معرض حديثنا عن بعض الجوانب التاريخية لهذا الاضطراب، حيث كان لهذين النوعين أهمية غير قليلة، وذلك على الرغم من أنهما لا يشكلان المسببات الوحيدة لهذا الاضطراب النفسي، ولهذا فمن المناسب الآن أن نقدم مختلف مسببات هذا الاضطراب.

أنواع الضغوط المسببة للصدمة

الحياة الإنسانية العادية غاصة بالضغوط من كل نوع: "لقد خلقنا الإنسان في كبد"، أي تعب ونصب. وهناك متغيرات كثيرة تؤثر في إدراكنا ووجهة نظرنا تجاه هذه الضغوط، وبصرف النظر

عن هـذه المتغيرات المتعددة فإن العـامل الأساسي في ذلك النـوع من الضغوط التي تعـد مرضيّـة غير سوية، وتندرج تحت فئة تشخيصية، هو أن هذه الضغوط تعد مسببة للصدمة حال وقوعها لدى كل البشر الأسوياء تقريبا (كالـزلازل والقصف بالقنابل والاغتصاب ومعسكرات الاعتقال والخطف . . . وغير ذلك مما سنفصلـه بعد قليل). وتعد الضغوط من هـذا النوع وغيره - في الحقيقة - كسرا للايقاع السوي للحياة الإنسانية، ونشازا في التناغم الطبيعي للحياة البشرية، وخروجـا على المألوف والمتوقع من البيئة الاجتماعية والطبيعية. ومن ثم نعد الاستجابة لهذه الصدمات ونظائرها بالاضطراب والسقم والعلة والمرض أمرا طبيعيا وسويا، ولكنه مع ذلك اضطراب يتعين علاجه، والتخفيف من آثاره.

والحق ان "اضطراب الضغـوط التاليـة للصدمـة" زملة Syndrome (أي مجموعـة أعراض) إكلينيكيـة حقيقية جـدا وخطيرة. ويبدو أن "المخلـوق الآدمي ليس مبرمجا من النـاحية البيـولوجيـة للعمل خـلال مثل هـذه الصـدمـات النفسيـة الكبيرة كـالحرب أو الاغتصـاب وغيرهما من المواقف العصبية الضاغطة" [٦٦]. والجانب الأساسي في تشخيص "اضطـراب الضغوط التالية للصـدمة" (PTSD) هو التأكد من طبيعة العنصر الضاغط المسبب للصدمة، ونفصل ذلك فيما يلي:

لابد من التأكد من أن الصدمة التي يشكو منهـا الفرد حاليا وتتسبب في أعراض واضحة عليه قد نتجت عن عنصر حقيقي ضاغط، أي موقف عصيب تعـرض له ذلك الفـرد. ويجب أن يتسم العنصر الضاغط بما يلي:

١- يسبب الضيق والكرب من الناحية النفسية.
٢- من الواضح أنه يسبب الضيق والعنت لكل فرد تقريبا.
٣- يعد خارج نطاق الخبرة الإنسانية العادية.

ومما يسـاعد على توضيح "اضطـراب الضغوط التـالية للصدمـة" أن نذكر أمثلـة للحوادث الصدمية.

نماذج للحوادث الصدمية: تطبيقا للمعايير الثـلاثة التي ذكرناهـا في التو فإن أي حادث يخرج عن نطاق الخبرة الإنسانية العادية ويسبب الضيق للناس جميعا يعد حادثا صدميا، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة، منها النماذج التالية:

١ـ **الحرب**: وأهم الحروب التي تتاح عنهـا دراسات نفسية مـايلي: الحربان العالميتان الأولى والثـانية، الحرب الكورية، حرب فيتنام، وأحدثها حرب الخليج.

٢ـ **التعرض للقصف بالقنابل**: وكان أخطرها القصف الذري هيروشيما ونجازاكي في اليابان.

٣ـ **الاغتصاب**: وهو المضاجعة أو الجماع ضد رغبة الضحية، وبرغم عدم دقة الإحصاءات فإن هناك دلائل كثيرة تشير إلى زيادة معدلات حدوثه.

٤ـ **الكوارث الطبيعية**: كالزلازل والبراكين والأعاصير والسيول والفيضانات.

٥ ـ **الكوارث التكنولوجية**: كانفجار المفاعل النووي في "تشيرنوبل" في روسيا.

٦ ـ **حـوادث وسائل المواصـلات التي تنجم عنها إصابـات عضوية خطيرة**: كحوادث السيارات وتحطم الطائرات وتصادم القطارات وحوادث البحر.

٧ ـ **الحوادث الإجرامية**: كالتهجم العنيف والضرب المبرّح المؤذي، والانقضـاض والاعتداء العنيف (كتلك التي يشيع حـدوثها في كثير مـن شوارع كثير من مـدن الولايـات المتحـدة وبخاصـة في الليل).

٨ ـ **غشيان المحارم** أو مضاجعة ذوي القربى Incest.

٩ ـ **حوادث داخل الأسرة**: سوء استخدام الأطفال Child abuse ومضايقة الأطفال أو التحرش بهم Child molestation والعنف الأسري وضرب الزوجة.

١٠ـ **حوادث ذات طابع سياسي أو إرهابي**: معسكرات الاعتقال (كالمعسكرات النازية)، ومعسكرات الموت، والأسر، والإرهاب، والخطف، والاحتجاز رهينة.

١١ـ **الإصابة العضوية البليغة**: كالتشويه أو بتر عضو أو إفساد عمله وكذلك التعذيب.

١٢ـ **أحـداث عصبية ذات سيـاق اجتماعي محدد**: ومنهـا التهديـد الخطير لأمن شخص محبـوب أو سلامته، رؤية شخص آخر يشوه أو يمثل بجسده أو يُبتر عضوٌ من أعضاء جسمه أو يقتل.

١٣ـ **الحرائق الكبرى**: كحريق لندن الشهير عام ١٦٦٦.

وهذه الأحداث الصدمية ملامح مشتركة نعرضها فيما يلي:

الخصائص الأساسية للأحداث الصدمية: وأهم هذه الخصائص ما يلي:

١ـ تهديد خطير لحياة الفرد.

٢ـ تهديد خطير لتكامل أعضاء جسمه.

٣ـ تهديد خطير أو إمكانية إلحاق الأذى بأطفال الشخص أو زوجه أو قريب حميم له، أو أصدقائه.

٤ ـ التحطيم المفاجيء لمنزل الشخص أو مجتمعه .

٥ ـ رؤية شخص اخر يتعرض لإصابة خطيرة أو يتعرض للقتل .

٦ ـ العنف البدني .

٧ ـ أن يعلم الشخص بوقوع تهديد خطير أو أذى لأسرته أو أحد أقاربه .

ويتضمن الحادث الصدمي عادة عنصرا بدنيا عضويا ، كالإصابة المباشرة للجهاز العصبي المركزي ، وأمثلة ذلك إصابات الرأس Head injuries وهو ما يحدث كثيرا في الحروب [١٩]

وعندما يتمعن القاريء في هذه الخصائص الأساسية والملامح المشتركة في اضطراب الضغوط التالية للصدمة التي أوردناها في التو، فإنه سيلمح مؤكدا أن كثيرا من هذه الخصائص والعلامات تنطبق أيما انطباق وأشده على كثير من الكويتيين إبان الغزو العراقي (وهذا أمر عادي ومتوقع) ، وبخاصة من كان يقيم منهم ويصمد في وطنه أثناء الغزو. فليس بدعا من الأمر إذن أن نقول : إن اضطراب الضغوط التالية للصدمة كان أهم اضطراب نفسي حدث خلال الغزو وفي أعقابه . وما عديد من حالات القلق والخوف والاكتئاب إلا أعراض ثانوية لهذا الاضطراب الذي لم يتسبب فيه سوى هذا الغزو الغاشم ، ولكننا نسارع إلى القول : إن هذا الأثر النفسي السلبي ، مع أنه كان لابد أن يحدث إبان العدوان العراقي وفي أعقابه مباشرة ، فإن ذلك ينسحب ـ في المقام الأول ـ على هاتين الفترتين الزمنيتين : خلال الغزو وبعده مباشرة ، ولا ينطبق ـ في الأغلب ـ على ما يلي ذلك من فترات زمنية أطول في كل حالة إلا قليلا .

وفيما يتعلق بمعدلات اضطراب الضغوط التالية للصدمة ، بعد حدوث هذه الصدمة بفترة زمنية أطول : من سنة شهور مثلا إلى عامين ، فإننا يمكن أن نفترض ـ ونحن نقف على أرض صلبة من البحوث النفسية ـ أن معدلات هذا الاضطراب (وبخاصة في صورته الحادة) تميل إلى التناقص . واعتمادا على مبدأ الشفاء أو التحسن التلقائي Spontaneous recovery or remission في مجال التعلم الشرطي فإن معدلات هذا الاضطراب تتناقص بمرور الزمن . والمبدأ الرئيس هنا أن " الزمن بلسم الجراح " ، فكلما بعدت الشقة وطالت الفترة الزمنية تزايد عدد الحالات التي تُشفى من هذا الاضطراب ، دون أي شكل منظم من أشكال العلاج النفسي اللهم إلا خبرات الحياة العادية .

وحيثما كان الحادث الصدمي لغزو الكويت له وقع الصاعقة على أهله ، فإن وطأة هذا الحادث الجلل على المقيمين والصامدين كان ـ على الأغلب ـ أشد من ناحية الآثار الصدمية . أما منْ كان من

أهل الكويت خارجها لحظة الغزو وبعده، فيغلب أن تكون حالات "اضطراب الضغوط التالية للصدمة" أقل عددا. صحيح أن كليهما قد عانى ضيقا وكَبَدا وهما، ولكن كما قال العرب: "ليس من رأى كمن سمع". فقد رأى المقيم رأي العين أحداثا جساما، وشاهد فظائع غلاظا، وشهد كبائر تُورد نارا. وتأسيسا على ذلك فمن الممكن أن نفترض أن حالات اضطراب الضغوط التالية للصدمة قد زادت لدى المقيمين الصامدين. على حين أن الآثار النفسية السلبية لدى غير المقيمين طول الغزو قد تجسدت في حالات القلق والخوف والاكتئاب: الهم والغم والحزن على ما فات، والخوف والقلق على ما هو آت. فالاكتئاب في العادة موجه إلى الماضي، في حين أن مناط الخوف ووجهة القلق إلى المستقبل. وعلى الرغم من أن هذا الفرق بين الصامدين والنازحين فرض يتعين التثبت منه بالطرق التجريبية المناسبة في علم النفس، فإن القرائن المشاهَدة والملاحظات الشخصية تميل إلى أن تؤكده.

وحيث إن الحرب من أهم الضغوط النفسية التي ينجم عنها صدمة حقيقية، لذا نعرض للحرب بوصفها صدمة عنيفة قاسية.

الحرب أقسى الصدمات

الحرب من أقسى الصدمات وأقصاها، يمكن أن يرتكب فيها المعتدي أي شيء، ويقترف كل شيء. ولقد عرفت الإنسانية منذ القدم ما ينجم عن الحرب من ويلات، وما يرتكب فيها من فظائع، والشعر العربي وبخاصة في العصر الجاهلي غاص بالحديث عنها وتصويرها من مختلف زواياها وعلى تعدد جنباتها، وما اجتزأناه منه لزهير بن أبي سلمى في صدر هذا البحث ما هو إلا قطرة من محيط فعلا. ولكن الرأي لدينا على غير تخصص منا، أن الآدميين والجماعات والدول إلا قليلا، كانوا يفعلون ما بوسعهم ـ بادىء ذي بدء ـ لتجنب الحرب والضرب والطعان، وذلك لمعرفتهم بوطأة ويلاتها، وتأكدهم من وخيم عواقبها، وإدراكهم لسوء منقلبها. من أجل ذلك كانوا ولا يزالون يبذلون جهودا كبيرة لتجنبها. فإذا كان لابد مما ليس منه بد، فإنها الحرب، "وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم . . .". عندئذ يفعل المحاربون ما بوسعهم وبأية وسيلة لغلبة خصمهم والتفوق عليه وكسر إرادته، وفي سبيل ذلك يسلكون كل سبيل سواء أكان شريفا أم وضيعا، راقيا أو خسيسا. من أجل ذلك يكره الإنسان العادي الحرب ويسعى سعيا حثيثا إلى تجنبها.

كما يعلم الإنسان علم اليقين ما ينجم عن الحرب بعد أن تضع أوزارها من خسائر في المال والأهل والولد، فالحرب مثلا أكبر مصدر لحالات الإعاقة البدنية وفقد الحواس وبتر الأعضاء

و إصابات الرأس . . . وكلها درجة من درجات الابتلاء . كما يُبتلى الإنسان في الحرب بنقص في الأنفس والثمرات .

ومما يزيد الطين بلة أن يعتقد كثير من الناس في أن هناك فرقا جوهريا بين الحرب بوصفها عملا سيئا من صنع البشر، والكوارث الطبيعية كالزلازل والأعاصير والسيول والفيضانات من حيث هي ابتلاءات واختبارات من الله سبحانه تعالى. كما أن في الحرب جانبا يمكن تجنبه، على حين أن الكوارث الطبيعية قدر مُقدّر لابد أنه صائر. وعلى الرغم من أن مثل هذا القول قابل للدحض والنقض والرد (قل كل من عند الله)، فإنه ـ على أقل تقدير ـ اعتقاد جازم لدى عدد غير قليل من الناس، مما يزيد من وطأة شعورهم بآثار الحرب .

و إذا كان كل ما قلناه في التو وأكثر ينسحب على الغزو العراقي للكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، فإن لهذا العدوان وهذه الحرب خواص فريدة في التاريخ المعاصر. فلم تكن حربا على حدود محددة، ولا خلافا على مساحة محدودة، ولانزاعا على مشكلة واحدة، بل كانت أكثر من ذلك بكثير، لقدكانت ـ بإيجاز ـ تهدف إلى الابتلاع والهيمنة والضم : ضم دولة إلى دولة ضد رغبة أهليها، وحذفها من الخريطة السياسية للعالم، وإلغاء اسمها وهويتها من المنظمات العربية والدولية. وفي هذا نقول : " إن الرزية لارزية مثلها" ، فقد كانت حقا رزية أي مصيبة قاسية .

وثالثة الأثافي أن ما ارتكب خلال هذا العدوان ـ والعدوان بغيض ـ من فظائع وقهر وقتل وغير ذلك . . . جعلها حربا غير أخلاقية، يندى لها جبين المعتدي، حيث فعل ما فعل، وسيُفعل فيه كمثل ما فعل، فكما يدين الإنسان يُدان. أما المعتدى عليه فإن صبر وشكر فسوف يُحسب له ذلك في ميزان حسناته بإذن الله .

لقد أتى على الإنسان حين من الدهر في دولة الكويت حيث " لاقى من العيش غبطة " (أي يسرا ورخاء)، وعاش في بلهنية من العيش ورغد من الحياة وبحبوحة من الرزق، فمارس حياة الدعة والاسترخاء. ولا تثريب على الإنسان عندما يتمتع بالطيبات من الرزق، ويأتي ما أحل الله سبحانه وتعالى. وفي هذا المقام ـ ولكل مقام مقال ـ نود فقط أن نورد حقيقة سيكولوجية بسيطة مؤداها كما يلي: تكون وطأة الشعور بالمشكلات الطارئة والمعاناة من الحرب أكبر لدى إنسان عاش في وطنه معيشة ميسورة سهلة . والعكس صحيح : تخف وطأة الشعور بالمشكلات الطارئة والمعاناة من الحرب لدى إنسان عاش معيشة ضنكا وفي شظف من العيش. والأغلب أن يسوء رد الفعل تجاه هذه الأوضاع المستجدة بدرجة أكبر لدى المراهقين وصغار الراشدين الذين ولدوا والكويت في أفضل

بوضع اقتصادي لها. ومن نافلة القول أن نذكر أن زيادة معدلات العنف والعدوانية لدى المراهقين وصغار الراشدين بعد الحرب هي من إفرازات هذه الحرب. وكل ذلك مسوغ لقولنا: إن الحرب أقسى الصدمات وأقصاها.

وبعد أن عرضنا لصدمة الحرب نورد طرفاً من الدراسات السيكولوجية لها.

الدراسات النفسية في الحرب

تعددت الدراسات النفسية في الحرب تعددا غير قليل وبخاصة في الحربين العالميتين الأولى والثانية، فمن دراسات الذكاء والقدرات العقلية وتأليف اختبارات لها، إلى بحوث الشخصية، والتشخيص النفسي، والعلاج النفسي، وبحوث التمويه، والروح المعنوية، والتوجيه، والتدريب، والاختيار، والترقية... وغير ذلك كثير. ولن يفيد الأسف عندما نقول: إن الحرب كانت سببا في تطوير جوانب معينة في العلم، وفي إنشاء مجالات جديدة، وفي علاج مشكلات معينة. فقد وضع "وودوورث" Woodworth مثلا صحيفة البيانات الشخصية Personal Data Sheet لتُستخدم في الحرب العالمية الأولى بهدف فرز حالات المجندين الذين يحتاجون إلى رعاية نفسية (ولكنها أصبحت جاهزة للاستخدام بعد أن وضعت الحرب أوزارها). وعاصرت قائمة منيسوتا متعددة الأوجه للشخصية Minnesota Multiphasic Personality Inventory (MMPI) نشوب الحرب العالمية الثانية. وتطورت بحوث زمن الرجع Reaction Time وحفلت باهتمام كبير في الحرب العالمية الأولى، إلى الدرجة التي خصصت لها ولغيرها النشرة السيكولوجية بابا تحت عنوان «علم النفس والحرب»[٢٠]. وزادت بحوث الضغوط Stress في حرب فيتنام. ويندرج كثير من هذه البحوث التي أوردنا نماذج لها تحت فرع علم النفس الحربي Military Psychology.

ومن ناحية أخرى، وفيما يتعلق باضطراب الضغوط التالية للصدمة الذي هو بيت القصيد هنا، فقد لاحظ الإكلينيكيون عبر سنين عديدة أن الجنود كثيرا ما تنشأ لديهم أعراض القلق والاكتئاب الشديد خلال القتال، وقد سمي نمط الأعراض خلال الحرب الأهلية الأمريكية بالحنين إلى الوطن Nostalgia، وسمي بصدمة القذائف Shell Shock في الحرب العالمية الأولى، وبإعياء القتال خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية. كما لاحظ الإكلينيكيون بعد حرب فيتنام، أن كثيرا جدا من الجنود الأمريكيين يخبرون أعراضا سيكولوجية خطيرة بعد الحرب، وهذا مانعرض له في الفقرة التالية.

وفيما يتعلق بالآثار النفسية السلبية لحرب الخليج ، فقد أجريت دراسات عديدة ليس مجال حصرها هنا[٢١]، ولكن لم تجر على «اضطراب الضغوط التالية للصدمة» ـ فيما نعلم ـ دراسات على الكويتيين ، ولكن نشرت دراسة على المحاربين الأمريكيين العائدين من حرب الخليج [٢٢]. وقبل أن نقدم الأخير نموذجا ، نعرض لنموذج أسبق منه من الناحية التاريخية ، ونقصد حرب فيتنام .

نموذج من حرب فيتنام

تم فحص المشكلات النفسية للمحاربين الأمريكيين العائدين في السنين الأولى بعد حرب فيتنام ، وقد يرجع السبب في ذلك ـ بشكل جزئي ـ إلى رغبة الأمة الأمريكية في أن تضع نصب عينيها ماتذكرها بهذه الحرب التي لم يكن لها مسوغ . وكان الاعتقاد المبدئي أن أقل من ٢٪ من محاربي فيتنام يعانون من مشكلات نفسية ، وذلك بالمقارنة إلى نسبة ١٠٪ لدى محاربي الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك ، وفي أواخر السبعينيات ، فقد ظهر جليا في عديد من المستشفيات الأمريكية المخصصة للمحاربين القدامى أن كثيرا من هؤلاء المحاربين مازالوا يعانون من مشكلات نفسية متصلة بالحرب ، وقد تأخر ظهور بداية هذه الاضطرابات أو تم إهمالها في الماضي .

ومن بين علامات هذه الاضطرابات أن نسبة الربع من عدد إجمالي قدره مليون ونصف مليون جندي أمريكي محارب (أي ٣٧٥,٠٠٠) ممن عادوا من فيتنام قد تم إلقاء القبض عليهم خلال سنتين من عودتهم . وأن (٢٠٠,٠٠٠) عائد منهم قد أصبحوا مدمنين معتمدين على العقاقير . كما وصل معدل الطلاق بين محاربي فيتنام إلى ضعف معدله تقريبا لدى بقية السكان . وأن معدلات الانتحار لديهم كانت أعلى بمقدار ٢٥٪ من نظيرتها في المجتمع . وتجدر الإشارة إلى أن إضافة «اضطراب الضغوط التالية للصدمة» من حيث هي فئة تشخيصية مستقلة في الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث DSM - III، وكذلك الدليل الثالث المعدل الصادر عام ١٩٨٧ كان ـ في المقام الأول ـ استجابة للأعراض التي لوحظت لدى كثير من هؤلاء المحاربين .

وكشفت إحدى الدراسات التي أجريت على ١١٦٨ من المحاربين القدامى في فيتنام أن ٦١٪ منهم ـ بعد أكثر من عقد كامل من الزمان ـ استمروا في التفكير في حالات الموت التي رأوها خلال الحرب . وأسفرت دراسات أخرى أن كثيرا من المحاربين في فيتنام استمروا في أن يشعروا بعدد من الخبرات الصدمية المتكررة ، والتي تقتحم فكرهم ، وذلك على شكل إعادة الأحداث التي عرضت لهم سابقا Flashbacks ، وذعر الليل ، والكوابيس ، وأفكار وصور مستمرة ومداومة . ومثل هذه

الأفكار أو الصور يمكن أن تثيرها حوادث بسيطة تُذكِّر المحارب بالظروف والأحوال التي حدثت في فيتنام، وذلك مثل الانهار المفاجيء للمطر في الصيف، أو الارتفاع في درجة الحرارة. كما يمكن أن تثيرها أيضا مناظر القتال في الروايات والأفلام أو مناظر التليفزيون. وفي عام ١٩٩١ كرر عديد من المحاربين في الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية والحرب الفيتنامية ـ في الحقيقة ـ الأحداث التي عرضت لهم سابقا، فضلا عن عديد من الصور والكوابيس، وذلك عند مشاهدتهم التغطية التلفزيونية النابضة بالحياة لحرب الخليج[٢٣].

وأوضحت دراسة أخرى[٢٤] على المحاربين الأمريكيين العائدين من فيتنام أنه خلال خمس سنوات بعد عودتهم إلى الحياة المدنية أصبح لهم معدل وفاة أعلى بمقدار ٤٥٪ بالمقارنة إلى المحاربين الذين خدموا في أماكن أخرى مثل: كوريا، وألمانيا الغربية، أو الولايات المتحدة خلال المدة نفسها. وكان معدل الانتحار لدى المحاربين الأمريكيين العائدين من فيتنام في السنوات الخمس الأولى بعد خروجهم من الجيش ٧٢٪ أعلى من غيرهم من المحاربين الذين لم يحاربوا في فيتنام (خلال المدة ذاتها).

وقد أجريت تجربة[٢٥] للتفرقة بين محاربي فيتنام المصابين باضطراب الضغوط التالية للصدمة ومجموعة ضابطة من غير المحاربين. وقد استمع كل من أفراد المجموعتين لتسجيلات متصلة بأصوات الحرب، وتم في الوقت نفسه تسجيل كل من ضغط الدم، ودرجة حرارة الجلد، ونشاط عضلة الجبهة، ومقاومة الجلد. وظهر أن المجموعتين اختلفتا فقط في المتغيرات الآتية: معدل القلب، ضغط الدم الانقباضي، درجة حرارة الجلد، نشاط عضلة الجبهة. وتشير نتائج هذه التجربة ـ من بين ماتشير ـ إلى أن المحاربين القدامى مازالت تؤثر فيهم المنبهات التي تُذكّرهم بالحرب برغم مرور السنين.

وفيما يلي حالة محارب عائد من فيتنام مصاب باضطراب الضغوط التالية للصدمة: «لقد قالت زوجتي بأنني لم أصبح الرفيق الحبيب الذي اعتادت أن تعرفه وتحبه، لأن شيئا ما مرعبا يجب أن يكون قد حدث لي حتى يغير فيّ هكذا بشكل كامل. وقلت لها: إنني لاأعرف عم تتحدث. وقالت: إن النظرة في عيوني هي نظرة شخص مرعوب ومرتعد بشدة، مع نظرة تحديق متفرسة ذات مسافة بعيدة، أنظر إلى المجهول، وليس إلى الحاضر. وذكرت أيضا أن نظرتي المرتعدة الخائفة ذات الطبيعة الشاحبة، وطريقتي المشدودة في الجلوس والكلام والمشي، وتحفظي وانعزالي.. كل ذلك يجعلها أيضا غير مرتاحة بالنسبة لاستمرار علاقتنا. وأخيرا، وكلما مر الوقت تأكدت من أن أناسا كثيرين جدا لايمكن أن يكونوا محطين بالنسبة لي.

وبدأ التغير داخلي يظهر عميقا لي ـ وأعمق مما كنت أتخيل ـ وأنا نفسي لم أكن واعيا تماما لعمق التحول الذي حدث لي. لقد كنت أتصور أن قتل الآدميين وإيقاع الضرر بهم هو أمر غير بشع إلى هذه الدرجة، ولكن الأمر تغير لمجرد رؤية كثير من الفتيان يموتون، وقد مات بعضهم بين ذراعيّ، ورأيت فتيانا يموتون من جراء عضة ثعبان، يمرضون من الملاريا، يشعرون بالإنهاك وبأنهم مستنزفون من الناحية الانفعالية مدة طويلة، يشعرون بالغضب الشديد. وقد أصبت أنا نفسي بالرعب الشديد مرات عديدة، وأصبت بطلقات الرصاص ثلاث مرات. وإنني لأعتقد أن ذلك يمكن أن يغير بعض الأشخاص، بل ربما كان ذلك ليغير معظم الناس».

وفيما يلي حالة أخرى من المحاربين القدامى في فيتنام يقول صاحبها:

«عندما تركنا قاعدة إطلاق النار كانت هناك قرية صغيرة إلى اليمين توجد في طريقنا قبل أن ننطلق إلى الطريق السريع رقم (١). وكانت هناك كومة من الأجساد ترقد على الطريق، وكانوا إخوة وأمهم. وكان يتعين علينا أن نقود السيارة فوق أجسادهم حتى نخرج من هذا المكان... وقد عاودتني رؤية المنظر ذاته عندما كنت أستعد للنوم، فرأيت هؤلاء الإخوة وأمهم» [٢٦]

وننتقل فيما يلي إلى بيان موجز للصدمة التي عاصرت الغزو العراقي وتلته.

صدمة الغزو العراقي

ليس من غير المتوقع أن يزداد عدد حالات اضطراب الضغوط التالية للصدمة إبان العدوان العراقي على دولة الكويت في أغسطس ١٩٩٠. ولعلنا لا نجانب الصواب عندما نفترض أن الغالبية العظمى من هذه الحالات راجعة إلى هذا العدوان، ذلك أنه المصدر الأساسي لها في الحقيقة.

ونظرا لما قام به المعتدي ابتداء من الغزو حتى التحرير من ممارسات غير إنسانية وغير أخلاقية رآها كثيرون رأي العين [٢٧] فمن الممكن أن نفترض أن حالات اضطراب الضغوط التالية للصدمة ذات درجة أشد وأعنف، ويمكن أن تداوم زمنا غير قصير، وأن علاجها سيتطلب جهدا غير يسير. وعلى الرغم من أنه ليس من أهداف هذا البحث سرد حالات أو ذكر نماذج، فيكفي أن يتصور القارئ حالة شاب في العشرينات من عمره، تم تعذيبه بوضع سلك كهربي داخل عضوه التناسلي، فدمره تدميرا!

ثم انظر إلى قول الشاعر " يعقوب الرشيد " في هذه الأبيات الحساسة الباكية، التي تعكس كوامن نفس متألمة لما قد جرى من غدر:

وقد راعنا ما كان منْ غدر جارنا	وقد هالنا ما كان في الناس يفعل
فلا الأم تدري أين بات رضيعها	ولا الطفل يدري فيم يُسبى ويُقتل
فقد ضاع دفء الأمن من بين أهلنا	وحل محل الأمن ذعر مجلجل
وقد سُدت الأبواب والظلم حاطم	ليُسحق أطفال ويهوي مبجل
وتُهتك أعراض الحرائر عنوة	وتوطأ بأقدام الغزاة وتُسحل

وتجدر الإشارة إلى أن " اضطراب الضغوط التالية للصدمة " لم يفرق بين عسكري ومدني من أهل الكويت، ذلك أن صدمة الغزو قد تعرض لها الجميع. صحيح أن المعتدي كان يبحث دوما عن العسكريين، ولكن الأحداث والفظائع والممارسات - إذا حم القضاء - قد تساوى أمامها الكل.

كما أن عنصر المباغتة والمفاجأة وعدم التوقع قد زاد الأمر تعقيدا، فلم يكن أحد من أهل الكويت إلا قليلا يتوقع ما وقع، بالصورة التي بها قد وقع. صحيح أن بعض ذوي الفكر الثاقب كان بعض ذلك من إرهاصاتهم وتوقعاتهم، ولكن غيرهم من بني جلدتهم قد عدهم وقتئذ في عداد المتشائمين المتطيرين المغالين، ولم يعرهم أذنا صاغية ولا عينا واعية، حتى آل الحال إلى ما آل إليه.

وفيما يتصل بمآل Prognosis حالات اضطراب الضغوط التالية للصدمة ومصيرها — وهذا مبحث مهم في علم النفس الإكلينيكي - فهناك حقيقتان متضادتان تؤيدهما التجارب السابقة وهما:

أولا:

اضطراب الضغوط التالية للصدمة نوع فرعي من اضطرابات القلق، والأخير أحد تصنيفات الاضطرابات النفسية أو العصاب Neurosis، وتشير الدراسات السابقة أن العصاب يشفى بمرور الزمن، وذلك اعتمادا على مبدأ "الشفاء التلقائي" الذي سبقت الإشارة إليه آنفا.

ثانيا :

دلت البحوث التجريبية والمشاهدات الإكلينيكية على العائدين من حرب فيتنام (المحاربون القدامى) أن أعراض اضطراب الضغوط التالية للصدمة لاتظهر على بعض منهم مباشرة وحال عودتهم ، بل إنها يمكن أن تكون ماكرة مستترة Subtle مختفية متنكرة Disguised مرجأة مؤجلة Delayed، تظهر عليهم بعد حين من الدهر قد يصل إلى خمس سنوات أو عشر . على أن الحسم بين هذين الرأيين المتضادين لن يكون ميسورا إلا بتوافر الإحصاءات عبر عدد من السنين ، والملاحظ أنها غير متوافرة حتى الآن ، والحاجة ماسة ، من ثم ، إلى تسجيل الحالات وتشخيصها وعلاجها تمهيدًا لبحث مآلها عبر السنين .

والدراسة الوحيدة المتاحة في هذا المجال ، الدراسة التي قام بها كل من "لورنس لابات ، ميشيل سنو" [٢٨]، ونشرت عام ١٩٩٢ تحت عنوان : "أعراض الاضطراب التالي للصدمة لدى الجنود الذين تعرضوا للمعركة في الخليج الفارسي" . وقام الباحثان في هذه الدراسة بإجراء مسح على ٥٧ من الجنود الأمريكيين الذين خدموا في فرقة مشاة ميكانيكية في حرب الخليج ، وكان ذلك فى عام ١٩٩١ . وهدفت هذه الدراسة التعرف إلى الآثار السيكولوجية المرتبطة بالقتال العنيف . وقد منيت الوحدة بأربع حالات وفاة نتيجة لماسمي "بنيران الأصدقاء" . وكشف المفحوصون عن كثير من الأعراض المرتبطة باضطراب الضغوط التالية للصدمة (PTSD وقرر ٣٩٪ إصابتهم بالأحلام المزعجة (الكوابيس) بعد عودتهم إلى ألمانيا من حرب الخليج . كما قرر أكثر من ثلثهم زيادة في استخدامهم للكحول ، حيث استخدمه كثير منهم للتقليل من مشكلات النوم أو من الكوابيس . وأخيرا فقد أثرت الإصابات العضوية فى حدوث الصدمة النفسية .

والحاجة ماسة في الكويت إلى الدراسة الفاحصة لاضطراب الضغوط التالية للصدمة ، وذلك بهدف التعرف إلى معدلات انتشاره ، والكشف عن حالاته وتشخيصها . والتشخيص السليم هو الخطوة الأولى نحو رسم خطة العلاج المناسب ثم القيام به . وحيث إن التشخيص سابق على العلاج وعلى درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة له ، فيجدر بنا أن نحدد المحكات التشخيصية لهذا الاضطراب .

المحكات التشخيصية لاضطراب الضغوط التالية للصدمة

المحكات التشخيصية Diagnostic Criteria هي المعايير المشتملة على الأعراض الأساسية والشروط الواجب توافرها لإطلاق تشخيص "اضطراب الضغوط التالية للصدمة" PTSD على حالة معينة. والجهتان العلميتان الأساسيتان لإصدار هذه المحكات التشخيصية هما كما يلي:

أولا: منظمة الصحة العالمية WHO التي أصدرت عام ١٩٩١ التصنيف العالمي العاشر ICD-10 للاضطرابات النفسية والسلوكية.

ثانيا: الرابطة الأمريكية للأطباء النفسيين APA التي أصدرت عام ١٩٨٧ الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث المعدل DSM-III-R للاضطرابات النفسية.

ويعرض جدول (١) لهذه المحكات التشخيصية[٢٩] تبعا للدليل الأخير المشار إليه، وهو الأكثر شيوعا واستخداما.

جدول (١): المحكات التشخيصية لاضطراب الضغوط التالية للصدمة

أ - يكون الفرد قد مر بحادث خارج نطاق الخبرة الإنسانية العادية، وهذا الحادث يمكن أن يكون مضايقا ومزعجا - بشكل ملحوظ - لكل فرد تقريبا. مثال ذلك: التهديد الخطير لحياة الفرد أو لتكامل جسمه، التهديد الخطير أو الضرر البليغ لأطفال الشخص أو قرينه (الزوج أو الزوجة)، أو أي قريب أو صديق حميم، وكذلك التدمير المفاجىء لمنزل الشخص أو مجتمعه، أو رؤية شخص آخر أصيب إصابة خطيرة أو قتل من جراء حادث أو عنف بدني (أو أثناء حدوث ذلك أو حدوثه مؤخرا).

ب - أن يمر الحادث الصدمي بخبرة الشخص مرة أخرى وبشكل مداوم بواحد على الأقل من الطرق الآتية:

١ - تذكر الحادث المضايق بشكل معاود يقتحم تفكير الفرد (كاللعب التكراري لدي صغار الأطفال بحيث يتم التعبير عن موضوعات الصدمة أو مختلف جوانبها).

٢ - الحلم بأحلام مزعجة ومكررة عن الحادث.

٣ - التصرف المفاجىء أو الشعور بأن الحادث الصدمي كما لو كان يعاود الحدوث (ويتضمن

ذلك إعادة معايشة الخبرة، الخداع، الهلاوس، وفترات من استعادة الخبرة السابقة، وحتى تلك التي تحدث عند الاستيقاظ أو في حالة السكر والثمل.

٤ ـ الضيق النفسي الشديد عند التعرض لأحداث ترمز لبعض جوانب الحادث الصدمي أو تشبهه، بما في ذلك الذكرى السنوية للصدمة.

ج ـ التجنب المستمر للمنبهات المرتبطة بالصدمة أو الخدر (فقد الاحساس) في الاستجابة العامة (بحيث لايوجد ذلك قبل الصدمة)، وذلك كما يتضح من ثلاثة جوانب على الأقل مما يلي:

١ ـ جهد متعمد لتجنب الأفكار أو المشاعر المرتبطة بالصدمة.

٢ ـ جهد متعمد لتجنب الأنشطة أو المواقف التي تثير ذكريات عن الصدمة.

٣ ـ عدم القدرة على استرجاع جانب مهم من الصدمة (نساوة نفسية).

٤ ـ تناقص واضح في الميل إلى الأنشطة المهمة (لدى صغار الأطفال يحدث فقد للمهارات التطورية التي اكتسبها الطفل حديثا كالتدريب على الحمام أو مهارات اللغة).

٥ ـ الشعور بالانفصال أو النفور من الآخرين.

٦ ـ ضيق مدى الوجدان، كأن يصبح الفرد غير قادر على أن تتولد لديه مشاعر حب.

٧ ـ شعور بأن المستقبل غير رحب، كالطفل الذي لايتوقع أن تكون له حياة عملية في المستقبل، ويتزوج، وينجب، وتكون له حياة ممتدة.

د ـ أعراض مستمرة لزيادة التنبه (غير موجودة قبل الصدمة)، وذلك كما يتضح من عرضين على الأقل مما يلي:

١ ـ صعوبة الاستغراق في النوم أو في البقاء نائما.

٢ ـ التهيج أو انفجارات الغضب.

٣ ـ صعوبة التركيز.

٤ ـ التيقظ الزائد.

٥ ـ استجابة الإجفال (يُروِّعُ الشخص فجأة) المبالغ فيها.

٦ ـ رد الفعل الفيزيولوجي الزائد عند التعرض لأحداث تشبه أحد جوانب الحادث الصدمي أو ترمز اليه.

هـ ـ استمرار الاضطراب شهرا واحدا على الأقل. وقد تكون بداية الاضطراب متأخرة إذا تأخر ظهور الأعراض ستة شهور على الأقل بعد الصدمة.

مشكلات في تشخيص الاضطراب تبعا للدليل الثالث

عرضنا في الفقرة السابقة المحكات التشخيصية تبعا للدليل التشخيصي والإحصائي الثالث

المعدل DSM-III-R الصادر عام ١٩٨٧ عن الرابطة الأمريكية للأطباء النفسيين. وعلى الرغم من أنه يعد متقدما على الدليل الثالث الصادر عام ١٩٨٠ فإنه لم يسلم من النقد. فيذكر الإخوة "سو" [٣٠] أن تشخيص اضطراب الضغوط التالية للصدمة تبعا للدليل التشخيصي الثالث المعدل يعتمد على جوانب ذاتية، فمازال الحكم الذاتي يقوم بدور كبير فيه. وعلى الرغم من وجود أمثلة في هذا الدليل التشخيصي المشار إليه فإن نوعية المواقف المحددة التي يمكن أن تتسبب فى الاضطراب غير واضحة. فقد ذُكر النزر اليسير عن الإدراك الذاتي للحادث، ذلك أن درجة الصدمة تعتمد عادة على الطريقة التي ينظر بها الفرد إلى الحادث الصدمي. ويطرح "فجلى" Figley الأسئلة الآتية:

١ ـ من بين الناس الذين تعرضوا لحادث صدمي من الناحية النفسية، فمن هم الأفراد الذينسيطورون اضطراب الضغوط التالية للصدمة ؟

٢ ـ هل تستمر هذه الحالة مدى الحياة أو هي قابلة للشفاء ؟

٣ ـ من بين الذين سيطورون اضطراب الضغوط التالية للصدمة فكم منهم سيكشف عن ردود فعل فورية في الحال، وكم منهم سيكشف عن ردود فعلهم بعد فترة من الزمن ؟

٤ ـ هل يمكننا التمييز بين من لديهم اضطراب الضغوط التالية للصدمة ومن يتمارضون؟

وفيما يختص بالسؤال الأخير أوردت حالات خمسة رجال انطبقت عليهم المحكات التشخيصية لاضطراب الضغوط التالية للصدمة تبعا للدليل التشخيصي والإحصائي الثالث المعدل، فقد شكى هؤلاء الرجال من مرورهم بالخبرة الصدمية مرة ثانية، واضطرابات النوم، وصعوبات التركيز، والتقييد أو الكبح من الناحية الانفعالية. وظهر فى النهاية أنهم متمارضون يتظاهرون بهذه الأعراض بشكل غير حقيقي وزائف.

ونظرا لهذه المشكلات المشار إليها في المحكات التشخيصية للدليل الإحصائي الثالث المعدل فقد وضعت مجموعة من المقاييس التى تعد إسهاما في تشخيص اضطراب الضغوط التالية للصدمة.

طرق قياس الاضطراب

تتعدد طرق تقدير Evaluation اضطراب الضغوط التالية للصدمة تعددا غير قليل كما سنرى بعد قليل. ولعملية التقدير والقياس خطوط عريضة وأهداف محددة[٣١].

البيانات الأساسية عن الصدمة والضحية : تتطلب عملية التقدير ضرورة الحصول على البيانات الآتية :

١ ـ التحديد الدقيق للأعراض .
٢ ـ التأكد من حدوث الخبرة الصدمية .
٣ ـ تقييم طبيعة الخبرة الصدمية ودرجة شدتها .
٤ ـ أسلوب الضحية في التكيف .
٥ ـ طريقة الفرد في التغلب على الأعراض التي تُعجّزه .
٦ ـ أحداث الحياة الضاغطة قبل الحادث الصدمي في الماضي . .
٧ ـ معالم التوافق الماضي والحاضر لدى الشخص .

أهداف القياس في اضطراب الضغوط التالية للصدمة : تهدف عملية القياس هنا إلى تحقيق الجوانب الاتية :

١ ـ التشخيص الفارق Differential diagnosis لهذا الاضطراب لتمييزه عن بقية الاضطرابات المتداخلة ، وأهمها اضطرابات القلق والاكتئاب والتوافق والشخصية المضادة للمجتمع والفصام وكذلك التمارض .
٢ ـ بيان الاضطرابات الحالية أو التي كانت موجودة سلفا .
٣ ـ التحليل الوظيفي للسلوك الاجتماعي لدى الفرد (الاجتماعية ، الانسحاب ، العزلة . . .) .
٤ ـ تحديد الشكاوى والأعراض التي يشعر بها الفرد (مثل : استعادة ذكرى الحادث الصدمي ، الكوابيس ، صعوبة النوم ، الإجفال ، اقتحام الأفكار المتصلة بالصدمة لتفكيره) .
٥ ـ تحديد أهداف العلاج وبيان أولوياته .
٦ ـ اتخاذ قرار عن الاستراتيجيات المناسبة للعلاج (مثل : طرق التحكم في الضغوط ، أو العلاج بالتعرض للمنبهات المزعجة ، أو الإشراط المضاد . . . الخ) .

ونعرض فيما يلي لأهم الطرق المتبعة لقياس اضطراب الضغوط التالية للصدمة .

أولا : المقابلة التشخيصية المقيدة

وهي موقف مواجهة بين الحالة والاختصاصي ، وتهدف إلى التعرف على الجوانب الأساسية لهذا

الاضطراب. وأشهر ما يستخدم في مثل هذه المقابلات وغيرها : المقابلة الإكلينيكية المقيدة تبعا للدليل التشخيصي والإحصائي الثالث المعدل Structured Clinical Interview forDSM - III - R وهي من وضع كل من : "سبتزر ، ويليامز" Spitzer & Williams، ويستخدمها العاملون في مجال الصحة النفسية ، بشرط أن يكونوا مدربين على استخدام الدليل التشخيصي الثالث المعدل .

ومن أشهر القوائم التي تطبق خلال المقابلة مع الأطفال : قائمة اضطراب الضغوط التالية للصدمة (للأطفال) Children's PTSD Inventory (CPTSDI) وهي من وضع " فيليب صايغ " (٣٢)، والتي صممت على أساس الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث . وتتكون الأداة من أربعة مقاييس فرعية ، يوضع لكل منها درجات على أساس ثنائي (أي تعطى الدرجة ١ لوجود العرض ، صفر لعدم وجوده) ، وتقيس هذه المقاييس الجوانب الأربعة الآتية : الصدمة ، الذكريات غير المرغوبة المثيرة للقلق ، الجانب الوجداني العام ، الأعراض المغايرة التي كانت واضحة قبل الصدمة . وقد فحصت بعناية صيغ عربية وإنجليزية وفرنسية لهذه القائمة من الناحية القياسية (السيكومترية)، وتم تقنينهااعتمادا على استجابات الأطفال اللبنانيين(٣٣) .

ويتم أثناء المقابلة بوجه عام جمع المعلومات الآتية :

١ ـ بيانات ديموجرافية اجتماعية .
٢ ـ التاريخ الطبي .
٣ ـ العجز أو الإعاقة .
٤ ـ التاريخ المهني .
٥ ـ التاريخ الاجتماعي .
٦ ـ التاريخ التعليمي .

ويجب أن يسأل الفاحص أسئلة مفصلة عن كل عرض من أعراض اضطراب الضغوط التالية للصدمة، محددا ما يلي : طبيعة العرض، المحتوى، التكرار، الشدة، الدوام، التقلب أو التغير، مع وصف مختصر لكل عرض. ويمكن أن ترتبط الأسئلة التي توجه للحالة بالجوانب الآتية :

١ ـ طبيعة التعرض للخبرة الصدمية ودرجتها .
٢ ـ الصدمة الأساسية .
٣ ـ أعراض اضطراب الضغوط التالية للصدمة .

أ ـ الأفكار المقتحمة، المشاعر، الصور، الذكريات.

ب ـ حذر الاستجابة.

ج ـ استجابات التجنب.

٤ ـ الجوانب المرتبطة بالاضطراب.

أ ـ الاكتئاب.

ب ـ القلق.

ج ـ العدوانية.

د ـ سوء استخدام المواد والإدمان.

٥ ـ التوافق قبل المرض.

أ ـ الأداء المدرسي.

ب ـ الحياة الاجتماعية قبل المرض.

ج ـ الحياة الأسرية قبل الإصابة بالمرض.

د ـ التاريخ الأسري للمرض العقلي.

تخطيط لمقابلة تشخيصية مقترحة

فيما يلي بعض الجوانب الأساسية التي يمكن أن يعمل الاختصاصي على ضوئها في المقابلة التشخيصية. وتشتمل على المعلومات الآتية:

١ ـ بيانات عامة.

٢ ـ الشكاوى والأعراض الحالية.

٣ ـ الحالة النفسية العامة قبل الصدمة: الجوانب المعرفية والانفعالية والمهنية أو الدراسية.

٤ ـ الحالة النفسية العامة الآن على أساس الاختبارات والاستخبارات.

٥ ـ موجز الحادث الصدمي كما يقصه المريض.

٦ ـ سلوك المريض أثناء وقوع الحادث الصدمي.

٧ ـ مشاعر المريض أثناء الحادث.

٨ ـ سلوك المريض في اليوم التالي للحادث.

٩ ـ الأضرار المادية والآثار النفسية للحادث من وجهة نظر المريض الآن.

١٠ ـ تسجيل أية حوادث صدمية سابقة.

١١ ـ تطبيق المحكات التشخيصية للاضطراب

ثانيا : استخبارات اضطراب الضغوط

يتاح عدد لا بأس به من الاستخبارات التي تهدف إلى تقدير اضطراب الضغوط التالية للصدمة ، ومن أهمها ما يلي :

١ ـ مقياس اضطراب الضغوط المشتق من قائمة منيسوتا

بينت الدراسات التي استخدمت قائمة منيسوتا متعددة الأوجه للشخصية MMPI لقياس توافق المرضى باضطراب الضغوط التالية للصدمة (PTSD) أن لهم درجات مرتفعة ـ بشكل متسق ـ على عدد من المقاييس الإكلينيكية . ولكن عينات المفحوصين في هذه الدراسات كانت تميل إلى الصغر ، أو أن المفحوصين كانوا يتسمون بملامح إكلينيكية محددة أخرى كالإدمان مثلا . وظهر أن اضطراب الضغوط يرتبط بالمقاييس الآتية :

أ ـ مقياس (ف)

وهو يقيس أصلا التفكير المختلف أو غير النمطي ، ويمكن تفسير الدرجات المرتفعة على هذا المقياس بطرق متعددة كما يلي : ١ ـ محاولة للتزييف إلى الأسوأ (كالتمارض أو المبالغة في الأعراض طلبا للمساعدة) ، ٢ ـ الاستجابة العشوائية ، ٣ ـ قد يعكس تفكيرا عصابيا أو دهانيا شديدا .

ب ـ مقياس (ك)

ويقيس محاولة الفرد تقديم نفسه في صورة طيبة وجذابة ، وقد تشير الدرجات المنخفضة إلى تمحص إما أنه يبالغ في مشكلاته طلبا للعون والمساعدة ، أو محاولة للتزييف إلى الأحسن ، أو أنه ناقد لنفسه ، متشكك ، غير كفء في التعامل مع مشكلات الحياة اليومية .

ج ـ المقياس (٢) الاكتئاب

ويقيس أعراض الاكتئاب المتعددة .

د ـ المقياس (٨) الفصام

ويقيس أعـراضـا ذهـانيـة كـالهلاوس ، ومع ذلـك فإنـه يقيس أيضـا الاغتراب الاجتماعي ، المخاوف ، صعوبات التحكم في الاندفاعات ، التركيز .

وفي عام ١٩٨٤ طـور " كين" Keane وصحبه مقياسا مستخرجا مـن قائمة منيسوتا متعددة الأوجه للشخصية ، ويتكون من ٤٩ بندا مستخرجا من أي من صورتي القائمـة (أي - MMPI 1.MMPI - 2) ، وقد أمكن بـوساطـة هذا المقيـاس المشتق التفرقـة بنجاح بين مـرضى اضطراب الضغوط التالية للصدمة والمرضى بغير هذا الاضطراب (٣٤). وميزة المقاييس المشتقة من قائمة منيسوتا أن هذه القائمة مترجمة إلى أكثر من مائة لغة مما يمكن من المقارنة بين النتائج عبر الحضارات .

٢ ـ مقياس ميسيسيبي للضغوط المرتبطة بالحرب

يقيس هذا المقياس اضطراب الضغوط التالية للصدمة المرتبطة بالحرب، وهومن وضع كل من " كين ، كاديل ، تايلور " (٣٥). ويتكون من ٣٥ عبارة مشتقة من محكات الدليل التشخيصي الثالث لـلاضطرابـات النفسية ، يقـدر المفحوص نفسـه على كل منهـا على أساس مقيـاس من نوع ليكـرت (خماسي) . وقـد وضعـت البنـود من قبل الإكلينيكيين ممن لهم خبرة مستفيضـة في عـلاج المرضى باضطـراب الضغوط التاليـة للصدمة . وله معـامل ثبات اتساق داخلي مـرتفع وصل إلى ٠,٩٤ وقد استخرج من التحليل العاملي للبنود (٣٥ بندا) ستة عوامل كما يلي :

١ ـ الذكريات المقتحمة والاكتئاب .
٢ ـ مشكلات التوافق الاجتماعي .
٣ ـ تقلب الوجدان والذاكرة .
٤ ـ الملامح الاجترارية للاضطراب .
٥ ـ الملامح الاجترارية .
٦ ـ مشكلات النوم .

ويتاح للمقياس درجة فاصلة (وقدرها ١٠٧) تستخدم لتمييز المرضى الذين لديهم اضطراب الضغوط التاليـة للصدمة المتصلة بالحرب عن غيرهم، وهذه الـدرجة حساسية مرتفعـة قدرها ٩٤٪ والحساسية Sensitivity هي عدد الحالات الصائبة التي صنفت على أنها حالات بالنسبة إلى مقاييس المسح . أما النسبة المئوية للحالات التي صنفت تصنيفا صحيحا فكانت ٨٩٪ .

ثالثا : طرق القياس الفيزيولوجية

تستخدم الطرق الفيزيولوجية أجهزة معقدة، والأجهزة مكلفة وتحتاج إلى من يقوم بتشغيلها وصيانتها. وقد اقترح "بلانشارد" وصحبه عام ١٩٨٦ استخدام معدل القلب Heart Rate وحده للإسهام في تشخيص اضطراب الضغوط التالية للصدمة، وذلك باستخدام جهاز الرسام الكهربي للقلب ECG ويمكن الحصول عليه في أي مستشفى.

وعندما لاتتاح الأجهزة الفيزيولوجية يمكن للإكلينيكي (بعد موافقة المريض) أن يحصل على معلومات فيزيولوجية من السجلات الطبية للمريض، وذلك مثل: معدل القلب، ضغط الدم الانبساطي والانقباضي. وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن مرضى اضطراب الضغوط التالية للصدمة لديهم تنبه زائد أو استجابة مرتفعة بطريقة مزمنة حتى في المواقف التي لاترتبط بالأحداث الصدمية. كما اتضح أن هؤلاء المرضى تصدر عنهم استجابات فيزيولوجية زائدة للمؤشرات التي ترتبط بالأحداث الصدمية.

ومن بين التجارب المهمة[٣٦] في هذا الصدد، التجربة التي درس فيها "بلانشارد" وصحبه عام ١٩٨٢ أحد عشر محاربا ممن حاربوا في فيتنام وشخصوا باضطراب الضغوط التالية للصدمة، حيث قورنوا بعينة ضابطة من غير المحاربين لهم نفس العدد والجنس والسن. وقد استمع المفحوصون إلى شرائط مسجلة تشتمل على خمس محاولات تحتوي على مايلي: ٣٠ ثانية موسيقا، ٣٠ ثانية من الصمت، ٣٠ ثانية أصوات حربية، وقد تزايد حجم الصوت في كل محاولة. وكشفت النتائج أن المحاربين حدثت لديهم زيادة أكبر بدرجة جوهرية في كل من: معدل القلب، وضغط الدم الانبساطي والانقباضي، وتوتر عضلة الجبهة، وذلك بالمقارنة إلى غير المحاربين. وقد نجح متغير معدل القلب في تصنيف ٩٥٪ من أفراد العينة تصنيفا دقيقا (٢١ من ٢٢ مفحوصا). وقد تكررت النتيجة ذاتها في دراسات تالية.

وعلى الرغم من أن مثل هذه الدراسات الفيزيولوجية التي تعتمد على الأجهزة الحيوية يمكن أن تكون واعدة، فإنها لم تستخدم بتوسع للأغراض التشخيصية الفعلية، فضلا عن أنه يقف ضد التوسع في استخدامها المشكلات التي نوهنا إليها في صدر هذه الفقرة.

في تكامل طرق قياس الاضطراب

لكل طريقة قياسية من الطرق التي عرضنا لها في الفقرا ت السابقة مزايا محددة وعيوب خاصة، والحق أن كثيرا منها يرجع إلى خواص معينة في هذه الطرق للقياس، ناهيك عن أننا أمام اضطراب متعدد الجنبات معقد الجوانب، ذلك أن قياسه يمكن أن يتداخل مع قياس بقية أنواع الاضطراب، فضلا عن حالات التمارض كذلك. ومن ثم فإن الحاجة ماسة إلى مزيد من البحوث في هذا المجال البكر نسبيا.

من أجل ذلك يوصي عدد من الباحثين [٣٧] بضرورة استخدام بطارية اختبارات ذات أقسام ثلاثة: سلوكية وفيزيولوجية ولفظية (استخبارات). وقد استخدمت هذه الطرق الثلاث في دراسة على ثلاث مجموعات من المحاربين كما يلي:

١ـ من لديهم اضطراب الضغوط التالية للصدمة.
٢ـ من ليس لديهم هذا الاضطراب.
٣ـ من لديهم اضطرابات طبنفسية أخرى غير اضطراب الضغوط التالية للصدمة.

وتعرضت هذه المجموعات الثلاث لكل مما يلي:

أولا:

منبهات سمعية بصرية عن الحرب (طائرات هليوكبتر تطير، جنود يهبطون من الهليوكبتر، أصوات نيران بندقية آلية).

ثانيا:

منبهات محايدة (زوجان يرحلان عن منزل، أناس يسيرون حول متنزه، أصوات زحام).

وقد اختلف المحاربون الذين يعانون من اضطراب الضغوط التالية للصدمة عن المجموعات الأخرى عندما تعرضوا فقط لمنبهات متصلة بالقتال، فكشفوا ـ بالنسبة للمنبهات الأخرى ـ عن استجابات فيزيولوجية مرتفعة (زيادة معدل القلب)، وتجنب سلوكي مرتفع (كما قيس بالضغط على مفتاح لإنهاء المنبهات التي تثيرهم وتضايقهم)، وقرروا مستويات مرتفعة من الخوف والقلق. ويبدو أن أعراض اضطراب الضغوط التالية للصدمة خاصة بالموقف الصدمي، وليست مجرد تنبه متزايد.

ومن المناسب أن نعرض فيما يلي للأعراض الأساسية لاضطراب الضغوط التالية للصدمة .

الأعراض الأساسية للاضطراب

ونقصد بالأعراض الأساسية أو الأولية Primary symptoms تلك الأعراض التي تشكل الأساس في المحكات التشخيصية لاضطراب الضغوط التالية للصدمة ، وذلك تبعا للدليل التشخيصي والإحصائي الثالث المعدل ، فضلا عن أهم البحوث في الميدان . وأهم هذه الأعراض الأساسية أو الملامح الإكلينيكية ما يلي :

١ـ إعادة الخبرة المتصلة بالصدمة والمعاناة منها : ويتخذ ذلك أشكالا عدة منها ما يلي :

أ ـ الأفكار المقتحمة ، المشاعر ، الصور ، الذكريات .
ب ـ تذكر الحادث بشكل معاود يسبب الانزعاج والاضطراب .
ج ـ الأحلام والكوابيس المعاودة بشكل مضايق .
د ـ يعيش الفرد الحادث مرة ثانية ، والخداعات والهلاوس ، واستعادة شريط الذكريات .
هـ ـ الانزعاج نتيجة للتعرض لحوادث ترمز للصدمة أو تذكر الفرد بها .

٢ـ تجنب العالم الخارجي والخدر في الاستجابة : ويضم الجوانب الآتية :

أ ـ تناقص الاهتمام بالأنشطة المهمة .
ب ـ المدى الضيق للوجدان .
ج ـ مشاعر الانفصال والنفور .
د ـ النسيان لأسباب نفسية .

٣ـ السلوك التجنبي : ويشتمل على ما يلي :

أ ـ بذل جهد لتجنب الأفكار أو المشاعر المرتبطة بالصدمة .
ب ـ بذل جهد لتجنب الأنشطة أو المواقف التي تثير ذكرى الصدمة .
ج ـ عدم القدرة على استرجاع جانب مهم من جوانب الصدمة .

٤ـ التنبه الزائد: ويضم العناصر الآتية:

أ ـ صعوبات النوم.
ب ـ إعاقة الذاكرة وصعوبات التركيز.
ج ـ التهيج وانفجارات العنف وثورات الغضب.
د ـ شدة الاستجابة الفيزيولوجية للأحداث التي تذكر الفرد بالصدمة أو ترمز إليها.
هـ ـ استجابة الإجفال (ترويع الشخص فجأة).
و ـ التنبه المرتفع والتيقظ الزائد.

٥ـ مشاعر الذنب: ويحدث ذلك في الحروب بوجه خاص، حيث يتساءل الفرد: لماذا نجوت أنا ولم ينج من هم أفضل مني؟

وبعد أن عرضنا لأهم أعراض هذا الاضطراب نعرض لبعض الطرق المستخدمة في علاجه.

علاج الاضطراب

لقد تحدد اضطراب الضغوط التالية للصدمة بوصفه فئة مرضية محددة في وقت حديث نسبيا (عام ١٩٨٠)، ومع ذلك فقد طورت برامج علاجية متعددة لمن بقي على قيد الحياة بعد الحوادث الصدمية غير العادية وعانى من الاضطراب. وعلى الرغم من أن الملامح المحددة لبرامج العلاج هذه تختلف من صدمة إلى أخرى فإن كل هذه البرامج تشترك معا في عدد من الأهداف الأساسية، وأهمها أنها تحاول أن تساعد الفرد الذي بقي على قيد الحياة بعد الصدمة أن يقلل من الأعراض المتبقية لديه، أو أن يتغلب عليها، كما يجب أن يساعد المعالج المريض على أن ينظر إلى خبرته الصدمية من منظور أشمل، وذلك حتى يعود إلى العيش المنتج البناء [٣٨]. ويوصي "بيترسون" وصحبه [٣٩] بضرورة أن يبدأ العلاج بأسرع مايمكن ودون إبطاء أو تأجيل، كما يجب أن يكون العلاج مختصرا موجزا.

وحيث إن للتعلم الشرطي الدور الأساسي في نشأة هذا الاضطراب، لذا فإن العلاج السلوكي، والعلاج المعرفي السلوكي لهذا الاضطراب هو الشائع في هذا المجال [٤٠]. ومن أهم الطرق

المستخدمة هنا التعرض العلاجي المباشر (Direct Therapeutic Exposure (DTE، ويعرف بأنه التعرض المتكرر والممتد - سواء أكان في الواقع أم في الخيال - لمنبهات ليست مؤذية من الناحية الموضوعية ولكنها مخيفة للمريض، وذلك بهدف تقليل قلقه. ويشتمل هذا التعرض على نوعين هما: التعرض المتدرج Graded (كالتحصين المنظم Systematic Desensitization) والتعرض غير المتدرج (كالغمر Flooding والانفجاري Implosive). ويطلب من المريض في هذه الطريقة أن يستحضر في ذهنه بشكل متكرر ومتخيل الأحداث المرتبطة بالخبرة الصدمية، مع التركيز عليها حتى يتناقص القلق. وينتج عن التعرض المتكرر من هذا النوع تحت إشراف المعالج وتوجيهه انخفاض كبير في التنبه الفيزيولوجي والشخصي للمريض استجابة للصور الخيالية. ويلي ذلك عادة اختفاء الأفكار التي تقتحم عقل المريض، كما تختفي اضطرابات النوم.

وفي تطبيق عملي لهذه الطرق قام "صايغ" بعلاج طفل في السادسة من عمره يعاني من اضطراب الضغوط التالية للصدمة، وذلك بعد تعرضه لانفجار قنبلة، ورؤية أشخاص مصابين. ونجح هذا العلاج من خلال استخدام الاسترخاء المتدرج والغمر المتخيل. وقد طلب من الطفل تخيل أفراد مصابين، ورائحة الدخان، وصيحات الأفراد. وقد خفضت هذه الطريقة الفنية بوضوح من هذه الأعراض.

وفي إحدى الدراسات استخدمت طريقة الغمر مع التدريب على الاسترخاء Relaxation، حيث ساعدت هذه الطريقة محاربا سابقا في الحادية والثلاثين من عمره على التخلص من استعادة شريط الذكريات المتصلة بالحرب ومن الكوابيس، وقد قام العميل والمعالج في البداية بتحديد مناظر الحرب وعزلها، تلك المناظر التي يعود العميل فيخبرها ويعايشها بشكل متكرر، وعندئذ يساعد المعالج العميل على أن يتخيل أحد هذه المناظر بتفصيل شديد، ويحثه على أن يحتفظ بالصورة إلى أن ينخفض قلقه. وبعد كل تمرين من تمرينات الغمر هذه ينتقل المعالج إلى التخيل الإيجابي، ويقود العميل خلال تمرينات الاسترخاء. وقد استجاب العميل لهذا العلاج، وتناقصت استعادته لذكريات الحرب وإلحاحها عليه وكذلك الكوابيس.

كما تم تطوير مداخل معرفية سلوكية أيضا للعمل مع ضحايا اضطراب الضغوط التالية للصدمة، على أساس أن أعراض هذا الاضطراب قد تسبب في حدوثها رؤية الفرد للعالم على أنه

مكان للعيش لايمكن التنبؤ به ولا التحكم فيه. وتتضمن الاستراتيجية العلاجية[43] أن نمكن الفرد مما يلي:

١ـ إعادة تحديد الحادث حتى يكتسب معنى متسقا في هذا العالم (وذلك بمقارنة الفرد بأولئك الذين هم أقل حظا منه)، والنظر إلى الاستفادة الممكنة من هذه الخبرة.
٢ـ إيجاد معنى وغرض في هذه الخبرة.
٣ـ تغيير السلوك لمساعدة الفرد على منع الحادث من أن يعاود الحدوث.
٤ـ البحث عن الدعم الاجتماعي.

وعلى الرغم من أن الطرق العلاجية التي تتركز على شفاء الأعراض تعد مفيدة بوجه عام، فإن معظم الإكلينيكيين يعتقدون أن المحاربين الذين يعانون من اضطراب الضغوط التالية للصدمة لن يشفوا تماما مالم ينشأ لديهم أيضا استبصار في أمورهم، وأن يتسع مجال رؤيتهم لخبراتهم في الحرب والتأثير المستمر لهذه الخبرات عليهم. ويساعد الإكلينيكي المرضى أحيانا على استخراج المشاعر عميقة الغور، ويتقبلون مافعلوه وجربوه (أو مافعل فيهم وكان شديدا) بحيث يصبح حكمهم على مافعلوه (أو فعله الآخرون فيهم) أقل تشددا. ومن ناحية أخرى وجد عالم النفس "جيمس بينيبيكر" Pennebaker أن الكلام (أو حتى الكتابة) عن الخبرات الصدمية التي تم قمعها، يمكن أن يساعد على التقليل من الأعراض المتبقية للقلق والتوتر[44]. كما يركز كثير من الإكلينيكيين على أثر السند الاجتماعي Social Support الذي يقدم للمريض من خلال الأسرة أو العلاج الجماعي.

ويتضمن العلاج الجماعي Group Therapy كما يستخدم في علاج اضطراب الضغوط التالية للصدمة ـ بالإضافة إلى المعالج بطبيعة الحال ـ مجموعة من المرضى الذين يشتركون في الاضطراب ذاته، وهنا ميزة أنهم يشاركون بعضهم بعضا الخبرات ذاتها ويتقاسمون المشكلات عينها، ويقدمون سندا انفعاليا لبعضهم بعضا، ويتيح ذلك جوا من الثقة الجماعية والخبرة المشتركة، ذلك أن كثيرا من الأفراد يجدون سهولة في استرجاع الأحداث ومواجهة المشاعر التي حاولوا تجنبها سنين عددا. ومن أهم الموضوعات التي يجب أن تتعامل معها المجموعة العلاجية موضوع "الذنب" *Guilt*: ونقصد الذنب فيما يتصل بالأشياء التي فعلها الأعضاء حتى يبقوا أحياء، أو الذنب فيما يتعلق بالحقيقة العارية من أنهم بقوا أحياء برغم موت أصدقائهم المقربين. ومادام المضطربون (من ضحايا الحرب والاغتصاب وغيرهما) قادرين على الحديث بصراحة عن خبراتهم التي مروا بها ومشاعر الذنب التي يشعرون بها، فمن الممكن أن يقوموا بالخطوة الأولى للشفاء منها.

وهناك موضوع آخر مهم يجب أن تعالجه المجموعة العلاجية وهو مشاعر الغضب Rage التي يخبره كثيرمن الضحايا (في الحرب أو الاغتصاب بوجه خاص)، وتتلخص ـ من وجهة نظر المحارب ـ في أنه يحارب في سبيل قضية مشكوك فيها، ويواجه ظروفا لايمكن تحملها. وأخيرا قد يأخذ الغضب شكل الحزن، ويمكن أن يكون البكاء الناتج عن الغضب أمرا مشجعا بوصفه جزءا من النمو المهم في الجماعة أو الفرد(٤٥).

وفيما يتعلق بحالات اضطراب الضغوط التالية للصدمة الناتجة عن الغزو العراقي للكويت، فإنه يمكن القول بأن أكبر قدر من الغضب والغيظ يوجد لديها، ويتعين التعامل معه في الجلسات العلاجية، ذلك أن ماحدث لهؤلاء الضحايا لم يكن له مسوغ، ولم يكن لذنب جنوه، بل كان لأسباب وادعاءات وتخيلات لم يكن لهم ـ على المستوى الشخصي ـ دخل فيها.

وأخيرا وليس آخرا فيما يختص بعلاج حالات هذا الاضطراب، فإن بعض الحالات قد تقتضي استخدام بعض العقاقير في علاجها. فقد عولج اضطراب الضغوط التالية للصدمة الذي يصاحبه أعراض اكتئابية ظاهرة بمضادات الاكتئاب Antidepressants ويرتبط استخدام المركبات ثلاثية العناصر (ومهبطات MAO) عادة بالتناقص في شدة الأعراض المستديمة وتكرارها، ومنها الكوابيس، واسترجاع الحدث الصدمي، ونوبات الهلع، وفترات القلق، هذا فضلا عن تحسن المزاج والقدرة على تخفيض الغضب. كما أن استخدام العقاقير المضادة للقلق Antianxiety Drugs يقلل من التنبه واليقظة الزائدة(٤٦). وبالإضافة إلى ما ذكرناه فهناك أنواع متعددة من علاج هذا الاضطراب لايتسع المقام لتفصيل القول عنها.

تلخيص واستنتاجات عامة

تهدف هذه الدراسة إلى البرهنة على أن اضطراب الضغوط التالية للصدمة PTSD من أهم الآثار السلبية النفسية للغزو العراقي على الكويت في أغسطس ١٩٩٠. ذلك أن كثيرا من الآثار النفسية السلبية كالقلق والخوف والاكتئاب يمكن أن تكون آثارا ثانوية وأعراضا فرعية لهذا الاضطراب، كما أن الحرب سبب قوي لزيادة معدلات الإصابة بهذا الاضطراب، فلم يتغير شيء يذكر في حياة الكويتي في بضع السنين الأخيرة ـ في المقام الأول ـ إلا بتأثير من هذه الحرب، تلك الحرب التي يمكن القول عنها: إنها أثرت تأثيرا كبيرا في كل نواحي الحياة في هذا البلد مؤخرا، كالجوانب الاجتماعية والنفسية والأمنية والبيئية والاقتصادية... وغير ذلك. هذا فضلا عن تأثيرها

في معدلات الإصابة بالاضطرابات النفسية، وفي مدى انتشار سوء استخدام العقاقير والكحول والمخدرات، وفي زيادة حالات العدوانية والعنف، وظهور أنواع من السلوك الانحرافي الذي لم يكن معروفا من قبل. ولكننا نسارع إلى القول بأننا لم نزعم أن هذه الحرب وحدها كانت السبب في كل الآثام والمشكلات والأحزان، ولكنها كانت السبب الرئيس غالبا.

ومما زاد الطين بلة والأمر سوءا أن هذه الحرب لم تقم لحسم نزاع محدد، أو لحل خلاف على حدود، أو لرأب صدع محدود، بل كان لهذا العدوان مآرب أشمل وهدف أعنف وتخطيط أخبث، وهو ابتلاع دولة وإلغاء جنسية وإحكام قبضة قاهرة جائرة. ناهيك عما ارتكب خلال هذه الحرب الظالمة من فظائع وتجاوزات وقهر، والمؤسي أنها ارتكبت من لدن من كان يجمعه بالكويت صلات القربى ووشائج الأرحام:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

ومما زاد الأمور تعقيدا عنصر المفاجأة والمباغتة التي وصلت إلى مستوى الغدر والخديعة والمخاتلة. لكل ذلك نعد هذه الحرب الظالمة - والظلم ظلمات - تربة خصبة وبيئة صالحة لنمو اضطراب الضغوط التالية للصدمة وتطوره.

وإذا كانت الضغوط تفرض على الإنسان في هذا العصر وتمارس كل لحظة وآن، فليس كالحرب عنصر ضغط، وجانب إنهاك، وسبب للمشقة والعنت. ولكن الضغوط التي نقصدها هي الضغوط التي تخرج عن النطاق العادي للخبرة الإنسانية، ومنها: الحرب، والاغتصاب، والحوادث الإجرامية، والكوارث الطبيعية والتكنولوجية، وحوادث وسائل المواصلات، وغشيان المحارم، والحوادث ذات الطابع السياسي أو الإرهابي، والحوادث التي ترتكب تحت مظلة الأسرة أو في سياق اجتماعي محدد.

وقد لاحظ الإنسان منذ زمن بعيد الآثار النفسية للحوادث الصدمية، ولكنها أدرجت تحت أسماء عديدة مثل: عصاب (اضطراب نفسي) الرعب، عصاب التعويض، الصدمة العصبية، صدمة القذائف، استنزاف المعركة، تعب القتال. وفي عام ١٩٨٠ - ونتيجة لتأثيرات عديدة - أفردت الرابطة الأمريكية للأطباء النفسيين فئة تشخيصية محددة تحت اسم: اضطراب الضغوط التالية للصدمة PTSD، مما ساعد كثيرا في النواحي البحثية والتشخيصية والعلاجية.

وأهم الخصائص الأساسية لهذا الاضطراب على اختلاف مسبباته، تعرض الإنسان لحادث صدمي خارج نطاق الخبرة الإنسانية العادية، بحيث يشكل هذا الحادث الصدمي تهديداً خطيراً لحياة الفرد أو تكامل جسمه وأعضائه، أو التهديد بالأذى لأطفاله أو أقاربه أو أسرته، أو التحطيم المفاجيء لمنزله أو مجتمعه. ومن الجلي أن العدوان العراقي يحقق تماما الشروط الضرورية لنشأة اضطراب الضغوط التالية للصدمة، إذ لايعد من أهم أسباب حدوثه في هذا المقام فحسب، بل السبب الوحيد غالبا.

ولقد تعددت الدراسات النفسية السابقة التي أجريت في الحرب، ومن بينها ما أجري على اضطراب الضغوط قبل أن يطلق عليه هذا الاسم في الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الكورية، وحرب فيتنام، وأخيرا حرب الخليج التي تندر عنها الدراسات فيما يختص بهذا الاضطراب الذي نحن بصدده، ومن الجلي أن الحاجة ماسة إلى إجراء دراسات عليه بوصفه أثرا سلبيا من آثار الغزو من الناحية النفسية. ومن الملاحظ أن الدراسات النفسية على المحاربين العائدين من حرب فيتنام كثيرة ومتعددة، علما بأن الأعراض التي أصيبوا بها عندئذ كان بعضها حادا والآخر مزمنا، على حين حدث الثالث بطريقة مرجأة، حيث ظهر الاضطراب بعلاماته المتشعبة بعد سنين عددا. وغني عن البيان أن نقول: إن دراسات علماء النفس «الحالات» المحاربين القدامى في فيتنام كانت سببا أساسيا في بلورة مفهوم هذا الاضطراب وبيان مختلف أبعاده، ومن ثم إفراد فئة تشخيصية خاصة به، وكان ذلك عام ١٩٨٠، فضلا عن بيان المحكات التشخيصية لهذا الاضطراب وتسجيل الأعراض الأساسية له، ووضع أسس تشخيصه وقياسه وأساليب علاجه.

وفيما يختص باضطراب الضغوط التالية للصدمة في الكويت بعد العدوان العراقي عليه، فإن الإحصاءات الدقيقة غير متاحة لنا حتى الآن، ولكن المؤكد ـ نظرا لكثرة من الملاحظات وعديد من المؤشرات ـ أن هذه الحالات غير قليلة بالمقارنة إلى كل من المعدلات العالمية وإلى مستواها قبل الحرب، ذلك أن الحرب ـ في هذه الحالة ـ هي المصدر الأساسي لها. ومن نافلة القول أن نذكر أن ما ارتكب إبانها من عدوان على المال والأهل والوطن، وتعذيب وقتل وهتك للأعراض، وما تعرض له عديد من المواطنين من الذل والمهانة والشعور بالضعة كان السبب الرئيس لزيادة الحالات المصابة بهذا الاضطراب.

وأخيرا وليس آخرا، فإن الحاجة ماسة في الكويت إلى دراسة هذا الاضطراب دراسة واقعية (إمبيريقية) متعمقة بطرق عدة، ونوصي في هذا المجال بما يلي:

١ـ ضرورة إجراء مسح دقيق يهدف إلى حصر حالات اضطراب الضغوط التالية للصدمة. ويمكن أن يبدأ هذا المسح في أماكن التجمعات كالمدارس المتوسطة والثانوية والجامعة والتعليم العالي.

٢ـ وضع أداة قياسية (سيكومترية) تتصف بالثبات والصدق والموضوعية، تساعد على فرز حالات الاضطراب وتحديدها، وهذا ما يقوم به بعض الباحثين حاليا.

٣ـ تقديم العلاج المناسب للحالات التي يسفر عنها مثل هذا المسح، فضلا عن الحالات التي تتقدم طلبا للعلاج في المراكز الطبية النفسية.

٤ـ تحديد مآل هذه الحالات بعد العلاج، والمفاضلة بين عدد من الطرق العلاجية لبحث أفضل ما يناسب الحالات الكويتية.

٥ـ متابعة هذه الحالات متابعة دقيقة بعد الانتهاء الرسمي للعلاج.

الهوامش

(١) راجع في الجوانب التاريخية لأزمة الخليج النماذج الآتية :

ـ حياة ناصر الحجي (١٩٩٢) احتلال العراقيين الكويت آب ـ أغسطس ١٩٩٠م واحتلال التتار بلاد الشام كانون الأول ـ ديسمبر١٢٩٩م (دراسة مقارنة). المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٣٩، ١٠ ـ ١٠٧

ـ محمد توفيق بليع (١٩٩٢) العدوان العراقي على الكويت. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٣٩، ١٢٠ـ١٧٤ .

ـ عبدالمالك التميمي (١٩٩٢) العدوان العراقي على الكويت أغسطس ١٩٩٠ ـ فبراير ١٩٩١ (مسألة الحدود والحق التاريخي) دراسة تاريخية. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٤١، ١٢٤ـ١٤٧ .

(٢) الدراسات عديدة في هذا الصدد، وقد استوعبت كثيرا من آثار الغزو على اختلاف التخصصات، انظر مثلا :

ـ أحمد يوسف أحمد (١٩٩١) النظام العربي وأزمة الخليج. مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩ (٣) ، ٧ـ٢٨ .

ـ سعد الدين ابراهيم، عبدالحميد صفوت إبراهيم (١٩٩١) دور المثقفين العرب في أزمة الخليج. مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩(٣)، ٢٩ـ٥٠ .

ـ فاطمة العبدلي، حسن النصرالله، سامي اليعقوب، علي خريبط، علي الصايغ (١٩٩٢) ندوة عن: الفكر البيئي الحديث في الكويت ما بعد الكارثة. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٤١، ٢٠٦ـ٢٥٧ .

ـ محمد عبدالرحمن الصرعاوي (١٩٩٢) آثار الدمار البيئي للغزو العراقي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٣٩، ١٩٦ـ٢٣٧ .

ـ محمود اسماعيل، أحمد الربعي، عبدالمالك التميمي، فؤاد زكريا، هاني الراهب (١٩٩٢) ندوة: المثقفون العرب وأزمة الخليج. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٣٩، ٢٨٠ـ٣٠٥ .

(٣) أشكر زملائي وأصدقائي: د. عدنان الشطي، د. عويد المشعان، د. جاسم الخواجة، الذين تناقشت معهم في هذا الصدد.

(٤) هم من المدرسين العاملين في مدرسة أحمد البشر الرومي بالكويت في العام الدراسي ٩٢/ ١٩٩٣ .

(٥) هذه دراسة جارية ولم تنته بعد، في قسم علم النفس، كلية الآداب، جامعة الكويت، ويقوم بها عدد من أعضاء هيئة التدريس بهذا القسم المشار إليه فضلا عن كاتب هذه السطور.

(٦) أي عشرون حالة مرضية لكل ألف من السكان.

(٧) البحوث عن الآثار السلبية للغزو كثيرة، انظر على سبيل المثال :

ـ البحوث الواردة في هذا العدد من مجلة عالم الفكر، وأهم المراجع الواردة في ذيل كل منها.

ـ عويد سلطان المشعان (١٩٩٣) العدوان العراقي والآثار النفسية والمادية على المواطن الكويتي. الكويت: مؤسسة العلم الحديث.

(٨) البحوث الجارية عن آثار الغزو متعددة ـ على سبيل المثال ـ في قسم علم النفس بكلية الآداب، جامعة الكويت (اتصال شخصي).

(٩) الانعصاب ترجمة د. يوسف مراد لمصطلح Stress، حيث يمكن أن نقول: انعصب الموقف، فأصبح عصيبا. ويترتب على المواقف العصيبة وينجم عنها قدر من العنت والمشقة والكبد (انظر إلى القول الكريم: «لقد خلقنا الانسان في كبد» (سورة: البلد: ٤) أي تعب ونصب). ولكن هذه الترجمة المقترحة لمصطلح Stress لم تشع للأسف بين الباحثين والمؤلفين في علم النفس العربي.

(١٠) انظر الدراسة المهمة التي أجريت على ٥٧ من الجنود الأمريكيين في فرقة مشاة ميكانيكية ممن حاربوا في الكويت (أو ما ورد في عنوان الدراسة على أنه حرب الخليج الفارسي):

Labbate, L.A. & Snow, M.P. (1992) Posttraumatic stress symptoms among soldiers exposed to combat in the Persian Gulf. Hospital & Community Psychiatry, 43 (8), 831 - 833.

(١١) Kahuna, B. (1992) Late life adaptation in the aftermath of extreme stress. In M.L. Wykle, E. Kahuna & J. Kowal (Eds.) Stress and health among the elderly. New York: Springer, p. 151.

(١٢) انظر Saigh, P.A. (1992) History, current nosology, and epidemiology. In P.A. Saigh (Ed.) Posttraumatic stress disorder: A behavioral approach to assessment and treatment. Boston: Allyn & Bacon, p. 1.

(١٣) راجع Peterson, K.C., Prout, M.F. & Schwarz, R.A. (1991) Post-traumatic stress disorder: A clinicians guide. New York: Plenum, p. 3.

(١٤) راجع Wilson, G.T., O'Leary, K.D. & Nathan, P.E. (1992) Abnormal psychology. New Jersey, Englewood Cliffs: Prentice - Hall, p. 115.

(١٥) انظر: Peterson et al., Op. Cit., pp. 4-5.

(١٦) Ibid, p. 5.

(١٧) انظر: Comer, R.J. (1992) Abnormal psychology. New York: Freeman & Comp., p. 217.

(١٨) Peterson et al., p. VIII

(١٩) Ibid, p 15.

(٢٠) انظر على سبيل المثال:

Henmon, V.A.C. (1917) Reaction time. Psychological Bulletin, 14, 411 - 412.

ويجدر الإشارة أن دراسات عالم النفس «هنمون» قد استمرت في الدورية ذاتها بين عامي ١٩١٠، ١٩٢٠.

(٢١) انظر: عويد المشعان (١٩٩٣) العدوان العراقي . . .

(٢٢) Labbate & Snow (1992).

(٢٣) Comer, (1992) pp. 215 - 216

(٢٤) Wilson, et al., (1992), p. 113.

(٢٥) راجع هذه التجربة في:

Blanchard, E., Kolb, L., Pallmeyer, T. & Gerardi, R. (1982) The development of a psychophysiological assessment procedure for post-traumatic stress disorder in Vietnam veterans. Psychiatric Quarterly, 54, 220 - 229.

(٢٦) انظر Brende, J.O. Parson, E.R. (1985) Vietnam veterans. New York: Plenum, pp. 46 - 47.

(٢٧) انظر: عويد المشعان (١٩٩٣) العدوان العراقي والآثار النفسية والمادية على المواطن الكويتي.

(٢٨) انظر: Labbate & Snow (1992)

(٢٩) انظر: American Psychiatric Association (1987) Diagnostic and Statistical Manual of mental disorders (DSM-III-R), 3 rd ed., Washington, D.C.: APA.

(٣٠) راجع: Sue, D., Sue, D. & Sue, S.(1990)Understanding abnormal behavior, Boston: Houghton Mifflin, 5th ed., p. 169.

(٣١) Litz, B.T., Penk, W.E, Gerardi, R.J. & Keane, T.M. (1992) Assessment of posttraumatic stress disorder. In: P.A. Saigh (Ed.) Posttraumatic stress disorder: A behavioral approach to assessment and treatment. Boston: Allyn & Bacon. pp. 50 - 84.

(٣٢) Saigh, P.A. (1989) On the development and validation of the Children's Post-traumatic Stress Disorder Inventory. International Journal of Special Education, 4, 75 - 84.

(٣٣) تجب الإشارة إلى أن وضع هذه القائمة واستخدامها مع الأطفال اللبنانيين كان في أعقاب الحرب الأهلية اللبنانية التي بدأت عام ١٩٧٥ واستمرت حوالي ١٦ عاما، ومن ثم فإن وضع هذه القائمة واستخدامها في هذا السياق أمر مناسب ومقبول تماما.

(٣٤) Keane, T.M., Malloy, P.F. & Fairbank, J.A. (1984) Empirical development of an MMPI subscale for the assessment of combat - related PTSD. Journal of Consulting & Clinical Psychology, 52, 888 - 891.

(٣٥) Keane, T.M., Caddell, J.M. & Taylor, K.L. (1988) Mississippi Scale for Combat-Related Posttraumatic Stress Disorder: Three studies in reliability and validity. Journal of Consulting & Clinical Psychology, 56, 85 - 90.

(٣٦) Blanchard et al., (1982).

(٣٧) Sue et al., (1990), pp. 169f.

(٣٨) Comer, (1992) p. 249.

(٣٩) Peterson, et al., (1991) pp. 143 - 144.

(٤٠) انظر إلى الفصلين الرابع والخامس في الكتاب المحرر : Saigh. (1992)

(٤١) انظر هذه الحالة في Sue et al.. (1990) p. 170.

(٤٢) Comer. (1992) p. 249.

(٤٣) Op. Cit.. p. 170.

(٤٤) Comer . p. 250.

(٤٥) Ibid.

(٤٦) Wilson. et al.. (1992) pp. 115 - 116.



الاضطرابات النفسية الجسمية الناجمة عن العدوان العراقي عند المراهقين الكويتيين

إعداد الأستاذ/ خضر عباس بارون *

* حصل على الماجستير في علم النفس من جامعة ميزوري في كولومبيا بالولايات المتحدة، ودرس مقررات الدكتوراه في جامعة سانت لويس في ميزوري، ويقوم الآن بالتدريس بقسم علم النفس في جامعة الكويت.

تعرضت الكويت لكارثة حادة عندما تم غزوها من قبل العراق، وتزداد وطأة هذه الكارثة عندما نعرف ما حدث أثناء تلك الأزمة التي دامت سبعة شهور، من تعرض معظم المواطنين والمقيمين لكثير من الأذى المادي والمعنوي بدرجات متفاوتة مثل أعمال النهب والسلب والتدمير والعنف وهتك الأعراض والتعذيب وموت الأحباء والأقرباء وأسر آخرين، ويعد كل هذا ضغوطا نفسية شديدة بدأ تأثيرها واضحا على معظم أفراد المجتمع الكويتي عامة والمراهقين بشكل خاص.

ويرى «هد جكنسون وستيورت» عام ۱۹۹۱ أن ردود الأفعال للكوارث والأزمات تختلف من فرد إلى آخر، فبعض الأفراد ينهار بسرعة ويعاني كثيرا من الاضطرابات النفسية والجسدية، وبعضهم يتوافق ويصمد أمام هذه الأزمات، ويرجع هذا الاختلاف إلى تباين درجات مفاجأة الصدمة والخبرات الشخصية في التوافق مع أزمات أقل شدة من قبل (Hodgkinson and Stewart, 1991).

وقد وضح علماء النفس أن ضحايا الأزمات الشديدة (مثل الكوارث) يعانون من نمط محدد من الاستجابات يعرف بزملة الكوارث (Disaster Syndrome)، فالشخص الذي يعاني من هذه الاضطرابات النفسية ولم تكن له خبرات بهذه الاضطرابات وإنما تكون نتيجة الضغوط النفسية التي مر بها، فنجد مثلا عند انتهاء هذه الأزمة وتناقص الضغوط النفسية تتلاشى الأعراض التي يعاني منها الفرد، وإذا ما استمرت هذه الأعراض فترة أطول مما ينبغي برغم زوال الضغوط النفسية التي تسبب ذلك، عندئذ يجب أن يتعرض هذا الفرد للعلاج النفسي (Ibid).

وتوضح بحوث النمو النفسي أن فترة المراهقة تكثر فيها اضطرابات النمو حتى في حالات السلم، فيعاني المراهقون كثيرا من المشاكل في سلوكهم أثناء فترات النمو من جراء بعض الظروف الطارئة. فمثلا يجب عليهم التخلص من سلوك مرحلة الطفولة والأخذ بأساليب الرشد، وعليهم أن يتعلموا كثيرا من أساليب السلوك مثل الضبط الانفعالي، وضبط إلحاح الرغبات وكيفية التعبير عن الحكم الجيد وتوضيح الأسباب، كل هذا التعلم يحدث وسط تغيرات هرمونية هياجة تؤدي إلى تغير البناء الجسمي والنفسي للمراهقين (مقصود ١٩٩١).

تحدث هذه الاضطرابات للمراهقين في وقت السلم، فماذا يحدث للمراهقين الذين تعرضوا للاحتلال والعدوان والعنف والاغتصاب والقتل والتهديد والأسر والضرب والإهانة والترك دون رعاية من جراء تشتت الأسر والعيش في مجتمعات أخرى.

الدراسات السابقة

وبمراجعة الدراسات أو الأدبيات السابقة يتضح أن الصدمات والأزمات العنيفة والضغوط النفسية الشديدة والخبرات المؤلمة والمواقف الإحباطية التي يمر بها المراهقون تؤدي إلى زيادة الاضطرابات النفسية لديهم، وهذا ما أوضحته دراسة «بلوم» عام ١٩٩١ التي كشفت أن الضغوط النفسية الشديدة تسبب كثيرا من الاضطرابات للمراهقين. فلا ينمون النمو السليم أو أن نموهم لا يتطور نحو الأفضل، فيصبحون مقيدين ومذبذبين بين إنكار انفعالات صدمة الحرب السابقة وإعادة هذه المشاعر والانفعالات إذا ما ذكروا بها مرة أخرى. وهم يشعرون دائما بأنهم غير أسوياء من الناحية النفسية (Bloom; 1991).

وفي دراسة «زاك» عام ١٩٨٢ تم فحص تأثير الحرب على المراهقين الإسرائيليين، فوجد أن الحرب تزيد من السمات المتصلة بالقلق وعدم الثقة حول اتباع أفضل الطرق لإشباع حاجاتهم الفيزيولوجية. كما ظهر أن التغير في سمات الشخصية ونموها يعتمد على عدة عوامل مثل خبراتهم الشخصية وخبراتهم الجماعية والعوامل الاجتماعية والبيولوجية في الشخصية (Zac, 1982).

كما وضح «لوين» عام ١٩٨٢ أن ظروف الحرب تؤثر على عادات النوم والأحلام عند الشباب الذين يعيشون تحت ظروف الحرب منذ الصغر، وبخاصة أولئك الذين تكون قراهم ومدنهم هدفا دائما للعدوان. فمثل هذه الظروف تؤدي إلى القلق والتوتر ورغبة الشباب في الانتقام من الأعداء.

وتبعا لـذلك تحتوي أحـلام الشباب على كثير من عنـاصر الرعب والعـداء والتدمير، وهـذا يؤدي إلى اضطرابات النـوم وقصره، وإلى الأحلام المزعجة، ظهر أيضـا أن استمرار العيش تحت ظروف الحرب يؤدي إلى نمـو شخصية قمعيـة لدى المراهق حتى يتسنى لـه العيش حياة أقـل توترا. فـالمراهق ينمي أسلوب القمع والإنكـار حتى يستطيع أن يتكيف مع هذه الظروف الصعبة، واتضح أيضـا أن هناك فروقا بين المراهقين الذين يعيشون في مدن وقرى تتعرض دائما للعدوان والمراهقين الذين يعيشون بعيد عن هذه المدن. فلاحظ أن المراهقين الذين يعيشون تحت نيران الحرب أكثر تكيفا وقمعا من المراهقين الذين يعيشون بعيدا عن هذه المدن (Lewin, 1982).

وهناك دراسـات كثيرة توضح انشغال المراهقين بـالتهديد بالحرب وبخـاصة التهديـد بالحرب النووية. وأن هذا الانشغال يسبب كثيرا من الضغوط النفسية على المراهقين مما يؤدي ذلك إلى الشعور بالقلق والتوتر الشديد الذي ينعكس على سلوكهم الاجتماعي وطريقة تعاملهم مع أفراد المجتمع وعلى تطلعاتهم المستقبلية.

وسنعرض نتـائج الدراسات التي اهتمت بـدراسة عينـات المراهقين التي وقعت تحت ضغوط نفسيـة من جـراء تهديـد الحرب وتـوقع حـدوثها، لنـوضح أن هـذه الضغـوط تـؤدي إلى الأعـراض والاضطرابـات النفسية، فما بالنـا بوقوع الحرب فعـلا؟ فقد وضحت دراسة «سيتـوارت» عام ١٩٨٨ اهتمام المراهقين الذي تركز حول تهديد الحرب النووية. وأن هذا الاهتمام يؤثر على تطلعاتهم وقدراتهم على تأجيل إشبـاعاتهم المستقبلية وعلى مستوى الاندفـاعية والمنـاورة وعلى اتجاهـاتهم نحو مصـدر التحكم. فقد دلت نتـائج هذه الدراسة أن معظم المراهقين الـذين كانوا ضمن عينة البحث، كـانوا مهتمين بتهديد الحرب النـووية، وأن هذا الاهتمام كان مـرتبطا باتجاهاتهم نحـو المستقبل، لكنه كان غير مرتبط بالمتغيرات الشخصية الأخرى قيد الدراسة. فوجد أن ٢٠٪ تقريبا من أفراد العينة قرروا أن تهديـد الحرب النوويـة هو الشـاغل الأول بالنسبـة للمستقبل. وأن ١٧٪ آخرين قـرروا أن خططهـم المستقبلية تتأثـر بهذا التهديـد، وأن ٤٪ من أفراد العينـة ذكروا أنهم يعـانون من الأحـلام والكوابيس المزعجة الناتجة من جراء قلق التهـديد بالحرب النووية، وأن حوالي ٦٪ ذكروا أنهم يعـانون من مشاعر الخوف والقلق معظم الوقت نتيجـة هذا الاهتمام بالتهـديد بالحرب النـووية (Stewart, 1988) وأسفرت دراسة «جولبرنج وآخرين» عام ١٩٨٥، أن الطلبة المراهقين الذين يعانون من القلق اليومي نتيجة تهديـد الحرب النوويـة هم الذيـن يكونون أيضـا أكثر قلقـا وخوفـا من البطالـة وخطط العمل المستقبلية عن غيرهم من الطلبة المراهقين، وذلك بسبب إفراطهم بالاهتمام بهذا التهديد (Goldberg Et Al, 1985)

وأوضحت دراسة "جولدبيرج "وآخرين عام ١٩٨٥ أيضا أنه على الرغم من عدم وجود دليل واضح على أن زيادة المعلومات حول سياسة التهديد النووي يؤدي إلى خفض مستوى الخوف والقلق والتوتر، إلا أن نتائج هذه الدراسة دلت على توافق معظم المراهقين الذين كان لديهم معلومات حول سياسة هذا التهديد عن أقرانهم الذين لم يكن لديهم هذه المعلومات. كما أوضحت هذه الدراسة أن تجنب المراهقين اتباع أسلوب الحيل الدفاعية والإنكار والابتعاد عن معرفة حقائق التهديد يؤدي بالضرورة إلى الاعتقاد بأن لديهم القدرة على التوافق الشخصي لتغير سياسة هذا التهديد والتغلب عليه. وإذا ما أرغم المراهقون على مواجهة هذا التهديد كحقيقة فمن الممكن أن يؤدي ذلك إلى شعورهم بالعجز والقنوط، (GOLDBERG, ET AL 1985).

كشفت دراسة "نيومن" عام ١٩٨٧ أن غالبية المراهقين في معظم بلاد العالم قلقين جدا من التهديد بالحرب النووية، فقد استعرض كثيرا من الدراسات حول هذا الموضوع، وأهمها تلك الدراسة التي قام بها "بيردس وماك" عام ١٩٧٨ حيث طبقا استبيانا على ١١٥١ من طلاب المدارس العامة والخاصة في المرحلة الثانوية في الولايات المتحدة. وقد أوضحت هذه الدراسة أن ثلثي هذه العينة قرروا أنه بمجرد وصولهم إلى سن المراهقة فإن موضوعات الحرب النووية تصبح ضمن اهتماماتهم الحقيقية، وأن أكثر المشاعر التي تنتابهم هي القلق حول عدم سهولة الحياة المستقبلية من جراء خطر تهديد الحرب النووية وطبيعة أسلحتها وقوتها التدميرية. ودراسة "جولدنرنج ودكتور" عام ١٩٨٥ (Goldenring and Doctor (1985 التي طبق فيها استبيانا على ٩١٣ من الطلاب المراهقين في كليفورنيا، حيث طلب منهم ترتيب الموضوعات من حيث أكثرها إثارة للقلق، وقد جاء ترتيب الخوف من الحرب النووية في المرتبة الثالثة بنسبة ٥٨٪ بعد موت الوالدين والحصول على درجات دراسية متدنية. وذلك يؤدي بلا شك إلى وجود مشاعر القلق والتوتر لدى المراهقين من جراء هذا الاهتمام وقد ظهر هذا الاهتمام على شكل اضطرابات نفسية (Newmen, 1987).

كما لاحظ "ستيل لوكس" عام ١٩٨٨ بعد التحليل التجريبي لردود الأفعال النفسية والجسمية لمثيرات تثير التقزز من جراء تصوير الحرب وكأنها بدأت، أن الاستجابات اللا إرادية (Autonomic Responses) مرتبطة أكثر بالشرائح المرئية التي تصور الحرب أكثر من الشرائح التي تصور مشاهد حيادية، وهذا ما أوضحته تقارير المفحوصين أثناء مقابلتهم بعد انتهاء التجربة. كما أوضحت هذه الدراسة أيضا أن الاستجابات الجسمية التي تتمثل في زيادة عامه في النشاط الآلي المرتبط بالجهاز السمبثاوي، تكون نتيجة مؤثرات مختلفة عبرت عن طريق زيادة النشاط الكهربائي في الجلد Elec-trodermal Activity (Eda) وانخفاض إفرازات اللعاب استجابة للشرائح التي تصور الحرب (Steel and Cox, 1988).

كما أوضحت دراسة «فيليب صايغ» عام ١٩٨٥ عندما استخدم ثلاثة مقاييس لتحديد عدد من الضغوط والاضطرابات النفسية على مجموعتين من طلاب المدارس الثانوية في لبنان قبل الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢ وبعد الغزو بثمانية أسابيع. فقد استطاع هذا الباحث أن يصل إلى ٨٧٪ من أفراد عينة ما قبل الحرب، وإعادة تطبيق نفس الاستبيانات مرة أخرى عليهم لإجراء المقارنة. وقد دلت نتائج هذا البحث على معاناة أفراد العينة من الصامدين والنازحين من كثير من الأعراض مثل القلق والاكتئاب واضطرابات النوم وتبلد المشاعر، كما أشارت هذه الدراسة إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين درجات الصامدين والنازحين سواء أكان ذلك في الاختبار الذي طبق قبل الحصار الإسرائيلي أم بعده على المقاييس الثلاثة. وأن درجات العينة الكلية على قائمة المخاوف اللبنانية كانت أكثر ارتفاعا بعد الحصار الإسرائيلي عنها قبل الحصار. كما ظهر انخفاض دال في درجة الأعراض النفسية في الاختبار القبلي عن الاختبار البعدي (Saigh, 1985).

وأشارت دراسة «النابلسي» عام ١٩٨٧ أن معظم اللبنانيين يعانون من الاضطرابات النفسية الجسمية الناجمة عن الحرب اللبنانية وأن نسبة انتشار الإصابة بالأعراض النفسية الجسمية يزداد أثناء الحرب والكوارث.

وتشير دراسات عديدة إلى تغير نوعية الإصابة المرضية باختلاف نوعية الكوارث وباختلاف الشعوب وباختلاف الشخصيات والحضارات والثقافات فنجد أن الارتجاف الهستيري كان منتشرا بين الجنود الألمان أثناء الحرب العالمية الأولى. وأن الإصابة بقرحة المعدة قد ازدادت بنسبة ٤٠٪ بين الشعب الإنجليزي أثناء الغارات الألمانية على المدن الإنجليزية خلال الحرب العالمية الثانية. ودلت دراسة على عينات من الفرنسيين عن معاناة عدد كبير من أسرى الحرب العالمية الثانية من الإصابة بالاضطرابات النفسية الجسمية حيث كان بعضها حادا، بينما ظهر تأثير بعضها الآخر بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب («النابلسي» ١٩٩٢) كما أشار «صايغ» عام ١٩٨٤ إلى أن تقارير الجنود الأمريكيين أثناء حرب فيتنام تشير إلى زيادة ملحوظة في نسبة الإصابة بالذبحة الصدرية (Saigh, 1984).

وتشير دراسة «منى مقصود» عام ١٩٩١ إلى إمكانية الإصابة بالاضطرابات النفسية والاجتماعية لدى الطلاب الكويتيين نتيجة العدوان العراقي على الكويت مثل الشعور بالكآبة لمدة طويلة نتيجة قتل أحد الوالدين أو المقربين. و ازدياد درجة القلق واضطرابات الخوف لدى الأطفال والمراهقين نتيجة التراشق المدفعي وسماع أصوات المتفجرات واطلاق النار في الأحياء السكنية وأعمال العنف، واضطرار العائلات إلى النزوح وترك حاجياتهم ومنازلهم هرباً إلى أماكن آمنة

أدى إلى الاغتراب والشعور بالعزلة. ونتيجة للنزوح الاضطراري المفاجىء ظهرت على الأطفال والمراهقين أعراض الاضطرابات النفسية مثل قلق الانفصال عن الأهل والخوف من المدرسة والأعراض الجسدية النفسية (السيكوسوماتية) ومشاكل النوم. وعانى بعضهم الآخر من الحزن والشوق والحنين إلى منازلهم، ورفض عدد منهم البيئة الجديدة وأصبحت تصرفاتهم عدائية وفوضوية ومن الصعب ضبطها والتحكم فيها. وتشير كذلك إلى كيفية مساعدة الأطفال والمراهقين للتغلب على هذه الأعراض الناجمة لديهم نتيجة الأزمة والعدوان العراقي على الكويت.

وفي دراسة إدارة الخدمة الاجتماعية بوزارة التربية عام ١٩٩١ على قطاع كبير من مدارس الكويت تبين أن العدوان العراقي قد أثر تأثيرا سلبيا على أطفال الرياض وتلاميذ وطلاب المراحل المختلفة، وأدى إلى آثار اجتماعية ونفسية تؤخر نموهم الاجتماعي والنفسي إذا لم تجد التشخيص الجيد والعلاج المناسب. ومن هذه الآثار التي لوحظت على تلاميذ وطلاب المراحل التعليمية المختلفة ما يلي:

١ ـ ازدياد حالات الاضطراب النفسي والخوف من المجهول	٨٣,٥٪
٢ـ ازدياد مظاهر السلوك العدواني بين الطلاب	٥٤,٦٪
٣ـ اهتزاز بعض القيم والثوابت الاجتماعية	٤٢,١٪
٤ ـ زيادة مشكلات الخروج عن النظام المدرسي	٢٩,٧٪
٥ ـ التفرقة بين من كانوا داخل البلاد وخارجها	٢٤,٢٪
٦ ـ المعاناة الاجتماعية النفسية لأبناء الأسرى والمفقودين	٢١,٦٪
٧ـ زيادة انتشار ظاهرة التدخين بين الطلاب	٤,٨٪

وفي دراسة عويد المشعان (تحت النشر) لتوضيح الفروق بين الصامدين والنازحين من الجنسين. فقد كشفت الدراسة أن الصامدين والنازحين قد شاركوا المعدلات ذاتها تقريبا في كل من الانبساط والعصابية والذهانية والاكتئاب والعدوانية، وما ذلك إلاانعكاس لعنف الصدمة سواء أكان ذلك في داخل الكويت أم خارجها.

كما وضحت الدراسة ذاتها أن هناك فروقاً بين الجنسين حيث حصل الذكور على متوسطات أعلى في الانبساط والذهانية، على حين حصلت الإناث على متوسطات أعلى في العصابية والاكتئاب. وهذا يتفق مع دراسات كل من زين العابدين درويش (١٩٩٢) وأميرة الديب (١٩٩١ ـ ١٩٩٢) وهي من الدراسات التي أجريت على المجتمع الكويتي أثناء العدوان العراقي.

وقد أجريت دراسات غير قليلة على الآثار النفسية للغزو العراقي على الكويت (أنظر أميرة الديب ١٩٩٠ ، ١٩٩٢ ، إدارة الخدمة الاجتماعية ١٩٩١ ، زين العابدين درويش ١٩٩٢ عويد المشعان ١٩٩٣ ، منى مقصود ١٩٩١ ، صلاح عبدالمتعال وآخرون ١٩٩١ ، محمد موسى ١٩٩١ ، محمد الجوزو ١٩٩١ ، هادي مختار ١٩٩١).

تعريف المصطلحات

أ ـ المراهقة

يصف «اتكنسون » Adolescence المراهقة بأنها فترة تقع بين مرحلة الطفولة ومرحلة الرشد. وأن العمر بهذه المرحلة غير محدد بوضوح فتراوح ما بين سن ١٢ إلى أواخر سن ٢٠ عندما يكتمل النمو الجسمي تقريبا. وخلال هذه المرحلة يتم النضج الجنسي والتفرد والاستقلالية ومواجهة القرارات حول كيفية متابعة الحياة وتخصص العمل. وتوصف هذه المرحلة من كثير من الباحثين بأنها مرحلة معقدة وصعبة ويحدث فيها كثير من الاضطربات النفسية والجسدية. إذ تحدث فيها أمور كثيرة تعكر صفو حياة المراهق وتعوقه عن الشعور بالسعادة، مثل الشعور في تحديد وضع المراهقين ومكانتهم، والمثالية الزائدة وعدم القدرة والفشل (Atkinson,1981) . وتوضح «مقصود» عام ١٩٩١ أن لكل عمر مشكلاته الخاصة الناتجة عن خصائص النمو ومواصفات المرحلة التي يمر بها الفرد، والتي تتسبب في قلق المحيطين به وتوترهم ويتصف سلوك المراهقين عادة بالمتاعب والمشكلات بدرجة قد تفوق غيرها من وجهة نظر أفراد المجتمع الكبار، ويرجع ذلك إلى المعتقدات السائدة بينهم عن المراهقين وربطها بالمشاكل الكثيرة.

وتؤكد الدراسات العلمية التي أجريت على الشباب في هذه الفترة أن مشاكل المراهقين كثيرة ومتنوعة ومتعددة ويجب الإسراع في علاجها، وإيجاد الحلول المناسبة لها، وتصف هذه الدراسات المراهق بأنه شخص غير متكيف لدوره الجديد في الحياة فهو مضطرب، وقلق ومتمرد وعنيد ومتردد وعنيف وعدواني، كل هذه الأحاسيس تسبب له المشاكل والمآسي التي تؤدي إلى عدم الرضا النفسي وعدم التمتع بالسعادة وعدم التوافق (بهادر ١٩٨٠). ،

ب ـ الاضطرابات النفسية الجسمية (السيكوسوماتية)

تعرف الاضطرابات السيكوسوماتية (Psychosomatic) في دائرة المعارف البريطانية بأنها الاستجابات الجسمية للضغوط الانفعالية، والتي تأخذ شكل اضطرابات جسمية مثل الربو وقرحة المعدة وضغط الدم والتهاب المفاصل وقرحة القولون وغيرها. (غازي والطيب ١٩٨٤).

ويعرف «ايزنك» (Eysenck, 1973) الاضطرابات السيكوسوماتية بأنها تشمل عدة معان ومن أهمها مايشير إلى عدد محدود من الاضطرابات ذات الصفات المعينة، والمعنى الثاني للفظ سيكوسوماتية يقصد به أسلوب كلي في ممارسة الطب وهو أقل شيوعا، والمعنى الثالث يعتبر المرض مشكلة ايكولوجية أي مشكلة في علاقة الفرد مع بيئته.

ويعرف «أحمد عكاشة» (١٩٧٣) الاضطرابات السيكوسوماتية بأنها اضطرابات عضوية يلعب فيها العامل الانفعالي دوراً هاماً وأساسياً وعادة ما يكون ذلك من خلال الجهاز العصبي اللاإرادي. اما تعريف «مليكه» (١٩٧٧) فيرى أن الخوف من التعبير بالفعل الظاهر عن الدفعات الانفعالية في غياب ضوابط ذاتيه ملائمة ودون جهد يسبب توترات يصعب التحفف منها، ومن ثم فهي تؤدي إلى المعاناة الانفعالية التي توجد في الاضطرابات السيكوسوماتية ويرى الخولي (١٩٧٦) أن الاصطلاح سيكوسوماتي يقصد به ما يختص بالنفس والجسم معا، وبالعلاقة المتبادلة بينهما والطب السيكوسوماتي هو الطب الذي ينظر إلى الشخص من الزاويتين الجسمية والنفسية في وقت واحد، ويبين العلاقة العلمية بين المظاهر والأعراض النفسية والجسمية، ويبحث بنوع خاص عن العوامل النفسية المسببة للاضطرابات العضوية.

ومن العرض السابق لبعض التعريفات للاضطرابات السيكو سوماتية (النفسية الجسمية) نجد أن أغلب التعريفات تتفق على أبعاد مهمة مشتركة في التعريف وهو وجود التأثير المتبادل بين النفس والجسم وعدم الفصل بينهما ووجود اضطراب انفعالي سابق للمرض (مثل قرحة المعدة).

هدف البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة الاضطرابات النفسية الجسمية (السيكوسوماتية) التي عانى منها

المراهقون الكويتيون سواء أكانوا في داخل الكويت أم خارجها أثناء الاحتلال العراقي للكويت، والذى خلف آثارا نفسية سلبية لدى قطاعات عريضة من المجتمع وبخاصة المراهقين.

كما يهدف هذا البحث إلى دراسة هذه الاضطرابات بين المراهقين، وفحص الفروق بين الجنسين في هذه الاضطرابات. وذلك لوضع خطة علاجية متكاملة ومكثفة للحالات التي تأثرت من جراء العدوان العراقي الغاشم (وما تبع ذلك من عنف وتدمير وإحراق واستشهاد الأحباء وأسر آخرين) تمهيدا لوضع برنامج مكثف لتوفير الرعاية النفسية ولتحقيق الصحة النفسية لهم، وتصحيح ما أصابهم من آثار سلبية واضطرابات نفسية حتى يتسنى لهم أن يعيشوا حياة سعيده مستقرة خالية من مشاعر القلق والتوتر ومليئة بمشاعر الرضا والإقبال على الحياة والعمل الجاد والإنتاج السليم، وبخاصة وأن هناك توجها عاما في دولة الكويت حول الاهتمام بالآثار السلبية للغزو العراقي والكشف عنها وإيجاد الحلول المناسبة لمعالجة الآثار الناجمة عن الغزو العراقي.

فروض البحث

١ ـ إن الغزو العراقي أدى إلى اضطربات نفسية جسميه (السيكوماتية) لدى المراهقين الكويتيين.
٢ ـ تختلف هذه الاضطرابات بين المراهقين الكويتيين الصامدين (ممن كانوا داخل الكويت حتى التحرير) أو النازحين (كانوا بالداخل ثم خرجوا أو كانو خارج الكويت) أثناء الغزو العراقي.
٣ ـ توجد فروق بين الجنسين من المراهقين من حيث هذه الاضطربات النفسية الجسمية.

منهج البحث

أ ـ العينة: تكونت عينة البحث من ٤٥٠ طالباً وطالبة (٢٤٦ ذكوراً و ٢٠٣ إناث) وهم من المراهقين الذين يدرسون في المدارس الثانوية في دولة الكويت (سواء أكانوا يتبعون نظام المقررات أم نظام السنوات). وقد سحبت هذه العينة من مناطق عديدة، روعي فيها أن تمثل جميع محافظات الكويت. وكان متوسط أعمار الذكور ١٦,٣٦ وانحراف معياري ٢,٤٤ ومتوسط أعمار الإناث ١٥,٩٣ وانحراف معياري ٢,٥٩. ووصلت قيمة «ت» بين متوسط أعمار الذكور والإناث إلى ١,٧٩ ومستوى دلالة ٠,٠٧ وهي ليست دالة إحصائيا. وقسمت هذه العينة إلى ثلاثة أقسام كما يلي:

١ ـ المجموعة التي كانت في الخارج قبل الغزو العراقي وظلت في الخارج حتى التحرير (النازحون كليا)

٢ ـ المجموعة التي كانت في داخل الكويت ثم خرجت منها أثناء الاحتلال (النازحون جزئيا)
٢ ـ المجموعة التي كانت في داخل الكويت وظلت طوال الغزو وحتى التحرير (الصامدون)

أدوات البحث

استخدمت الأدوات الآتية :

١ ـ استمارة لجمع البيانات الاجتماعية العامة، وتضم مجموعة أسئلة عن الجنس والديانة والحالة الاجتماعية وأين كان الفرد وقت حدوث الغزو (خارج الكويت ـ داخل ثم خرج ـ داخل حتى التحرير).

٢ ـ استبيان معاناة الفرد أثناء الغزو . وتضم سبعة أسئلة تهدف إلى أن تستكشف مدى معاناة المراهقين نتيجة لتعرضهم المباشر أو غير المباشر للعنف والاعتداء والاعتقال أو السرقة أو التدمير أو حرق المنازل أو الاستشهاد أو الأسر. ويجيب أفراد العينة عن هذه الأسئلة بنعم أو لا. وتعطى إجابة «نعم» درجة واحدة، وتعطى إجابة «لا» درجة صفر. والدرجة القصوى هي٧، وتعني الدرجة العليا أن الفرد قد عانى أثناء الغزو، وتعرض للعنف بشدة. والدرجة الدنيا هي صفر وتعني أن الفرد لم يعان من الضغوط والآثار النفسية السلبية.

٣ ـ مجموعة أسئلة تدل على مدى قبول أفراد العينة للاستشارة والعلاج النفسي، ويجيب أفراد العينة عن هذه الأسئلة بنعم أو لا. وتعطى أيضا إجابة «نعم» درجة واحدة، وتعطى إجابة «لا» درجة صفر، والدرجة القصوى هي ٣ وهي مجموع الإجابة بنعم وتعني أن الفرد في حاجة ماسة للاستشارة والعلاج النفسي، والدرجة الدنيا هي صفر وتعني أنه لا يحتاج لمثل هذه الاستشارة النفسية.

٤ ـ قائمة الاضطرابات النفسية الجسمية والتي قام بتعريبها الدكتور جاسم الخواجة عام ١٩٨٨ ، (Ohio University, 1983) . وتضمن ١٨ بنداً، ويجيب عنها أفراد العينة ثلاث مرات. المرة الأولى إذا كان يشكو من هذه الاضطرابات قبل الغزو، والمرة الثانية إذا كان يشكو من هذه الاضطرابات أثناء الغزو، والمرة الثالثة إذا ظلت شكواه مستمرة من هذه الاضطرابات بعد انتهاء الغزو. ويجاب عن بنود المقياس على أساس الاختيار بين أربع نقاط وهي كالتالي :

أ ـ أربع درجات للإجابة (دائماً)
ب ـ ثلاث درجات للإجابة (أحياناً)
ج ـ درجتان للإجابة (نادراً)
د ـ درجة واحدة للإجابة (أبداً)

وقد أجريت دراسة للتحقق من ثبات القائمة على نفس عينة المراهقين الكويتيين، انظر جدول رقم (١) وقد حسب معامل الثبات بطريقتين التجزئة النصفية لسبيرمان ومعامل آلفا.

جدول (١): معاملات الثبات لقائمة الاضطرابات النفسية الجسمية

فترات الاضطرابات	معامل الثبات لسبيرمان	معامل آلفا ALPHA
قبل الغزو	٠,٨٥	٠,٨١
أثناء الغزو	٠,٨٩	٠,٨٨
بعد الغزو	٠,٨٥	٠,٨٥

ويتضح من الجدول رقم (١) أن معامل سبيرمان ومعامل آلفا لقائمة الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث مرتفع، مما يدل على ثبات هذه المقياس.

كما استخدم مقياس القلق (كاظم ١٩٨٥) ومقياس مركز التحكم (الخواجة ١٩٨٨) للتحقق من صدق مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية (انظر جدول ٩). وقد ظهر أن معامل الارتباط بين هذا المقياس للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو)، ومقياس سمة القلق هو على التوالي ٠,٢٤، ٠,١٩، ٠,١٧. بينما كان معامل الارتباط بين هذا المقياس ومقياس مركز التحكم على التوالي٠,٢، ٠,٠٩، ٠,١١. وجميع هذه المعاملات ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠١، ٠,٠٠١

٥ ــ مقياس مركز التحكم (الداخلي ـ الخارجي) Internal-external locus of control (read and ware, 1971) وقام بتعريبه الدكتور جاسم الخواجة عام ١٩٨٨ وهو يتضمن ثلاثة مقاييس فرعية

أ ـ ضبط النظام الاجتماعي Social system control

ب ـ ضبط النفس Self control

ج ـ الإيمان بالقضاء والقدر Fatalizm

وقد طبق الدكتور الخواجة عام ١٩٨٨ هذا المقياس على ٣٦٣ طالبا وطالبة من جامعة

الكويت حيث كان متوسط أعمار الذكور ٢٠,٣٨ وانحراف معياري ٣,٥٦-ومتوسط أعمار الإناث ١٩,٧٨ وانحراف معياري ٢,٠٩ . وكان معامل الثبات آلفا ٠,٦٧ *.

وقد أجريت دراسة للتحقق من ثبات هذا المقياس على نفس أفراد عينة هذا البحث ، وقد حسب معامل الثبات بطريقتين هما : التجزئة النصفية ووصل إلى ٠,٥٦ ومعامل آلفاوكان : ٠,٤٤ ويتضح من ذلك أن معامل الثبات لمقياس مركز التحكم عاليا مما يدل على ثبات هذا المقياس على عينة هذا البحث . واعتمد صدق مقياس التحكم على محك المقاييس الفرعية ، حيث كان معامل الارتباط بين هذه المقاييس ومقياس مركز التحكم يتراوح بين ٠,٠٨٦ ، ٠,٢٧١ ومستوى دلالة ٠,٠٠

٦ ـمقياس سمة القلق (س ـ ٢) Spielberge corsush, and Lushene, 1970 , وقد قامت الدكتورة أمينة كاظم عام ١٩٨٥ بتعريبه وتطبيقه على عينة كبيرة من طلبة وطالبات جامعة الكويت . واستخدمت طريقة إعادة الاختبار (وطرق أخرى) لحساب معامل ثبات مقياس سمة القلق، وقد تراوحت قيمته بين ٠,٦٠ ، ٠,٨١٢ . واستخدمت كذلك طريقة التجزئة النصفية لحساب معامل الثبات لسبيرمان وكان ٠,٧٨ ، واعتمد صدق هذا المقياس على محكين خارجيين هما : مقياس القلق (Ipat) لكاتل وشاير وترجمته الدكتورة سمية فهمي ، ومقياس تيلور للقلق الصريح (Tmas) الذي نقله الدكتور غالي للبيئة الكويتية . وكانت معاملات الارتباط مع مقياس سمة القلق (Ipat) تتراوح بين ٠,٦٥ ، ٠,٧٣ وكان معامل الارتباط مع مقياس القلق ومقياس القلق الصريح (Tmas) يتراوح بين ٠,٤٦ ، ٠,٦٠ .

وقد أجريت دراسة للتحقق من ثبات هذا المقياس لنفس عينة هذا البحث من المراهقين الكويتيين ، باستخدام طريقتين : هما طريقة التجزئة النصفية لسبيرمان ووصل إلى ٠,٨٥ ومعامل آلفا وكان : ٠,٧٦ مما يدل على أن هذا المقياس ثابت بدرجة عالية على هذه العينة ، ويتفق مع النتائج التي توصلت إليها د. أمينة كاظم (١٩٨٥).

النتائج

نعرض فيما يلي النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة يوضح جدول (٢) المتوسطات والانحراف المعياري لمتغيرات هذه الدراسة .

---

* اشكر الدكتور جاسم الخواجة على السماح باستخدام مقياس مركز التحكم ومقياس الاضطرابات النفسية الجسمية .

جدول (٢) نتائج المتوسطات (م)، والانحرافات المعيارية (ع) لمتغيرات البحث

المتغيرات	م	ع
السن ذكور	١٦,٣٦	٢,٤٤
إناث	١٥,٩٣	٢,٥٩
الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث		
قبل الغزو	٣٩,٢٨	١١,٩٠٨
أثناء الغزو	٤١,٠٢	١٤,٤٣٥
بعد الغزو	٣٦,٩٦	١٢,٤٦
استبيان المعاناة من الغزو	٢,٤٣	١,٥٣٧
الحاجة إلى العلاج النفسي	١,٦٤٢	٠,٧٢٧
مقياس مركز التحكم (الداخلي والخارجي)	٤٧,٧١٢	٤,٣٣١
مقياس سمة القلق	٤٧,٥٤١	١٠,٥٨٢

استخدام تحليل التباين Anova لمعرفة الفروق بين المتغيرات التابعة لمقياس الاضطرابات النفسية الجسمية للفترات الثلاث (قبل الغزو وأثناء الغزو وبعد الغزو) للعينة الكلية «ن» = ٤٥٠ وكانت قيمة «ف» ٢٥,٧١ وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٠ ومتوسطات مقياس الاضطرابات في الفترات الثلاث (قبل، وأثناء، وبعد الغزو) هي كالآتي قبل الغزو ٣٩,٢٨ وأثناء الغزو ٤١,٠٢ وبعد الغزو ٣٦,٩٦.

جدول رقم (٣): نتائج اختبار «ت» للفروق بين المتوسطات في قائمة الاضطرابات النفسية الجسمية للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو) (ن=٤٥٠).

الحالة	متوسطات الاضطرابات	قيمة ت T	الدلالة
قبل الغزو	٣٩,٢٨		
أثناء الغزو	٤١,٠٢	٢,٨٢	٠,٠٠٥
قبل الغزو	٣٩,٢٨		
بعد الغزو	٣٦,٩٦	٤,٨	٠,٠٠١
أثناء الغزو	٤١,٠٢		
بعد الغزو	٣٩,٩٦	٦,٨	٠,٠٠١

يتضح من جدول (٣) أن قيم «ت» تدل على وجود فروق دالة إحصائيا بين متوسطات قائمة الاضطرابات النفسية الجسمية في المقارنات الثلاث جميعا (قبل، أثناء، بعد الغزو).

جدول (٤) متوسطات قائمة الاضطرابات النفسية الجسمية التي عانى منها المراهقون في ثلاثة أوضاع (خارج الكويت، داخل الكويت ثم خرجوا، داخل الكويت ثم ظلوا داخلها حتى التحرير) للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو). *

الإقامة	ن		متوسطات قائمة الاضطرابات النفسية الجسمية	
		قبل الغزو	أثناء الغزو	بعد الغزو
خارج الكويت	١١٢	٢٩,٧٦	٣٩,٤٥	٢٧,١٥
أقاموا في داخل الكويت ثم خارجها	١١٨	٤,٥٥	٤٢,٠٣	٣٨,١٦
في الداخل حتى التحرير	٢١١	٣٨,٥٨	٤١,٣٨	٣٦,٣
المجموع	٤٤١	٣٩,٢٨	٤١,٠٢	٣٦,٩٦
قيمة ف		١,٤٣	٠,٦٢	٠,٩٦٠
مستوى الدلالة		٠,٢٣	٠,٦	٠,٥٥

ويتضح من جدول (٤) أنه ليست هناك فروق ذات دلالة إحصائية في الاضطرابات النفسية الجسمية بين المراهقين سواء ممن كانوا خارج الكويت أو داخل الكويت ثم خارجها أو ظلوا داخل الكويت حتى التحرير للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو)

جدول (٥) متوسطات الاضطرابات النفسية الجسمية للجنسين (الذكور، و الإناث) سواء أكانوا خارج الكويت أو في داخل الكويت ثم خارجها أو في الداخل حتى التحرير للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو). *

الإقامة	الجنس	ن	متوسطات الاضطرابات النفسية الجسمية		
			قبل	أثناء	بعد
خارج الكويت	ذكور	٦٨	٣٩,٠٢	٣٦,٧٧	٣٦,٢٥
	إناث	٤٤	٤٠,٩١	٤٣,٨٢	٣٨,٤٧
داخل الكويت ثم خارجها	ذكور	٥٥	٣٩,٨٣	٣٩,٠٣	٣٥,٦٣
	إناث	٦٣	٤١,١٧	٤٤,٦٥	٤٠,٣٦
داخل الكويت حتى التحرير	ذكور	١٠٨	٣٧,٧٥	٤١	٣٥,٢٦
	إناث	٩٢	٣٩,٧٨		٣٧,٧٥
المجموع	٤٤١	٤٤١	٣٨,٢٨	٤١,٠٢	٣٦,٩٦
قيمة ف			١,٤٣	٠,٦٢	٠,٦٩
مستوى الدلالة			٠,٢٣	٠,٦	٠,٥٨

يتضح من الجدول (٥) أنه ليست هناك فروق ذات دلالة إحصائية في الاضطرابات النفسية الجسمية للفترات الثلاث بين الجنسين بالنسبة للإقامة سواء أكانوا خارج الكويت أو في داخل الكويت ثم خارجها أو ظلوا داخل الكويت حتى التحرير كما أوضحت نسبة «ف» للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو).

* هناك عشرة مفحوصين لم يحدد مكانهم

جدول (٦) نتائج تحليل التباين في اتجاه واحد (Oneway) بين الجنسين على مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية

الجنس	عدد العينة	متوسط الاضطرابات النفسية الجسمية		
		قبل	أثناء	بعد
ذكور	٢٤٦	٣٨,٤٧	٣٩,٤٧	٣٥,٦
إناث	٢٠٣	٤٠,٣٩	٤٢,٨	٣٨,٥٩
المجموع	٤٤٩	٣٩,٢٨	٤١,٠٢	٣٦,٩٦
نسبة ف		٢,٨٢	٦,٠١	٦,٤٦
مستوى الدلالة		٠,٠٣	٠,٠١	٠,٠١

ويوضح جدول (٦) أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين الجنسين في الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو)، فنلاحظ نسبة «ف»قبل الغزو ٢,٨٢ وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٣ ونسبة «ف»أثناء الغزو ٦,٠١ دالة عند مستوى ٠,٠١ ونسبة «ف»أثناء الغزو ٦,٤٦ وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠١

جدول (٧) قيم اختبار «ت» بين الجنسين في الاضطرابات النفسية الجسمية للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو)

فترات الاضطرابات النفسية الجسمية	الجنس	ن	المتوسط	قيمة ت	مستوى الدلالة
قبل الغزو	ذكور إناث	٢٤٦ ٢٠٣	٣٨,٤٧ ٤٠,٣٦	١,٦٧	٠,٠٨٩
أثناء الغزو	ذكور إناث	٢٤٦ ٢٠٣	٣٩,٤٧ ٤٢,٨١	٢,٤٨	٠,٠١٣
بعد الغزو	ذكور إناث	٢٤٦ ٢٠٣	٣٥,٦ ٣٨,٥٩	٢,٥٤	٠,٠١٢

يتضح من جدول (٧) أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين المراهقين الذكور والإناث في الاضطرابات النفسية الجسمية للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو)ويتضح من ملاحظة متوسطات الاضطرابات أن الإناث أكثر اضطرابا في الفترات الثلاث من الذكور.

جدول (٨) تحليل التباين في اتجاه واحد (Oneway) بين المراهقين من الجنسين على متغيري المعاناة من العدوان العراقي ومدى الحاجة إلى الاستشارة والعلاج النفسي.

الجنس	العدد	متوسط درجة معاناة من جراء العدوان العراقي	متوسط مدى الحاجة إلى العلاج
ذكور	٢٤٦	٢,٥١	٠,٦
إناث	٢٠٣	٢,٣٣	٠,٦٩
نسبة ف		١,٦٣	١,٦
مستوى الدلالة		٠,٠٢	٠,٢

ويتضح من جدول (٨) أن نسبة «ف» في متغير المعاناة من العدوان العراقي لدى الجنسين ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٢ وهذا يدل على وجود فروق بين الجنسين من المراهقين في المعاناة من جراء العدوان العراقي فنجد أن متوسط الذكور أكبر من متوسط الإناث . ومن ناحية أخرى فإن نسبة «ف» في متغير الحاجة إلى العلاج النفسي ليست ذات دلالة إحصائية . وهذا يدل على عدم وجود فروق بين الجنسين في متغير الحاجة إلى العلاج النفسي .

جدول (٩) معاملات الارتباط بين مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية للفترات الثلاث (قبل ، أثناء ، بعد الغزو) ومقياس كل من مركز التحكم وسمة القلق (ن=٤٥١)

فترات الاضطرابات النفسية الجسمية	مقياس مركز التحكم	مقياس القلق
قبل الغزو	٠,٢٠**	٠,٢٤**
أثناء الغزو	٠,٠٩	٠,١٩**
بعد الغزو	٠,١١*	٠,١٧**

* دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠١ .
** دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٠١

يتضح من جدول رقم (٩) أن معاملات الارتباط بين مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث (قبل ، بعد ، أثناء الغزو) ومقياس مركز التحكم مرتفع نسبيا مما يدل على صدق مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية . وأن معاملات الارتباط بين مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث ومقياس سمة القلق مرتفع ويدل هذا أيضا على صدق مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية المستخدم في هذه الدراسة .

مناقشة النتائج

يتضح من نتائج هذا البحث أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية في الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو) للعينة الكلية حيث تشير نتائج المتوسطات أن هناك ازديادا في ظهور هذه الاضطرابات أثناء الغزو عنها قبل الغزو العراقي، وهذا يدل على معاناة المراهقين الكويتيين من الضغوط النفسية والقلق والتوتر والاضطرابات النفسية والصدمات العنيفة أثناء الاحتلال العراقي، مما ساعد على ازدياد هذه الاضطرابات النفسية الجسمية. ونلاحظ كذلك انخفاض هذه الاضطرابات النفسية الجسمية بعد الغزو العراقي عنها قبل الغزو. وقد يرجع ذلك إلى تكيف أفراد العينة بعد الغزو وطرد المعتدين عن أرض الوطن، أو لتعرضهم إلى صدمات أعنف وأشد أيام الغزو العراقي مما جعل ما يشعرون به الآن أهون عليهم مما كانوا يشعرون به إبان الاحتلال. أو قد تكون فرحة النصر وطرد المعتدين وتحرير الكويت قد طغت على تلك الاضطرابات وجعلت ما يشعرون به من اضطرابات خلال فترة ما بعد الحرب قليلةالأهمية ودون مركز الاهتمام.

كما كشفت الدراسة أنه ليست هناك فروق جوهرية بين أفراد العينة في الاضطرابات النفسية الجسمية سواء أكانوا خارج الكويت أو داخلها ثم خرجوا أو داخل الكويت حتى التحرير. بمعنى أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الصامدين داخل الكويت أو النازحين خارج الكويت أثناء الاحتلال العراقي. وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن الضغوط النفسية التي خلفها العدوان العراقي كانت تؤثر سلبيا بشكل متساو تقريبا على كل أفراد العينة بغض النظر عن مكان الإقامة. فنجد مثلا أن الصامدين شعروا بقلق مستمر، وتهديد دائم، وشعور بانعدام الأمن رغم أهمية دافع الأمان لكل إنسان، هذا فضلا عن مشكلات تأمين الغذاء له ولأسرته، ونقص المال والحاجات الأساسية للعيش في سلام. كذلك غدر المعتدي وتعدد طرق الاحتيال التي يسلكها وغير ذلك. فقد كانوا يعيشون داخل الكويت في حالة قلق وخوف وغضب شديد وكانت الإحباطات التي يواجهونها بشكل مستمر ومتكرر مما أدى إلى شعورهم بالعجز بشكل يومي. ونجد كذلك من بين المعاناة التي عاناها الصامدون تعطل جميع المؤسسات الحكومية والعصيان المدني ضد الاحتلال العراقي، مما أدى إلى وضعهم في ظروف تثير الفزع المستمر بسبب مداهمات العدو بصورة مفاجئة ودون سابق إنذار وبشكل مستمر، وتفتيش البيوت بطريقة همجية وغير حضارية، وكذلك ملاحقة الشباب واعتقالهم أينما كانوا أو أسرهم وممارسة أبشع أنواع التعذيب معهم سواء أكان جسديا أم نفسيا. مما نشأ عنه جو تشيع فيه الرهبة، والخوف من المستقبل الغامض.

أما النازحون جزئيا أو كليا من أفراد العينة فنجد أنهم أيضا قد عانوا كثيرا من جراء العدوان

العراقي ، فهم أيضا كانوا في قلق شديد ومستمر وخوف دائم وإحباط كبير بسبب وجودهم بعيدا عن أرض الوطن ، فقد عانوا من غموض المستقبل ، وقد تتردد في أذهانهم أسئلة كثيرة ليس لها جواب واضح ، مما يؤدي إلى الشعور بالإحباط . ومن هذه الاسئلة . إلى أين يذهبون؟ وكيف يعيشون ؟ وما المصادر التي تكفل لهم الرزق؟ كل هذه الأسئلة . كانت تدور في أذهان من كانوا خارج الكويت دون وجود جواب شاف لها مما سبب كثيرا من القلق والتوتر النفسي والضغوط النفسية . فقد كانوا يعانون من الخوف الشديد بسبب ما يحدث لذويهم وممتلكاتهم وبسبب النزوح الاضطراري المفاجيء والابتعاد عن الأهل والأقرباء وعن حاجياتهم والأماكن المألوفة لهم . كل ذلك أدى إلى تولد شعور عدم الأمان مما أدى بدوره إلى الشعور بقلق الانفصال عن الأهل والخوف من المستقبل ومشاكل النوم وغالبا ما يشعرون كذلك بالحزن والشوق والحنين إلى أرض الوطن ، ورفض البيئة الجديدة وهذه حالة نموذجية للاغتراب النفسي والبدني . كما أن هناك أيضا قلقا وشكا في كفاية المصادر المعيشية ومدى استمراريتها وكذلك من تشتت الأسرة في أماكن متفرقة نتيجة النزوح المفاجيء والغير متوقع . كل ذلك يمكن أن يؤدي إلى الشعور بالقلق والتوتر والاضطراب النفسي والاضطرابات النفسية الجسمية لمن كانوا خارج الكويت .

ويبدو أن كلا من الصامدين والنازحين جزئيا أو كليا كانوا يعانون نفس المستوى تقريبا من القلق والضيق وانعدام الأمان والشعور بالإحباط والغضب الشديد مما أدى إلى تلاشي الفروق بينهم في مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية (انظر جدول ٤) . وهذا يتفق مع ما توصل إليه كل من صايغ (Space Saigh 1985) والمشعان (تحت النشر)

كما كشفت نتائج هذه الرسالة أنه لا توجد أيضا فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين من الجنسين سواء أكانوا من الصامدين أو النازحين كليا أو جزئيا على مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث (قبل ، أثناء ، وبعد الغزو) وهذا يدل على أن الضغوط النفسية والآثار السلبية التي كان يعاني منها المراهقون الذكور والإناث سواء كانوا في خارج أم داخل الكويت أثناء الاحتلال العراقي كانت تؤثر عليهم بشكل متساو . فلم يختلف ذكور وإناث المراهقين في الاضطرابات النفسية الجسمية على أساس متغير الصمود أو النزوح الكلي أو الجزئي (انظر جدول ٥) وربما يعود ذلك إلى تساوي مشاعر المعاناة والقلق والضغوط النفسية التي عانى منها ذكور وإناث المراهقين وبنفس الدرجة سواء أكانوا خارج الكويت أم داخلها .

أما على أساس متغير الجنس فقد دلت هذه الدراسة على أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية

بين الذكور والإناث على مقياس الاضطرابات النفسية الجسمية ومن ملاحظة المتوسطات يتضح أن الإناث كن أكثر اضطرابا من الذكور في الفترات الثلاث، كما توضحه نسبة «ف» (انظر جدول ٦) وهذا يتفق مع الدراسات التي تؤكد أن الإناث لهم متوسطات أعلى من متوسطات الذكور بالنسبة للاضطرابات النفسية(انظر تركي ١٩٧٦، المشعان (تحت النشر)، مقصود ١٩٩١، Saigh, 1985 Eysenck, 1969 Thiriot, 1988 كما تؤكده نتائج قيم «ت» (انظر جدول ٧) أن هناك فروقا بين المراهقين من الجنسين في الاضطرابات النفسية الجسمية في الفترات الثلاث (قبل وأثناء وبعد الغزو).

كما كشفت هذه الدراسة أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين الجنسين من المراهقين بالنسبة للمعاناة من العدوان العراقي كما يتضح ذلك من ملاحظات جدول رقم (٨) وحيث يتبين أن متوسط الذكور أعلى من متوسط الإناث وذلك قد يرجع إلى تعرض الذكور أكثر للقوات العراقية الغازية حيث كانت تتعرض لهم أكثر وتعتقلهم وتعذبهم وترغمهم على الانخراط في صفوف الجيش العراقي مما أدى إلى الشعور بالقلق والضغوط النفسية المستمرة بسبب انعدام الأمن وتوقع الاعتقال في أي لحظة . وهذا ايضا يتفق مع دراسة المشعان (تحت النشر) . كذلك يشير جدول رقم (٨)إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين الجنسين من المراهقين على الأسئلة الخاصة بالحاجة إلى الاستشارة والعلاج النفسي. وقد يرجع ذلك إلى اعتقادهم بعدم الحاجة لمثل هذا العلاج النفسي بالنسبة للجنسين أو عدم الاعتقاد في فاعليته في علاج مثل هذه الاضطرابات.

وتشير هذه الدراسة إلى ارتباط قوي بين مقياس سمة القلق وبين مقياس الاضطرابات النفسية الجسيمة للفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو) أنظر جدول (٩). وهذا يدل على أن محور الشعور بالاضطرابات النفسية الجسيمة هو القلق، وأن الغزو العراقي قد سبب القلق والتوتر الشديدين للمراهقين الكويتيين، مما أدى إلى شعورهم بهذه الاضطرابات وهذا يتفق مع دراسات عديدة انظر :
(النابلسي ١٩٧٨، المشعان (تحت النشر) (Bloom 1991, Lewin 1982, Stewart 1988, Newman 1987, Saigh 1985) أما من حيث مقياس مركز التحكم (الداخلي الخارجي) فقد كان معامل الارتباط دالا للفترة التي كانت قبل الغزو فقط، أما فترة أثناء الغزو فلم يصل الارتباط إلى الدلالة الإحصائية، ولم يكن معامل الارتباط لفترة بعد الغزو ذا دلالة إحصائية عالية وقد يرجع ذلك إلى أن مقياس مركز التحكم (الداخلي الخارجي) لم يكن يقيس مستوى القلق والتوتر بشكل مباشر أو أنه لم يوضع من أجل تطبيقه على المراهقين.

يتضح مما سبق أن العدوان العراقي الغاشم على دولة الكويت قد خلف آثاراً نفسية سلبية على المراهقين الكويتيين. حيث أدى إلى الشعور بالاضطرابات النفسية الجسمية لديهم. ويرجع ذلك إلى عنف الصدمة وشدتها وعنصر المفاجأة فيها على المراهقين سواء كانوا خارج الكويت أو داخلها.

وإن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين المراهقين من الجنسين في الاضطرابات النفسية الجسمية حيث أن متوسط الإناث أعلى من متوسط الذكور في الفترات الثلاث (قبل، أثناء، بعد الغزو) وأن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين المراهقين من الجنسين من حيث المعاناة النفسية من جراء الغزو العراقي حيث نجد أن للذكور متوسطات أعلى من متوسطات الإناث، على حين لم تظهر فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين من الجنسين بالنسبة لمدى حاجتهم إلى الاستشارة والعلاج النفسي. وبالنسبة للإقامة خارج الكويت أم داخلها.

وقد اتضح من النتائج أن الفرض الأول قد تحقق وهو أن الغزو العراقي قد أدى إلى اضطرابات نفسية جسمية لدى المراهقين الكويتيين وأن الفرض الثاني لم يتحقق وهو اختلاف الاضطرابات النفسية بين الصامدين والنازحين مما يعني أن متغير الصمود والنزوح لا أثر له.

كذلك نجد أن الفرض الثالث قد تحقق أيضا ويوجد اختلاف بين الجنسين من الذكور والإناث المراهقين في الاضطرابات النفسية الجسمية وهذا يعني أن متغير الجنس كان له تأثير.

المراجع العربية

(١) أحمد عكاشة ـ علم النفس الفسيولوجي. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٥ .

(٢) أحمد عكاشة ـ الطب النفسي المعاصر. الطبعة الرابعة مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٨٠ .

(٣) أميرة عبدالعزيز الديب ـ ردود الفعل المتأخر لصدمة الحرب الإكلينيكية دراسات ابريل ١٩٩٢ .

(٤) أميرة عبدالعزيز الديب ـ حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسية والإجتماعية للطلبة الكويتيين ـ الجمعية المصرية للدراسات النفسية ـ بحوث المؤتمر السابع في مصر ١٩٩٠ .

(٥) أمينة كاظم ـ قائمة حالة رسمة القلق، دار القلم للنشر والتوزيع ١٩٨٥ .

(٦) إدارة الخدمة الاجتماعية، وزارة التربية ـ الآثار الاجتماعية والنفسية للغزو العراقي على الطالب الكويتي، مركز المعلومات التربوي، وزارة التربية، إدارة شؤون الطباعة ١٩٩١ .

(٧) زين العابدين درويش ـ أثر العدوان العراقي على الحالة النفسية للشباب الكويتي دراسة ميدانية على عينات من الطلبة المقيمين في مصر ـ المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد ٢٩ السنة العاشرة (١٩٩٢) .

(٨) سعدية بهادر. في سيكيولوجية المراهقة. دار البحوث العلمية ١٩٨٠ .

(٩) صلاح عبدالمتعال وآخرون ـ المشكلات النفسية والاجتماعية في مجال التربية ـ بحث استطلاعي عن مقارنة المركز التربوي الكويتي ـ القاهرة ١٩٩١ .

(١٠) عبدالمنصف غازي ومحمد عبدالظاهر الطيب ـ الأمراض النفسية الجسمية (السيكوسوماتية) ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٤ .

(١١) عويد المشعان ـ الشخصية وبعض اضطراباتها لدى طلاب جامعة الكويت أثناء العدوان العراقي، دارسة للفروق بين الصامدين والنازحين وبين الجنسين، مجلة عالم الفكر العربي ١٩٩٣ (تحت النشر) .

(١٢) لويس كامل مليكة ـ علم النفس الأكلنيكي، الجزء الأول، الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٧ .

(١٣) محمد أحمد النابلسي ـ الأمراض النفسية وعلاجها، دراسة في مجتمع الحرب اللبنانية، مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٧ .

(١٤) محمد عبدالعليم موسى ـ الآثار التربوية لغزو الكويت على العالم الإسلامي. بحث مقدم إلى مؤتمر آثار مشكلة الخليج الاقتصادية والاجتماعية والتربوية ـ جامعة الأزهر القاهرة ١٩٩٩ .

(١٥) محمد عبد الجوزو ـ الآثار النفسية لغزو الكويت ـ جريدة الفجر الجديد الكويت ١٢/٨/ ١٩٩١ .

(١٦) مصطفى تركي ـ الفروق بين الذكور والإناث من الكويتيين في بعض سمات الشخصية ـ مجلة كلية الآداب والتربية ـ ديسمبر الكويت ١٩٨٠

(١٧) منى سليم مقصود ـ أساليب مساعدة الأطفال والمراهقين، التأثر بالأزمة والحرب دليل الوالدين والمدرسين ـ وزارة الصحة ـ الكويت ١٩٩١ .

(١٨) هادي مختار ـ الآثار الاجتماعية والنفسية للغزو العراقي على الكويت ـ جريدة الوطن ـ الكويت ٢٢/١١/١٩٩١ .

المراجع الأجنبية

(1) AL-KHAWAJ. J.M. PSYCHOSOCAIL CARRELATIONAL OF ALIENATION IN KUWAIT STUDENTS. THESIS SUBMITTED FOR THE DEGREE OF P.H.D. DEPERT. OF PSY CHSCHOLOGY. UNIVERSITY OF SURRY 1988.

(2) BEARDSLESS, W. AND MACK, J. THE IMPACT ON CHILDERN AND ADOLESCENTS OF NUCLEAR DEVELOPMENTS. REPORT OF AMERICAN PSYOHOLOGICAL ASSOCIATION TASK FORCE # 20. WASHINGTON D.C. AMERICAN PSYCHOLOGICAL ASSOCIATION 1982.

(3) BLOOM, S.L. THE GULF WAR AS ADOLOLESCENT CRISIS JOURNAL OF PSYCHOHISTO-RY, 1991, VOL. 19, 89-96.

(4) EYSENCK, H.J. AND EYSENCK, S. PERSONALITY STRUCTURE AND MEASUREMANT ROUTELEDGE AND KAGAN PAULS LONDON 1969.

(5) GOLDBERG, S. ETEL. THINKING ABOUT THE THREAT OF NUCLEAR WAR: RELEVANCE TO MENTAL HEALTH. AMERICAN JOURNAL PSYCHOLOGY, 1985, 4 (3) 501 - 530.

(6) GOLDENRING, J.M. AND DOCTOR, R. CALIFORNIA ADOLESCENTS CONCERN ABOUT THE THREAT OF NUCLEAR WAR IN T. SOLANTAUS, E. CHIVIAM, AND M. VARTAN-YAN (EDS.), 1984.

(7) HODGKINSON, P. AND STEWART, M. COPING WITH CATASTROPHE. ROUTLODGE. KENT SOCAIL SERVICES LONDON 1991.

(8) LEWEN, ISAAC, ROFE, YACOV. THE EFFECT OF WAR ENVIRONMENT ON DREAMS AND SLEEP HABITS. SERIES IN CLINICAL & COMMUNITY PSYCHOLOGY: STRESS AND ANXIETY. 1982, 8, 67-79.

(9) NEWMAN, A. THE BOMB AND ADOLESCENT ANXIETY. HIGH SCHOOL JOURNAL, 1987, 71,1, 1-4.

(10) OHIO STATE UNIVERSITY. MANAGING STRESS BEFOR MANAGING YOU VOCATION-AL INSTRUCTIONAL MATERIALS LABORTORY. THE OHIO STATE UNIVERSITY 1983.

(11) REID, D.W.; WARE .E.E. MULTIDIMENSIONAL OF INTERNAL VERSUS EXTERNAL CON-TROL ADDITION OF THIRD DIMENSION AND NON DISTINCTION OF SELF VERSUS OTHER. CANADIAN JOURNAL OF BEHAVIORAL SCIENCES, 1974, 6, 131-142.

(12) SAIGH, P.A. ADOLESCENT FOLLOWING VARYING DEGRES OF WAR EXPOSURE. JOUR NAL OF CLINICAL CHILD PSYCHOLOGY, 1985, VOL 14, 41, 311-314.

(13) SAIGH, P.A. PRE - AND POSTINVASION ANXIETY IN LEBANON BEHAVIOR THERAPY, 1984, 15, 185-190.

(14) STEEL K. AND COX, T. PSYCHOLOGICAL AND PHYSIOLOGICAL REACTION TO VISU AL REPRESENTATION OF WAR. INTERNATIONAL JOURNAL OF PSYCHOPHYSIOLOGY, 1986, 3, 4, 237-252.

(15) STEWART, GORTH A. THE RELATIONSHIP BETWEEN ADOLESCENT'S CONCERN OVER THE THREAT OF NUCLEAR WAR AND SEVERAL PERSONALITY DIMENSIONS. CANA-DIAN JOURNAL OF BEHAVIORAL SCIENCE, 1988, 20, 4, 452-460.

(16) THEARLE, L. AND WEINREICH - HASTE, H. WAYS OF DEALING WITH THE NUCLEAR THREAT, 1986, 15, 1-3, 126-142.

(17) THERIOT, N.M. PSYCHOSOMATIC ILLNESS IN HISTORY. JOURNAL OF PSYCHOHISTORY, 1988, 15, 4, 461-480.

(18) WILSON, P./ THE IMPACT OF CULTURAL CHANGES ON THE INTERNAL EXPERIENCE OF THE ADOLESCENT. JOURNAL OF ADOLE SCENS 1988, 11, 4, 271-286.

(19) ZAK, ITAI. STABILITY AND CHANGE OF PERSONALITY TRAITS SERIES IN CLINICAL AND COMMUNITY PSYCHOLOGY. STRESS AND ANXIETY, 1982, 8, 93-96.





آفاق المعرفة

القصة في الكويت:
« صور وانعكاسات من لهيب الاحتلال حتى التحرير »

القصة في الكويت : « صور وانعكاسات من لهيب الاحتلال حتى التحرير . »

د. سليمان الشطي*

القصة صدى لمعاناة ، وقصص الاحتلال هي ، في حقيقتها ، تلك اللحظات من خبرات ومواجهات تشكلت في وضع جديد ، فمع كل احتلال تبدأ علاقات خاصة ، تنشأ بين من لم يسبق له أن كان محتلا وبين الاحتلال ، وتتشكل مرحلة جديدة من مثل هذه العلاقات وما يتحدر عنها ، وهي علاقة متعددة الأطراف ، لعل أساسها الوحيد والأساسي هو التنافر ، أو لنقل إن فيها الكثير من التنافر ، وهذا وضع طبيعي ، وفيها أيضا كمية من التقادح والألم بين بني الإنسان ، وفي الوقت نفسه قد يظهر لنا وجه إنساني ، وقد تطفو أحيانا ، ومضات نور وسط ظلمة لاحد لمداها .

إن عالما جديدا تشكل لحظة أن أصبح الإنسان ومجتمعه يعيشان ، فجأة ، وقد سقطت كل ضماناتهم الإنسانية ، فتم الدخول في دنيا غير معهودة ، وإن هذا العالم يتشكل ببطء ويختمر لتخرج منه إبداعات لاحصر لها . ولكن قبل هذا كله تأتي ردة الفعل والتجارب المباشرة التي يعانيها الفرد المحتل .

إن عناصر المواجهة في ظروف مثل هذه تتنوع وتتخذ أشكالا وتدخل في مناطق متنوعة وذات طوابع خاصة ، تبدأ من الواضح الجلي الذي يتمثل بالرفض المشروع والمضاد والمباشر في حركة مادية واضحة ، المقاومة المسلحة مثلا ، وصولا إلى الإحساس بالمعاناة اليومية والشخصية والتي تمثل الذيل الأول لهذا الاقتحام لحياة آمنة . وتتشعب هذه حتى تصل إلى الآثار الباقية والمتخلفة إثر أي احتلال ، حيث يترك الكثير من المآسي الفردية والجماعية .

القصة هي الملاذ الأول لمن يريد أن يتجاوز حد الحنجزة الصارخ وصولا إلى التتبع الدقيق والنافذ إلى دواخل الأفراد وهموم الجماعات ، وهي تعطي المساحة والفرصة والطريقة الممكنة لأن تنشر وتمس تلك المناطق العصية على التعبير المباشر ، وكلما امتد الزمن وترسبت واختمرت التجارب ازداد التعبير واتسع مدار البحث والعرض والتعمق للوصول إلى التجربة الإنسانية الشاملة بعد الفورة

الطبيعية للجرح النازف وقت الإصابة . ولن تخرج المحاولة القصصية في الكويت عن هذا الحد بعد التجربة المريرة التي مر بها الإنسان الكويتي ، وكان كتاب القصة وقودا لها وشهودا لما حدث أثناءها، ومع أننا لانزال في المرحلة الأولى فإن محاولة تلمس بعض جوانب هذه التجارب القصصية سيعطي انعكاسا وفرصا للبحث عن طبيعة القصة المواكبة للاحتلال والمعبرة عنه والمتتبعة آثاره .

لحظة بين مفترقين

الانتقال من السكينة إلى مفاجأة الرعب حالة غير عادية ، فهذه لحظة خلقت وضعا مأساويا وأقامت معادلات جديدة في النفس تتصادم مع ما كان ثابتا راسخا في نفوس كثيرة ، الانتقال من الهدوء ، بل من الأحلام ، إلى حالة الخوف والرعب وعدم الفهم وغياب كل ما يمكن فهمه ، هذا الانتقال ، تقف في المنتصف منه ، وما بين الحالين لحظة أو فترة زمنية يختل النظام فيها حين يتشكل وضع مأساوي وينفتح فم هوة قاتلة ، لذا تصبح تلك اللحظة فريدة في بابها موضوعا وشكلا ، من حيث مقدمتها ونتيجتها ، ومن حيث الفعل الذي تم فيها وحصاده المتوقع ، الآن أو فيما بعد فيها تم انعطاف مذهل جعل النهار ليلا والآمن خوفا والقرب ابتعادا ، في هذه اللحظة بدت الأفواه فاغرة، اندهاشا وعجبا ، في عشية الاحتلال ويومه الأول ،فكانت هذه اللحظة محطة اختزال واختزان لبدايات كل فعل قادم ،فهي تمثل حدا فاصلا . من أجل هذا ، أو بسببه ، اتجهت أكثر الأعمال الفنية إلى جعل هذه الفترة الزمنية هي نقطة البداية الأولى ، أو النقطة الطبيعية للبدء ومنها تنطلق الأحداث عودة إلى الوراء أو اندفاعا إلى الأمام ، ولكن قصة (الياسمين والمدافع) [1] لليلى محمد صالح جعلت منها إطارها الزمني الوحيد والأساسي ، لترصد من خلالها الانعطافة الكبيرة في الحال والأحوال والنفسيات ، وقد حددت لحظة الانعكاس هذه ، ابتداء ، في عنوانها الذي جمع في آن واحد الإسمين المتنافرين ، فاجتمعت المرحلتان عند هذه النقطة الواحدة ، وقد تشكل بناء القصة الفني لغة وحدثا ليقدم لنا حالة مابين هاتين ، أو الساعات الأخيرة من عالم ما قبل ٢/٨ والساعات الأولى التي جاءت معه ، وبين ليلتين تم كل شيء فإذا الدنيا كلها من النقيض إلى نقيضه ، لذا كان الياسمين في القصة بدءا والدماء والموت ختاما .

الليلتان إحداهما جسدت الحلم والثانية قدمت انكساره ، ولعل المؤلفة سعت منذ الكلمات الأولى ان توحى بهذا العالم الذي تحطم ، وشكلت بعدا إيحائيا بالإحساس بالوطن وجماله وسكينته ومن ثم أحلامه ،ففي البدء يبدو لنا عالم حالم منطلق فيه كل علامات ومؤشرات حب لا حدود له ، هذا الحب الذي يكتسب سماته المباشرة أو الإشارة الواقعية من خلال حديث الزوجة عن زوجها الحبيب وطفلتها وهما يقضيان ساعات الإجازة في مرح على الساحل ، فصورت لحظات تصاعد هذا

الحب إلى مستويات شاهقة من العلاقة ، فالكلمات تنطق بشاعرية الاستعادة أكثر من وصف الحال القائم ، بمعنى أن (الراوية)عندما كانت تروي حالها في تلك الساعات الهانئة لم تصف بعين الحقيقة ، ولكنها العين التي ذاقت عذاب الفقدان والاحتلال ، ففي هذه الحالة تكون الاستعادة ملونة بكثافة العاطفة ، خاصة وأنها ابتدأتها بقولها (أحسبني ما أزال أذكر اليوم الذي ملأت فيه ذراعي بالياسمين . .) فهذه الذكرى التي تبتدىء من معرفتنا بفقدها له في اليوم الأول من الاحتلال تجعلنا نفهم هذا الاندفاع العاطفي الذي يصاحب استعادة الذكرى حين تكبر قيمة المفقود وتتضخم . . .

ولكن هناك أيضا صوراً لعالم يشي أو يشير لما سيأتي ، خاصة إذا تبينا تلك الإشارات الموحية لأمرين في آن واحد ، الحبيب ثم الوطن ، فنحن نلاحظها ، وهي في مرحها ، رسمت على الرمال بيتا راسخا بالحب ، وزورقا ورقيا من أحلام السنا تدفعه في لجة البحر ، بحر الغوص والسفر ، فهذه الإشارة تخرجنا من فهم إلى آخر ، أو تعمق إدراكنا وتلفتنا إلى علاقة اخرى بين (الرواية) والآخر الذي تتحدث عنه ، فيصبح في هذه الحالة وطنا وليس شخصا ، وتتناثر صور وأقوال كلها تدير انتباهنا إلى هذا المعنى ، فاستحضار التاريخ أو سمة هذا الوطن البارزة لا تغيب ولكنها حاضرة ، والقول المباشر يأتي ، أيضا ، في حوارها مع من تحب بقولها (دعني ألثم هذا البحر . . دعني أبسط جناحي على أشعة شمس بلادي . .)، بل إنها تشير بإشارة واضحة إلى زهر النوير الذي يختار التفتح في هذه الصحراء الحارقة على أن يحيا في ربيع آخر . وليس هناك تنافر بين الاثنين ، بين الحبيب الزوج الذي سيفقد والوطن .

بين هذين الحالين تحرك هذا القسم ، القسم الأول من القصة ، ممهدا ومشيعا جوامقصودا له بأن يكون نقيضا لما سيأتي وهكذا تنثال الصور حتى جاءت قنابل الشمال ، وحينئذ انعكس كل شيء ، وكانت أولى الإشارات الدالة برزت عندما استعدوا للرحيل ، بعد اهتزاز وتحطم العالم القديم فنجدها توحي لنا بالمعنى إيحاء مباشرا ، تقول الرواية (. . ماج شعري . . وارتعش طوق الزهور بصدري . . لبست ثوبا طويلا فضفاضا وشبكت شعري الطويل إلى الوراء وغطيته بطرحة سوداء .) وهذاالسواد الجديد هو العالم المقبل ليس هذا فقط ولكن الكلمات المتناقضة تتجاور حين تصور حالة انفعال الحيرة : (. . المعركة تدور بعنف همجي على أرض داخل القلوب تتحرك بترابها . . ببيوتها . . ببحرها الأزرق . . بحر الطمأنينة والسلام والأحلام . الدماء في الخارج تشكل خطا ينساب مستقيما . . دمعة في حلقي . . وفي عيني نار . . أعرق أحيانا . . أجف أحيانا . .) وفي هذا المقام يتبدى عندها سؤال عن هذا الحقد المكتوم ، عن حضور الموت أقوى من الحياة ، عن الدم العربي . كل هذه تغطي مساحة متسعة للفهم ، ويبدأ الوطن في الحضور قويا في القسم الثاني ، حين أصبح

الاعتداء صورا ملموسة متحركة ، وأصبح البحث عن ما كان موجودا ثم افتقد هو الأصل ، السكينة والهدوء اللذان ابتدأت بهما القصة يصبحان مطلبا غير متيسر ، لذا نجدها تشير إليه في لحظاتها الخائفة : (حاولت أن ألملم نفسي المبعثرة الثائرة علني أهتدي إلى لغة الهدوء والسكينة . .).

وفي الليلة التالية ، وعندما تحقق سقوط الوطن ، سقط معه الزوج في معركة الدفاع المتأخرة ، أصبح الموت الآن هو الأول وهو البداية هو الحرية الوحيدة الممكنة ، فابتسامة الزوج الميت هي الختام المشير إلى هذه الحرية الجديدة حرية الموت في زمن جيش الاحتلال المقبل . وتبدأ طلقات المقاومة . .

مقاومة من كل جانب

مع أي احتلال تتشكل ردة الفعل الطبيعية الرافضة لقهر التسلط ، ردة فعل عفوية غير منظمة، ولكنها سرعان ما تأخذ شكلها الأساسي ، قوة مضادة فاعلة ، من هذه النقطة الأساسية والواضحة تشكلت الأعمال الفنية التي ولدت وتشكلت نتيجة لهذه الحادثة الفريدة ، وهذا الملمح العفوي هو الجانب الظاهر في هذه الأعمال ، ولعل (طلقة في صدر الشمال) [٢] لوليد الرجيب واحدة من هذه الأعمال التي ترصد جذر المشكلة جاء هذا العمل الروائي ، الذي دل عنوانه على محوره ودلالته بصورة مباشرة ، في شكل مشاهد متجاورة توحدت في إطارها الخارجي حيث كان المحور الجامع لها هو تلك الرحلة التي سار فيها مسدس موروث تناقلته الأيدي وسيلة من وسائل المقاومة المشروعة والمتعددة الأشكال والبواعث ، وهذه الحكايات تكاد تكون قصصا متجاورة يحدها الحدث الكبير ، الاحتلال والتصدي له ، ومن ثم تشكلت ثيمة هندسية متصلة بالمسدس وطلقاته التسع ، وكان لكل طلقة معنى (وتوجه) محدد .

هذه الحكايات المتجاورة لم تكن أحداثها أو شخصياتها منبتة الصلة فيما بينها ، فقد تتداخل كما في الطلقة الثالثة والرابعة ، أو تمتد من خلال استكمال تبعية الحدث أو ما ترتب عليه كما في الخامسة والسادسة ، وأحيانا نجد شخصية يتردد اسمها أولا ثم تقوم بدور محدد بارز مثل شخصية الطبيب هاشم في الحكايات ـ الطلقات : ٥ ، ٧ ، ٨ ، ودوره المتميز يأتي في السابعة ، وهكذا .

إن هذه الطلقات ـ الحكايات ، تتآزر لتقدم وجوه المقاومة المتصلة ابتداء من استحضار الجذر التاريخي للمشكلة وتختم بالدعوة إلى التحفز لمستقبل آت قد يكون مشابها لما حدث ويحدث ، لذا يحدد هذا موقفان : أولهما الوقفة التي وقفها بعد انتهاء حالة الطوارىء إبان تهديد عام ٦١ ، فقد وجه الأب مسدسه وأطلق رصاصة باتجاه الشمال . أما ثانيهما فهو يأتي في ختام القصة حين توجه آخر

شخصيه ، وهي شخصية كاتب روائي ، وبعد أن يطلق رصاصة الانتصار ، يوجه المسدس نحو الشمال والجنوب ويحتفظ بالطلقة الأخيرة احتياطيا .

بين هاتين الطلقتين تتجمع حكايات هذه المجموعة الممتدة عبر ثمانية مشاهد كل واحد منها يدل عليه طلقة تكشف وتجسد وتبين روح المقاومة . إذن هذا عمل من الأعمال المقاومة ، أو تسجيل مواقف للنضال . وهو يعتمد على هذا الرابط الخارجي المتحرك ، أو لنقل أداة البطولة : المسدس ، وستظل هذه المشاهد كلها حبة طرية تابعها المؤلف ، فهي لم تبرد أو تتباعد بعد ، فأثرها وأصداؤها باقيان ماثلان في العين والذاكرة .

هناك مدخلان جديران بالاعتبار ، وهما ، وإن كانا هامشيين خارجين عن العمل الفني ، فإنهما يشيران بوضوح إلى المنطلق الأساسي ، فالإهداء كان إلى البسطاء من الناس الذين هم مادة المقاومة الحقيقية للوطن دون ادعاء ، وهو إهداء لا يأتي مباشرة ولكن يحاط بغلالة إيحائية من خلال حوار مع سمكة (السبيطي) ، تلك السمكة البسيطة والعصية على الصائدين . ومع هذا الإهداء مقدمة أخرى أو لمحة أسماها (حشوة طلقة) ، هذه هي الحشوة التي تمثل ذلك الدفع المعنوي المتمثل بالكلمة الدالة الموحية ، أي أنها تقدم الوطن من خلال محاور أساسية ، فنجده يختار مقطعا من قصيدة فيها إشارة إلى الوطن من خلال ثلاثة أشياء = ناسك (الناس) ، وعزوتك (سندك) ، حبال رأسك (دراميك) ! وتحدد ، في الوقت نفسه ، المسار والمتمثل بالمجد في صورته المعهودة = خل جبين الشمس بإيديك مداسك .

أما الثالثة فهي إن الأرض تساوي العرض . هي إذن الوطن + العلا + الأرض . أو ما نضعه في محاور هي مفهوم الوطن ، هدف الإنسان ، العلاقة بين المعنى والمادة .

وهذه كلها تكاد تكون معاني متضمنة في القصة التي جاءت في طلقات ثمان ، أولاها مختصة بالغدر والتاريخ ، وما بعدها متابعة للمقاومة إبان شهور الاحتلال ، ويأتي أبرز جذر حي هو تلك الحادثة التاريخية حينما هدد عبدالكريم قاسم استقلال الكويت ، تلك الحادثة التي توقفت عند حد التهديد وكان التصدي لها مباشرا هذه الاستعادة المهمة آتية من استنفار الذاكرة ، يقدمها الكاتب من خلال مواجهة ، بطريقته المعهودة ، والتي ستتكرر بعد ذلك ، حيث إن الترتيب للأحداث ليس أساسيا ، فالمقاطع التي تصور الأحداث المتأخرة قد تطل بين لحظة وأخرى ، ومن خلال مقاطع سريعة خاطفة مبتعدا فيها عن السردية ، فالأحداث عنده أشبه ما تكون بتقطيع السيناريو الذي يجمع بين قول الراوي ومنظور المشهد .

في هـذا القسم الأول ، أو الطلقة الأولى ، تأتي عشرون فقـرة متجاورة ، تبـدأ بمشهـد الجمـوع الغاضبة وتنتهي بالأب مع السلاح ، والابن يروي لزوجته تلك المشاهد مع تعليقاتها ، وهكذا تستمر المقاطع في فقـرات تصغر فتصل إلى سطر واحـد وتمتد إلى عدة أسطـر ، أطولها مشهد جـاء في واحد وخمسين سطـرا (ص ٢١ ـ ٢٤) . إذن القصـة اعتمـدت على أسلـوب المشـاهـد ، داخل الفصل الواحد، وتجاور الأحداث بين الفصول ، هذا من حيث الشكل الخارجي .

أما النماذج البشرية فهي تقدم لنا من خلال حدث أو تعليق السارد عليه ، وعادة يكون سريعا خاطفا ، وهـذه النماذج ليست متكررة أو مستمرة ، ولكنها نماذج متحـدة في الإطار الخارجي ، كلها نماذج تقاوم الاحتلال أو تتصدى له أو تتعرض لعذابه .

المشهد الأول تَنقل فيه بين زمنين متقاربين يجمعهما الحدث الواحد، وفي الوقت نفسه كان يقدم نموذجا لما كـان، في مقابل النموذج الكائن إبان الحدث الأخير، وهو على مستـوى بناء الشخصيات يقدم لنا الثنائية القائمة بين الأب والأم قديما، والزوج والزوجة حديثا، كان الثنائي الأول هو الأبرز في هـذا المشهد، وفيـه ذلك التناقض الآخـر داخل الجيل الـواحد، الأب القـديم مشدود إلى الـرجولـة ومفهومها عنـده ويمثلها بالاقتراب من المسدس، أما الأم فأنها مشـدودة إلى الحياة الجديدة والجنس، هذا التناقض المشير إلى الخشونة والانسياق وراء محدثات الحياة، يأتي عرضه مائلا إلى التنميط .

كان الأب يحمل في داخله رومانسية المواطنة وروح الفدائية فيها، ولكنه في الوقت نفسه، يحمل في داخله أيضا حكمـة الفهم الواقعي الذي تلخصه المقـوله الشعبية، التي يستعيدها مـذكرا ابنه بها قائلا له بأن جارنا (مثل ولد الحمارة يوم يرضعها و يوم يركبها)

إن المحور التفسيري لهذا المشهد الأول هو ذلك المتمثل بالدعوة إلى الاحتشاد والاستعداد، لذا لم يترك الـوالد حين تـوفي سوى مسـدسه الـذي كان يعتـزم أن يقتل به تسعـة من الغزاة، وقـد أطلق الرصاصة الأولى الرمزية وأبقى طلقات ثمان، إرثـا ووصية لمن سيأتي بعده، وكانت الدلالة أو الشعار الوحيد الذي تـركه هو الكلمة المحفورة المشيرة إلى الفداء، وهذا الشعار، (لعيـونج) هو الذي سيكون الاسم الملازم لهذا المسدس ودالا عليه طوال رحلة التنقل بين الأحداث .

المسدس + الطلقات + الشعار، ثـلاثة مرتكـزات أساسية مترافقـة استمرت طوال المشـاهد التالية .

جاءت الطلقة الأولى مع الأيام الأولى من دخول الغـزاة، وكانت إهانـة التوقف والتفتيش في الطرقات ومع الموت والإهانة والتحرش بمواطن العفة عند الزوجة (أو لمس الزوجة)، كانت هذه هي اللقاءات الأولى. وجاءت ردة فعل الابن مختلفة كـاختلاف المرحلتين، فإذا كان رد فعل الأب سريعا وحاسما، فإن الابن قـد سقط في هوة المفاجأة إضـافة إلى طبيعته وتـركيبه النفسي والعقلي لذا تنـد عنه كلمات دالة على التغير النوعي قبل أن يتجاوز لحظـة التردد الأولى، فتأتي عبارات من مثل قوله (تتمنى لو أن اللـه خلقك أي شيء غير إنسان. ص٢٥)، ومثلها (تتمنى لـو أن الله لم يخلقك ولم يكن لك وجود قط)، أما تصوير الموقف فيأتي (أي ذل واية مهانة/ طفلتك تلوذ بك وأنت لاتعلم بمن تلوذ/ زوجتك تلوذ بك وانت أجبن من أن تحميها. ص٢٥) هذه صـورة العجز الأولى ومع انتماضة تحدى العجز تكون الخيارات المطـروحة أمامه هي: الانتحار ـ اهرب ـــ المقاومة، ولكن مسدس الأب يخلق مدخلا وحيدا. فيبدأ النضال ويطلق الرصاصة الثانية، محاولة أصابت كتف الجندي، وأكمل القتل بحنقه ويرمي المسدس لتبدأ دورة هذا المسدس بين أيدي المقاومين.

الرصاصة التالية تطلقها الطفولة ضد الاحتلال وقـد تأطرت بإطارين حرص عليهما المؤلف، أولهما وصف الطفل بسمة محددة، فهو الطفل ذو القمرين الصغيرين ويبقى هذا الوصف ملازما له.

والإيقاع اللفظي الآخر يبدأ مع بداية هـذا الفصل، يقول (من قال إن العروق تنـزف عبثا ؟) يبدأ هذا مع صوت آخر هو صوت تعبئة مخزن الذخيرة، ويستمر التأكيد ويتغير هذا الإيقاع تغيرات مناسبة مع كل موقف جديد فمع لعبة التحدي والجدية في لعب الأطفال تكون العبارات كالتالي: (من قال إن الشرايين تجف طالما المنبع الـذي يمدهـا سحريا ,ص٣٢). ويعيـد صياغـةالعبارة بتقـديم الأصل: (المنبع سحري. فكيف تجف الشرايين. ص٣٤) ويشير الي هذا المنبع الأبي (ص٣٨) هـذا التشكل اللغوي والمعاني المطارده أو المؤكد عليها سواء كانت وصف (الغلام ذو القمرين الصغيرين) أو العلامات المتناسقة بين السياق، مثل هذه العبـارة التي أشرنا إليها آنفـا هي تأسيس منسجم مع الطريقة التي تحاول الخطابات أن تخبط عن طريقهـا بأوجـه المقاومـة المختلفة وصـورها لـذا تنقل بين المطاردات والاستجابات التي تحولت إلى إطـار عام للحـوادث التي سعى إلى ملاحقتها وهـو يتابع إيماءة بطريقة أخرى مع رحلة المسدس برصاصانـه المتبقية التي تسجل مع نهاية كل قسم وجها من هذه الوجوه المتشابهة بالتأكيد على الشعار المحفور عليه.

ومن هنا مع الإيقـاعات التي تستعمل أو تطغى على مسـار كل قسم، ولهذانجـد أن أهم إيقـاع في القسم الخامس (الطلقة ٤) هو الموت الذي يـؤذن بهيمنته مـن خلال المدخل الأول المبـاشر الذي يأتي هكذا: (ثلاث جثث معلقة على أعمدة النور ص٤٣)، وإيقاع هيمنة الموت والتعذيب في هذا

القسم هو الأوضح، لذلك تصبح الإشارة إلى هذه الجثث المعلقة متكررة (انظر ص ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٠) بمعنى أنها وردت في أكثر الصفحات وتكررت في بعضها وهو تكرار يكاد يخل بعفوية الإيحاء.

وتزداد أهمية الإشارة إلى الجثث إذا أدركنا أن أحد الثلاثة المعلقين على أعمدة النور هو ذلك الفتى ذو القمرين الصغيرين المتفوق من جهتين في دراسته وحبه للوطن فهو ذاتها عشرة على عشرة وفي لحظة قرار الموت في سبيل الوطن يسجل أيضا في هذا الامتحان عشرة على عشرة.

وعندما نصل إلى نقطة هذه (الأنوار) المتصلة سنجد أن العلاقة بينة واضحة بين هذه الجثث وأعمدة النور إنها دلالة مزدوجة الواقع الذي نلمسه ونشاهده أي التعليق الحقيقي ثم المعنى الآخر المختفي وراء العبارة فهذا الموت موت نوراني فيه نور الشهادة والتضحية فكانت الأعمدة هي أعمدة نور.

وفي هذا القسم يقدم لنا أيضا تشوه المدينة أو موتها. فقد تحولت مبانيها الجميلة الرشيقة التي كانت تعقد فيها الصفقات، ويقال في داخلها أجمل الكلام، أصبحت مسالخ بشرية، فتحول كل شيء فيها إلى العكس، فالصفقات أصبحت شيطانية، والكلام المفترض وجوده الآن هو أقبح الكلام، الرشاقة أضحت قبحا لذا نجده يقترب من طبيعة التأملات والوقفات التي تستعين بالكلمة ذات الطبيعة الشعرية المكثفة يقول:

(هكذا وطن الأحلام أصبح
عفن مضن.. أكوام قمامة وبقايا إنسان..
والريح جنائزية العزف
وثلاث جثث معلقة على أعمدة النور ص٤٣)
ويتكرر هذا في ص ٤٨:

(وابتسامة صفراء في الخلف..
هكذا وطن الأحرار أصبح..
أدمغة ذكية نثرها الرصاص الخ.)

ولأن للاحتجاج وجوها متعددة وذيولا مفترضة فإن الطلقات تتابع هذا، فعندما استعان

المدنيون الكويتيون بنداء (الله أكبر) تسجيلا للاحتجاج ترتب على هذا ثمن يُدفع في اليوم التالي من خلال إحكام القبضة وتعسف التفتيش. وتأتي (الطلقة الخامسة) لتقدم تحديا وتتابع محاولات الانتهاك وفيها وجه من وجوه انحراف هذا العدوان المتمثل في حالة الشذوذ الجنسي الذي يعيش فيه المحتل حقيقة ورمزا وهذا الشذوذ دال على انحراف النفسية فسالم طالب الطب جلتْ حالة الحصار وعت، الاحتلال العناصر الإيجابية في شخصه فتحول إلى عامل تنظيف في مستشفى ومزور هويات وموزع للمؤن وكاتب شعارات الخ هذه الشخصية الإيجابية تقع في براثن أحد المحتلين الشاذين جنسيا فتكون النتيجة أن انطلقت الطلقة الخامسة قاضية على هذا الانحراف المزدوج سياسيا وأخلاقيا.

لقد رسم الكاتب مقارنة خفية، أو أقام مقارنة ذات تعبير مناسب عن حالة التناقض بين دعوتين، فالفصل الذي يكون فيه شذوذ هذا المحتل هو الحدث الرئيسي يفتتحه المؤلف بتلك اللحظة التي استعان بها المدنيون بالهتاف المضاد (الله أكبر)، فنحن بين حالتين، شذوذ وإيمان. ومع هذه الدلالة الموحية قد يسعى إلى التصريح مباشرة من مثل: (بيوت المدينة ترقد على الكرامة لاشيء غير كلاب ضالة.. وجند سكارى يلوطون بعضهم يمزقون الروايات وكتب التاريخ والعلم والحضارة ويصنعون بنارها شايا.) إن خليفة الفصل هي هاتان الصورتان المتناقضتان والكاتب لايتورع، كما لاحظنا من أن يخرج من السرد إلى التعليق المباشر مازجا بين العرض العقلي والفني.

وقد حاول الكاتب أن يتلاعب بالزمن فيقدم حدثا ويؤخر آخر دون سبب واضح يدعو إلى هذا مثلا تقديمه حالة جرح سالم طالب الطب قبل حدوث الحدث الذي كان مساره طبيعيا (انظرص٥٥) فليس هنا من سبب فني يدعو إلى إستخدام فن الاستعادة ولا يحمل الحدثان تقابلا أو يشكلان حالة تفسير تبرر هذا..

القتل يجر القتل والطلقة السادسة هي الانتقام المباشر، أو الفعل المضاد للفعل، فهنا ثمة حلقة متصلة، مطاردة سالم الذي قتل المحتل الشاذ، ثم إهانتهم للأب، تدفع بطل القصة أحمد الى التصدي لهم فيقع بأيديهم فيبدأ التلاعب بأهله وابتزازهم ماليا ثم يسقط أحمد شهيدا.

وتمتد الحلقة التي قلنا عنها أنها متصلة، تبرز شخصية موضي، خطيبة أحمد، لقد كان موعد زفافهما يوم الخميس ٢/٨ فجاء الاحتلال بدلا منه، وهكذا تشكلت هذه العلاقة التي ترسمها الكلمات الأولى لهذه الطلقة فقد تجمعت العناصر كلها فيه:

الخليج شاهد العشق الأبدي
مياهه عمدت أجساد العذارى
برماله غاصت أربعة أقدام نشوى، أوقدمان كسيرتان . .

هذا الخليج العاشق، طوق بالخنادق والأسلاك الشائكة التي امتدت من زاخو إلى البحر. ص٦٣)

وإذا كان المدخل جامعا بين ما كان وأصبح فإن ثمة تساؤلا آخر يطل علينا هو تساؤل متصل بالجانب المؤلم، ليس فقط كون الزواج تحول إلى موت مشرف، ولكن لأن كل المعاني، في حدها المشرق من خلال العطاء الإنساني، تحولت إلى النقيض، لهذا جاء هذا المقطع المتسائل :

(كيف هذه الشفاة التي قالت أجمل كلام أن تمزق .
كيف هاتين العينين اللتين نظرتا بوله أن تقلعا!
كيف هذه الأصابع التي امتدت إليك بحنان أن تقطع!
كيف هذا الجسد الذي ضمك أن يحرق بالكهرباء والأسيد!
كيف هذا الرأس الذي ضممته إلى صدرك أن يفجر بطلقتين!
كيف يموت أحمد! ص٦٤/ ٦٥)

هذه الأسئلة مدخل إلى الانتقام، وإذا كان هذا هو الباعث فإن الوسيلة هي الطلقة السادسة الموروثة مع المسدس، وكما كان الشذوذ الجنسي كاشفا لوجه المحتّل فإن وحشية المعتدي وتهتكة هنا مدخل آخر، فالانتقام ليس ردة فعل آنية ولكنه مخطط، وتقوم به، لأول مرة الخطيبة المنكوبة حيث تستدرج القاتل الشبق إلى منزلها ليتم، في لحظة دفنه في الحديقة، العرس الذي لم يقدر له أن يكون .

إذن الطلقة السادسة هي رسالة الانتقام، انتقام الحب وانتقام الوطنية .

ولكن هناك طلقة أخرى ذات طبيعة مخالفة أو معاكسة، إنها رصاصة الرحمه فالطلقة السابعة هي وسيلة مشروعة للخروج من أتون جحيم التعذيب حين يكون فيها اختيار الموت مخرجا وحيدا بعد أن أضحت أدوات الحضارة وسيلة لتحطيم الجسد فأصبح التخلص من الحياة حماية للوطن وللوطنية. وتتآزر الأحداث فتتجاور، تبدأ بتصدى الهتافات وصولا إلى السيارات المفخخة، ويأتي بعد ذلك الاختيار. الفتاة الفدائية تصدت وسقطت بأيدي الجلادين، وعلى أيديهم تم اغتصاب الجسد ثم اهترأ وتهتك وتمزق وحرق، وأصبح إسقاط مقاومة الجسد وسيله للوصول إلى غيرها، وهنا

يكون اختيارها ودعوتها للطبيب الوطني أن يكون قاتلها إنقاذا لها ومهمة وطنية وحماية للآخرين. إنها لحظة اختيار أساسية تأتي ممثلة لها الطلقة السابعة .

وفي هذه القطعة اختيار آخر سابق على هذا، هو اختيار الوطن على غيره، فيستعيد الكاتب موقفها من زميلها المثقف الذي كان يفيض حكمة وغموضا، لقد أحبها الحكيم المثقف ولكنه عند الاختبار الحقيقي تجلت حكمته في الدعوة لاختيار المغادرة والخروج من الوطن وكانت حكمته تساوى تفاهته في نظرها. وَتَشَكَّلَ بعد ذلك الطريقان الفداء والهروب.

وبهذه الطلقة التي حملت معها الرحمة، تكتمل مسيرةالطلقات الفاعلة فلم تبق إلا طلقتان إحداهما أطلقت في لحظة الانتصار وانسحاب الغزاة أما الأخيرة فقد بقيت رمزا للتحوط والاحتياط ولم تكن حركة المسدس باتجاه الشمال والجنوب إلا إشارة إلى أن الأخطار لاتنتهي، إنها حكمة بقاء الطلقات الثماني التي أبقاها الأب من قبل وهكذا جاءت الطلقات التسع موزعة بين تسعة مداخل: تحذير، ردة فعل أولى، مقاومة، شهادة، دفاع، انتقام، رحمة، فرح، تحفز وحذر.

تلتقي رواية (ريح الشمال) لفهد الدويرى، في قسمها الأول المنشور (٣) مع (طلقة في صدرالشمال) في جوانب تمس الخطوط الخارجية والمعتمدة أساسا على متابعة هذا الحدث الجلل فالروايتان واكبتا أحداث الاحتلال منذ لحظته الأولى، وسارتا معه. ان الجامع بينهما هو هذا التلاقي الشكلي في بعض مفردات العنوان ومغزاه العام، وهذا الحرص من الكاتبين على الاقتراب من المقاومة إضافة إلى الإطار الزمني الواحد، ونجد أن كل واحد منهما يقدم لعمله ببيت من الشعر يوجز وجهة نظره ويجسد فيه ذوقه في الاختيار، فالأول اختار شعرا حديثا متخذا من روح العامية أساسا ومرتكزا، أما الدويري فميله العام واتجاهه يجعلانه يختار بيتا من الشعر المواكب والمعبر للحدث، كسابقه، ولكنه شعر يعتمد في الشكل الخارجي على المتوارث المعهود في القصيدة العربية ولكنهما يلتقيان عند كلمة واحدة أو فكرة أساسية، هي أن الوطن هو المجد: مجد الإنسان الحقيقي.

ولنا أن نضيف هنا أن كل واحد منهما حاول أن يقدم في لحظة، حكمة. التراث المحلي إزاء هذه المشكلة، فالأب عند الرجيب يقول لابنه: (أنت ياوليدي تذكر أن جارنا مثل ولد الحمارة .. يوم يرضعها ويوم يركبها .. ص١٦). سنجد كذلك أن الأب هنا في رواية الدويري يقول حول الموضوع نفسه (.. وقال لي شيئا يكاد يكون تراثا موروثا لدى أبناء هذا البلد: اسمع ياولدى.. لوكنت في صحراء السماوة وفي أيام تموز اللاهبة ورأيت حمارا من (...) فلا تستنجد بركوبه .. تراب الرمضاء أرحم منه ياولدي .. حلقة ٨/ الوطن ٧/ ٤/ ١٩٩٢).

والأب في الروايتين فاعل مقاوم مقدم لدرس التحذير، كل حسب مرحلته، ولكن إذا كان الأب الأول، عند الرجيب، مثل مرحلة سابقة وورث طلقات استمرت تذكر به، فإن الأب والابن عند الدويري تقاسما المرحلة الواحدة.

وبداهة، كما أشرنا من قبل، إن اتخاذ خط المقاومة، يستدعي مثل هذه التلاقيات أو التماسات الخارجية، ولكن طبيعة المقاومة عندهما تختلف باختلاف مسار الخط العام وكيفية التناول، ففي الرواية الأولى كانت الطلقات وسيلة ظاهرة ومباشرة، أما في الرواية الثانية فهي تسجل وترصد حركة المقاومة بأنواعها مركزة على حركة التمرد الشاملة والمواجهة الخفية والعمل من أجل التحرير حتى يبقى الوطن صامدا.

ولكن الفروق بينهما أساسية من حيث تباين الأسلوبين، والكيفية الفنية التي تعتمد أسلوب حداثة هذا الجيل واستعمال اللغة الفنية المختزلة، وأسلوب التنقل والعبارة المقطوعة والحدث المتوزع مع اختلاف الأمكنة والأزمنة عند الكاتب الأول الرجيب، بينما اتخذت عند الثاني، الدويري، السرد والوصف كما توارثه وتمسك به مظهرا من مظاهر تجربته الفنية التي تشكلت في أوائل الخمسينات، فلكل واحد منهما وجهته من حيث التناول والتكنيك، وإن تلاصقت الرؤيتان، فخط رواية (ريح الشمال) يعتمد على مواكبة الاحتلال منذ لحظته الأولى حتى قبيل بدء الحرب، فسار مع الأحداث بعين مراقبة حينا، ومشاركة مراقبة في حين آخر، وقدم هذا من خلال ثلاثة مواقع للرصد، أولها، الخط الأول، داخل الوطن فلم تفلت منه لحظات الرصد طوال الفترة التي غطاها هذا الجزء من الرواية، أما الثاني فكان من الخارج حيث متابعة الاستعداد للمعركة والمشاركة فيه واصلا بطل قصته إلى حفر الباطن، أما الثالث فتلك المتابعة للمآسي التي عاناها الشعب فامتدت من حوله الأسلاك فكانت السجون والمعتقلات والحصار الداخلي مع المتابعة هذه في أرض العراق حيث ذهب بطل القصة إليه، مسهمة في محاولات إطلاق المعتقلين ودفع الفدية والرشوة لتخليصهم مما هم فيه. ولم تكن هذه المشاركة الوحيدة ولكن هناك مشاركات جاءت هذه أبرزها، حيث استفاد المؤلف من وحدة الشخصية الراوية والفاعلة في تغطية هذا المدى المتسع، وقد انعكس هذا على طريقة التناول من حيث غلبة الطابع التسجيلي السردي.

وهذا التناول تجلى في التكنيك التقليدي المباشر الذي يحرص على أن يقدم الأحداث متتابعة مروية رواية من خلال شخصية الراوي من موقعه بصفته راويا مشاركا، وقد تصاعد دوره من مراقب في الأجزاء الأولى إلى مشارك. ونحن، وإن كنا لا نلمس تحليلا، إلا اننا نتابع تعليقاته، وهي كثيرة، تعليقات على الأحداث والشخصيات والأفعال حتى المقولات التاريخية التي تقارن بين التصور

والواقع، أو بين نصـر ـن (انظر مثلا تعليقـه او ربطه بين المأمون وهـارون الرشيد، وكـذلك الحجاج وهولاكو . . حلقة ٤).

هذا النوع من القصـص يقدم نبضا حيا ومفيدا في الجانب التسجيلي الـذي يُثبت الأحداث في الذاكره، يحفظهـا ضمن إطار مناسب لها ومن خلال شخصيات معايشـة. هي رواية مخبرة في صلبها الأعم، مقدمة وجهة نظر المصدر، وتلون العمل الفني بلونها دون أن تخفي المنظر الذي أمامها، بمعنى أنها لم تفـرط بإظهار مشـاعرهـا فاكتفت بـالقليل الـدال منهاه، وقـدمت كذلك، عـرضا للـواقع مع التعليقات التي يحتملهـا العرض المباشر. وجاء الإيقاع الـروائي هادئا، رغم سخونة الأحـداث، فتابع الحياة العادية، فمثلا، في لحظات تردد الراوي على وطنه المحتل، وهو يؤدي المهمات الموكلة إليه، نجده يقدم الأوجـه كلها، المعـاناة بجانب الحوار والمنـاقشة، النقـد بجانب التصميم، الطبيعـة التي كانت موجـودة قبل الاحتلال والغـالب عليها الجدل ومعهـا الصفة الجديـدة المكتسبة إبـان الاحتلال، وفي الوقت نفسه يرصـد تدهور الحالة الاجتماعية العامة مبرزا الصـلابة الأولى وصولا إلى المآسي والتعذيب والموت، كل هذا يأتي منسقا، لأن الخط العام يحتمله والطريقة الفنية المستخدمة تسمح له بهذا.

نلمس التساؤلات بـدءا من التساؤل المر الذي يطلقه الـراوي في بداية القصة حين يقـول وهو يغـادر وطنـه: (هل أصبحت بلـدنـا عمـودا من الملح . . حلقـة ١)، وتتـابع بعـد ذلك مثل هـذه الوقفات.

هذا الامتـداد بالأحـداث قابلـه تعدد الشخصيـات وهي تمثل وتقدم أهم الأطـراف ابتداء من الأب المتمسك بأرضه وخروجه من حد الذهول الأول إلى المشاركة الإيجابية، فقدمه في حالاته الإنسانية تبعا لتعدد المواقف وظـروفها، فقدمه في صورة الهوان حينما انهال عليه المحتلـون بالضرب فسقط أرضا ثم نهض واقفا نافضا التراب عنه معيدا عقاله على رأسه العاري، وهذه اللحظة يقابلها ذلك التصميم عنده من خلال عمل هـادىء طوال أيام الاحتلال محركا ودافعا من حولـه بمن فيهم ابنه. وفي الوقت نفسه نحاول أن نغـوص في داخله حين يسجل لحظـات ضعفه النفسي وحسرتـه، لحظة الضعف تلك التي سجلها في الحلقـة الثامنة، والتي بـرزت على السطح دموعا وحسرة في ليلـة كئيبة، ولكنها حـالة سرعان ما تنتهي ليعود الأب كما كان نصيبها وعزما.

لقد شكل الكـاتب الشخصيات لتقدم رؤيـة محيطة بالإطار الـذي تتحرك فيه، فجـاء بعضها بارزا متقدما وخلفها شخصيـات أخرى تكمل جزئيـات الصورة، ويبقى الـراوي، بعد ذلك، يمثل الجهة الرابطة بين هـذه كلها، وكما أن الأب وجه من الوجوه المقاومـة فإن شخصية الشاب أحمد الذي

أصبح رفيقا وملازما له، تُقدم أيضا شخصية فاعلة، و إذا كانت الرواية افتتحت بالآب فإن قسمها الأول هذا يختم باعتقال المحتلين، لأحمد . . .

وفي الجوار تطل علينا شخصيات كاشفة، ففي الجهة الأخرى نجد الكردي والضابط البصري المتعامل معهم مقابل المال، وهو في إقامة هذا الاحتكاك يكشف لنا وجهين، أولهما التشوه الخلقي، فالرشوة هي المدخل لاختراق أي مكان، وفي الوقت نفسه يحاول التوغل ليمد معالجته إلى الجانب الخفي كما فعل مع الضابط العراقي البصري الخائف على مصيره والذي يود أن ينتزع اللباس العسكري ويعود إلى بلدته بما استطاع جمعه من الرشاوى، فقد أحس بالانحسار أو شعر بالخوف يستبد به (حلقة (١١) ٢٨/ ٤/ ١٩٩٢ م).

ولكن هناك وجها آخر يحرص على إبرازه حتى لايصبح صاحب نظرة أحادية ضيقة، لقد تجاوز هذه الأحادية حينما قدم لنا الفتاة شفيقة العراقية الكردية التي قدمت المساعدة، فأدخل بها جانبا إنسانيا وأقام علاقة عاطفية بينها والشاب أحمد، الذي حملها إلى أهله في الكويت، مقدما بهذا معنى مزدوجا فيه إشارة إلى أن الحس الإنساني الصادق يعلو على كل الشوائب والمحن والحقد، وفيه من جهة أخرى، إشارة إلى المصيبة الجامعة بينهما، فما يتعرض له الكويتي الآن سبق وأن عانى منه الإنسان العراقي الكردي، وبهذا اتسعت الرؤية وتجاوزت الهم الخاص إلى تصور مآسي الآخرين.

من لهيب نار الاحتلال إلى نشوة فرحة التحرير

هناك وجه آخر أساسي من وجوه المعاناة تحت ظل الاحتلال. لقد مست قصص المقاومة هذا الجانب بصفته خطا من خطوط الدفاع عن الذات وإبقائها محافظة على ذاتها دفاعا ومقاومة وصمودا. وتأتي الحياة اليومية التي يعيشها الإنسان المحتل حين يعاني وقد انزاح عنه غطاء الأمان، وأقرب مدخل هو ذلك الإحساس الذي ينتابه والحصار الذي يعانيه حينما يفقد مقومات المعيشة الأولى الأساسية. فالجوع، مثلا، وتوقعه المحتمل هو أول هاجس يطارد الإنسان، هذا الخوف الأبدي والمعاناة المتوقعة، وتأتي تجربة البحث عن الخبز واحدة من أشق التجارب وأكثرها بروزا وشفافية، لذا سنجد هذه، مشكلة الطعام، تتنوع جزئيا وكليا في أعمال متعددة، فترسم في الفن القصصي معادلة قائمة بين حالين، وتنفتح آفاق أو نظرات مستمدة من هذا العالم، كما في قصة (جوع) لمنى الشافعي[٤]. فنحن بين جوعين جوع الفأر وبحثه عن الطعام ومحاولة الأسرة بدورها لتوفير

طعامها، هو محاصر وهم أيضا يعيشون حصار الحاجة، وهذه أول علاقة تنشأ بين الاثنين، تأتي محاولة الفأر الأولى التي لم تثمر مساوية لمحاولة بطلة القصة وصراعها المرير للحصول على الخبز فتفشل، وكما أنه لم يظفر إلا بالفتات سنجدها كذلك في خوضها طابور البحث عن الخبز، وتكون النتيجة أن الكمية نفدت، وهذه الجزئية ذاتها ستتكرر كاملة في قصة (الطابور) لثريا البقصمي.

وتتوالى الرحلات المزدوجة، فالفأر يشتد عليه الحصار الذي يدفعه إلى المغامرة، ويزداد تعاطف البطلة معه، وكما أن الأم تضع المصيدة للقضاء عليه، كانت هي، أي الأم، تذهب إلى المناطق الخطرة كي تحصل على الحليب لطفلتها. واضح أن الفأر وسط الحصار يحاول الحصول على طعامه وهي كذلك وسط الرصاص، وحصلت على شيء من الحليب في الوقت نفسه الذي استطاع أن يختطف قطعة مما في المصيدة. وكما أن الطلقات النارية تأخذ حيزها الخاص في لحظة معينة نجد صوته الصادر والمعبر عن الصوت نفسه مؤذنا بسقوطه في المصيدة. ولعل في هذا إشارة إلى سقوط الكل في هوة الخطر.

إن ثمة تلاقيا بين الاثنين في الحالة العامة والمحاولة والمصير، ومن هذه العلاقة تكونت أمامنا معاناة الجوع ومن ثم الإحساس بوطأة الاحتلال.

في قصة ثريا البقصمي التي أشرنا إليها قبل قليل، (الطابور)[٥] اقتراب يصل إلى التسجيل لحوادث الحياة اليومية إبان الاحتلال، وإذا كانت حالة البحث عن الخبز اتخذت شكل الصراع في لقطة انتهت بنفاد الكمية، فإن هذه القصة تمد اللحظة، وتتابع تفاصيل هذا الموقف في حيز متكامل، فيتسع مداه ويصبح محلا لحدث قصصي، أو موقف قصصي مستقل يسجل المعاناة ببطء، فتلتقط المؤلفة المشاهد الحية لهذه الحالة الطارئة التي لم تكن من قبل متخيلة، فالخبز لايتوفر، وأهل الطابور ليس لهم إلا معاناة الوقوف والانتظار فقط، فالخبز للقادة المحتلين أو المومسات، وحتى في اللحظات النادرة التي تحصل فيها بعض المحتاجات على أرغفة قليلة تُصادر لصالح أحد الفيالق العسكرية، وفيها يتم انتهاك حرمة النساء فلم يبق إلا التوهم الذي تختم به القصة حين رفعت الراوية رأسها للسماء فرأت الشمس الحارقة على شكل قرص خبز ساخن.

إذن فالاحتلال كله من بدئه إلى ختامه، ومن ثم نتائجه، هي محطات توالت لتشكل تجربة ممتدة ومتسعة ذات رحم خاص وفريد، ولكل لحظة طعمها وكيفية تشكلها الفني، ولعل من تلك اللحظات التي تتوارى خلفها كل التفصيلات الأخرى وتظل لحظة انعطاف تغطي كل ما عداها، لحظة الفرح الأكبر، تلك النقطة الفاصلة بين لحظتين، الاحتلال أولا ثم التحرر ثانيا، فهاتان

خطتان بارزتان لاتحاد، الأولى يتمثل فيها ذهول الصدمة القاتمة والثانية تمثل النقيض حيث الانفراج المفاجيء المنعكس على النفسية، فتتوارى خلفها كل العلائق الأخرى من آلام وأحزان وفقدان، كلها تتجمد في التكوين العاطفي لتظل تلك اللحظة الوحيدة التي يتوقف الإحساس بالزمن والأشياء كلها عندها، وحيدة متفردة.

تأتي لحظة الفرح المنتهبة شوقا في صورة حالة عاطفية تتجسد في العلاقة العاطفية بين محبين، أحدهما هو الوطن، ففي (لحظة بلحظة)[٦] لمنى الشافعي نحس هنا بتجربة الروح في حالة الفرح غير المحدد حاملة معها أسى المحبين وشكواهم حتى اللقاء. قدمت هذه خلال نظرة ومعالجة ذات نبرة رومانسية محافظة بعلاقة اللحظات الحزينة، نقدم بها مجسدة لحظة التحرير في صورة لقاء المتحابين، الحبيب - الوطن، وكان هذا التصور واضحا يصل إلى حد التأملات المسنة على نفسها، أو لنقل أنها القصة - الخاطرة، فعبرها تتدفق الذكريات، ففي لحظة فقدانه تأتي القول: (وأحسست يومها يا حبيبي أن الأرض دارت عكس دورانها. رافضة الظلم وبشاعته والغدر والنهب. والسلب). وتتواصل: (ورأيت البحار وقد هاجت وماجت وفاضت الأنهار. تداخلت الجبال والوديان..). وتستمر متابعتها لحالات الخوف والذعر والذل والهوان، واللحظات الصعبة حينما حاولت التخلص من رموزه الراسخة في نفسها، وتستمر هذه واصلة إلى المناجاة المباشرة: (هذه لحظات مع الذكريات ياحبيبي.. وليست ساعات ولا أياما ولا شهورا.. إنها فقط لحظات.. وليست كل الأيام، وهذه اللحظة الأخيرة.. لحظة النور، والفرح والعرس، يوم عدت وحللت بأرضي سيدا وشامخا ومتربعا ولأول مرة أتنفس السرور..)

إنها تأملات حملت في داخلها تدفقا عاطفيا تحاول أن تختصر فيه كما زمنا وعاطفيا.

وسنجد هذا الانفعال العاطفي أيضا عند ليلى العثمان، التي تحاول أن تخلق هذه اللحظة خطا حدثيا، أو تضع على الهامش حدثا يتشكل مع هذه اللحظة التأملية، ففي (وعاد البحر)[٧] تأخذ من الانفعال الطاغي زخمه وتحكم حوله إطارا زمنيا ومكانيا فترسم تجاورا بين شخصين لا رابط بينهما إلا هذه اللحظة الواحدة وتدفق الشعور الطاغي بالفرح واستبطان هذه اللحظة الفريدة. البحر هنا هو عالم الوطن، وهذا الاغتسال يتخذ الشكل المعنوي حينا، كما هو عند الراوي، والمادي وتقدمه الشخصية الأخرى: المرأة، التي تأتي إلى البحر لتوفي نذرا. وبهما يتجلى الرمز المستمد من طقوس التطهير القديمة.

إن الراوي يأتي أولا بفرحه إلى البحر ليداوي جرحه ويلقي عنه عبء وآثار الشهور

السبعة، حيث المدينة المغتصبة، الخنادق، السرقات، والبغايا، والأسلاك التي تحجر هفة الأطفال. وتمتد معه هذه العوالم الداخلية حيث يختلط الفرح بالدمع، وتتبدى هنا تلك الدفقة أو النظرة العاطفية للأشياء فيمتد من شوك الواقع إلى تحقيق الحلم فتكون الكلمات والصور آتية من هذين معا، فالتصور الواقعي يتلاشى ليحل بدلا منه لحظة تتجلى فيها دفقة العواطف، ويتداخل هذان : الخارجي والداخلي في قولها : أنت وحدك أسيان رغم الفرح الذي يتهادى إليك من كل جانب تشرب رائحة البحر وترتوي، تمتص عطر الرمل وترتاح، رأسك يتموج ما بين المبعثرات الكريهة، ثم تنداح النظرة إلى البحر، وتشهق مشاعرك، يسقط رأسك بين ركبتيك. . تحس الدموع وأنت الرجل فتبكي. . وتبكي. عاد البحر. أخيرا عاد، قلبك يعلنها. تريد أن تصرخ بها. أن تشهد السماء على الأمل المولود، ترفع رأسك وتلمح طيور النورس فاردة أجنحتها في الأفق المعتم ترقص كأنها تحضن الفضاء لأول مرة. . تعلو وتهبط، تعانق الموج.

وتتجاوز هذه الصور المحلقة في عالم لحظة فريدة تنطلق إليها الكلمات المضمخة بروح الشعر:
(وحدك. ليس من أحد، الصمت الملون بألف قصيدة، والبحر الجميل عالمك الأزلي الذي تتوحد فيه. تسمع موسيقاه الضاحكة، تحسها أكثر التماعا داخل أذنيك. . تتسرب إليك عبرها النهمات القديمة. . اوه. . ياشبلة اليامال.).

هذا التدفق العاطفي هو انطلاق لانفعال صادر من رغبة عارمة لتسجل أو تحاول الإمساك بهذه اللحظة التي لا شبيه لها، فليس في كل الأحوال يلغى وطن الإنسان ثم يبعث من جديد، لذا نجد أن المقاطع الشعرية أو روح الشعر هي الغالبة على سطور القصة في بحث عن الإحاطة بهذه اللحظة الفريدة.

إن هذا هو الاندفاع الأول، اندفاع التأمل، وهناك طرف آخر مكمل تجسده المرأة الأخرى، تلك التي تقبل مندفعة إلى البحر: (امرأة هاربة من الموت، أو أنثى كبتت رغبتها)، خالها الراوي مندفعة إلى الموت وفي حقيقتها كانت مندفعة لاحتضان عودة الحياة إليها؛ لذا جاءت لتقدم صلاة شكر بحريه، لم يمنعها الجو البارد من أن توفي بنذرها، فقد حلفت أن تحبس نفسها لا تخرج من بيتها إلا إلى البحر لتغتسل وتصلي.

اللحظة الجامعة بين هذين الاثنين ليست لحظة حدث ولكنها محاولة لدخول إلى النفس التي انعتق أسرها، فانطلقت فرحة إلى مناطق قدسها الخاصة كي تؤكد لنفسها وصولها إلى شط الأمان، فعودة البحر هي عودة الوطن والنقاء والحرية.

الحرب : شر في كل مكان

يجسد خلف حربي في قصته (الصاروخ) (٨) تجربة العيش لحظة الخوف المتصل بالموت ، إن رعب الصواريخ المتساقطة على مدن السعودية ودول الخليج خلق حالة جديدة وطارئة مفاجئة صنعتها الحرب ، وهي حالة ليست متصلة بقضية أو قتال ، ولكنها متصلة بإحساس الإنسان العادي إن السماء فوقه تسقط الموت ، وإن في هذا اغتيال لفكرة السماء قبل الأرض ، وهذه اللحظة لا تقوم على الحدث ذي الحلقات المتعاقبة ، ولكنها تقدم تناثر الجزئيات والتفصيلات ، الذرات المتجاورة الخالقة لعالم داخلي لا يتمسك بسلسلة حادثة القص ولكنه يتواصل مع أقواس الشعر، ويقيم تشكيلات أو تقطيعات السيناريو ، فمن القص يقيم الشخصيات ومن فن المنظور يأخذ تقطيعاته الحديث ، ولكن هذا التكنيك الجيد والساعي إلى الوصول إلى التجزئة الحادثة في النفس البشرية يتسرب أحيانا ، يسقط في التصور الجاهز المستحضر من مخزونات الخيال العربي ، مثلا هذا المقرىء الذي يضع يده على خده صانعا مشهدا سينمائيا متخيلا غير منتزع من معطيات الواقع المحلي .

قد تكون هذه جزئية هامشية ولكنها قد تؤثر على البنية العامة فتكشف عن هشاشة في استبطان الحدث ضمن المكان أو البيئة أو رد الفعل الواقعي ، ولعله انساق وراء القوسين اللذين صدر بهما القصة وختمها بهما ، ففي المشهد الأول يطل علينا بهذه الصورة : المقريء الكفيف الذي يضع كفه الباردة على خده ورجال محتشدون في غرفة العزاء وتساؤل عن المرحوم ، أما الآية التي تقرأ ففيها تمهيد لما سيأتي : (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشيء السحاب الثقال)

فهذا الخوف والبرق سيأتي شبيها لها حاملا الخوف فقط . أما الختام ، فالمرحوم موجود ، إنه ليس شخصا ، ولكنه مجموعة ، عالم ، أو ان هذا ليس موت فرد ولكنه موت المجموع ، ليس الموت المادي فقط ولكن الموت المعنوي ، وتأتي ، بعد ذلك ، آية أخرى مؤكدة : إنهم وقود نار من نوع جديد فوقودها الناس والحجارة ، نار قلوب . وهي قلوب حجارة !!!

القصة لا تعطيك نفسها بسهولة فليس أمامك إلا التعامل مع جزئياتها ، فهي تقدم لنا حالات خاصة في طبيعة تقديمها بدءا من (الصاروخ)الذي عنون به القصة ، وحاول الكاتب أن يجسد الصوت(بالرسم) رسم الواو المتكررة ليعطي أثرا مباشرا ملائما مع صوت المقريء على الميت فيتلاقى صوتان .

ونحن نلاحظ مع مجالات الصوت عالما آخر هو عالم البرودة ، وهـذه البرودة تتمثل في نطاقين أولهما نطاق الزمـان الدال ، يقدمه الكـاتب بكتابة الكلمة الشعـرية ، فهو شهر شبـاط ، وهو الشهر الذي اشتـدت به المعـركة فما كـان منه إلا أن رسم صـورته على نحـو معين ، قال عنـه : درويش كث اللحية/ غابة صوف موحشة / موت لعين في عتمة المعاطف .

اللحية تذكر بالشيخوخة وغـابة الصوت تستحضر البرد نفسه ، وسجن الجسد يؤدي إلى الموت في عتمة المعـاطف (هذا شبـاط كما عودنا دائما) أي هـذه برودة الموت ، وفي شبـاط وحده (تنبت للماء مخالب معدنية . . وتتغلل في الظهر ذيول العقارب)وإذا كان الماء جمادا وفي الظهر عقارب ، فان هناك الجمـرة الوحيـدة التي تتعـرى بجنون ، كلما حـاصرها الهواء ألقت في زاويـة الموقـد كل ما يسترهـا من لهب . . الخ . في هذه معـان تتبادل المواقع ، أو بعضهـا يوصل لـلآخر = حلم الثعبـان = حجر دون فوهة ، وهذا يساوي القبر ، وهنا نتذكر جو الموت ، وتطل علينا هنا البندقية .

الموت برودة ، لـذلك كان العـالم المسجل كله آت مـن هذه البـوابة نفسها ، (كـل شتاء الأرض تكدس) . وهذه البرودة تستعيد الموت مرة أخرى ، حتى السيـارة الهرمة توحي بالانتهاء ، والبرودة هنا تتسلل فتصل إلى غايتها لذا يشير إلى أن بـرد الليل يتجسد في ثقب الجورب الأسود ، بل نصل إلى أكثر المناطق دفئا (شعرة مذعورة في ظلام الإبط) .

هذا الجو يسبق الإشارة الأولى إلى الحرب ، وهي المحور ، حينما يقـدم هذه الصورة : (في شوارع الحرب تصبح المدينة كل المدينـة شريطا لاصقا على الواجهـة الزجاجية لمحل فخم) ويصـور الكاتب صوت صفير نـذير الغارات فـلا يلجأ إلى الكلمة المبـاشرة ولكنه يسعى إلى رسم مقابـلات أو تجسيد لمعنى الصـوت ، فصوت الإنـذار يأتينا من خـلال الإيحاء بقولـه(أنين طائر أسطـوري . . ينتثر فـوق الجسور العالية) . وله مقابل آخر هو : (أظافر الصديق الصغير على خشبة الطاولة المدرسية) .

ولهذا الصوت صورة مرئية هي : صورة سكين تخترق عنق طائر . .

وتبقى لنا مشـاهد أخرى فيهـا طابع الصور المتحـركة ، فهناك تحت حـاجز الكونكـريت قطة جائعـة تنتظر فتـات الطائر حين يتساقـط فتلتهمه ، وهنا جمع بين صـورة الطائر الأسطـوري والطائر الحي ، إنها تنتظر طائراً وهميـا ، وفي زاوية أخرى نشاهد الطفـل الذي يجري حاملا كرتـه وما أن يشعر بالأمان حتى ينطق بلعن صدام .

هناك أيضا صورتان ، إحداهما حاضرة ماثلة والأخرى خفية ، فصوت الصاروخ الخفي يقابله صوت المقرىء ، إضافة إلى صوت صفارة الإنذار التي تجسدت في صوت طائر أسطوري ، ونلمس حالة التطور أو التصاعد في هذا الصوت الذي يبدأ بالأنين ثم تتصاعد حدته ، ويتحول الصوت ، بعد ذلك ، كأنه صادر عن هذا الطائر ، ثم صرخة أخيرة تدل على انتهاء فترة الخطر .

الطائر هنا يصور ويحيي حركات الموت من البدء حتى الختام ، فصوته هوصفارة الإنذار لذا يبدأ هذا الإنذار بأنينه وينتهي بزوال الخطر حين يطلق صرخته الطويلة الأخيرة واستخدام الطائر في الدلالة على الصوت والموت لا يقف وحيدا ، فهناك أيضا ذلك الثعبان النائم المحاصر بالبرودة وهكذا .

وبهذا جسد لنا الشعور الداخلي من خلال هذين العالمين المتصلين : الموت والبرودة .

في هذه القصة خطفات من زمن مرسوم ، يقدم لنا فيها عالما خاصا جسد ذعرا ، حاول الكاتب ، ولعله تمكن من نقل هذا التصور والوجدان . صحيح أن حيوية الشخصيات (البطل =الطفل =القطة)مفتقدة ، ولكنه حاول كسر الجو النمطي ، مع أنه وقع فيه أحيانا وهذا قلل استجابة التفاعل ، رغم الإمكانية التي لا نشك أن الكاتب يمتلكها .

لا نزعم أننا فهمنا تفاصيل القصة ، ولكننا من المؤكد عشنا جوها ، فقد حاول أن يخلق من هذه الجزئيات الإيقاعية إحساسا متكاملا أو نبضات متفرقة لتعكس عالما تحول إلى شظايا .

القصة ترصد صورة الآخر

ينتقل بنا ناصر الظفيري في قصته (البغدادي)(٩) إلى الطرف الآخر ، فالعدوان له جذور و إن عالم المعتدي عالم ممتلىء بالدم والموت ، لذا فالضحية الكويتية هنا تأتي فاعلة من جهة ، ولكن مساقط الرؤية الأساسية تجعلها مراقبة ، فتنظر بعين الكاشف والمكتشف لهذا العالم المجاور لها في الشمال ، فالتجربة القصصية تحدثت عن عمق المأساة الكويتية من خلال اتصالها بخط المأساة العراقية نفسها ، فالكويتي الذي يحاول أن يجد لنفسه طريقا للهرب من هذا الجحيم الذي فرض نفسه عليه لا يجد إلا المهرّب العراقي الذي يحاول تسهيل الهرب له عن طريق الدخول إلى العراق نفسه ، وهناك يختار له هذا المهرّب العراقي المحترف الصحراء ، ومن خلال هذه المجاورة القسرية تتكون المشاهد الكاشفة هذه النفسية التي سترافقه في رحلة الهرب .

إن التركيبة القصصية جاءت لتجعل من العراقي فاعلا ومحلا للتجربة المستعادة وبها تنكشف علاقات وتتحدد صفات . ويتجاور ثلاثة : الكويتي والمهرب والصبي البغدادي ذو السنوات العشر. وبه تكتمل مرتكزات التجربة أو هو أحد أطراف هذه التجربة أو المحنة .

القصة تبدأ بالحديث عن الموت وهي تضج به أصلا ، ولكن المفتتح دال على المسار العام (أموت من أجل حملة تهريب . . زجاجات ويسكي كافية لفصل رأسي عن جسدي . . جسدي المهدد بالموت هنا . . أو الموت هناك لكن الموت هنا رخيص . . ومكلف . . عليك وذويك ثمن الرصاصة . . وخرقة الكفن . ومسامير النعش والنعش وأجرة الحفار . . ما اسهل الموت هنا ! . في بلد الموت . .)

إذن بلد الموت هو المعادل للبغدادي ، ويتفرع من هذا المدخل عالم ظلامي مبرز للتشويه الذي يتبدى لنا من خلال ثلاثة جوانب تغطيها الحكاية : التشويه الجسدي ، والنفسي فالسلوكي ، فبلد الموت خلق عالما مشوها ، سلوكيا ونفسيا وجسدياً ، وليست رحلة الهارب المتخفي إلا لاكتشاف ومراقبة هذا العالم ، اذن هي قصة العذاب في تلك الأرض .

أول ملمح يواجهنا هو هذا التشويه السلوكي والمتمثل باحتراف التهريب ومعه في الوقت نفسه ، فصل الرأس عن الجسد من خلال غيبوبة الخمر، مع الاحتفاظ داخل الذاكرة بفصل الجسد حقيقة . وغيبوبة الخمر تأتي مع الكلمة الأولى : السكر وهذا السكر صفة ممتدة أو سلوك مستمر فهو إذا يجمع بين السكر وتهريب الخمر. وها هو الآن يسعى إلى تهريب شخص ، نحن إذن نواجه نموذجا لشخصية ألفت الخروج عن القانون السوي ، ولعل سلوكها في تهريب هذا الشخص وما ستكشفه لنا الأحداث يشير إلى أن هذه الشخصية هي السوية الوحيدة في عالم مختل ، لذا راحت تغيب عنه أو تواجهه بالخروج التدميري عنه .

المهرب العراقي شخصية . حين التأمل فيها ، سنجدها جمعت في داخلها عالمين هما الضياع والألم فليس سلوكه وحده الخارج عن القانون العام . ولكن تصرفاته المباشرة فهو قرين لخدر الكأس ، والشكل الخارجي يعكس طبيعة الداخل (عيناه تبعدان في محجرين برزت عظامهما . ووجنتان . . آه . . لم يكن له وجنتان خدان منبسطان يتجمعان للداخل كلما امتص الهواء من سجارته الطرية . . ويفترقان ككرتي تنس كلما نفثه للخارج . .)إن هذا التشويه الشكلي مقدمة لما سيتعمق بعد ذلك بتشويه آخر يتمثل في الصبي (البغدادي) الأعرج فيدخل هذا التشويه إلى عالم الطفولة من خلال هذا الصبي البغدادي الذي يوحي أيضا بالقدم والقذارة ، يقول عنه إنه : كصباح

ربيع قديم ، . . عيناه زرقاوان جميل وسخ . بهذا الصبي يلتقي التاريخ القديم بالحاضر : (ربما كانت لبغداد المنصور عينان زرقاوان وشعر كصباح ربيع قديم ، ولكن حتما متسخة كهذا البغدادي) الاستدعاء والمزج بين التاريخ والحاضر مفيد حين الوصول أواكتشاف هذا الحاضر المرعب والذي تجلى فيها حدث هذا الصبي فهذا الصبي البغدادي المشوه الناجي من المذبحة هو البقية البغدادية التى نحرت في المذبحة اهمجية التشويه السلوكي واضح في هذا العالم ، فنحن في الوقت الذى تظهر فيه مشاهد المساجد المهدمة يطل علينا ذكر صلاة الرئيس التي يصليها في غير أوقاتها .

البطل شخصية تهذي بمشاهد هذا العالم الذى ترقبه وتجد أن المقارنة بين تهريبين أو نوعين من التهريب ممكنة يقول للكويتي (على الأقل تهريبك حلال . . أما الوسكي . . لعنة الله على الوسكي)ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يستطيع أن يتجاهل أن الخمرة قريبة منه فهو إنسان تطل معاناته الداخلية وتتفجر حينما يتوقف في لحظة التذكر، والتذكر هنا نقطة زمن مسيطرة على الذاكرة التي توقفت عندها : (لم يتحرك من ذلك الزمن لم يستعد ذاكرته . . لكنه يمر دون ان يدري لماذا أو إلى أين . . من ذلك الخوف الذي انتابه . . لم يستعد مع الوقت ذاكرته) .

ولكن ما الذي توقف ، أو على أي شيء توقف؟ هذا هو المفتاح الأساسي الذي أقام عليه الكاتب قصته . إنها لحظة جريمة سابقة تستعاد مع وجود الجريمة الحالية في الخلفية فجريمة قائمة تكشف أو تسلط الضوء على جريمة سابقة . كان السائق شاهدا ومنقذا للبغدادي ، الذي نجا من (وجبة) القتل الجماعية المعتادة عند النظام العراقي ، ولحظة العذاب النفسي تكشف أيضا الفعل المشوه داخل هذا النظام : وقوف أجساد النساء والأطفال أمام فوهات البنادق ثم تهاوى الجثث وتكدسها فوق بعضها ، وكما روت أحداث (الأنفال)قصة الطفل الذي نجا ، فإن حكاية الصبي البغدادي هي نفسها حكاية الطفل الكردي تتكرر مصاغة صياغة داخلية لتعبر عن هذا التشويه الداخلي في النفس العراقية وبه يحمل المعنى الأساسي : (اسميته البغدادي . . لم يكن له اسم كان له تاريخ ، أما حاضره فقد بقي في الأخدود لم أستطع انتشاله) هذه العبارةلا يخفى معناها فالبغدادي لا اسم له ومن لا اسم له لا هوية له . والبغدادي تاريخ ، ولكن هذا التاريخ لا قيمة له لأن الحاضر، أو قيم الحاضر مطمورة في الأخدود المادي والمعنوي .

لم تكتف ريم الرفاعي في قصتها (عربات اسمها اعراب) (١٠) بتقديم التماسات الخارجية بين هذين الخصمين المتقابلين وكون الكويتي مراقبا متعرفا على بؤرة الانحراف التي كانت تكمن وراء الغزو والاحتلال ، ولكنها حاولت الاقتراب أكثر متلمسة تلك العناصر أو الوشائج التي كانت قائمة فتحطمت ، فهي تبدأ بتقديم الذات ، ذاتها أولا ، أو صورتها من خلال العاطفة الكاشفة والتي تأخذ

حدا قاطعا فتبـدأ بتقديم صورة وطنها الذي يتجسد أمامهـا من خلال ذلك الفهم الراسخ في أذهان كثيرة. هناك صورتان متضـادتان للكويت أولاهما مقترنة بالثراء الأسطـوري حيث ينظر إليها على أنها (امرأة بدوية سليطة اللسان صحراوية الطبـاع تنز مع كل خطوة تخطوها زيوت النفط من بين شقوق عباءتها. .)وهذه الصـورة المشوهة غير الدقيقـة . تتجاهل الصورة الأخرى التي تـأتي أيضا على هيئة (. . تـاريخ امرأة بحـريـة أسطوريـة الصبر خـرافته التأقلم مع تقلبـات الطبيعـة كافحت الإعصـار وسبحت ضد تيارات الفقر والذاتية . .)

في هذا المدخل ، بصورتيه ، تحديد للاتجاه وطبيعة التناول ، المتمثل في البعد العاطفي النابع من حس المرأة ، إضافـة إلى الدخول المبـاشر التسجيلي للأحداث والذي لا يتردد في أن يمـزج بين وضوح الواقع وتحليل الفن، بل أن الكاتبـة حرصت في هذه القصة أن تقـول وتستعرض أشياء كثيرة، وكأنها مقبلة على معمار روائي لا تشكيل لقصـة قصيرة، ومع ذلك بقي الخط الأساسي ممتدا منـذ البدء حتى المنتهى.

هذا البدء يأتي قبل الاحتلال أما الانتهاء فهو مع نهايته، ومن خلال مسار التلاحق المباشر جاءت هذه الثمرة التي لم تستطع التخلص من وهج اقتداح المأساة الحادثة، إنها تتناول تلك العلاقة الارتباطية على مستوى الواقع والإيحاء ، عندما كانت الحرب العراقية الإيرانية تعتبر دفاعاً عن البوابة الشرقية، هذا الالتصاق الذي أثمر تلاقياً تمثل في زواج طالبة الطب الكويتية من الأستاذ العراقي المغترب، وهذه الطالبة تحمل في داخلها، كما تقول، شخصية تمقت ما كانت تفسره بعنصرية والديها اللذين رفضا زواجها، وقد حملت أيضا في داخلها رفضا لابن عمها الذي امتصته الحياة السائدة، وفضلت الاقتران بقمر، ولكن هذا الانشطار أو الرفض يمثل حالة قبل اكتشاف حقيقة قمر، حينئذٍ سيكون ثمة رفض اخر له في هذه المرة، وسيؤدي إلى انشطار سيستمر معها حيث تقننه أو تبرزه من خلال البعد المادي المتمثل بنصفيها الأيسر والأيمن فيما بعد.

ولا تخلو شخصية (قمر) من هشاشة التكوين، ففي داخله تشويه يبرزه تناقضه، نجده في محاولته المستمرة للتخلص من ذاته عبورا إلى ذات أخرى مصطنعة، (وتذكرت المتيمة بداخلي فجأة أن قمر كان يحمل قبل عشر سنين اسم «فهد» ومن قبل كان اسمه كاظم، كل عقد كان له فيه عمر جديد واسم جديد. .).

ومن هذين الرافضة لمجتمعها والمشوه داخليا ، يكون التلاقي، وهو تلاق مرير، تجمعت معه روافد كلها تشير إلى هذا العالم المتعارض الذي لم يصل بعد إلى إدراك العلاقة السوية، تماما مثل

(شهرة)، أخت الدكتور قمر، والتي تقول عنها: إنها تقر أنى بالمقلوب. ولكي تستكمل المعادلة تلجأ إلى مؤشرات قراءة الغيب، فتطل علينا شخصية العرافة، وهي حيلة مكررة مثل الحلم، لتكشف لنا طبيعة الهواجس والعلاقات. تقول هذه العرافة:

(ستتزوجين رجلا من مدينة خالية من الحب، حيث تنسى المسميات أسماءها و الإنسان فيها رخص التراب وستحملين منه ابنا وتقتلينه). بهذه النبوءة توجز عناصر أساسية هي مؤشرات لمحور القصة الأساسي والذي سحل المرارة واحصاد المر.

هذا التلاقي المتنافر تتابعه المؤلفة ترصده مسجلة ذلك الرفض المستقر في نفسية قمر الذي يرفض كل انتماء لها، وهي في الوقت نفسه تجد في أصله وبنائه النفسي المضطرب مدخلا للهجوم عليه، وعندما تتشكل ثمرة اللقاء الطبيعية من خلال جنين، هذا الجنين المشوه قبل أن يكون، ويأتي الاحتلال ليفك أواصر التلاقي، فيتشكل الانشطار الكامن ويطفو فوق السطح: (شعرت في هذه اللحظة الحاسمة، وكأن بخالق قدري بركاني يعترض جسدي ويشطرني إلى نصفين متضادين كل نصف يشهد على نصفه). في هذه اللحظة يظهر هذان النصفان، النصف الأيمن قوي مواجه أما النصف الأيسر فهو مشدود إلى العاطفة، ويبرزان، بعد ذلك، في مواقف عدة، فعند تخلصها من الجنين تقول: (واحتفى نصفي الأيمن بميلاد القوة في أعماقي بينما شهد نصفي الأيسر على نصفي الأيمن وهو يبكي ابني الذي قتلته دونما ذنب..).

وسيبدوان أيضا في، الختام، عندما تفك أغلالها منه، أو تشهد التحام جزئها الأيمن مع الأيسر فاذا هي من جديد، ومع إطفاء الآبار كانت تطفىء آبار حيرتها وعبوديتها.

الاحتلال: أحزان صغيرة ومآس كبيرة معلقة

إن لحظات الفرح أو ردة الفعل الفرحة لن تؤخر كثيرا ظهور وبروز حالة الحزن الكامنة ومناطق الفجيعة المتعددة التي خلفها الاحتلال، ذيول نارية لا تنطفىء، واذا كان النفط المشتعل شاهدا ماديا مباشرا فإن هناك جوانب أخرى مهمة ومعلقة، فتحت سطح الفرح تكمن مآسي ما بعد الاحتلال، وهذه الأمور المعلقة سنجدها تتعدد بتعدد وتنوع الحالات، ومن هذه ما هو ساكن تحت هدوء الظاهر واللهب من تحت مشتعل، ولكننا سرعان ما سنجد إن هذا الباطن المفزع يظهر أمامنا دون حاجب، وهذا الأمر المعلق ستطل نماذجه وتتجلى مآسيه، ومن نماذجه ذلك الهم المعلق الذي تصدت له قصة (المعلقة) لريم الرفاعي، إن بذرة هذه القصة كانت موجودة في قصتها السابقة (عربة

اسمها أعراب) ، لذا جاءت قصة (المعقلة) (١١) منتزعة، أو أن مدار الاهتمام بموضوعها جاء مع الإشارة السابقة والتي وردت في لحظة محاولتها إسقاط جنينها وتداعياتها نجد أنها كانت تقارن بينها وبين الفتيات المغتصبات، فهي تتخلص من جنين ترفض والده، أما أولئك الفتيات فقد تم اغتصابهن عنوة بلا رحمة وحبلن بجنين الكراهية في أحشائهن قسرا واحتفظن به قسرا، فهنا رفض للفعل نفسه ونتيجته.

وسنجد تلاقيا أخر في الجزئيات الداخلية، يتمثل هذا بموقفها من ابن العم أو القريب أو ابن الشخص الأخر فقد رفضت في الأولى ابن العم الذي تجسد فيه الانسياق والخضوع لمغريات المادة فهو فاقد لشخصيته، ولا يختلف عنه الثاني الذي كان على خلافه خاضعا للتوجه الديني.

وكما أن البطلة السابقة تخلصت بالإجهاض من ثمرة التنافر، ستحاول هذه الأخرى ، بعد أن ملكت حريتها، أن تتخلص من الطفل بإلقائه في بيوت الأيتام. ولكن الموقف اختلف، فالتنافر يمكن أن يؤدي إلى إسقاط الجنين الذي لم يتخلق بعد، ولكن هل يمكن التخلص من طفل حي يتحرك؟. إن الحس الإنساني ينتصر، واذا كان الجانب الأيمن القوي تغلب سابقا، فإن الجانب الأيسر قد يأخذ فرصته في هذه المرة.

وعندما يعود التركيز على جزئيات هذه القصة ، سنجد ذلك التلاقي بين الدلالتين النفسيتين أو الموقفين واضحا من خلال اختيار العلاقة الجسدية وثمرتها المتعددة كإشارة إلى التلاحم والتنافر والاقتران، وهذا مدخل معهود، فالطفل أو الجنين ذو دلالة إيحائية متعددة الجوانب، وكذلك الربط بين جسد المرأة وشعورها والوطن. فهذه كلها عناصر متكررة في البناء القصصي. إن جسد المرأة هنا يمثل ملكية خاصة جدا، تدافع عنها البطلة، فهي تملك، شعورا ضخما إزاء هذه القضية، لعله يمثل ردة فعل ورفض للحدث المفجع (أنا الوحيدة التي لها حق التصرف بمصير جسدها سأختار مصيره بنفسي وسأختار ما إذا كنت سأحمل بأحشائي قردا أو فأرا أو ثعبانا عصفورا أم حمامة سلام..).

هذا الموقف الحاد والواضح من الجسد سيعمق لنا طبيعة التجربة التي خاضتها بطلة (المعلقة)، والتي كانت إحدى المغتصبات فأثمر اغتصاب الجسد ثمرة هي عثمان، والتي اضطرت إلى أن تقبل زواجها من ابراهيم الذي تزوجها لوجه الله ليداري العار ويستر عليها ولذا اكتسب اسم (الديك المقدام).

في هذه القصة يظهر وجهان لسلمى، بطلة القصة ، من خلال عالمين الانطلاق والانكسار، وعلاقتها القلقة مع ابراهيم وعثمان، فهذا ثلاثي عجيب بينهم تنافر، في لحظة الانكسار تقابلها الدكتورة بتول وسالم اللذان جاءا ، فقط ، ليقدما عالم الصحة والتوازن، وتسود بهما نعمة الإقبال على الحياة والتفاؤل والتسامح، وهي القضايا المفتقدة عند سلمى، مدرسة اللغة الإنكليزية التي كانت في سابق أيامها منطلقة مرحة.

التحول موجز هنا بعبارة وعلاقة: (وتغيرت بطاقة هويتها بعد ذلك أنا لم أعد تلك سلمى مدرسة اللغة الإنكليزية، مثقفة ومغناجة وأنت لم تعد ابراهيم مدرس التربية الإسلامية «الأبلة» اليوم صرت تحمل لقب «الشريف» وصرت أنا حطام امرأة بلا هوية عزباء أو عذراء طليقة ، أنا مصلوبة ومعلقة بحبال من مسد مشدودة بها من عنقي حتى قدمي).

إذاكان هذا مرتكز القضية، فإن جوانب المعالجة نظمت عالما ترابطت أطرافه قسرا بحكم الظروف، وهذا العالم له جذور ومن ثم امتداد، جذوره ذلك التكوين القديم لكل من سلمى وإبراهيم الذي أشارت إليه هنا، فثمة تاريخ يربط بينهما، فهذا المنقذ الشهم كان يميل إليها من قبل، ولأننا ننظر من الزاوية التي تقدمها إلينا سلمى فإن هذه العلاقة القديمة تأخذ شكلا محددا، فهي لم تكن منجذبة إليه، فعلى حد تعبيرها أنهما كانا قطبين متشابهين، ولم تكن تدري إن كانا سالبين أم موجبين، كل ما تدريه أن الأقطاب المتشابهة ، عادة، تتنافر ، ولم تنفر منه ولكنها لم تنجذب إليه. من المؤكد، أن الحكم الأولي الذي تشكل لدينا إنها هي القطب السالب أو المحايد في تلك العلاقة التي كانت من طرف واحد إن صحت. .

وتتجدد العلاقة التي ستكون من خلال تشبيه متكرر يجسد إحساسا محددا، سيطل علينا هذا التشبيه بعد ذلك حينما يلتقيان التقاء قهريا، (لم تكن أنت في دمي ولم تسبح تحت مسام جلدي لأسأل الوجود عنك، كنت متوازنة بوجودك وغيابك، كنت في محطتي دودة زائدة وكنت أعتقد أنه في مقدوري استئصالها بمجرد وصولي لمحطتي الأخيرة. .).

ولكن هذه العلاقة لم تكن بهذه الصورة، فالزائدة الدودية موجودة وغير موجودة في الأوضاع العادية، ولكنها عند المرض تصبح حالة تخلق الألم ومن ثم لا بد من التخلص منها، ومع ذلك سنجد أن الافتراق في الحياة قد تم، وتوزعا بين الشريعة والآداب ثم جاء هذا الظرف ليجمعهما معا، فإذا عثمان هو الطفل الذي يضمهما ولم يكن نتيجة لعلاقتهما.

ومع تشكل هذه العلاقة الجديدة تأتي الرحلة الداخلية صدى لانفعالات النفس، الاغتصاب فيه دلالتان، أولاهما من خلال الإسقاط السياسي المباشر على الاحتلال، والذي هو اغتصاب عام، ثم تأتي الدلالة الأخرى أي الاغتصاب الجسدي الواقعي، ومن خلال هذين الانتهاكين تتمحور أحداث القصة، وهي، وإن كانت تروي الحدث الخارجي، ولكنها تشبعه بالشعور الذي يكتنف الضحية، وهي ضحية من نوع خاص: ثقافتها شخصيتها توجهها، موقفها الخاص من ملكية الجسد، كل هذا أصبح حطاما، رحلة نفسية ومعاناة داخلية تصاغ مباشرة أحيانا من خلال التأملات وتسندها الأحداث من خلال وقوع ما لا تريده، لقد رفضت إبراهيم فقبلته فقد جاء متفضلا منقذا.

وتلجأ الكاتبة إلى الإيحاء أو التعبيرات غير المباشرة عن الجوانب النفسية الداخلية من خلال المقارنة بين ما كان ويكون، المستوى الأول يدخل من خلال قص الأحداث مباشرة والثاني من خلال التأملات الداخلية والثالث بواسطة المقابلات والرابع من خلال أجزاء من الموازنات أو إحدى المقارنات وأخيرا بواسطة المادي والمعنوي: الزائدة الدودية.

كل واحدة من هذه تعمق الشيء الواحد، ففي المقابلات نجد صورتها القديمة المباشرة مع صورتها الحديثة، الحالية، ويؤازرها ذلك اللقاء بينها والدكتورة بتول: (التي بدت جميلة أنيقة يافعة وإن الحياة لم تعركها بعد تشع بريقا وحماسة وحيوية وضحكتها تغمر بدفئها عشرين تعساً وصدى قهقهتها تيار سيصل التيار إليها ولن يكون في الشارع مصباح واحد معتم ما دامت امرأة مثلها تحيا وتضيء..) لم تكن هذه إلا صورتها القديمة مقدمة من خلال بتول.

الطريقة الثانية تكون غير مباشرة من خلال المؤثرات الداخلية بالسؤال الصريح مثل الصورتين اللتين عرضتهما الدكتورة: الأولى لامرأة رشيقة تنبض بالحياة والثانية ضخمة كالفيل وذات وجه مغولي وجسد منفوخ. التشويه الجسدي هو في الحقيقة تشويه نفسي، فواضح أن التشويه الثاني هو حاضرها والعالم المشرق هو ماضيها، وعندما قالت للدكتورة إن الأولى تمثلها هي أي الدكتورة نفسها وإن المرأة الثانية هي فإنها كانت تشير بذلك إلى الموقعين السابق واللاحق لها..

وطريقة ثالثة تتبعها لتجسد الواقع المعاش، فإذا كانت استعانت بالحلم والعرافة، في القصة السابقة، فهي تلجأ هنا أيضا إلى الحلم، وهو حلم مباشر، وهذا الحلم جاء على صورة دلالة ونبوءة تقول: (حلمت ان نبت لي ذيل طويل... الخ).

الذيل ومحاولة قطعه، اليد الرشيقة التي تمنعها والساحرة ذات المعطف الاسود التي تدون الملاحظات والتي تفسر حلمها بأن الذيل هو طفل هارب من ملجأ الأيتام يستغيث ـ لاحظ أن الحلم السابق عن طفل سيقتل ـ هذا الحلم تعبير مباشر لا يحتاج إلى تفسير، فهو محاولة من المؤلفة لتعطي امتدادا لذلك الصراع بين رغبتين إحداهما التخلص من الطفل المفروض في أحشائها، وبين تلك العاطفة الأخرى، التي تنازع هذه الرغبة، وهي على صعيد الواقع كانت تعاني من الموقفين معا أو في آن واحد. ولنقل إن هذه وسائل فنية لتقديم الشيء الواحد وتنويع تقديمه .

وهي ، من جهة أخرى، تقدم لنا صورتين متناقضتين متمثلتين في ذلك التعارض بين شخصيتها وإبراهيم الذي أصبح نصيبها (المتبقي لها) ، فصورة إبراهيم تقدمها على الشكل التالي: (ما زال ابراهيم طفلا لم يكتمل نموه بعد رغم تجاوزه الثلاثين، طفل في الثلاثين لم تبعد شرنقة طفولته. وعيناك ظلتا حجرتين تائهتين، مازالت لا تعرف أين أنت؟ وإلى أين تمضي؟ لم تكتشف بعد لون جلدك ومن أجلك ومزاجك وطعمك الخاص، ووجهك ظل كما هو خاليا من أي تعبير، وعيناك ظلتا مسمارين ولم تحسن استعمالهما، وطلعت من كهف محرابك، رجل بلا رائحة بلا بوصلة وبلا أسرار.). وهي، في المقابل وفي الموقع والمقطع نفسه) تمثل نفسها بالبحر الهائج .

هذه الثنائية، أو الإحساس بهذا الورم النفسي يعادله ألم مادي، وهذا الذي تسميه معادلها، مع تجوز، هو ذلك الإحساس بالألم والمتمثل بالزائدة الدودية، وهنا يظهر إحساسها بهامشية إبراهيم في حياتها، قبل الاحتلال وبعده، وتبدأ هذه الزائدة تطل من لحظة لأخرى منذ أن عرفا بعضهما قبل الاحتلال ثم تأتي المراحل على النحو التالي:

- (إبراهيم هذه الزائدة الدودية لا بد من إيجاد حل جذري لها قبل أن تنفجر داخلي وأتسمم دون آن أستنشق هواء الحوار النقي الصحي ـ حياديته كل النساء سواء) .

- (أشعر بوخزات دودة زائدة تكاد تنفجر بداخل أعماقي . . تنتابني أحيانا شحنات اكتئاب مكهربة ما أن تنطفىء حتي تعاود الاشتعال من جديد) .

- استمرار الوخز ثم انفجار الزائدة الدودية .

واذا كانت الصورة للزائدة الدوديةهي إبراهيم بكل ما يمثل من أفكار، فإن فكرة البتر والمساوي في الحلم للذيل هو هذا الطفل المفروض عليها في أحشائها .

المعلقة هي المصطلح القرآني الذي وصف فيه حالة من حالات المرأة وهذا التعليق الاجتماعي والنفسي الذي تعالجه هذه القصة، هو تعليق مركب، طبقاته تبدأ من موقف البطلة العام ممن حولها مرورا بتجربتها الجماعية المؤلمة وصولا إلى مأساتها الشخصية وسقوطها وهوة الضعف نتيجة الاغتصاب وانهيار الشخصية والثمرة المرة التي تحملها معها.

كل هذا تجمع ليقدم لنا نموذجا من إفرازات الاحتلال في حده الواقعي والنفسي، وقد صورت الكاتبة كل ما استطاعت أو رأت أنه جدير بالتسجيل لهذا الواقع المر، ولعلها في محاولتها لتعميق هذا بالجوانب المختلفة التي عرضنا لها قد أخلت أحيانا بالتدفق الفني، ولكنها مع ذلك لم تبتعد عن واقع المرارة الذي عزفت عليه في أكثر من موقع مع اختيار مناسب للنماذج البشرية.

ولكن تبقى المعادلة المحيرة لماذا كان إبراهيم هكذا، وإلى أى حد يرتبط هذا القران غير المرضي بالأمراض الاجتماعية الباقية التي لا تزال تسيطر على مجريات الأمور؟ هنا نجد من المناسب القول إن هذه القصة حملت في داخلها نبرة تحدٍ وثورة، ليس فقط على الاحتلال وذيوله ولكنها أيضا صرخة مضادة لكل من يريد أن يسحق المرأة ويجعلها جسدا مغتصبا حكما أو حقيقة.

خلق الاحتلال والحرب وضعا جديدا، وأقحم في الحياة قضية كبرى هي الفُقْدان والأسر ومن ثم عذاب الوله، وهذا الأخير عندما يتجزأ يتحول إلى معاناة يومية، ويتخذ شكل المراوحة بين معايشة تفاصيل الواقع وفي الوقت نفسه معاناة الانحسار الجزئي أو الانكماش إلى الداخل وتكون الأحزان الخاصة وحيدة غالبة تطفو على الحياة اليومية المشبعة بهذا الحزن والألم: (من علمها هذا الحزن)، (حتى أكلك مخلوط بالحزن). لقد استطاع طالب الرفاعي في قصته (أحزان صغيرة) (١٢) أن يصل إلى ذلك الخط المعبر عن مثل هذه الحالات، وتمكن من التقاط وانتزاع وتلمس نبض الحزن وصمته وتداعيات العذاب الخارجي والداخلي والمجاور، ليقدمها منتزعة من نفوس كثيرة لتركز في لحظة مبدعة هذه الحالات الجديدة التي تولدت من مثل الاعتقال والأسر والذهاب إلى المجهول والذي واكب الاحتلال والحرب.

إن نبضا إنسانيا دقيقا شفافا في حزنه يتشكل من خلال رحلة يومية وتتبدى أمامنا معها تلك العلاقة الحاضرة حضورا ماديا، الأم وابنتها، مع الآخر الغائب، الأب، و إحساس الزوجة بالدرجة الأولى بهذا . ولكن ثمة علاقة أخرى مختلفة هي تلك الخاصة بالتعامل مع العالم الخارجي باستمرار تستدعيه الضرورة الحياتية ، هذا العالم باستمراره وحركته الآلية ، وحول هذا أو ضمنه يأتي الدخول إلى النفس الذي استقصاه الكاتب ، كل هذه الأطراف استطاع تصويرها دون أن يبحث أو يتعلق

بحدث صاخب أو تحركات حماسية . إن الإنسان في وطنـه فرد من أفراد كثيرين ، ولكنه ضرورة وعالم ممتدة أجزاؤه ، وأساسي بالنسبة لعلاقاته داخل بيته ، وتتمحور وتتعمق أهميته أكثر فأكثر عندما نقترب من غرفة نومه ونلامس العلاقة القائمة مع زوجه ، حين نقترب من أسرة الأسير ، ومفرداتها اليومية وحزنها المجزأ على لحظات اليوم الواحد . إن القصة ناطقة بحزن شفيف ، وفقد محسوس مجسد ومعالج بطريقة ناضجة حية تصل إلى كل أطراف أعماق الإنسان وحاجاته في مثل هذه الظروف .

إن لقصة (أحزان صغيرة) مفاتيح كثيرة ، تتضافر كلها كي تقدم أطراف التجربة ، ولهذا لم يكن بحاجة إلى أن يقحم على القصة أسلوب التصريح المباشر الذي دلت عليه كل الجزئيات ، ولسنا بحاجة لأن يضع أمامنا بعد ذلك مفتاحا مباشرا ليدخلنا إلى خواطر الزوجة حينما قال : (أصغر أشيائنا صارت تذكرني بك . . وأبسط الأشياء صارت تبكيني ، صرت أتحجج بأتفه الأسباب لأبكي . . لم يعد يفرحني شيء ، أخذت فرحي معك ، لم يعد يلفت نظري ، يستوقفني شيء عندما أعزم على شراء غرض لي أتساءل . . لم أشتري هذا ؟! ولمن سألبسه ؟! ، ومن غيرك يستحق مني كل عمري . . ؟! منذ فترة أعجبني فستان . . بقيت أمر من أمام المحل لأكثر من أسبوعين . كنت أتمنى أن يباع ، أمر فلا أجده ، أخيرا دخلت . . تفحصته ، دخلت غرفة القياس لأقيسه ، وقفت أنظر لنفسي بالمرآة ، وفجأة رأيتك تطل من عيني دمعة ، ومسرعة خلعته عني ، وغادرت المحل . . أصغر وأكبر مشاريعي مؤجل لحين عودتك . . وحتى صبغ أظافري . .) .

إن هذا النص مع جماله وشفافيته ودقته ، فإنه مفتاح مباشر يمثل زيادة في السياق القصصي ، فقد كانت أشياؤها الصغيرة كلها دالة على الموقف العام نافذة إلى الصلب ، بدءا من اللحظة التي افتتحت بها القصة مع عودة الزوجة بابنتها من المدرسة ، فيندفع التداعي مع أول خيط طبيعي ، فهذا واجب كان يقوم به الزوج الغائب ، وبدأت الرحلة من هذا الفعل الذي لم يكن مريحا لها ، ثم تتوالى بعد ذلك مشاهد الطريق ـ الحياة ـ لنشهد مراوحة جميلة بين حديث الطفلة وأسئلتها والوعي بالطريق من حولها وهي تقود سيارتها ، وفي الوقت نفسه تنسحب إلى داخل نفسها ، في لحظات متقطعة طبيعية التداعي ، كل الجزئيات بعد ذلك مفصلة دون إسراف أو تضخم في السرد ، تأتي سلسة ، كما هي في الذهن والشعور ، الأحاسيس ، الأغاني ، الأزمنة ، حادثة الاعتقال ، لحظة الأكل المشتركة والتنقل بينها ولحظات قديمة حاضرة ، الشخص الثالث الحاضر ، وصولا إلى الحاجة الإنسانية ، من علاقة الأمومة بالأبوة ، الرجل بالمرأة وصولا إلى الجنس .

لقد خلق المؤلف عالما هذا الثلاثي المكون من الأم والابنة والأب الغائب ، لقد كان الطرف

الغائب حاضراً مؤثراً ، وتضافرت عناصر لترسم العالم الداخلي والمشاعر ، وتلك القوى الممتنعة والمستعصية عن الصعود إلى السطح ، فالوصول إليها يحتاج إلى جهد . لقد حشد المؤلف كل ما يمكن حشده ، مهما كان يبدو زائدا عن الحاجة ، فإن فيه إضافة مفيدة . لقد وظف الدلالات الصغيرة ، الحلم ، الاحتياج إلى الحب والإخصاب والعلاقة اليومية . يقول : (للحيوانات مواسم للإخصاب . . بالنسبة للإنسان لا وقت محدد للحب . . دائما نحن متعطشون للحب . .) ، (من أين تجيء هذه الرغبة الجامحة للاتحاد بآخر ، والموت على صدره) .

وحول هذه يتعملق الاغتصاب ، (أتراهم مرضى أولئك الذين يقدمون على الاغتصاب؟) . إن في هذا إشارة اللاوعي لحادثة اختطاف الزوج ، واغتصاب هناء الأسرة ومن ثم اغتصاب وطن بكاملة ، المفردة هنا تشكلت ضمن تداعي امرأة فقدت زوجها ، ولكن الجو الذي عاشته تولد مثل هذه الكلمات والعبارات .

وهكذا تتكون القصة دون افتعال ، فنحن أمام مستويات من العلاقة ، أولها حضور الآخر الغائب ، المخطوف ، الأسير ، فبه تشكل عالما من خلال مواقف ، وكان اختيار (الأنا) المتعاملة مع المحيط أو إزاء الإطار المحيط بها مسهلا لحالات الانسحاب إلى الداخل ثم العودة إلى الخارج وهكذا تتم المراوحة بين حالات طبيعية المنزع لافتعال فيها ، حتى المضايقة غير المقصودة في الطريق العام والمتمثلة في استعجال سائق سيارة لها ، تطل علينا موحية بعالم الآخرين المتحرك ، القطع بين الحوار ، الأحداث الخارجية ، الحوار الدائر بينها وابنتها والأسئلة المتبادلة ، كل هذه تمثل حلقات اتصال دائمة بين الاثنين ، ليست رحلة داخلية او خارجية ، أحادية النظرة ، ولكنها مزج بين الاثنين ، الوصف والمتابعة الواقعية إلى جانب التجوال في الفراغ الداخلي أو ازدحام الأخيلة وتضخمها أو الشوق إلى عالم كان .

إن ثلاثة خطوط متوازية تتجاوز وتتقاطع في بساطة هذه القصة الخالية من الانفعالات الحادة أو الأحداث المثيرة ، مثل حدث الاعتقال والذي يمثل حدثا غير عادي في حياة عادية ، فإن هذا الحدث لم يسيطر على الخط الرئيسي للقصة ، فقد ظل ، رغم مركزية أثره ، في حيزة البسيط من حيث العرض ، و إن كان في النهاية يطل علينا مهيمنا على الانفعال في داخل نفوسنا نحن المتلقين لأنه كان بداية البدايات .

تجمعت الجوانب الثلاثة : اليومي العادي ، الذي يمثل إيقاع الحياة اليومي من إحضار الابنة من المدرسة ، الطريق ، الأكل النوم الخ ، وبه وحوله يجاوره العالم الثاني ، الإنساني الجسدي الذي يبدأ

بالإخصاب وصولا إلى برودة الفراش الليلي بإشارة إلى الجنس والعطش المادي والمعنوي. في المقاطع الأولى، تأتي الإشارة إلى الإخصاب. وفي الختام نلتقي بالفراش البارد، ويكمل هذه العوالم ذلك الفراغ الذي تحس به والحنان الذي تتذكره، لحظات العناية بها، الماء والكأس وتأتي الإشارة الدقيقة من خلال أغنية وزمن. فالزمن خريف تتساقط فيه أوراق الأشجار، تماما كما تساقط الحب، أما الأغنية فهي تشير إلى الورق الأصفر المتساقط، إنه تساقط العواطف والإحساس بالحزن حيث الشتاء القادم البارد. فهذا ما ينبيء به الخريف. فإيقاع الأغنية يشي بهذا.

أما الساعة المؤقتة فهي زمن آخر يتبدى لنا، فمنذ أن دخل الجنود افتقدت الساعة المؤقته، المنبه. لقد اختفت، كان هو الذي يضبطها، إشارة إلى ضبطه لعالم الأسرة الصغير جسدا ونفسا وحاجة، العطش المزدوج، كأس الماء الذي كان يضعه قربها: (.. ربما تعطشين في الليل .. سنة وأنا عطشى، أين أنت ياحبي .. بارد الفراش بدونك .. كل ليلة أتمدد لوحدتي أعود طفلة صغيرة أضاعت أهلها. تجلدني وحدتي، وأبكي، ولكن .... ـ أين الساعة).

وتنتهي القصة، عند لحظة البحث عن الساعة التي فقدت، لأول مرة، مع حضور الجنود، فقد كان هو ساعة الأسرة..

كانت الأعمال السابقة تقدم قصصا من منظور الفن المنفعل مع الحدث، ولكنه انفعال الفن المعبر المستوفي بعض أدواته الفنية، ولكن هذه لاتقف وحدها، فهناك، في مثل هذه الأحوال غير الطبيعية تتولد مناطق من التعبير تتخذ من مشروعية المعاناة المباشرة، أو الرصد القريب المستقصي ملاذا لها كي تسجل معاناته متخذة من الشكل القصصي إطارا عاما أو وسيلة قريبة. وهذه المحاولات التي تحظى بقبول المنهج التسجيلي المباشر تكثر في مثل هذه الحالات، وقد صدرت مؤلفات كثيرة كلها اعتمدت على التسجيل وتسلحت بحرارة المعايشة وشدتها التي برزت أمامها فكان الدافع جارفا للقلم كي يروي ما شاهده أو عاصره أو عاناه، وفي هذه الأعمال يتجلى حسن النوايا، ولكن في بعض الأحيان يكون في النية الحسنة لمسات من التوفيق أو لقطات جديرة بالتوقف وقد تولد وتتشكل قصصا جديرة بأن تأخذ مكانها في الرصد التاريخي للمرحلة، ولهذا أجد أن ثمة دافعا قويا للوقوف عند نموذجين من هذه النماذج، تمثلا في مجموعتين قصصيتين أولاهما لكاتب ليس له تجربة سابقة منشورة أما الثاني فقد أصدر من قبل بعض الأعمال القصصية، وفي كلتا الحالتين فإن المجموعتين تتقاربان في مستواهما واتجاههما التسجيلي.

الشهادة من واقع التسجيل

تأتي محاولة الدكتور خالد الصالح (جريمة الحي الشرقي) (١٣) التي أطر عنوانها بقوله (الاحتلال العراقي للكويت في: جريمة الحي الشرقي) وأكد أنها مجموعة قصص قصيرة تعكس واقع الغزو العراقي للكويت هذه محاولة إنسان يسعى جاهدا كي يقدم فنا قصصيا، فاقتحم هذا المجال دون إحاطة كافية بفن القصة القصيرة وتصدى للكتابة دون تجارب سابقة، ولكن هذا لاينفي عنه مقدرته في السرد وتشكيل العلاقات والتقديم والقلم القادر على الوصف والإحاطة بما يصف، وإن كان أحيانا لم يستطع أن يخرج عن حد الحكايات المبسطة لمواقف ولقطات لاتكاد تقترب من خصوصية الفن القصصي حتى تتباعد قليلا عنها، وفي مواقف التميز نجده يقترب من نصاعة العرض وحسن المدخل ورسم الإطار ولكنه في الأغلب الأعم يقف عند الحد الخارجي، وقلم الكاتب يبدو لنا أحيانا شفافا قادرا على الإلمام والإحاطة بالجو الذي يرسمه بحسن التمهيد أو الدخول، وكثيرا ما يوفق في الصياغة وجذب الانتباه ولكن لقطاته أحيانا قد لاتساعده أو لاتسفر له عن وجهها الفني المحكم. وقد تضطرب أحيانا وخاصة عندما يعتمد على المفارقات البسيطة أو الساذجة أو ينقل منها ماهو مروي كما سمعها.

هذه إذن شهادات تسجيل تحاول أن تصل إلى أن تكون شهادات تعبير وتجسيد فتنجح في مواقع وتتخلف في مواقع أخرى، وكان الكاتب، يحافظ في أكثر المواقع، على مقدرته في الصياغة وحسن المدخل واختيار زوايا يمكن تطويرها، ولكنه كان عاجزا عن إدراك حساسية الشكل الفني للقصة القصيرة فيفلت منه أحد عناصرها. ولعل مرد هذا أنه انجذب إلى الحادثة أو المروية التي يريد أن يسجلها دون أن يدع لها فرصة الاختمار واختيار الشكل المناسب للتحول من حادثة إلى حدث قادر على إعطاء الشمولية والعمق..

يعد هذه المجموعة قصتان أولاهما تبدأ أحداثها مع الاحتلال والثانية تأتي مع الانسحاب أو الهروب وانزياح هذا الكابوس، والشخصية المتكررة في هاتين الحكايتين هي طبيب يقدم نفسه شاهدا على مابين الحادثتين. وإذا كانت هاتان الحادثتان المرويتان تصوران وجها قاتما أو تسجلان ذلك الجانب الجاد والحاد في مأساوبته، فإن ما بينهما يقدم مواقف متفاوتة القيمة تبعا للحادث المروي، فيتدنى في أسلوب المفارقة الشكلية إلى مرحلة التقاط المادة الخام ووضعها مع نظيرتها في تجاور مباشر كما في قصة (إثبات ملكية) مكتفيا بربط عام، فقد جمع بين طُرفتين مرويتين (أولاهما) هي استخدام بطاقة السحب الآلي لإثبات الهوية للجندي الجاهل الذي لايفرق بين الاثنتين.

والحكاية أو الطرفة الأخرى في قصة الرجل الذي انتحى يصلح عجلة سيارته المنفجرة، فوجد في الجانب الآخر من السيارة جنديا يفك العجلة الأخرى معتقدا أنها سيارة مباحة للنهب والسلب، لقد جمع الحكايتين المتداولتين وجعل بطلهما واحدا.

ويدخل ضمن هذا الخط، مع اختلافات شكلية، قصص أخرى مثل (مظاهرة) و (جرس إنذار)، فالأخيرة تكشف أيضا جهل جنود المحتل وتخلفهم وعدم قدرتهم على التعامل مع أدوات الحضارة البسيطة والتي تعري الوجه الآخر للمحتل الذي قام بتجهيل شعبه وحرمانه من أبسط حقوقه في الحياة، ولاتختلف عنها القصة الأخرى (مظاهرة)، فهي تتحدث عن واحدة من تلك المظاهرات المصطنعة التي كان المحتل يحرص على تصويرها، وكان يحاصر الناس في الشوارع ويبدأ التصوير. وفي قصته هذه يسجل وقوع اثنين من المواطنين في شباك مثل هذه المظاهرات، فيضطران إلى الهروب من عيون الكاميرا بالنزول أرضا ويندسان بين الأقدام. وقد حشد لهذه القصة مقدمات لاصلة لها بالحدث المباشر، فهي سرد لهوامش لاتمثل مقدمات لها، ولو أنه بدأ من اللحظة نفسها لكان أكثر اقترابا مما أراد.

ولكن مقدرته الكامنة تطفو على السطح وتتبدى لنا في القصص الثلاث (خيانة) و (سهم) و(الخبراء)، ولكنها لاتصل إلى مستواها المفترض حين تستبد به نبرة الوصف المباشر، ففي القصة الأولى (خيانة) تمكن من التقاط شخصية (أحمد الصالح) وأحسن رسم المدخل لها، فهي شخصية مُحبة للطيور، بسيطة في علاقاتها، لذلك قامت علاقة بينها وديك. وتتخذ الحادثة حيزها ليلة أن كَبَّر الكويتيون احتجاجا على الاحتلال، فيختلط عليه التكبير من خلال صياح الديك فيؤذن (ويداهمه) الجنود الذين يتهمونه بأنه من المقاومة. وبدأ مسلسل السجن والتعذيب، ولكن الذي يشغل فكره هو لماذا اعتبروه من المقاومة، ثم يكتشف أن الديك ضلله وأنه سبق الوقت الشرعي وكان هذا سبب اعتقاله.

ومثل هذا الخلط يهد البناء الفني من أساسه، فقد كان سوء الفهم، أو الخطا غير المقصود هو العنصر الذي استبد بالقصة دون أن يعمق الحال التي تحيط عادة بمثل هذه الاعتقالات، إن بساطة أحمد وارتباطه بالطيور وتغذيته كان مدخلا لعمل قابل للنمو.

وبمثل هذا تتبدى القصة الأخرى (سهم) التي تدور حول الفرس الأصيل الذي نكّره صاحبه واستبدله، قبيل الاحتلال، بحصان غير أصيل، وجاء كبار القوم من المحتلين ليستولوا على الفرس، فكان نصيبهم الحصان غير الأصيل. وفي مثل هذه الحادثة عند الكاتب المتمكن العارف بفن القصة

تختفي المفارقة الفنية الدقيقة لتبرز دلالة ويتعمق الرمز أو الإيحاءات وهذا مالم يستطع الكاتب أن يصل إليه وإن قدم تسجيلا حسنا.

ولعل قصة (الخبراء) هي الاحسن صياغة، وإن أخل بها إن مرتكزها نكتة سمجة أطلقها قائد النظام العراقي حينما قال إن طائرة (الشبح) سيكتشفها الراعي في الصحراء، فهذه الطرفة لاتحتمل أن يبنى عليها أساس قصصي متين، ومع ذلك كان الكاتب أكثر توفيقا، فقد امتاز قلمه بالتركيز وحسن الصياغة الدال مع الغاء كل حشو كان يضعف قصصه الأخرى ويسطحها، وقد جاء ختامها موفقا متسقا مع التكوين العام لنفسية النظام وقسوته، فبين فحوى تقاريرهم التي تقول (سماؤنا خالية اطمئنوا) وبين تعليقهم من أعناقهم جاءت الكلمات بدقة ودالة مشيرة إلى كاتب يملك فضيلة التركيز الفني الذي تتطلبه القصة.

الكم الأكبر من هذه القصص جاء معتمدا على المفارقات المبسطة وحمل معه روح الدعابة أحيانا، إضافة إلى محاولته بسط غلالة الحزن أو الجانب المظلم المؤلم والذي يتبدى لنا في بعض القصص الأخرى وأبرزها القصتان اللتان حددتا المجموعة، الأولى والأخيرة، وفيهما يتوحد الشاهد الذي يبرز لنا في شخصية طبيب القصة الأولى (ثنوه) التي يستحكم فيها المرض ولاتستطيع أن تخرج للعلاج إبان الاحتلال فتموت على مرأى من الطبيب الذي يقف عاجزا وشاهدا في آن واحد، ولعل هذه اللقطة الأولى حاضرة في القصة الأخيرة (الشاهد)، وهو طبيب أيضا، لهذا لم يستطع النصر أن ينتزع منه الحزن والألم الكامن والمخزون في داخله، فقد رأى رجالا قطعت أوصالهم وأطفالا أخرجت أحشاؤهم، فهو شاهد لايستطيع أن ينسى، يقولها بنبرة خطابية متسقة مع الجو العام الذي كتبت فيه هذه القصص.

وهاتان القصتان: البدء والختام تقدمان لنا العجز، عجز العمل وعجز النسيان، وهذه الإشارة يجسدها في قصة (الذبيح) وهو رجل تعرض بيته للانتهاك حيث قيده المعتدون واغتصبوا زوجته.

لم يستطع الكاتب أن يحيط بمثل هذه الشخصية المركبة والتي كان من الممكن أن تكون ثرة العطاء لو أنه أحسن الإحاطة بأطرافها، ولعل هذا يذكرنا أيضا بذلك التوقف عن حد الظاهر جريا وراء التصوير المثالي الخارج عن حد النمذجة الفنية التي تتناول العام الشامل. فقصة (المعروف) لاتزيد عن كونها حكاية تنضم إلى نمط الحكايات أو القصص التراثية التي تقدم لنا نموذجا مكرورا[١٦]. انها قصة ابنة من خط صناعه الأحداث الخاصة جدا. فالمعروف، وهو ممكن

بل كثير ولكنه لاينهض كي يعبر عن هذه المواقف الحديثة المعقدة، فالقضية ليست قضية علاقات فردية تحكيها الحكايات. مع أن الكاتب استطاع أن يقدم لنا عرضا حسنا للأحداث من خلال شخصية الضابط الذي روى الحكاية، وإذا كان الحس الشعبي والتراثي قد تركا أثرهما أو بصماتهما على هذه القصة فإن (الفنتازيا) أو تهويمات الخيال حينما يركب حدثا معينا يدفع الكاتب في القصة الأخرى (حوار) إلى تصور القلب والعقل وقد انفصلا عن صاحبيهما وأدارا حوارا بينهما، فالجندي العراقي يتذكر زوجته وابنته ثم يغرق في سبات عميق حيث تخرج قطعة اللحم هي القلب (إلا أن في الجسد مضغة إذا صلحت. . الحديث). ويقوم هذا القلب بجولة حيث يلتقي بالعقل الذي خرج بدوره من جسم صاحبه، ويدور الحوار حول ماحدث في الكويت التي لم يكن بها ثوار أو أن هناك دعوة إلى الوحدة، إنها دمار ونهب يتنافيان مع الضم، إنه غزو جاهلي بل أنه أقسى من هذا: فهو إلغاء وطن ومسح هوية، وتخمد حماسة القلب الذي وقوده الشعارات الرنانة والعبارات الموسيقية فدبت فيه البرودة.

إن قصة تأخذ هـذا المنحى تحتاج إلى خصوصية في التنـاول وعمق بتجاوز الطرح السطحي او المشاهـد المسطحة إلى ما هو أعمق وأشمل، أمـا هذا الحوار فلا يحتـاج إلى نـوم وعقل وقلب، إنه أقل من أن تغلفه الأحـلام. أما القصة التي اختار عنوانها للمجموعة: (جريمـة الحي الشرقي) فيبتعد فيها عن التسجيل المبـاشر لأحداث الغزو والاحتـلال ويستخدم الأسلـوب البوليسي الملغز لتصـوير الحدث السياسي، فدخل على مـوضوعه من بوابة الجريمة الغـامضة التي يبحث عن أداتها ودوافعها وتفسيراتها ومن المستفيد منها، وجعل هـذا محورا يدور حوله التسـاؤل البوليسي، وواضح أنه يسجل النظرة التي تـرى في الاحتلال خيـوطا لجريمـة غامضـة تحتاج من أجل فك مغـاليقها لخبرة مـزدوجة يشترك فيها ضابط الشرطة المتقـاعد وتلميذه، فيدور حوار حول صفـات شخصية القتيل، وتبدو لنا صفات القتيل: التـاجر الكويتي الممثل للشخصيـة الكويتية، فهذه الشخصيـة محددة ومقصودة، قدمها بإطـارها العام المعروف مشيرا إلى الأخوة المتـوزعين بين الغنى والفقر أو المتفاوتين يسرا وعسرا، وإن أعداءه غير ظاهرين، أياديه كثيرة، فقـد شيد المساجد والمدارس، زوجته وأولاده خارج البلاد، وهكذا يـؤطر الحدث بظـروفه الدالـة والمتصلة بالجريمـة السياسيـة والحدث الكبير. وتأتي بعد ذلك دوافع الجريمة واحتمالاتها، الجامعة بين القصة والاحتلال، بجانب هـوية المطعون، وحادثة الجريمة إضافـة إلى هذا التخريب المتعمـد، لهذا جاءت تساؤلات الأسـتاذ مُنبهة إلى هذا الجانب، فهـذا هو الذي سيهديه إلى القـاتل ويضع أمامنا عنصرين متضادين: البناء والتخـريب، إن شخصية التاجر الكويتي بناءة، ومن ثم فـالمضاد ها هو التخريب أو المخرب، فالمجـرم معاد للبناء، لهذا فلن يكون أحد الأخوة أو الأصدقاء؛ إنه عدو لهم، يتحدد هذا في الحوار بين الأستاذ وتلميذه:

ـ أليس غريبا أن يشيد خارج بيته ويأتيه التخريب داخل البيت .
ـ لم أفهم مرادك؟
ـ أبحث عن المخرب .
ـ نحن الشرطة نبحث عن دافع الجريمة .
ـ والتخريب؟
ـ ليس بدافع فلا أحد مستفيد .
ـ بل هناك المستفيد؟؟؟
ـ من هو المستفيد؟؟؟
ـ من لا يريد البناء .
ـ لا أحد يريد منع البناء .
ـ كثيرون لا يريدون البناء . . أبحث عن المخرب .
ـ أريد الجاني . . . هل هو أحد الأخوة أم أحد الأصدقاء .
ـ المخرب ليس واحدا منهم . . بل عدواً لهم جمعياً . . ص ٨٥ ـ ٨٦ .
إذن التخريب هو المحور الأساسي ، وليس القتل الدافع الخفي القابع وراء الجريمة .

إن هذا الفهم يبتدىء بالتفريق بين القاتل والطاعن ، فبينما يرى الشرطي أنهما واحد ولا فرق بينهما يذهب الأستاذ إلى أن المستفيد لا يخرب أما الحاقد (فالقتل يشفيه والسرقة تكفيه ، ولا معنى للتخريب ص ٨٧) ومن ثم فإن خيوط الجريمة لم تتكشف بعد .

فكرة المؤامرة الكبرى هي التفسير المناسب لهذه القصة ، فقد خرج من متابعة الحوادث اليومية إلى الإطار الأوسع . ويبقى السؤال لا جواب له . شيد الكاتب قصة تزخر بالتساؤلات والعلاقات مكتفيا بالحد الأدنى من العرض ، وبقي الحوار ، بعد ذلك ، أميز ما في هذه القصة ، وهو حوار لايركز على غموض الجريمة ولكنه يتأمل فيما حولها .

ويبقى الاسم ماثلا أمامنا فهذه جريمة الحي الشرقي ، أي الحي كله وليست جريمة في الحي . . .

من التسجيل والرصد إلى ليالي الجمر

في مجموعته (ليالي الجمر) (١٥) اتبع حمد الحمد منهجا منسقا في شكله الخارجي كي ينفذ إلى

معالجة وتقدم رؤية محددة لتلك الفترة الزمنية الممتدة من ٢/ آغسطس حتى مارس ١٩٩١، فقام برسم قوسين حدد في داخلهما إطارا خارجيا للأحداث، ليقترب، بعد ذلك، من عدد من الجزئيات التي حاول أن يحاذيها مسجلا تسجيلا دقيقا في حين وخارجيا في أحيان كثيرة، نافذا في بعض اللمحات، إلى الدقائق التي يمكن أن تخلق انطباعا مؤثرا. .

ضمت المجموعة أربعة عشر موضوعا أو مفردة من مفردات التناول منها ما يدخل ضمن التناول الفني المباشر لحادثة الاحتلال، ومنها ما يقوم بدور المسجل المتابع، وتنفرد القصة الأولى (وجاء الخريف)؛ فهي تعود إلى فترة سابقة على الغزو، ولكنها، مع ذلك، يمكن اعتبارها مقدمة طبيعية لما سيأتي، فموضوعها أو محل الارتكاز فيها هو ذلك الجانب الذي سيأخذ حيزا بارزا في بقية القصص، فهذه القصة تقدم لحظة القلق وعذاب الحياة في مقابلة الموت.

كان الاختيار هو النقطة الوازنة بين رغبتين، حين تتحكم رغبة الفناء والتدمير في إرادة إنسان ما، فهو قد وصل إلى خريف القرار وخريف العمل، وهذا البعد الإنساني الذي لا يتوقف عند حد هو الجدير بالنظر ومن ثم تدخل هذه القصة دخولا مشروعا ضمن مجموعة معينة تخلقت في ظرف آخر طارىء غير معادلات كثيرة وخلق نفسية واستجابة مغايرة، إن ما حدث بعد ذلك إنما هو خريف معنوي ومادي، فمع بداية الصيف كان من خلفه خريف آخر حاملا معه الاعتداء والحرب، أي اختبار الموت والانتهاء، ولهذا جاء هذا الاتساق بين هذا المدخل والمجموعة، فهي أشبه ما تكون بالدقات المقدمة لرفع ستارة الموت الدامية على ما سيحدث بعد ذلك.

وتأتي، بعد ذلك، ثلاث عشرة قصة، ويدل تشكيلها وتنظيمها على أن الكاتب حرص على أن يقدمها بشكل هندسي يحدها من الخارج، فأقام قوسين أحدهما هو (الفجر الحزين) ويقابله في الجهة الأخرى (الفجر السعيد)، ولم يكتف بهذا، فقد مهد أو قدم لكل مرحلة بما أسماه لوحتين، الأولى (بيان رقم ٥ . . الفجر الحزين) وهو البيان التسجيلي الوحيد الذي أذاع ما حدث والذي صرحت فيه وزارة الدفاع بدخول القوات العراقية إلى الكويت وأذيع من الإذاعة وهذا البيان هو الإيقاع المميز الذي مهد للقصص الخمس الأولى التي جاءت بعده، ويقابله في الطرف المكمل اللوحة الأخرى التي تأتي في مقدمة القسم الثاني، وهي تعكس بدورها ما سيأتي، فهي ضرورة تسجيلية وفنية، وهذه المرة تنعكس الأحداث، ويأتي هذا النص التسجيلي ليس في صورة صرخة إذاعية ولكنه في صورة تقرير صحفي، فتعرض وكالات الأنباء لليوم الأخير من القتال وتقدم قوات التحالف، حتى إعلان العراق انسحاب قواته إلى ما كانت عليه في الأول من أغسطس.

من وحي هذين الفجرين المتضادين تتشكل القصص.

ولكن ثمة تنويعا آخر ختمت به هذه المجموعة، وهي وإن كانت تحت إطار الفجر السعيد إلا أن اسمها (الطريق إلى الكويت) (١٦) وفيها تجميع للحالات كلها، أو لما تم خلال أو بعد الفجرين معا، وكان الشكل متخذا إطارا معينا سار على النحو التالي:

- الوقفة الذهنية من خلال الرحلة العكسية، أي الارتداد زمنيا من خلال وسائل عدة.
- الحوادث من وجهة نظر تكشف لحظات (الفجر السعيد).
- المذكرات تكشف الفجر الحزين.
- خطان أولهما تمثله الشخصية القادمة من الخارج، والثاني تقدمه البطلة المقيمة في الداخل، ويلتقي الخطان فيما بعد.

(القصيدة الأخيرة) هي أولى قصص (الفجر الحزين)، تقدم حالة انفعال يدفع بطل القصة الشاعر إلى الفعل المباشر الذي يزيل الاعتداء، لذلك نجده يحاول أن يقيم معادلة تقوم القصة عليها، فثمة قصيدة تتخلق ولا تستوي لأن الفعل يزاحم الكلمة، فالشاعر، بطل هذه القصة، في عودته حين الكارثة يعجز عن أن ينطق بقصيدة: (آه.. قصيدة للوطن). وهذه (الآه) في القصيدة هي أول ردة فعل للإنسان الشاعر، ولكننا نجده عاجزا عن جعل القصيدة تتخلق أو تتشكل. لقد ظلت عند حدود الحروف الأولى، وإذا كان الشعر يمثل عودة للذات، فإن الشاعر ينتقل إلى هذه المرحلة، فعقله ومشاعره يدعوانه إلى الكتابة عن عالم الأمس وعالم الأمس فيه أيضا الموت والحياة، فالفجائع تبدو له واضحة مثل اختفاء سعد في البحر، وهذه خصيصة من خصائص البيئة، عرف الموت كما سيعرف الحياة، وإذا كان الموت الأول قدريا فإن موتا آخر قد يأتي، ولكنه في هذه المرة للوطن، من موقع الاختيار في سبيل الوطن، ولكن من الواضح أن ملك الشعر النبطي، وهو أكثر من يردد إيقاع الحرب والحماسة، هذا الشاعر عجز عن أن يتجاوز الحروف الأولى بعد إطلاقه زفرة الآه!!

الختام واضح عندما يستقل المركبة العسكرية ويسقط الورقة البيضاء، لقد بدأ الفعل، فعجز صاحب الكلمة صار الاختيار لصالح الفعل.

إن الدلالة ساذجة، فالكلمة ليست بالضرورة نقيضة للفعل، وهو ليس نقيضا للكلمة المقاتلة، فإقامة المعادلة بين الشاعر والمقاتل الفاعل تحتاج إلى ماهو أشد من تصوير العجز من خلال

عدم القدرة على الكتابة، إن ثمة نوازع داخلية عميقة تسبق اتخاذ القرار أو تعوقه، والذي يأتي بعد ان صنعت مقدماتـه من تصوير العجز والمحاولـة، خاصة وأن تجربة تصوير هـذا العجز أو التردد أمام الفعل قديم قـدم تردد هاملت وحيرة حلاج صـلاح عبدالصبور، ولكن هل الموقف أو المقـام في هذه القصة يستدعي مثل هذا؟.

إن اختيار لحظة مثل هذه أمـامنا يحتاج إلى مقدرة من نوع خاص لم يصل إليهـا الكاتب بعد، هذا نجده ظل واقفا عند الحد البارز الظاهر الذي يقف عند السطح، رغم محاولاته المتعددة الظواهر كي يتجاوز مرحلة الاخبار أو الوصف إلى مرحلة الوصول إلى لمس الخط الأعمق في التجربة الشاملة.

إذا كانت ردة الفعل الأولى للفجـر الحزين هي هذا الاختيـار فإن جزئيات الصورة تتشكل في القصص الأخرى من هذا القسم فتنقل إلينا وجهة نظر استعـراضية لجانب آخر هو مواجهة الرحيل، والرحيل هنا أشكال متعددة، تبدو أمامنا منه ثـلاثة أنواع تقدمها قصص هي: الانفجار ـ الرحيل ـ ولا وقت للبكاء، ولكن هـذا الجانب الجامع بين المواقف الثلاثـة يكمله تنوع أسبـاب الرحيل، فهي تتغير وتتلون تبعا لطبيعة الموقف الذي تواجهه الشخصيـة، فنجد فيها أن رحيلين قد تما، أما الثالث فكان خط الرحلة متجها إلى الموت.

بين قصة (الانفجار) و(لاوقت للبكاء) وشائج تربط بين جزئياتها، ففي الأولى نجد أن زوجة الجار المريضـة المحتـاجـة إلى غسل الكلى تقدم شريحة المرض الـدافع للـرحيل، ومثلهـا، في القصـة الثـانية، نتـابع محاولـة الولـدين لنقل أمهما المريضـة إلى الخارج للعلاج، ونجـده يحـاول رسم دواعي الرحيل من خلال تجسيد حالة الخوف، أدواته وعوامله، ففي مدخل القصة الأولى يأتي الليل المخيف علامة، وصـوت الرصاص القادم من الشمال أداة ودلالـة، وهذه تدفع وتدعـو إلى حسـم حالة التردد التي ستتضخم حين يكون الخيـار بين الضعف الإنساني أمام الظرف القاهـر والتمسـك بالأرض، إن ميزان الاختيار يتأرجح بين الأرض والنفس والأهل.

وليس الانفجار إلا اتخاذ القرار، والحدود الكويتية هي الكلمة والمعنى الفاصـل بين موقعين أو حالتين، ولا شك أنـه مهد لتأثير الأرض من خلال الإشارة إلى الجزئيـات والمواقع، أي أن الإحساس بالمكـان هنا طاغ ومسيطر (المح شـارعنا في الخالدية الـذي طالما قطعته ذهـابا وإيابا، نجتـاز الطرق الداخلية حتى نصل إلى الطريق الدائري السادس، ونسير باتجاه الشمال. ص٤٥)، ويجتاز الحدود وتصبح زوجته وأولاده خارج الحدود أما هو فأمامه عشرة كيلوات ليكون داخل أرضه.

إنها قصة تسجل لنا هذه اللحظة التي فرضت نفسها وتكررت بعد ٢/ اغسطس، ولكنه لم يستطع الخروج من العرض المبسط ووقع في التصنع والتبسيط المخل، ولم يصل إلى الفاصل الدقيق بين تردد الشخصية وحكمها من خلال الظروف والمواقف.

أما قصه (الرحيل) الأخرى فتقدم شريحة أخرى من شرائح الضحايا، أسرة من اليمن، حيث تقدم لنا أزمة الكويت من خلال بعد إنساني عربي، فالرحيل هنا ذو طابع خاص، فإذا كانت الكويت أمنا وصحة ورعاية لأسرة عربية، فإن سقوطها شكّل مأساة عربية، فالقصة لاتقدم فقط رحيلا ولكنها تستقصي معنى محددا ففي هذه الرحلة يتساقط أطفال هذه الأسرة اليمنية العربية، يختطفهم الموت، موت الطفولة العربية، فتكون المعادلة البسيطة، احتلت الكويت فمات الطفل اليمني، لذلك يقول عوض: يامينه . . لا أطفال . . لامال . . لاكويت . . ص٦٠)، ويمكن أن ننعكس المقولة: لاكويت، لامال، لاأطفال . .

ولكن الموت كان في انتظار الأم في (لاوقت للبكاء) والأطفال في (الرحيل)، فنحن أمام رحيلين وعودة، وكان حصاد الرحيل عن الأرض يساوي الموت.

إن ختام هذا القسم، (الفجر الحزين) يأتي مجسدا بالانقطاع الذي خلقه الاحتلال، ويعبر عنه بالرسالة التي لم تصل لأن الانقطاع قائم بين الرمادي والكويت، ويبقى السجين منزويا في زاوية المعتقل رقم ٢٢٣ ينتظر قدوم الأهل والأحبة.

إنها نماذج خلفها الاحتلال، اكتفى القاص بسردها، ولعل أنضج ما في هذا القسم قصة (غدا يوم آخر) وحقها أن تكون فاتحة هذا القسم من هذه المجموعة، إنها تسجل لقطة ذكية، ذلك الحب الذي اجهض مع الثاني من أغسطس، فإذا كان الموت مدخلا، فإن إجهاض الحب وجه آخر أو صورة لما سيأتي، جاء ذلك الشهر قاتلا للحب فقد حدد يوم الثاني من أغسطس موعدا للزواج وتنتهي القصة وكل شيء معروف بعد ذلك . .

إن خلق الجو الذي يجعلنا نكمل الحكاية هو الجانب الناضج من هذه التجربة المتميزة.

المعادل للفجر الحزين هو الفجر السعيد، والذي يفتتحه بلحظات الانتصار كما سجلته وكالات الأنباء، فاللقطة المسجلة تمهد لهذا القسم الذي قدم لوحات ولقطات التقطتها العين من الوهلة الأولى، وقد جاء بعضها أقرب إلى الانطباع الخارجي، الذي لايتجاوز حرفية الحادثة كما في

قصة (يـوم التفاح) وهي قصة مـزج فيها بين لحظـات الحرية الأولى وانطلاقـات الأفراد بعد كـابوس الاحتـلال وصولا إلى أكل الأطفـال للتفاح للمـرة الأولى بعد سبعـة أشهر الاحتـلال، إن إخفاقـة في تصوير هذه اللحظة المتميزة يشير إلى أنه كتبها من خارج التجربة. ومثلها القصة الأخيرة (عودة أسير) التي اعتمدت على مفارقة ساذجة، أى تشابه الأسماء، حين اعتقدت الزوجة أن القادم زوجها وهو، في الحقيقة، شخص آخر، وكان من الممكن الارتفاع بمستوى المعالجة إلى ماهو أشمل وأعم، أليست عودة الأسير، أي أسير، هي فـرصة فنية، كما أن انفعـال الأمل والخيبة جانبـان يقدمان لحظـة غنية. صحيح أن الإنسان الـواقعي لايرى إلا مـا يخصه، ولكن المعالجة الفنيـة ترتفع في مثل هـذه الحالة إلى مستوى من مستويات الشمول تتجاوز الإحساس الفردي إلى العموم، فعودة أسير هي أمل ينفتح بأن كل أسير سيعود احتمالا.

ولعل (ليالي الجمر) تعطينا لقطة جيدة، وإن اختل التناول حين طغت المقدمات السردية على اللحظة المتميـزة التي تنير الحدث وتتمحور حوله القصـة القصيرة، فهي تقدم العائد الـذي حرم من بلده والمحاصر في الخارج ليلتقي بالآخر المحاصر في الداخل، ولكن هذه العودة يأتي سردها منقطعا، فنحن أمام حـدثين، أحدهما عودة بطل القصة، والثـاني حالة (إيمان) الصامـدة التي أسر زوجها. ليس بين الحدثين رابط، وقـد أفسدتها المقـدمة السردية والتفـاصيل الطويلـة. لقد أفلتت منـه تلك التجربة المتميزة فلم يستطع تـوظيفها توظيفا مناسبا فيتوغل إلى أبعادها، خـاصة تلك الصلة النفسية التي تشكلت بين البطلة والبيت الزجاجي للنبـاتات الداخلية حيث كانت مهووسـة بالعناية بها، ثم شهـدت داخل هذا البيت تعـذيب من تحب. إن هـذه اللحظـة الصغيرة هي المرتكز الجميل الـذي تسرب من بين يدي الكاتب فلم يستطع التحكم في قلمه فانفرط العقد من بين يديه.

إن هـذا الاختلال في التنـاول لا يأتي في البناء العـام فقط كما في القصـة السابقـة، ولكنه قـد يتسرب إلى محاولة الرمز أو استغلال التركيز الـرمزي، فيختل من بين يديه، رغم أنه استطاع الاقتراب منه اقترابا مشجعا، في قصـة (على قارعة الطريق) التي كانت أكثر نضجا في صيـاغتها العامة فهي ترسم بحساسية موفقة جوا من أجواء الأيام الأولى، بعد التحرير، الحياة تعود إلى سابق عهدها، رغم وجود الخط الـواصل بين المرحلتين أو الظرفين، فـالسماء ملبدة بالـدخان ورائحـة الزيت والـرغبة في مغادرة المنزل. وهو يعتمد فيها، أيضـا، على المفارقة بين حدثين عن المرأة والشجرة ـ السدرة.

وتبقى بعد ذلك هاتان المجموعتان محاولتين حاملتين سمة التسجيل الواعي لحدث خطير.

الهوامش

(١) الياسمين والمدافع . ليلى محمد صالح ـ جريدة الوطن : ٢٦/ ٧/ ١٩٩٢ .
(٢) طلقة في صدر الشمال ، (قصص) . وليد الرجيب ـ دار الفارابي ـ بيروت : ١٩٩٢م .
(٣) ريح الشمال . فهد الدويري ـ نشرت مسلسلة في جريدة الوطن في إحدى عشرة حلقة بدأت بالعدد الصادر ١٨/ ٢/ ١٩٩٢ وتوالى نشرها أسبوعيا في الأعداد التالية : ٢٥/ ٢ ، ٣/ ٣ ، ٣/١٠ ، ٣/١٧ ، ٣/ ٢٤ ، ٣/ ٣١ ، ٤/٧ ، ٤/١٤ ، ٤/٢١ ، ٢٨/ ٤/ ١٩٩٢م .
(٤) جوع . منى الشافعي . جريدة الوطن ٥/ ٥/ ١٩٩٢م
(٥) الطابور . ثريا البقصمي . جريدة صوت الكويت ١/ ٧/ ١٩٩٢م .
(٦) لحظة بلحظة . منى الشافعي . جريدة الوطن ١٤/ ٥/ ١٩٩٢م .
(٧) وعاد البحر . ليلى العثمان . جريدة القبس : ١٢/ ٢/ ١٩٩٢م .
(٨) الصاروخ . للكاتب السعودي خلف حربي .
(٩) البغدادي . ناصر الظفيري .
(١٠) عربات اسمها أعراب . ريم الرفاعي . جريدة صوت الكويت ، العددان الصادران بتاريخ : ٢٥/ ٢٦/ يناير ١٩٩٢م .
(١١) المعلقة . ريم الرفاعي . جريدة صوت الكويت : ٩/ ٤/ ١٩٩٢م .
(١٢) أحزان صغيرة طالب الرفاعي . جريدة الوطن : ٢٨/ ١/ ١٩٩٢م .
(١٣) جريمة الحي الشرقي . خالد الصالح . الكويت .
(١٤) تروى القصة حكاية ذلك التاجر الذي كان يقدم معروفا لأسرة عراقية منذ أربعين عاما ، فانطبعت صورته المعلقة في بيت تلك الأسرة في أذهان وضمير أبناء تلك الأسرة . ويأتي مع الاحتلال ابن تلك الأسرة والذي أصبح ضابط وجمعت الصدفة بينهما وسعى الابن الضابط إلى منزل الرجل المحسن ليعتذر له مذكرا إياه بقصة معروفه الذي يطوق عنق تلك العائلة .
(١٥) ليالي الجمر . حمد الحمد . الكويت ، ١٩٩٢م
(١٦) هذه القصة كتبت بالاشتراك ، فقد كتب جزأها الأول المؤلف أما الجزء الآخر فقد كتبته زينب حسين أكبر .

العدد القادم من المجلة

الديمقراطية

١- الديمقراطية - رؤية فلسفية
ا. د. إمام عبدالفتاح

٢- ديمقراطية الأثينيين
ا. د. مصطفى العبادي

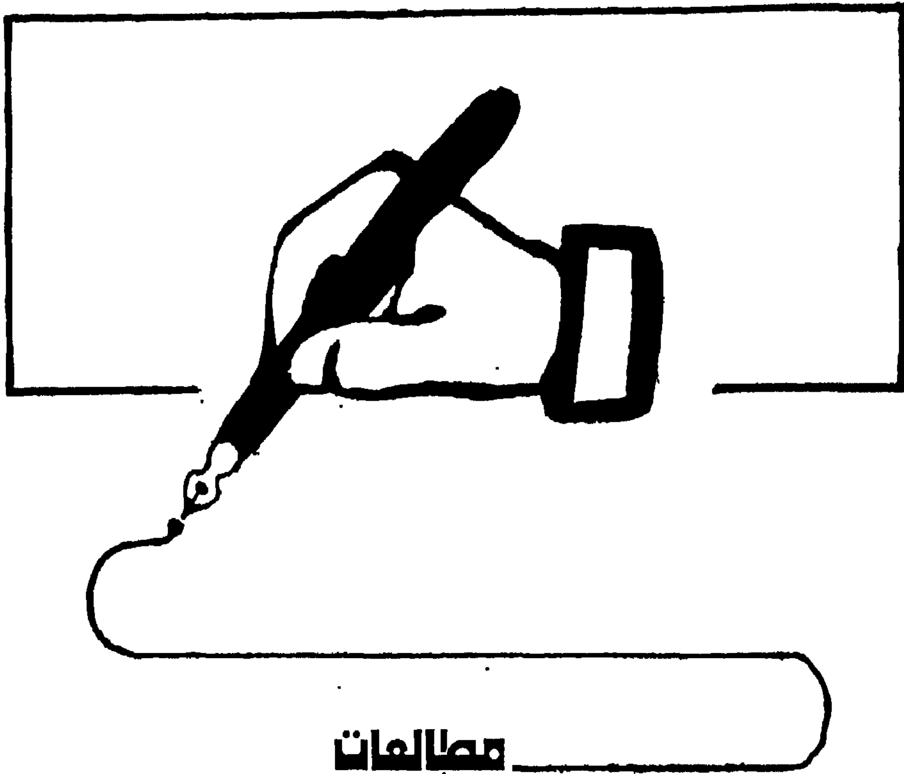
٣- السلوك الديمقراطي
د. مصطفى تركي

٤- النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية
ا. د. أحمد محمود صبحي

٥- الديمقراطية / إشكالية الحرية
ا. د. عزت قرني

٦- الديمقراطية والدستور
ا. د. ميشيل متياس

٧- الديمقراطية في الكويت
د. عبدالله العمر



مطالعات

العربية الفصحى ومشكلة التطور

العربيّة الفصحَى ومشكلة التطور

الدكتور
أحمد محمد قدّور *

* يعمل أستاذاً في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة حلب ـ سوريا .

تمهيـــد

ليس من شكّ في أنّ تحديث علم اللغة (Linguistique) منذ مطلع هذا القرن قد امتدّت آثاره إلى آفاق العلم والثقافـة في هذا العالم الذي يشهد ثورة الاتصال بجميع سبلـه، ممّا جعل التغاضي عما يجري حولنا من تطورات واسعة في العلوم الإنسانية ولا سيما اللسانية منها أمرا غير مقبول. وعلى الرغم من أن كثيرا من المؤثرات الأجنبيـة اللغوية اتخذت سبلهـا عبر الترجمة والاقتباس منذ أربعينيـات هذا القـرن، فإن بعض الـدارسين العرب المحـدثين لا يـزالون شـديـدي الحذر من المناهـج الغربيـة التي يرفضـونها جملة وتفصيـلا. والأجدى عنـدنا ـ إن أردنا أن نكون على بيّنـة من أمرنـا أمام التحـدّيات الصعبة التي تـواجهنا ـ هو أن نفتح عيـوننا على الوافد الجديـد من العلوم والمناهج لنرى رؤيـة الذين يملكون ما يميزون به بين ما هو مقبول، وما هو مردود، وبين ما هو قابل للتطبيق، وما هو غير قابل لذلك. ولن يعود على العربيـة بالفائدة انبهار بعض الدارسين العرب المحـدثين بالمناهج الحديثة، لأنّ هـذا الانبهار قـادهم إلى تشديـد النقد للبحـوث العربيـة القديمـة ومناهجهـا، واتهامها بـالتخلف والنقص والعجز. ويـلاحظ أن هؤلاء سعوا إلى تطبيق ماعـرفوه من مناهج أجنبية على العـربية تطبيقا حرفيا، ورفضوا الإقرار بخصوصية العربية الفصحى التي تقوم على المعيارية.

جوانب البحث

١ ـ مناهج الدرس اللغوي

يجد الدارس في المناهج اللسانية الحديثة تنوّعا يتيح له النظر إلى المسألة المدروسة من زوايا متعدّدة . فالمنهج الوصفي يدرس الظواهر اللغوية مفترضا أنّها في حالة ثبات ، وهي محددة بحدود الزمان والمكان والمستوى اللغوي (لهجة ، لغة فصحى ، شعر، نثر) والمنهج التاريخي يدرس الظواهر ضمن تدرّجها المتسلسل عبر الزمن . أما المنهج المقارن فهو مختص بمقارنة الظواهر اللغوية بين لغة وأخرى ضمن تصنيف اللغات الى أسر ومجموعات مترابطة . ويدرس المنهج التقابلي (Contrastive) ـ وهو أحدث المناهج ـ المقابلات بين لغتين أو لهجتين أو لغة ولهجة ، كما يقابل بين المستويات اللغوية، ويدرس جوانب تعليم اللّغات والترجمة[1].

ويتجه النظر إلى نوعين من المناهج اللغوية كانا مدار اختلاف الدارسين ولا سيما حين يتصل الأمر باللغويين العرب القدامى ومنهجهم فى جمع اللغة وتقعيدها . وهذان المنهجان هما : المنهج الوصفي والمنهج المعياري . ومن الملاحظ أن المنهج الذي اتخذ سلاحا لادخال الضيم على العربية الفصحى هو المنهج الوصفي بتطبيقه الحرفي الذي عرفه بعض الدارسين العرب في اللغات الأجنبية ، ومن ثم حملوا لواء الهجوم على مناهج العربية الفصحى وطرائق تدوينها ، ومواقف علمائها .

وتقوم أسس المنهج الوصفي على اختيار «مرحلة بعينها ، من لغة بعينها ، لتصفها وصفا استقرائيا ، وتتخذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء وتسميها قواعد . فالقاعدة في الدارسة الوصفية ليست معيارا ، وإنما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية [2]. أما المادة التي يختارها الدارس فهي تجمع دون اختيار تعبير ما والبعد عن غيره لأفضلية أحدهما على الآخر ،بل لكون التعبير مستعملا أو غير مستعمل بصرف النظر عن القيمة أو الحكم الذي يصدره الناس ، أو أهل الاختصاص [3].

ويرجع الفضل في توضيح حدود المناهج اللغوية ، والتركيز على المنهج الوصفي إلى اللغوي السويسري الشهير فرديناند دوسوسير (F. De Saussure ت ١٩١٣م) . وقد لاحظ في هذا المجال أن اللسانيات الحديثة عكفت على الاهتمام بالتطور التاريخي ، وهو مادعاه بمصطلح (Diachronique) على حين أن المقارنة التي استخدمت في قواعد اللغات الهندية ـ الأوربية ، ليست إلا وسيلة لبناء الماضي . ومن هنا برز اهتمام سوسير بالمنهج الوصفي وهو ما دعاه بمصطلح(Synchronique)[4] وقد

اثبتت الشروح الواردة في بمحاضراته إمكان دراسة اللغة وصفيا أو تاريخيا، فإما أن ندرس الظاهرة اللغوية في وضع الثبات في فترة محددة من الزمن ، ضمن مستوى معين . وإما أن ندرس تتابع حالات تاريخية متعاقبة مع تطوراتها ، وما يتعلق بها من تغيرات عبر الزمن.

ومن الملاحظ أن إعادة تقويم محاضرات سوسير بعد الحرب العالمية الثانية شهدت إقبال الدارسين على تحري إضافات هذا العالم المنهجية ، والتركيز عليها ، ومن هنا برز اهتمام الدارسين بالمنهج الوصفي حتى غدا المنهج السائد عند أكثرالمشتغلين باللغة في كل انحاء العالم [٥]. ومن الملاحظ أيضا أن الدراسات الوصفية للغة العربية اتجهت إلى اللهجات العامية ، على حين أنها شددت نقدها للفصحى ومناهج تدوينها.

ويقود الحديث عن المنهج الوصفي لدى الدارسين إلى مقابلته بالمنهج المعياري ، وهو منهج يضع للخطأ والصواب مستوى يرجع إليه أي معيار (norme) وهو «نموذج متحقق أو متصور لما ينبغي أن يكون عليه الشيء ، ومنه علوم معيارية وهي: المنطق والأخلاق والجمال وغيرها»[٦]. والعلوم المعيارية (Sciences Normatives) موضوعهاأحكام تقويمية ، أي تبحث في القيم وأحيانا في الأوامر بقدر ما تتضمن هذه الأوامر من القيم [٧].

ويرى أحد الدارسين أن المعيارية تفرض «سلطة قوانين نمقها اللغويون على ظواهر من سلوك المجتمع ، وهؤلاء اللغويون ينصرفون بكبرياء عن مرارة التعمق في فلسفة اللغة ويؤكدون بكل بساطة ان دراستهم تتحكم بها لها من حق وقدسية لامراء فيها. . . [٨]. وتنتخب مادة الدراسة - ههنا - من بين الوقائع اللغوية الكثيرة ، ويتحرى أن تكون محافظة على مستوى معين يحظى برضى الطبقة المثقفة ، وهذا المستوى ما يطلق عليه مستوى الصواب [٩].

وحين يتصل الأمر بالعربية يرى الدارسون أن العربية الفصحى (L'ARABE CLAS-SIQUE) بأصواتها وقواعدها تعد معيارا . وقد تضافرت عوامل متعددة لتشكيل المستوى الصوابي الذي حدده اللغويون بحدود الزمان والمكان ، إضافة إلى تأثرهم بالدرس المنطقي وبالمستوى الصوابي الديني المتمثل في الحلال والحرام ، وما حملوه في نفوسهم من نزعة عربية وتوجه ديني للحفاظ على لغة الذكر الحكيم التي هي عندهم أفصح اللغات.

وقد لاحظ كثير من الدارسين المحدثين من عرب ومستشرقين هذه المعيارية التي اتصفت بها العربية الفصحى ، غير أنهم اختلفوا في النظر إليها وتقويمها . وهم في ذلك فريقان ، فريق أنكر على

اللغويين منهجهم في جمع اللغة وتقعيدها، لأن هذا المنهج دفع بالبحوث اللغوية التالية إلى معيارية صارمة وقفت في طريق التطور فأفضت باللغة إلى الجمود . ويصدر هذا الفريق عما عرفه من مناهج تقعيد اللغات الأجنبية ، كاليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية(١٠).

ولدى تطبيق القواعد الوصفية على منهج اللغويين العرب القدامى ، يلاحظ بعض الدارسين أن نحاة العرب في العصر الأول وفيهم سيبويه يقعون في مخالفات منهجية من ناحيتين .

١ - فهم أولا يشملون بدراستهم مراحل متعاقبة من تاريخ اللغة العربية ، تبدأ من حوالي مئة وخمسين عاما قبل الإسلام ، وتنتهي بانتهاء ما يسمونه عصر الاحتجاج ، أي أنهم يشملون ما يقرب من ثلاثة قرون من تاريخ لغة العرب . وتلك حقبة لا يمكن أن تظل اللغة فيها ثابتة على حالها .

٢ - ثم هم يعمدون ثانيا إلى لهجات متعددة من نفس اللغة فيخلطون بينها ، ويحاولون إيجاد نحو عام لها جميعا (١١).

وفي الحق أن هؤلاء الدارسين أخطأوا حين توهموا أن ما يصدق على بعض اللغات التي قيست عليها المناهج الحديثة يجب أن يصدق على غيرها ، وكأن هذه المناهج قوانين جبرية قاهرة لا مناص للغات جميعا من الخضوع لها(١٢) . وهم أيضا يجانبون الصواب حين انكروا الظروف الخاصة التي رافقت تدوين العربية ، والحوافز التي حفزت إلى النهوض به .

أما الفريق الآخر فيصدر عن تفهم للظروف التي جعلت قدامى اللغويين والنحويين ينهجون ذلك النهج الفريد في تدوين اللغة ووضع قواعدها . ولا يعني هؤلاء أن يتطابق منهج اللغويين العرب مع ما انتهى إليه المحدثون تطابقا تاما . وهم من بعد ذلك يرون أن ما ذهب إليه أنصار المنهج الوصفي لا يسلم من النقد والاعتراض ، لأن منهج اللغويين الأوائل كان وصفيا بجملته ، وإن تحكم فيه المعيار الذي ارتضوه لحفظ لغتهم فيما بعد ويؤكد أحد الدارسين أن اللغويين الأوائل درسو لغتهم على المنهج الوصفي ، واحتج لذلك بعدد من الجوانب التي رآها لدى قدامى اللغويين مماثلة لما يقوله المحدثون حول قواعد المنهج الوصفي . فاللغويون الأوائل انطلقوا من وصف الظواهر ضمن حدود قصدوا وضعها كي يسلم لهم جمع العربية الفصحى التي عدوها مستوى من الأداء اللغوي المطرد الذي قصروه على حدود معينة . وإن ما تعرضوا له من نقد حول إهمالهم تدوين اللهجات يجد مسوغا لرده ههنا ، لأن قصدهم لتحديد المستوى اللغوي الذي رأوه في القرآن الكريم والشعر الجاهلي جعلهم يتشددون في الاقتصار عليه وعدم إدخال أي عناصر متناثرة من بقايا اللهجات التي باد معظمها إما بإهماله وخروجه من نطاق الاستعمال ، أو بإدخاله في خصائص المستوى المعروف في

القرآن والشعر . ويلاحظ أيضا ان اللغويين بقوا مخلصين لما ندبوا أنفسهم له من تتبع للمستوى الذي عدوه فصيحا ، والذي أخذت نصوصه تنحرف بتقدم الزمن وزيادة الاختلاط . ومن هنا نستطيع أن نفهم نشأة المعيار الذي تمثل في الحفاظ على السوية التي تلقوها في لغة القرآن ، والتي أرادوا تثبيتها لأنها الصورة المثلى للغتهم . كما يلاحظ أن اللغويين الأوائل دونوا اللغة وصنفوها تصنيفا تقريريا يسجل الظواهر اللغوية كما جاءت أو كما خلقت ، أي كما نقلت من سنن العرب في كلامهم ، ولم يكن هناك حديث عما ينبغي أن يقال بل عما قيل[١٣] .

ويقر تمام حسان ـ وهو من أكثر الدارسين انتقادا للمناهج القديمة ـ بأن تاريخ دراسة اللغة العربية ليعرض علينا في بدايته محاولة جدّية لإنشاء منهج وصفي في دراسة اللغة ، يقوم على جمع اللغة ورواياتها ، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها ، والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم . ولكن بعض الأخطاء المنهجية في طريقهم لم تمكنهم من الخلاص من النقد[١٤].

وبإمكان الدارس المتتبع لتاريخ اللغة العربية أن يؤول فرضية تتناول مراحل جمع اللغة وتقعيدها ، وعلاقة ذلك بالمنهجين الوصفي والمعياري . وهذه المراحل بحسب ترتيبها الزمني هي :

١ ـ مرحلة جمع اللغة ، وتتضمن الانطلاق إلى البوادي لتسجيل أهم المجالات اللغوية ، والموضوعات التي ظهرت في مجموعات من الرسائل في خلق الإنسان والحيوان والأنواء وصفة الأرض وغيرّ ذلك مما هو معروف ومدون[١٥]. ويلاحظ أن تدوين هذه الرسائل لم يكن خاضعا لأي نظر معياري ، بل كان نشاطا وصفيا خالصا[١٦].
٢ ـ مرحلة التأليف الواسع ، واستقرار اللغويين في الأمصار ، وما تبعه من بدء حركة التنقية والتماس الأفصح ، ومن ثم بروز ما يدعى بمعايير الاحتجاج . ويلاحظ ههنا أن مسلك اللغويين مال إلى التشدد في قبول اللهجات ، واتجه إلى المستوى الفصيح الذي لم يسلم من الخلاف .
٣ ـ مرحلة تلت تلك الحقبة ، واتسمت بالخلاف بين النحاة واللغويين في تطبيق المعيار الصوابي. ومن الملاحظ أن النحاة كانوا متشدّدين في تطبيق المعيار على قواعدهم التي أرادوا لها ـ أو توهموا أن تكون شاملة لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها . ومن هنا برز مفهوم الشذوذ عن القاعدة في مصنفاتهم . اما اللّغويون فقد تساهلوا في قبول بعض اللهجات على أنها لغة ثانية أو لغة تروى ولا يقاس عليها[١٧].

وأياّ ما كانت الآراء حول هذه الفرضية ، فإننا نستخلص منها ما يمكن أن يركن إليه الباحث حول سلامة مناهج اللغة وخصوصيتها لدى القدماء الذين بذلوا جهودا كبرى لتسجيل الصورة المثلى

للغتهم والتي تمثلت في المستوى الذي عدّوه فصيحا جديرا بأن يمثّل الخصائص الأساسية للغة، وهم من أجل ذلك التمسوا أنقى البيئات التي يتردد فيها، وأعرضوا عن المواضع التي لم يجدوا فيها ذلك الصفاء. وفي الأجزاء التالية من هذا الفصل تفصيل لكثير من جوانب منهجهم وقواعد احتجاجهم.

ومن الأمور التي ينبغي أن يشار إليها ضمن هذا المجال من تقويم جهود القدماء بحسب المناهج الحديثة أن دراستهم للغة كانت تشمل جميع قطاعات الدرس اللغوي الحديث والتي تضم الأصوات والصرف والنحو والمفردات. وهم بذلك يعبرون عن فهم متقدم للغة بوصفها منظومة متكاملة لا يستقل منها جانب عن غيره من الجوانب.

وبالنظر إلى هذه القطاعات الدرسية في ضوء المعيارية التي تمثل خصوصية للعربية الفصحى نجد أن معيارية الأصوات والصرف والنحو حفظت كيان اللغة ودفعت عنها أخطار التشتت والتفرغ إلى لهجات متباينة. ولو لم تكن هذه المعيارية متشددة في رأينا لكان من المتوقع أن تنزوي الفصحى في المعاهد الدينية فتصبح لغة خاصة بالدين تقتصر على بعض البحوث المحدودة والشعائر، على حين أن لهجات المدن والأمصار تتجه إلى مزيد من الانغلاق الذي قد يولد لغات متعددة بعد أمد.

ويمكننا أن ننتهي إلى خلاصة تمثل موقفنا من مناهج اللغة ولا سيما ما يتصل بالمنهج الوصفي. فالمنهج المقارن يكشف لدى تطبيقه على اللغة العربية أمورا ذات دلالة لم تكن واضحة المعالم، لأن العلماء العرب اكتفوا بما ثقفوه من علوم العربية. وفي نزوعهم إلى تفضيل لغتهم على سائر اللغات ما يدل على هذا المنحى من اختصاصهم بالعربية. ومن المؤكد أن الإشارات الطفيفة إلى بعض اللغات الأجنبية، أو إلى شقيقات العربية من الساميات[١٩]، كانت ترد عرضا دون أن تمثل دراسة للعربية على أساس مقارن[١٩].

أما المنهج التاريخي فلم ينل ما يستحقه من اهتمام اللغويين القدامى، لأنهم كما ذكرنا كانوا يحرصون على تثبيت صورة العربية كما تلقوها بعد الإسلام ضمن حدود زمنية قصروا عليها الاحتجاج. غير أن هذا لم يمنع عددا من اللغويين من تناول بعض القضايا اللغوية من وجهة تاريخية تطورية، والأمثلة على ذلك متوافرة، منها دراسة الألفاظ الإسلامية، والمصطلحات العلمية، وشروح الشعر، إضافة إلى إشارات عميقة وردت في تضاعيف المعاجم تدل على فهم لتطور اللغة ولعدد كبير من سنن التطور وأشكاله كالمجاز والاستعارة وغير ذلك. وإلى هذا المنهج ينبغي أن تتجه الجهود الدراسية المعاصرة كي تتحقق ـ ولو بعد أمد ـ تلك الصورة المرجوة لتطور العربية عبر الزمن. وقد دخلت خطط متعددة لمثل هذا التوجه في مشاريع المجامع اللغوية، وبرامج الهيئات العلمية المختصة.

ويمثل المنهج الوصفي المنهج السائد في الدراسات الأجنبية التي تأثر بها عدد من الدارسين العرب، فصدروا عنها وسعوا إلى محاكاتها في الدراسات المتعلقة بالعربية. كذلك سعى آخرون إلى اتخاذ هذا المنهج مدخلا للطعن في العربية الفصحى ومناهجها. ومهما يكن من أمر فإن الموضوعية العلمية تقتضي منا تحديد نقاط الخلاف التي تجعلنا نحذر من من التطبيق الحرفي لهذا المنهج ولغيره أيضا على العربية. وتتمثل هذه النقاط في ثلاثة أمور، أولها: أن اتجاه الدراسات الوصفية الحديثة كان ينحو إلى اللهجات العامية، لأنها كما يزعمون المادة التي تمثل الاستعمال الحي. ثانيها: أن موقف الدارسين الوصفيين كان متشددا إزاء الفصحى، لأنها تتضمن حكما نهائيا بتفضيل أسلوب كلامي على آخر، ولأن توجيه الدراسات إلى الفصحى يفضي إلى إهمال قطاعات مهمة من اللغة هي أولى بالدراسة لأنها ميدان لدرس التطور الذي تقاومه معيارية الفصحى كما يرون. ثالثها: أن معظم الدارسين الوصفيين افترضوا معرفة القدماء بالمناهج اللغوية جميعا، ولذلك فهم يعيبون عليهم تقصيرهم في الالتزام بالطريقة المثلى لدراسة اللغة والتي تقتصر على المنهج الوصفي دون غيره من سائر المناهج قديمها وحديثها.

وبالنظر إلى ما أوردنا يتبين أن سبب الخلاف عائد الى محاولة تطبيق الوصفية تطبيقا حرفيا على مرحلة التقعيد اللغوي وما اتصل بها من معيارية. أما حدود المنهج الوصفي فلا نجد بأسا من مراعاتها في الدراسات المخصصة للعربية الفصحى قديما وحديثا شريطة أن نتجاوز ما كان من خلاف بين منهج اللغويين القدامى من جهة، والمناهج الحديثة ولا سيما الوصفية من جهة أخرى، وأن نأخذ في اعتبارنا دوما خصوصية العربية الفصحى القائمة على المعيارية وحراسة التطور ضمن حدود. ولا شك في أن دراسات تقوم على اختيار حقبة معينة من تاريخ العربية الفصحى من خلال مستوى واحد من الأداء اللغوي، سوف تعود على العربية بالفوائد الجمة. ولسنا نرى مانعا من الاعتماد على الملاحظة وتسجيل الوقائع تسجيلا محايدا عن طريق الوصف كما هي. غير أن ذلك لا ينفك عن مرحلة التقويم والنظر الى النتائج من خلال المعيارية، «ولا مانع في نظرنا من أن يسلك الدارس منهجين اثنين، ولكن باعتبارين مختلفين، وفي مرحلتين منفصلتين دون أن يخلط بينهما بحال من الأحوال. ولا بأس علينا إن نحن اتبعنا هذا الطريق هنا. فنقرر الحقيقة أولا بطريق الوصف الصرف، ثم نتبعها ـ إذا دعت الحاجة ـ بتقويمها و إصدار حكم عليها»[٢٠].

٢ ـ القوانين اللغوية ومشكلة التطور

ارتبطت مسألة البحث عن قوانين لعلم اللغة في البحوث الغربية بفكرة التطور بوصفها مبدأ أساسيا من مبادىء العلم والثقافة. وعلى الرغم من أنّ فكرة التطور ظهرت في بيئة المفكرين في عصر

التنوير[٢١]، فهى لم تلق الاهتمام الواسع في الدراسات الإنسانية إلا بعد أن نفذت إلى العلوم الطبيعية، ولا سيما حين ارتبطت بكتاب داروين (Darwin ، ١٨٨٢) المعروف «بأصل الأنواع». ويلاحظ هولتكرانس (Hultkrantz) أن مفهوم التطور غدا من خلال مؤلف داروين سمة لجميع البحوث الفكرية، مع ملاحظة المبالغة الكبيرة لدى بعض الباحثين حين يتحدثون عن أهمية هذا الكتاب بالنسبة لنمو نظرية التطور وسيادتها[٢٢].

وعلى هذا النحو من المبالغة طبق كثير من الدارسين نظرية داروين على اللغة، وزعموا بأن الأنواع في الطبيعة، واللغات في التاريخ تتغير تبعا لنواميس متشابهة فالعاملان الجوهريان في اللغات هما كما في الأنواع التغير والانتخاب الطبيعي[٢٣]. وقد قادت المبالغة الكثيرين إلى الزعم بأن اللغة كائن حي له طبيعته الذاتية، وأن تطور اللغة محكم بقوانين ثابتة كالقوانين التي تحكم مظاهر التطور الأخرى في الطبيعة[٢٤].

ويبدو أن هذا التعسف ولد معارضة شديدة دعت إلى التهوين من أثر داروين وعلوم الطبيعة في سيطرة الأفكار التطورية لأن «فكرة التطور الثقافي لم تكن مجرد تقليد تافه أو نقل للفكرة من التطور البيولوجي، فقد كانت العلوم كلها تتحرك نحو هذه الفكرة، لأن المبدأ كامن في طبيعة الحقائق.»[٢٥]. كذلك ظهرت فكرة ترى أن نظرية التطور البيولوجي لا يمكن أن تنطبق على الوقائع الثقافية، بل إن عددا من الباحثين رفض التسليم بوجود أي مشابهة بين التطور البيولوجي والتطور الثقافي بما فيه اللغة والمجتمع[٢٦].

ولم يكن ما أتى به المحدثون من علماء القواعد (Neo - grammaiens) من جبرية الظواهر اللغوية، وسلب الأفراد كل قدرة على التأثير في قوانين اللغة وتطورها مسلما به، إذ لقي مذهبهم هذا مقاومة كبيرة تمثلت في آراء متعددة لمجموعة من الباحثين.

والحقيقة أن العوامل التي تؤثر في اللغة وتؤدي إلى تغيرها يرجع أهمها إلى الظواهر الاجتماعية التي تضم ثقافة المجتمع وسلوكه وطرائق حياته وما إلى ذلك. وإننا ـ مع إقرارنا بدور العوامل النفسية في تطور اللغة ـ نؤكد دور المجتمع في تطور اللغة بوصفه العامل الأساسي الذي ينبغي أن يتجه إليه النظر. وقد تضافرت في هذا المجال جهود أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية (Ecoles Sociol - ogiques Francaise) التي أنشأها دور كايم (Durkheim ، ت ١٩١٧م)، لبيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه في مختلف الظواهر اللغوية[٢٧]. ومن

الملاحظ أن أعلام هذا الاتجاه شنوا هجوما شـديدا على الطبيعيين ومصطلحاتهم الدخيلة على البحث اللغوي، كالحياة والموت والوراثة والنشوء والارتقاء[٢٨].

ومن المعروف أن رفض سوسير اتخاذ معايير من خارج اللغة، انتهى به إلى فكرة استقلال اللغة بوصفها منظومة لا تعترف إلا بترتيبها الخاص، وبقوانينها الداخلية، ولذلك يؤكد بأنه «يجب أن يكون الانطلاق من اللغة ذاتها، واتخاذها معيارا للظواهر اللغوية الأخرى كافة»[٢٩].

واستنادا إلى هذا التوجه نرى أن مشكلة التطور اللغوي يجب أن تدرس ضمن أنظمة اللغة من خلال اتصالها بالإطارين الزمـاني والمكاني، وليس من الضروري القصد إلى استخلاص قوانين تحاكي في اطرادها ودقتها القوانين العلمية.

وبالنظر إلى أن فكرة التطور نقطة ارتكاز تقوم عليها الدراسة في مختلف فروع العلم، يمكننا أن نفترض أن اللغة في تطـور مستمر يتنازعهـا فيه عامـلان متناقضـان تجاهد اللغة فى الاحتفـاظ بتوازنها بينهما. وهـذان العامـلان أو القوتـان ـ كما يـرى دارمستيتر (A. darmesteter)[٣٠] ـ هما: أ ـ المحـافظة، وهى نـزعة طبيعيـة عند المتحـدثين بـاللغة تسعى إلى الإبقـاء عليها كما عـرفوهـا في جميع أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لكي لا تتغير ولا تختلف. ب ـ التغير، وهو قوة تعمل على دفع اللغة نحو التطور في جميع أنظمتها. وبين هاتين القوتين المتضادتين تقع اللغة في صراع دائم وأبدي، فإذا ما تمسكت بالقديم المحافـظ وحده جمدت وتخلفت، واذا ما فتحت صدرها للتطور من غير حدود ضاعت شخصيتها القائمة على الانتظام، وتعرضت للتشعب والاندثار[٣١].

وليس من شك في أن الحالة السليمـة للغة لا بد من أن تخضع للتوازن بين هـاتين القوتين كي تصل إلى نوع من التطور الهادىء الذي يرتبط بالقديم وتراثه، ولا يرفض الجديد ومتطلباته.

ويقـود الحديث عن فكرة التطـور إلى حـديث عن دلالات مصطلح تطـور وتعدد استعمالـه. فكلمة «التطـور» اشتقت في هذا العصر من كلمـة «طور» على وزن التفعل، وهي كلمـة احتيج إليها للتعبير عن معنى جديد غير التبدل والتغير، وهو الانتقال من طور إلى طور[٣٢]. ويدل التطور غالبا على تغير تدريجي يؤدي إلى تحولات متلاحقة[٣٣]. وعلى الرغم من ذلك يلاحظ أن استعمال مصطلح التطور تـوسع بحيث أصبح مرادفـا لمصطلح التغير (change) الـذي يشير إلى حـدوث تغيرات أو ظواهر جديدة لا تعني بالضرورة أنها تسير على نسق منتظم أو تتحول من طور إلى طور.

وهناك من الدارسين من يرى أن التغير (change) أبسط معنى من معاني التطور، لأن «التغير بمنعاه العام ليس هو المقصود بالتطور (Evelution) إذ أن هذا الأخير يعني تغيرا يتخذ نسقا منتظما يمكن أن نتتبع مراحله، وخصائص كل مرحلة[٣٤]. ومن الملاحظ أن معظم الدراسات الأجنبية تميل إلى هذا المصطلح أي التغير، على حين أنها تفضل الابتعاد عن المصطلحات التي تدل على معنى التقويم، كما في مصطلحي التطور المعروفين (Evolution) و (Development)[٣٥]. وكل ما يعنيه أصحاب هذا الاتجاه هو أن هناك شيئا ما حدث للغة، أو أن هناك تغيرات، أو ظواهر جديدة لحقت بها في فترة زمنية، وعلى هذا المستوى أو ذاك من مستويات البحث اللغوي[٣٦]. ويبدو أن إطلاق هذا المصطلح (change) يشير إلى التغير الذي لا يكون مقصودا من الفرد أو الجماعة، ولذلك يحدث هذا التغيير من غير أن يتولد لدى الناطقين باللغة إحساس بأن اللغة التي يستعملونها لا تبقى كما هي[٣٦].

واستنادا إلى هذا الفهم للتغير اللغوي يرى أندريه مارتينيه (Martinet) أن عالم اللغة يهتم بتسجيل التغير على أنه وقائع تسجل وتشرح ضمن إطار العادات اللغوية التي تنتمي إليها. كما يرى أنه ليس من حق عالم اللغة أن يصدر حكمه لها أو عليها[٣٨].

ويلاحظ الدارس نوعا من التطور اللغوي الذي يحدث من تلقاء نفسه، وهو ما يدعى بالتطوير. فالتطوير جهد واع يقوم به الأدباء والمفكرون، أو تقوم به مجامع اللغة والهيئات المختصة بالتعليم والمصطلح الفني. ودلالة التطوير ههنا قريبة من مصطلح ابتداع (Initiative)[٣٩]. ومن الملاحظ أن ظهور الظروف الجديدة بسبب التغير الاجتماعي وتطور الثقافة والعلوم، يتطلب جهودا مكثفة لتلبية الحاجات الجديدة في حياة الجماعة. ومن هنا يبرز الابتداع بوصفه سببا من أسباب تطور اللغة.

ومن الجدير بالذكر أن عددا من الدارسين يقفون من مظاهر التغير والتطور كلها موقفا متشددا، إذ يعدون كل انحراف عن أنظمة اللغة ودلالات مفرداتها خطأ. وحجتهم في ذلك أن المظاهر الجديدة تخالف القواعد والنصوص التي سجلت في كتب اللغة والتي ارتضاها العلماء الموثوق بهم[٤٠]. ومن الملاحظ أن معظم اللغويين القدامى وقفوا من التطور هذا الموقف، وقد سبق أن بينا الظروف الخاصة التي رافقت تشكيل المعيار الذي استند إليه هؤلاء اللغويون في مقاومة التغير وعده خطأ. ولقد رأينا أثر المعيارية في الأصوات والصرف والنحو، وما دفعته من أخطار على وحدة اللغة.

أما المفـردات فهي من أكثر العنـاصر اللغويـة استجابـة لدواعي التغير، لأن دلالـة المفردات لايمكن أن تبقى محصـورة بحال من الأحوال في أنماط مـن العيش والفكر والثقافـة وغير ذلك. وعلى الرغم من أن اللغـويين القدامي وقفوا من الـدلالة أيضا ذلك الموقف المتشـدد، ففي العربية شـواهد كثيرة على التطور الدلالي، بعضها ورد في تضاعيف بحوثهم المعجمية وملاحظاتهم النقدية، وبعضها الآخر اتخذ شكلا قـريبا من البحوث المنظمة والواضحـة المقاصد. وبإمكان الـدارس أن يتقرى أمثلة كثيرة على هذه البحوث في مصنفات الفقـه والاصطلاح والغريب والألفاظ الإسلاميـة. إضافة إلى ما يستخلصـه الـدارس المتعمق من مـلامح لتطـور الدلالـة وإشـارات إلى سبل التطـور التي وردت في مصنّفات اللحن وكتب التثقيف اللغوي.

ويتبين لنا مما سبق أن هناك جانبا من اللغة هو دلالة المفردات كان بالإمكان إخراجه من نطاق المعيارية، وعلينا الآن تخصيص الجهد له لما له من خطورة في حياة اللغة والمجتمع. وتذهب كثير من الدراسات إلى أن التطور في متن اللغة أي في الألفاظ ودلالاتها على المعاني، يمثل الميدان الكبير الذي يتسع لبحوث كثيرة، يمكن أن يتناولها الباحثـون من أكثر من جانب[٤١]. وترجع أهمية هذا الجانب اللغـوي في رأينـا إلى أن الأصوات والصرف والنحـو تمثل أنظمـة قيـاسية يفترض استقـرارهـا بحسب قواعـدها التي لا تقـدم كما محدودا من الصيغ والاستعمالات، بل تقدم أسـاليب متنوعـة يجري عليها الصوغ القياسي الذي يتضمن قدرات توليدية. أما المفردات فهي عناصر لغوية تنافي مبدأ الاستقرار، لأنها قابلة للتأثر بالزمن وأطواره التاريخية.

ويؤكد اللغوي فندريس (Vendryes) .وجـود فرق في تطـور اللغة بين الأصـوات والصرف والنحو من جهة، والمفـردات من جهة أخرى. وهو يري في هـذا الصدد: أن الحياة تشجع على تغير المفردات لأنها تضاعف الأسباب التي تؤثر في الكلمات. فـالعلاقات الاجتماعية والصناعات والعدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات وتقضي على الكلمات القُـديمة أو تحور معناها وتتطلب خلق كلمات جديدة.

ونشاط الذهن يستـدعى دائما للعمل في المفردات. وبالاختصار فـإن الأسباب التي تؤدي إلى تغير الظواهر ليست في أي مادة أكثر تعقيدا ولا عددا ولا تنوعا منها هنا[٤٢]. فالمفردات على العكس من أنظمة اللغة الأخرى لا تستقر على حال، لأنها تتبع الظروف.[٤٣]

ومن الضرورة بمكان أن نؤكد أن التطور في دلالة المفـردات ـ وهو ما نحن بشأنه ـ ليس مطلق الأحكام كما نرى، إذ لا بد من الاحتراز في هذا الجانب كي يبقى هذا التطور محروسا بالأنظمة اللغوية

المعياريـة . وتكون هـذه الحراسة ذات جـدوى إذا ما راقبنـا التغير الذي تتعـرض له الـدلالة نتيجـة الاستعمال ، مما يعد في التغير غير المقصـود . وإذا ما ضاعفنا جهـود التطوير والابتداع أضعـافا كي تلبي حـاجـات التطور الحضـاري السريع الـذي يكاد يسبـق كل متابعـة فضـلا عن التريث وبطء الحركة .

٣ـ العربية الفصحى والمستوى الصوابي

إنّ الدرس المتعمق لقضية التطور في العربيـة الفصحى يتطلب منا أن نلقي مزيدا من الأضواء على خصائص العـربية ومستواهـا الصوابي . وتظهر أهميـة هذا التناول إذا عـرفنا أن العربيـة تفردت بظروف معينة قادت إلى ظهور خصائص لا يحسن بالـدارس تجاوزها إذا قصد الموضوعية ونبذ الأفكار القبلية عن منهج اللغويين القدامى ، وما يرمى به هؤلاء من اتهام وتجريح .

وإن أول ما يطالع الدارس ههنـا أن العربية توصف بأنها لغة انتقائيـة مشتركة تشكلت أصولها وتوضحت مقاييسها لدى قبيلة قريش [٤٤]. وقريش كما هو معروف حظيت بمكانة رفيعة لدى قبائل العرب ، لأنها حازت السيادة والغنى والقداسة . ومن هنا يكثر وصف العربية بأنها قرشية ، وهو نحو من اعتبـار الصفات العامـة المشتركة التـي اصطفتها لهجة قـريش من اللهجـات العربيـة الأخرى ، إضـافة إلى مـا امتازت بـه من خصائص . واستنـادا إلى هذا الـرأى لا يمكن أن نقبل وصف العربيـة الفصحى بالقرشية ، ونحـن نريد أنها لغة قريش مستقلة عن الخصـائص المشتركة . ولذلك نرى أن النصوص التي تشير إلى أن العربية هي لغة قريش وحدها تحتاج إلى تدقيق وإنعام نظر .

ويحاول أحــد الدارسين المحـدثين ، في سيـاق الرد على مبـالغة القـدمـاء في وصف العربيـة بالقرشية أن يخلص إلى نتيجة معاكسة ، فاللغة المشتركة لا تنتسب إلى قبيلة بذاتها ، لكنها تنتسب إلى العرب جميعا مـا دامت النصوص الشعرية والنثـرية لا تكاد تختلف فيها بينها ، وهـذه النصوص ـ كما نعلم ـ ليست قـرشية أو تميمية أو هذلية فقط ، بل هـي من قبائل مختلفة [٤٥]. ونحن نـرى في هذا المجال أن أي محاولة لسلب قـريش مكانتها في العربيـة ودورها في إبراز الخصائص العامـة للعربية ، ليست مجدية ولن تكون مقبولة ، لأنها تخالف الحقائق المؤكـدة . فالعربية المشتركة تشكلت في قريش لأسباب متعـددة ذكرهـا القدماء والمحـدثون ، ومن ثم شـاعت الخصائص الأسـاسية لـدى قريش فعرفت بها ونقلت عنهـا من خلال حركتين متنـاوبتين لا يعرف مدى عمقهـا في الزمن ، هما اجتماع العرب في المواسم التجارية والدينية والأدبية ، ورجـوعهم إلى ديارهم حاملين معهم خصائص لغوية تواضعوا عليها عن طريق الاصطفاء ، واختيار الأكثر شيوعا وقبولا لدى جمهرة الناس حين يتلاقون .

ومع ذلك فإن هذا الدارس ينتهي إلى نتيجة لا نخالفه فيها وهي « أن اللغة العربية المشتركة لم تقم على لهجة قريش وحدها »[46] ويلاحظ أنّ هذا الدارس انطلق للردّ على فرضية لبعض الدارسين الذين تابعوا آراء بعض القدماء من أنّ العربية هي لهجة قريش . وإننا نرى أنّ إطلاق الكلام بأنّ القدماء والمحدثين ذهبوا إلى أنّ هذه العربية هي لهجة قريش لا يسلّم له ، لأنه وقف على نصوص قليلة لاتتجاوز ثلاثة نصوص قديمة وخمسة آراء حديثة [47] . ولأنّ معظم النصوص والآراء المتداولة تشير إلى أنّ قريشا اصطفت الخصائص الحسنة من كلام العرب ، وضمّتها إلى خصائصها حتى صارت جزءا منها . لذلك لا نرى أساسا للزعم بأنّ لهجة قريش منعزلة عن لهجات العرب ، وأنّ العربية الفصحى هي لهجة قريش وحدها .

ويرى دارس آخر أنّ « الفصحى لكونها لغة العرب جميعا تمّ نموّها في المجتمع العربي في عمومه لا في قبيلة بعينها ، وتقبّلت في نموّها عناصر من جميع اللهجات حتى بدت قريبة إلى كلّ لهجة »[48] . ومن الملاحظ أنّ هذا الدارس يهمل دور المركز في إبراز خصائص الفصحى التي لا يمكن أن تظهر لدى القبائل جميعا من غير أن تمر بمرحلة الصدور عن مركز مؤهّل لعمليتي الاستقطاب والانتشار ، وهذا المركز هو قريش من غير شكّ . أضف إلى ذلك أنّ الناظر في طبيعة المجتمع العربي في الجاهلية يرى حالة البداوة ، وما فيها من توزّع يجعل من الصعوبة الحديث عن مجتمع عام نمت فيه الفصحى على النحو الذي يصوره هذا الدارس .

ومهما يكن من أمر فإنّ العربية في آخر جاهليتها ـ كما يرى عبّاس حسن ـ أقدرت الألسن على استخدام هذه الطرائق الموحّدة بالدربة والمرانة لابالتلقين المهيّأ والتعليم المصنوع . وقد سرت هذه الطرائق إلى الناشىء و كأنها إحدى غرائزه الأصلية فشبّ عليها وشاب [49] . وإن هذه المقدرة اللغوية لدى الأفراد تمثل صفة أساسية للعربية الفصحى هي السليقة . فالسليقة كانت في العرب قبل الإسلام وفي صدره لعوامل توافرت لهم في جزيرتهم ، ومؤدّى ذلك أنهم كانوا ينطقون لغتهم فصيحة معربة بسهولة من غير تكلّف إعراب ولا تصنّع فصاحة [50] . كما أنهم لم يكونوا بحاجة إلى تعلّم ضوابط وقوانين لنطقهم كما توهّم بعض المستشرقين [51] .

ويضاف إلى ما ذكرنا من خصائص العربية الفصحى خصيصة تتّصل بمجال استخدام الفصحى ومدى انتشارها في أنحاء الجزيرة . وإنّ أوّل ما نؤكده ههنا هو أنّ نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين لدليل على أنه صادف حين نزوله لغة واحدة ينطق بها عامة العرب ، لالهجة محدودة لقبيلة قريش . ويرى بعض المستشرقين أنّ لغة القرآن كانت لهجة مقتصرة على خاصة أهل مكة ، وعلى أمراء الحج والسدنة . وقد قاد ذلك إلى أن تصير لغة دين وثقافة ودبلوماسية رفيعة يتفاهم بها الرؤساء

وتادة الرأي في القبائل [٥٢] . وإننا نرى أنّ المجال الذي يمثل انتشارا واسعا للفصحى هو الشعر الجاهلي الذي وردت قصائده ممثّلة مستوى لغويا واحدا على الرغم من انتماء الشعراء إلى قبائل متعدّدة، لم تكن قريش أغزرها شعرا ، بل كانت أقلّها نصيبا منه . وليس من الصعب أن يستنتج الدارس من ذلك أنّ لغة هذا الشعر كانت متداولة لدى القبائل العربية التي نظرت إلى الشعر على أنه لسانها ، ومجلى بلاغتها ، ومجال فخرها ، ولذلك لا نرى من المقبول الزعم بأن هذه اللغة كانت لغة يتداولها الخاصة من قريش دون سائر العرب ، أو أنها مقتصرة على كبار القوم والرؤساء من القبائل العربية . ثم إننا نرى بعض الدارسين يقبلون هذه اللغة على أنها لا تنتسب إلى قبيلة بذاتها ، بل تنتسب إلى العرب جميعا ، لكنهم يفترضون أنّ هذه اللغة لغة أدبية لا نستطيع أن نتصوّر العرب يتحدثون بها في بيعهم وشرائهم وهزلهم [٥٣] . وأننا مع افتراض أن هذه اللغة أدبية فصحى لا نسلّم بوجود فوارق أساسية بين المستوى الأدبي منها ، والمستوى الاتصالي العام الذي يمثل الرصيد المشترك (Lexique Commun) وإن كان من الممكن ملاحظة اختلاف بين أساليب الكلام الأدبي من جهة ، وطرائق الحديث اليومي في المبادلات النفعية من جهة أخرى ، فإنه الاختلاف الذي لايجعل من الحديث مستوى لغويا مختلفا يقرب من العامية .

وبإمكان الدارس أن يستدلّ على لغة الحديث والمبادلات الحيوية في العصر الجاهلي بما نقلته المعاجم وكتب اللغة والأدب عن محاوراتهم ومنافراتهم وخطبهم في المناسبات الاجتماعية . ومما يقوّى هذا الاستدلال أنّ لغة الحديث هذه استمرت فصحى حتى القرن الثاني الهجري ، بل إلى أواسط القرن الرابع في بعض البوادي المنعزلة .

ويلاحظ أنّ بعض الدارسين المحدثين بالغوا في قبول فكرة انقسام العرب إلى خاصة وعامة ، مما قادهم إلى ظنون لا أساس لها . فإبراهيم أنيس يرى أنّ العامة كانت تكتفي بحظّ قليل من فصاحة القول ، وتمضي تبعا لتقاليدها الخاصة وبيئاتها الجغرافية إلى الاستقلال في صياغة جملها وتركيب مفرداتها ولحن أصواتها [٥٤] . كذلك نجد صبحي الصالح يفترض أنّ الفصحى إذ ذاك مؤلّفة من وحدات لغوية مستقلة متمثلة في قبائلها الكثيرة المتعدّدة . وهي وحدات منعزلة [٥٥] .

ولنا أن نستدل على ردّ هذه الآراء بما استقر لدى اللغويين في أثناء جمع اللغة وتقعيدها والاحتجاج لقواعدها من اعتماد كلام الأعراب الذين ينتمون إلى قبائل متعدّدة مصدرا من مصادر اللغة [٥٦] . فإذا صحّ ـ كما يستنتج بعض الدارسين ـ أنّ العربية الفصحى لغة أدبية تقتصر على التعامل الراقي لدى الخاصة ، فإن كلام الأعراب الجاهليين والإسلاميين لا يمثّل الفصحى . وهذا

زعم - إن ثبت أنّ هنـاك من يتبنّاه ـ لايقوى على مخالفـة المشهور من تاريخ العـربية وخصـائصها في الجاهلية والإسلام .

ويتطلب استكمال الحديث عن خصائص استعمال العربية وما يتصل بالحديث اليومي الوقوف عند مسألتين هما مسألة اللهجات ومسألة الإعراب . أما اللهجات فقد أثيرت حولها نقاشات متعدّدة حين عرض الدارسون لمنهج القدماء في جمع اللغـة ونقد مصادر الاستشهاد والاحتجاج . وعلى الرغم من قلّة معرفتنا باللهجات (٥٧) ، فإنّ بعض الدارسين يفترضون استقلال اللهجات عن الفصحى ، لأنّ عامـة العرب ـ كما يرى هـؤلاء ـ لم يكـونوا إذا عـادوا إلى أقاليمهم يتحـدّثون بتلـك اللغة المثـالية الموحّدة ، وإنما يعبّرون بلهجاتهم الخاصة (٥٨) . ويفترض محمود فهمـي حجازي في هـذا المجال أنّ كتب النحو واللغة لم تقدّم لنا إلا قطاعا صغيرا محدودا مـن الحياة اللغوية حتى القرن الثاني للهجرة ، وهذا القطاع هـو بعض لهجات البدو (٥٩) . ويبنى هذا الـدارس افتراضه على مقولـة أنّ اللغويين نظروا إلى معظم اللهجات بعين الشكّ . ولسنا ندري علام استند الدارس في افتراضه وجود قطاعات واسعة من اللهجات التي أعرض اللغويون عنها ؟ .

ومهما يكن من أمر فإننا نلاحظ قلّة الأمثلة المرويّة عن اللهجات العربية القديمة التي اندمجت في الفصحى ولم تبق منها إلا بعـض الخصائص التي تتمثل أساسـا في شيوع بعض المظـاهر الصـوتية كالكشكشة والعجعجـة والعنعنة ، إضافة إلى قليل من الأمثلة في نظام الجملـة وبعض جوانب الثروة اللفظية كالأضداد والمشترك (٦٠) . وبإمكـان الدارس أن يستنتج أنّ الأمثلـة المتناقلة عـن اللهجات العربية لا تمثل لهجـات متكاملة أو نحوا من ذلك ، بل تنقل لنا صورة نـاقصة عن بعض الخصائص اللهجية التي تنسب إلى هذه القبيلة أو تلك . كما يمكن النظر إلى أمثلة اللهجات من حيث اتصالها بالفصحى أو بعدها عنها ، وهي إذن إمّا خصـائص تبينها بعض اللغويين والدارسين من خصائص العربية الفصحى ، ونسبوها إلى اللهجة التي أخذت منها . وسبب إفرادها بالنظر هو عدم وجودها ـ أي الخصائص اللهجية ـ لدى قريش صاحبة اليد الطولى في خصائص الفصحى . وإننا نرى في هذا النوع من الأمثلـة ما نستدلّ بـه على اجتماع عناصر لهجية متنـوعة شكّلت مع الأساس القـرشي اللغة المشتركة (٦١) . وإما خصـائص انفردت بها بعض القبـائل ومنها قـريش ولم تدخـل في الخصائص المشتركة ، وهي خصائص نادرة الظهـور في الفصحى . ونخلص من بعد إلى افتراض يستند إلى كثير من الأدلة هـو أن اللهجات بعد تشكّل الفصحى الـذي رأيناه مكتملا في أواخـر عصر الجاهلية ، لم تعـد تحتفظ إلا بـالقليل من الخصـائص المميـزة ، لأنها اقتربت مـن الفصحى كثيرا فتشكّلت فيهـا واتخذت خصائصها المشتركة قواعد لها . ولم يكن هذا الوضع يمنع من ورود أمثلة محدودة خرجت على الخصائص المشتركة ، لا لهجات مستقلّة .

ومن المسائل التي تتصل بالاستخدام اللغوي ما أثاره بعض المستشرقين ومن تبعهم من الدارسين العرب من شكوك حول الإعراب . وهم إمّا منكر للإعراب جملة ، لا يراه من أسس العربية ، بل يزعم بأنه من نسج النحاة واختراعهم . وإما مشكّك في أن يكون ظاهرة عامة لدى العرب ، ولذلك يقصره على المستوى الرفيع من التعامل إضافة إلى الأدب .

ولعل الدافع إلى تلك الشكوك فيما أقدّر هو ما وجده الدارسون المحدثون من اتساع القواعد الإعرابية وتشعّب أنظمتها ، وكثرة حدودها كثرة زادها المتأخرون من النحاة حين بالغوا في التفريع ، واصطناع القواعد. ولو لمثال واحد، إضافة إلى اشتراطات لا حصر لها تفننوا في وضعها والزيادة عليها . غير أنّ هذا كلّه لا يقدّم مسوغا لإنكار الإعراب ، والزعم بأنه مصطنع لا أصل له .

فالإعراب لم يكن نظاما ابتدعه النحاة كما زعم فولرز (K.Vollers) منكرا أن يكون القرآن الكريم معربا ، إن لهجة مكة مجرّدة من الإعراب [٦٢]. كذلك لم يكن الأمر كما توهم كوهين (Cohen) الذي استبعد وجود الإعراب في لهجات الحديث في الجاهلية ، لأنه - كما يرى - مقتصر على اللغة الأدبية [٦٣] . ومن المعروف أنّ منكرى الإعراب عامة يستندون إلى أنّ الضوابط الإعرابية صعبة التطبيق ، وهم بذلك يتجاهلون وجود السليقة التي جعلت العرب ينطقون لغتهم معربة من غير أن يعرفوا شيئا من قواعد النحاة، بل من مصطلحاتهم . وهم - أي الدارسون - ينظرون إلى هذه الضوابط الإعرابية بعد تراكم امتّد نحو عشرة قرون من الإضافات، واشتجار المنطق وعلم الكلام والبلاغة بالنحو، ممّا زاد القواعد تعقيدا وأدخلها في التصنّع. كذلك استند هؤلاء إلى أن لهجات العرب المحدثين تخلو من الإعراب. والحقّ أنّ عددا من بقايا الظواهر الإعرابية لم يزل ملاحظا في بعض اللهجات العامية ولاسيما في البوادى وبعض المدن العربية ذات الطابع القبلي .

ولقد تبع بعض الدارسين المحدثين أفكار المستشرقين، وصاغوها صياغة لاتخلو من مبالغة . فإبراهيم أنيس يرى أن الإعراب قصة وما أروعها قصة على حدّ تعبيره . وخلاصة ما ذهب إليه أنيس أنّ قصة الإعراب حيكت من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة، ثم أحكمت وتمّ نسجها في أواخر القرن الأول للهجرة على يد صنّاع الكلام، ثم غدا الإعراب حصنا منيعا شقّ اقتحامه إلا على النحاة . [٦٤]

ويذهب أنيس إلى نحو مبالغ فيه حين يرى "أن النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الإعراب وقاسوا بعض الأصول رغبة منهم في الوصول إلى قواعد مطردة منسجمة [٦٥]. ثم إنه يفترض افتراضا لايقوم على أساس علمي تاريخي - كما يقول إبراهيم السامرائي - إذ يقول بتأثر النحاة بما رأوه حولهم

من لغات كـاليونانيـة التي تفرّق بين حـالات الأسماء فيها، وهي التي تسمى (cases) ويرمز لها في نهاية الأسماء برموز معينة. (٦٦)

والحق أنّ هـذه المزاعم لاتقف أمام سيل من الـواقع المؤكدة التي أبـرزها العلماء المنصفـون من المستشرقين أنفسهم، ومن الدارسين العرب المحدثين الذين حققـوا في هذه المسألة، وانتهوا إلى نتائج مقبولـة. وإنّ مما يذكـر في هذا الصـدد دفاع نولـد كه (Noldeke) عن ظـاهرة الإعـراب حين أقام حججا على أنّ الأمثلة التى ضربها فولرز على التجّـرد من الإعراب ليست إلا صورا من تساهل الناس بعد اختلاطهم بالأعاجم وظهور اللحن، وأنّ الزعم بـأنّ القرآن لم يكن معربا وهم لايدعمه سند من حقيقة أو دليل. كذلك نجـد يوهان فك (J. Fuck) يستخفّ برأى فـولرز، ويرى بعـده عن فقه العربية وتاريخهـا. وقد أثبت فك في دراسته لتاريخ العربية وتطوّرهـا وجود التصّرف الاعرابي في أزمان تلت القرنين الأول والثاني الهجريين. (٦٧)

ولقد قدّم بعض الـدارسين عددا آخر من الأدلة التي تثبت وجود الإعـراب في القرآن الكريم وفي اللغة الأدبيـة التي يمثّلها الشعر الجاهلي، إضـافة إلى وجـوده في لهجات الإعراب المتنـاقلة، وفي أحاديثم ومبادلاتهم. (٦٨) من هذه الأدلة أن اللغويين القدماء عدّوا لغة الأعراب الذين أخذت عنهم العربية أساسا من الأسس التي بنوا عليها نحوهم، ولغة اولئك معربة سليقة لاصنعة، ولقد صح أن العـرب نطقوا بـالشعـر مـوزونا مقفّى دون معـرفـة ببحـوره وأوزانه التي استنبطهـا الخليل بأخـرة من الزمن. فـلا عجب أن ينطقوا ـ قيـاسا على ذلك ـ لغتهـم معربة من غير أن يعـرفوا من قواعـد النحاة شيئـا. ونعلم علم اليقين أنّ المشافهـة هي التي مكنت الأجيـال قديما من نطق لغتهم معـربة، فـلا حديث حـول التعلّم ومعرفة القـواعد في الجاهلية وصـدر الإسلام. فالعـرب في عهد بنى أمية كـانوا يرسلون أبناءهـم إلى البـادية لتلقي اللغة معربة من أفواه البدو. ومن المعـروف أنّ هذه السنّة استمرت حتى فشـا اللحن في الأعـراب وأخـذ العلماء يتشـدّدون في الأخذ عنهـم فاستعـاض العرب بـالعلم والمدارسة والتلقي من أهل العلم والفصاحـة عن المشافهة والرواية. وبإمكـان الدارس أن يقف عند ظاهرة اللحن، لأنّ خطأ العربي في الإعراب كان أول مظهر من مظاهر اللحن. وهذا النوع من اللحن ظهر لدى العرب، على حين أنّ اللحن في الأصوات شاع لدى الأعاجم. ولو كان الإعراب من صنع النحـاة لما نفـر العــرب من اللحن ذلك النفـور الــذى دلتنـا عليـه الأمثلـة المرويـة في كتب اللغـة، والأدب(٦٩). ومن الشـواهد التي تـدل على رسوخ الإعـراب لدى العـرب، تلك الصعوبـة ـ أو عـدم الإمكان أحيانا ـ التي يجدها العربي في نطق لغته مجردة من الإعراب ومختلّة التراكيب(٧٠).

وهناك دليل آخر على وجود الإعراب في العربية، هو ماقدّمته لنا الدراسات السامية المقارنة من خلال دراسة الظواهر المماثلة للعربية. ومن الملاحظ أنّ معظم الدراسات تجمع على أنّ الإعراب سمة من أقدم سمات اللغات السامية [٧١]. كما أنّ عددا من تلك اللغات ينطوي على بعض الظواهر الإعرابية، ففي الأكادية علامات إعرابية متعّددة ومطردة، وفي الحبشية علامة نصب تشبه العلامة الموجودة في العربية. كذلك وجد العلماء في اللهجة النبطية علامات الرفع والنصب والجر. ووجدوا أيضا في الأمهرية والعبرية ظواهر إعرابية متعددة [٧٢]. ولقد ثبت لدى هؤلاء العلماء أنّ العربية لاتنفرد بالإعراب، بل تحتفظ بأكثر ظواهره على الرغم من تعدّدها وتشعبها. ومن المعروف أنّ عزلة العرب قديما أبعدت عنهم المؤثرات الأجنبية ممّا جعل الإعراب عندهم سليما من التغير الذي صادفته سائر اللغات الساميّة، والذى أذهب كثيرا من خصائصها. كما أن انتحاء العرب في مرحلة وضع القواعد نحوا معياريا أسهم في الإبقاء على الإعراب بوصفه خصيصة بارزة من خصائص العربية الفصحى.

يمكن للدارس ـ بعد الذي قدمنا ـ أن يطمئن إلى استنتاج مؤدّاه أنّ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام كانوا ينطقون لغتهم فصيحة معربة بسهولة ويسر من غير تكلّف إعراب ولاتصنّع فصاحة، ودون معرفة شيء من الضوابط الإعرابية، ودون حاجة إلى تعلّم أو مدارسة. ويرّد كثير من اللغويين القدماء والدارسين المحدثين هذه السلامة والسليقة إلى غلبة العزلة على العرب، وإلى قلة اختلاطهم بغيرهم من الشعوب [٧٣].

أما ظهور اللحن فقد أجمع العلماء على أنه أثر من آثار اختلاط العرب بغيرهم، وهو الاختلاط الواسع الذى تمّ بعد خروج العرب المسلمين من جزيرتهم قاصدين الأمصار المفتوحة. ومن المؤكد أيضا أنّ اتساع اللحن أقلق أولي الأمر والنظر فحذّروا منه واستهجنوه، وسعوا إلى مقاومته. غير أنّ الجهد الأكبر في هذا المجال يرجع إلى اللغويين الذين اندفعوا إلى تدوين اللغة للحفاظ على الصورة المثلى للغتهم التي وصلت إليهم بريئة من مظاهر الانحراف. ولقد قرّ في نفوس ذلك النفر من اللغويين الأوائل أنّ العربية إرث غال من الواجب نقله إلى الأجيال التالية سليما صحيحا، والحفاظ عليه من كلّ خلل أو نقص. وقد قوى هذا المقصد النبيل كون العربية لغة الدين التي حملت معجزة الوحي الخالدة.

ومن الملاحظ أن كثيرا من المسائل المتعلّقة بتدوين اللغة والاحتجاج لها كانت مدار نقاش واختلاف بين الدارسين المحدثين، وسوف تتخذ بعض الآراء أمكنتها في الأجزاء التالية من هذا البحث. وإنّ أول ما نشير إليه بداية هو ما يتّصل بفكرة العزلة وأثرها في سلامة اللغة لدى العرب في الجاهلية وفجر الإسلام. ويلاحظ أنّ بعض الدارسين يحاولون إثبات الاتصال الواسع بين العرب

والشعوب المجاورة لهم قبل الإسلام، وهو يحتجّون بوجود مفردات دخلية تداولها العرب وضمّوها إلى لغتهم[٧٤]. والحق أنّ وجود تلك المفردات في العربية لا يقدم دليلا حاسما ـ كما أُريد له أن يكون ـ على وجود الاختلاط الواسع بين العرب والشعوب الأخرى قبل الإسلام. ولذلك نردّ ما احتجّ به عباس حسن وتمّام حسان من وجود الدخيل في العربية لإثبات موجات سابقة من الاختلاط قبل الإسلام. فالدخيل لا ينهض دليلا على ذلك الاختلاط الواسع المزعوم لأنّ سبل الدخيل إلى اللغة متعدّدة، وليس الاختلاط والمساكنة السبيل الوحيد لها، بل إننا نردّ كثيرا من تلك السبل إلى التجارة، والرحلة، وانتقال الشعراء.

ويتأكّد ربط العلماء بين الفصاحة القائمة على الألسنة، وعزلة العرب في جزيرتهم حين نصوا على إطارين حدّدا المكان والزمان المعتمدين في الاحتجاج

أ ـ أمّا الإطار المكاني فقد حدّده العلماء بعد أن تخيّروا [illegible] تسكنها القبائل العربية النائية عن التأثير الأجنبي الذى اتفقوا على أنّه يسبّب البلبلة والخلط واللحن. وهذه القبائل هي التي أُخذ عنها جلّ اللسان العربي، وعليها اعتمد وبها اهتدي. وهناك نص في هذا الصدد يذكر فيه أبو نصر الفارابي القبائل الست التي أخذ عنها معظم ما أُخذ، وهي قيس وتميم وأسد، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ثم يذكر القبائل التي لم يؤخذ عنها، ويردّ سبب ذلك إلى مجاورتها الأعاجم أو مخالطتها لهم في التجارة مخالطة واسعة[٧٥]. أما ابن خلدون فهو يردّ فصاحة قريش لبعدها عن بلاد العجم من جميع الجهات وإحاطة القبائل الفصيحة بها، ولذلك نراه يحدّد معيار الفصاحة بالقرب منن قريش أو بالبعد عنها[٧٦]. لقد تأكد للعلماء أنّ الاختلاط بالأعاجم هو سبب اللحن وفساد السليقة، ولذلك كان هذا الإطار متّجها إلى التحري عن القبائل التي قلّ اختلاطها بالأعاجم.

أما ما كان مخالفا لما استنبطوه من كلام القبائل التي اعتمد عليها فقد سمّوه لغات أي لهجات، لأنها خالفت ما نقلوه من العربية الفصحى المشتركة. وقد رويت عن متقدّمي اللغويين أخبار تدلّ على أنهّم لم يخطئوا لغات العرب المخالفة لقواعدهم، بل إن سيبويه ينقل عن شعراء لم تؤخذ اللغة من قبائلهم. وقد اتخذت هذه المسألة لدي ابن جنّي نحواعلميا حين بحث اختلاف اللغات، وانتهى إلى ضوابط تأخذ في اعتبارها الاستعمال والقياس. من ذلك أنّ استعمال اللهجة القليلة المخالفة للقياس لايعدّ خطأ، لكن مستعملها يكون مخطئا لتركه أجود اللغتين، إلا إذا كان مضطرا فإنه لا يلام ولا يذم على استعماله إياها. ويقول في ذلك: "وكيف تصرّفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء، وإن كان غير ماجاء به خيرا

منه [٧٧]. وإضافة إلى ذلك فهناك ما يدّل على أخذ العلماء عمن سلمت لغته، وإن لم يكن من القبائل المعتمدة لدي أبي نصر ومن سبقه. فالقبائل الست الرئيسية ليست المصدر الوحيد الذي استمدت منه اللغة الفصحى بل أخذ عنها معظم اللغة [٧٨]. كذلك نجد أنّ البحث عن المستوى الذي عدّه اللغويون فصيحا هو الذى وجّه خطاهم وحدّد معايرهم، ولذلك نراهم يطرحون بعض اللهجات المذمومة التي عرفت لدى قبائل معينة من التي قبلوها لتمثيل الفصحى، والسبب في ذلك هو مخالفة تلك اللهجات لمقاييس الفصحى المشتركة. ويمكن أن نخلص إلى أنّ الإطار المكاني كان معيارا لتتبّع الفصاحة المبنية على السليقة، ولذلك كان الاحتراز من الأخذ عمن اختلط بالأعاجم لما لاحظوه من أثر الاختلاط في إفساد اللغة. ولا شكّ في أنّ مدار الأمر كان حول البيئات الجغرافية دون الاتجاه إلى التعويل على الانتساب إلى هذه القبيلة أو تلك، وما كان اعتماد تلك القبائل إلا لسكناها في مواضع معينة لاحظ العلماء بُعدها عن الاختلاط [٧٩]. ومن هنا كان تفريقهم بين البوادى والحواضر التى تسكنها القبيلة الواحدة.

ب ـ لقد حدّد اللغويون الإطار الزمني للاحتجاج ابتداء ممّا عرف من عهد الجاهلية القريب من الإسلام، والذي وصلنا منه الشعر الجاهلي المتقدم، وهو لأوائل الشعراء الذين نقل العرب أخبارهم، وانتهاء بالقرن الثاني الهجري. وممّا يلاحظ ــ ههنا ــ أنّ اللغويين اعتمدوا مفهوم الطبقات للاستشهاد بالشعراء، وهذه الطبقات هي:

أ ـ الطبقة الأولى وتضّم الجاهليين، ب ـ الطبقة الثانية، وتضّم المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية ثم أدركوا الإسلام ج ـ الطبقة الثالثة، وهي التي ضمّت شعراء إسلاميين عاشوا في صدر الإسلام حتى القرن الثاني للهجرة [٨٠]. ومن المؤكّد أنّ الأخذ عن شعراء هذه الطبقات كان واسعا. أما ما روى عن بعض اللغويين من تخطئة عدد من الشعراء الإسلاميين أو عدم الاعتداد بهم، فلا يدلّ على ترك الأخذ عنهم، لأنّ المصنفات اللغوية زاخرة بأشعارهم.

ومن الملاحظ أنّ السليقة اللغوية بقيت لدى البدو المنعزلين في البادية حتى القرن الرابع الهجرى. وقد رويت في هذا الصدد نصوص متعدّدة حول لقاء اللغويين الأعراب الفصحاء في هذا القرن. من ذلك ما رواه الأزهرى (ت ٣٧٠هـ) صاحب معجم تهذيب اللغة من وقوعه في أسر بعض الأعراب الذين ما زالوا حتى ذلك العهد يتكلمون بطباعهم، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، ولذلك عزم الأزهرى على تقييد نكت حفظها من أفواه الأعراب الذين أقام بين ظهرانيهم [٨١]. كذلك روى ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) ملاحظات متعدّدة حول لقائه الأعراب الموثوق

بفصاحتهم، وفيهم من يصعب عليه النطق بالكلام ملحونا لغلبة السليقة عليه، بل يصعب على الفصيح فهم اللحن، كما ذكر الجاحظ[٨٢].

ج ـ أما مصادر اللغة التي اعتمدوها في الاحتجاج فهي تتمثّل في ثلاثة مصادر رئيسية هي: القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب. فالقرآن الكريم هو النص العربي الصحيح الذي أثار اهتمام العلماء لما ضمّه من الكلام المبين المعجز الذى تحدّى به العرب الفصحاء. وقد جرى عرف العلماء على الاحتجاج برواياته سواء أكانت متواترة أم روايات آحاد أم شاذة. فالقراءة الشاذة التي منع القراء قراءتها في التلاوة يحتجّ بها في اللغة والنحو، لأنها أقوى سندا من كلّ ما احتج به العلماء من الكلام العربي.[٨٣] وعلى الرغم من أنّ لغة القرآن على الصورة التي ذكرناها من المستوى اللغوي الرفيع فإن بعض اللغويين والنحاة لم يتحرّجوا من الطعن في عدد من القراءات، واتهام القراء بجهل العربية.[٨٤] والحقّ أنّ هذا الموقف يمثّل مظهرا من مظاهر التشدّد فى تطبيق القواعد وتحكيم القياس في الكلام المسموع، وهو ما نقل عن بعض النحاة الذين ظنّوا أنّ قواعدهم شاملة، وهي ليست كذلك، بل هي عامة يمكن أن تنطبق على النمط الغالب من اللغة. ومن الملاحظ أنّ هذا الموقف يكاد يكون مقتصرا على مصنّفات النحو دون اللغة التي اتسع صدر علمائها، فقبلوا كثيرا من اللغات والوجوه التي أنكرها النحاة، أو رووها على أنها مما سمع عن العرب من غير تحديد لموقفهم منها.

أما الحديث الشريف فلم يُقبل على الاحتجاج به معظم اللغويين والنحاة، وذلك لعدم وثوقهم أنه لفظ الرسول صلى الله عليه وسلّم، إذ لو وثقوا بذلك، لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد والاحتجاج للغة.[٨٥] ومن المعروف أنّ ما نعي الاحتجاج بالحديث تعلّلوا بأنّ الرواة الذين نقلوا الحديث جوّزوا النقل بالمعنى، فتجد قصة أو حادثة واحدة جرت في زمن الرسول لم تنقل بألفاظ واحدة، بل اختلفت الألفاظ أو ترادفت مما يدلّ على النقل بالمعنى دون اللفظ. كذلك تعلّل المانعون بوقوع اللحن فيما روي من الحديث، لأنّ كثيرا من الرواة لم يكونوا عربا، فكثر اللحن والخطأ في رواياتهم. ولا شكّ في أنّ متقدّمي اللغويين والنحاة كانوا متشدّدين في انصرافهم عن الاحتجاج بالحديث، لأنّ ما استندوا إليه من حجج في منع الاحتجاج به، لا يسلّم لهم، فالأحاديث التي نقلت بالمعنى ـ إن كان ذلك مطردا ـ نقلها فصحاء معروفون من الصحابة والتابعين، وهم ممن يقع الاحتجاج بلغتهم. كما أنّ وقوع اللحن في بعض الأحاديث التي ميّزها المحدّثون لا يلغي الجزء الأعظم من الأحاديث الصحيحة سندا ورواية ولغة. فاللحن وقع في كلام العرب الفصحاء ولا سيّما

في العصر الأموي، وهم ممّن يحتجّ بهم، فلا مسوّغ لذلك التشدّد في رفض الاحتجاج بالحديث بسبب وقوع اللحن في أحاديث محدودة . (٨٦)

ومن الملاحظ أنّ ورود بعض الأحاديث في المصنّفات المتقدّمة ككتاب سيبوية لم يدفع اللغويين التالين إلى التوسّع في الاحتجاج بالحديث إلا في مرحلة متأخرة. (٨٧) فالرأي القائل بحجية الحديث لقي تأييدا مطردا لدى المتأخرين من النحاة ــ كما يقول يوهان فك ــ الذين أكثروا من الاستشهاد بالحديث كابن برّي (ت ٥٨٢ هـ)، وابن خروف (ت ٦٠٩هـ)، وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) ، والاستراباذي (ت ٧١٧ هـ). ويرى فك أنّ تحوّلا طرأ على ترتيب أصول اللغة، لأنّ الحديث غدا في المرتبة الثانية بعد القرآن، أما كلام البدو فقد احتلّ المرتبة الثالثة . (٨٨)

ويأتي كلام العرب الموثوق بفصاحتهم في المنزلة الثانية بعد القرآن لدى معظم العلماء المتقدّمين الذين اعتمدوا على ما رواه الثقات من نثر العرب ونظمهم. ومن المعروف أنّ الشعر كان المصدر الأساسي الذي اعتمده النحاة للاحتجاج وإثبات ما استنبطوه من قواعد. وقد روي في هذا الصدد أكثر من خبر حول عناية النحاة بالشواهد الشعرية، وحفظ ألوف الأبيات منها. (٨٩)

ولقد لاحظ بعض الدارسين المحدثين أنّ اللغويين القدماء وقعوا في مخالفات منهجيّة تتّصل بتحديد المستوى اللغوي، وبنقص الاستقراء، وتعدّد مصادر الاستشهاد وبالمدّة الزمنية التي تعارفوا على تسميتها بعصر الاحتجاج. (٩٠) ولا يعنينا في هذا المجال الردّ على جميع ما قيل حول ذلك، لأننا وقفنا عند عدد من الآراء في تضاعيف كلامنا السابق من هذا الفصل؛ غير أنّ ما نريد تأكيده هو أنّ اللغويين سعوا إلى تدوين المستوى الذي اختاروه لتمثيل العربية، ولا يضيرهم في شيء إن فضّلوه على غيره لأنّ دوافع متعدّدة حدتهم على ذلك. ومن هنا يبدو خطأ من يطالب النحاة واللغويين بتسجيل كلّ لهجة على حدة وعدم الخلط بين مستوى من الكلام وآخر، لأنّ العرب كانوا معنيّين بتسجيل صورة المستوى الذي وصلهم عن طريق القرآن والشعر وكلام الفصحاء. فالفصحى وصلت إلى العلماء لغة واحدة مشتركة، لا لهجات متباينة كما فهم بعض الدارسين الذين راحوا يطالبون النحاة بإنشاء نحو خاص لكلّ لهجة من اللهجات. فالمنهج في رأينا سليم يعوّل على وضع الحدود الضرورية للدرس اللغوي ويقوم على الملاحظة والتسجيل، ويتوسّل بالطرائق الدقيقة من القياس واستنباط القواعد العامة.

وإضافة إلى ما رأينا من دور العربية في تكوين المستوى الصوابي والمعيارية، يجدر بنا أن نشير إلى أثر الدين في المستوى الصوابي. فالقرآن نزل بالعربية التي أصبحت لغة الوحي الإلهي المقدّس،

فلا غرابة إن وجدنا الأخبار المرفوعة إلى الصحابة والتابعين تعلي العربية من الوجهة الدينية. (٩١)

ولا عجب بعد هذا أن يعدّ اللحن ضلالا وذنبا يستحقّ مرتكبه أن يضيّق عليه في الرزق، وأن يستغفر ربّه من أجله. (٩٢) وقد لاحظ بعض الدارسين أنّ النحاة ربّما وضعوا شيئا من الأحاديث ليتخذوها حجّة لهم في إلزام الناس بمراعاة الإعراب، وتحذيرهم من اللحن، ولا سيّما في تلاوة القرآن. (٩٣) كذلك مال بعض النحاة إلى تأويل بعض الأحاديث التي تتّصل بموضوع العربية تأويلا يتفق وما هدفوا إليه من الحفاظ على لغة القرآن، ورمي الخارجين عليها بالضلال. ومن هنا يتأكد استناد اللغويين الأوائل إلى قدسيّة العربية من الوجهة الإسلامية، واتخاذها دعامة من دعائم المستوى الصوابي. وهناك من الدارسين من يتّسع في عدّ العربية لغة مقدّسة عند الجاهلين، لأنها لغة مكة قاعدة الآثار المقدّسة التي تشيع فيها ذكرى الأنبياء، وتتجاوب في جنباتها أصداء الشعائر التي أرادوها أن تقرّبهم إلى الله. (٩٤)

ولا ننسى أثر العصبية العربية في تكوين المعيارية، ورمي كلّ خطأ بالهجنة التي تفسد الأصالة المتوارثة. ولأنّ العبقرية في لسانها فقد اعتقد العرب أنّ لغتهم أثمن رصيد لهم، لأنها إرث غال ينبغي أن يحافظوا عليه. و إذن يجب أن يسود العرب وأن تسيطر العروبة، وأن يحافظ على نقاء كلّ ما يتصل بالعرب من أمور، وأن ينقّي كلّ ما ينتسب إليهم من أشياء، وأن تقام حوله الأسوار والحصون تمنع عنه الأجناس غير العربية، وفي ظلّ هذه النظرة بدأ الاهتمام باللغة العربية وتنقيتها وتخليصها من شوائب اللحن، وإقامة القواعد لفصاحتها وإعرابها وتصاريفها. (٩٥) ومع التسليم ببعض ما جاء في الكلام السابق فإنّه من الضروري الاحتراز من إطلاق الأحكام، لأنّ الدافع الديني كان مسيطرا على أجواء العلم في عصر التدوين سيطرة كبيرة، فالناس حديثو عهد بالإسلام، وعلى الرغم ممّا يقال عن الصراع بين العرب والموالي في عصر بني أمية، فإنّ الفئات العليا من الموالي توسّلت بالعربية كي تحتل مكانة مرموقة في المجتمع. ومن هنا نرى أنّ العصبية العربية أسهمت في تشكيل المعيارية ضمن مجموعة من العوامل التي لم تكن تلك العصبية أقواها.

٤ ـ مصنفات اللحن والتطور الدلالي

مرّ بنا في الفقرة السابقة أنّ العربية الفصحى المشتركة استوت واطردت بما اجتمع لها في الجزيرة العربية من ظروف مكّنت العربي من أن يكون على قدر كبير من العزلة عن الأمم المجاورة. ولذلك رأينا العربي ينطق لغته بالسجية ويتداولها بالسليقة حتى كان الاختلاط بعد الفتح، حين انتقل العرب الى المدائن ومصّرت الأمصار، ودخل في الدين أخلاط الأمم، فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن

على ألسنة الناس. (٩٦) فاللحن لم يتّسع، ويغدو ظاهرة عامة إلا بعد الفتح واختلاط العرب بالأعاجم. أما ما روى عن وجود اللحن قبل الإسلام، وفي وقت ظهوره بوصفه جائزا حتى من سادة العرب وأشرافهم، فليس مما يركن إليه الدارس، لا سيّما إذا أريد له أن يكون دليلا على اتهام الجاهليين ومتقدّمي الإسلاميين باللحن والخطأ الذي يوجب الحيطة والاحتراس من اتخاذهم حجة في اللغة (٩٧). وإنّ ما نرتضيه في هذا الجانب هو أنّ المظاهر الأولى للّحن قبل الإسلام، وفي عصر النبوة، ليست إلا أمثلة محدودة لا تمكن الدارس من أن يستند إليها في تبنّي حكم قاطع حول شيوع اللحن واتساعه. وإذا ما صحّت الأخبار حول اللحن في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نسب إليه من أحاديث حول ذلك، فهي إذن بداية خفيفة، لا ظاهرة مطردة. وعلى الرغم من أنّ بعض الأحاديث والآثار التي نقلت عن الصحابة يذكر فيها "اللحن" صريحا بدلالته الاصطلاحية، فإنّ أخبارا أخرى رويت بعد ذلك ـ وعن بعض الصحابة ـ تدلّ على أنّ دلالة "اللحن" على الخطأ اللغوي لم تكن معروفة معرفة واضحة. (٩٨)ولذلك نرى بعض الدارسين يوهّنون الأحاديث والأخبار التي جرى ذكر اللحن فيها صريحا. (٩٩)

ومن أجل ذلك نرى بعض الدارسين يذهبون إلى أنّ تحديد الزمن الذي تمّ فيه نقل دلالة اللحن إلى معنى الخطأ في الكلام تكتنفه صعوبات جمّة، بسبب اختلاف الروايات ونقص الأدلة على ذلك (١٠٠) ومع ذلك نرى صبحي الصالح يجتهد في تحديد دلالة اللحن بمعنى مخالفة التعبير الصحيح حين استبعد أن يكون اللحن قد عرف لدى العرب قبل اختلاطهم بالأعاجم، "فاللحن لم يكتسب هذا المدلول الخاص إلا في وقت متأخر بعد أن تعارف الناس على تغيير معناه اللغوي الأصلي" (١٠١)ولذلك نجده ينفي أن يكون الرسول قد استعمله بمعنى الخطأ في اللغة، أو حضّ على قراءة القرآن بالإعراب.

ومهما يكن من أمر فإن الدارس يجد في قصة أبي الأسود الدؤلي مع الإمام عليّ حين شكا له لحن ابنته، وما سمعه من لحن الناس، ما يدلّ على اتساع اللحن، وصدوره عن العرب والأعاجم، مما حدا العلماء على تدوين اللغة واستنباط القواعد التي تصون الألسنة من الخطأ. (١٠٢)واستنادا إلى ذلك يمكن أن نعدّ هذه البداية منطلقا لتحويل دلالة اللحن إلى معنى الخطأ في الكلام. أما في عصر بني أمية فإنّ الروايات تجمع على أنّ اللحن بدأ يتطرّق إلى بعض الخلفاء والأمراء، بل إلى بعض البلغاء المعروفين. ومن الملاحظ أنّ بني أميّة كانوا متشدّدين في أمر اللحن، وقد نقلت عن معظم خلفائهم أخبار كثيرة تدلّ على ذلك. (١٠٣)وإذا ما تجاوزنا المئة الأولى للهجرة وبلغنا صدر المئة الثانية وجدنا الحكم ينتقل إلى بني العبّاس الذين اتخذوا إقليم العراق قاعدة لهم. وبالنظر إلى الظروف التي رافقت دعوتهم، ومن ثمّ انبثاق دولتهم نجد الأسباب مهيّأة للتخفيف من العصبية العربية التي استند إليها

بنو أمية، ولإتاحة الفرص للاختلاط الواسع بالموالي. ولا شك في أن هذا الاختلاط قاد إلى اتساع اللحن وشيوعه في العراق خاصة. (١٠٤)

ومن هنا نقف عند بداية التصنيف في اللحن التي كانت في إقليم العراق الذي شهد من الاختلاط ما شهد، وفي هذا القرن ـ الثاني الهجري ـ الذي برز فيه أعلام المصريين: البصرة والكوفة، من النحاة واللغويين. وإذا ما صحّت نسبة كتاب "ما تلحن فيه العوام" للكسائي (ت ١٨٩ هـ) فإنّ في ذلك دليلا على أنّ التأليف في موضوع اللحن كان مبكرا. ومن الممكن أن يعدّ بداية لحركة تنقية اللغة العربية التي اتسع مجالها فيما بعد. ولن يطول الزمن حتى نرى مصنّفات متعدّدة ظهرت في موضوع اللحن، وهي لعلماء بعضهم يُعدّ في تلاميذ الكسائي، كالفراء (ت ٢٠٧)، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ) وأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)، وغيرهم من العلماء.

ومن الملاحظ أنّ التأليف في موضوع اللحن لم يبق محصورا في العراق بل امتدّ في القرن الرابع وماتلاه إلى معظم الأقاليم العربية. (١٠٥) ولا يعنينا في هذا المجال أن نؤرخ لحركة التصنيف في اللحن، فذاك ميدان مستقل وقد بذلت فيه جهود قيّمة. (١٠٦)

ومن الملاحظ أنّ معظم المصنّفات تتّجه إلى الخاصة لتقويم لسانها وإبعادها عن التأثر بالعامة، فالباعث الأساسي على التأليف في اللحن هو ملاحظة المؤلف أنّ ما يقع فيه العامة من غلط قد وصل إلى الخاصة فتداولوه في كلامهم أو في تأليفهم، وهو ما حداه على هذا الأمر صونا للعربية وترفعا عن مجاراة العامة والدهماء. (١٠٧) أما الاتجاه إلى العامة لتقويم لسانها فلم يكن في مقاصد المؤلفين. ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنّ بعض المؤلفين ذكروا نوعين من العامة، عامة سفلى، وأخرى عليا أو أولى. ولعل أخطاء الفئة الثانية من العامة هي التي أخذت طريقها إلى الخاصة. أمّا ما يتّصل بالفئة الأولى من العامة وهي السفلى، فقد أعرض عن ذكره معظم المصنّفين، لأنّ أخطاءهم مما لايعزب عمّن تمسك بطرف من الفهم والعلم. (١٠٨)

ومّما يدلّ على اتجاه المصنّفين إلى إصلاح الفاسد من كلام الخاصة، أنّ معظم المصنّفات كانت تهدف إلى تلقيح الجنان وتعليم البيان، وذلك بإضافة أبواب مستقلة تضمّ تفسيرا لكثير ممّا يشكل على الناس تفسيره، ونتفا مستملحة، وأخرى من أمثلة يقاس عليها للاحتراز من الخطأ. ومن هنا نجد أنّ معظم المصنّفات المؤلفة في اللحن ليست مقتصرة على أمثلة محدودة يجرى تصويبها، بل تحوى إلى جانب ذلك موضوعات مهمّة ومفصّلة لدى بعض المصنّفين في التثقيف اللغوي وإعداد الكتّاب

أما أمثلة اللحن فهي تتوزّع على أنواع تضمّ مايتّصل بالأصوات والصرف والنحو والدلالة والإملاء. ويلاحظ من خلال النظر في المصنفات التي اعتمدناها أنّ أمثلة اللحن في النحو قليلة بل نادرة، وأنّ أمثلة اللحن في الأصوات قليلة أيضا، أمّا أمثلة اللحن في الصرف فهي التي تمثّل القسم الأكبر من الأمثلة، ويليها مايتّصل بالدلالة من أمثلة ومسائل. وعلى الرغم من أنّ بعض المصنّفات سعت إلى انتهاج تبويب معيّن لما بين المصنّفين من مادة، نرى أمثلة اللحن المتعدّدة تفتقر إلى تصنيف دقيق.

لقد تأكد لنا من خلال ماقدّمنا أنّ القدماء عدّوا كلّ تغيّر أو مخالفة للّغة التي دوّنوها ضمن حدود معيّنة لحنا مهما كانت طبيعة ذلك التغيّر، أو تلك المخالفة، وبذلك نراهم وسّعوا من دائرة اللحن، حتى غدت معظم المصطلحات الدالّة على التغيّر اللغوى تنضوى تحتها (١٠٩). وعلى الرغم من أنّ علماء العربية القدامى تواضعوا على هذا الاتجاه في توسعة دائرة اللحن والخطأ، نراهم غير متفقين غالبا في وجهة نظرهم نحو الاستعمال اللغوى الصحيح الذي عدّوه معيارا للحكم على الخطأ والصواب.

ومن الأمور التي تذكر في هذا الصدد خلاف أهل المصرين: البصرة والكوفة أو المدرستين حول اعتماد بعض القبائل المقيمة في سواد الكوفة أساسا في الاحتجاج (١١٠). ويؤكد معظم الدارسين المحدثين تشدّد البصريين في المقياس الصوابي، وتروى في هذا المجال قصص كثيرة حول اعتداد البصريين ومن والاهم بصحة مذهبهم في القياس على " لسان العرب الأول ". أما خصومهم من الكوفيين فقد توسّعوا في قبول ماجاء به الأعراب وإن لم يكن مطّردا، كذلك لم يجدوا بأسا في عد الأعراب المجاورين للمدن حجة في اللغة. ولذلك اتهموا بأنهم قاسوا نحوهم على " لغى أشياخ قطربل ". (١١١)

أما أصحاب المصنّفات التي خصّصت لموضوع اللحن فقد تعدّدت آراؤهم في المقياس الصوابي مما قاد إلى مزيد من الخلاف. والمشكلة الرئيسة في هذا المقياس هي أنّ معيار القبول والرفض يرتبط أساسا بما سمع عن العرب أو عن بعضهم، أو ماسمّي لهجة من لهجاتهم، وما يمكن أن يقاس عليه في حدوده الدنيا. فالخلاف يدور حول الاحتجاج بهذا الكلام الذى نسب إلى العرب أو رفضه لأنه قليل أو شاذ أو غيره أفصح منه. وإنّنا نرى وراء ذلك سببين هما:

١- تقيّدهم بالمعيارية " الحرفية "، وتتمثل في الوقوف عند معاني المفردات التي وردت في اللغة حتى نهاية عصر الاحتجاج.

٢ ــ عدم التفريق بين مستويات الكلام الفصيح، وعدّ اللغة مستوى واحدا من الكلام الذي لم يتصوّروا إمكان التفاوت فيه. ولذلك نراهم يسلكون الشعر والنثر والقرآن وكلام الناس في حيّز واحد، ويحتجّون بأمثلة تفتقر إلى الترتيب الزمني من جهة، وإلى التدقيق في المستوى الذي تمتُّ إليه من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر فإنّنا نلاحظ وجود نزعتين متعارضتين في مصنّفات اللحن التي اعتمدناها، وهاتان النزعتان هما: نزعة التشدّد في المقياس الصوابي، واختيار الفصيح وحده. ونزعة التوسّع في المقياس، والتخفّف من التخطئة بقبول ما جاء عن العرب من غير تدقيق في درجة الاحتجاج به. ويمثّل النزعة الأولى معظم المصنفين الأوائل ومن تبعهم من المتأخرين. فابن السكيت وابن قتيبة، وثعلب، والهراوي، والزبيدي، والحريري، والجواليقي، وابن الجوزي، وابن الإمام يمكن أن يعدّوا ممثّلين لها. ويبدو أن رأس هذا الاتجاه هو الأصمعي (ت٢١٦هـ) الذي دارت أقواله على ألسنة المصنّفين فدوّنوها واحتجّوا بها [١١٢]. وبالإضافة إلى تلاميذه الذين ساروا على نهجه من أمثال ابن السكيت وأبي حاتم السجستاني (ت٢٥٠هـ) نجد بعض المصادر تذكر أنّ له كتابا في لحن العامة[١١٣]. وبإمكان الدارس أن يتابع هذه النزعة لدى ابن قتيبة الذي نسج على منوال ابن السكيت "فضمّن كتابه" أدب الكاتب "معظم الأبواب التي وضعها ابن السكيت في كتابيه" الألفاظ " و" إصلاح المنطق ". والعجيب أنه لم يذكر له في كتابه فضله ولا سبقه مع وضوح أخذه من هذين الكتابين[١١٤]. كما يمكن أن نجد ذلك الاتجاه لدى ثعلب الذي يدلّ عنوان كتابه " الفصيح " على اختيار فصيح الكلام، وفي ذلك يقول:

" فمنه ـ أي فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم ـ مافيه لغة واحدة، والناس على خلافها، فأخبرها بصواب ذلك . . . ومنه مافيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فاخترنا أفصحهن . . ومنه مافيه لغتان كثرتا واستعملتا فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى فأخبرنا بهما وألفناه أبوابا. "[١١٥]. ويمثل هذا الاتجاه في الأندلس والمغرب أبوبكر الزبيدى صاحب " لحن العوام ". وقد تبيّن لنا من دراسته أنّ الزبيدى يأخذ بالأفصح، ويرفض ماعداه. ومن الجدير بالذكر أنّ عبدالعزيز مطر لاحظ تشدّد المقياس الصوابي لديه وربطه باتجاه الأصمعي وابن قتبة وثعلب[١١٦]. ويتابع الحريرى في " درّة الغواص " مذهب هؤلاء العلماء حين رفض القياس على الشاذ والقليل، غير أنّه نصّ أحيانا على تدرج الاستعمال الفصيح، ولم يتسرّع في تخطئة الاستعمال الذي له سند من السماع وإن كان غير مطرد. ويرى فك في هذا الصدد أنّ " الحريرى يمثّل مبدأ تنقية اللغة العربية المترمّت والأخطاء التي يثيرها في درّة الغواص هي في أغلب الحالات نفس الأخطاء التي لاحظها ابن قتيبة قبل

ذلك بقرنين ونصف في كتابه: أدب الكاتب، محلّيات تسرّبت تدريجا إلى لغة المثقفين"[117]، ويصف فك الحريرى أيضا بأنه يمثّل مذهب اللغويين البصريين المتطرّف المتزمت.[118]

ويجدّد الجواليقي صاحب "تكملة إصلاح ماتغلط فيه العامة" ، و"شرح أدب الكاتب"[119] اتجاه تنقية اللغة حين اختار الفصيح وحده، ويبثّ آراءه في مجموعة من تلاميذه في المدرسة النظامية، وهو يصرّح في مقدمة كتابه بأنه اعتمد الفصيح من اللغات دون غيره "فإن ورد شيء مما منعته في بعض النوادر فمطّرح لقلته ورداءته فقد أخبرت عن الفراء أنه قال: واعلم أنّ كثيرا مما نهيتك عن الكلام به من شاذ اللغات ومستكره الكلام لو توسعت بإجازته لرخّصت لك أن تقول: رأيت رجلان...[120]وقد سار على هذا النهج ابن الجوزي صاحب "تقويم اللسان"، وهو تلميذ الجواليقي الذى اعتمد على قولة الفراء التي نقلها أستاذه. ولذلك نراه يصرّح بأنه" إن وجد لشيء مما نهيت عنه وجه فهو بعيد، أو كان لغة فهي مهجورة...[121]ويبقى من أصحاب هذا الاتجاه مؤلفان أحدهما يدعى بابن الإمام الذي تقدّر المصادر بأنه توفي بعد سنة ٨٢٧ هـ للهجرة، والآخر هو ابن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ للهجرة. فابن الإمام يجرى على سنن ابن قتيبة، ويذكر كثيرا من الأمثلة لمتقدّمي المصنفين كالكسائي وابن السكيت. وقد تبيّن لنا من دراسة الكتاب، أى "الجمانة" أنّ المستوى الصوابي للمؤلف كان متشدّدا يميل إلى الفصيح وحده، وينكر ما سواه. أمّا ابن كمال باشا فنراه يصف ماآلت إليه العربية لدى المتعلمين والعامة، ثم يذكر أنواع الغلط ودرجتها في القبول أو عدمه. ومن الملاحظ أنّ ابن كمال يتوسّع في قبول ماشاع لدى المصنّفين المتقدمين في مؤلفاتهم من استعمال وإن لم يجوّزه أهل اللغة. أمّا مالم يقف له على سند من احتجاج لغوى أو استعمال مدوّن فلم يقبله، لأنه كما يقول: "لم يجوّزه أحد ولم يستعمله إلا من لاخبرة له بالكلام."[122]

أمّا أصحاب نزعة التوسّع وقبول وجوه اللغة فهم فريقان، أحدهما يقف عند المسموع عن العرب نصّا، وهو في هذا الأمر لايختلف عن أصحاب نزعة التشدّد إلا في درجة الاحتجاج به. والآخر يخطو خطوة متقدّمة حين لم يقيد الفصيح والجائز بالمسموع نصّا عن العرب، بل قبل ماجرى على سنن معيّنة من التطوّر، كالتعميم والتخصيص، والمجاز.

فابن مكي صاحب "تثقيف اللسان وتلقيح الجنان" يميل إلى التوسّع في قبول مانطقت به العامة، وكان جاريا على لهجة عربية معروفة.[123]وقد يعترف ابن مكي أحيانا بأنّ ما أجازه ضعيف وأن غيره هو الأفصح. فهو يجيز أمثلة ردّها إلى لغة تميم مع أنّها ليست أفصح اللغتين، ويذهب إلى اعتماد مارواه الليث عن بعض العرب في قولهم: فِعيل بكسر الأول في فَعيل المفتوح وإن لم يكن فيه حرف حلق، نحو كِثير بكسر الكاف.[124]ويجيز أمثلة أخرى يستند فيها إلى أنّها من المسموع عن

العرب دون تحديد، كذلك نراه يقبل الاحتجاج ببعض اللهجات المذمومة لدى اللغويين كفحفحة هذيل[125]. وبالمقابل نرى ابن مكي يرفض أيّ تطوّر في الاستعمال لاسند له من كلام العرب، وإن كان له من الصواب حظّ، أو جرت به أقلام المؤلفين المتقدّمين من خاصّة العلماء.

ويتناول ابن هشام اللخمي في ردّه على الزبيدى وابن مكّي أمثلة متعدّدة كان الخلاف حولها يدور لأنّ ابن هشام رأى لها في الكلام المسموع حجة. وهو يصرّح بداية بمذهبه في التوسّع حين ينقل أقوالا للأخفش الأكبر وللخليل وللكسائي، ويقول: " ومن اتّسع في كلام العرب ولغاتها لم يكد يلحّن أحدا. ولذلك قال أبو الخطاب عبدالحميد بن عبدالمجيد: أنحى الناس من لم يلحّن أحدا. وقال الخليل رحمه الله: لغة العرب أكثر من أن يلحن فيها متكلم، وروى الفراء أنّ الكسائي قال: على ماسمعت من كلام العرب ليس أحديلحن إلا القليل ."[126] وقد استخلصنا من تضاعيف كتابه نصوصا كثيرة تدلّ على مذهبه في التوسعّ، فهو يقبل القليل[127]، وما كان فيه لغتان [128]، وما كان مستندا إلى لغة ضعيفة [129]، وما اختلف فيه أهل اللغة [130]، وما كان جائزا على أصول الكوفيين[131]. والخلاصة هي "إنما تلحّن العامة بما لم يتكلم به عربي" . [132]

ويصادفنا في القرن العاشر للهجرة اتجاه جديد هو في الحقيقة ثمرة للتوسّع في قبول اللهجات وعدم التدقيق في المسموع عن العرب. والاتجاه الجديد هذا يمثّل ردّا للعاميّ إلى الفصيح. فابن الحنبلي صاحب "بحر العوّام" يحاول دفع الإصر عن ذلك الجيل من العرب الذين أصابوا في كثير مما يعتقد الجاهل أو الناسي أنّه من أغلاط عوام الناس [133]. ومن الطبيعي ـ بالنظر إلى هذا التوجه ـ أن يكون المستوى الصوابي لدى ابن الحنبلي ميالا إلى التوسّع في قبول اللهجات مهما كانت درجة فصاحتها، وهو يعدّ صحيحا ـ بل فصيحا ـ ما كان لغة تستند إلى بيت مجهول القائل، أو مثل لسنا ندرى مصدره وزمانه. كذلك نراه يسوّغ أقوالا متعدّدة ويصوبها لأنّها جرت على عادة الناس. ومن الملاحظ أنّ ابن الحنبلي وظّف كثيرا من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، وغيرهم من العلماء لصالح تصويبه. ومعيار التصويب عنده هو أن يجد قولا للغوى، أو شاهدا لشاعر مهما كانت درجة الأقوال والشواهد من الاحتجاج. [134]

ويمثّل ابن السيد والبغدادي والخفاجي الفريق الثاني من أصحاب نزعة التوسّع. وإنّ مايميز هؤلاء عن سابقيهم من أصحاب النزعة نفسها، هو أنهم أضافوا إلى اتجاههم في قبول وجوه اللغة من المسموع عن العرب إشارات إلى بعض السبل التي تسلكها اللغة في طريقها نحو التطوّر في المفردات، ولا سيّما مايتّصل بالمجاز.

فابن السيد صاحب "الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب" يلوم ابن قتيبة لأنّه تبع الأصمعي وجرى على نهجه في التشدّد. فالأصمعي ـ كما يقول ابن السيد: "كان ـ عفا الله عنه ـ يتسرّع إلى تخطئة الناس، وينكر أشياء كلّها صحيحة"[١٣٥]. وابن قتيبة يدخل في لحن العامة ماليس منه لأنه يستند إلى أمثلة وردت فيها لغتان لامزية لإحداهما على الأخرى، ولأنه ينكر الشيء تارة، ثم يجيزه تارة أخرى، مما لا يعدّ أصلا في لحن العامة[١٣٦]. أما ما يتصل بالمجاز بوصفه أحد الطرق التي يستند إليها في تسويغ ما لحنت فيه العامة، فالأمثلة عليه متعدّدة، وبعضها يعتمد على ماعرف من سنن العرب في كلامها. ففي مسألة الفرق بين الفقير والمسكين نجد ابن السيد يرد على من احتجّ بقوله تعالى: "أما السفينة فكانت لمساكين"[١٣٧]، بأنّ قوله: لمساكين ليس فيه دليل بيّن على أنّها كانت ملكا لهم، إذ من الممكن أن ينسبها إليهم لأنهم كانوا يتولّون أمرها أو يقومون بخدمتها، كما تقول: هذه الدابة لفلان السائس فتنسبها إليه لأنّه يخدمها، لا لأنّها ملك له. "والعرب تنسب الشيء إلى الشيء ليس هو له على الحقيقة إذا كانت بينهما ملابسة ومجاورة"[١٣٨]. وفي تسمية العامّة الخبزة ملّة يرى أنه "ليس يمتنع عندى أن تسمىّ الخبزة ملّة، لأنّها تطبخ في الملّة كما يسمّى الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب"[١٣٩]. وفي موضع آخر نراه يخلص إلى أنّ "كلام العرب أكثره مجاز وإشارة إلى المعاني، ولذلك غمض كثير منه على من لم يتمهّر فيه"[١٤٠]. ومن الممكن للدارس أن يجد في هذا الرأى صدى لما ذهب إليه ابن جنّي في الخصائص من "أنّ أكثر اللغة مع تأمله مجاز لاحقيقة"[١٤١]، غير أنّ توظيف هذا الرأى وغيره في قضايا تطور اللغة هو الذى يثير انتباه الدارس، ولا سيّما ما يؤول منه إلى تحوّل أساسي في النظر إلى الاحتجاج.

وعلى الرغم من أنّ البغدادي صاحب "ذيل الفصيح" يتابع نهج الفصيح وما هو قريب منه، نراه يخطو خطوات مهمّة باتجاه التوسّع، وقبول التطوّر في دلالة المفردات. فالبغدادى يفصل أولا بين مستويين، الأول: ماقالت العرب مطلقا من غير تحديد. والثاني: ما تستعمله العامة، وبعض من تسرّب إليهم الغلط من الخاصة. ويتنبّه البغدادي في تضاعيف الأمثلة التي أوردها من لحن العامة إلى التطوّر ويسوّغه، فهو عندما أورد عددا من الأمثلة التي استعملها العرب من العامّ، ثم خصّصتها العامة، يقول: "قلت: هذا كلّه عامّ يجوز أن يخصّص، وتخصيص العامّ ليس غلطا"[١٤٢]. ثم يقول بعد أن سرد أمثلة أخرى: "أقول هذا أيضا عامّ قد خصّصه الاستعمال"[١٤٣]. ويلجأ البغدادي إلى القياس لتسويغ بعض أمثلة التطوّر من المفردات الجديدة صيغة ودلالة. ففي مسألة "استأهل" يقول: "أقول استعماله بمعنى الاستحقاق سائغ في القياس، فيستأهل يستفعل من لفظ الأهل مثل يستأصل ويستأسد[١٤٤]." كما يسوّغ أمثلة أخرى بها يخرج إليه الكلام من أغراض نفسية كالتفاؤل والتعظيم. ففي مسألة "قافلة" يرى أنّها تطلق على الذاهبة بطريق التفاؤل[١٤٥]. على الرغم من منع معظم اللغويين هذا الإطلاق، لأنّ أصل دلالة قافلة من القفول، فلا مسوّغ عندهم لتجاوز هذه

الدلالة. كذلك يرى أنّه يقال للقائم إذا قعد جلس للتعظيم (١٤٦). ويذهب البغدادي أيضا إلى قبول قول العامة "فطرة" في صدقة الفطر، لأنّ القياس لا يدفعه. (١٤٧)

أما الخفاجي صاحب "شرح درّة الغوّاص" فالمقياس الصوابي لدية واسع، لأنّه أدخل في الاحتجاج ماسمع عن العرب دون تحديد، وإن كان شاذًا أو قليلا أو لغة لقبيلة من الأمثلة التي لم ترد في الفصيح. ومنهجه في الردّ على الحريري يقوم على التجوّز، وعلى عدم التسليم بما قاله المؤلف أصلا، ويكاد هذا المنهج يكون عامًا. ولذلك قلّ أن نجد مسألة وافق فيها الخفاجي المؤلف. أما المسائل التي لم يتعرّض لها فيبدو أنّه لم يجد فيها دليلا يردّ به على المؤلف. (١٤٨)

والخفاجي ــ حين يورد الشواهد المتعدّدة ــ معنيّ بتوجيهها إلى مقاصده في عدم التسليم لما احتجّ به الحريري، ولذلك نراه يفتح باب التجوّز. ومن هذا الباب أنّه يسعى إلى طمس الفروق بين كلمة وأخرى حين تقترب دلالة إحداهما من الأخرى، ويعدّ ذلك من الترادف، كما أنه يرى أنّ باب التأويل واسع. (١٤٩) أما المجاز فقد استند إليه كثيرا. وعلى الرغم من أنّه يميل إلى السماع ويعدّه أصلا، نراه يلجأ إلى القياس إذا ما أعوزه الدليل السماعي. (١٥٠) وثمة رأي للخفاجي على قدر كبير من الأهمية، وهو قوله في معرض ردّه على الحريري في مسألة تعريف "كافة": "ومثاله ما نحن فيه فإنّ كافة ورد عن العرب بمعنى الجميع لكنّهم استعملوه منكّرا منصوبا، وفي الناس خاصة، ومقتضى الوضع أن لا يلزمه ما ذكر فيستعمل كما استعمل جميعا معرفًا ومنكّرا بوجوه الإعراب في الناس وغيرهم، والظاهر الجواز، لأنّا لو اقتصرنا في الألفاظ على ما استعملته العرب العاربة والمستعربة حجرنا الواسع وعسر التكلّم بالعربية على من بعدهم.." (١٥١)

ويبدو للدارس أنّ الخفاجي يريد أن يجيز كلّ شيء، على الرغم من أنّ الحريري لم يخطّىء جميع ما رواه من كلام الناس، بل نصّ في مواضع متعدّدة على تدرّج الاستعمال المقبول من فصيح عال، وآخر جائز لا يكون صاحبه مخطئا، بل مقصّرا عن الفصيح.

تبيّن لنا من خلال ما قدّمنا في الفقرات السابقة أنّ الذين ألّفوا في لحن العامة لم يقصدوا أن يسجّلوا لنا شيئا من مظاهر تطوّر اللغة بوصفه موضعاً للدرس، بل كان همّهم هو إعادة الخارجين على الفصحى إلى المستوى الصوابي. وبإمكان الدارس أن يتابع هذا التوجّه لدى المصنّفين جميعا، سواء أكانوا متشدّدين، أم كانوا متوسّعين في معيار الخطأ والصواب. ومن الملاحظ أنّ المصنّفين قد عدّوا كلّ تغيّر أو مخالفة أو انحراف عن مستوى الفصيح الصحيح لحنا مهما كان نوع التغيّر أو مجاله. فالتغيّرات

الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية تنضوى تحت مصطلح " اللحن " الذى يرجّح بعض الدارسين أنه كان يدلّ بداية على التغيّر الصوتى، ثم توسعت دلالته فشمل مظاهر التغيّر اللغوى جميعا. (١٥٢)

كما يلاحظ أنّ بعض المصنّفين لم يفرّق بين اللحن والمولّد جريا على رأى معظم اللغويين الذين جعلوا جميع مظاهر التغيّر من المولّد بما في ذلك اللحن حينا، وعدّوا المولّد نوعا من اللحن حينا آخر. (١٥٣) ومع ذلك نفترض أنّ مظاهر المولّد صادفت قبولا لدى اللغويين لأنّها كانت تلبّي حاجة لدى الدوائر العليا من الناس الذين كانوا على قدر كبير من العلم باللغة، ولأنّ المولّد يتّصل بتغيّر الدلالة الذى يتدرّج ظهوره ويسارع إلى الانضمام إلى رصيد اللغة. ومن الممكن أن نفترض أيضا أنّ المولّد كان نوعا من التطوير الواعي، ولا سيّما في مصطلحات العلوم الجديدة التي لم ينكر أحد تطوّر دلالاتها، واستخدامها في التأليف. ويعدّ في هذه المصطلحات حدود المنطق وتعريفاته، ومفهومات الفلسفه والكلام، إضافة إلى مصطلحات العلوم العربيّة من نحو ولغة وعروض وبلاغة وغير ذلك.

أما اللحن فهو ظاهرة انبثقت لدى العامّة الذين لا يحرصون على سلامة التعبير أو فصاحته، وهم الناس الذين لم يتلقّوا تعليما صارما على أيدى العلماء والمؤدّبين. ويبدو أنّ إهمال الإعراب وتجاوز القواعد الصرفية، وكثرة الإبدالات الصوتية جعل العلماء يتنبّهون إلى مخالفة اللحن للعربيّة الفصحى مخالفة تهدّد كيانها في الصميم. ومن الملاحظ أنّ معظم أمثلة اللحن هي ممّا يتخاطب به الناس في حياتهم. وقد تضافرت عوامل كثيرة على الاتساع في اللحن لدى هؤلاء إلى أن ظهرت اللهجات العامية الدارجة.

ونشير استكمالا لبيان العلاقة بين اللحن والمولّد إلى أنّ يوهان فك صاحب المصنَّف المتميّز " العربية " ضمّ مظاهر اللحن المختلفة إلى ما أسماه " العربية المولّدة ". فهو يرى أنّ حملة الحريرى على اللحن في " درّة الغوّاص " لم تحتدم تجاه أخطاء متفرّقة من الحماقات اللغوية، أو الاستعمالات الشعبية، بل هي موّجهة إلى روح العربية المولّدة على الإطلاق. (١٥٤)

و إننا على الرغم من تقديرنا جهد فك نرى أنّه بالغ كثيرا في رسم صورة العربيّة المولّدة. فالناظر في كتابه يخال أنّ العربية الفصحى قد هزمت أمام لغة جديدة، هي العربية المولّدة. والأمر عندنا ليس كذلك لأنّ جميع المظاهر التي حشدها فك من اللحن والعامي والأخطاء العامة والضرورات وما شاكلها لا يمكن أن تلتئم في نسق واحد يشكّل لنا عربية مولّدة (١٥٥). فالعربية المولّدة كما نرى ليست إلا تيّارا داخل العربية الفصحى جدّد شبابها، وأمدّها بطاقات غنيّة استطاعت الفصحى بها أن تواكب ركب الحضارة، وأن تكون لغة العلم والفلسفة والمنطق والطبّ والفلك وغيرها من العلوم

الجديدة، إضافة إلى استيعابها مصطلحات العلوم العربية وفنونها المحدثة. والسمات التي نراها للعربية المولّدة تتمثّل في أسلوب لغوى من أساليب القول الفنيّة، وتطوّر واسع في دلالات المفردات، واستحداث مصطلحات جديدة، وتوسّع في قبول الدخيل ولا سيّما في المصنّفات غير الأدبية. ولا يعني الإقرار بهذه السمات أنّ العربية الفصحى "الكلاسية" انتهى أمرها وغلبتها العربية المولّدة. و إنّما كان لكلّ منهما تيّار يسير فيه. وليس أدلّ على ذلك من أنّ بعض الشعراء جمع الأسلوبين القديم والمولّد في شعره. فأبو نواس مثلا استخدم الفصيح القديم في أداء موضوعات تضمن له رضا الخليفة، واستحسان العلماء المقرّبين إليه، على حين أنّه استخدم المولّد المحدث في الموضوعات التي يعبّر بها عن ذاته ولهوه.

وعلى الرغم من تفهّم فك لخصائص العربية، ودوافع العلماء إلى تبنّي المعياريّة، نراه قد جعل مظاهر التغيّر في سويّة واحدة، ممّا أبعده عن التفريق بين المولّد بوصفه رافدا للفصحى، والعامي الذى يختلف عن الفصحى اختلافا بيّنا ولا سيّما ما يتعلّق بالإعراب والصرف.

ويتابع حلمي خليل هذه المسألة حين يتصدّى لتأريخ المولّد ودرسه. وإنّنا نتّفق معه حين انتهى إلى التفريق بين اللحن من جهة، والتوليد من جهة أخرى، وكلاهما يتّصل بالتغيّر اللغوى. فالمولّد لدى حلمي خليل قريب الدلالة من التطوّر الدلالي الذى يتصّل بالمفردات. "فالتوليد هو تغيّر لغوى لا شكّ في ذلك، ولكن ليس كلّ تغيّر لغوى توليدا، ذلك لأنّ التغيّر اللغوى يشمل البنية اللغويّة في جوانبها الصوتية أو الصرفية أو التركيبية أو الدلالية أو فيها جميعا، بينما التوليد يتّجه أساسا إلى التغيّر الدلالي وحده.. ولكنّه مع ذلك يأخذ في اعتباره التغيّرات الاشتقاقية والتركيبية بما لها من اتصال مباشر في إعطاء اللفظ أو التركيب دلالة جديدة لم تعرفها العربية القديمة. وعلى ذلك فالمولّد هو جزء من التغيّر اللغوي وليس العكس". [١٥٦]

ونجد في زاوية أخرى ما يتّصل بتقويم اللحن في ضوء بعض الآراء. فرمضان عبدالتواب يرى أنّ ما عدّه اللغويون لحنا وخطأ يعدّ تطوّرا ونموّا من وجهة علم اللغة الحديث[١٥٧]. كذلك نجد كمال بشر يلوم علماء العربية القدامى لأنّهم نظروا إلى "التطوّر الذى أصاب العربية حينئذ كما لو كان ضربا من الخطأ والانحراف يجب طرحه و إهماله.. وهذا المسلك مسلك غير محمود من وجهة النظر العلمية، إذ هم بفعلتهم هذه قد أوصدوا أبواب البحث في وجه الدارسين من بعدهم. وهكذا ظلّت العربية تتغيّر وتتطوّر دون أن يسجّل هذا التطوّر أو أن يلتفت إليه أحد من الناس." [١٥٨]. أما أصحاب مصنّفات اللحن فهم - كما يرى كمال بشر - تناولوا هذا "التطوّر" بالدرس والمناقشة، ولكن لا على أنه تطوّر أو تغيّر، وإنّما بوصفه لحنا وخطأ. [١٥٩]

وكذلك يرى بعض الدارسين في سياق تلك المصنّفات أمرا غير سويّ إذ تتحدّث عن اللحن والخطأ، ساعية إلى إعادة المتجاوزين إلى جادّة الصواب .[١٦٠] فتمّام حسان يحمّل اللغويين القدامى وزر التقصير في تسجيل التطوّر، لأنهم انطلقوا من معيار الخطأ والصواب، "ولم تكن الموجة التي سمّوها شيوع اللحن في صدر الإسلام إلا واحدة من هذه الموجات التي التقى العرب فيها بالمتكلّمين بلغات أجنبية، وأغلب الظن أنّ هذه الموجة لو لم تدفع العرب إلى دراسة اللغة في ذلك العصر لكانت اللغة العربية التي ندرسها الآن على صورة أخرى أحدث عهدا في التاريخ، ولكانت مصادر قواعدها أشعارا يمنعون الآن الاحتجاج بها في النحو واللغة."[١٦١] ويبدو أنّ خلوّ العربية من التطوّر المسجّل أو المعترف به جعل بعض المستشرقين يوجّهون نقدهم إلى العلماء القدامى لأنهم لم يعتنوا الاعتناء الكافي بالكشف عن تطوّر اللغة بعد الإسلام وإنّ الذى منعهم منْ ذلك ـ كما يقول براجشتراسر (Bergstrasser) ـ مداومتهم على السؤال عن الجائز في اللغة وضدّه وعلى المنع عن كثير من العبارات .[١٦٢]

وأيّا ما كانت هذه الآراء التي ترى في مظاهر اللحن كلّها تطوراً، وتلك التي ترى تقصير العلماء في تدوين التطوّر المعترف به، فإنّنا ننطلق في النظر إلى مظاهر اللحن من المحافظة على العربية الفصحى، وعلى الأخذ بالتطوّر الدلالي الذى تحرسه القواعد المعيارية . وبإمكاننا أن نحدّد أهمّ الأسس التي يقوم عليها منهجنا في تحليل الأمثلة التي عددناها في التطور الدلالي . وتتلخّص هذه الأسس في :[١٦٣]

١ـ الاحتراز من تطبيق قوانين التطوّر المقبول على أنظمة العربية الصوتية والصرفية والنحوية، ولا سيّما مايتّصل بالمبادىء الأساسية التي تمثّل ثبات أصوات الفصحىٰ، وانتظام قواعد الإعراب، وتركيب الجملة، واستقرار القواعد الصرفية. ولا شك في أنّ قدرات كبرى تكمن في قواعد النحو والصرف، ممّا يبعدها عمّا يُتوهّم من قصور، لأنّ قواعد الجملة لا تقدّم كمّا محدودا من الجمل والتراكيب إن خرج عنه المتكلّم غدا مخطئا، بل تقدّم أساليب متعدّدة لنظم الكلام، وللمتكلّم أن يختار من بينها مايلائم غرضه ومستوى كلامه . كذلك تتّصف قواعد الصرف العربية بالحيوية الاشتقاقية ممّا ينأى بها عن الجمود. ومن الملاحظ أنّ كثيرا من الإمكانات الاشتقاقية القياسية لم تستوف في جميع الصيغ . وهذه الإمكانات تتيح المجال للصوغ القياسي لأصول لم تُدوّن جميع اشتقاقاتها. ومن المفيد في هذا المجال الاهتداء بما سنّته مجامع اللغة العربية في هذا العصر من طرق الاشتقاق والتعريب والتوليد والنحت وغيرها .

٢ـ استشارة المعاجم القديمة في كلّ مايتصل بالتطوّر، لأنّ هذه المعاجم تمثّل الأصول الاحتجاجية للتدوين. ولا شكّ في أنّ الرجوع إلى المعاجم العربية التي امتدّت على مدى زمني طويل يحلّ كثيرا

من الإشكالات التي تعترض سبيل الـدارس الذى يتصدّى لبحث التطـوّر. ومن الممكن أيضا أن تستشار المعـاجم التي تابعت بعض جـوانب التطوّر، كمعـاجم المصطلحات المتنـوّعة، وبعض المصنّفات الموسوعية. وسوف يتبيّن الدارس أنّ قسماممّـاعُدّ في اللحن له نظائر في المعاجم ويسهل ردّه إلى السماع وإن اختلفت درجتـه. ويبـدو أنّ سبب ورود هـذا النـوع من الأمثلـة هـو نقص الاستقراء، أو قصر المستوى الصوابي على وجه من الوجوه الفصيحة. ولذلك كلّه نرى أنّ استشارة المعاجم تعيننا على تفسير بعض الأمثلة أو الحكم عليها بالإجازة أو الرفض إن شئنا.

٣ـ التفـريق بين مستويات الكـلام الفصيح. وتظهر أهمية هـذا التفريق حين نجد أنّ علماء العـربية القدامى أغفلـوا الفروق التي لابدّ من أن تلاحظ بين مستـوى من الكلام وآخـر. ولقد مـرّ بنا في تضاعيف هذا البحث أنهم حين تصدّوا للحكم على صواب الاستعمال أو خطئه، راحوا يسلكون الشعر والنثر والقرآن، وكلام الناس في حيّز واحد.

٤ـ تخصيص الجوانـب المتعلّقة بالمفـردات لدراسـة التطوّر الـدلالي وفق مناهج علم الـدلالة الحديث (Lasematique) . ونحن نرى في هذا المجـال أنّه كان بإمكان اللغويين القـدامى إخراج هذه الجوانب من نطاق المعيارية أصلا، لأنّ الدلالة تنافي مبدأ الاستقرار بسبب قابليتها للتأثر بالزمن وتطـور المجتمع، وجـوانبـه الحضاريـة المتعـدّدة. ومن الطبيعي أننـا في هـذه الجوانب نقبل من الدلالات الجديدة كلّ ماوافق خصائص العربية الفصحى من حيث الصيغ التي تبنى على قياس من أقيسة العربية، أو تلك التي تمتّ إلى قواعد التعريب، وإن لم تستعملها العرب.[١٦٤]

وتتضمّن دراسة الجوانب الدلالية المحاور التالية:

أـ العلاقة بين اللفـظ والمعنى. وتتّم دراسة هذه العلاقة في ضوء المواضعـة والاصطلاح الذى يتعرّض لكثير من التغييرات الناتجة عن ظروف الجماعـة اللغوية. وسوف تدرس الأشكـال التي تبدو فيها هذه الـدلالة، وأهمّها: الترادف والاشتراك والتضـاد والفروق، ومـا يمكن أن يستخلص منها من تطوّر دلالي. وهنـاك وقفة عند الجوانب الـدلالية في الأبنيـة والأوزان وما يتّصل بالاشتقـاق والثروة اللفظية.

ب ـ التطوّر الدلالي في معاني المفردات، ويضمّ مجالين أسـاسيين هما: ١ـ التطوّر ضمن المحسوسات ويتّصل به مايتعلق بالأصل الحسي للدلالة. ٢ـ التطوّر من المعنى الحسـي الى الذهني المجردّ. ومن الملاحظ أنّ دارسي الدلالـة المحدثين تبيّنـوا أنّ المعنى يبدأ حسياً مـرتبطا بـالبيئة، ثم يتّسع ضمن محسوسـات أخرى عن طريق المشـابهة أو المجاورة أو الانتقـال من مجال الى آخر لأسباب متنـوعة متشابكة يصعب على الدارس حصرهـا، ويمكن أن تدرس ضمن حدود الأمثلة التي تتّصل بها.

أمّا التطوّر من الحسي إلى المجرّد فيمثّل مرحلة متقدّمة للنموّ اللغوى الذى يواكب تطوّر المجتمع والحضارة، وما يثيره من نشاط عقلي متنوّع، فيغدو للّغة مجال للانتقال من الدلالة على الحسّي إلى الذهنّي المجرد. ومن الملاحظ أنّ هذا السبيل من سبل التطور يتسع وتتضاعف خطورته في المراحل المهمّة من حياة اللغة لما فيها من تطوّر في العلوم والثقافة.

ج ـ المجاز والاستعارة: ذهب كثير من علماء المعاني والنقاد المحدثين إلى أنّ المجاز والاستعارة قطبا التطوّر الدلالي، وأنّهما طريقان مهمّان لإنشاء المصطلحات، وإطلاق التسميات. وبإمكان الدارس أن يحدّد الجانب الذي يمّس اللغة من المجاز الذى يمثّل حقلا دوسيا تشترك فيه علوم اللغة والبلاغة، والنقد والأسلوبية. ويضمّ هذا الجانب قضايا من المجاز، وتحوّل الاستعارة إلى تعبير لغوى خال من الإثارة الانفعالية. ويضمّ أيضا معظم صور المجاز المرسل، وعلاقاته المعروفة، ولا سيّما المجاورة والجزئية والكلية. ويضمّ كذلك استعارات مستمدة من أعضاء الجسم والكون والطبيعة.

وفي ضوء علم الدلالة الحديث، والمناهج اللسانية عامة، ومع مراعاة خصائص الفصحى ومعياريتها، يمكن أن ينظر إلى مصنّفات اللحن نظرة جديدة لاإفراط فيها ولا تفريط. فاختيارنا المنهجي في هذا البحث يمثّل وسطا بين موقف الجمود المانع من التغيّر، والوقوف عند الأمثلة المنقولة نصّا من المعاجم والكتب اللغوية من جهة. وموقف الخروج على قواعد اللغة وأصول دلالاتها، وأنظمتها الأساسية من جهة أخرى. ولا شكّ في أنّ هذا النظر يؤول إلى الإفادة من تطوّر الدلالة للكشف عن المراحل الزمنية التي تلت عصر الاحتجاج، وما لها من ارتباط بالبيئة والمجتمع، وما يتّصل بهما من عوامل التطوّر اللغوى.

الهوامش

(١) انظر: حجازي، د. محمود فهمي، علم اللغة العربية، ص٣٥ ـ ٤١.

(٢) حسان، د. تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص١٨، وانظر: حجازي، علم اللغة العربية، ص٣٧ ـ ٣٨.

(٣) انظر: أيوب، د. عبدالرحمن، اللغة والتطور، ص٧٠.

(٤) انظر: ده سوسّر، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، ص١٠١ ـ ١٠٤، والجدير بالذكر أنّ مترجمي الكتاب كتبا اسْم المؤلف على هذا الشكل. كذلك يلاحظ أن هناك من يكتبه على شكل آخر هو «سوسور».

(٥) انظر: حجازي، د. محمود فهمي، علم اللغة العربية، ص٣٨.

(٦) المعجم الوسيط، ٢/ ٦٣٩.

(٧) انظر: خياط، يوسف، ومرعشلي، نديم، المصطلحات العلمية والفنية، ٢/ ١٨٧.

(٨) حسان، د. تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٢٢.

(٩) انظر: أيوب، د. عبدالرحمن، اللغة والتطور، ص٧٠.

(١٠) انظر مناقشة لبعض آراء هؤلاء في: مصطفى السنجرجي، «فلسفة النحو العربي بين الرفض والتأييد»، مجلة الحصاد، العدد الأول، ص١٠٠ ـ ١١٣، وابراهيم رفيدة، «أصالة اللغة العربية وعلومها»، مجلة الفكر العربي، العدد (٢٦)، ص ٤ ـ ٣٦.

(١١) حسان، د. تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(١٢) انظر مناقشة لآراء المدرسة الوصفية في: ماريو باي، لغات البشر، ترجمة صلاح العربي، ص ٧٣ ـ ٧٨، ومن الجدير بالذكر أنّ باي يرفض تعميم الطرق الوصفية على جميع اللغات.

(١٣) انظر: الراجحي، د. عبده، فقه اللغة في الكتب العربية، ص ١٧٩ ـ ١٨٤.

(١٤) حسان، د. تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(١٥) انظر وصفا لبعض الرسائل التي دُوّنت في هذه المرحلة في: الطرابلسي. د. أمجد، حركة التأليف عند العرب، ص ١٥ ـ ٢٢.

(١٦) من الجدير بالذكر هنا أنّ أمثلة كثيرة مما رواه الخليل (ت١٧٥هـ) عن العرب كانت مدار اختلاف حول المستوى الصوابي، وقد استند إليها أصحاب نزعة التوسّع في قبول السماع، ولدى ابن السيد وابن هشام اللخمي وابن الحنبلي مسائل متعدّدة تتصل بما رُوي عن الخليل مما أنكره أصحاب نزعة التشدّد، وفي هذا دليل على أنّ هذه المرحلة التي يمثّل الخليل ختامها اتسمت باتجاه شديد نحو جمع اللغة والحفاظ عليها دون أن تكون خاضعة لتحكّم معياري.

(١٧) يمكننا أن نقترح إطاراً زمنياً لهذه المراحل التي قد تتداخل فيما بينها. فمن الجائز أن تكون المرحلة الأولى انتهت عند منتصف القرن الثاني، على حين أنّ المرحلة الثانية بدأت مع أواخر ذلك القرن حتى القرن الثالث. أما المرحلة الثالثة فتمتد من بداية القرن الرابع لترافق حركة التأليف النحوي حتى القرون المتأخرة.

(١٨) انظر على سبيل المثال رأياً حول علاقة العربية بالسريانية في: السيوطي، المزهر ١/ ٣٠.

(١٩) انظر: الراجحي، د. عبده، فقه اللغة في الكتب العربية، ص١٧٩.

(٢٠) بشر، د. كمال، دراسات في علم اللغة، ٢/ ١٢٦، وانظر آراء مماثلة لمحمد المبارك في فقه اللغة ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢١) انظر: هولتكرانس، إيكه، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، ص١٠٣.

(٢٢) المصدر السابق، ص ١٠٣ ـ ١٠٤، وانظر: ميتشيل، دينكن، معجم علم الاجتماع، ترجمة احسان محمد الحسن، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢٣) انظر: أيوب، د. عبدالرحمن، اللغة والتطور، ص ٣٧ — ٣٩. وتجدر الإشارة إلى تطبيق هذه النظرية على الأجناس الأدبية لدى برونتيير(Brunetiere) وغيره من الباحثين.

(٢٤) انظر: المصدر السابق، ص ٥٧ ـ ٥٨ وظاظا، د. حسن، اللسان والإنسان، ص ١٢٥.

(٢٥) هولتكرانس، قاموس الإثنولوجيا، ص ١٠٤.

(٢٦) انظر: باي، لغات البشر، ص ٤٠ ـ ٤١، ووافي د. علي عبدالواحد، علم اللغة، ص ٥٧.

(٢٧) انظر: وافي، علم اللغة، ص ٦٥ ـ ٦٧، وميتشيل، معجم علم الاجتماع، ص ٧٨ ـ ٨٠.

(٢٨) انظر: فندريس، اللغة، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ص ٢٤٧.

(٢٩) سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص ٤، ٣٧.

(٣٠) انظر هذا الرأي المنقول من كتابه «حياة الكلمات» (La vie des mots) في: ظاظا، د. حسن، اللسان والإنسان، ص ٩٨.

(٣١) انظر: ظاظا، المصدر السابق، ص ٩٨، وبشر، د. كمال، دراسات في علم اللغة ٢/ ١٢٨، وخليل، د. حلمي، المولّد، ص١٩.

(٣٢) انظر: المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، ص ٣١ ـ ٣٦، ص ٣٢٥.

(٣٣) انظر: المعجم الوسيط، ٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠، والمصطلحات العلمية والفنية لخياط ومرعشلي، ٢/ ١٣٣، ومعجم علم الاجتماع لميتشيل، ص ١٩٧.

(٣٤) أيوب، د. عبدالرحمن، اللغة والتطور، ص ٣٥.

(٣٥) انظر: ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ص ١٩٠، ١٩٧ ـ ١٩٩.

(٣٦) انظر: بشر، د. كمال، دراسات في علم اللغة، ٢/ ١٢٥ وخليل، د. حلمي، المولد، ص ١٧ ـ ١٨.

(٣٧) انظر: مارتينيه، أندريه، مبادىء اللسانيات العامة، ص ١٧٦.

(٣٨) انظر: المصدر السابق، ص ١٠

(٣٩) انظر: ظاظا، اللسان والإنسان، ص ١٠٢، وخليل، المولد، ص ١٧ — ١٨، وعمر د. أحمد مختار، علم الدلالة، ص ٢٤٢.

(٤٠) انظر: بشر، دراسات في علم اللغة، ٢/ ١٢٥.

(٤١) انظر: أنيس، د. إبراهيم، دلالة الألفاظ، ص ١٢٣، وظاظا، اللسان والإنسان، ص ١٢٥، والداية، د. فايز، علم الدلالة العربي، ص ١٧٨.

(٤٢) فندريس، اللغة، ص ٢٤٧.

(٤٣) انظر: المصدر السابق، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٤٤) انظر: المبارك، د. مازن، نحو وعي لغوي، ص ١٣٢ — ١٣٧، والداية، د. فايز، علم الدلالة العربي، ص ١١٧.

(٤٥) الراجحي، د. عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص٤٨ ـ ٤٩، وانظر أيضا، ص١٠٨، ص٢٠٤.

(٤٦) المصدر السابق، ص١٤١.

(٤٧) انظر: المصدر السابق، ص ١٤١ ـ ٤٧.

(٤٨) حسان، د. تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٦٤.

(٤٩) انظر: حسن، عباس، اللغة والنحويين القديم والحديث، ص ١٧.

(٥٠) انظر: رفيدة، د. إبراهيم. «أصالة اللغة العربية وعلومها»، مجلة الفكر العربي، العدد/ ٢٦/، آذار ١٩٨٢م، ص٦ ـ ٧.

(٥١) انظر: ظاظا، اللسان والإنسان، ص١١٨ وفيه رأي لرينان (Renan)حول تعلّم اللغة في زعمه.

(٥٢) انظر بعض الآراء التي تذهب إلى ذلك لدى ولفنسون في تاريخ اللغات السامية، ص٢١٥، وفي اللسان والإنسان لظاظا الذي ينقل رأي رينان، ص١١٨، وفي تعليقات شبتالر في العربية ليوهان فك، ص٧ ـ ٩.

(٥٣) انظر: الراجحي، اللهجات العربية، ص٤٩.

(٥٤) انظر: أنيس، د. إبراهيم، في اللهجات العربية، ص٣٦.

(٥٥) انظر: الصالح، د. صبحي، دراسات في فقه اللغة، ص٦٥ ـ ٦٦، وانظر بالمقابل رأيا لابن جني يؤكد فيه الاتصال اللغوي بين القبائل، الخصائص ٢/ ١٥، وانظر رأيا آخر لشكري فيصل في: المجتمعات الإسلامية، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٥٦) انظر النص المشهور حول الاحتجاج بالقبائل التي أخذت عنها اللغة في: السيوطي، الاقتراح، ص٥٦.

(٥٧) انظر: حسان، د. تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٦٤، والسامرائي، د. إبراهيم، فقه اللغة المقارن، ص٣٦.

(٥٨) انظر: الصالح، د. صبحي، دراسات في فقه اللغة، ص٦٠.

(٥٩) حجازي، د. محمود، علم اللغة العربية، ص٢٢٤.

(٦٠) انظر عرضا للمصادر التي تناولت اللهجات في: الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص٥٠ـ٦٤.

(٦١) الأمثلة على هذه العناصر غير القرشية في العربية الفصحى كثيرة، وهي تنسب إلى قبائل متعدّدة بعضها لم يكن له دور أساسي في الفصحى، ومن الملاحظ أنّ أمثلة متعدّدة وردت في القرآن الكريم من «لغات» العرب، كما أذن للناس أن يقرأوا ببعض الخصائص اللهجية للقبائل العربية. انظر: الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص١٠٤ـ١١٦.

(٦٢) انظر: فك، يوهان، العربية ترجمة رمضان عبدالتواب، ص١٦ ـ ١٧، الحاشية رقم (١) وهي من تعليقات المترجم.

(٦٣) انظر: الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص١٢٤، وانظر رأي شبتالر المماثل في العربية لفك، ص ٦ ـ ٧.

(٦٤) انظر: أنيس، د. إبراهيم، من أسرار اللغة، ص١٢٥، وانظر ردّ صبحي الصالح عليه في ص ١٢٦ من كتابه السابق.

(٦٥)، (٦٦) انظر: أنيس، من أسرار اللغة، ص١٣٩، والسامرائي، فقه اللغة المقارن، ص١٨، ١٢١ـ١٢٢.

(٦٧) انظر: فك، العربية، ص ١٥.

(٦٨) انظر: الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص١٢٤ - ١٤٠، وحجازي، علم اللغة العربية، ص٢٢٤ - ٢٣٧.
(٦٩) انظر على سبيل المثال: الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، ٢/ ٢١٠ - ٢١٩.
(٧٠) انظر: المبارك، د. مازن، نحو وعي لغوي، ص١٠٣.
(٧١) انظر: براجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص١١٦، وفك، العربية، ص١٥، وفليش، العربية الفصحى، ترجمة عبدالصبور شاهين، ص٦٣، وولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص١٥.
(٧٢) انظر: الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص١٣٢ - ١٣١، والسامرائي، فقه اللغة المقارن، ص١٥، وحجازي، علم اللغة العربية، ص٢٣٤ - ٢٣٧، وظاظا، اللسان والإنسان، ص١١٦، وكمال، د. ربحي، دروس اللغة العبرية، ص٢٤٩ - ٢٥٠، وعبدالتواب، د. رمضان، فصول في فقه العربية، ص٣٨٢ - ٣٨٥.
(٧٣) انظر: رفيدة، د. إبراهيم، «أصالة اللغة العربية وعلومها»، مجلة الفكر العربي، العدد/ ٢٦/، ص٦ - ٨.
(٧٤) انظر: المصدر السابق، ص٢٧ - ٣٦، وحسن عباس، اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص ٧٤، ١١٩، وحسان، د. تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٧٢ - ٧٣.
(٧٥) انظر: السيوطي، الاقتراح، ص٥٦.
(٧٦) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص٥٥٥.
(٧٧) ابن جني، الخصائص، ٢/ ١٢.
(٧٨) انظر: السيوطي، الاقتراح، ص٥٦، وما يليها.
(٧٩) انظر: رفيدة، «أصالة اللغة العربية وعلومها»، مجلة الفكر العربي، العدد/ ٢٦/، ص ١٦.
(٨٠) يضمّ هذا الزمن عصر الرسول والخلفاء الراشدين وعصر بني أمية وبداية العصر العباسي.
(٨١) انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ١/ ٧.
(٨٢) انظر: ابن جنّي، الخصائص، ١/ ٧٦، ٢٤٢، ٢٥٠، والجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٦٢.
(٨٣) انظر: الأفغاني، سعيد، في أصول النحو، ص ٢٩، وقارن بالاقتراح للسيوطي، ص ٤٨
(٨٤) انظر: السيوطي، الاقتراح، ص ٤٩ - ٥١
(٨٥) انظر: المصدر السابق، ص ٥٢
(٨٦) انظر المصدر السابق، ص ٥٣ - ٥٥، والأفغاني، في أصول النحو، ص ٤٦ - ٤٨، والخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، ص ١٦٦ وما يليها. وتجدر الإشارة إلى أنّ مفهوم الحديث شهد توسّعا لدى بعض المتأخرين، إذ عدّوا فيه إضافة إلى كلام الرسول بعض ما جرى في السيرة، وما أُثر عن صحابته وتابعيهم.
(٨٧) ورد في كتاب سيبويه ثمانية أحاديث فحسب، انظر مواضعها في فهرس الحديث في الكتاب، ٥/ ٣٢
(٨٨) انظر: فك، العربية، ص ٢٣١، ٢٣٥ - ٢٣٦
(٨٩) انظر: الأفغاني، في أصول النحو، ص ٥٩ - ٦٠
(٩٠) انظر بعض هذه الآراء والمناقشات في: حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٢٦ - ٢٧، ٨٠ - ٨١، والأفغاني، في أصول النحو، ص ٣١ - ٣٧، وحسن، عباس، اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص ٧٣ - ٧٤، وحجازى، علم اللغة العربية، ص ٢٢٤ - ٢٢٥
(٩١) انظر بعض هذه النظرات في: الخصائص، ٣/ ٢٤٥، والمزهر، ١/ ٣٠، وانظر أيضا: السامرائي، فقه اللغة المقارن، ص ١٠ - ١١
(٩٢) انظر مجموعة من الأحاديث والأخبار في: فك، العربية، ص ٨٠ - ٨١، والأفغاني في أصول النحو، ص ٩ - ١٥

(٩٣) انظر: الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ١٢٧، وفك، العربية، ص ٨٤ ـ ٨٦

(٩٤) انظر: ظاظا، اللسان والإنسان، ص ١١٩

(٩٥) نصّار، د. حسين، المعجم العربي، ١/ ٢٠

(٩٦) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٦٣، والزبيدى، لحن العوام، ص ٤

(٩٧) انظر: حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٧٩ ـ ٨٠

(٩٨) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة لحن، ١٣/ ٣٧٩ ـ ٣٨٣

(٩٩) انظر: فك، العربية، ص ٨٤ ـ ٨٦، والصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، والأفغاني في أصول النحو، ص ٧، وقارن بالسيوطي، المزهر، ٢/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧، وفيه بعض الأحاديث التي يذكر فيها اللحن بمعنى الخطأ في اللغة، وهي مستمدة من أبي الطيب اللغوي في مراتب النحويين، وانظر ما يماثل ذلك في الخصائص ٢/ ٨، ٣/ ٢٤٦

(١٠٠) انظر: فك، العربية، ص ٢٥٤

(١٠١) الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ١٢٧ ـ ١٢٨

(١٠٢) انظر: ضيف، د. شوقي، المدارس النحوية، ص ١٣ ـ ١٧

(١٠٣) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/ ٢١٠ ـ ٢٢٤، وابن الأنباري، الأضداد، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٦ (مادة لحن)

(١٠٤) انظر: البيان والتبيين، ١/ ١٦٢ ـ ١٦٤

(١٠٥) وصلتنا مجموعة من المصنفات التي تبدأ من أواخر القرن الثاني للهجرة وتنتهي عند أواخر القرن العاشر. ويضم هذا الثبت أهم المصنفات المعتمدة للبحث مقرونة بأسماء مؤلفيها بحسب الترتيب الزمني لسنة الوفاة:

١ ـ ماتلحن فيه العوام للكسائي (ت١٨٩هـ)

٢ ـ إصلاح المنطق لابن السكيت (ت٢٤٤هـ)

٣ ـ أدب الكاتب لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)

٤ ـ الفصيح لثعلب (ت٢٩١هـ)، مع شرح الهروي (ت٤٣٣هـ)

٥ ـ لحن العوام للزبيدي (ت٣٧٩هـ)

٦ ـ تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي (ت٥٠١هـ)

٧ ـ درة الغواص في أوهام الخواص للحريري (ت٥١٦هـ)

٨ ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد (ت٥٢١هـ)

٩ ـ شرح أدب الكاتب للجواليقي (ت٥٣٩هـ)

١٠ ـ تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي.

١١ ـ المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي (ت٥٧٧هـ)

١٢ ـ تقويم اللسان لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)

١٣ ـ ذيل فصيح ثعلب للبغدادي (ت٦٢٩هـ)

١٤ ـ الجمانة في إزالة الرطانة لابن الإمام (ت بعد ٨٢٧هـ)

١٥ ـ التنبيه على غلط الجاهل والنبيه لابن كمال باشا (ت ٩٤٠هـ)

١٦ ـ بحر العوام فيما أصاب فيه العوام لابن الحنبلي (ت٩٧١هـ)

١٧ ـ شرح درة الغواص للخفاجي (ت١٠٦٩هـ)

١٨ ـ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل للخفاجي.
وهناك مصنفات أخرى متأخرة معظم ما فيها مكرور أهمها: دفع الإصر عن كلام أهل مصر للمغربي، والقول المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغات العرب لابن أبي السرور الصديقي.

(١٠٦) ينظر في هذا المجال كتاب عبد العزيز مطر السابق، اضافة الى كتاب رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ومقدمات معظم المصنفات التي كتبها المحققون المحدثون.

(١٠٧) انظر ما يدل على هذا الاتجاه نصا في مقدمات المصنفات التالية: أدب الكاتب لابن قتيبة، ص ٥ ـ ٦، وتثقيف اللسان لابن مكي، ص ٤١ ـ ٤٧، ودرة الغواص للحريري، ص ٢، وتقويم اللسان لابن الجوزي، ص ٧٤، وذيل الفصيح للبغدادي، ص ١٠٠، والتنبيه على غلط الجاهل والنبيه لابن كمال باشا، ص ٦ ـ ٧، وانظر أيضا: مطر، لحن العامة، ص ٥٥.

(١٠٨) انظر الزبيدي، لحن العوام، ص ٧ ـ ٨، والجواليقي، التكملة، ص ٤٢، وابن الجوزي، تقويم اللسان، ص ٧٤، ومقدمة مطر لتقويم اللسان، ص ٤١.

(١٠٩) انظر: خليل، د. حلمي، المولد، ص ٢٠٣

(١١٠) انظر: ضيف، المدارس النحوية، ص ١٥٩ ـ ١٦٣

(١١١) انظر: فك، العربية، ص ٧٠

(١١٢) انظر فك، ١٤٠ ومن الجدير بالذكر هنا أن ابن جني قد لاحظ تشدد الأصمعي في مسائل متعددة من القياس، انظر إشارته إلى ذلك في الخصائص، ١/ ٣٦١، كما أن ردود ابن السيد في الاقتضاب قد وجه معظمها إلى آراء الأصمعي.

(١١٣) انظر: مطر، لحن العامة، ص ٥٩

(١١٤) انظر: ابن السكيت، إصلاح المنطق، مقدمة عبد السلام هارون، ص ١١

(١١٥) انظرهذا النص في: الهروي، التلويح في شرح الفصيح، ص ٣ ـ ٤

(١١٦) انظر: مطر، لحن العامة، ص ١٠٣

(١١٧) فك، العربية، ص ٢٢٠

(١١٨) انظر: المصدر السابق، ص ٢٢٥

(١١٩) تجدر الإشارة إلى أننا تابعنا هذا الشرح وأثبتنا منه آراء متعددة.

(١٢٠) الجواليقي، التكملة، ص ٥

(١٢١) ابن الجوزي، تقويم اللسان، ص ٧٥ ـ ٧٦

(١٢٢) ابن كمال باشا، التنبيه على غلط الجاهل والنبيه، ص ٩

(١٢٣) انظر: مطر، لحن العامة، ص ١٤٣

(١٢٤) انظر: المصدر السابق، ص ١٤٦

(١٢٥) انظر رأي ابن جني القائل بأن اتباع اللغة الرديئة ليس خطأ، في الخصائص، ٢/ ١٢

(١٢٦) ابن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، ص ٤٩

(١٢٧) انظر المصدر السابق، ص ٣٣، ٣٦

(١٢٨) المصدر السابق، ص ٣٥، ٧١

(١٢٩) المصدر السابق، ص ٦٢

(١٣٠) المصدر السابق، ص ١٠٣
(١٣١) ابن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، ص ١٢٠
(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٧١، وانظر : مطر، لحن العامة، ص ١١٥
(١٣٣) انظر : ابن الحنبلي، بحر العوام، ص ٩٦
(١٣٤) انظر المصدر السابق، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٤
(١٣٥) ابن السيد ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ص ١٤١
(١٣٦) انظر: المصدر السابق، ص ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣١
(١٣٧) الكهف ، آية : ٧٩
(١٣٨) ابن السيد، الاقتضاب، ١١٤
(١٣٩) المصدر السابق، ص ١١٦
(١٤٠) المصدر السابق، ص ١٥٠
(١٤١) ابن جني، الخصائص، ٢/ ٤٤٧
(١٤٢) البغدادي، ذيل الفصيح (ضمن كتاب الطرف الأدبية) ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤
(١٤٣) المصدر السابق، ص ١٠٤
(١٤٤) المصدر السابق، ص ١٠٦
(١٤٥) البغدادي، ذيل الفصيح، ص ١٠٧
(١٤٦) ، (١٤٧) انظر: المصدر نفسه ، ص ١٠٨
(١٤٨) انظر درة الغواص، ص ١١ ، وقارن بشرح الخفاجي، ص ٣٩ ـ ٤١
(١٤٩) انظر : الخفاجي ، شرح درة الغواص، ص ٥٧ ، ٨٩ ، ١٥٢
(١٥٠) انظر: المصدر السابق، ص ٥١
(١٥١) المصدر السابق، ص ٧٠
(١٥٢) انظر: حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص ١١ ـ ١٢ ، والصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ١٢٨
(١٥٣) انظر : خليل، د. حلمي، المولد، ص ١٩٣، ٢٠٣، وانظر أيضا : نصار، المعجم العربي ، ١/ ٩٦
(١٥٤) انظر: فك، العربية، ص ٢٢٥
(١٥٥) انظر: خليل، المولد، ص ١٩٤
(١٥٦) خليل ، المولد، ص ١٩٤ ـ ١٩٥
(١٥٧) انظر : عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص ٣٣
(١٥٨) بشر، دراسات في علم اللغة، ٢/ ١٢٨
(١٥٩) انظر: المصدر السابق، ٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨
(١٦٠) انظر مناقشة لبعض الآراء حول هذه الوجهة في : الداية، علم الدلالة العربي، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣
(١٦١) حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٧٤، وانظر: ص ١٧٥
(١٦٢) انظر: براجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، وانظر أيضا : عبد التواب ، لحن العامة والتطور اللغوي، ص ٣١

(١٦٣) انظر بعض نقاط الالتقاء بين منهجنا ومنهج عبد العزيز مطر في لحن العامة، ص ٥٠ ـ ٥١، وكمال بشر في دراسات في علم اللغة، ٢/ ١٢٦ ـ ١٢٧

(١٦٤) انظر آراء محمد المبارك في مسألة اللحن والأخطاء الشائعة في: فقه اللغة وخصائص العربية، ص ٣٢٤ ـ ٣٣٩

المصادر والمراجع

ابن أبي السرور: القول المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغات العرب، تحقيق إبراهيم سالم، مراجعة إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د. ت

ابن الإمام: الجمانة في إزالة الرطانة، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٣م

ابن الأنباري: كتاب الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دائرة المطبوعات والنشر «سلسلة التراث العربي»، الكويت، ١٩٦٠م

ابن جنّي: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، د. ت

ابن الجوزي: تقويم اللسان، تحقيق عبدالعزيز مطر، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٦م

ابن الحنبلي: بحر العوام فيما أصاب فيه العوام، تحقيق عزالدين التنوخي، مجلة المجمع العربي، المجلد/ ١٥/ لعام ١٩٣٧م

ابن خلدون: المقدمة، مطبعة الكشاف، بيروت، د. ت

ابن السكيت: إصلاح المنطق، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط. ثانية، ١٩٥٦م

ابن السيد: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تصحيح عبدالله أفندي البستاني، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٠١م

ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م

ابن كمال باشا: التنبيه على غلط الجاهل والنبيه، تحقيق المغربي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٤٤هـ

ابن مكي: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تحقيق عبدالعزيز مطر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٦م

ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت

ابن هشام اللخمي: المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تحقيق عبدالعزيز مطر، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٨١م

الأزهري: تهذيب اللغة، الجزء الأول، تحقيق عبدالسلام هارون، مراجعة محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م

الأفغاني، سعيد: في أصول النحو، دار الفكر، د. ت

أنيس، د. إبراهيم: من أسرار اللغة، القاهرة، ١٩٥٠م

في اللهجات العربية، القاهرة، ط. ثانية، ١٩٥٢م

دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. ثانية، ١٩٦٣م

أيوب، د. عبدالرحمن — اللغة والتطوّر، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٦٩م

باي، ماريو — لغات البشر، ترجمة صلاح العربي، قسم النشر بالجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٧٠م

براجشتراسر — التطور النحوي للغة العربية، نشر رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ١٩٨٢م

بشر، د. كمال — دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م

البغدادي — ذيل الفصيح، تصحيح بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة مصر، ١٩٠٧م

ثعلب — الفصيح، تصحيح بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٧م

الجاحظ — البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ومكتبة الهلال ببيروت، والمكتب العربي بالكويت، ط. ثالثة، ١٩٦٨م

الجواليقي — تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات المجمع العالمي العربي، دمشق، د. ت

شرح أدب الكاتب، تقديم مصطفى صادق الرافعي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٠٠هـ

حجازي، د. محمود فهمي — علم اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م

الحريري — درّة الغواص في أوهام الخواص، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٢٩٩هـ

حسان، د. تمّام — اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط. ثانية، ١٩٧٩م

اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٠م

حسن، عبّاس — اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م

حسين، محمد الخضر — دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي ومكتبة الفتح، دمشق، ط. ثانية، ١٩٦٠م

الخفاجي — شرح درّة الغواص، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٢٩٩هـ

شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني بمصر، ١٩٥٢م

خليل، د. حلمي — المولد، دراسة في نمو وتطوّر اللغة العربية بعد الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية، ١٩٧٨م

خيّاط، يوسف، والمرعشلي، نديم — المصطلحات العلمية والفنية، مجلد ملحق بلسان العرب المحيط، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠م

الداية، د. فايز — علم الدلالة العربي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م

الراجحي، د. عبده — اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م

فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، بيروت١٩٧٩م

الزُّبيدي — لحن العوام، تحقيق رمضان عبدالتواب، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٦٤م

السامرائي، د. إبراهيم — فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين، بيروت، ط. ثانية، ١٩٧٨م

سوسُر، فردينان — محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان، جونية، لبنان، ١٩٨٤م

سيبويه — الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، عالم الكتاب، بيروت، د. ت

السيوطي — الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٩٧٦م
المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، البابي الحلبي، القاهرة، د.ت

الصالح، د. صبحي — مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط. سادسة، ١٩٦٩م
دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط. رابعة، ١٩٧٠م

ضيف، د. شوقي — المدارس النحوية، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م

الطرابلسي، د. أمجد — نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، د.ت

ظاظا، د. حسن — اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة، ١٩٧١م

عبدالتواب، د. رمضان — لحن العامة والتطور اللغوي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧م
فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ط. ثانية، ١٩٨٣م

عمر، د. أحمد مختار — علم الدلالة، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٨٢م

فك، يوهان — العربية، ترجمة رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م

فليش، هنري — العربية الفصحى، تعريب عبدالصبور شاهين، دار المشرق، بيروت ط. ثانية، ١٩٨٣م

فندريس، جوزيف — اللغة، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، ١٩٥٠م

فيصل، د. شكري — المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ط. خامسة، ١٩٨١م

الكسائي — ما تلحن فيه العوام، تحقيق عبدالعزيز الميمني، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٨٧هـ

كمال، د. ربحي — دروس اللغة العبرية، جامعة حلب، ١٩٨١ ـ ١٩٨٢

مارتينيه، أندريه — مبادىء اللسانيات العامة، ترجمة أحمد الحمو، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٥م

المبارك، د. مازن — نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م

المبارك، محمد — فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، ط. سابعة، ١٩٨١م

مجمع اللغة العربية بالقاهرة — المعجم الوسيط، دار الفكر، ط. ثانية، د.ت

مطر، د. عبدالعزيز — لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٦م

المغربي، يوسف — دفع الإصر عن كلام أهل مصر، تحقيق عبدالسلام عواد، دار العلم، موسكو، ١٩٦٨م

ميتشيل، دينكن — معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١م

نصّار، د. حسين — المعجم العربي، نشأته وتطوره، مكتبة مصر، القاهرة، ط. ثانية، ١٩٦٨م

هولتكرانس، إيكه — قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٢م

وافي، د. علي عبدالواحد — علم اللغة، دار نهضة مصر، ط. سابعة، د.ت

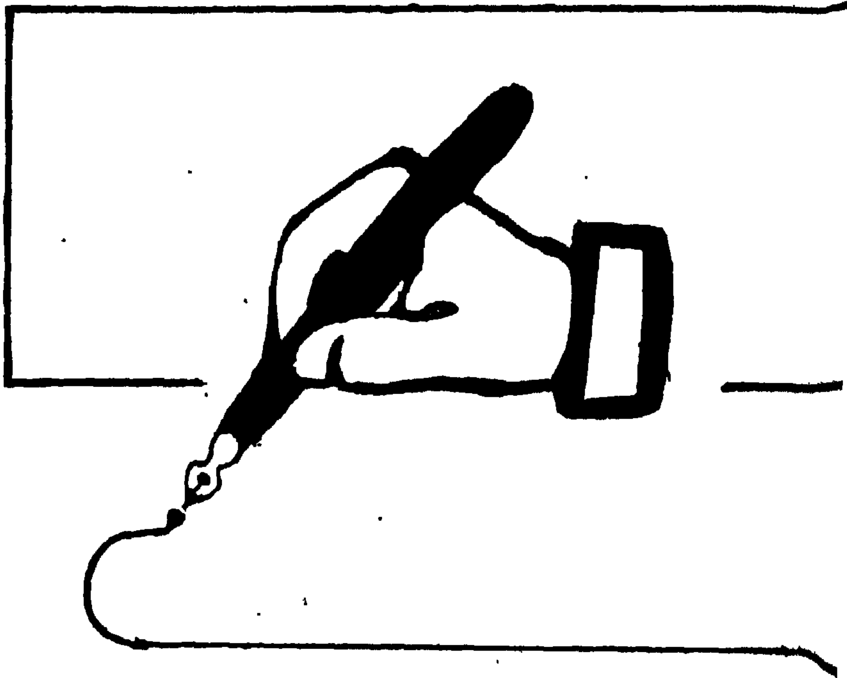
ولفنسون، إسرائيل — تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠م

الدوريات

رفيدة، د. إبراهيم عبدالله «أصالة اللغة العربية (علومها» مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد/ ٢٦/ ، آذار، ١٩٨٢م، ص٤ ـ ٣٩

السنجرجي، د. مصطفى «فلسفة النحو العربي بين الرفض والتأييد»، مجلة الحصاد، جامعة الكويت، العدد الأولى، تموز، ١٩٨١م، ص ١٠٠ ـ ١١٣





مناقشات

التحليل النفسي في ضوء فلسفة العلوم

التحليل النفسي في ضوء فلسفة العلوم

د. محمد رشاد سيد كفافي *

* أستاذ بقسم الصحة النفسية بكلية التربية - جامعة الأزهر.

يحدد كارل بوبر المشكلة التي يتصدى لحلها على أنها التميز بين العلم والعلم الزائف ، ويتم ذلك باللجوء إلى معيار القابلية للتفنيد الذي يستند إليه ما للنظرية من مكانة علمية ، حيث يهتم بالإثباتات عندما تنتج من التنبؤات المخاطرة ، وذلك بتوقع حادث بعينه يتناقض حدوثه مع النظرية ، فإذا ما تحصل ذلك فإنه يفند النظرية [1]، ويرى الباحث أن من الممكن تقويم نظرية بوبر ذاتها ، بتطبيق عين المحك الذي اقترحه عليها ، وذلك من وجهتين اثنتين :

الوجهة الأولى ـ وهي خاصة بتحديد المشكلة على أنها التميز Demarcation بين العلم والعلم الزائف ، وذلك بتطبيق معيار القابلية للتفنيد على هذا التحديد للمشكلة ذاتها ، فإنه يمكن تفنيده في حالة ما إذا كان من الممكن القول بوجود ، أو التنبوء باحتمال وجود لون مغاير من الدراسة والبحث لا يوصف بأنه علم ، وفي الوقت ذاته ليس بعلم زائف ، وهذا القول محتمل عقليا ، بل وأكثر من هذا فإنه موجود بالفعل على ساحة المناقشات العلمية الدائرة الآن ، إذ أننا نجد هناك من يقول بأن التاريخ ليس بعلم وإنما هو بمثابة دراسة إنسانية متميزة بمنهجها الخاص ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتحليل النفسي ، ومن الأهمية أن ندرك أننا نتحدث هنا ليس من زاوية مدى صواب هذا الحكم على التاريخ والتحليل النفسي ـ كمثالين ـ ، وإنما من زاوية وجود هذا المنحى في الحكم أو احتمال وجوده في حد ذاته ، وكذلك فإن من الأهمية بمكان أن ندرك الفرق بين تطبيق معيار القابلية للدحض هنا في مجال تقويم النظريات والتصورات الخاصة بفلسفة العلم ، وبين تطبيقه في مجال النظرية العلمية ـ على النحو الذي ذكره بوبر ـ ، ففي هذا المجال الأخير نجد أنه لابد من حدوث أو عدم حدوث التنبوء المخاطر لدحض النظرية ، على حين أنه في المجال الأول يكفي ـ في رأي الباحث ـ التنبوء باحتمال الوجود ، على أن يكون هذا الاحتمال معقولا ، أي أنه ليس هناك ما يمنع عقلا من احتمال حدوثه ، وقد يرجع ذلك إلى طبيعة مجال التصور الفلسفي ، والتفكير في هذا الاحتمال لا

يلعب وظيفة سلبية فحسب ، ونعني تفنيد النظريـة أو التصور الذي نحن بصدده ، ولكن له وظيفة أخرى إيجابية ، إذ أنه قد يفتح ميدانا آخر للحل لم يكن وارداً من قبل [٢].

وثمة فرق آخر هو أنه ليس من الضرورى أن تكون القـابلية للدحض بواسطة تنبؤ ينصب على المستقبل ، وإنما من الممكن أيضا أن يتم ذلك عن طريق تنبؤ ينصب على الحاضر أو الماضي فمنحى الحكم على فرع بعينه من المعرفـة بأنه بمثابة دراسة إنسانية وليس علما ، إنما هـو منحى رأيناه موجودا بالفعل ، ولكن تصور بوبر لتحديد المشكلة يغفل عن وجوده ، ومن هنا فإن دحض هذا التصور يتم عن طـريق تنبؤ لا ينصب على المستقبل ، وكـذلك يمكن القـول بأن هـذا الدحض يتم عن طـريق البرهنة على أن هذا التصور يستند إلى استقراء ناقص لما هو موجود بالفعل على ساحة فروع المعرفة وما يدور من مناقشات خاصة باستكشاف طبيعتها المنهجية تطرح احتمالات متعددة للحل ، وفي هذا ما ينم عن أهميـة استكمال الاستقراء في فلسفـة العلم كشرط ضروري لتقـديم النظريـة والتصور في هـذا المجـال ، وان لم يكن شرطا كـافيا ، ولعل فيما ذكـر مـا يفتح لنا البـاب على مصراعيه لنطبق في هـذا المجال منهج البحث العلمي ذاته ، فلقد تسنى لنا حتى الآن تطبيق الاستقراء والنقد بمعياره القابلية للتفنيد على نظرية بوبر في فلسـفة العلم .

وأخيرا ـ وليس آخراً ـ نخلص من هذا كله إلى أنـه قد تم دحض تحديد بوبر للمشكلة على أنها التمييز بين العلم والعلم الزائف وذلك باختبار البـاحث لهذا التحديد [٣].

الوجهة الثانية ـ وهي خاصة بمحك القابلية للتفنيد ذاته كمعيار للتمييز بين العلم وماعداه ، وذلك بتطبيق المعيار من حيث القابليـة للتفنيد فقط على اختبار قضية استخدامـه الوظيفي الخاصة بعملية التمييز بين العلم وماعداه .

إننا إذا أردنا تفنيد قضية الاستخدام الوظيفي لهذا المعيار من أجل التمييز بين العلم وما عداه ، فإن ذلك يتسنى لنا إذا مـا أمكن وضع تنبؤ مخاطر يرتبط بـاستخدام آخر مخالف للاستخـدام السابق للمعيـار ، فإذا أمكن استخدام معيـار التفنيد في مجال الأخبـار والشـائعات التي يمكن تـداولها في الحياة اليومية ـ مثلا ـ ، ومن الواضح أن هذه الأخبار لا تمثل قضية علمية تنتمي إلى بنيان أى علم من العلـوم ، نقول إذا أمكن هـذا الاستخدام فسيـؤدي بنا إلى تفنيـد قضية الاستخـدام الوظيفي لمعيـار القابلية للتفنيد من أجل التمييز بين العلم وما عداه .

وهذا مثال لخبر يومي نسوقه : إذا جاء شخص وأخبرنا بأن السد العالي قد انهار ـ لاقدر الله ـ

فإن من الممكن وضع هذا التنبؤ المخاطر استنادا لهذا الخبر لاختباره : أنه في خلال الساعات والأيام القادمة ستصل مياه السد إلينا في المدن الواقعة شماله ، فإذا لم يحدث هذا التنبؤ المخاطر يكون قد تم تفنيد هذا الخبر ، وإذا حدث يكون الخبر قد ثبت عن طريق هذا الاختبار المفند ، وهكذا يمكن أن نقف الموقف نفسه بالنسبة للكثير من أخبار وأمور حياتنا اليومية .

نخلص من هذا إلى أننا ـ في حقيقة الأمر ـ بصدد معيار عام يستخدم للتمييز بين الصدق وماعداه من صور الزيف والكذب ، سواء كنا في مجالات البحوث والنظريات العلمية ، أو غيرها من المجالات الأخرى التي لا تدخل تحت دائرة العلوم بما فيها أمور حياتنا اليومية ، أي أننا بصدد معيار يستخدم لتمييز الصدق العلمي وغير العلمي عما عداهما .

لقد كان تقويمنا هذا كله تقويما لنظرية بوبر من حيث مدى صدق تحديده للمشكلة على أنها التمييز ، وكذلك مدى صدق الاستخدام الوظيفي للمعيار المقترح ، وذلك بتطبيق معياره القابلية للتفنيد نفسه ـ من حيث القابلية للتفنيد فحسب ـ ، وكانت حصيلة هذا كله دحض كل من تحديده للمشكلة واستخدامه الوظيفي للمعيار ، وقبول المعيار كمحك للتمييز بين الصدق وعدمه .

وأخيرا ، إذا كان ما بقي لنا الآن بعد حصاد التقويم هذا هو مسألة الصدق فقد يتبادر للذهن أنه يمكن تحديد المشكلة على أنها قضية الصدق العلمي لكي يتسنى لنا محاولة تقديم صياغة بديلة للمشكلة ، إلا أن هذا التحديد مجانب للصواب لإغفاله الجزء الأول من محاولة الباحث تقويم نظرية بوبر الخاص بتحديده للمشكلة ، لأننا إذا ما حددناها على هذا النحو في هذه الآونة من تطور المعرفة الإنسانية فإن المسألة التالية تقفز على بساط البحث : إذا كان عالم المناهج سيطالب العلوم المختلفة بتقديم أدلة صدقها العلمي ، فماذا ستكون مطالبه فيما يختص بهذه الفروع من المعرفة التي لم يحسم الأخصائيون بعد الجدل الدائر حول طبيعة كينونتها ـ أهي دراسات إنسانية أم علوم؟ فإن عالم المناهج إذا ما حدد المشكلة على أنها الصدق العلمي فلن يطالب ـ بناء على هذا التحديد ـ هذه الفروع بمطالب منهجية محددة تقيم من خلالها الدليل على صدق قضاياها ونتائجها .

وبطبيعة الحال فإن هذا الوضع الذي سنصل إليه غير مقبول منطقيا ، ومن هنا لايكون أمامنا في هذه الآونة من تطور المعرفة ـ على الأقل ـ إلا البحث عن حل آخر أكثر جرأة ، ويتسم بطابع المغامرة الفكرية ـ إن صح هذا التعبير ـ وهو أن تحدد المشكلة على أنها قضية صدق فرع المعرفة دون نعته بالعلمية .

إن الأرض التي يقف عليها الدارسـون الحاليون بما تتضمنه من مواقف مبدئيـة معينة وما ينبثق عنها من أسئلة يحاولون الإجابة عنها إنما هي نتيجة لطرح القضية على نحو معين، فلقد وضع تعريف للعلم منذ البـداية، وفي ضـوء هذا الطـرح للقضية تبـاين موقف البـاحثين من الإجابـة عن الأسئلة المطـروحـة من قبيل: هل التحليل النفسي علم أم لا؟ وهل التـاريخ علم أم لا؟ وهل ثمـة تمييـز بين منهج كل منهما وبين المنهج العلمي أم لا؟ وما زالت هذه الأسئلـة موضع خلاف حتى الآن، كما قام فلاسفة العلم بمحاولة التمييز بين العلم وما عداه.

وسيغامر الباحث بأن يقترح أركانا عامـة لمشروع عرض القضية على نحو مغاير. . . . سيغامر هذه المغامـرة الفكرية في الوقت نفسـه الذي يعترف فيه بأنه يقف على عتبـة فلسفة العلـم، فهو ليس بالمتخصص فيها، ولكن ــ بالرغم من عدم التخصص هذا أو بفضله ــ تسنى له اقتراح هذا المشروع المنهجي، إذ أن الضيف قد يرى ما لايراه أهل المنزل ـ إن صح هذا التعبير.

المشروع المنهجي

أولا ـ الأركان العامة

١ ـ تأجيل الانشغال ـ مـؤقتا ـ بقضايا تعريف العلم والمنهج العلمي، وهل هـذا الفرع من الدراسات علم أم لا؟

٢ ـ أن نتناول واقع فروع المعرفة تناولا امبريقيا، بمعنى أن نعترف بالواقع المعرفي المعاش ــ مؤقتا ــ فمثلا نعترف بأن هناك فرعا من المعرفة الإنسانية يدعى التحليل النفسي يشتغل به ويمارسـه مجموعة من الأخصائيين، نطلق عليهم المحللين النفسيين، فهم يقومـون فعلا بالعمل التحليلي، ومستمرون في تأديته سواء اعتبرهم البعض علماء أم أنكر عليهم آخرون ذلك، وهكذا الأمر في غيره من فروع المعرفة، ومعنى هذا أننـا سنعتبر أنفسنا بصدد فروع من المعرفة وسنكف ـ مـؤقتا ـ عن استخدام هذه الالفـاظ: العلوم، البحـوث. . . . سنقف هذا الموقف، سواء بـالنسبة لما يسـمى بـالعلوم الطبيعية أو ما يسمى بالعلوم الإنسـانية.

ويشعر الباحث أنـه قد يتهم بسبب تفكيره هذا بأنه يحاول عبثا أن يبـدأ من نقطة الصفر، وأن يعود بعجلـة فلسفة العلم من حيث بـدأت المسيرة. ولكن المسألة على خلاف هـذا الاتهام، إن هذه المحاولة الفكرية تستهدف ـ إذا جاز لنا أن نستخدم تشبيها قانونيا ـ أن تحيل القضية برمتها إلى محكمة

النقض، ومن ثم يجد أعضاء هذه المحكمة لزاما عليهم أن يفحصوا مستندات القضية من جديد، فالباحث يشعر بأن الدراسة السابقة للقضية وما صدر فيها من أحكام، كل ذلك قد تم ونحن نقف معظم الوقت، ولا أقول كله، على أرض ما يسمى بالعلوم الطبيعية، ولم نقف الوقت الكافي على أرض ما يسمى بالعلوم الإنسانية.

٣ـ يقوم الأخصائيون في فروع المعرفة المختلفة ذوو الاهتمامات النظرية والمنهجية والفلسفية، كل في فرعه، بإلقاء الضوء على طبيعته، وبيان ماهية منهجه وخصائصه وكذلك براهين صدق قضاياه ونتائجه [٤]، فمثلا يتصدى بعض المحللين النفسيين أو علماء النفس من ذوى النزعة التحليلية لإنجاز هذه المهمة فيما يتعلق بالتحليل النفسي بعد اطلاعهم على دراسات مناهج البحث وفلسفة العلم، ولكن ليس على النحو الذي يتم به الأمر الآن، ويقترح الباحث أن يتم الاطلاع على هذه الدراسات بهدف تنمية وتدريب النزعات المنهجية والفلسفية، ثم يتم إنجاز المهمة على نحو يتسم بالرغبة في استكشاف طبيعة الفرع من داخله، ومن ثم ستصبح العلاقة بين الفرع ومناهج البحث وفلسفة العلم علاقة تقوم على الأخذ والعطاء لاعلى الأخذ فحسب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الأخذ سيتم على نحو يتسق مع خصائص طبيعة فرع المعرفة، لأننا دون هذا الاتساق نكون كمن وضع العربة أمام الحصان.

وحقيقة الأمر أن مطلب الاتساق هذا مطلب صعب، إذ ينبغي أن يتم في إطار هذه المعادلة الصعبة التي تستهدف التوفيق بين النزوع إلى أن نأخذ بعين الاعتبار طبيعة فرع المعرفة، والنزوع إلى صقل المناهج المستخدمة، حتى لانصدر في اتجاهاتنا عن فكرة ليس في الإمكان أبدع مما هو كائن الآن.

ولكي يمكن إحراز النجاح في تحقيق الرغبة في استكشاف طبيعة فرع المعرفة من الداخل فإن على الأخصائيين ألا يبكروا في إجراء المقارنات المنهجية بين فروع المعرفة المختلفة، وبعد أن يتم إنجاز هذه المحاولات الفرعية داخل كل فرع من المعرفة الإنسانية يأتي دور الدراسات المقارنة بين مناهج الفروع المختلفة وما هنالك من تشابه واختلاف، وقد يكون إتمام إنجاز هذه المحاولات الفرعية أولا دون عقد مقارنات بين الفروع المختلفة مسألة في غاية الصعوبة، ولكنها ـ في تقدير الباحث ـ ضرورية للغاية ليتسنى الكشف عن الماهية الحقة لكل فرع من هذه الفروع.

وسنضرب مثلا للإخفاق الناجم إذا بكرنا في عقد المقارنات هذه، وهو ما ذكره جون كلوبر من أن القول بأن منهج التحليل النفسي هو المكافىء المنطقي للمنهج التجريبي يخلف إحساسا بعدم

الواقعية. فالتحليل منهج في البحث الإكلينيكي بصفة أساسية، وإن ما ينجم عن رعاية المرضى المزمنين من ضغوط تؤدي إلى القيام ببعض الأفعال لما يؤدي أحيانا إلى الانطباع بعدم ملاءمة مقارنة التحليل بالعلم التجريبي، وكذلك نجد ميلر يستنكر مثل هذه المقارنة فيما يتعلق بالطب، وأخيرا يذكر كلوبر أن مناقشته مع زملائه من المحللين النفسيين تسفر عن شعورهم بعدم الكفاية فيما يتعلق بهذه المقارنة[٥].

والدرس الذي ينبغي أن نعيه من هذا المثل هو خطأ محاولة استكشاف المنهج التحليلي من الخارج، أي على نحو مقارن، وبعبارة أخرى إخفاق هذا الاستكشاف إذا ما تم وأعيننا متجهة إلى منهج فرع آخر من فروع المعرفة الإنسانية، ولذلك فإن دراسة من قبيل دراسة جون كلوبر نفسه عن الاستخدام المزدوج للمنهج العامي والتاريخي في التحليل النفسي - وهي دراسة ذات طابع مقارن - إنما هي معالجة تتم قبل أوانها - بالرغم من جديتها - وهي تتم وعين صاحبها متجهة إلى منهج فرع آخر من المعرفة (هو التاريخ) فهي لا تنبع من داخل التحليل كلية، حيث يذكر أنه عند مناقشة مناهج البحث في التحليل فإنه نادرا ما يرجع إلى كتابات مناهج التاريخ، ويضرب مثلا على ذلك بما حدث في المؤتمر الخاص بالصدق الذي عقدته جمعية التحليل النفسي الأمريكية سنة ١٩٥٥، إذ أكد الكثير من المتكلمين على قصور وجهة النظر العلمية في التحليل، في حين أنه ما من أحد أفصح مؤكدا على المميزات الناجمة عن مقارنة التحليل بالتاريخ[٦].

ولا يدعي الباحث أن كل ما تسفر عنه هذه الدراسات المقارنة خاطىء، وإنما يرى أن اللجوء إليها منذ البداية من أجل استكشاف طبيعة المنهج التحليلي - مثلا - إنما هو ضرب من التسكع المنهجي على أبواب فروع المعرفة الأخرى - إن صح هذا التعبير -، وهو تسكع لانجيزه بالنسبة للتحليل النفسي أو التاريخ أو غيرهما من الفروع الأخرى، هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه من أن هذه الدراسات إنما تتم مبكرة عن أوانها.

إن ما نراه من تضارب في الموقف الذي يتخذه الأخصائيون من المحللين النفسيين وفلاسفة العلوم عند تقويم المنهج التاريخي وعلاقته بالتحليل النفسي إنما هو نتيجة للتبكير بعقد هذه الدراسات المقارنة، فبينما نجد هارتمان في مؤتمر التحليل النفسي الدولي سنة ١٩٦٥م يرى أن الجوانب التاريخية في منهج التحليل قد بولغ فيها[٧]، فإننا نجد فلو Flew فيلسوف العلم يعزو إلى المدخل التاريخي أهمية أكبر[٨]، ويعتقد الباحث أن اتخاذ الموقف التقويمي من المنهج التاريخي يمكن أن يتم على نحو أدق إذا ما أنجزت أولا خطوة الدراسة المنهجية للتحليل النفسي من داخل النظرية، أي بعبارة أخرى تكون جميع عيوننا موجهة إلى النظرية موضع الدراسة ذاتها، فلا بد أولا من إنجاز ما

ذكرناه من محاولات فرعية داخل كل من التاريخ والتحليل النفسي وغيرهما من الخروج على النحو الذي ذكرناه، حتى يتسنى لنا ـ من بعد ـ تحديد ما هو العلم ؟ وما هو المنهج العلمي، بل يمكننا أيضا تحديد ما إذا كان التحليل النفسي علما أم لا ؟ وكذلك التاريخ أيضا، ومن ثم يتسنى لنا أن نحسم ما هنالك من تباين في المواقف فيما يتعلق بهذه النقطة، أو على أقل تقدير نخطو بعض الخطوات على الطريق الذي يؤدي بنا إلى هذا الحسم.

وأخيرا ـ وليس آخرا ـ لقد ألمح الباحث ـ من قبل ـ إلى أنه سيعالج قضية صدق فرع المعرفة الإنسانية استكمالا للنقاط التي ذكرناها والتي تكون الأركان العامة للمشروع المنهجي المقترح، وفي حقيقة الأمر إن التصور المقترح التالي والخاص بقضية الصدق هذه إنما يقع في القلب من هذا المشروع.

ثانيا ـ تصور مقترح لقضية صدق فرع المعرفة

إذا كان الباحث قد أصاب في صياغته للمشكلة على أنها الصدق وليست التمييز فما هي معالم الصورة المقترحة لمعالجة قضية الصدق هذه ؟ أو بعبارة أخرى: على أي نحو سيتناول مشكلة الصدق؟

للإجابة عن هذا السؤال نود أولا أن نذكر تشبيها بعينه نعتقد أنه سيساعد كثيرا في الوصول إلى هذه الإجابة، حيث نرى أنه ينبغي عند معالجة هذه القضية ألا نغفل عن أن فرع المعرفة موضوع الدراسة بنيان كامل متعدد المراحل أشبه ما يكون بجبل الثلج الذي لا يبدو بأكمله للعيان، فنتائج العلم هي ما تمثل قمة هذا البنيان، أو قمة جبل الثلج هذا، وفي تقديرنا أن معيار بوبر خاص بهذه القمة فحسب، ومن ثم فإنه غير كاف، بل أكثر من هذا فإنه قد يكون مضللا لو اكتفى بتطبيقه، ولكي يمكننا توضيح هذا فلنفرض أننا بصدد نظرية بعينها يدعي صاحبها أنها نظرية سيكولوجية، وأنه قد نجح في تطبيق معيار القابلية للتفنيد هذا، فهل يقوم هذا دليلا على صدق النظرية السيكولوجية هذه ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستكون بالنفي، إذ أن هذا يقوم كدليل للصدق على هذه النظرية بما هي نظرية أو بعبارة أخرى دليل على صدق نتائجها، ولكن ليس بما هي نظرية سيكولوجية، أي أننا نطالب صاحبها بأن يقدم دليل الصدق على سيكولوجيتها، فقد تكون هذه النظرية أقرب للفسيولوجيا منها للسيكولوجيا مثلا، ومن المنطقي أن يأتي دليل الصدق على سيكولوجيتها أولا، ثم

يعقب ذلك الدليل الخاص بكونها نظرية، فالمرحلة الأولى للصدق، إذن، هي تلك الخاصة بصدق موضوع فرع المعرفة أو النظرية.

وحقيقة الأمر أن الدعوة هذه إلى اعتبار المرحلة الأولى خاصة بصدق الموضوع إنما هو صدى للأزمة الخاصة بموضوع الدراسات النفسية، ومن هنا فإنه يأمل من خلال هذه المطالبة المنهجية والاتفاق عليها أن يجد الدارسون أنفسهم أمام شروط بعينها ينبغي الوفاء بها فيما يضعون من نظريات في هذا المجال، وبعبارة أخرى فإن مرحلة صدق الموضوع ستصبح بمثابة محك من محكات صدق النظرية عند وضعها من قبل صاحبها وعند تقويمها من جانب النقاد.

وهذه الأزمة الخاصة بموضوع الدراسة يعكسها الكثير من كتابات الدارسين خلال العقود الأخيرة، فها هو ذا د. زيور في تصديره لكتاب (أزمة علم النفس المعاصر) يلقي الضوء عليها إذ يقول: "... أما "العنصر الإنساني" فهو ما يعبر عنه بوليتزير بكلمة "دراما" مستبعدا المعنى "المأسوي" للكلمة، أو كما يقول في كتابه (نقد أسس علم النفس) علم النفس بضمير المتكلم La psychologie en premiere personne بوصفه النمط المنهجي الذي يرتضيه في علم النفس عندما يحيل الأمر كله إلى "الأنا" في مواجهة ديالكتيكية مع "أنا" آخر وهو ما يعبر عنه مرلوبونتي في قوله "إنه المعنى الذي يبين في تقاطع خبراتي بخبرات الآخر، بتشابك هذه بتلك، ومن ثم فإن النمط المنهجي في علم النفس بضمير الغائب La psychologie en troisieme personne في اصطلاح بوليتزير إنما ينقل علم النفس إلى ميدان العلوم الفيزيائية، وهو خطأ منهجي يقضي على فهم الإنسان بما هو إنسان، ويبرز الخطأ الابستمولوجي الصارخ الذي يبين عندما يتضح أن الطب العضوي أكثر سيكولوجية من السيكولوجيا، ويستطرد د. زيور محددا موضوع الدراسة السيكولوجية "أما الموضوع الأساسي لعلم النفس كما يراه المحللون النفسيون فهو هذا الحوار الديالكتيكي بين "الأنا" و "الأنا الآخر"، بين "الأنا" و "الأنت"، حوار درامي لاينفك صاعدا هابطا متأرجحا تأرجح أحوال الإنسان مما يجعل مهمة الضبط العلمي عسيرة - ولا ينقطع إلا بانقطاع الحياة النفسية كما هو الحال في المرض العقلي المستفحل.حيث يحل محل الحوار الديالكتيكي المستند إلى تعيين الذات Identification بذات الآخر - حوار اجتراري تتفادى به الذات الالتقاء الديالكتيكي بذات الآخر.

ومن ثم فإن المحللين النفسيين يرون أن أي دراسة في علم النفس لاتتخذ هدفا لها هذه العلاقة بين الذاتية Intersubjectivity إنما تقع خارج المرمى إذا صح استخدام لغة كرة القدم[٩].

وها هو ذا دارس آخر: نوتكات يصور الأزمة على هذا النحو: "وقد انشغل عدد كبير من

علماء النفس بمشكلات المنهج بدرجة تفوق المألوف، وربما كان مرجع ذلك إلى أن ما حققوه من نتائج كان قليل الأهمية. وقد عانى علم النفس أكثر من أي علم آخر من ذلك المرض الذي سماه هايك Hayek بالصنعة العلمية Scientism .. وعلم نفس الصنعة يستهوي المتطلع إليه بما فيه من مراجع ضخمة وبحث منظم للمجلات وآلات غالية ذات دقة بالغة ونحاس لامع، ومعادلات معقدة، وهندسات متعددة الأبعاد، ومعادلات تفاضلية وكلمات كبيرة غريبة من أصل يوناني صكت لتوها، وآلات حاسبة ضخمة، وفتيات بأردية بيض تضرب عليها، كملت العدة حتى شعر الباحث أنه رجل علم حقا، ولديه في الحقيقة كل شيء إلا الأفكار والنتائج، وكم من رسالة فخمة رأيتها وهي تحيد عن طريقها الوقور متجهة إلى نتائج تافهة وغير ناضجة، رغم تسلحها من الرأس إلى القدم بكل أدوات الصنعة العلمية، فالأرقام صحيحة، والمراجع مرتبة، ولكن أين الفكرة؟ [١٠].

فهذه إذن معالم الأزمة التي دعت إلى القول بمرحلة صدق الموضوع كمحك أول لصدق فرع المعرفة أو النظرية .. محك هو بمثابة أساس البنيان، وهنا يقفز إلى الذهن السؤال التالي: هل تعقب هذه المرحلة مباشرة مرحلة صدق نتائج النظرية الخاصة بتطبيق معيار القابلية للتفنيد؟

ثمة إجابتان

الإجابة الأولى: ستكون بالإيجاب لو أننا سلمنا بوجهة نظر بوبر، لأنه يرى أننا نقفز من الملاحظة، أو بتعبير أدق من موقف المشكلة Problem - situation لأي نظرية، ثم يعقب ذلك اختبارها لنتبين ما إذا كانت جيدة أم لا [١١].

فهل صحيح أننا نقفز لأي نظرية؟ إذا كانت المسألة على هذا النحو فإن تقدم العلم ـ على الأرجح ـ سيكون بطيئا للغاية، إذ أن العشوائية هي التي ستتحكم في ميلاد النظريات، ولن تكون ثمة محكات لضمان النجاح والتقدم.

الإجابة الثانية: إن المسألة على خلاف ما ذكرناه آنفا ـ في الإجابة الأولى، وإن قفزنا ليس لأي نظرية وإنما لنظرية مرجحة بناء على توافر محكات صدق بعينها أثناء هذا القفز، ونحن في طريق الوصول للنظرية، وإذا ما أخذنا التحليل النفسي كمثال فإننا نجد أن المحلل لا يقفز لأي تفسير ثم يكتفي بأن يختبره ـ من بعد ـ ليرى ما إذا كان جيدا أم لا، وإنما هو يقفز لتفسير تحكمه محكات صدق بعينها، ويذهب الباحث للقول بوجود مرحلة ثانية تتلو مرحلة صدق موضوع فرع المعرفة،

ونعني بها المرحلة المنهجية للصدق المتعلقة بالتوصل للنظرية، ويراها تتمثل في محكات صدق التفسير لدالبييز[12].

إننا نجد أن الدارسين قد وقفوا من نظرية بوبر في فلسفة العلم ومحاولة الاستجابة لها فيما يتعلق بالتحليل النفسي وبخاصة كما تتمثل في نظرية ويزدم، وكأنها تجب ما قدمه دالبييز ــ من قبل ــ ولم يحاولوا أن يدرسوا ما قد يمكن أن يكون هنالك من علاقة بين وجهة نظر دالبييز الفرنسي كفيلسوف علم ووجهة نظر زميليه الفيلسوفيين الانجليزيين فلقد عالج دالبييز قضية منهج التحليل النفسي، وقدم الأدلة على صدق منهج التداعي الحر من خلال ما بينه من محكات للصدق تحكم القول بتفسير بعينه.

ولقد عرض الباحث بالتفصيل، في موضع آخر، لمناقشة المفكر والفيلسوف الفرنسي دالبييز في رسالته للدكتوراه لمنهج التحليل النفسي حيث تناول بالمناقشة المنهجية منهج التداعي الحر، وسنكتفي في هذا الموضع بإيجاز ما فصلناه هنالك[13].

بين دالبييز ما يهدف إليه منهج التداعي من هدفي إزالة الكبت والتفسير، ثم عرج على قضية محكات صدق التفسير فأوضح كيف أن المسلمة الأساسية التي يرتكز عليها التفسير التحليلي تستند إلى أن المجرى النفسي للإنسان ليس تغيرا محضا، وإنما يبدي حدا أدنى من الثبات والوحدة، ومشكلة نسبية الثبات النفسي اللاشعوري هذه تثير السؤال التالي: كيف يصبح في مقدورنا أن نحدد بدقة درجة ثبات الروابط النفسية ؟

وتتم اجابة دالبييز عن هذا السؤال من خلال محكات صدق التفسير التالية معا.

١ـ محك الاستدعاء Criterion of evocation أو المحك الخارجي Extrinsic criterion حيث يرتبط سببيا ما يستحضره التداعي من صور ـ بطريق مباشر ـ بصورة الحلم التي نحللها ـ مثلا ـ.

٢ـ المحك الجوهري Intrinsic criterion أو محك التشابه criterion of similarity ويستخدم هذا المحك في عدد من العلوم الأخرى بخلاف التحليل، وهو يتضمن ربط الإشارة Clue بسببها، ويكمن صدق هذا المحك في أن السببية تتضمن بالضرورة حدا أدنى من التشابه بين النتيجة وسببها، ويمثل هذا إحدى النتائج المباشرة لمبدأ العلة الكافية Principle of sufficientson reason ويتضمن التشابه علاقة السببية سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة.

٣ـ محك التكرار Criterion of frequency وهو محك تكميلي، فالتكرار لايمكن أن نفصله عن الاستدعاء كما هو الحال في التشابه.

٤ ـ محك الاتفاق Criterion of convergence حيث نجد أن التفسير لا يرتكز عـامة على مستدعى واحد بعينه حتى ولو تكرر، ولا يعتمد أيضا على تشابه واحد، بل يستند عامة إلى اتفاق مجموعة من المؤشرات، ونحن هنـا بصـدد محك تكميلي هـو بمثـابـة شرط لمجموعـة المستـدعيـات والتشابهات.

٥ ـ محك التحقق Criterion of verification فالمحكات السابقة تمكننا من إقامة العلاقات السببية بين صورة الحلم وإحدى الذكريات ـ مثلا، ولكن إذا كان الشك ينصب على السبب ذاته أكثر منه على العلاقة، أو بعبارة أخرى إذا كان هناك احتمال لتوقع زيف الذكرى يصبح من الضروري اللجوء إلى صورة من صور التحقق.

إن تطبيق هذه المحكات الخمسة ـ على نحو يتسم بالـدقة ـ يجعل في مقدورنا أن نرفض بصورة كلية الاتهام بالعشوائية الذي غالبا ما يوجه للتفسيرات التحليلية.

ويناقش دالبييز الصعوبـات الموجودة ويواجهها بحلول مرضية من الناحيـة المنهجية باستثناء بعض الاحتمالات التي يمكن أن يقابلها المحلل في حالة العرض الوحيد الذي يصدر عن سبب واحد وهي كالتالي:

١ ـ إن مـا ينجم عن رفع الكبت قد يمكن التحقق منه، ولكن ذلك عادة لايتحقق، وفي هـذه الحالة الأخيرة ينبغي الاعتراف بأنه ما من وسيلة للإثبات العلمي، فـالذاكرة تتعرض لعدة أسباب تؤدي للخطأ، بحيث لا يمكننا الارتكان إليها في غياب أي إثبات.

٢ ـ قـد يخفق كل من رفع الكبت والتحقـق، وهنـا لا يكـون على المرء إلا أن يـرتكـز في تفسيره على الاستنتاج والبحث، والرضى بفرض غير محقق إلى حد بعيد، معتمدا على محك التشابه[١٤].

وفي تقدير البـاحث أن هذا القصور النسبي في تطبيق محكات صـدق التفسير لدى دالبييز في هذه الحالـة يمكن معالجته والـوصول إلى حل مرض مـن الناحية المنهجيـة عند تطبيق معيار القـابلية للتفنيد ـ وذلك على النحو الـذي تتضمنه نظرية ويزدم[١٥]، فهنا يمكن عند تقـديم تفسيرنا في مثل هذه الظروف ـ وفي غيرها أيضا ـ أن نحدد سلفـا تنبؤاتنا في حالة صـدق التفسير المقدم، فإذا جاءت استجـابات المريض مـؤيدة لهذه التنبـؤات صدق التفسير، وإذا لم تأت كما تـوقعنا كـان هذا دحضـا للتفسير، وهذا ـ في تقدير الباحث ـ أحد أوجه الإضافات الناجمة عن تطبيق معيار القابلية للتفنيد كما نقابله في نظرية ويزدم[١٦].

وكلمة أخيرة عن محكات داليبيز لكي يمكن استكمال الدور المختلف لكل محك من المحكات، حيث نجد أن الاستدعاء يزودنا بالحادثة والعلاقة السببيتين، ولكنه يتسم بقيمة احتمالية، ويستخدم التحقق لمعرفة الحادثة السببية فقط، أما الدور الوحيد لكل من التكرار والاتفاق فهو تعضيد احتمال العلاقة السببية، وأما محك التشابه فإنه يستخدم للحكم على صدق العلاقة السببية فقط إذا ماعرف السبب المفترض مباشرة، أما إذا لم يعرف مباشرة فإن هذا المحك يسمح بتصوير تقريبي لكل من السبب والعلاقة السببية[١٠].

ونرى أنه يمكن الآن بعد عرض إسهام داليبيز المنهجي أن نطرح على بساط البحث للمناقشة مسألة الملاحظات الإكلينيكية كدليل منهجي على النظرية، إذ نجد بوبر لايعتد بهذه الملاحظات كإثبات للنظرية فهي ـ في رأيه ـ بمثابة تفسيرات في ضوء النظرية مثلها في ذلك مثل جميع الملاحظات الأخرى، وهذا الموقف من بوبر يحتاج إلى وقفة منهجية متأنية حتى يتسنى فحص هذا التقويم من جانبه، ثم تقويمه.

ومن هنا فثمة ضرورة للتمييز بين نوعين من الاستخدام للملاحظات الإكلينيكية لتعضيد النظرية : نوع ينطبق عليه هجوم بوبر بالفعل، ويتفق الباحث معه على تقويمه من قبيل تلك الخبرة التي خبرها بوبر نفسه سنة ١٩١٩ م أثناء عمله مع أدلر، إذ نجد الأول يقدم تقريرا عن طفل قام بدراسته ويرى أن نظرية هذا الأخير لاتنطبق عليه، ولكن صاحب النظرية الذى لم ير الطفل يفسر وقائع التقرير في ضوء نظريته الخاصة بمشاعر الدونية، ويسأل بوبر ـ مصدوما ـ عن كيفية تأكده من صحة موقفه، فلايجد غضاضة من أن يرجع ذلك لخبرته الألفية، ومن هنا تكون إجابة بوبر بأن خبرته قد أصبحت الآن ألفا وواحدا، ويعني بذلك أنه ربما كانت خبراته السابقة تتسم ـ أيضا ـ بهذا الطابع غير المعقول، وإن كلا منها قد تم تفسيره في ضوء الخبرة السابقة، واعتبر في الوقت نفسه بمثابة إثبات إضافي جديد، ولكن هذا لايعني أكثر من أننا بصدد سلوك يمكن أن تفسره النظرية، وهذا قليل للغاية إذ أنه يتضمن أن كل سلوك يمكن تصوره يتسنى تفسيره في ضوء نظرية أدلر، وكذلك باستهداء نظرية فرويد بدرجة مساوية[١١].

يتفق الباحث مع بوبر في موقفه هذا الذي يشجب هذا الاستخدام للملاحظات الإكلينيكية، ولكنه يختلف معه فيما يصدره من حكم بالإدانة المنهجية على الملاحظات الإكلينيكية جميعا، إذ أن الدراسة المتأنية للملاحظات الإكلينيكية ستؤدي بنا إلى أن نضع يدنا على نوع آخر منها يستند إلى أساس منهجي، فما هو هذا النوع ؟ ولماذا لم يتسن لبوبر الكشف عنه ؟

لقد وجدنا بوبر في محاولة الإجابة عن السؤال التالي : كيف يتسنى القفز من قضية الملاحظة Observation statement أو على نحو أدق من موقف المشكلة Problem - situation للنظرية الجيدة ؟ يرى أن القفز يتم أولا لأي نظرية ، ثم يعقب ذلك اختبارها لنتبين ما إذا كانت جيدة أم لا[٩١] ، ولقد اتجهنا إلى أن القفز لايتم لأي نظرية وإنما إلى نظرية بعينها ، إذ أن هناك مرحلة منهجية قبلية تحكمها - فيما يتعلق بالتحليل النفسي مثلا - محكات للصدق تقيم الدليل على صدقها ، وهذه المحكات يراها الباحث متمثلة فيما بينه دالبييز من محكات لصدق التفسير ، وتطبيق هذه المحكات على الوقائع الإكلينيكية المتاحة يتيح للملاحظات الإكلينيكية أن تفي بما نتطلبه منها من صدق منهجي تقيم الدليل عليه ، والأمر يتم هنا على نحو يتيح لنا الحكم بما إذا كنا بصدد أدلة تتسم بالتأكد أو ماهو دون ذلك .

ومن هنا فإن الموقف الذي اتخذه بوبر من الملاحظات الإكلينيكية وشايعه فيه البعض في حاجة إلى هذه المراجعة المتأنية التي تتيح لنا تمييز نوعين من استخدامها : نوع مرفوض ، والآخر مقبول منهجيا ، ولاينفي هذا ـ بطبيعة الحال - الالتجاء إلى معيار التفنيد في المرحلة المنهجية البعدية (النقد المفند للنظرية) ـ على النحو الذي سنبينه - لاختيار مايرتبط بهذه الملاحظات الإكلينيكية من فروض ونظريات . ليست أي نظريات وإنما هي نظريات بعينها منبثقة من منهج يمكننا من الوصول إليها ، ويتسم بمحكات للصدق محددة .

ويمكن القول بأن ماقدمه دالبييز هو صورة من صور إقامة الصدق القبلي (الصدق المتبع للوصول للنظرية) أو هو صورة الصدق القبلي فيما يتعلق بالتحليل النفسي ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الصدق البعدي - إن صح هذا التعبير - ، أو بعبارة أخرى مرحلة صدق نتائج النظرية وتفسيراتها بعد الوصول إليها ، وذلك بتطبيق معيار القابلية للتفنيد كمحك عام للصدق ، وهذه هي مرحلة صدق قمة فرع المعرفة ، وهكذا نأخذ ببوبر على هذا النحو المعدل ، إذ أنه رأى القمة فقدم معياره متصورا أنه خاص بالبنيان بأكمله ـ وهو - في حقيقة الأمر - خاص بقمته دون بقيته ، فلم ير صدق الأساس متمثلا في المرحلة الأولى الخاصة بصدق الموضوع ولم ينتبه للمرحلة الثانية للصدق ، ونجم ذلك عن صياغته للمشكلة - على الأرجح - هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تطبيق معيار مرحلة الصدق البعدي يعالج صعوبات بعض حالات مرحلة الصدق القبلي والقصور النسبي في تطبيق محكات صدق التفسير لدى دالبييز في هذه المرحلة - كم أشرنا إليها من قبل - ، أي أنه يمكن القول بأننا في المرحلة الثالثة نحصل على مزيد من التأكد إذا كان ماحصلنا عليه في المرحلة الثانية صورة من التأكد ، فإن لم يكن كذلك فإننا نحصل عليه (التأكد) في المرحلة الثالثة .

وإذا ما أمعنا النظر في نظرية ويزدم التي تستهدف تطبيق معيار القابلية للتفنيد باختبار التفسير الإكلينيكي داخل جلسة التحليل النفسي ذاتها فسيتبين لنا أن اختلاف المصطلحات المستخدمة لديه قد حجب أوجه الشبه بين نظريته وبين محكات صدق التفسير لدى دالبييز، ألم يذهب ويزدم إلى أن الاستجابة تعتبر مؤيدة للتفسير المتضمن للفرض ذى المحتوى الإكلينيكي، وذلك إذا أمكن تفسير الاستجابة للتفسير ذاتها باستخدام الفرض الإكلينيكي نفسه، أما إذا اختلف بناء الاستجابة عما هو عليه بناء التفسير فالاستجابة حينئذ تفند التفسير[20]؟ أوليس معنى هذا أن نظرية ويزدم هذه تتضمن استخدام محكات الصدق التي بينها دالبييز. محكات الاستدعاء والتكرار والتشابه والاتفاق بخاصة؟ وقد يبدو للوهلة الأولى أن المحكات المستخدمة هنا هي محكا الاستدعاء والتشابه فحسب وذلك حينما ننظر إلى الاستجابة التي استدعاها التفسير لنحكم على مدى تشابه بنائها مع بناء التفسير، ولكن إذا تذكرنا أن الحكم على صدق التفسير لن يستند إلى استجابة واحدة بعينها تأتي بعد تقديمه، بل إلى مجموعة الاستجابات التالية للتفسير لتبين لنا أن المحكين الآخرين، ونعني محكي التكرار والاتفاق، مستخدمان أيضا، وويزدم نفسه يتحدث في بداية دراسته عن الاستجابات التالية للتفسير[21]، وفي الحقيقة ليس ثمة مايحول دون استخدام المحك الخامس. محك التحقق عند فحص الاستجابات التالية للتفسير إذا ما استلزم الأمر ذلك، وإن لم تتضمن نظرية ويزدم ذلك.

يمكن القول إذن بأن فحص نظرية ويزدم يؤدي بنا إلى إدراك طبيعة شكلها ومحتواها، فهي من حيث الشكل تستند إلى التنبؤ. التنبؤ المخاطر كما يتطلبه معيار القابلية للتفنيد، أما المحتوى فيتضمن تطبيق محكات صدق التفسير لدى دالبييز وان يكن على نحو كامن، وبعبارة أخرى فإنه يُلْجَأ إلى محكات الصدق هذه للوصول إلى تفسير صحيح، ويتم اختباره بعد تقديمه للمريض بالاستمرار في تطبيق عين المحكات السابقة على المستدعيات الجديدة التي تأخذ صورة الاستجابات للتفسير، وذلك على أرضية من التنبؤ المخاطر، وإن لم يفطن ويزدم لذلك.

والباحث لايريد من هذا كله أن يزعم بأن نظرية ويزدم إنما هي نسخة مكررة مما ذهب إليه دالبييز - من قبل -، إذ أن النظرية الأولى تتضمن جهدا مبتكرا وأصيلا في معالجة مشكلة الإيحاء وعلاقتها بالقابلية للتفنيد وتقديم الحل لذلك وإنما يهدف إلى إلقاء الضوء على أوجه الشبه مابين النظريتين على النحو الذي يوضح بعض العلاقة بين المرحلة المنهجية المؤدية للنظرية والمرحلة المنهجية لاختبارها المفند (النقد).

والحقيقة أن هذا الفهم للعلاقة بين المرحلتين المنهجيتين لما يعضد من مكانة الملاحظات

الإكلينيكية كدليل على النظرية، على النحو الخاص الذي بيناه - من قبل - إذ أن هناك تشابها كبيرا في طبيعة محتوى معايير الصدق المستخدمة في المرحلتين . المرحلة المنهجية المؤدية إلى النظرية، وبالتالي ماتتضمنه من ملاحظات إكلينيكية، والمرحلة المنهجية النقدية لاختبار صدق ماتم التوصل إليه من نتائج وتفسيرات تفول بها النظرية، إلا أن ثمة اختلافا في الشكل المنهجي الذي يتم تطبيق المعايير من خلاله، فعلى حين يتم في المرحلة الأولى في إطار عملية التفسير فإنه يأخذ في الثانية شكل التنبؤ، وإن كان هذا الاختلاف لاينبغي تضخيمه والمبالغة فيه للصلة الوثيقة بين عمليتي التفسير والتنبؤ، ألسنا نفحص الاستجابات المتنبأ بها لتفسيرها باستخدام نفس الغرض الإكلينيكي الذي يتضمنه التفسير المقدم للمريض، وأخيرا أليست هذه الاستجابات المتنبأ بها التي نلجأ إليها لاختبار مدى صدق التفسير هي - في الحقيقة - بمثابة صورة أخرى للملاحظات الإكلينيكية ؟، ومن هنا فإن الملاحظات الإكلينيكية هي الملجأ الأول والأخير على شريطة أن يتم القيام بها على نحو منهجي سليم، فالمسألة إذن لاتتمثل في رفض أو قبول هذه الملاحظات على وجه الإطلاق بل تتمثل في الكيفية والنهج الذي تمت عليه، ولعل فيما تقدم ذكره مايلقي الضوء على النهج السليم لإجرائها.

واستكمالا لدراسة العلاقة بين المرحلتين المنهجيتين : المؤدية للنظرية والنقدية فإننا نجد أن ويزدم يقدم نظريته التي يلجأ فيها إلى الاختبار المفند للتفسير والصالحة للأسابيع الأولى من العلاج فقط، وذلك عندما تصدى لمشكلة الإيحاء وعلاقتها بالقابلية للتفنيد، والآن وقد تبين لنا ماهنالك من استمرارية لمحكات الصدق التي نصل منها إلى التفسير ولاختباره اختبارا مفندا أيضا - فيما بعد - فإن هذا يعني أننا نصل إلى تفسيرات مؤكدة - وإن يكن بعضها دون ذلك - قبل أن يقدمها المحلل للمريض لينظر - من بعد - في استجاباته اللاحقة، أي أن المحلل يقف على أرض منهجية صلبة منذ البداية، وهو يستهدف إحراز المزيد من التأكد إذا ما اضطلع باختبار تفسيره، وبعبارة أوضح فإن خشية ويزدم من تأثير الإيحاء على إمكانية التفنيد تضخمت إلى حد كبير [٢٢] نتيجة لعدم رؤيته للمرحلة المنهجية المؤدية للتفسير، ومايميزها من محكات الصدق المتضمنة في نظريته نفسها على نحو كامن وعلى أرضية من التنبؤ المخاطر لاختبار التفسير، ومن هنا ينبغي أن نتقدم لاختبار التفسير الإكلينيكي ونحن أكثر اطمئنانا وثقة وأقل تخوفا من الإيحاء كقاعدة، أما الاحتمالات الاستثنائية التي تحدث عنها دالبييز في حالة العرض الوحيد الناجم عن سبب واحد والتي ارتأى أن على المرء الرضى إزاءها بفرض غير محقق إلى حد بعيد، فهنا قد يكون لنا الحق في أن نخشى الإيحاء بعد التقدم بالتفسير إذا قابل المحلل ذلك الوضع بعد الأسابيع الأولى من العلاج، إذ أن ويزدم حل المشكلة فيما يختص بها، أما بعد ذلك فإنه في هذه الحالات الاستثنائية يمكن الامتناع المؤقت عن ذكر التفسير للمريض وتحديد تنبؤاتنا المخاطرة التي نفحص فى ضوئها استجابات المريض التالية للوصول

إلى التفسير، فإذا صحت هذه التنبؤات نصبح بصدد فرض مؤكد تم اختباره وإذا لم تصح فإن هذا يعتبر بمثابة تفنيد للفرض.

أما فيما يختص بمشكلة الإيحاء أثناء الوصول إلى التفسير فلقد عالجها دالبييز مقدما لها حلولا مرضية، فالاحتمال الأول هنا يتمثل في افتراض أن الإيحاء أثر في الاستدعاء على نحو يجعل المريض يستدعي ذكرى فعلية وهو بإزاء صورة الحلم إلا أنها لاترتبط بها سببيا، وفي هذه الحالة فإن افتقاد أي تشابه وثيق بدرجة كافية بين العنصرين سيجعل المفسر الذي يتسم بنظرة ناقدة يمتنع عن الحكم.

ويتمثل الاحتمال الثاني في افتراض خلق الإيحاء لذكرى مزيفة كلية، تشبه صورة الحلم بدرجة كافية بحيث تعتبر علتها الممكنة، وهنا فإن اللجوء إلى محك التحقق عند أدنى شك لما يجنب الوقوع في هذا الخطأ.

والاحتمال الثالث يفترض أن النتاج النفسي موضع التحليل هو ذاته ناجم عن الإيحاء، فاستخدام هذه المحكات سيتيح الفرصة للمفسر لكي يعقد الصلة بين الصورة ــ موضوع بحثه ـ والإيحاء المسبب لها، إذ أن حقيقة التفسير لاتتأثر على الإطلاق، سواء كانت المادة المحللة ترجع إلى الإيحاء أم لا، حيث تتساوى موضوعيا الصلة المعقودة بين العرض العصابي وصدمة الطفولة، وكذلك تنفيذ إيحاء بعينه أثر النوام والذكرى المنسية لذلك الإيحاء، فالارتباط الصحيح للحاضر بالماضي يعد حقيقة سواء كنا بإزاء ماض طبيعي أو اصطناعي، أما من حيث طبيعة الإيحاء فهو ليس إلا مثالا خاصا من تأثير اللاشعور[٢٣].

وإذا ماعدنا ثانية إلى موقف بوبر نفسه من التحليل النفسي فيما يختص بالمنهج النقدى لديه، نجده يتساءل: ماذا تفند نظرية التحليل ذاتها، وليس مجرد تفنيد لتشخيص تحليلي بعينه؟ وهو يرى أن ثمة مجموعة كاملة من المفهومات التحليلية كالثنائية الوجدانية ـ وهو لايزعم أنه لايوجد شيء من قبيل الثنائية الوجدانية يجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل الاتفاق على محكات التفنيد[٢٤].

وثمة من يرى إعادة صياغة السؤال وتقسيمه وطرحه في صورة أسئلة جزئية، لا أن يطرح على هذا النحو الشامل الذى يدعو لتفنيد النظرية ككل، فها هو ذا فاريل Farrell يرى ـ ويوافقه أيزنك ـ أنه من المضلل أن يتساءل المرء عما إذا كان من الممكن دحض نظرية التحليل؟ وأنه ينبغي أن نعيد صياغة هذا السؤال الضخم، بعد تقسيم النظرية إلى أقسام عدة، ثم يتساءل ـ من بعد ـ: هل من الممكن دحض كل منها؟

والأقسام المقترحة هنا هي الأقسام الستة التالية:
١ ـ نظرية الغرائز، أو الديناميات.
٢ ـ نظرية النمو.
٣ ـ نظرية البناء النفسي.
٤ ـ نظرية الاقتصاديات النفسية، أو الدفاع.
٥ ـ نظرية تكوين العرض.
٦ ـ نظرية العلاج [٢٥].

وبطبيعة الحال قد يتفق بعض الدارسين على هذه الأقسام بعينها بينها قد لايوافق آخرون عليها، والباحث هنا لايروم مناقشة التقسيم ذاته وإنما ينشد أن يطرح القضية ذاتها التي دعت إلى التقسيم على بساط البحث، وبعبارة أخرى فانه يتساءل بدوره هل صحيح أن من المضلل طرح القضية على أنها إمكانية تفنيد نظرية التحليل؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه إذا ما أسفرت الدراسة عن سلامة هذا الطرح فهل هذا يجب بالضرورة الاتجاه إلى تقسيم النظرية إلى أقسام؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي عن سؤالنا الأخير هذا، فما هي صورة العلاقة بين السؤال الأول الضخم الخاص بدحض النظرية بأكملها والأسئلة الأخرى الفرعية الخاصة بأقسام النظرية؟

إن فهم نظرية التحليل على نحو يوصلنا إلى إدراك لبها والهدف الذي تنشده، والذى يتلخص في أنها نظرية في معنى الخبرة الإنسانية ـ كما بينا من قبل ـ أو كما قال ريكور Ricoeur إن موضوع الدراسة في التحليل هو مايضفيه الإنسان من معنى على عين الحوادث التي يهتم بها عالم النفس كملاحظ ويعدها بمثابة متغيرات بينية [٢٦]. . نقول إن هذا الفهم للب النظرية وتحديده يعين لنا ما الذي ينبغي أن ننشد اختباره إذا أردنا تفنيد النظرية، إنه اختبار لهذا اللب ذاته من حيث هو معنى الخبرة الإنسانية في علاقة الإنسان بالآخر، ومن هنا فإن اختبار هذا المعنى ذاته بما يتضمنه من تفسير فاهم في أي صورة من صور الخبرة الإنسانية، سوية كانت أم مرضية. . عصابية كانت أم ذهانية. . تختص بحياة اليقظة أم بخبرة الحلم أثناء النوم هو تفنيد للنظرية ذاتها من حيث الجوهر واللب، وسيكون التنبؤ المخاطر حينئذ هو أن الخبرة والسلوك الإنساني غير دالين سيكولوجيا وأنهما عديما المعنى ونقيض هذا التنبؤ هو الذي يثبتها إثباتا مفندا، وسيتم هذا التفنيد الشامل في الوقت عينه من خلال تفنيد قسم فرعي من النظرية، سواء أخذنا بالتقسيم السابق المقترح أم بغيره، وهذا الذى نذكره يوضح صورة الإجابة عن الأسئلة السابقة، فإن تفنيد النظرية ككل لا يجب الاتجاه الى تقسيمها أقساما فرعية وإنما يقتضيه، إذ أنه يتم من خلاله.

وفي ضوء هذا التصور المقترح للتفنيد لن توصلنا هذه المجموعة من المفهومات التحليلية ـ التي أشار إليها بوبر ـ إلى استحالة الاتفاق على محكات التفنيد، كما أن المرء ليعجب من موقف بوبر ـ هنا ـ، هذا الموقف الذي ينم عن اتجاه كامن لأن نفرض على طبيعة النفس الإنسانية خصائص غير ماتتسم به، وأن نرفض ما هي عليه ـ وان لم يع هؤلاء الدارسون ذلك ـ أليس تصور بوبر للمسألة على النحو الذي عرضها عليه ـ بالرغم من عدم نفيه لوجود الثنائية الوجدانية وماشابهها ـ ينم عن رفضه لقبول هذه الخصائص. . لقبول واقع الظاهرة، كما هو عليه، وذلك برفضه للمفهومات التي تعكس هذا الواقع ؟ . . أليس في تمسكه بالمنهج على حساب طبيعة موضوع الدراسة مايشبه وضع العربة أمام الحصان ؟ أليس أدعى إلى الصواب إذا تعارض هذان الاثنان أن نختار جانب موضوع الدراسة باذلين الجهد للوصول للمنهج الملائم ؟ فنحن كما أوضح لاجاش في حاجة إلى مناهج تناسب مالدينا من مشكلات، ولسنا في حاجة إلى مشكلات تناسب مالدينا من مناهج[٢٧]، وهذا إذا ماتأكد لدينا وجود هذا التعارض، إذ ينبغي ألا نتسرع في الحكم بوجوده، ففي المسألة التي نحن بصددها، والخاصة بالتحليل، وجدنا أنه يمكن إزالة هذا التعارض من خلال تفنيد لب النظرية ذاته الذي يتلخص في أن الخبرة الإنسانية ذات معنى.

وحقيقة الأمر أنه يمكن إزالة هذا التعارض ـ أيضا ـ من زاوية أخرى ينبغي إضافتها لما ذكرناه، وسيستلزم الأمر إلقاء مزيد من الضوء على مشكلة تفنيد النظرية من خلال المفاهيم التي تعكس تناقضات النفس الإنسانية، وسيذكر الباحث أولا معالجة هريسون للموضوع ثم يتلوها بوجهة نظره، وهنا نجد هريسون يشير في البداية إلى مطالبة كل من نقاد النظرية والمدافعين عنها ـ على حد سواء ـ للمحللين النفسيين أن يبينوا ما هي البيانات التي تفند جزءا أو فرضا بعينه من النظرية ؟ فما هي مثلا البيانات التي تفند وجود مركب أوديب؟ ويرى هريسون أن هذا التحدي المغري لن ينجم عنه إقامة الدليل على التحليل النفسي كعلم، فكل من عدوان الطفل الصغير تجاه أبيه وجزعه عليه يعدان دلائل سلوكية على المركب الأوديبي، وهذا الوضع على هذا النحو يسبب إحباطا عميقا للمناطقة ولكن ايلام التحليل النفسي على اللامنطقية هذه؟ أم أن المسألة هنا هي أننا بصدد الشخصية الإنسانية المليئة بالتناقضات[٢٨].

وأن هريسون قد تسرع هنا في إصدار حكمه فيما يختص بهذا التحدي المغري المتعلق بالتفنيد، فلقد رأينا أن الاختبار المفند للفروض الإكلينيكية قد تم إنجازه في جلسة التحليل النفسي، ونفهم هذا الاختبار المفند على أساس أنه يساهم ـ بالاشتراك مع غيره ـ في إقامة الدليل على صدق التحليل، إذ أنه خاص بصدق قمة فرع المعرفة المعنى هنا (التحليل)، فهو يمثل مرحلة واحدة من ثلاث مراحل للصدق تساهم جميعا في إقامة الدليل على الصدق ـ على النحو الذي تعالج قضية الصدق عليه

هنـا ـ ، هذا فيما يتعلق بالاختبار عامة ، أما فيما يختص بالوضع الناجم عما تتسم به الظاهرة الإنسانية من لامنطقية فانه يمكننا إذا ما أمعنا الفكر في هذه المشكلـة أن نجد حلا نواجه به الصعوبات الناتجة عما تتسم بـه النفس الإنسانيـة من تناقضـات ، ففيما يتعلق بالمثل المضروب هنـا فإن هريسـون جعل اللامنطقي نهاية مطـاف الدراسة عندما اعتبر جزع الطفل على أبيـه ـ وكذلك عدوانه تجاهه ـ بمثابة دليل سلوكي على المركب الأوديبي ، ولكننا إذا وضعنا الحصان أمام العربة بدلا من وضع العربة أمام الحصان ، وذلك بأن نعكس ترتيب الأمـور فنجعل جزع الطفل نقطة بداية بحثنـا وليس نهاية المطاف مستهـدفين الكشف عن المركب الأوديبي خلف هـذا الجزع ، وذلك من خـلال اختبار تفسير يقـدم للطفل يتضمن هذا الفرض الإكلينيكـي ، فإننا بذلك نتمكن من بيان المعقـول خلف اللامعقول على نحو يرضي المناطقـة ، لأننا إذا جعلنا نقطة بداية دراستنا هي الجانـب اللامنطقي من الأمور فإن نهاية مطافها ستتكشف عن المنطقي الـذي نستهدفه(٢٩)، أي أنـه يمكن القول بأنـه قد تسنى الآن إزالـة التعارض بين المنهج وموضـوع الدراسة ـ من زاوية ثـانية ـ وذلك بتحديد اتجاه التنبؤ على نحـو مغاير تماما . نحو يعتقد الباحث أنه أكثر اتساقـا مع طبيعة نظرية التحليل النفسي ، إن عين النظرية تتجه بـالنظر إلى معنى الخبرة والسلـوك وليس إلى السلـوك في حد ذاتـه ، ومن هنـا قد نجـد أنفسنا بصـدد ضروب متناقضة من السـلوك ، ولكن يختفي وراءها معنى واحد ، فإذا ما جعلنا تنبؤاتنا المخاطرة ترتبط أساسـا بهذا المعنى الواحد لانتفى مـا هنالك من تناقض تأباه المناطقة ، أمـا إذا كانت صلة تنبـؤاتنا معقودة بضروب السـلوك المتناقضة فسنجد أنفسنا أمام وضع غير مرض أشبه ما يكون بطريق موصد ، ونحن في الحقيقة الذين أوصدناه بأنفسنا وقد يدفع هذا البعض إلى البحث ـ عبثا ـ عن طريق بديل .

وفيمايتعلق بـاستكمال معالجتنـا للتحليل النفسي من زاوية مـرحلة الصـدق البعدي الخاصـة باختبار الفروض فإن الاعتقـاد السائد هو أن فرويد لم يختبر ماتـوصل إليه من فروض ، وأن عبء هذا العمل يقع على من أتى بعده ، كما عبر عن ذلك مايمان Mayman ـ مثلا ـ (٣٠)، فهل صحيح أن فرويد لم يحاول القيام بإنجاز هذا العمل ؟

سيحاول البـاحث الإجابة عن هذا السـؤال من خلال الدراسة المنهجية للتحليل النفسي من الداخل بقراءة فرويد قراءة منهجية ، تأخذ بعين الاعتبار طبيعة التحليل النفسي والموقف المعاصر فيما يسمى بفلسـفة العلم معـا ـ على النحو الذي دعـونا إليه في هـذا المشروع المنهجي المقترح ـ وذلك من خلال دراسـة أربع صور مـن التعديلات التـي أدخلها فـرويد على فكره التحليلي ، وهـو يستكشف طريقه ليضع أسس علم جديد ، وهذا يضعنا بصدد دراسة المنهج لديه وبخاصة في صورته النقدية .

المنهج لدى فرويد واكتشاف صورة جديدة من التفنيد المنهجي النقدي

والمثال الأول من هذه التعديلات الأربعة يختص بنظرية فرويد في الجنسية الطفلية وعلاقتها بالعصاب، ولندع د. سامي علي يصور لنا الوقائع المرتبطة بهذا المثال إذ نجده يقول: «والواقع أن اكتشاف فرويد الجنسية الطفلية جاء تدريجيا إثر التغلب على عقبات عدة تتعلق بموضوع البحث وطرافته تعلقها بالباحث ذاته وقدرته على الاستبصار، وقد توصل فرويد في سنة ١٨٩٥ إلى تفسير شامل للهستيريا[٣١]، رد فيه أسباب المرض صراحة إلى الصدمات النفسية التي يعانيها الطفل، إذ يتعرض للغواية الجنسية من قبل الراشدين. وكان في تلك الآونة يعتبر الجنسية الطفلية مجرد قوة كامنة لا تخرج إلى الفعل إلا عرضا بتأثير الغير، ويفضي ظهورها إلى أوخم العواقب وأضرها بالفرد في نموه النفسي. وكذلك فقد ميز بين نوعين من الخبرات الجنسية الطفلية، الخبرات السلبية والخبرات الإيجابية، فجعل الأولى في أصل الهستيريا، والثانية علة للعصاب الوسواسي. ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الرأي في سنة ١٨٩٦[٣٢]، فبين أن الخبرات الإيجابية ذاتها تسبقها دائما خبرات سلبية، بحيث تصبح الأحداث الخارجية هي المسؤولة أخيرا عن منشأ الجنسية الطفلية. بيد أنه كان يعجب لكثرة ورود الصدمات الجنسية الناتجة عن الغواية في سير مرضاه الذين يعالجهم واطراد وقوعها اطرادا رتيبا، مما يتضمن وجود عدد من المنحرفين يربو على عدد العصابيين وهي نتيجة غير مقبولة. أضف إلى ذلك أن من العسير أن نميز بين ما هو واقعي وما هو متخيل فيما يرويه المرضى من ذكريات طفولتهم الأولى، لأن اللاشعور لا يتضمن أي «دليل على الواقع»[٣٣]، ومن جهة أخرى «فمن المشكوك فيه أن الأحداث التي ترد في وقت متأخر تكون قادرة على إثارة أخيلة ترجع إلى الطفولة. ولهذا السبب يبدو أن عامل الاستعداد الوراثي يعاود اكتساب ما فقد من أهمية»[٣٤]. ومن ثم فقد أقلع فرويد عن نظريته في الغواية الجنسية إقلاعا نهائيا في سنة ١٨٩٧، واكتشف في حوالي نفس الفترة وجود دوافع جنسية غريزية لا تتوقف في ظهورها على الأحداث الخارجية وإنما تصدر عن استعداد طفلي أصيل، وتتجلى في أخيلة تتعلق بالوالدين، تفضي إلى ما يعرف بالموقف الأوديبي. وما كان فرويد ليخطو هذه الخطوة الحاسمة التي فتحت له أفقا جديدا لم يرتده باحث من قبل، لولا التحليل الذاتي الذي شرع في القيام به في السنة عينها، مستعينا في ذلك بتأويل أحلامه، فاستطاع أن يتبين لدى مرضاه ما كان يأبى أن يتبينه في نفسه[٣٥].

وإن المعالجة المنهجية لما قام به فرويد من نقد وتقويم لنظريته الأولى في الجنسية الطفلية وعلاقتها بالعصاب، وعدوله عنها لأخرى، مسألة مفيدة للغاية في إلقاء مزيد من الضوء على الطبيعة المنهجية للتحليل النفسي، ويمكن تلخيص الأمر على النحو التالي:

١ ـ هناك أولا ـ أسلوب التداعي الحر الذي توصل منه فرويد إلى نظريته (المرحلة المنهجية القبلية).
٢ ـ وثانيا ـ وهذه هي النقطة التي نريد أن نبرزها في هذه المعالجة ـ هناك النقد المنهجي الذي يمكن القول بأن فرويد قد لجأ إليه بعد توصله للنظرية الأولى، والذي توصل منه إلى تفنيدها، ثم رفضها بعد أن تم دحضها، ولم يحاول فرويد أن يتمسك بها بعد هذا الدحض الذي أجراه هو نفسه.

إن هذا النقد المنهجي استخدمه فرويد على نحو كامن، أي أنه لم يكن على وعي كامل بدلالة ما قام به في هذه المرحلة الثانية من الناحية المنهجية، فهو اتبع ماطالب به بوبر ـ فيما بعد ـ من وجوب تفنيد النظرية دون أن يدري.

ولكن الدراسة المتأنية لطبيعة التفنيد المتبع هنا تبين لنا أننا بصدد نوع ثان من التفنيد لم يتحدث عنه بوبر [٣٦]، إذ أنه تم دون الحاجة إلى اللجوء إلى تنبؤات مخاطرة Risky predictions تحدد سلفا، وإنما هذا تفنيد منطقي داخلي أساسا، إذ أنه نجم عن النظرية المقترحة نتائج مرفوضة منطقيا أو مشكوك فيها مما أدى به إلى العدول عنها والبحث عن بديل لها.

وثمة مسألة ثانية بالغة الأهمية في فهم طبيعة نظرية التحليل ـ في صورتها الحالية ـ وما ينجم عن ذلك من تفنيد يتسق مع طبيعتها هذه، وذلك يستلزم المقارنة بين طبيعة النظرية التي تم تفنيدها بالفعل، والثانية التي حلت محلها، فالأولى تقول بالغواية الجنسية، أى أن اطارها المرجعي هو الواقع الخارجي وما يزخر به من أحداث. حقيقة أن هذه النظرية تم تفنيدها على نحو وصفه الباحث بأنه تفنيد منطقي داخلي، ولكننا نجد أن النتيجة المنطقية التي تم الاستناد إليها أساسا، وهي الخاصة بوجود عدد من المنحرفين يربو على عدد العصابيين ـ وهي نتيجة مرفوضة ـ إنما تشير أولا وأخيرا إلى الواقع الخارجي، إلى الواقع الاجتماعي الذي نخبره، ولقد اكتشف عقب هذا التفنيد التخييلات بديلا عن الأحداث الفعلية، وبالتالي يصبح الواقع النفسي هنا هو الإطار المرجعي بدلا من الواقع الخارجي، ومن هنا لن يضحى من المعقول أن نفند الفروض الإكلينيكية الخاصة بهذه التخييلات والتي تستند إلى الواقع النفسي بالرجوع إلى الواقع الخارجي، بينما كان ذلك معقولا فيما يتعلق بالنظرية الأولى، إذ أن طبيعة منطوقها تقتضي ذلك، فلقد أضحينا بصدد نظرية ثانية تختلف طبيعتها اختلافا جذريا عن النظرية الأولى، بل وعن اتجاه التفكير السائد وقتذاك، والذي تحت تأثيره قدم فرويد نظريته الأولى سنة ١٨٩٥م، ولكنه أقلع عنها ـ بعد هذا التفنيد ـ وقدم لنا نظريته الجديدة التي جعلت من التحليل النفسي علما تختلف طبيعته عما يتسم به طابع التفكير السائد، وذلك منذ ما يقرب من تسعة عقود، وبعد هذه الفترة الزمنية الطويلة يطالعنا ايزنك وويلسون في علم النفس

في السبعينات من قرننا العشرين هذا بما ينم عن تمسكهما بهذا التفكير التقليدي القديم - الذي صدر عنه فرويد في البداية - وأن يعتبراه الطريق الوحيد للعلم، وذلك في موقفهما التقويمي من نظرية التحليل النفسي[٣١].

أما التعديل الثاني فلندع فرويد يرسم لنا صورة الوقائع المرتبطة به إذ نجده يقول: «في عقدة أوديب كان الليبيدو متعلقا بصورة الوالدين. ولكن كان ثمة قبل ذلك فترة لم يكن فيها مثل هذه الموضوعات. أدت هذه الحقيقة إلى فكرة (ذات أهمية جوهرية لنظرية الليبيدو) عن حالة يملأ فيها ليبيدو المرء ذاته هو ويتخذها موضوعا له. هذه الحالة يمكن تسميتها النرجسية أو حب الذات. ولو تأملنا لحظة لتبين لنا أن هذه الحالة لا تتلاشى أبدا تلاشيا تاما، إذ تبقى «أنا» المرء طوال حياته مستودع الليبيدو الأكبر. منه تصدر شحن الموضوعات، وإليه يمكن أن ترتد الليبيدو عن الموضوعات. وهكذا فالليبيدو النرجسي دائم التحول إلى ليبيدو موضوعي وبالعكس... وبينما كنا حتى ذلك الحين - إذ ننظر في عملية الكبت - نحصر الانتباه فيما هو مكبوت فحسب، أمكن بفضل هذه الأفكار أن نكون فكرة أصح عن القوى الكابتة. كنا نذهب فيما مضى إلى أن الكبت يحدث بدافع غرائز المحافظة على الذات التي تعمل داخل «الأنا» (غرائز الأنا) وأن الغرض منه مقاومة الغرائز الليبيدية. أما وقد تبين الآن أن غرائز المحافظة على الذات هي أيضا من طبيعة ليبيدية، وأنها ليبيدو نرجسي، اعتبرت عملية الكبت عملية تجري في نطاق الليبيدو نفسه، وحيث أن الليبيدو النرجسي يعارض الليبيدو الموضوعي، فإن المحافظة على الذات تقتضي مناهضة مطالب الحب الموضوعي، أي مطالب الجنسية بالمعنى الضيق»[٣١].

وإن القراءة المنهجية لوقائع هذا المثال الثاني التي تختص بما حدث من تعديل في تصور عملية الكبت تطالعنا بنمط ثان من التفنيد، حيث نجد التصور الأول لعملية الكبت لم يخضع للتفنيد على نحو متعمد ومباشر منذ البداية، بل أدى الوصول لحقائق أخرى جديدة إلى تفنيد جزء من هذا التصور وتعديله، أي يمكن القول بأنه تفنيد ناجم عما هنالك من علاقات التأثير المتبادل بين أجزاء النسق بعضها والبعض، وما يتسم به هذا الأخير - أي النسق - من طابع جشتلطي، بحيث أن التغيير الذي أصاب أحد أجزاء النسق لم يقتصر أثره على هذا الجزء فحسب، ونلاحظ هنا أن ما تم دحضه إنما يمثل جزءا من التصور الأول وليس كله، فليس بالضرورة أن يكون كل التصور خاطئا.

لقد كان التعديلان السابقان يتعلقان أساسا بمستوى نظري قريب من الأساس الإكلينيكي من التحليل النفسي، ولكن التعديلين التاليين يتعلقان بمستوى أكثر تنظيرا - وإن كانا يستندان إلى

الأساس الاكلينيكي أيضا، وإن لم يقتربا منه بنفس درجة سابقيهما ـ، فهما يقعان في قمة هرم النسق التحليلي، وهما خاصان بنظرية الغرائز ونظرية الجهاز النفسي[٣٩]، وما حدث فيهما من تعديل، ولندع لاجاش يصور لنا أولا ما هنالك من تعديل خاص بنظرية الغرائز، حيث نجده يلخص لنا النظرية الأولى في الغرائز بقوله: «ظلت النظرية الأولى في الغرائز حتى سنة ١٩٢٠ تقريبا تميز بين الغرائز الجنسية، التي يدل اصطلاح «الليبيدو» على مظاهرها الدينامية، وبين غرائز الأنا. وتقوم هذه النظرية على أساس إكلينيكي بصفة رئيسية هو اكتشاف الدور الذي يلعبه كبت الحاجات الجنسية في نشوء الأمراض العصابية، فالإشباع الجنسي يعارضه القلق ووجدان الاثم والمثل الخلقية أو الجمالية للأنا»[٤٠]، ثم يتحدث عما أصاب هذه النظرية من تعديل مصورا النظرية الجديدة على هذا النحو: «وتقابل النظرية الفرويدية الجديدة في الغرائز بين غرائز الحياة (الجنسية والليبيدو والاروس) وغرائز الموت والعدوان (ثناتوس). وقد اعترف التحليل النفسي منذ البداية بأهمية الكراهية وثنائية العاطفة، ولكن العدوان كان يعتبر لاحقا للصد، وكان يتفرع عن الميول الجنسية. إلا أن تقدم الدراسات الإكلينيكية، ولا سيما الاكتشافات المتعلقة بالوسواس ومرض السوداء (الملانخوليا) أثبت أن العدوان يلعب دورا أعظم شأناً مما كان يظن. وفي كتابه «ما وراء مبدأ اللذة» (١٩٢٠)، استند فرويد إلى ظواهر التكرار (لعب الأطفال، الأمراض العصابية الناشئة عن الصدمات، عصاب القدر، التحويل)، وإلى اعتبارات بيولوجية، في القول بوجود نزعة بدائية للتدمير الذاتي»[٤١].

إن القراءة المنهجية لما ذكرناه الآن تؤدي إلى القول بأننا بصدد مثال من أمثلة اتباع النقد المنهجي وما يتسم به من تفنيد، وذلك فيما يتعلق بقمة من قمم هرم النسق التحليلي النظري، ويتم ذلك كنتيجة لتقدم الدراسات الإكلينيكية ذاتها حيث نجد فرويد يتخلى عن نظريته الأولى في الغرائز، وبعبارة أخرى منهجية معاصرة فإنه ينجم عن هذا التقدم بما يتضمنه من حقائق ووقائع جديدة دحض للنظرية القائمة، فلم يحاول فرويد أن يتمسك بها بعد أن تم تفنيدها على هذا النحو غير المباشر وغير المتعمد.

حقيقة أن النظرية الثانية البديلة لا تحظى بالإجماع عليها، ونجد أن الكثيرين من المحللين النفسيين يقفون من فرض غريزة الموت موقفا يتسم بالتحفظ، ولكن ما يهمنا هنا ـ في هذا الموضع ـ هو ما حدث بالفعل من دحض للنظرية الأولى.

أما الصورة الأخيرة والخاصة بما حدث من تعديل في نظرية الجهاز النفسي فلندع أيضا لاجاش يصور لنا ما يرتبط بها من وقائع، إذ يقول:

النظرية الأولى في الجهاز النفسي

صيغت النظرية الفرويدية الأولى عن الجهاز النفسي صياغة واضحة في «تفسير الاحلام» (١٩٠٠) وهي بإيجاز تميز بين ثلاث كيفيات أو حالات للواقعة النفسية: الشعور وما قبل الشعور واللاشعور...

وقد ظهر نقص هذه النظرية بصفة خاصة على ضوء تقدم تحليل الأنا وحيل الدفاع فهي في الواقع تعتبر اللاشعوري وما وقع عليه الكبت شيئا واحدا. ولكن الخبرة الإكلينيكية تثبت أن نشاط دفاع الأنا ــ في عملية الكبت ــ يكون لا شعوريا بالمثل. ومن ثمة لم يعد في الإمكان التعبير عن عمليات الصراع النفسية والعصابية بوصفها حالات شعورية تتصارع مع حالات لا شعورية، ولم يعد هذا التعارض وحده يستطيع أن يفسر تركيب الجهاز النفسي.

النظرية الثانية في الجهاز النفسي

قدم فرويد سنة ١٩٢٣، في كتابة «الأنا والهى»، أول عرض لنظريته الثانية في الجهاز النفسي، وتنحصر في التمييز بين ثلاث منظمات أو تشكيلات للشخصية: الهى والأنا والأنا الأعلى [٤٢].

ونحن هنا أيضا بصدد تعديل يتعلق بقمة ثانية من قمم نسق الهرم التحليلي النظري، وينجم ذلك أيضا عن تقدم الدراسات الإكلينيكية ذاتها، أي أن التقدم الإكلينيكي بما أسفر عنه من حقائق ووقائع جديدة قد دحض بالفعل النظرية الأولى في الجهاز النفسي على نحو غير متعمد وغير مباشر أيضا، وهنا نجد فرويد لايتمسك بالنظرية بل يتخلى عنها [٤٣]، مدركا وجوب اقتراح بديل لها، وقام بتقديمه لنا بالفعل.

وأخيرا أليس الباحث محقا إذا ما رأى في ضوء هذه المحاولة لفهم التحليل النفسي من الداخل، وقراءته في ضوء الصورة المعاصرة لمناهج البحث وفلسفة العلم أن ما نقابله لدى فرويد من تعديلات دائمة إنما هو نتيجة وانعكاس لما يكمن في فكره التحليلي من اتباع للنقد المنهجي ولمحك التنفيد، وان لم يكن بالضرورة على النهج الذي نادى به بوبر والذي يتسم بالتنبؤات المخاطرة المحددة سلفا، فنحن هنا بصدد صور أخرى من التفنيد لاتجب ما قال به بوبر، وإنما تضاف إليه، وبالتالي يتسع تصورنا للنقد المنهجي ويصبح أكثر شمولا مما هو عليه الآن، ومن هنا فلتعديلات فرويد

الدائمة هذه دلالتها المنهجية إذا ما أحسنا فهمها على نحو لايأخذ من فلسفة العلم فقط، وإنما يعطيها أيضا عطاء منهجيا.

وربما يرجع عدم اتساع وشمول تصور المنهج النقدي لدى بوبر إلى أنه كان يتأمل ما يسمى بالعلوم الإنسانية متخذا من العلوم الفيزيائية إطاره المرجعي، كما أنه قدم لنا فكره وهو يقف أساساً على أرضية ما يسمى بفلسفة العلم، بينما كان فرويد يقف على أرضية العلم ذاته يصنعه ويمارسه.

وإن امعان الفكر في صور التفنيدات هذه ليؤدي بنا إلى السؤال التالي: هل كانت التعديلات الدائمة لدى فرويد ترجع إلى اللجوء للنقد المنهجي ومحك التفنيد فقط؟، إن الإجابة عن هذا السؤال إنما هي بالنفي، إذ أن دراسة التفنيدات الثلاثة الأخيرة من الأمثلة المعروضة تبين لنا أن هذه التعديلات إنما هي ثمرة لتقدم الدراسات الإكلينيكية وما أسفر عنه من حقائق جديدة أدت إلى تفنيد القديم أو أجزاء منه، وبعبارة أخرى إنما هي ثمرة لمكتشفات المرحلة المنهجية الموصلة للنظرية، ومعنى هذا أن هذه المرحلة تحمل في طياتها بذور الاختبار المفند المثمرة. . هذا الاختبار المفند الذي نقابله هنا على نحو غير مباشر وغير متعمد، على حين يتبدى لنا في المرحلة الثالثة في صورة صريحة ومتعمدة ومباشرة، ويتسم التفنيد غير المباشر وغير المتعمد الذي قابلناه لدى فرويد بالإيجابية، بمعنى أنه لايسفر عن دحض النظرية القديمة ـ أو جزء منها ـ فحسب، وإنما يؤدي بنا في نفس الوقت إلى نظرية جديدة بديلة فهو تفنيد مبدع، وتمتاز هذه الصورة من التفنيد عن تلك التي تحدث عنها بوبر وطالب بها، إذ أن مؤدى هذه الصورة الأخيرة اكتشاف مثالب النظرية دون تقديم البديل، ومن هنا نجد تلك النزعة السائدة التي تحتفظ بالنظرية ولا يتم التخلي عنها إلا إذا ماظهر بديلها على الساحة مادام بها من الجوانب الإيجابية ما يمكن من ذلك، بينما نلاحظ في الصورة الأولى أنه تتزامن عملية الدحض مع تقديم البديل، وهذه ميزة كبيرة تتسم بها هنا هذه المرحلة المنهجية.

ويمكن القول بأن هذه الصورة الأولى من الدحض التي نقابلها في التحليل تستند إلى عملية التفسير المنهجية لا إلى عملية التنبؤ، بحيث يمكن أن ندعو هذا الضرب من التفسير بالتفسير الداحض، ولعل هذه الخاصية مسؤولة عن عدم تبين صورة الدحض هذه حتى الآن، إذ أن الدارسين يتوقعون الدحض مرتبطا بالتنبؤ فقط، ولعله على هذا النحو ستلعب عملية التفسير دورا منهجيا جديدا، أو بعبارة أدق نكتشف فيها هذا الدور وان لم نقصره عليها ـ بطبيعة الحال ـ، وفي مقابل ذلك فإن الصورة الثانية من الدحض تستند إلى عملية التنبؤ المنهجية، ويمكن أن ندعو هذا التنبؤ بالتنبؤ الداحض.

ويمكن القول بأن العلاقة بين مرحلة الصدق المنهجية المتعلقة بالتوصل للنظرية ومرحلة الصدق الخاصة بالنقد الذي يختبر النظرية اختبارا مفندا هي علاقة دينامية وجدلية، وان تعديلات فرويد وكذلك مايمكن أن يحققه المحللون المعاصرون من تعديلات أخرى إنما هي ثمرة لهذه العلاقة.

ومرة ثانية فإن هذا ليس معناه الاستغناء عن صورة التفنيد بالتنبؤات المخاطرة وإنما نحن بصدد علاقة إضافة لصور من التفنيد وليست علاقة إلغاء، نكرر هذا منعا للبس، وخاصة بعد أن تبين لنا أن أسلوب التداعي الحر الموصل للاكتشاف يحمل في طياته في الوقت عينه إمكانيات الاختبار المفند غير المباشر والمبدع، في المرحلة المنهجية الأولى، كما أن أسلوب التداعي الحر هو نفسه الذي يتم من خلاله اختبار الفروض في المرحلة المنهجية الثانية، وهكذا يصبح فهمنا له على نحو مغاير لفهمنا إياه من قبل، وحتى يتضح لنا مقدار ما ينطوي عليه من إمكانيات الاختبار هذه نذكر أن مقدار الثابت من التحليل النفسي يتضاءل كثيرا بالنسبة لمقدار التغير والتعديل إذا درسنا تاريخ التحليل، يتضح ذلك إذا ما تأملنا تلك الملاحظة التي ذكرها هلزمان أن وتتلخص في أن ماظل ثابتا في نظرية التحليل منذ عام ١٨٩٤م حتى وقتنا الحالي إنما هو مسلمتان اثنتان فقط (٤٤)، بل يمكن دمجهما في مسلمة واحدة مؤداها القول بحتمية المعنى السيكولوجي للخبرة الإنسانية، وهي جوهر النظرية، وسواء أمكن إضافة شيء آخر إلى هذا الجانب الثابت أم لا فإنه تظل المسألة الأساسية هي ضخامة مقدار التغيير والتعديل الذي لحق النظرية على يد فرويد والآخرين والذي نراه بمثابة انعكاس لمقدار الدحض الذي لحق بالنظرية وتصوير لمقدار إمكانيات الاختبار المبدع لأسلوب التداعي الحر.

وهذا الذي يُذْكَر هنا يعد بمثابة استكمال لصورة المعالم المنهجية للمرحلة الثانية من الصدق - فيما يتعلق بالتحليل النفسي على الأقل - يضاف إلى ما سبق أن ذكر عنها من قبل، والدراسة المتأنية لتاريخ فروع المعرفة المختلفة هي التي يمكن أن تحدد ما إذا كانت الأساليب المختلفة الموصلة للنظرية تحمل في طياتها أيضا الإمكانيات الكامنة للاختبار المفند أم لا ؟

إن القول بهذه الأنواع والصور من التفنيد إنما هو ثمرة للدعوة لاستكشاف طبيعة المنهج في كل دراسة (فرع المعرفة) من داخلها، وتقديم أدلة صدقها من الداخل أيضا في غير عزلة عن التأثيرات الخارجية لفلسفة العلم، حتى يتسنى لنا إدراك الطبيعة الحقة لكل دراسة. ومن خلال محاولات كهذه داخل فروع المعرفة الأخرى يمكن تحديد مدى عمومية أو خصوصية هذه الصور من التفنيد التي قابلناها في التحليل النفسي.

وبعد معالجة الباحث هذه للمنهج لدى فرويد، وذلك في إطار تناوله للمرحلة الثانية والثالثة

من الصدق، فإنه يعود لعرض خلاصة الأمر فيما يتعلق بقضية الصدق حيث وجدنا أنه يمكن تصور ثلاث مراحل للصدق:

١ـ مرحلة صدق موضوع فرع المعرفة.

٢ـ صدق المرحلة المنهجية المتعلقة بالتوصل لفرع المعرفة أو النظرية، والتي تحمل في طياتها الإمكانيات الكامنة للاختبار المفند المبدع، وتستند إلى عملية التفسير المنهجية في صورتها التقليدية وفي صورتها الداحضة (التفسير الداحض) التي تم الكشف عنها.

٣ـ صدق المرحلة المنهجية المتعلقة بنتائج وتفسيرات فرع المعرفة أو النظرية، والتي تتمثل في النقد بمعنى محاولة التفنيد، وتستند إلى عملية التنبؤ المنهجية (التنبؤ الداحض)، وهاتان المرحلتان المنهجيتان تشتركان في الأسلوب العلمي المستخدم (التداعي الحر).

ولعل من الجلي أن هذا التصور للصدق الذي يتضمنه المشروع المنهجي يحقق التوازن بين عمليتي التفسير والتنبؤ دون إغفال أو تضخيم لإحداهما على حساب الأخرى، كما أنه يلقي الضوء على طبيعة كل منهما.

وإذا ما افترضنا احتمال ألا تكون فروع المعرفة على نفس المستوى من الدقة في عصر معين، فإن من المحتمل أن تقف بعض فروع المعرفة عند مرحلة الصدق الثانية دون أن تتخطاها إلى المرحلة الثالثة، وقد تنجح في الوصول إليها في المستقبل.

ومن الواضح أن التصور المقترح لمعالجة قضية الصدق ـ هنا ـ ذا المراحل الثلاث يتسم بازدواجية مرحلية في ذات المنهج، فثمة مرحلة منهجية قبلية وأخرى بعدية داخل نفس الفرع الواحد من فروع المعرفة، وإن عدم التنبه لاحتمال وجود هذه الازدواجية جعل بوبر بعد أن توصل لاقتراح المنهج النقدي بما يعنيه من محاولة الاختبار للتفنيد يغفل عن احتمال توافر مرحلة منهجية أخرى تحكم عملية الوصول للكشف أو التفسير، وبالتالي يكون قفزنا من موقف ـ المشكلة لنظرية مرجحة أولا وليس لأي نظرية كما تبادر إلى ذهنه، فثمة مرحلة منهجية يغلب عليها الكشف، وأخرى لاختباره من بعد، وهذه الازدواجية المنهجية التي يقترحها الباحث لاتنم عن تصور مزدوج لطبيعة موضوع البحث، فإذا كنا بصدد الإنسان ـ مثلا ـ فإنها لاتدل على القول بازدواج طبيعة الإنسان، وإنما هي ازدواجية استراتيجية ـ إن صح هذا التعبير ـ كما أنها ازدواجية ذات طبيعة دينامية جدلية وليست استاتيكية جامدة.

ويؤدي بنا هذا كله إلى القول بأنه إذا تمت معالجة قضية الصدق داخل كل فرع من فروع

المعرفة دون تقييدها في هذه الآونة بالعلمية، أي بعبارة أخرى، فالمشتغلون بفرع المعرفة يقدمون الأدلة على صدق فرع معرفتهم دون أن ينشغلوا مقدما بما إذا كان هذا الضرب من الصدق علميا أم غير علمي، أي أنه لايرتبط ـ مؤقتا ـ بالحكم على فرع معرفتهم بأنه علم أم لا، نقول إذا تم هذا أولا فإن الصورة الناجمة عن هذه الدراسات المنهجية ستؤدي إلى تحديد المشاكل والأسئلة التي نحتاج للإجابة عنها، فهل سنظل وقتذاك في حاجة إلى تحديد ماهو العلم أم لا؟ وإذا ماتبين لنا أننا مازلنا في حاجة إلى ذلك، أليس من الخير كل الخير أن نعد تعريف العلم الذي سنصل إليه وقتذاك تعريفا مؤقتا وغير نهائي؟ إذ أننا لو تجمدنا على تعريف بعينه أو أكثر فإن من المحتمل أن يوصد الباب أمام انبثاق علوم جديدة قد لاتنطبق عليها تعريفاتنا السابقة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فاننا نتساءل هل ستقفز من جديد مشكلة التمييز؟ ربما تكون الإجابة بالإيجاب، ولكننا نأمل أن نكون وقتذاك أكثر حرصا فهناك احتمال ألا تكون عملية التمييز هذه بين طرفين فقط، بل أكثر من طرفين فربما تكون بين علم فيزيائي وعلم إنساني ودراسة إنسانية وعلم زائف، وربما ينبثق المستقبل عن ثلاثة أطراف لاأربعة: علم فيزيائي وإنساني وزائف، ولكن هنا نأمل ثانية أن يكون تحديد هذه الأطراف وقتذاك مؤقتا أيضا بحيث يظل الإحتمال قائماً لأن تظهر على الساحة في المستقبل أطراف أخرى، أما من زاوية عملية التمييز ذاتها فلعل من الواضح أنه اذا ماقبل التصور المقترح للصدق فإن هذا التمييز لن يأخذ في الاعتبار فحسب ماسميناه بالمرحلة المنهجية الثالثة، كما نجد عند بوبر، بل ولن يقتصر على أن يقام استنادا إلى الازدواجية المرحلية المنهجية، وإنما أغلب الظن أننا ينبغي أن نقيم التمييز آخذين بعين الاعتبار المراحل الثلاث جميعا، بما فيها المرحلة الأولى الخاصة بصدق موضوع فرع المعرفة، و آخذين في الاعتبار أيضا احتمال ماينجم عن تباين فروع المعرفة في حظها من الدقة من التوقف ـ ولو بصفة مؤقتة ـ عند المرحلة الثانية من الصدق، ومن ثم فإننا لن نصدر حكما على فرع من المعرفة بعينه بأنه بمثابة علم زائف لأنه توقف عند المرحلة الثانية من الصدق، ولكن سيكون حكمنا أننا بصدد علم وإن يكن حظه من الدقة ـ حاليا ـ أقل من غيره(٤٥)، ولن يقل حظه من الدقة كثيرا إذا ما اتسمت مرحلته المنهجية الأولى بالإمكانيات الكامنة للتفنيد المبدع.

وأخيرا فإننا نتساءل: هل ماقدمناه من تصور عن قضية الصدق كاف فيما يتعلق بفروع المعرفة؟ أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال بالنفي، ولنأخذ الدراسات النفسية كمثال فإننا نجد أنه لما كان موضوعها هو العلاقة بين الأنا والآخر، فإنه ينجم عن هذا أنني كباحث عندما أتناول دراسة الآخر في معمل علم النفس سواء من خلال التجريب أو القياس النفسي، وكذلك في أثناء البحث

الإكلينيكي - في الجلسة التحليلية مثلا - فإنني أدرسه في علاقته بي، فإن كانت تتم على هذا النحو فهي إذن دراسة لم تتنكب موضوع فرع المعرفة، وإن لم تكن فالأحرى بها أن تصحح مسارها، نذكر هذا كله لأنه يؤدى إلى نتيجة هامة هي أنه لاينبغي هنا تناول العملية المعرفية من الخارج فقط، بل ينبغي أن نتناولها من الداخل أيضا، وهنا نجد أنفسنا بصدد صدق الباحث الذي الذي يأخذ صورة صدق الاخصائي النفسي، أو صورة صدق المحلل النفسي أو المعالج النفسي أو المجرب، هذا اللون من الصدق الذي دعاه الباحث بصدق المستبر في بحث آخر حينما تناول بالدراسة قضية صدق الأساليب، الإسقاطية، ويتمثل في نجاح المستبر في استكشاف أعماق النفس الإنسانية لدى المستبر [٤٦].

وفي تقديرنا أن صدق الباحث هو الذي يدعو من يريد أن يشتغل بالتحليل النفسي أن يخبر هو نفسه هذه الخبرة فيحلل نفسيا قبل أن يقدم على تحليل الآخرين.

ويمكن القول في صورة تشبيه يلقى مزيدا من الإيضاح على معالجة قضية الصدق - أنه إذا كان الحديث السابق عن المراحل الثلاث من الصدق يمثل أحد وجهي عملة المعرفة الإنسانية، فاننا نقابل على الوجه الآخر من هذه العملة صورة صدق الباحث.

الهوامش

(١) Popper, K.R. (1972), Conjectures and refutations, London: Routledge & Kegan Paul.

(٢) ولكن من الممكن إذا ما أخذ بوجهة النظر هذه في المستقبل أن يقوم صاحب التصور ذاته بهذه الخطوة في محاولة للتعديل الذاتي لأي تصور مقترح في المستقبل

(٣) وحقيقة الأمر أن الباحث لم يكتف بالاختبار من حيث هو نقد لما قد توصل إليه، بل لقد ناقش تحديد المشكلة من حيث قصور المنهج الموصل إليه (أي أنه ناقش التحديد من زاويتي مرحلتي المنهج القبلية والبعدية، أي أنه يمكن القول بأن التصور المرحلي المقترح - كما سيأتي تفصيله فيما بعد - يمكن تطبيقه لا في مجال العلوم فقط ولكن أيضا في مجال فلسفة العلم ذاتها).

ويمكن القول أنه بالإضافة إلى تفنيد تحديد المشكلة على النحو السابق، فإن هنالك مزالق خطرة يؤدى إليها تحديد المشكلة على هذا النحو، وتتمثل هذه المزالق في النتيجتين التاليتين:

النتيجة الأولى لصياغة المشكلة هكذا أنها قد تحكم بما يشبه الإعدام على علوم وليدة، إذ أننا نجد بوبر قد حكم على التحليل النفسي بأنه أسطورة لأنه لايخضع لمعيار القابلية للتفنيد، ولكننا نجد بعض الفلاسفة والمحللين الذين أتوا بعده قد قبلوا معياره ونجحوا في تطبيقه على التحليل النفسي، وعالجوا المشكلات والصعوبات الخاصة بالموضوع، وقدموا لها حلا على نحو يتسم بالعمق والثراء، ولكي نضع هذه النتيجة في صورة أوضح، فإنه يمكن القول بأن التحليل دخل في السنوات الأخيرة مرحلة استكشاف لطبيعة منهجه، ولهذا فإن هناك خطورة في التسرع في إصدار مثل هذه الأحكام وهو في مرحلته هذه، وهذا ينطبق على جميع الدراسات التي تعيش هذه المرحلة، أو على علوم قد تظهر في المستقبل فتتدها قبل أن يكتمل نموها.

النتيجة الثانية هي عدم توافر ضمان كاف لصواب الحكم، فما الذي يضمن أن فرع المعرفة الذي نحن بصدده لايخضع لمعيار القابلية للتفنيد حقيقة، أو أننا فشلنا في أن نبين هذا الخضوع؟، وما ذكرناه بصدد التحليل النفسي أصدق دليل على هذا.

ومن هنا فنحن في حاجة إلى صياغة بديلة للمشكلة في هذه المرحلة من تطور المعرفة - على الأقل - على نحو يجنبنا هذين المزلقين الخطرين، ويفتح باب المعرفة الإنسانية في المستقبل على مصراعيه، وفي الوقت نفسه يجنبنا، بما يقدمه من ضمانات، أن نقع في غيابة الأسطورة.

(٤) سيقدم الباحث - استكمالا لهذا المشروع - تصورا مقترحا لقضية صدق فرع المعرفة - فيما سيأتي -.

(٥) Klauber, J. (1968), On the dual use of historical and scientific method in Psychoanalysis. Int. J Psychoanal., 49, 80-88.

(٦) Ibid.

(٧) Ibid.

(٨) Flew, A. (1956). Motives and the unconscious. Minnesota studies in the philosophy of science, I. (Minneapolis: Univ. Minnesota Press), cited in J. Klauber (1958).

(٩) مصطفى زيور، تصدير أزمة علم النفس المعاصر، جورج بوليتزير، ترجمة لطفي فطيم، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، العام غير محدد.

(١٠) برنارد نوتكات، ترجمة صلاح مخيمر، وعبده ميخائيل رزق، سيكولوجية الشخصية، القاهرة: الانجلو المصرية، ١٩٥٩.

(١١) Popper, K.R. Ibid.

(١٢) Dalbiez, R. (1941). Psychonanalytical method and the doctrine of Freud. Vol. II. Discussion. - translated by Lindsay, T.F., London: Longmans.

(١٣) محمد رشاد كفافي، سيكولوجية اشتهاء المخدر لدى متعاطي الحشيش، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب من جامعة عين شمس، ١٩٧٣م.

(١٤) Dalibiez, R. Ibid.

(١٥) Wisdom, J.O. (1967). Testing an interpretation within a session. Int. J. Psychoanal., 48, 44-52.
وإن كان النحو المتضمن في نظرية ويزدم يحل المشكلة فحسب بالنسبة للأسابيع الاولى من العلاج، وسنستكمل حلها - جزئيا - فيما بعد.

(١٦) ستتضح لنا - فيما بعد - طبيعة هذا التطبيق لمعيار التفنيد، إذ أنه يتم - فيما يرى الباحث - من خلال محكات الصدق نفسها التي ذكرها دالبييز في إطار من عملية التنبؤ ومن هنا فإن مبعث الرضى منهجيا في الحل المذكور - آنفا - إنما يستند إلى اللجوء إلى عمليتين منهجيتين اثنتين لا إلى عملية واحدة، ونقصد بذلك التفسير والتنبؤ.

(١٧) Dalbiez, R. Ibid.

(١٨) Popper, K.R. Ibid.

(١٩) Ibid.

(٢٠) Wisdom, J.O Ibid.

(٢١) Ibid., p. 45.

(٢٢) Holzman, P.S. (1973). Some difficulties in the way of psychoanalytic research: A survey and a critique. In M. Mayman (Ed.) Psychoanalytic research: Three approaches to the experimental study of subliminal processes. Psychol. Issues. Monogr. 30, 88-103.
يتضح هذا التضخيم لمشكلة الإيحاء في علاقتها بالتفنيد إذا ما أمعنا الفكر في ملاحظة هلزمان من ان - ائث دون

تغيير في تاريخ حركة التحليل منذ ١٨٩٤ هو مسلمتان اثنتان فقط فلو أن للإيحاء تأثيرا ضخما لما تضاءلت نسبة الثابت إلى المتغير إلى هذا الحد، كما أن امعان الفكر في ملاحظة هلرمان هذه يؤدي بنا إلى دحض التهمة التي تلصق بالمشتغلين بالتحليل من أنه قد حدث لهم لون من غسيل المخ أثناء تدريبهم النظري.

(٢٣) Dalbiez, R. Ibid.

(٢٤) Ropper, K.R. Ibid.

(٢٥) Farrell, B.A. (1961), Can psychoanalysis be refuted? Inquiry, 4 (1), 16-36, cited in H.J. Eysenck & G.D, Wilson (Eds.) (1973) The experimental study of freudian theories. London: Methuen.

(٢٦) Ricoeur, P. (1970) Freudian philosophy: An essay in interpretation. New Haven: Yale Univ. Press, cited in H.J. Eysenck and G.D. Wilson (Eds.) (1973) The Experimental study of freudian theories. London: Methuen.

(٢٧) دانييل لاجاش، ترجمة صلاح مخيمر، وعبده ميخائيل رزق، وحدة علم النفس، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٠.

(٢٨) Harrison, S.I. (1970) Is psychoanalysis "our science"? Reflections on the scientific status of psychoanalysis. J. Amer. Psychoanal. Assoc., 18, 125-149.

(٢٩) ويتعلق هذا الحل باختبار الفرض في المجال الإكلينيكي فإذا أردنا أن يتم ذلك - أيضا الميدان التجريبي - كاختبار إضافي - فسنجعل نقطة البداية هنا - أيضا - هي النقطة السابقة عينها على أن نصمم من التجارب ونستخدم من الاختبارات النفسية ما يسمح بالكشف عن المركب الأوديبي خلف جزع الطفل على أبيه، ويمكن على سبيل المثال أن نستخدم اختبار بلاكي الإسقاطي مع التنبؤ بأنه سيبدي خلف هذا الجزع العامل الأوديبي، بل أنه يمكن وضع تنبؤ أكثر تحديدا وأكثر دقة يتلخص في توقع ظهور البند الخاص بالاستغراق الأوديبي المقنع Disguised Oedipal Involvement لدى الأطفال الذين يظهرون جزعا على آبائهم، بينما نتوقع ظهور البند الخاص بالاستغراق الأوديبي غير المقنع Undisguised Oedipal Involvement لدى الأطفال الذين يبدون عدوانا تجاه آبائهم.

(٣٠) Mayman, M. (1973), Introduction: Reflections on psychoanalytic research: three approaches to the experimental study of subliminal processes. Psychol. Issues, Monogr. 30, 1-10.

(٣١) أنظر الجزء الثاني من «تخطيط لسيكولوجية علمية» الملحق برسائل فرويد إلى «فلهلم فليس» S. Freud: La naissance de la psychoanalyse Lettere a W. Fliess, notes et plans, 1887 - 1902. Presses Universitaires de France, Paris 1956.

(٣٢) S.Freud: further remarks on the defence neuro-psychoses (1896) Collected Papers, I.

(٣٣) S.Freud: La naissance de la psychoanalyse, P. 191.

(٣٤) Ibid., p. 192

(٣٥) سامي علي، كلمة المترجم، سيجموند فرويد، ترجمة سامي علي، مراجعة مصطفى زيور، ثلاث مقالات في نظرية الجنسية، القاهرة: دار المعارف ١٩٦٣، ص١٥-١٧

(٣٦) Ropper, K.R.. Ibid.

(٣٧) Eysenck, H. J. & G. D. Wilson (Eds.) (1973). The expermintal study of freudian theories. London: Methuen.

سامي علي، المصدر السابق، ص ٢٠-٢١.

ولعل من الملائم هنا أن نذكر تلك النقطة التي أشار إليها د. سامي علي والتي تتصل بمشكلة الصدق في التحليل حيث نجده يقول: " . . . ولكن نظرا للصعوبات التي واجهت الدراسات التجريبية التي أجريت على فروض التحليل النفسي المختلفة، أحب أن أشير إلى نقطة تتصل بمشكلة الصدق في التحليل النفسي لم تلق من جانب الأخصائيين اهتماما كافيا، فالحق أن التحليل النفسي، بما هو منهج علاجي، يتضمن معيارا باطنيا للصدق لاينفصل عن عملية ارتياد جوانب النفس ذاتها، فالمحلل لايسأل: ما الذي يضمن لي أن مايحكيه المريض الآن عن طفولته مطابق للواقع، علما بأن هذا الواقع قد اندثر منذ أمد بعيد؟ وإنما يسأل: أى دافع يدفع المريض إلى أن يصور طفولته هذا التصوير الذي يجعل منه ضحية لوالده مثلا ؟ بمعنى أن السؤال لاينصب على الواقع بل على القوى - الشعورية واللاشعورية - التي تزيف هذا الواقع في خبرة الفرد الحاضرة . . . . ولنمض إلى أبعد من ذلك: فإن المحلل النفسى لايهتم بمطابقة أقوال المريض لموقف واقعى فى حاضره أو ماضيه لأن التحليل النفسى إنما يقوم أصلا على تعليق كل حكم وكل تقويم على صلة بالواقع الذى يعيشه الفرد في خبرته الحية حتى يتسنى له أن يبرز مسؤولية الفرد بالنسبة للعالم وبالنسبة لنفسه. ومطابقة أقوال المريض "للواقع" لاتتضمن بالضرورة أنه يقول الحق، بل قد تعنى بالضد أنه يسعى إلى التمويه على الذات وتغطيه مالايود التصريح به لنفسه. . . ومن ثم يجب التمييز بين الواقع. والحقيقة والتنبه إلى أن التحليل النفسي يستهدف الحقيقة ولا يتوسل إليها بتحليل منوع الحيل التي يحتال بها الشخص على إخفائها أو تشويهها، ومن ثم فإن الواقع لايتبدى إلا لماما في خاتمة المطاف أن يعدل الفرد عن تصوره الزائف لنفسه وللآخرين أي بعد أن ينتقل انتقالا وجوديا من الكذب إلى الصدق، وبهذا المعنى يختلف التحليل النفسي عن العلوم الانسانية الأخرى اختلافا جوهريا في النحو الذي يضع عليه مشكلة الصدق، وفي المنهج الذي ينتجه في حلها.

(٣٨) سيجموند فرويد، ترجمة مصطفى زيور، وعبدالمنعم المليجي، حياتي والتحليل النفسي، القاهرة: دار المعارف ١٩٥٧، ص٦٥-٦٦.

(٣٩) لايستهدف الباحث فيما يلي أن يقدم عرضا كاملا لهاتين النظريتين، وإنما يرمي إلى أن يعرض منهما بالقدر الذي يحقق هدفه المنهجي.

(٤٠) دانييل لاجاش، ترجمة مصطفى زيور، وعبدالسلام القفاش، المجمل في التحليل النفسي القاهرة: النهضة المصرية١٩٥٧، ص٤٦.

(٤١) المصدر نفسه، ص٢٠-٢١.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٥٩-٦٠.

(٤٣) وكذلك وجدناه قد فعل في المثال الأول، أما في الثاني فلقد تخلى عن ذلك الجزء الذي تم دحضه فحسب، فليس من الضروري أن تكون كل النظرية أو كل التصور خاطئا.

(٤٤) Holzman. P.S. Ibid., p. 92

(٤٥) Lakatos. I. & Musgrave. A. (1970). Criticism and the growth of knowledge. Combridge Univ Press. cited in H.J. Eysenck & G.D. Wilson (Eds.) (1973).

Meehl. P.E. (1973). Some Methodological reflections on the difficulties of psychoanalytic research. In M. Mayman (Ed.) Psychoanalytic research: three approaches to the experimental study of the subliminal processes. Psychol. Issues. Monogr 30. 104-117.

يشير أيزنك لما أسفرت عنه الندوة العلمية التي ناقشت موضوع النقد ونمو المعرفة من بيان للصعوبات الجمة عند تطبيق معيار بوبر هذا كمحك أساسي للتمييز بين النظريات العلمية وغير العلمية، فالتنجيم Astroleqy وفراسة الدمغ Phrenology قابلان للدحض والتفنيد، ولكن هذا لا يعني أننا بصدد نظريتين علميتين أو أن المشتغلين بهما يدخلون في زمرة العلماء، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن مسألة أخرى طرحت على بساط البحث يمكن تحديدها في السؤال التالي: هل يتم التخلي عن النظرية حقيقة حينما يتم تفنيد القضايا المستنبطة منه؟ لقد بين المشتركون في هذه الندوة بوضوح أن جميع النظريات تضم في ثناياها صورا من الشذوذ عديدة Anomalies يبدو أنها تدحض النظرية، ولكن هذه الأخيرة تظل باقية بالرغم من ذلك، فمعيار القابلية للتفنيد إذن ليس مقبولا كمحك للتمييز في صياغته البسيطة هذه، وهو في حاجة إلى أن يعد بصورة أكثر صقلا، وكذلك نجد أن ثمة شكوى من أن التطبيق الصارم للغاية لما جاء به بوبر سيؤدي إلى عدم الاحتفاظ ببعض النظريات الجيدة.

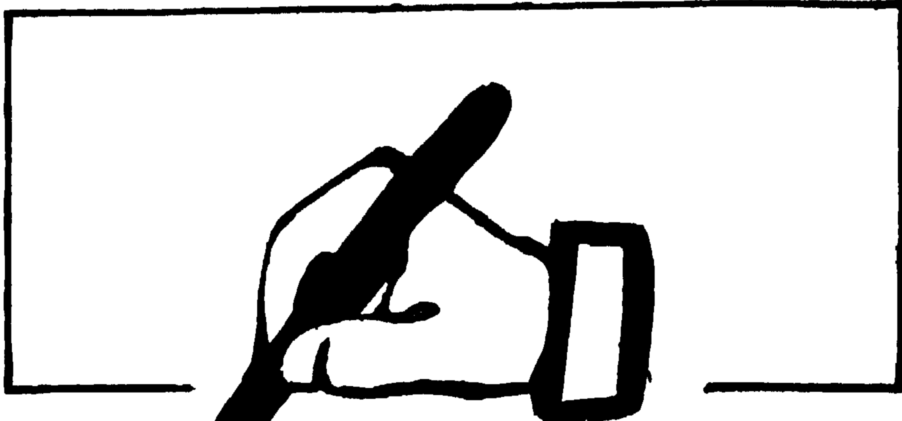
وهذا الوضع وما يرتبط به من نتائج إنما هو ناجم في المحل الأول عن تحديد المشكلة على هذا النحو السابق، أعني التمييز Demarcation بين العلم وما عداه، وإن استبدال هذا التحديد بالتحديد الجديد المقترح على أنه صدق فرع المعرفة سيؤدي الى وضع المسألة برمتها في إطار جديد، وخاصة بعد أن استبان لنا أن محك بوبر - في حقيقة الأمر - انما هو محك عام للصدق.

(٤٦) محمد رشاد كفافي، المصدر السابق. إن تحديد المشكلة على أنها الصدق وما يرتبط بذلك من تصور ثلاث مراحل لصدق فرع المعرفة، بما يتضمنه ذلك من ازدواجية مرحلية منهجية داخل نفس الفرع الواحد ليقدم حلا للوضع الذي نجم عن طرح بوبر للمشكلة على أنها التمييز وما اقترحه من محك القابلية للتفنيد، إذ أننا عندما ننظر لفرع المعرفة من زاوية مدى ما يتسم به من صدق - يقيم الدليل عليه - لكل مرحلة من المراحل الثلاث فستكون هناك فرصة للإبقاء على هذا البعض من النظريات الجيدة، بل وتحديد مدى جودتها طبقا لما تنجح في تقديمه من أدلة صدقها في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث.

ويمكن القول أيضا بأن هذا التحديد المقترح للمشكلة يعطي فرصة أفضل للحكم على الفروع الكاذبة كالتنجيم -

مثلا ــ بالرغم من قـابليتها للتفنيد، إذ أننا في هـذه الحالة سنطالبهـا بتقديم أدلة صـدق موضوعها وصـدق المرحلة المنهجية الثانيـة الموصلة للنظرية، وصدق المرحلة المنهجيـة الثالثة الخاصة بالاختبـار المفند لها، ومن ثم سيتسنى لنا الكشف عن زيفها على نحو أدق، ومنذ الخطوات الأولى لها .





شخصيات وآراء

- جولة في أدب رحلات د. هـ لورانس
- دعوة يوسف إدريس إلى مسرح مصري

دراسة في أدب رحلات د.هـ لورانس

د. أمين العيوطي *

* أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية

مدخل

ربما لم ينتبه أحد في وقت مبكر إلى قبح الحضارة الصناعية والتلوث الذي تحدثه في البيئة والإنسان معا مثلما فعل د. هـ. لورانس ـ ففي جانب من العالم الذي يقيمه في رواياته نجد أنفسنا نتحرك في عالم التعدين والصناعة. وهو عالم تترد في مناجمه ضربات المطارق، أصوات الانفجارات التي تودى بحياة العمال، قعقعة الآلات الدوارة وصليل غرابيل الفرز، وتفوح فيه رائحة الأبخرة والأدخنة والحديد والكبريت، وتقوم فيه بيوت العمال صفوفا متعرجة بنيت على عجل بأسقفها الإردوازية عالما من الكآبة والقبح، وتدوي فيه صفارات السكك الحديدية التي شقت لها الأنفاق وسط المرتفعات وتعقدت شبكاتها وتداخلت وسط المدن، ويحط فيه الهباب على الأشجار والأزهار فيحرقها كأنه منٌّ أسود من سماوات المصير " يشوه الأرض كما لو كان تحذيرا من الآلهة، كما تقول كلمات ليدي تشاترلي الأولى (ص ص ١٨، ٦٠، ٦١). *

مثل هذا القبح وهذا التلوث ينعكسان على البشر فيلوثان عقولهم ووجدانهم. فالمشكلة الصناعية تنبع، كما يقول لورانس في مقالات مختارة من "إرغام كل الطاقة البشرية على الدخول ـ منافسة من أجل مجرد التملك. "(ص ٥٠) وعندما يتقلص الهدف الإنساني إلى مجرد التملك فإنه ينحط إلى مجرد آلية ميكانيكية، أو كما يقول "عندما تدخل الآلية أو المادية الصرفة فإن النفس البشرية تدور آليا حول محور، ويسقط أشد المخلوقات تنوعا في تناغم آلي عام. "(ص ٩٤) ولا يقف أثر الحضارة الصناعية على الفرد، بل يمتد ليشمل المجموع. ويوجز لورانس هذا الأثر العام في قوله في نفس الكتاب:

* الأرقام الموجودة بعد الاستشهادات هي أرقام الصفحات في الطبعات المذكورة في قائمة المصادر في آخر البحث.

لقد دمرت حضارتنا . . . الانسياب الطبيعي للتعاطف المشترك بين الرجال والرجال، والرجال والنساء. وهذا هو ما أريد أن أعيده إلى الحياة. (ص ص ١٠٠ ـ ١٠١) ولعل شيئا من هذا التصور قد دفع شيللي وبيرون قبله إلى الهجرة من إنجلترا، كما دفعه هو بعد ذلك إلى الترحال الدائم. لكنه دفعه إلى أكثر من هذا حين أقام في خياله أرض أحلام يتحقق فيها التخلص من كل قيم المجتمع الصناعي المادية، وكسر حاجز الفردية بتحقيق نوع من التوحد بين البشر رجالا ونساء وإحياء غريزة الحياة في الإنسان وهي الجانب الطبيعي الذي طمرته الحضارة الصناعية المادية. وفي أحد خطاباته إلى ليدي أو تولين، يكتب لورانس عن تصوره لهذا المجتمع كما يلي:

أريد أن أكوّن نواة مجتمع جديد يبدأ حياة جديدة بيننا ـ حياة يكون الثراء الوحيد فيها تكامل الشخصية. بحيث يحقق كل واحد طبيعته ذاتها ورغباته العميقة إلى أبعد مدى، لكن حيث يكون الإشباع والمتعة كاملين رغم هذا في تكاملنا جميعا كشخص واحد. . . . ويتوقف هذا المجتمع الراهن، في حدود كونه شيئاً له هيكله، على العديد من الوسائل التي تحول دون أن تخذلنا الخسة التي توجد في أنفسنا أو في جيراننا (ص ٢١٩).

ويواصل د. هـ لورانس مبرراً أسبابه للتفكير في إقامة مثل هذا المجتمع الجديد قائلا في نفس الخطاب إن سكان هذا المجتمع سوف يكونون متحررين من الصراع في سبيل المال أو السلطة، ويطرحون جانبا مخاوفهم التي جلبتها الحرب العالمية الأولى.

تقوم أرض أحلام لورانس، أو المجتمع الذي كان يريد إقامته، على تحقيق الذات على مستوى العلاقة بين الرجال والرجال أو بين الرجال والنساء. ولما كانت المرأة في نظره تمثل الطبيعة الجسدية والعاطفية، وكان الرجل يمثل الطبيعة الروحية، فإن تحقيق الرجل لذاته في الحياة يقوم على الاشتراك في نشاط هادف جماعي مع الرجال الآخرين. لكن مثل هذا التحقيق يصبح مستحيلا ما لم يشعل الإشباع الجنسي أولا روحه المشبوبة. إيجابية الرجل في الحياة تضرب بجذورها في علاقته بالمرأة أولا. هذا هو أحد المفهومات الأساسية التي كان لورانس يرمي إليها طوال حياته. ففي الروايات التي سبقت كتابه فانتازيا اللاشعور (أبناء وعشاق، قوس قزح، نساء عاشقات) كان يخاطب تجارب الرجال، وفي الروايات التي تلته كان يحاول التعبير في صياغات فنية عن تصوره لمجتمع صحيح كما في عصا هارون، الكونغر، الثعبان المجنح.

كانت كراهيته للحضارة الصناعية وقيمها العقلانية المادية هي مادفعه إلى التفكير في إمكانية قيام مثل هذا المجتمع الجديد، وما زوده بمادة لتصوره لمجتمع لامكان فيه لفساد عصره وتحلله وعدم

استقراره، وفي عـدد كبير من رسائلـه يعود إلى الحديث عن هـذا المجتمع. وسواء اتجه بعـد أن غادر إنجلترا في عام ١٩١٩ إلى ايطـاليا أو أستراليـا أو الهنود الحمر فقـد كان مـدفوعـا، في رأي م. مري، برغبتـه في إقامة ثقـافة جديـدة في أجزاء من العالم لم تصل إليهـا يد المدنية. (ص ١٦٩) كـان الحافز الرئيسي لرحيله عن انجلترا وترحاله شرقاً وغرباً هو أنه، كما يرى ستيفن سبندر في العنصر الخلاق.

رحل ليقيم مستعمرة في أرض لم تستكشف. ومن الخطأ أن ننظر إليـه على أنه "هروبي" يهرب من أوروبـا، في محاولة لأن ينسى وعيـه الحديث التعس في رقصات الهنـود المكسيكيين. فقد كـان في الواقـع مشغولا بـاكتشاف مناطـق يمكن أن تزدهـر فيها الحيـاة وتنزع فيهـا الحضـارة أكفـان ما أسماه "الوعي الدماغي" (ص ٩٤).

رحلات لورانس

غير أنه من الصحيح أن لورانس كان لديه ولع بالسفر قبل أن يغادر انجلترا نهائيا ويبدأ ترحاله الواسع المدى. فقد سـافر إلى ايطاليا عبر سويسرا قبل الحرب الأولى في عام ١٩١٢م. كـان يريد أن يلقي نظرة على ثقافـة قديمة. وكانت التجارب التـي مر بها في تلك الرحلة موضـوع كتابه الشفق في ايطاليا. وقـد أحب ايطاليـا. فعلى الرغم مـن حرصهـا على تصنيع الحياة البشريـة وتحويل البشر إلى آلات، ومن تحولها عن الـروحانيـة إلى النظـام الصناعي البـارد القـاتل، الا أنها كانت لاتـزال تحتفظ ببعض الحيوية التي تفتقر إليها البلدان الصنـاعية. والحقيقة، كما يقول ريتشارد أولدنجتون في صورة عبقرى "الحقيقـة أن لورانس كـان يفكـر في كتـابة خمسـة كتب عن القـارات الخمس" (ص ١٠٩) ويكشف الاستشهاد التالي عن انشغاله بهذا الموضوع في دراسات في الأدب الكلاسيكي الأمريكي.

إن كل قارة لها روح المكـان العظيم الخاص بها وكل شعب مستقطب في محلية مـا معنية، هي الوطن، أرض الـوطن. والأماكن المختلفـة على سطح الأرض لها فيض مختلف، ذبذبـة مختلفة، زفير كيميـائي مختلف، استقطاب مختلف مع مختلف النجـوم: سمّه مـاشئت. لكن روح المكان حقيقـة عظمى (ص ١٢).

كذلك اتجه لورانس إلى كتابة أدب الرحلات، لأنها كانت توفر له شطحاته الفكرية الصريحة. ففي عام ١٩١٧ كتب إلى جون ميدلتون مري يقول في أحد خطاباته:

. . إن الفلسفة هي أشد مايثير اهتمامي الآن ـ لا الروايات ولا القصص . إنني أجد الناس مملين في النهاية : ولا يمكنك أن تكتب رواية بدون ناس . ولذا فإن الرواية ، أساسا تثير اهتمامي . لقد مللت البشر والأشياء البشرية . وأنا أشعر بالسعادة مع الأفكار التي تسمو فوق البشرية (ص ٤٠٩) . وحتى في الروايات التي كتبها بعد ذلك استغل لورانس البلدان التي زارها كمناظر خلفية لفلسفته ، وقد أضمته رحلاته أفضل أعماله الروائية نضجا ، وهو يجد نفسه رحالة يستكشف بلادا بعيدا عما كان يعتبره "مصير أوروبا ، " كان يعتقد أن قدره أن يعرف العالم لكنه كان من صفاته أن يبدأ بحب مكان ماقبل أن يدفعه قلقه الدائم إلى النفور منه . كان ذلك نتيجة طبيعية لحقيقة أنه يبدأ بإسقاط ذاته على المكان أو البيئة الجديدة . وكان مقياس حبه أو نفوره هو مدى قرب المكان لأرض أحلامه أو بعده عنها .

رحل لورانس عن انجلترا بشكل نهائي في نوفمبر ١٩١٩ . غير أنه لم يذهب إلى أمريكا مباشرة ، حيث كان من المفروض أن يلقي عدة محاضرات عن الأدب الأمريكي كتبها وهو يقيم في كورنوول في أثناء الحرب . لكنه ظل يأمل أن يذهب يوما ما . ففي خريف ١٩١٩ كان يستعد للرحيل إلى ايطاليا . لم يكن يشعر بالمرارة لرحيله عن انجلترا وهي البلد التي أساءت إلى كتاباته ، وإليه هو شخصياً حين اتهموه في أثناء الحرب بالجاسوسية بسبب زوجته الالمانية . وهي البلد الذي أرسى دعائم الصناعة أولاً وأخيراً .

شق طريقه عبر أوروبا إلى ايطاليا حيث لحقت به زوجته . ومن هناك اتجه إلى كابرى لأن صحته لم تحتمل برد جزر أبروزى . راقت له المناظر الطبيعية التي كان يشعر بنفسه وسط مناظرها المفضلة . أحب جمال المكان الطبيعي على الرغم من مهاجمته للسكان في خطابات تلك الفترة . فسرعان ما اتضح له أن كابري " وعاء يغلي من قطط شبه أربعة " : (ص ٤٧٩) وهرب إلى مونت كاسينو . في تلك الفترة كتب روايته **عصا هارون**، مسجلاً فيها تجاربه ومغامراته منذ أن غادر انجلترا . بدأها في ١٩٢٠ وختمها في ١٩٢١ .

وما أن تمكن منه قلقه القديم مرة ثانية حتى استقرّ رأيه على الذهاب إلى صقلية ، ومن هناك اتجه إلى ساردينيا . وخلال ستة أسابيع كان كتاب رحلاته الأول البحر وساردينيا قد انتهى أيضا في ١٩٢١ . وسرعان ما شعر بالملل من إيطاليا . وعلى الرغم من أنّه كان قد وعد أخته بزيارتها ، إلا أنّه لم يستطع أن يعبر القنال ، لأن انجلترا كانت "عاطفية مفرطة من الوحل"! (الخطابات ص٥١٢ ، ٥٣٠) وفي تلك الأثناء وصلته رسالة من سيدة أمريكية معجبة بكتاباته كانت تقيم مستعمرة للفنانين وترى لورانس مكسبا لا يقدّر بمال في هذا السبيل .

ففي نوفمبر ١٩٢١ كتب إلى ت. كارسويل يخبره فيه أن سيدة تدعى ميبل دودج قد كتبت إليه من تاوس، نيومكسيكو، تقول: إنها قد أثثت بيتا من اللبن له ولزوجته فريدا، وكل ما يشاء، لو أنه فقط ذهب، ولا شك أنّ تلقّي مثل هذا العرض السخي كان فيه إطراء لغرور لورانس. فقد ظل يحلم بالذهاب إلى أمريكا منذ ١٩١٦. كانت رواياته التي تصادر في إنجلترا تستقبل استقبالا طيبا في أمريكا، إلى حدّ أن ناشره الأمريكي كان شديد الحماسة لأيّ شيء يكتبه. لكنه في الواقع لم يكن يفكّر في أمريكا بل في قبائل الأزتك والهنود الحمر في سحر أسلوب حياة منسي. وهكذا استقرّ رأيه على الذهاب إلى أمريكا، فقد يتضح أنّها المكان الذى كان يبحث عنه. حين كان في صقلّية كان يفكر في أفريقيا القارة المظلمة. لكنها كانت نزوة عابرة. وفي صقلّية واجه نفس الموقف الذي واجهه في إيطاليا، ما إذا كان الناس قادرين على مقاومة موجة النظام الصناعي طويلا، أو ما إذا كانوا قادرين على الوقوف في وجه موجة الوعي العالمي الجديدة.

وهكذا استعدّ لورانس للذهاب إلى المكسيك، لاستكشاف أساليب حياة جديدة، كان متشككا في احتمال العثور على المملكة التي يبحث عنها. بدا له العثور على قوم يؤمنون بآرائه أو يعيشون الحياة التي كان يتخيلها كاملة أمرا مستحيلا. ولكن من المثير للاهتمام أنه وصل إلى الاقتناع في تلك الفترة باستحالة العودة إلى عالم ما قبل الصناعة.

"لا يمكن للمرء أن يرجع." كان هذا هو الإدراك الذي يعاني منه لورانس بحدّة وهو في مونت كاسينو. كانت دروب الهروب مغلقة. فكما لم يكن هناك عودة إلى عالم ما قبل المسيحية، كذلك لم تكن هناك عودة إلى المسيحية: فلا الوثنية ولا الكنيسة كانت تعرض طريقا للخلاص (مرى، ١٦٥).

تردّد لورانس طويلا قبل أن يذهب. وأخيرا وصل إلى قرار أن يذهب إلى الغرب عن طريق الشرق. كان يريد استكشاف الحياة في الشرق التي كانت تبدو صوفيّة غامضة، فقد كان موقف الشرق السلبي من الحياة هو نقطة انطلاق الغرب، وكان يرغب في التحرك بين هذين القطبين السلبي والإيجابي، وهو ما يتضح في رسالته إلى ت. كارسويل.

.... أظن أنّ المرء يجب أن ينسحب من العالم، بعيدا باتجاه الحقائق الداخلية الحقيقية، وأن يعود ربما، إلى العالم فيما بعد، عندما يكون الواحد هادئا وواثقا. لقد تعبت من الحياة، وأريد السلام مثل نهر... أنا لا أعتقد في التراخي والتأمل البوذيين لكنني أعتقد أنّ السلام البوذي هو النقطة التى أبدأ منها ـ لاغيظنا وشجارنا الحادّين (ص ٥٣٤)

وكان في نفس الوقت قد عبّر لصديق في سيلان عن رغبته في الحصول على مزرعة صغيرة يعيش عليها وحده في نيومكسيكو، لأن الرّغبة في الابتعاد عن البشر، أو الرغبة في أن يكون ناسكا، كانت أسمى رغباته في تلك الفترة.

والحقيقة أنّ السفر كان يخفف عنه عناء التوتّر والضغط اللذين كان يعاني منهما في أوروبا. ويوجز لنا خطاب كتبه الى روبرات بارلو تجربته منذ أن رحل عن انجلترا:

... إننا نخطىء حين نهجر انجلترا، وننتقل إلى المحيط الخارجي للحياة. فإن تورمينا، سيلان، أفريقيا، أمريكا، في حدود ماتذهب إليه، هي في نهاية الأمر نقيض ما نمثّله نحن وما نكوّنه: إننا أشبه بيونس ونحن نهرب من المكان الذي ننتمي إليه. هذا هو الاستنتاج الذي يفرض نفسه علي... إنني أعتقد أنّ مفتاح الحياة الأكثر حيوية يكمن فينا نحن الانجليز والخطأ الكبير الذي نقترفه هو ألاّ نتحد معا في قوة المفتاح الحي الحقيقي. وهو ديني بمعنى حيوي... وأعتقد أيضا أنّ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بصفتها مؤسسة، إذا أدخلت عليها بعض "أشكال التكيّف الجديدة مع الحياة، قد تكون مرة أخرى مفيدة بشكل لا يقدّر بثمن في إنقاذ أوروبا، لكن لا بصفتها سلطة سياسية مجردة، (ص٥٣٤) عندما وصل لورانس إلى استراليا وجدها بلدا لامكان فيه للحقد الطبقي أو الوعي الطبقي اللذين كان يمقتهما في البلدان الصناعيّة في أوروبا. كان الناس يتمتّعون بحرية خاوية، بلا إحساس بالمسؤولية. فاستاء من عدم وجود أيّ معنى داخلي، إذ بدت ذاته الداخلية الحقيقية كما لو كانت تذوى. لكنه على أيّة حال بدأ روايته الكونغر في استراليا وأنهاها فيما بين مايو ويوليو ١٩٢٢.

غير أن "الوحش القلق الباحث" (ص٥٣٤) فيه سرعان ما دفعه إلى مغادرة استراليا إلى المكسيك. وهناك عاش حياة سهلة، يركب الجياد، ويمتلك مزرعة خاصة به قدمتها له ميبل لوهان، حيث كان أقرب ما يكون إلى أرض أحلامه وهو يحلب الأبقار، يقوم بأعمال النجارة، يشاهد الطقوس الدينية المكسيكية التي كانت تفسر له (ص٥٥١) وبالنسبة لرجل متحضّر له ذلك الوعي، لم تكن الطقوس تعني له شيئا. قد تنطوي على حقيقة ما، لكنها كانت مجرد نقطة انطلاق. أما هو، بوعيه الأوروبي، فقد قطع شوطا أبعد من ذلك، كانت وجهة نظره أنّ على أوروبا أن تتعرف على درب مفقود تعني أن على أوروبا أن تعود إلى وعي الدم أو اللاوعي كان ذلك في رأيه، خطوة أساسية يجب اتخاذها للوصول إلى فهم كامل للحياة المعاصرة. فبمثل هذا الربط بين الماضي والحاضر، تنقضي رؤية البشر للحياة على أنها شيء جزئي، وتبدو الحياة كلاّ متكاملا، ويبدو المجتمع كلاّ متكاملا، وإذا كان لورانس قد كتب كتاب الصباح في المكسيك وراوية الثعبان المجنح عن المكسيك، فلم يكن ذلك

إلاّ لأنّ نوع الحياة التي صوّرها في ذلك الكتاب كـان الجذور التي انبثقت منها الحضارة الحديثة. فقد صّور أسلوب الحياة البدائية التي كان مهتما بها قبل رحيله عن انجلترا.

وقد جـانب ج. م. مرى الصـواب حين افترض أنّ لورانس كان يبحث عن الـلاعقلانيـة فقد وصل لورانس إلى استنتاج بأنّه لا عودة إلى البدائية، بعد أن قطعت النفس الأوروبية والروح الأوروبية شوطا بعيـدا عن ذلك. كان العالم البدائي الـلاعقلاني مجرّد بداية يجب الاعتراف بها. فـالهنود الحمر يمثلون النقطة التي بدأ الأوروبيون منها مشوارهم الطويل. ولكن كان لابدّ من إعادتها إلى وعي العالم المتحضر الذى يجب أن يكون واعيا بماضيه. لم يكن يعنى أنّ على البشر أن يعيشوا الماضى مرة أخرى، ولكن عليهم أن يكـونوا واعين بـالتقليد الذي يـربطهم بالماضي. فهـو يقول معلقـا على التراتيل التي سمعها في مقالات مختارة.

لم تكن لي وكنت أعرف ذلك. أنّ النفس قـديمة قـدم أقدم يوم، وبها أصـداؤها التي صمتت ومفهوماتها القبلية الخاصة بها التي غاصت واندمجت. لسنا بحاجة إلى أن نعيش الماضي مرة ثانية. إن أكثر أنسجتنا ظلمة مجدولة في هذه التجربة القديمـة، وقد جاء دمنا الحار من النار القبلية القديمة. ولا يزال نسيجنا ودمنا يتذبذبان مستجيبين. لكنني أنا، أنا الواعية، قد قطعت دربا طويلا منذ ذلك الحين. وحين أنظر إلى الخلف، مثل ذاكرة رهيبة رهبة سفك الـدماء، فإن الوجوه السمراء كأنّها النار فى الليل والدم الواحد يدقّ فيّ وفيهم. لكنني لا أريد أن أعود إليهم، آه، أبدا... أنا لا أريد مطلقا أن أنكـرهم أو أن أنفصل عنهم. لكن ليسـت هنـاك رجعـة. إلى الأمـام دائما، وإلى أبعـد من ذلك (ص١٩٧).

كان يـريد العودة إلى الوراء ليتمكّن من فهم حـال العالم الحديث كحلقة فى سلسلة الـوجود. فلو انفصمت هـذه الحلقة عن الحلقـات التي تشدّهـا، لكانت النتيجـة حالة التحلّـل التي رآها في العصر كله.

كان لورانس يفضّل البقاء في المكسيك، لولا أنّ زوجته رحلت إلى أوروبا، وصحّته قد تأثرت، كما تسلم خطابا من مـرى يخبره فيه أنّه كان على وشك إصدار مجلة جـديدة "دلفى"، وأنّ لورانس لم يكن ليسـاهم فيها فقط، بـل يديـرها. وعـد أن يعـود. لكنه وجـد العـودة إلى انجلترا أمرا صعبـا. (الخطـابات، ٥٦٨) لم يكن بـوسعه أن يـذهب إلاّ بنفس منشرحة. ولم يكن قـادرا على التغلب على شعوره بأنّه "قد ابتلع كتلة من الرصاص" ولم يكن ليعود حتى "تهضمها بطنه." (٥٧٤) ومع ذلك

فقد اضطر في ١٩٢٣ أن يلحق بزوجته دون أن يكمل الثعبان المجّنح . غادر مكسيكو إلى نيويورك ، لوس انجيلس ، ثم عاد إلى مكسيكو ومنها إلى لندن .

غير أن الفنان فيه لا يزال بحاجة إلى المكسيك لينهى روايته . فعاد ثانية رغم عرض مرى . وفي ديسمبر ١٩٢٣ كتب إلى أحد أصدقائه يقول :

كيف هـذا ؟ لقـد كتبت إليك ، لاتعـد إلى أوروبـا ، إنّها فظيعـة . إنني أكـره أن أكـون هنـاك ببساطة . إنّ نيو مكسيكو أفضل بكثير (٥٨٩) فطالما ظلّت أوروبا مصرة على أسلوب حياة بال ، دون أن تتعرف على الدرب المفقود ، لم يكن لورانس ليحتملها . فعاد إلى مزرعته بالمكسيك . سوف يقوم هو بالتعـرّف على الدرب فقد كـان يعشق هنا السموّ الـروحي الذي يأتي من العيش في أحضـان الطبيعة البرية .

لكنـه أرهق نفسـه بـالعمل فى المزرعـة ، فأصـابتـه نـوبـة من مـرض السلّ الـذي كـان يعـاني منه ، بالإضافـة إلى القلق الذي يلازمها . وهكذا رحل في أكتوبر ١٩٢٤ إلى نيـومكسيكو، التي وجدها تثير الاكتئاب . وفي تلك الأيام تملكـت زوجته حالة من الغيرة من الشريفة دوروثى بـريت التي تبعته كمرشحة لأرض أحلامه ـ وكانت النتيجة أنّه أبعدها رغم كلّ آرائه حول الصداقة بين الرجل والمرأة .

وفى أوزاكـا أصيب بالملاريـا بالإضـافة إلى متـاعب رئتيـه . وكان لهذا أثـره الخطير على حياتـه كرحّـالة . أدرك أنه لم تعـد هناك آمال لتحقيقها في الحيـاة ، فعاد إلى انجلترا في ١٩٢٥ . لكنه كـان قد تعلم شيئا ونقله إلى البشرية . فالآلهة المكسيكية في الثعبان المجنح تقوم مقام الحوافز والقوى اللاواعية التي يجب أن تدخل إلى حيّز وعي الإنسان المتحضر .

وما أن وجـد نفسه في انجلترا حتى عـاوده الشعور بـالرعـب من الحضـارة الآلّية التي أدّت إلى انحطاط الإنسان . وهكـذا غادرها في ١٩٢٦ واستقّر فى الـريفييرا الإيطالية ، إذ كان يجد راحـة لتوتّره العصبي قرب البحر الأبيض . وبعد رحلة قصيرة إلى بـادن بادن ولندن استقرّ أخيرا في إيطاليا ليكتب كتاب رحلاته الرابع أماكن أترورية . لم يكن انشغاله بحضارة الأتروريين جـديدا عليه ، فقد كتب في ١٩٢١ رسالة إلى ت . كارسويل يقول فيها .

. . . . وأرجو أن تخبرني أيضـا بسر الأتروريين ، الـذي رأيته مكتـوبا بـوضوح في المكـان الذي ذهبت إليه ، أرجوا ألاّ تنسى إخبارى ، حيث أنهم يحيروننى حقا (٥٢٠) .

ومما لا شك فيه أنه قد فكّر فيهم كثيرا، وليس من الغريب أن يتجه إليهم أخيرا في وقت لم يكن يكتب فيه سطرا ولا يفعل شيئا. لكن لبّ الموضوع كان أنه إذا لم يكن بإمكانه أن يجد حياة سلام بين الأحياء، فقد يجدها بين الموتى حيث لم يكن مواجها بأيّ حقائق مادية. فعلى الرغم من كلّ المعلومات الأكاديمية التي يعرضها في الكتاب، إلاّ أنّ الواحد لا تخونه ملاحظة إسقاط ذاته وفكره على الأتروريين وأسلوب حياتهم. في ماض ميت وجد أخيرا أرض أحلامه. ومن الرسومات الموجودة على القبور أعاد إنشاء حياة الأتروريين، لكن التفسير شخصي ذاتي بشكل واضح. فليست "رقّة رمز الخصوبة" التي يمتدحها في العلاقة بين الرجال والنساء في ذلك العصر إلاّ الرضوخ الذي كان يتطلبه هو نفسه من المرأة.

في مارس ١٩٢٧ رحل إلى مواقع سير فيترى، تاركوينيا، فولتشى وفولتيرا منهيا بذلك رحلاته الطويلة، أو بالأحرى مغامراته الفكرية. كانت أماكن اترورية آخر كتاب رحلات كتبه. وعلى الرغم من أنّ حالة لورانس الصحية لم تمكنّه من زيارة مواقع أخرى، إلاّ أن الكتاب كامل في حدّ ذاته. إذ يحتوى على كلّ مالديه ليقوله عن الاتروريين.

فى أكتوبر ١٩٢٧ عاودته نوبة أخرى من مرض السلّ، وأراد أنْ يجلو عن ايطاليا، كان متعبا من كلّ شيء حتى من حلمه بأرض أحلامه وبأن يكون قائدا لمجموعة من البشر فيها، فهو يكتب إلى رولف جاردينر قائلاً: "أخشى أن مسألة القائد والاتباع كلّها مسألة خاطئة بشكل ما الآن" (٥٣٥)

وقد دفعه نفوره من إيطاليا إلى التفكير في سويسرا بصفتها الملاذ الوحيد لمرضى السل. وفي سنواته الثلاث الأخيرة تأكّد لديه اقتناعه بأنّ ما يصبو إليه الإنسان بكلّ كيانه هو تكامله الحي وتناغمه الحي، لإخلاص روحه. لكنه كان قد عبّر عن هذا وطوّره في كتب الرحلات التي نحن بصدد دراستها. وتكشف لنا البحر وساردينيا، الشفق فى ايطاليا، الصباح فى المكسيك عن تصوره للمجتمع المثالي، كما تكشف رواياته عصا هارون، الكونغر، الثعبان المجنح، وهي التي اتخذ لها ايطاليا واستراليا والمكسيك بيئة منظرية، عن فلسفته في ارادة القوة التي تدخل في تصوره لذلك المجتمع المثالي.

المنظر من أجل المنظر

لتناول هذا الجانب من كتب رحلات لورانس يحسن بنا أن نستبعد أماكن اترورية ففي هذا الكتاب يحاول لورانس أن يعيد بناء حضارة الاتروريين الغابرة من خلال الخيال والإدراك، ومن خلال البيئة المنظرية يستدلّ على حقائق معينة، أو أنهّ يصورّ المنظر ليوصّل تصوّره لمعتقدات الناس وأسلوب

حياتهم. ويظل أمامنا ثلاثة كتب لنتناولها بالتحليل: البحر وساردينيا، الشفق في ايطاليا والصباح في المكسيك.

الحقيقة الأولى التي تتبلور في أذهاننا بعد قراءة الكتب الثلاثة هي أنّه حين يكتب كتابا في دفقة إلهام فإن التصوير يصبح مباشرا بسيطا كما في البحر وساردينيا. ولكن ما أن يتوقف الكاتب ليتأمل المشهد، ما أن يصبح واعيا بدلالات الظواهر، فإنّه يتغلغل تحت السطح ويتدخل في مسار الوصف أو السرد ليكتب مقالاً أو عرضا تاريخيا وهو ما يعوق دفقة الإلهام. لكن من الواضح أن لورانس كتب البحر وساردينيا دون تفكير في المناظر التي يصورّها بشكل مباشر. صحيح أنّه يتوقّف أحيانا ليبلور التأثير الذي يحدثه مشهد ما، أو أنّ هناك بعض التعليقات المتناثرة هنا وهناك، إلاّ أنّها لا تشكل كلاّ عضويا أو قيودا على اهتمام الكاتب بالمنظر في حدّ ذاته، بل إنّها بالأحرى تساعد على تصوّر المنظر بكامله.

وفي هذا الجزء من البحث سوف نتعرّض لما يحاول لورانس تصويره والوسائل التي يستغلّها لتحقيق هذا وينبغي علينا إذن أن نركّز على التجارب الشاعرية، أو على الصور التي يطلقها الخيال، فالصور التي يطلقها الخيال هي في الأغلب صور تعرض من أجل ذاتها.

في بداية البحر وساردينيا نجد الكاتب يشرع في رحلته من صقلّية إلى ساردينيا. وهو يصوّر واحدا من أبرز ملامح المنظر الطبيعي: بركان اتنا.

لو أنك رأيته، لوجب عليك أن تحول نظرك عن العالم وأن تذهب عرافا عاريا إلى حجرة جنّة الخلد الغربية... فليس من المجدي أن تظن أنّ بإمكانك أن ترى اتنا والصورة الأمامية في آن واحد (ص٨)

ثم يقول:

لا أحيانا، حقا، يمكن المرء أن يشعر بتيارّ جديد من مغناطيسيته الشيطانية يمسك بأنسجة المرء الحية ويغيّر الحياة الآمنة لخلاياه النشطة. (ص٩)

التجربة هنا مدركة على المستوى العاطفي، ولا يلائم التصوير شيء مثل الدخول إليها مدخلا عاطفيا. ولكي يوضّح نقطته يعود إلى أمثلة من التاريخ. " لقد كان هو من حطّم جوهر النفس

الاغريقيـة، " (ص٩) مما يلقي بضـوء على تجربته هو ذاتـه. وهذا التصـوير للعـواطف والإحساس بالـدهشة ملمح مهم من مـلامح مدخل لـورانس إلى المناظـر الطبيعية. فكثيرا مـا يخبرنا عن حـالته النفسية في لحظة ما أكثر مما يخبرنا عن المنظر نفسه، ومثل هذا المنهج يربط مابين عالم الطبيعة الخارجي وعالم الكاتب الداخلي بصفته إنسانا. وتضاعف هذه الرابطة من تصورنا للمنظر.

وخلال هذا الكتاب بـالذات يحاول لورانس دائما توصيل المنظر عن طريـق المشاعر التي يثيرها فيه. فهـو يوصل التأثير الـذي يحدثه فيـه ليرسم الصورة بألـوان ثريـة تليق به. وبهذه الطـريقة يحكم قبضتـه على روح المكـان، وهـو أوّل أهـداف كتب الرحـلات. ففي طريقـه إلى نـورو يـرى قـرى. تلك التي تتوج العالم ذات هواء مشرق متألّق، مثل تونارا. وتلك التي ترقد أسفل مطوقة فى الظل ذات إحساس كئيب خسيس وسكان منفرين. . . قد يكون الحكم كلـه خاطئا، لكن هذا هو التأثير الذي داخلنى (ص١٩١)

فهو دائما يقظ للتاثير. وهكـذا يثير في القارىء مشاعـر تتطابق مع مشاعـره ويمكنه من إدراك الصورة على المستوى العاطفي. فالحقيقة أنّه يحاول أن يفسّر المنظر فى شكل تجربة مرّ بها. وقد لا يكون هناك تحليل صريح للمشـاعر، مجرد أن تلـونّ مشاعره الصـورة بحيث تضفى عليها ضـوءا يثير خيال القارىء ومشاعره، مثلما يحدث في تصويره للطريق الى هويابا في الصباح في المكسيك ،

ليس هنـاك مكـان سـوى المكسيك حيث تصبح الحيـاة البشريـة معـزولـة، خـارجـة عن بيئتها، معـزولة بـدقة عن البيئـة، حتى حين تصادف مـدينة كبيرة، مثل جـوادا لاجارا، وتـرى برجى الكـاتدرائيـة التوأمين تمعنـان النظر فيما حـولهما مستوحشين كأنهما طـائران ضالاّن جنبـا إلى جنب في البرية، يرفعان رأسيهما ليتطلعا في القفر. إن قلبك ينقبض (ص٢٢).

إن التعبيرات مثل " معزولة بدقة عن البيئة، " " إن قلبـك ينقبض، " تركز المشاعر التي تثور في الكاتب لدى رؤيته للمنظر.

وأحيانا يصبح لورانس عاطفيا صرفا. فبعد أن يكون قد قال قوله في الصباح في المكسيك يدلي بكلمة ختامية. ففي الفصل الذي يحمل عنوانا «قليل من ضوء القمر مع الليمون» نجده على ضفاف البحر الأبيـض والذكـريات تمزق في رأسـه، والآن بعد أن شرب بعض النبيـذ بمناسبـة يوم القـديسة كـاثرين يصبح عـاطفيـا يتملكه الحنين إلى مكنسيكـو. إنه ينقل إلينا مشـاعره والطـريقة التي كـان يستجيب بها للناس، فيقول عن الجبال «إنني أعرفها وهي تعرفني، ونحن نتماشى معا بشكل طيب.

لكنها تلومني لـرحيلي عنها» (ص١٥٦) وهي تعبير ثريّ بالعاطفـة. فالخاتمة ليست إلاّ حلم يقظة، يستعرض الكاتب فيه المناظر التي صادفته ويكشف عن حنينه إليها.

والحقيقة أن إحساس الكـاتب بالدهشة التي يثيرهـا فيه منظر ما وتـوصيله لهذا الإحساس إلى قرائه يتطلبـان منه حسـاسية شفّافـة. لكنهما يتطلبان أيضا مهـارة وفنا في اختيـار الكلمات الملائمة، مثلما في قول لورانس في البحر وساردينيا.

شجرة عـارية أخـرى أوّد أن أرسمها هي شجـرة التين البنفسجية الفضّية المتـألقة، التي تحرق طلاءها البـارد وهجا، وهي متشابكة كأنّها حيوان حسّـاس يبرز من الصخرة. إنّ شجرة تين تبرز في عريها متألقة فوق الأرض الشتوية المظلمة لهي منظر يستحّق أن يرى (ص١٣١)

إنّ لورانس يـرسم هنا واحدا من المنـاظر التي صـادفته في طريقـه إلى سورجونـو. واستخدام تعبيرات مثل «البنفسجيـة الفضيـة»، «وهجا»، «متشـابكـة» يساعـد على تصـويـر المنظر بـألوانـه الأصليـة، ويمكّن القـارىء من تصـور المنظـر ويثير فيه نفس الإحساس بـالمتعـة الـذي أحس بـه الكاتـب. والتعارض بين لون الأرض ولـون الشجرة في تعبير «متـألقة فوق الأرض المظلمـة» يبعث في الصورة حياة. وتشبيـه «كأنّها حيوان حسّاس يبرز من الصخرة» حافل بالحيـاة حتى أنّه يمكن خيال القارىء؟ من الاستجابة لدفء التصوّر، ومن تخيّل منظر يفيض حيويّة وجمالا.

والحقيقة أنّ طريقة استخدام الكلمات تساعد على استحضار المنظر لاعاطفيا أو لونيا فحسب وإنما سمعيـا أيضـا. ففي وصفـه للنـاس وهم يتجهـون إلى السـوق في الصبـاح في المكسيك، تـردّد الكلمات صدى وقع أقدامهم.

انحدروا على الطـريق. . . زرافات، وحدانـا يشقّون طريقهم بحـركة أقدام عـارية، تنحسر تجري، بلا صوت تجاه البلدة التي تنفخ فقّاعات قباب كنائسها فوق خضرة الأشجار الراكدة، هناك تحت التلال البنّية الصفراء كأنها جلد غزال (ص٧٠)

الصورة هنا صورة صـوتية حسّية تنقل حركة الجموع والأفـراد ووقع أقدامهم حتى وإن كان بلا صوت فهي صورة تخاطب السمع والبصر وتكتمل اللوحـة بقباب الكنائس وخضرة الأشجار والتلال التي تشبه في لونها جلد الغزال. هي لقطة مجسّمة طويلة لصورة كلية بلغة السينما.

وفي احيان أخرى يجد الكاتب نفسه مضطرا إلى تصوير اللوحة الطبيعية بشكل مباشر بلا عوائق من زخرفة لفظية أو تأمل . عندئذ يكون الأسلوب موجزا ما أمكن بلا تكرار في الأفكار أو محاولة ملاحقة تصورٍ لمكان أو منظر. اللوحة عندئذ متحرّرة من هذا الميل الذي نلاحظه في معظم كتاباته . ففي «نزهة على الأقدام إلى هوايابا» في الصباح في المكسيك نجده مقتصدا ومباشرا في تصويره كل جملة تحقق أثراً محدّدا ، كلّ فقرة ترسم صورة ، والصور المتفرقّة ترسم صورة كلية .

ومن الصفات التي يتميز بها لورانس وهو يصور لوحة من أجل ذاتها ، أنّ أسلوبه يكون ناعما ومباشرا خاصة وهو يستعرض منظرا طبيعيا ، لكنه يصبح خشنا وعنيفا حين يعلّق عليه .

كما يلعب الخيال دورا بارزا في تصوير المنظر في أحيان كثيرة . إنّ نبض الخيال يلعب دورا في تحديد معالم الصورة ، مثلما يحدث في البحر وساردينيا حين يقول :

كانت النجوم رائعة في السماء الصامتة . نجمة المساء متألّقة بوجه خاص . وقد تدلّت معلقة في الليل السفليّ بقوةٍ جعلتني أمسك بأنفاسي . وهكذا كانت النجوم تحلّق وتنبض فوقنا ، فوق الميناء الصامت ، المظلم ظلمة الليل ، الذي تحبسه الأرض (ص٢٤٥) .

فالسماء هنا خلفية صامتة بلا صوت ، والتصوير مفعم بالحيوية لأن الكلمات تؤثّر في خيال القارىء ومشاعره معا . فنبض النجوم وتحليقها يمنحها حياة حتى إننا لنراها تتلألأ . والأرض التي تحبس الميناء وتغلقه تكتسب حياة خاصة بها . إن لورانس يولي كلّ تفصيل يدخل في تشكيل المنظر اهتماما خاصا ، لمسة خاصة تبعث في النظر كله الحياة . والصورة الذهنية لاتضفي على المنظر الحياة فقط ، بل تجعل القارىء يدرك المعنى الكامن فيه ، روح المكان فهي تعمل عملها على حواسّه بحيث تجعل من التصور المجرد شكلا محدّدا .

والحقيقة أنّ الصور الذهنيّة تسهم في تصوّرنا للمنظر ، خاصة إذا كانت صورا حسّية تنطبع في خيالنا . يحدث هذا ، مثلا في تصويره لقرية مكسيكية وهو يصف الجبال على النحو التالي :

إنه لما يميزّها أنّها تميل للزرقة الداكنة في قمتها ـ كأنها سحليّة رائعة ذات لون أزرق متموّج على طول حافّة ظهرها ، ببطنها الشاحب ومخالبها البنية القرنفليّة على السهول . (ص٢١) .

هي صورة حسية يحاول من خلالها لورانس أن يوصّل انطباعا تلقّاه من خلال الحواس ، وهكذا

تطلق ملكة خيـاله صورا مفعمـة بالحيوية والحيـاة تصور تجربة بصريّـة لتكسو موضـوع الوصف هي تجربة مدركة على المستوى الخيالي ووسيلتها الصورة الدينامية.

وفي بعض الأحيان توجز الصورة الذهنيّة كل الصفات التي تميّز المنظر كما في قوله:
إن معظم مدن المكسيك تنتهي في حـد ذاتها على الفور، كما لو كـانت قد دُلّيت من السماء في منديل، ووضعت جسما غريبا بعض الأشياء على السهل البريّ(ص٢٠).

إن تأمّل الكاتب للمنظر يحدّد الانطباع الذي يخلقه على حساسيته، في حين يروح خياله يعمل ليصدر ما يوازي الصورة المادية في شكل صورة ذهنية مدركة حسيّا. وهي تساعد الكاتب على تحقيق تكثيف للوصف، فتوجز ما يمكن أن يكون وصفا مسهبا للمنظر.

ولعل في اعتماد لورانس على عواطفه وخياله وعلى الصورة الذهنيّة الملونة ما يوحي بأنّه في أزهى حالاته وسط المناظر الطبيعية. وهو لهذا يصور كرحالة مثل هذه المناظر أو أثرها عليه بدقّة من خلال صور يشترك الخيال والإدراك في إصدارهـا. ففي تصويره لسان جودينزيـو في الشفق في إيطاليا يفتتح اللوحة بتصوير الورود.

وفي تلك الأثناء تتعـدّد ورود عيد الميـلاد. فهي تنبعث من تواضعهـا البرعميّ المتماسك قرب الأرض. وتقذف ببلورتها، وتصبح جميلة، أكواما من البياض الغامض الواثق من ذاته في ظل جدول صخري، بيضاء رائعة تفوق التصديق (ص١٤٧)

اللوحة تبدأ بصورة مثيرة يرسمها لورانس، وهو يصحبنا معه مستمتعين بالمناظر الطبيعيّة التي يصادفها وبالخيال المفعم بالحيوية الذي يخلّـف ما يصفه من أشياء إنه يبدأ بتصوير الورود. إن ورود بخور مريم وزهور الـربيع تشيع البهجة في صفحات اللوحة الأولى. ثم يمضي بنـا إلى محطة الوصول على طول الممر الـذي يدور جانب البحيرة الذي يشبـه الجرف، وينحنى في تجويف حيث كوم انهيار التربة، الصخور في شكل فـوضوي، حتى يصل بنا إلى جرف لســان من الأرض معلّق فوق البحيرة. وهي صورة ممتعة في حدّ ذاتها تعشّش في الخيال.

وفي تصويره لهذه المناظر الطبيعية قد يلجأ لـورانس إلى معارضة منظر بمنظر لتحقيق مزيد من التصويـر الحسي ففي تصـويره للمنظـر الطبيعي في البحر وسـاردينيا يعـارض هذا المنظـر بمثيله في ايطاليا.

إن إيطاليا دراميّة دائماً تقريباً وربما كانت رومانسية بشكل مضطرد. فهناك دراما في سهول لومباردي وقصة حبّ في البحيرات الفينيسة الضحلة، وإثارة منظرية صرفة في كل أجزاء شبه الجزيرة الشديدة الانحدار تقريباً وساردينيا شيء آخر، أكثر اتساعا أكثر اعتيادية. ليست مرتفعات ومنخفضات أبدا، لكنها منبسطة على مدى رؤية حواف ربا لاتلفت النظر ربما تمتدّ إلى حزمة من القمم الدرامية في الجنوب الغربي (ص١٠٧)

عن طريق تقرير التعارض يوسّع لورانس مدى الصورة التي نكونها في عقولنا، بعد أن يقيم الفرق بين المنظرين في بلدين مختلفين، ويكشف عن روح المكان في كلّ منهما عن طريق نقل الانطباع الذي خلفه كلّ منهما عليه.

وليست هذه الوسيلة إلاّ واحدة من وسائل التنويع التي يلجأ إليها في كتب رحلاته في أساليب عرضه للمكان. فقد نحصل أحيانا على معلومة عن المنظر عندما تتخلّل الحوارات وصفه له، مثلما يحدث حين تسأل زوجة الكاتب ما إذا كان ذلك الشيء الغريب في قمة جبل بيلليجرينو أحد الأطلال. «هل يمكن أن يكون هناك سؤال سياحي أكثر من هذا إلاّ أنه سيمافور محطة سكة حديدية.» (ص٤٥) إنه يأتي هنا بشيء يكمل المنظر بأسلوب غير وصفي.

وقد يلجأ إلى الأقصوصة كوسيلة من وسائل تنويع العرض. وفي مثل هذه الحالة تصبح الأقصوصة وسيلة تسلية تحدّد اتجاه الرحّالة من موضوع إلى موضوع آخر فبعد أن ينتهي من حديثه مع المرأة التي تغزل الصوف في "الغزّالة والرهبان" في الشفق في ايطاليا، ليتجه إلى تصوير الرهبان تدخل أقصوصة قصيرة.

لقد أخبرتني المدرسة أنني كنت لأجد زهور اللبن الثلجيّة خلف سان توماسو. ولولا أنّها أكّدت معرفتها لشككّت في ترجمتها للكلمة. فقد كانت تعني ورود عيد الميلاد طول الوقت (ص٤٤).

وقد لايراعي لورانس عنصر الانتقاء بين تفاصيل المنظر كما يحدث في معظم أجزاء البحر وساردينيا. فالحقيقة أنّه لايفرض أيّ نظام على كتابته عمدا، بحيث يبدو كما لو كان يصف كل مايصادفه في طريقه كيفما اتفق وإذا كانت التفاصيل التي يصوّرها كاملة ودقيقة دون انتقاء فلعل ذلك يرجع إلى ملكة قوّة الملاحظة التي تدفعه إلى تصوير كلّ ماتقع عليه عيناه غير أنّه بتسجيله أدقّ التفاصيل يعطي صورة كاملة للمكان. ويبدو أنّه مشغول بالمناظر بصفته سائحا دائب الانتقال من

مكان إلى مكان. إنه يستمتع برحلة متمهلة، حيث يفضّل الجلوس في مقدّمة الحافلة لأنها ستتيح له من هناك "رؤية أفضل"، وبالتالي يكتسب الكتاب شكلا غير مترابط.

أمّا في الشفق في ايطاليا فإنّه يراعي الانتقاء الدقيق حين يعني المنظر بالنسبة له تجربة محدّدة. فهو عندئذ يصوّر جزءا من المنظر موليا التفاصيل الاهتمام اللائق. ففي الفصل الذي يحمل عنوانا "الغزّالة والرهبان" نقرأ وصفا لامثيل له للشفق. وعلى الرغم من أنّه تصوير لواقع إلاّ أنّه يحمل معنى رمزيّا لابدّ من فهمه في هذا الإطار.

وفي تلك الأثناء على طول حافة الجبل، أصبحت الثلوج ورديّة متألقة، كأنما السماء تتفتّح عن أزهار. فليس الخلود الدائم وعدم الخلود الدائم نفس الشيء في النهاية (ص٥٠) أو قد يكون الاهتمام بالتفصيل أحد الملامح الرئيسيّة في كتبه، حين يكون هذا التفصيل خلفيّة للصورة التي يرسمها، كما في رسمه للصلبان في نفس الكتاب.

إن واجهة الصخرة المقابلة ترتفع عاليا فوق الرؤوس، والسماء بعيدة فوقها. ولذا يسير الإنسان في نصف ليل، في عالم سفلي....... وفي ظلمة الممرّ الباردة يتعلّق المسيح الشاحب الكبير (ص١٥) في مثل هذه الأمثلة يعمل لورانس بترو في وصفه للمنظر وهو يرتب التفصيلات لينقل للقارىء صورة ذهنيّة كليّة. وتأتي اللمسة الرائعة لتضفي على المنظر حياة وحيوية.

وفي مثل هذا الكتاب تخضع المناظر كلّها لتصوّر واحد، بمعنى أنّها جميعا أوجه لهذا التصوّر، أو قد لاتكون هناك رابطة بين اللوحات، كلّ منها لوحة في حدّ ذاتها تمثّل عالما قائما بذاته يكشف عن روح مكان متميز عن مكان آخر. وتكشف الأسطر الأخيرة في نهاية كلّ لوحة-في الصباح في المكسيك عن أن لورانس لايعني رسم لوحات متماسكة مترابطة. فهو في كلّ فصل في الكتاب يستكشف جانبا من الحياة في المكسيك. "غدا يوم آخر، بل إنّ الدقائق القليلة القادمة بعيدة بما فيه الكفاية، في عصر يوم أحد في المكسيك." (ص٤١) وغدا لوحة أخرى. أمّا في الشفق في ايطاليا فلا تنتهي اللوحة نهاية مؤكّدة. قد تنتهي بصيحة نافدة الصبر: "أين النشوة الأسمى في البشرية...؟" (ص٥٣) أو قد يحدّد نهاية مسيرة نهار هبوط الليل.

الليل غارق في الظلام. وعلى بعد أربعة أميال أعلى البحيرة تلمع كشّافات الحدود النمساوية بحثا عن المهربين. وفيما عدا ذلك فإنّ الظلام كامل" (ص١٥٤) إنّه يبقى على إهتمامنا حيّا يقظا، حين تنتهي لوحة ولا تنتهي معها الفكرة ويظل لها مايكمّلها في الفصل التالي.

غير أنّ تصوير المناظر الطبيعية ليس كل شيء في كتاب الرحلات. فتصوير الناس، ووصف عاداتهم وسلوكهم ومظهرهم العام، بل حتى شكلهم، يسبغ على الكتاب حياة. فليست التجربة الشاعريّة كافية في حدّ ذاتها. لورانس يزوّدنا بالكثير من هذا. ففي كلامه عن طاقم الباخرة في البحر وساردينيا يقول:

لاأحد يصدر إليهم أوامر، ولا تبدو هناك سيطرة مطلقا. المهندس البدين فقط في ثوبه الكتّاني الرمادي يبدو نظيفا وكفؤاً تماما مثل آلاته، غريب. كم يضفي التحكم في الآلة الاعتزاز واحترام الذات على أي رجل. (ص٤٩).

ولورانس يعرض الناس دائما في مجموعات، ثم يختار بعضا منهم لتكبير صورتهم، أو يرسم منظرا كليا مع التركيز على تفصيلاته وألوانه المتنوعة ثم ينقل اهتمامه على الأشخاص الذين يظهرون في هذا المنظر.

ويتدلى الغرب مظلما شديد الرطوبة بلونه الأرجوانيّ القاتم منذرا بالشؤم بتلك القضبان الزرقاء المظلمة من السحب التي تقطعها ضفاف من السحاب....

ثم يليها مباشرة:

والناس يعيشون في غرفة واحدة... الرجال يمشطون شعورهم أو يزرّرون ياقاتهم في مداخل البيوت. كل شيء هنا، وهو يوم عيد (ص٨٨).

إن تصوير الناس يمكّن الكاتب من تحديد روح المكان. ففي تصويره لهم عند المحطه تسترعي انتباهه مجموعة من الرجال يصوّر من خلالها جماعات رائحة وغادية بألوان زاهية فاتنة، وبكل الظلال. ورغم أنّه لايبدى انتقاء، إلاّ أنهّ يعطي لكل وحدة إنسانية في الصورة لمسة تضفي على الكل حياة وتحيل اللوحة كلها إلى صورة واحدة تفيض بالحركة. أو قد يلجأ إلى معارضتهم بآخرين يثبت الانطباع بروح المكان.

لكن المرء يرى هنا عيوناً من الظلمة الجوفاء الناعمة كلها قطيفية لايطل منها عفريت صغير. وهي تعزف نغمة أكثر غرابة وقدما قبل أن تصبح النفس واعية بذاتها قبل أن تظهر عقليّة اليونان في العالم. (ص١٠٠) فالمكان والناس متلازمان، وتصوير الواحد يتطلب تصوير الآخر في ارتباط دائم.

وفي كثير من الأحيان لايثير الناس اهتمام لورانس بقدر مايثيره الجوّ المحيط بهم، وعلى الأخصّ حين يدرك روح المكان عاطفيا، عندئذ تنقل الصورة حساسيّة الكاتب المرهفة، كما في تصويره للأطفال وهم:

يرفرفون بأقدامهم الغريبة الصغيرة الفراشيّة على الرصيف محوّمين حول أمّهم الكبيرة كأنّهم ثلاثة أشباح من نسيج هشّ، ويشقّون طريقهم عبر الجنود الجالسين المتيني البنية إلى داخل القاعة. (ص٨٥). مثل هذا التصوير الحافل بالحركة يصل إلى قمّته في وصف المهرجان في بلدة نورو، حيث يصوّر الرجال المتنكرين بقوله:

كانوا قدحشوا صدورهم وحشوا جذوعهم وارتدوا قبّعات وأردية مختلفة، وراحوا يتبخترون بخطى قصيرة سريعة مفعمة بالحيوية كأنّهم عرائس صغيرة تتدلّى من خيوط مطاطيّة (ص٢٠٤).

حتى يصل إلى فقرة تقول:

كانت تلك حقّا بعض ثياب جميلة من القماش المقصّب، وشالات قديمة وامضة، وتألّق ألوان أرجوانية وفضيّة أو داكنة ثريّة ذات حواش عريضة فضية بيضاء أو ذهبية ورديّة، مفعمة بالحيوية للغاية (ص٢٠٥)·إن المنظر ينقل في الحقيقة الانطباع بأنّه نهر من الحياة الصاخبة، بألوانه الثريّة، وحركته التي تفيض حياة.

في هذا الكتاب، كما في غيره من كتب رحلات د. هـ لورانس، ينقل الكاتب محور الاهتمام من جانب من جوانب المنظر إلى جانب آخر، من الوصف إلى التأمّل، من البيئة إلى الأشخاص إلى تحليل لروح المكان. ويبدو هذا التحليل تعليقا على لوحة مصورة، تفسيرا للمنظر المرسوم.

... وفي نهاية العالم يشرع كاجلياري في الارتفاع، وعلى كلا الجانبين تلال فجائيّة ذات قمم ثعبانيّة.... ومع ذلك فإنه يذكّرني بمالطة، وهي ضائعة بين أوروبا وأفريقيا، ولاتنتمي إلى أيّ مكان... كما لو-لم يكن لها مصير مطلقا. تركت خارج الزمن والمسافة. إن روح المكان شيء غريب. إن عصرنا الآلي يحاول أن يطغى عليه. وفي النهاية سوف يحطّم روح المكان الذي ينذر بالمصير، والذي يتعارض ويتعدّد في أماكن عديدة، وحدتنا الآلية لتتناثر إلى شظايا (٨٤)

مثل هذه التأملات التي يثيرها المنظر لاتصطدم باهتمام لورانس بالمنظر في حدّ ذاته. فهي

لاتشكّل كلاّ موحدا مثلما تفعل في الشفق في ايطاليا، فهي ليست إلا مزيجا عارضا من التأملات التي تختتم الصورة الكلية للمكان.

المنظر وسيلة للأفكار.

عندما يصوّر كاتب منظرا كوسيلة لنقل أفكاره وفلسفته، فإنه يشعر أن الثيمة أو الفكرة التي يعرضها لها ايقاع يخضع لها ايقاع الشكل. ولورانس فنان أساسا، وهذه حقيقة تفرض الشكل الذى تتخذه كتب رحلاته. ويبدو هذا واضحا في تصويره لتجواله في الصفحات الأولى من أماكن اترورية، التي لايمكن اعتبارها أهم من موضوع الاستكشاف، وهؤلاءالاترور يون أنفسهم. فالأسطر الأولى في الكتاب تصوّره وهو في طريقه الى شوارع سير فيترى المشمسة.

إلى الشمال ترتفع القلعة، الجزء الأعلى المحصّن من المدينة، المكان العالي، وهو القوس في المدن الاترورية لكن المكان العالي مهجور الآن، به بناء عال حذر مثل قصر حاكم... إنه مهجور لدرجة تعجز عنها الكلمات، ميت، ومازال أكبر من أن يليق بمجموعة الشوارع الرمادية المأهولة التي تقع أسفله ... (ص١٨).

إن لورانس لا يزال في طريقه إلى المقابر حيث يمكنه أن يجمع المادّة التى سوف يتناولها. وعليه أن يدخلنا إلى مناخ المكان الذي يوشك على استكشافه. ولذلك فإنّ المدخل إلى موضوعه يوحي بعالم قديم. والكلمات بإيحاءاتها تضع القاريء في إطار يمهّده لاكتشاف هذا العالم القديم.

وكذلك نجده يتحرك في الشفق في ايطاليا على طول الطريق الامبراطوري إلى قلب إيطاليا. إنه يتحرك بين قطبين، الشمالي والجنوبي، بين العقل والجسد، أو الروح واللحم، اللذين تأرجح بينهما الايطاليون على امتداد تاريخهم الطويل. فالفكرة التي تشغل ذهن لورانس هي الطريق الطويل الذى قطعه الايطاليون قبل عصر النهضة وبعدها، بين الحياة الحسّية والحياة الروحية. وهكذا يأتي إيقاع الفكرة متلازما مع إيقاع الشكل العام، ناهيك عن شكل كل لوحة على حدة.

وفي الشفق في ايطاليا يبدأ لورانس كل لوحة في الكتاب بتصوير منظر، فيرسم من خلال الملاحظة المكان.. لكنه يعمل ببصيرة المغامر الفكرّي. فعلى الرغم من أن اللوحة تكون عادة وصفية أساسا، إلا أنة لايملك إلا أن ينغمس في التحليل بشكل آخر فهو يتبنى شكل اللوحة، لكنه يخضعها لحاجته إلى التحليل. ويضفي هذا المدخل على مادته نغمة لورانسية نمطية توفّر للوحات

المنفصلة وحدة فكرية. إن بصيرة الكاتب تستطيع أن تتبيّن نسقا في الأشياء التي تبدو مختلفة، وتخضع الظواهر المتعدّدة ظاهريا لقواعد معينة. فلورانس يتوقّف كثيرا ليحدّد رؤيته للمكان والناس في شكل مقال. وبالنسبة له فإن المغامرة الفكرية ومنهج المعرفة يتطلّبان منحى تحليليا لينقل إلى القارىء روح المكان كما يخبره. ولذا فإننا نجد حالة مزاجية تأمّلية تسود في الكتاب لكنها لاتفسد اهتمامنا به، بل تساعد على بلورة فكرة ما. ففي كل لوحة يصوّر جانبا من حياة الإيطاليين، لكننا نخرج من العالم الذي ينقلناإليه بفكرة موحدة.

ولنبدأ هنا بتوضيح هذه النقطة قبل أن ننتقل إلى الوسائل الفنية الأخرى التي يستخدمها لورانس لإبراز فكره وفلسفته، من خلال لوحة "الغزّالة والرهبان." فالأسطر الأولى في أيّ مقال لابد أن تكون لافتة للنظر والذهن مثلما يبدأ المقال هنا على هذا النحو: " إن الروح القدس حمامة أو نسر هو نسر في العهد القديم، وهو حمامة في العهد الجديد." (ص ٢٩) هذه هي الفكرة الأساسية التي تؤدى إلى كل ما يتبعها. وتصوير كنيستى النسر، سان فرانسسكو أو سان توماسو، في بداية الفصل، يهيىء ذهن القاريء للفكرة الأساسية فيه. وجودهما يضفي على المناظر التالية لمسة روحية تسودها، كما لو كان الروح القدس الذي ترمز إليه الكنيسة يحلّق فوق الغزّالة والرهبان. ففي تلك البيئة يلتقي لورانس بالاثنين، الأولى تمثّل الروحانية التامة، والآخرين يمثلون موقفا محايدا. فالروحانية في الايطاليين أو حياديتها هي لب الموضوع الذي يطوره الفصل كله.

وتطوير النقطة يتطلب مثلا توضيحيا. والمثال على جقيقة المرأة العجوز النهائية الحاسمة يجري على النحو التالي:

إذا قلت " إن كوكب المريخ مأهول" فإنني لا أدري ما أعنيه بكلمة مأهول: يمكنني فقط أن أعني أن ذلك العالم ليس عالمي... فأنا الكون المصغّر، لكن الكون هو أيضا مالست"أنا... كانت المعرفة التي لم تبلغها هي معرفتها الخفيّة بذاتها فحسب كانت هي مادة المعرفة، سواء كانت المعرفة في عقلها أم لا (ص ٤٠).

من المثال التوضيحي ينبع الاستدلال.

ولكي يعطى تفسيرا أوفى للفكرة يعارض لورانس موقف الغزّالة بموقف الرهبان فتصوير الشفق الذي يمثل الحيادية، والثلوج الوردية المتألّقة التي تمثل الاكتمال الأسمى، صورتان متعارضتان

يساعدان على تصور كنه الرهبان وحياديتهم الروحية التي تتفوق عليهم فيها المرأة التي تحيا الروح في كيانها لا في فكرة في عقلها. هما صورتان لما انتهت إليه حياة الإيطاليين الروحية.

وإذا كان التصوير في هذا الفصل لم يصل إلى نقطة وضوح كافية. فإن أسلوب العرض التاريخي يلقى مزيدا من الضوء على طبيعة الشخصية الإيطالية في الفصل الذي يحمل عنوانا "حدائق الليمون" فلورانس يلقي هنا بنظرة إلى الوراء إلى الماضي، ليلقي ضوءا على الحاضر. ووصف بيت باولو حيث الظلال الهائلة بداخله تتيح فرصة استكشاف النفس الإيطالية من خلال مدخل تاريخيّ. فبعد أن جاهد الإيطاليون أنفسهم باتجاه إنكار الذات الذي تحلى به المسيح عليه السلام، في القرون الوسطى، أدار الايطاليون ظهورهم للمثال المسيحي بعد عصر النهضة. فأصبح هدفهم الحياة الحسية الخالصة، شأنهم شأن النمور. وأخيرا يصل لورانس بهم إلى عصر الصناعة الذي يعود فيه الايطاليون الى نوع من العقلانية والروحانية الذي وضع في غير موضعه في التصنيع الذي يحوّل الإنسان إلى آلة ويحرمه من منابع الحس الفطرية التي تشكّل عند لورانس منابع الفطرة السليمة التي أفسدتها الحضارة الصناعية الحديثة. وهكذا يصبح الكتاب صياغة أخرى لفلسفته في الحياة التي نادى بها في كل ضروب كتاباته الأخرى.

ولتأكيد فلسفته في الحياة يلجأ لورانس إلى تنويع على المدخل، حيث يتخذ وسيلة أقرب إلى الحسّ الحدسي، وهي وسيلة الخرافة ليؤكد فلسفة الفطرة الحسية التي يؤمن بها فوق العقل. وهكذا يجد في المكسيك خرافة عن خلق الحياة تتفق ونزعته ورؤياه في الحياة. وهي خرافة تحكي أصل الحياة ومصيرها ففي اللوحة المعنوية "كوراسمين والببغاوات" تجتذب الببغاوات اهتمام لورانس لا بصفتها مخلوقات بل بصفتها ظاهرة. فهي تكشف له عن الفرق بينه وبين الهنود في سلّم تطوّر الوعي، الفرق بين جنسين: جنس يعيش من خلال العقل وجنس آخر يعيش من خلال الفطرة واللاوعي.

وهكذا تأتى الافتتاحية تصويرا للحياة في المكسيك، للعادات والسلوك، لمعتقدات الناس وموقفهم في الحياة الذي يختلف عن موقف الرجل الأبيض. كلّ ما يجرى في الافتتاحية يؤدى إلى تناول المكسيكيين لفكرة التطوّر التي تصور عقيدتهم الغريزية اللاعقلانية والتى كان لورانس نفسه سعيدا بها.

فالببغاوات على الأشجار تحاول تقليد الأصوات التي يصدرها الإنسان، أن تقلد صفارة روزالينو، الخادم الهندى. وبكل السخرية تقلّد شخصا ينادى كلبا، وتنبح مثل الكلب كوراسمين، بصوت ينتمى إلى عصور قبل اختراع العقول، (ص ٧) لأنها تنتمى إلى دائرة تطوّر قبل تطوّر

الإنســان. ويؤدى هــذا إلى تناول فكـرة التطوّر نتيجـة لوجـوده في بيئة غـامضة. بل الأحـرى أنه بـدأ بتوصيل هذا الجو العام إلى القاريء لبعد القاريء للصيغة المكسيكية لنظرّية التطوّر.

فلورانس يرفض فكرة الزمن كسبب أولى ويميل إلى تفسير قبائل الآزتك للفكرة. فهم يؤمنون بالشموس.

عـوالم متتاليـة خلقت ودمّرت على التـوالي. فـالشمس نفسها تتشنج، وتنطفيء العـوالم كأنّها شموع كثيرة العدد، عنـدما يسعل شخص ما في وسطها. ثـم تتشنّج الشمس ثانية. بطريقـة حازقة غامضـة، وتبدأ مجموعـة جديدة من العـوالم ترفّ مضيئـة... ففكرة حبل الزمن والتطـوّر المربوطين بسبب أولى، فكـرة معقدة. ومن المستحسن أن نفكّـر في انفجار العـرض كله؟ وإلا فكيـف يمكننـا تفسير وجود مخلـوقات عـديدة من نماذج وعـادات مختلفة. فمن الفـوضى التي تعقب الدمـار تعود اشتعالات صغيرة من لامكان ولازمان (ص ٩).

هكـذا جاءت الطيـور أولا. بعد أن انعـدمت السيطرة على السحـالي. وعندمـا حـان الـوقت لإبـادتها، تم تهريب بعض بيض الببغـاوات والطواويس والبشـاروس إلى ركن آمن لتفقس في اليـوم التـالى، وتراقب الحيـوانات وهي مـذهولـة. وقـد فزعت الطيـور من مرأى الأفيـال والأسود والجيـاد والكلاب، وكان عليها أن تنسحب إلى الأشجار، حيث كـان وجه الأرض يملؤها دهشة. ولما كانت الأساس ذات يوم، فإن الببغاوات امتلأت مـرارة وشرعت تصب سخريتها المريرة على الأصوات التى تقلّدها. ثم هلكت كل الحيوانات غير الضرورية.

وقبـائل الآزتك تقول: إن شمسنـا هى الخامسة. فقـد جمع الرجـال بين الأصوات والكـلام، ورقدت الحيـوانات التي أمكن تـرويضها تحت قـدميه، في حين هـربت الحيوانـات الضاريـة لتنجو بحياتها. لم يكن المجدى من للحيوانـات التي تنتمي إلى بعـدآخـر، إلى شمس أخـرى، أن تقلّـد الإنســان. ففشل القرد لأن الفجـوة لا يمكن رأبها، وليست هناك رابطـة تربطنـا به. وهـو في نفس الكون الـذي تحكمه المسـافة والـزمن مثلنا، لكن هنـاك بعداً آخـر. ولكي يقرب لـورانس الفكرة إلى أذهاننا ينتهي بالنقطة الأساسية: روزالينو هو أيضا ينتمي إلى بعد آخر، مهما حاول أن يرأب الصدع. إنـه يحاول أن يتعلم من الـرجل الأبيـض. لكن عبثـاً. فهـو لا يقع على نفس الحظ. ومصيره مصير النفس الحيوانية، لا مصير العقل والروح.

منذ البداية يمهد الكـاتب لاستكشـاف الحياة على سطح الأرض، كيف نشأت مخلوقات ذات

أشكال وطبائع وأصول مختلفة. لكن المسح التاريخي يتخذ شكل السرد الذي لا تعوقه أية تأملات شخصية. هو سرد مباشر بسيط وبصفته فنانا يحاول لورانس أن يوصّل الانطباع بسرعة تعاقب الأحداث، ويحقّق هذا من خلال الاقتصاد والامتناع عن التدخل في سيرها.

والقصة التي يحكيها عن تطور الحياة ليست حقيقية طبقا لأحدث النظريات هي خرافة والخرافة بطبعها ليست فلسفة منظمة، بل تقوم على الحدس فحسب. وليس لورانس يبغي حقا عرض أحداث حقيقية، بل أحداثا تغلفها الخرافة. غير أن النقطة الأساسية التي يطرحها من خلال هذا كله تتمشّى مع فلسفته العامة في تمجيد الجانب اللاعقلاني الغريزيّ في الإنسان الذي يعلو على ظنون الرجل الأبيض أنه قهر بالعقل والحضارة الجانب الغريزيّ فيه الذي هو، في رأى لورانس، منبع الحياة الحقيقية الذي يجب أن يعيه الإنسان الحديث.

وإذا كان لورانس يلجأ في تصوير تناوب سلطان الحس، والروح السيطرة على الإيطاليين إلى التاريخ، وفي تصوير البعد الفطري في تناوله للمكسيكيين إلى الخرافة، فإنه يلجأ إلى الماضي السحيق في كتابه أماكن اترورية لطرح فلسفته التي تقوم على نقاء الفطرة والحياة الحسية. في هذا الكتاب نجد المنظر الطبيعي خلفيّة ينسج الكاتب عليها آراءه وفلسفته ورؤياه في الحياة. فهو يبدأ اللوحات عادة بتصوير المنظر العام للمكان الذي يوشك أن يستكشفه، ويضمن هذا التصوير من آن لآخر تلميحا إلى أسلوب حياة الناس الذين شغلوا هذا المنظر في الماضي البعيد.

كانت القبور فقط، المنتفخة الشكل، تحت الأرض. لكن الاتروريين كانوا يبنون مدنهم، حيثما أمكن ذلك، على هضبة طويلة ضيقة أو لسان داخل في البحر أعلى الريف المحيط به، وكانوا يحبّون أن تكون قواعدها جرفا صخريًا، كما في سرفيتيرى. وحول قمة هذه الجرف، هذا اللسان، كان يدور حائط السياج (ص٢٠). ومن مثل هذه المناظر كان لورانس يستدل على العادات والتقاليد، وعلى معتقدات الناس وتصوراتهم. فبعد استعراض المناظر المصورة على حوائط القبور يقول:

كان النبلاء يدفنون في توابيت هائلة، أو يكفنون ويوضعون في نعوش في حجرات المقابر، في حين كان العبيد فيما يبدو يحرقون (ص٥٠) أو حينما يتكلم عن الصور المنحوتة على التوابيت قائلا:

إذا كانت صورة لرجل، فإن جسده يكون عاريا إلى ما تحت السرة، ويمسك في يده الطبق الدائرى ذا العقدة المرتفعة في منتصفه، الذي يمثل الأصل الدائري للسماء والأرض. وهو يمثل أيضا بلازما الخلية الحية بنواتها وهي آلة البدء الذي لا يتجزأ.(ص٥٢)، في مثل هذه الحالات لا يقتنع

لورانس بمجرد تصوير المناظر. ففي تصويره للمناظر الموجودة على القبور، يحاول أن يصور الجّو الذي يحيط بالأشخاص المصورين.

في الحائط الخلفي يوجد منظر وليمة رائعة. المولمون يستلقون على غطاء أريكة من القماش المقلّم أو ذى المربّعات، وفي الهواء الطلق إذ لا توجد خلفهم أشجار. الرجال سمرتهم تضرب إلى الحمرة، وهم عرايا حتى الوسط. والنساء اللاتي رسمت صورهن على الصخرة الشاحبة الصفرة شقراوات، يرتدين ثيابهن الفضفاضة وأغطية نفيسة حول أردافهن. ونظراتهن جريئة متحررة. (ص٦٥).

مثل هذا التعليق الأخير يبعث الحياة في تصوير المنظر، ويعطى صورة لحياة الاترورين الفعلية، حتى لينسى المرء أنه يرسم ما على الحوائط بقلمه كما لو كان هذا النحت قد انتقل إلى الحياة الحقيقية وفي مثل هذه الصور تتداخل العادات والتقاليد في تصويره للرسوم.

إننا نرى أريكتين منفصلتين، وعلى كل منهما رجل وامرأة. المرأة هذه المرة ذات شعر داكن، لذا فلا بد أن تكون محظية. فقد كان الاتروريون يشاركون زوجاتهم مقعد الوليمة الطويل، وهو أكثر مما كان الاغريق والرومان يفعلون في تلك الفترة.

في مثل هذه اللمسات ينقل إلينا لورانس عادات الناس وقد استدلّ عليها من المناظر التي تصوّر حياتهم في تلك الأيام. وهكذا يبدأ لورانس كل لوحة بتركيز الاهتمام على المنظر ليستخدمه مطّية لآرائه وأفكاره عن الناس. وتتعدد الوسائل الفنية التي يحقق بهاالكاتب هذا الهدف، وليربط بين الماضي والحاضر فقد يعرض لورانس للاتروريين اليوم ليلقي الضوء على أسلافهم كما في:

من المؤكد أنّ الاتروريين أبعد ما يكونون عن الرومان، بالنسبة لكل من عاش على الاطلاق من الشعب الايطالي. تماما مثلما أنّ الرومان الذين عاشوا في روما القديمة كانوا بالتأكيد أبعد ما يكونون عن الايطاليين، إذا استقينا حكمنا من أبناء البلد الذين يعيشون اليوم (ص٤٤). مثل هذا الاستدلال يصل إليه لورانس من خلال ملاحظته لأسلوب حياة الاتروريين اليوم. فاللوحة التي تحمل عنوانا "قبور تاركوينيا المصورة" تبدأ بوصف بعض الفلاحين في طريق عودتهم إلى بيوتهم. ويؤديّ هذا إلى تصوير الحياة في سالف الأزمان.

ربما كان الفلاحون في أيام الاتروريين يعودون بنفس الطريقة إلى البلدة مساء. كان الاتروريون

بالسليقة مدنيين . . . . ففي تلك الأيام كان الرجال يعودون في مساء صحو كهذا عاريين، سمرة لونهم تضرب إلى الحمرة بفعل الشمس والريح، بأجسام قوية لا مبالية، وكانت النساء يأتين مرتديات الثياب الفضفاضة الكتّانية البيضاء، أو الزرقاء التي تليق بهن، وعندئذ من المؤكّد أن يكون هناك شخص ما يعزف على المزامير. (ص٩١). وعندما ينتهي لورانس من استعراض القبور، يحاول الإمساك بالتأثير الذي خلّفته عنده ليشبع عقولنا بالجو العام. فهو يرى في البيئة الطبيعية التي تحيط بالقبور " سكونا وسكينة في كل الهواء، في ذلك المكان الغائر، وشعورا بأنّ وجود المرء هناك يطيب للروح، " (ص٢٤) ليصل من هذا إلى انطباع نهائي بعد استعراض القبور.

إنها تجعل الصدر يتنفّس بحرية وانشراح، بإحساس كامل بالحياة. حتى القبور. وتلك هي الخاصّية الاترورية: الطمأنينة، الطبيعية، ووفرة الحياة، فليست هناك حاجة إلى فرض العقل أو النفس في أيّ اتجاه. (ص٢٨).

والحقيقة أنّ لورانس يحكمه شعوره في كلّ تجواله بين الآثار الاترورية الباقية فما يحرك مواطن الشعور فيه وهو يحيا ذلك الماضي مرة أخرى هو أنّ " ما يريده المرء هو الصلة. فالاتروريون ليسوا نظرية أو مبحثا فإذا كانوا أيّ شيء، فهم تجربة " (ص١٦٧).

ومن تفسيره لرسومات الاتروريين يصل لورانس إلى تعميم فلسفتهم في الحياة. فبعد أن طاف بالمكان يحاول أن يعطي تفسيرا للحياة في تلك الأيام، حياة الناس اللاشعورية. ويجتذب انتباهه في هذا الخصوص الأحجار التي تصور رمز الذكورة والخصوبة التي يجدها بجوار مداخل القبور. هي بالنسبة له رموز لتصور الاتروريين للحياة ولعالمهم الطبيعي. وفي ضوء هذا التفسير يوضّح السبب الذي جعل الرومان يبيدونهم. كان وعي الاتروريين يضرب بجذوره في رمز الذكورة والخصوبة وفي رمز القوس، وهو ما كان ضد وعي الرومان، ولذلك أبادوهم.

وقد أمدت الرسوم داخل المقابر لورانس بما يبرر هذا التفسير. فهي رسوم رمزية. ففي القبور يرى تصويرا لرجل يمسك بين ابهامه وسبّابته بيضة يريها للمرأة الشقراء التي تستلقي إلى جواره وتمد يدها اليسرى كما لو كانت لتلمس صدره (ص٦٦) أي أنّ الرجل يمسك في تفسير لورانس، ببيضة البعث التي ترقد بداخلها البذرة مثلما ترقد الروح في القبور قبل أن تنقف البيضاء لتبرز إلى الوجود ثانية (٧٣) بل إنّ لورانس يرى حتى في الألوان معنى. فاللون القرمزى الذي طليت به أجسام الرجال توحي له بأنّ هدف هؤلاء الناس في الحياة هو أن يجمعوا الحيوية ليودعوها في كيانهم. ومن استطاع تحقيق هذا التفوق على أقرانه، فأصبح الأمير أو الملك. وقد يحقّق الأمير والكاهن هذا التفوّق من

خلال الوصول إلى المعرفة الكونية من خلال الطقوس والشعائر، أما الرموز والإيماءات والإيحاءات فقد كانت تكفي الناس العاديين لتملأهم بالحياة كل حسب طاقته.

في كل هذا يبدأ لورانس بتصوّر أنّ الأتروريين إنما كانوا يسقطون ما بأنفسهم على الصور المرسومة. ومن خلال تفسيره لهذه الرسوم يصل إلى إعطاء صورة عن حياتهم العادية والداخلية مدعّمة بالدليل. فقد يكون البعض قد اتهم الأتروريين بالقسوة من خلال رسم يصور رجلا يهاجمه كلب، والرجل لا يملك ما يدافع به عن نفسه. لكن لورانس ينزّه الأتروريين عن مثل هذا الاتهام بقوله إنّ الرسم لا بدّ أن يفهم رمزيا. "فلو كان رياضة، لكان هناك مشاهدون. . . وهنا لا يوجد مشاهد واحد". (ص ١٠٩)

وبوصوله إلى مثل هذا الاستنتاج ينتهي لورانس في آخر كل لوحة بتعميم. "فإذا كنت تحبّ الأشكال التلقائية الغريبة التي لا يمكن إخضاعها لقياس موحّد فاذهب إلى الأتروريين" (ص ٥٦) وهو لهذا يشعر بالراحة بين آثار الماضي، كما لو كان قد وجد ملاذه الأخير وسط ذلك الشعب البائد. ولذا نجده يثق في مشاعره حين يقترب منهم، ويتقبّل المشاعر التي تثيرها فيه آثارهم لأنه يقترب منهم بحساسيته الخاصة، ويجد فيهم صدى لإيمانه بالحياة الحسّية التلقائية النقية.

المنظر بيئة روائية

قبل أن يشرع لورانس في كتابة روايته عصا هارون، وهي أولى ثلاثية تتناول فكرة إرادة القوة، توقف ليستخلص بعض استنتاجات من رواياته التي كتبها قبل ذلك، وهي الروايات التي تناولت تجارب عاطفية مشبوبة عرضت كلّ ما كان يريد أن يقوله عن الحياة الغريزية. والاستنتاجات التي توصّل في فانتازيا اللاوعي ذات علاقة مباشرة بأعماله الروائية التالية. فهي تكمن في مواقف عصا هارون والكونغر والثعبان المجنّح. وفي مقدّمة الكتاب يصرّح بأنّه ينوي أن يناقش أفكارا معينة بلغة المعرفة، وبعد ذلك بلغة الفن، وفيما يلي من هذا البحث سوف نعرض لما يطرحه من أفكار في هذا الكتاب قبل أن نتعقّبها في تلك الروايات الثلاث التي هي أيضا كتب رحلات لأسباب سوف نطرحها في حينه.

في هذا الكتاب يرى لورانس أنّ الجسم البشري به مركزان: العلويّ والسفليّ، الموضوعيّ والذاتيّ، أو الروحيّ والحسي وكل منهما يتألف من مركز إرادي وعاطفي. وهما يؤلفان مجال الوعي

الحيويّ. إيجابيّة المرأة تكمن في المركـز العاطفي، وإيجابية الرجل تكمن في المركز الإراديّ. الـذكر هو الجانب السلطـويّ النشط، والمرأة هي الطبيعـة الحسّـاسـة العـاطفيـة. الحبّ في المرأة هـو القطب الايجابيّ، والرجل في الحياة هو القطب الايجابيّ أيضا. (ص ١١).

الرجل له هـدف في الحياة عليه أن يحقّقه، وهو مـدفوع إليه من مراكـزه الإراديّة. والمرأة تؤدي دورها الإيجابي في البيت. لكن الـرجل لا يجب أن يخضع هدفه للعبـة الحبّ، وهو ما فعلـه في الزمن الحديث. فلا بدّ أن يحدث قلب للقطبين، إذ لم يعد الرجـال ملتصقين بأوجه نشاطهم العاطفية غير المنزليـة، وأصبحت النساء يلعبن دور الرجال في الحيـاة. على الرجال أن يكونـوا صادقين مع حسّهم الفطري بهدفهم في الحياة، وعلى النساء أن يلتزمن بمشاعرهن التي هي غاية في حدّ ذاتها.

ولكي يحقّق الرجل أعمق الدوافع فيه، أي نشـاطه الجماعي الهادف، فلا بد أن يشعل الإشبـاع الجنسيّ روحـه العاطفيـة ولورانس في هـذا لا يتفق مع فرويـد في أن هناك دافعـاً جنسيّاً في كل أوجـه النشاط الإنساني. إنه يعترف بأنّ هناك مثل هذا الدافع، لكن لا بصفته العامل الأساسي الوحيد فهو فقط يشعل روح الرجل الذي يتوق لأنشطة جـديدة بعد أن يمتلىء جنسيّا. ولا يمكن أن يكون هناك رغبة في هذا النشاط بدون ذلك الإشباع. وليس معنى هذا أن نخلط بين الشيئين. فالجنس مدمّر إذا اعتبرناه هدفـا في حدّ ذاته. والنشاط الهادف لا يمكن أن يستغني عن الجنـس، لأنه يضرب بجذوره فيه. وبدون أيهما ينجرف الرجال باتجاه العقم. (ص ص ٨٧ ـ ٩٣).

ومن هذا يصل لورانس إلى استنتاج أنّ على الرجال في أيّ مجتمع صحّي حقّا أن يرتهنوا بفعالية واحدة عظمى وألاّ يعتبروا الجنس المحرك أو الدافع الأوحد وإلاّ أفضى بهم هذا إلى اليأس. فهو ليـس إلاّ أساسـا للدافع الأعظم في الـرجل ولا بد من إخضاعـه للروح البطـولية. وعلى المرأة أن تعترف بأنّ دورها ينتهي حيث يبدأ دور الرجل وأن تخضع لتفوقه عليها.

ومن ناحية أخـرى يطالب لورانس الرجـال ألاّ يعيشوا حياتهم من مراكـز الوعي العقلي فقط، وألاّ يخضعوا لتوجيه العقل كلّية، فهو لا يعـدو أن يكون أداة لتوجيه كل شخص حسب طبيعته وإذا ما فرض سيطرتـه على دوافع المرء الأعمق فإنه يصيب وعيه الديناميكي بالعقم وقـد فعلت المثالية هذا بالنـاس في الزمن الحديث. (ص٨٤) ولايعني هـذا أنّه لايجب أن يصل الإنسـان إلى الوعي العقلي. فهناك من ولـدوا لكي يكونوا واعين بشكل حسّاس إلى أعلى درجـة. وعلى الجماهير أن تثق بهؤلاء ثقة مطلقة وأن تـوليهم طـاعتها. ويفضي بنا هـذا التصوّر إلى تصـور لورانس لعـلاقة الـرجل بالـرجل،

وامتـزاج الرجـال في عمل جماعي. فهي عـلاقـة طاعـة وسلطـة، أو خـدمة وقيـادة (ص ص ٨٤ - ١٦٥).

والحقيقـة أن ما يهدف إليـه لورانس من هـذا كله هـو أن يرسم صـورة للمجتمع الصحي كما يتخيلـه، الكتاب يتضمن أرض أحـلامه. وهـو يـدخل إليها مـدخـلا علميًا من خـلال تحليلاتـه النفسية، ويوجز تصوّره لأرض أحلامه تلك في كلماته:

لا بد أن تكون العلاقة القادمة علاقة رجال تجاه رجال بروح من الثقة والمسؤوليّة التي لا يمكن سبر غورها، مـن الخدمة والقيادة، من الطاعـة والسلطة الخالصة. على الرجـال أن يختاروا قادتهم. وأن يطيعوهم حتى الموت. ولا بدّ أن يكون نظاما يبلغ أوجه في الأرستقراطية، مجتمعا يرتفع من قاعدة عريضة ويتدرج ليصل إلى قمّة مثل هرم، إلى قائد أعلى (ص ١٦٥).

وفي عصا هارون والكونغر والثعبان المجنّح يطرح لـورانس هذا التصوّر بلغة الفن. الـروايات الثلاث تقوم على المبادىء التي صاغها في كتابه. فكلها تدور حول العلاقة بين الرجال، أو بالأحرى إرادة القوة.

عصا هارون تحكي قصة صراع الرجل مع المرأة في سبيل السيادة، وما ينشأ عن هذا من بحث الرجل عن عـلاقة مع رجال آخريـن. فإذا كان هارون يهتمّ بعمله بصفتـه سكرتير اتحاد العمال، فإن زوجتـه تفضل لو أنّـه اهتم بأمـور البيت، أي أنّـه انحرف عن الطريق الصحيح، طـريق النشـاط الجماعي الذي يلائم رجلا في مثل عمره. وهارون واع بالصراع الذي يجري بينهما، وهـو لن يتخلى عن هدفه ولن يـرضخ لها. لكنّه عاجز عن الـوصول إلى توحّد مع الآخرين. فهـو يقطع كلّ الروابط التي تشدّه إلى الناس، وكل اتصال ممكن، ويشعر نتيجة لذلك بحاجته إلى تغيير.

وقد ضرب ليللي له المثل. فهو يأمل أن يحدث تغييرا في نفسه من خلال التنقّل من بلد لأخرى والاثنان في نفس الموقف ويعتنقان نفس الآراء. نفس صراع الإرادات من أجل السيادة قد حدث بين ليللي وزوجته. وليللي قد حقّق ذاته جنسيا، ويتوق الآن إلى الدخول في نشاط مع الآخـرين. لكنه يثق في قدراته بصفته سيّدا بين الرجال، مشرعا.

وفي بحثه عن التغيير، ومشاركـة الآخرين، يتجه هارون إلى ايطاليا. وعلى الـرغـم من أنه يشعر بالارهاق في ذلك المكان الغريب عليه، إلا أنـه لايمكنه أن يحقق ذاته في بلده مع زوجته، بل ويشعر

بنوع من الفزع، وإرادتها تعارض طبيعته. لكن شيئا ما قد حدث في ايطاليا، فقد توصّل إلى أن يقبل انفراده على أنّه حالة من حالات تحقيق الذات.

وفي ايطاليا يتصل بمركيز وزوجته ذات الموهبة الموسيقية. وقد أثرت الحرب تأثيرا سيّئا على امكانيات المركيزة الفنية، غير أنّ هارون يحرّر صوتها العذب بنايه ويتملّكه نازعه نحو المرأة مرة أخرى. ويستسلم هارون للمركيزة وإنما لينشل جيبه في الطريق. فعندما يخون الإنسان نفسه ويهبها فإنه يعتقد أنّ الاكتمال الجنسي هو أسمى ما يكون. وهو ما تنبأ به لورانس في فانتازيا اللاوعي حين قال عن مثل هذا الرجل.

إنه يخدم الهدف العظيم الذي وهب له نفسه طالما أنّه يرضيه فحسب. وبعد. ذلك يرفضه، ويعود إلى الجنس. وحين يكون الجنس الدافع الأوّلي المتعارف عليه، فإنّ العالم ينجرف إلى اليأس والفوضى (ص ٩٩).

ولعله نوع من العدالة الشعرية أن يتحطّم هارون أشلاء حين يرضخ للمرة الثانية. فالفوضويون. وهم عشّاق مرتدون مثله، يحطمونه حين تسحق قنبلة نايه في النهاية.

ولورانس يعني أنّ العالم، لا هارون وحده، قد دفع إلى اليأس والفوضى. طبيعة الإنسان الداخلية والخارجية يتّحدان في حالة فوضى. إنّ فكرة الحرب التي تعشش في أذهان ناس مثل جيم أو هيربرتسن تدفعهم إلى الجنون. والأمل الوحيد الباقي للإنسانية هو أن يدرك كلّ فرد وحدته. ولكي يطوّر نفسه. عليه أن ينضم إلى نشاط بناء ما تحت إمرة قائد. وعلى الدافع إلى الحب أن يفسح الطريق أمام إرادة القوة. ولهذا أبقانا لورانس طوال الرواية واعين بأنّ هارون في خطر وهو وحده، وأنّه كان يفتقد ليلي ويعرف أنّ بإمكانه أن ينقذه.

وفي الكونغر تتأكد معركة صراع الإرادات بشكل أعمق. فالمرأة تحاول أن تحول الرجل عن الاختلاط برجال آخرين في نشاط جماعي. وطبيعة ذلك النشاط أكثر وضوحا عمّا هي عليه في عصا هارون البيئة المنظرية هي استراليا، وهي أرض لم تتعرض للتغيرات التي تعرضت لها أوروبا التي كانت قد انتهت بالنسبة للورانس كأرض يمكنه أن يقيم عليها مدينته المثالية.

في هذه الرواية يتعرف ريتشاردلوفات سومرز، بعد أن يستقر في سيدني، برجل من الطبقة العاملة هو جاك كالكوت. وعلى الرغم من أنّ سومرز يهوى استراليا لتحرّره من الضغوط التي عرفها

في أوروبا، إلاّ أنّه يجد استراليا خاوية من المعنى. فالحرّية التي يخبرها هناك حرّية لا تحمل معها مسؤولية. ويتورّط في حركة سريّة لتفويض النظام يعرفه عليها كالكوت لكنه يتردّد في الانخراط فيها لأن السياسة ليست مجاله، وإن كانت تتيح له فرصة أن يتجاوز زوجته بالدخول في نشاط ما مع رجال آخرين. وتحاول زوجته أن تقنعه ألاّ يتورّط، لأنّه يفعل ذلك سلفا في كتاباته. لكنه يعيرها أذناً صماء.

وجاك قد أسلم نفسه إلى تلك الحركة لثقته العمياء في قائد هو كونغر. وسومرز لا يرى نفسه أقل من قائد. وهو لن يرتبط بقضية ما لم تتوافق مع فكرته عن الأساس الذي يجب أن تقوم عليه العلاقة بين الرجال. فهو يريد علاقة حيّة مع الآخرين لا تقوم على عاطفة الحب. هو ينشد: "التعرف الباطني على الفرق والأولوية الفطرية، الابتهاج بالطاعة ومسؤوليّة السلطة المقدسة". (١٢٠)

وكونغر، قائد الحفّارين، يؤمن بأن العلاقة بين اثنين يجب أن تقوم على الحب، فحيث الحب يوجد الخلق (ص ١٤٧) إنّه يريد أن يعمل كل شيء من خلال العقل، لا من خلال تحرير الذات السلفي من سيطرة الذات العليا كما يريد سومرز. فالأخير يرى أنّ الرابطة بين رجلين يجب أن تقوم على المعرفة الغريزية التي يكفلها الوعي الديناميكي. والقائد الذي يحظى بحساسيّة لا نهائيّة هو القادر على تفسير الدوافع اللامفهومة التي تتذبذب في أرواح الرجال.

وويلي سترذس، زعيم الاشتراكيين وحزب العمال يريد رابطة جديدة بين الرجال الذين يأتمرون بأمره، وهي الثقة. هذا هو المبدأ الجديد. وسومرز يعترض على هذا، لأنّه يعرف الكارثة التي يمكن أن تتمخّض عنها هذه العاطفة الجديدة. فكما دمر الحب العالم، كذلك سوف تفعل الثقة لأنّ البشر لا بد أن يرتدوا عن المحبوب في وقت ما، فليست هناك عاطفة مطلقة. وهو لا يستجيب لسترذس لأنّه يدرك أنّ المال هو لبّ خطته، في حين أنّ مخاطبة إرادة القوة في الجماهير هي مجرّد ادّعاء. ولذا يفضّل أن ينصرف عن كآبة غريزة التملك وأن يستبدلها بالوعي بالأفضلية الفطرية، وجلال الفرد الفطري فما يدعو إليه كونغر وسترذس لا بد أن يؤدّي إلى الفوضى وهو ما يتضح في نهاية الرواية حين تندلع أعمال الشغب ويقتل كونغر باسم الحب، ويتعلق سومرز بوجوده المنفصل.

مثل هذه العلاقة التي ينشدها سومرز تتحقّق في الثعبان المجنّح حيث أقام الرجال الرابطة بينهم على أساس التفوّق الفطري في قائدهم. وطبيعة النشاط الذي يجمع بين الرجال روحية في أساسها. ويبقى للمرأة الحرون أن تعترف بهذا وأن تؤمن بتفوّق هدف الرجل على هدفها. والثعبان

المجنّح يرمز إلى التوازن بين الذات العليا والذات السفلى. هو توازن ينطبق على كل من الرجل والمرأة. فعلى الرجل، الذي يمثّل الروحانية، والمرأة التي تمثل الجنس، أن يحقّقا ذلك التوازن بداخل كلّ منهما وفيما بينهما..

وفي هذه الرواية تمثّل كيت الوعي الأوروبي الحديث الذي ينبغي عليه أن يخضع للجوانب الغامضة العميقة في المكسيكيين من أمثال رامون وسيبريانو. لقد وضع رامون أساس عقيدة جديدة تقتلع الديانات التي تمجد الروح. في هذه العقيدة يأخذ رامون في الاعتبار الجسد الإنساني بغموضه العميق الذي يجب أن نعترف به، لا بالروح فقط، وعلى الرغم من أنّ كيت تنفّر من قدرات المكسيكيين الجسدية، إلا أنّها تشعر في أعماقها أنّ بهم شيئا ينقصها. فوعيهم ليس وعيا عقلانياً، وهذه هي لغتها وكارلوتا، زوجة رامون تنكره وتنكر الأعماق الغامضة التي يمثلها. إنها تتشبث بروحانيتها وحبها له، وفي هذين يكمن هلاكها لأنّهما يجلبان لها الموت. إنّها تعتقد أنّ رامون إنّما يسعى إلى القوة. والحقيقة أنّه لا يريد أن يكون سيدا على الرجال، بل سيدا بين الرجال. العقيدة التي يتبعها ليس بها تصوّر لإله أو أي مبدأ سائد، بل تصوّر لعدة آلهة تمثل الدوافع والغرائز التي تتملك الإنسان. وهي يسعى إلى تحرير الإنسان من استحواذ فكرة الحب عليه، ويريد أن يخضع الرجال للجوانب الغامضة العميقة فيهم.

ورامون رجل قادر على فرض إرادته على الآخرين، وهو ما يجعل سيبريانو يخضع له ويؤمن بإمكانياته. وكيت تعترف بتلك القوة في الرجل، لكنها طوال الوقت حريصة من سيبريانو الذي يحاول أن يفرض عليها إرادته. فهي لن ترضخ له وتيريزا تعلمها أنّها بمفردها لا تعني شيئا، إنّها لا تعني شيئا إلا باتصالها بالذكر الصافي. إنّ كلّ ما تعاني منه كيت هو حنينها إلى الماضي، إلى الروح، إلى لعبة الحب، حتى تدرك أنّها بخضوعها لروح الرجل الأعظم تحرّر نفسها من الرقية القديمة. والعلاقة الجديدة بينها وبين سيبريانو تشبه تلك العلاقة بين رامون ورجاله، الاتصال الذي ينشأ من وحدة الدم.

وهكذا يجد لورانس في المكسيكيين شعبا أقرب إلى الطبيعة قادرا على تغيير ذاته أكثر من الشعوب التي تنشد الخلاص من خلال الروح أو من خلال السياسة. وربما عبّر ليلى في **عصا هارون** عن هذا في اعتقاده بأنّ الإنسانية ينبغي أن تتقبل الدافع إلى القوة بصفته دافعا إلى الحياة لا بالمعنى الذي قصد إليه نيتشه، لا السيطرة الفكرية، أو إرادة القوة الواعية، ولكن القوة الحية الخصبة. وقد ناقش كلّ من نيتشه ولورانس إرادة القوة، ولكن بتعارض تامّ. فقد كان نيتشه يؤمن بأنّ أمر المشرع أكثر أهمية من احتياجات الرجال فهو المفكّر الذي يقرّر وعلى الرجال أن يتصرفوا طبقا لأوامره.

وتصوّر لورانس للقائد مختلف تماما. فهو رجل يمتلك روحا حسّاسة جريئة بدرجة رائعة تستطيع أن تفسّر النبض الغامض في صورة فعل أو قول، وبهذا تنير السبيل للرجال بتفسير احتياجاتهم لها. إنّ الإمكانيات العقلية أو الفكرية تهتم بالكون الخارجي، والعلاقة التي يسعى إلى إقامتها بين الرجال تقوم على الحقائق الداخلية لكلّ فرد منفصل على حدة.

وقد نستطيع أن نقول إنّ نيتشه كان اشتراكيا في دفاعه عن حقوق العمال، إذ كان يعتقد أن العمال سوف تؤول إليهم الحقوق التي يخسرها أصحاب رؤوس الأموال. وقد كسبوا حقوقا لم يتنازل عنها أصحاب رؤوس الأموال عن طيب خاطر، وحصلوا على تدريب عسكري وسوف يستولون على السلطة بالقوة. وقد يعترف ليللي بأن الاشتراكية هي الخطوة الحتمية التالية في العالم الحديث. لكنه يعلن في نفس الوقت أنّه من شأنه إنْ كانت أم لم تكن، ويضع خطوط مشروعه هو في سبيل مستقبل أفضل. فلم يكن لورانس يؤمن بقدرة العمال على إدارة العالم. وكان يمقت علاقة تقوم بين الرجال على أساس غريزة التملّك كما يقول سبندر في العنصر الخلاق (٩٦٠) وهذا واضح في رواية الكونغر، فإذا تعامل الناس مع أحدهم الآخر على أنّهم شيء يمتلك أو فكرة عقلية، فهذا هو النوع الخاطيء من الاندماج، فالإحساس بالانفصال لا بد من أن يكون مقدّسا وأن يكون الاتصال بين أقطاب وحيدة ومستقلة. (ص ٣٣٣) وهارون يبحث عن علاقة يحتفظ فيها بتفرّده. وسومرز ينفر من الإرادة الفكرية لكونغر الواعي سياسيا ولورانس يجادل باتجاه أنّه لا ينبغي أن يكون الحب أو القوة هما القوتان المسيطرتان وإلاّ تبع ذلك انهيار. ففي تحقيق التوازن بين الاثنين يكمن الاستقرار. هذه هي السمة الأساسية التي يطرحها لورانس في عصا هارون ويطوّرها في الكونغر ليصل بها إلى نهاية في الثعبان المجنّح. أمّا كيف يستغل المنظر كبيئة روائية فهذا ما نعرض له فيما يلي:

في عصا هارون هناك تباين بين منظرين، انجليزي وإيطالي. وتقع أحداث الفصول السبعة الأولى في لندن بالليل. ويؤكد لورانس على المناظر الليلية في استهلاله للفصل الرابع بقوله: «لن ترى قصتنا ضوء النهار بعد». والليل يرتبط في فانتازيا اللاوعي بالحب. فإذا كان الحب قد انتهى بالنسبة للكاتب فهكذا أيضا البلد الذي يمثّله. وهو يستغل تصوير جماعة الأصدقاء البوهيميين في الجزء الأول من الرواية ليحقّق أمرين: أن يكشف عن حنينهم الدائم إلى الحب، وعن الحال بين الشباب في فترة ما بعد الحرب.

ومعظم المناظر في الفصول الأولى عن جوانب من الحياة العائلية والاجتماعية. فسواء كان المنظر في حانة، أو مجموعة الأصدقاء في بيت أو في الأوبرا أو في سوق كوفنت جاردن، فإنّ الكاتب في كل الحالات يستعرض المناظر التي تميّز الحياة الانجليزية قبل أن يرحل هارون عن انجلترا ومنظر الريف

المظلم الأجوف باهتياجه العصبيّ القلق في ليلة عيد الميلاد منظر شديد الحيوية. ففي فقرات وصفية وحواريات يعطينا لورانس جانبا من الحياة الانجليزية في تلك المناسبة. لكنه لا يقنع بالتصوير الذاتي المجرد. فهو يوشي الوصف ببعض التعليقات.

عندما وصل إلى الشارع الرئيسي، شارع المحلات الوحيد، كان الشارع مزدحما. ويبدو أن الشارع قد شهد منافسة عنيفة وإن كانت هادئة، وضوءا خافتا استمرّ طوال فترة العصر، والناس تجاهد كي تشتري أشياء، كي تحصل على أشياء. (ص ١٧)

وإذا كانت مثل هذه الملاحظات تكشف عن طبيعة حبّ تملك الأشياء، فإن وصف المناظر لا يخلو من السخرية وخيبة الأمل في المجتمع في تصويره لدار الأوبرا.

وإذا كان من المستحيل أن تكون في مقصورة مهمة دون أن تجرب النشوة الغربية التي يولدها التميّز الاجتماعي الحديث، فمن المستحيل بنفس الدرجة أن توجد هناك دون شعور ما بالرعب للمنظر الذى يعرض على خشبة المسرح. (ص ٥١)

وعادة ما يبدأ لورانس بتصوير المنظر بكل تفصيلاته الدقيقة بما يضفيه ذلك من حيوية. قبل أن تظهر شخصياته على مسرح الأحداث. والمنظر هنا يتّفق عادة مع حالة الشخصية النفسية. ففي أحد الفصول يصوّر منظر السوق بكل تفصيلاته: الجياد، الحمير، الأقفاص، الخدم، الحمالين العمالقة. وفي هذا المنظر يظهر هارون وقد تمكنت منه الانفلونزا بحيث تصبح حالة الاكتئاب التي تصاحب نزلة البرد تعليقا على المنظر التجاري.

وما أن ينتقل المنظر إلى ايطاليا حتى يحرص لورانس على تصوير المناظر التي تقع عليه عينا هارون، وتسقط البيئة المنظرية الجديدة ضوءا على مأساة هارون. فهي إما تقف على النقيض من الأشياء التي اعتاد عليها، أو تتّفق مع طبيعته ذاتها. فبصفته وافدا جديدا في ايطاليا، من الطبيعي أن يلقي نظرة على البيئة الجديدة المحيطة به. وبعد أن يستعرض جبال الألب والشوارع والعربات والناس يعرض لنا استجابته لها. فإذا شعر بتغيّر داخلي فما ذلك إلا بسبب الدهشة التي يولدها فيه "شعوره بالتبجّح واللامبالاة المزهوّة التي تمثّل أفضل هدية تقدمها ايطاليا لرجل انجليزي" (ص ١٦٥)

ويكرس الكاتب فصلين تقريبا لردود فعل هارون للبيئة الجديدة المحيطة به. وهي لوحات في

كتاب رحلات ذات علاقة بالفكرة التي تطرحها الرواية. ففي الفصل الذي يحمل عنوانا "رحلة بالقطار" يقدم لنا لقطات عن طبيعة الناس والأشياء من خلال نافذة القطار يستطيع هارون أن يشعر بجمال الأشياء لأنها مكشوفة: أشجار الحور الرمادية المفضضة، البيوت وسط المزارع تقف عارية والأراضي تمتد دون حائل (ص ٢١٢) وفي تباينها عن الحياة الانجليزية المسيّجة تكشف المناظر عن روح الايطاليين المتفتحة، حتى بدت طبيعة الأشياء لعيني هارون أكثر جاذبية من الانغلاق الانجليزي الوجل، تحرر في نفسه شيئا هرب من انجلترا بعيدا عنه.

وفي مجرى السرد يحكي لورانس حادثا ليلقي ضوءا على أسلوب حياة الايطاليين وتفكيرهم. لقد احتلّ شخص مقعد هارون في القطار، فإذا خاطبه أحد معارف هارون رفع إليه عينيه منذرا. الموقف يكشف عن الوعي الطبقي لدى الايطاليين. فالرجل يجادل قائلا إن الدرجة الثالثة للرجال الشرفاء فقط، لا لأبناء الطبقات الوسطى المتعالية. وفي مشهد آخر في نفس الفصل يصور الكاتب منظرا لثلاثة من الانجليز من بينهم هارون يقيمون معسكرا وسط مظاهر الحضارة لكي يصنعوا شايا، وهو ما يوحي بأسلوب الرحّالة المتمهلين الذين لا يتعجلون الأشياء.

وفي الفصل الذي يحمل عنوانا "فلورنسا" تتكشّف لنا روح المكان من خلال تصوير التماثيل العارية. فهناك علاقة بين الفن وبين طبيعة الإنسان الداخلية، وطبيعة الإنسان الداخلية مرتبطة بطبيعته الخارجية أو بتعبيره عنها في العالم الخارجي والصور مرسومة باللونين الأبيض والأسود، حيث تمثال ديفيد الأبيض العاري يبرز متلألئا بالمقارنة إلى الميدان القديم المظلم العاري. ويضفي الجو الممطر على الصورة لمسة حسّية حيث تسيل مياه المطر على التماثيل مما يعطي إيحاء بطبيعة الفلورنسيين الجسدية المشبوبة العاطفة. (ص ٢٢٥) وتظل الصورة تغلفها الظلال كما لو كان لورانس يريد القارىء أن يتصورها على أنها صورة لا على أنها حقيقة مجسدة. والقارىء يتقبلها على أنها صورة مرسومة على الورق. فالمنظر كله في نهاية الأمر يمثل:

عصرا انقضى حين كان الرجال يعيشون على أعلى درجة من الانفعالية والصراحة، هنا، عند نهاية العالم القديم وبداية العالم الجديد. وأصبحوا منذ ذلك الحين يعوّلون ويبررون (ص ٢٢٥).

وبالنسبة لهارون، الذي يبحث عن استعادة فقدانه لحقوقه على المرأة، فإن تصوير المنظر لرجال حقيقيين يمنحه الإحساس بأنه قد وصل إلى أحد مراكز العالم الإنساني كان الرجال فيهم يتمتعون بحقوقهم. المنظر بينة منظرية تجسّد الفكرة التي تقوم عليها الرواية، أو إحدى أفكارها الأساسية. ولذلك فليس من الغريب أن يشعر هارون بدافع جديد يثور فيه ما أن يشعر بأنه بين رجال.

ومنظر أحداث الشغب الذي يصوره الفصل الذي يحمل عنوانا "العشرون من سبتمبر" يهيّئنا لأحداث الشغب الهائلة التي تسحق ناي هارون عند النهاية. إنّ لورانس يثير في القارىء الإحساس بالرهبة لمرأى أفكاك العمال ووجوههم الشيطانية وإرادتهم الحادّة. إنهم الجماهير التي لا ينبغي أن يعهد إليها بالسلطة. الصورة هنا تطرح تصوّره للجماهير التي يحفزها الانتقام وتدفعها مشاعرها المريرة ورغبتها في الإيذاء. والمنظر أيضا صورة للدافع إلى الحب وقد انقلب على نفسه: وهو دافع مدمر مثلما الحب أيضا مدمر. ولهذا تتشابك الفكرة والبيئة المنظرية في "العصا المكسور" فإذا كان هارون مدفوعا بالحب، فإن الاشتراكيين مدفوعون بالحقد في مظاهراتهم. فهم "كلاب الحرب" (ص ٢٩٠) الحريصون على التدمير. ومنظر تفجير المقهى يوحي بالفوضى الداخلية والخارجية التي يمكن أن تحدث إذا ظلّ العالم على إصراره أن يظل عبدا للحب.

وفي الكونغرو يثير لورانس روح المكان العتيق الذي تسود فيه اتجاهات فكرية جديدة بين سكان المستعمرات. لكن الوجهين متشابكان فالمكان بكل قدمه بحاجة إلى اتجاهات جديدة. فالفصل الأول يعرض صورة مصغرة للبلد. بطل الرواية، سومرز، يصف نزهة على الأقدام في أجمة في ليلة مقمرة، ويسقط على المنظر مشاعره مثيرا بذلك نفس التجربة في القارىء. ففي الأجمة يداخل سومرز الإحساس بالرعب، لا لأنّ هناك أشباحا، بل لأن هناك وجودا يفسّره على أنه روح المكان (ص ١٧) التجربة الشاعرية توحي بحاجة البلد إلى دم جديد يبعث الحياة فيه، وتصوير الأجمة ليس إلاّ تلميحا لما سيحدث في الرواية، فهو تصوير يرتبط بفكرتها الأساسية.

وبعد أن يفرغ الراوية من تصوير الأجمة، ومن سيدني التي تقع أسفلها، ومن الطريق اللبني من النجوم فوقها يقول "يكفي أنّ سومرز دلف إلى بيته الريفي الصغير ووجد زوجته تعدّ مائدة العشاء بلحم بارد وسلاطة." (ص ٢١) فبعد أن ينتهي لورانس من تصوير منظر كهذا، وأعطى الإيحاء بروح المكان ينزل بنا بالتدريج ليضعنا وسط الحياة اليومية العادية.

بعد ذلك ينقل الرواية مركز الاهتمام إلى الوجه الإنساني للبلد. فإذا كان الوجود الذي أحسّه سومرز في الأجمة يريد الإمساك به، فإنّ الرجل الأبيض الذي يمثّل الوعي والثقافة الأوربيين يريد أن يغمره في مناخ بلد تبنى أساليب الحياة الأوربية وعدلها لتلائم احتياجاته وطبيعته. وهذا المعنى متضمّن في اللوحة التي يرسمها لسيدني بصفتها تجمع كل صفات لندن في المظهر، حيث هي بديل لها بمقدار ضئيل (٢٥) لكنها من نواح أخرى تقف على النقيض من لندن، إذ أنّ التفرقة الطبقية غير موجودة هنا. فإذا كانت الحياة الأوروبية قد تأسّست على المبدأ الارستقراطي، فإن الحياة الاسترالية تقوم على المبدأ الديمقراطي.

و إذا كان سومرز يشعر هنا بتحرّره من ضغوط الحياة الأوروبية وتوتراتها، إلا أنّه يشعر أيضا بأنّ أستراليا مازالت بحاجة إلى لمسة أخيرة . فهنا يجرّب نوعا من الحرّية المطلقة التي تصل إلى حد الفوضى، إذ أنّ الناس لا يبالون بشيء بمعنى ما جوهري. الحرية اللامسؤولة لا بدّ أن يحلّ محلّها حرية تعرف المسؤولية . وفي رواية تتناول فكرة إرادة القوة يرى سومرز أن استراليا بلد ينقصه الإحساس بالسلطة. ولهذا كان الصراع الذي يدور في الرواية ليجعل من استراليا بلدا حقيقيا بالمعنى الذي يراه كونغر أو المعنى الذي يراه سترذس، أو حقيقة بالمعنى الذي يراه سومرز.

ولهذا فإنه تصوير المناظر الطبيعية يوحي إلى القارىء بالعصور التي تكوّن فيها الفحم، حيث الأرض تدفع الناس إلى النوم، أو "تجرفهم إلى خدر يشبه اللاوعي الذي يسود عالم الشفق، " (ص ١٩٧) مما يغزو الروح بإحساس باللامبالاة. ولعل هذا هو ما يجعل سومرز يجد متعة عند مرأى الطيور وهي تبدي لا مبالاة بوجوده. أو تعجب للأصوات التي يصدرها، فيتساءل عن أيهما سينتصر أخيرا، الروح الحديث أو العالم العتيق.

وفي الثعبان المجنح تتناول الفصول التسعة الأولى المكان والروح الذي يسوده. وفي هذا يبدو الناس والبيئة التي تحيط بهم مغلفين بنوع من الغموض، وهو ما يشكل خلفية ـ لفكرة الرواية إضافة إلى هذا كتاب رحلات يتحقّق تصوير البلد فيه من خلال عيني أجنبي يمثل الحياة الأوروبية وفكرها.

منذ البداية تجد كيت المكسيك بلدا منفرا، شريرا، يكمن تحت سطحها نوع من الخسة والقبح الخفي، فوسط السكون، تنبض الليالي بخوف مروّع، والناس يكمن بداخلهم إرادة حديدية كما لو كانوا تتلبسهم رغبة القتل. فهي بلد يسوده، الاعتقاد بأن الروح أو النفس هي المبدأ الحيوي الذي ينظّم الكون. وكل شيء يوحي بعمق دم السكان الذين يعيشون في القذارة وينظرون إلى النظافة على أنها شيء هزلي.

والمناظر الطبيعية تشاطر الناس نفس صفات الغموض والشر. الجبال تقف وسط الظلال كأنها وحوش تؤثر أصواتها في الدم مباشرة. بل إنها توحي بحركة الدم إلى أسفل، على النقيض من جبال أوروبا التي يكسوها الجليد الذي يوحي بالتسامي والرقيّ. والصور الذهنية تجعل القارىء يتصل بجوانب الغموض في الكون.

كان هناك على ضوء الشمس الزاهي بخار داكن يتصاعد من دم غاضب عاجز، وكانت

الزهور تبدو وقد ضربت بجذورها في دم مراق. كانت روح المكان قاسية، مدمّرة، تجذب روح الإنسان إلى أسفل (ص ٥٣) وتلعب الحدوتة دورا في الإيحاء بمناخ القدم. وهكذا يأتي القارىء إلى بعض النساء وهن ينشرن ثيابا مغسولة على أحجار بحيرة وتصيبهن الدهشة لدى رؤية رجل يبرز من الماء ويرتدي بعض هذه الملابس ويخبرهن أن الآلهة سوف تعود. الحدوتة تثير مناخا يبعث على التشاؤم والخوف. فالبحيرة ترتبط في أذهان الأهالي بدياناتهم القديمة، وباعتقادهم في الخوارق.

وكيت تشعر بروح المكان يحاول أن يلغي وعيها الأبيض، أن يفرض إرادته عليها ليخضعها لجوانب الغموض في البلد ويحطم مقاومتها العنيدة. لكنها قد توصلت إلى الاعتراف بأنّ الغموض هو الأمل الوحيد لإنسان أصابه السأم من أسلوب حياة بالية. فهي قد جاءت إلى هنا لأنّ انسياب الحياة فيها قد توقّف وهي تعلم أنها لا يمكنها أن تبدأ من جديد في أوروبا. (ص ٨٣) وعند النهاية تدرك أنّ العنف الذي يبدو في عيون الهنود يتوازن مع رقة غامضة، لكن الناس يرفضون الروح الحديث.

وإلى جانب مثل هذا التصوير نجد في الرواية مناطق وصفيَّة تعرض المناظر من أجل المناظر في حدّ ذاتها. مثل هذا الوصف يتناثر في الرواية كما في وصف الميدان الذي يلتقي فيه الناس. لكن القاعدة العامة هي أنّ معظم المناطق الوصفية تلوّنها الرغبة في نقل معلومة، أو إثارة مناخ عام كخلفية تبرز عليها الفكرة الأساسية التي تتناولها الرواية.

تقييم .

على الرغم من وجود اختلاف جوهري بين الرواية وكتاب الرحلات إلا أنّهما يشتركان في صفات معينة. فكتاب الرحلات يصور المناظر الطبيعية، ويرسم لوحة لعادات الناس وتقاليدهم، ويفسر أساليب حياتهم وتفكيرهم وفي حدود هذا يقف كتاب الرحلات بصفته إحدى الشرائح التي تدخل في تكوين الرواية. وقد يتضمن فكرة أساسية يحيط بها كما هو واضح في كتب رحلات د. هـ لورانس حيث يدور كلّ شيء حول قوانين الحياة التي صاغها عن الحياة الإنسانية في مرحلة تطوّره المبكرة. لكن كتاب الرحلات تنقصه الحبكة التي تشدّ الأحداث في قصة متماسكة.

وفي أحد كتب الرحلات، مثل كتاب جورج بورو "الكتاب المقدس في أسبانيا" نلاحظ تشابها أكبر بين النوعين الأدبيين، بل بين كتاب الرحلات والمسرحية. ويبدو هذا واضحا في الطريقة التي تصاغ بها الحواريات، وأسلوب القصص الذي أصبح بسيطا ومباشرا عند كتاب القرن العشرين وهو مانلمسه في كتابات لورانس.

وكتاب الرحلات يضع نصب عينيه هدفا أساسيا هو التوصل إلى تصوير روح المكان، وهو يتمكن من تحقيق هذا الهدف بأن يثير في القارىء إحساسا بالدهشة والمتعة، أو العكس وهو إحساس مواز لإحساس الكاتب نفسه وفي سبيل تحقيق هذا يتوسل الكاتب بكل الوسائل الممكنة: قص أحداث، قصص قصيرة، تصوير خلفية المكان التاريخية والسياسية والاجتماعية، وعادات الناس ومعتقداتهم وتقاليدهم وسلوكهم. وكتب الرحلات التي كتبها ج. بورو و. د. هدسون، ر. ل. ستيفنسون تحفل بأمثلة من هذا ولعل هذا يبيّن أن أساليب التوضيح هذه ملك شائع لكتّاب أدب الرحلات بصفتها وسائل تعبير.

وقد يذهب كتاب الرحلات إلى حد محاولة إعطاء تفسير فلسفي لأهداف الناس ووسائلهم، وإن لم يكن بهذا التفسير أيّ جديد من الناحية الفلسفية. وهو يقص، علاوة على ذلك، الأحداث التعيسة أو الأحداث السعيدة التي يصادفها الرحّالة. فكتاب الرحلات في نهاية الأمر تصوير لرحلة الحياة التي تمتع الأفكار فيها العقل بنفس القدر الذي يمتعها تصوير المناظر الطبيعية والناس. ويعبر ستيفنسون عن هذا بقوله في كتابه رحلة داخل البلاد:

كانت الأفكار تطرح نفسها دون أن أطلبها، لم تكن أفكاري، كان من الواضح أنها أفكار شخص آخر، واعتبرتها جزءا من المنظر الطبيعي (ص ٧٨).

وبعض كتب الرحلات أعمال فنية طيبة في حدود أنها ترضي إحساس القارىء بالقيام بمغامرة في المجهول. وكتاب ستيفنسون رحلة داخل البلاد تصوّر مغامرة بكل ما يفاجئنا به على الطريق من أحداث وأوصاف وتأملات تثيرها فيه رحلته.

يقول ر. أولد نجتون في المقدمة التي كتبها لكتاب الصباح في المكسيك:

غالبا ما يحدث آن يجد الكاتب عند إعداد كتاب أن لديه فائضة متبقية أو أنه قد كتب أشياء ثانوية ترتبط بفكرته الأساسية، وبالتالي فإنه ينبغي أن نقرأ الصباح في المكسيك مقترنا بالثعبان المجنّح (المقدمةص ٥)

ومن هذا نتبين أنّ جوانب الحياة في الأراضي الأجنبية التي يستغلها لورانس كبيئات منظرية لرواياته لاتنقل كاملة، وأنه اختار منها فقط الجوانب الأكثر تواؤما مع الفكرة الأساسية في الرواية وكان كتاب الرحلات وسيلة لتناول الجوانب التي يمكنه استغلالها في الروايات تناولا مستفيضا.

ومن ثم نصل إلى استنتاج بأنّ فهم فكرة إرادة القوة، مثلا، تتطلبّ بالضرورة التعرف على الأماكن التي استغلّها لورانس كبيئات منظرية لرواياته. وقراءة كتب الرحلات يمكّننا من فهم السبب الذي من أجله تصل فكرة إرادة القوة إلى نهايتها في المكسيك. ونحن نعلم أنّ لورانس انتهى به الأمر إلى تأييد إرادة القوة الباطنية والحط من شأن إرادة القوة العقلية، كان لورانس في هذا ضد الوعي العقلي. وهكذا يختتم الفكرة في الثعبان المجنح لأنه وجد في المكسيك الهنديّة، بروحها وباطنية شعبها، أرضا صالحة كبيئة منظرية ينهي فيها فكرته.

وفضلا عن ذلك، فإننا نقرأ هذه الكتب لنتصوّر المناظر في بلاد بعيدة تصوراً بصريّا وتصوير الكاتب للمناظر لايقلّ أهمية عن تصويره للناس. ولهذا فإن اللوحات التي تصوّر شخصيات في هذه الكتب تلقي ضوءا على شخصيات رواياته. كتب الرحلات تلقي مزيدا من الضوء على المناظر والشخصيات التي يقدمها في رواياته.

وفي كتابه البحر وساردينيا يعترف لورانس بالسبب الذي اتجه من أجله إلى الرحلات، وبالتالي يمكننا أن نتبيّن سبب اتجاهه إلى تبني شكل كتب الرحلات كوسيلة للتعبير عن ذاته بصيغة أدبية يقول:

إن ثلاثة أرواح ضائعة في الحياة، وأن أمشي الهوينا وأمشي الهوينا ضائعا في الحياة معهم، عبر المساحة المثيرة طالما امتدّت بنا الحياة. فلماذا نرسو؟ ليس هناك ما نرسو من أجله ـ لم تعد بالأرض إجابة على تساؤلات الروح. لقد غدت جامدة ـ أعطني سفينة صغيرة، أيتها الآلهة الرحيمة، وثلاثة رفاق ضائعين في الحياة. استمعي إليّ ودعيني أتجوّل بلا هدف عبر هذا العالم الخارجي المفعم بالحيوية العالم الخالي من الإنسان، حيث تطير المسافة بسعادة (ص ٧٠).

وفي كتابه رحلة داخل البلاد يقول ر. ل ستيفنسون شيئا يؤدّي إلى نفس الشيء:
(أن أرحل خارج بلدي ونفسي، أود أن أغوص بين ظروف جديدة لفترة ما، كما لو كنت أغوص في عنصر أوليّ آخر (ص٧٣).

وكتب رحلات ستيفنسون تعبيرٌ عن هذه النظر. فالمتعة التي تنقلها إلى القارىء تعادل المتعة التي جربها هو ونقلها إلينا في كتبه. لكن هناك فرقاً أساسياً بين لورانس وستيفنسون. فكتب ستيفنسون تعطي الإحساس بالمتعة من خلال اللمسات الفكهة التي تسود فيها. أمّا المتعة التي تعطيها كتب لورانس فتكمن في الإضاءات التي تلقيها على تصوراته وفلسفته.

وليست هـذه هي القـاعدة في كتـاب الـرحلات الآخـرين . فقـد كـان جورج بـورو يجمع بين الأمرين . فقد يصـوّر المنظر من أجل المنظر في حد ذاته ، كما هو الحال في الفصـول الثلاثة الأخيرة من الكتاب المقدس في أسبانيا ، التي تكشف عن اهتمام بـالبيئة الجديدة بغـض النظر عن مهمّة تـوزيع الكتاب المقدس ، وقد يكون المنظر وسيلة لطرح الأفكار .

وقـد كـان لورانس يحاول في كتـب رحلاتـه أن يـرسم صـورة للأمـاكن التي زارهـا بخلفيـاتها الاجتماعيـة والسياسيـة والتـاريخية . لكن انشغـالـه بـاستكشاف حيـاة النـاس الغريـزيـة اشد إثـارة للاهتمام . ونحن نقرأ كتب رحلاته لدراسة هـذا الجانب نقرأها بصفتها أعمالا فنية يخضع فيها الشكل الأدبي لاستكشافه لهذه الجوانب من الحيـاة الإنسانية فهو في هذه الكتب رحالـة ومفكر وفنان . الفنان فيه أوضح ما يكون في خاتمة الصباح في المكسيك في الفصل الذي يحمل عنوانا " قليل من ضوء القمر بالليمـون " في هذا الفصل تثور في نفسـه تداعيـات بين المناخ السائد في المكسيك والمنـاخ السائد في أوروبا عند مـرآه للقمر على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . ويؤدّى هـذا إلى تعليق منه على الفرق في الرؤيا بين جنسين مختلفين تمام الاختـلاف ، وعلى الفرق في المصير ، وبالتالي الفـرق بين مكانين مختلفين تماما .

وقد نقل إلينا في كتبـه العديد من الصور للبحر والأرض والجبال والتـلال والدروب والطرقات والسهـول . ورسم قـدرا هائلا من صـور لنـاس ، ومن الممكن أن نلتقط عـديـداً من الأمثلة بطـريقـة عشوائيـة في أيّ من كتبه ، وليكـن البحر وسـاردينيا . لو أن الـواحد مسح النـوافذ ، وألقـى نظرة على الخارج ، أيكات الليمـون بعديـد من حبـات الليمون البيضـاء المبللة ، بيـوت دمرتها الـزلازل ، أكواخ جديدة ، بحر رمادي متعب إلى اليمين ، وإلى اليسار تعقدات المنحـدرات العالية الرمادية المعتمة التي يخرج منها قاع أنهار حجرية مفرطة في عرضها ، وأحيانا طريقا ورجلا يمتطي بغلا (ص ٢٤) .

كتبه تحفل بمثل هذه الأمثلة

غير أن اهتمامه لا ينصب دائما على مجرّد وصف المناظر . فأحيانا يصبح الفن خاضعـا لتأمّلاته الفلسفية ، كما في اللوحة التي تحمل عنوانا " يوم السوق " في الصباح في المكسيك . فبعد أن يستعرض الناس وهم في طريقهم إلى السوق ، والسوق ذاته ، يواصل لورانس قوله :

أن يبيعـوا ، أن يشتروا ، ولكن فـوق كل شيء ، أن يختلطـوا . ففـي العـالم القـديم يجد الـرجـال

لأنفسهم عـذرين ليتجهوا معـا إلى مـركز، وليختلطـوا بحـرية في حشـد مختلط بـلا شكوك . السـوق والدين . هذان وحدهما هما ما يجمعان الرجال وهما بلا سلاح منذ بدء الزمان (ص٧٣)

ولورانـس الفنان يتأكّـد مرة أخـرى في أماكن اتـرورية . فهـو يعطينا تقريـرا عن عـادات القوم وتقاليدهـم كما يستخلصهـا من الرسومات الموجودة على القبور. وبهذه الطـريقة يشكل المادة على هيئة كتاب رحلات نتقبله بهذه الصفة لا بصفته دراسة علمية للقوم الذين بادوا من زمن بعيد . وإذا كانت المناظـر الطبيعية تشكل واحـدا من أهم الملامح فإنّها تضفي على الكتاب شكـلا متأنيا متمهـلا يميز كتاب الرحلات .

ولابد لنا هنا من تأكيد نقطة . فعلى الـرغم من أنّ كل كتاب يتألف من لوحات منفصلة إلا أنه يشكل وحدة متكاملـة ، وهو مالا نجده في كتّاب الـرحلات الآخرين . ويرجع هـذا إلى وحدة النغمة والإيقـاع . ففي كل اللوحـات ، كل أوجه الحيـاة التي تتنـاولها ، في الأقاصيص التي تحكيهـا ، في ردود أفعال الكاتـب ، في الأفكـار الفلسفية المطروحة لايملك القارىء إلاّ أن يميّز نسقـا تنسج بداخله كل هذه الأشياء ، وأنها جميعـا تؤدّي إلى تأثير كليّ واحد ، وتلقي الضوء على مفهـوم واحد . فإذا كان الشفق في ايطاليا والبحر وساردينيا يحيطان باتجاه النـاس إلى المادية القاتلة ، فإنّ الصبـاح في المكسيـك وأماكن اترورية يحيطان بباطنية القوم وصوفيتهـم . هناك وحدة نغم في لوحات كل كتاب .

وفي حديثنا عن لورانس الفنان لابدّ لنـا أن نعترف أنّ ملكة الخيال عنده تفوق مثيلتها عند كثير من كتّاب الرحلات فقدرته على رسم المنظر بألوان ثريـة قدرة من مرتبة فريدة ربما يشاركه فيها ر. ل . ستيفنسون أيضـا . ولنأخذ مثلا وصف جورج بـورو المسافرين على سهـول أسبانيا ، وتصويـر لورانس لمنظر الناس في طريقهم إلى السوق في أماكن اترورية .

يقول جورج بورو في تصويره لمنظره

ومن هـم المسـافرون في هـذه المناطق؟ إنهم في أغلب الأحـوال سائقـو البغال. بقوافـل بغالهم الطـويلـة وقـد علقت بـرقـابها أجـراس رنـانـة رتيبـة . انظـر إليهم ، بـوجـوههم السمـراء ، وثيـابهم البنّية ، وقبّعاتهم العـريضة المترهّلة ، سائقو البغـال ، لوردات أسبانيا الحقيقيون ، الـذين يخطون في هذه الطـرقــات المتربـة بــاحترام يفــوق مــايحظى بـه " أصحــاب الألقــاب الـرفيعـة ، ســائقــو البغال ، المتجهمـون ، المعتزون بأنفسهم ، الـذين نادرا مـايراعون أصـول اللياقـة ، والذين يمكن سماع

أصواتهم على بعد ميل، وهم إما يحدون الحيوانات البليدة، أو يبعثون البهجة في الطريق الكئيب بأغان وحشية متنافرة (ص ١٩٣)

أما تصوير لورانس لمنظره فيجري على النحو التالى :

من قرى الـوادى ومن الجبال يأتي الفـلاحون والهنود بـالمؤنات ويبـدو الطريق كأنـه رحلة حج والغبار ينـدفع من البلدة بأقصى سرعـة . حمير بآذان سمراء ورجـال يهرولون، ونسـاء يهرولن، وفتيات يهرولن، وصبية يهرولون، حمير تتلألأ تسير متمهّلـة على أقدام صغيرة دقيقة، تحت ثقل سلتين كبيرتين بهما طماطم ويقطين، وشبكتين هائلتين بهما جـرار ذات أشكال منتفخة، وحزمتين من خشب التـدفئة قد قطع بدقة، دقيق مثل حزم السجائر، وجوالين من شباك بهما فحم نباتى (ص. ٧٠) .

المنظر الـذى يصوّره لورانس يضم من الأشيـاء أكثر مما يضم المنظر عند بـورو من تفصيلات وإيقاع حركة وأصوات، مما يضفي على المنظر اتساعا وحيوية . ففي المناظر الـوصفية لايباري لورانس أحد .

وفي كتب الرحلات نلتقي بلورانس الرجل، بمشاعـره الحارة، وأشواقه، ومعتقداته، وموقفه من الحياة . في هـذه الكتب نجد فقـرات متناثرة هنـا وهناك تكشف عن طبيعـة الرجل، كما في **الشفق في ايطاليا**.

فكرت في انجلترا، كتلة لنـدن الهائلة، وأراضي وسط انجلترا الكادحة بدخـانها وأبخرتها . بدت فظيعة . ومع ذلك كانت أفضل مـن صك الغفران، ذلك المكر القديم الذي يشبـه مكر القرود . فمن الأفضل أن نمضي قـدمـا في الخطأ عن أن نظل ثـابتين بشكـل لا سبيل إلى الخلاص منـه في الماضي (ص٩٥) هذا تصريح واضح عن ميوله ومعتقداته، وإدراكه بأن لا سبيل إلى العودة إلى الوراء، بعيداً عن الحضارة الصنـاعية التي كـان يمقتها . مثل هـذا الاعتراف المباشر لايمكننـا أن نجده إلا في كتب رحلاته .

وفي هـذه الكتب لا نجـد فقط معتقداتـه وأشـواقـه، بل حبّه العميق للحيـاة وكلّ مـا يتصل بها . فهنا يستطيع لـورانس أن يطلق العنان لمشـاعره . ففي وصفـه لبلدة مـانداس في البحر وساردينيا يقول :

لكن الجرانيت هو حجري المفضل. إنه حيّ للغاية تحت قدمي، له شرر عميق خاص به. تروق لي استدارته. أكره جفاف الحجر الجيري المثلّم، الذي يحترق في ضوء الشمس ويذوي.(ص١٢٣)كل رقّة الكاتب وشعوره الغامر بالحياة، حتى في جمادها، هنا لايضارعه شيء حتى في رواياته. وفضلا عن ذلك تتضمن كتب رحلاته تصوره للحياة في عصره وأحواله، ينطق به في مثل هذه الفقرة من نفس الكتاب.

إن المرء يدرك بفزع أنّ جنس الرجال قد باد في أوروبا. فقط أبطال أشباه المسيح ودون جوانات يعبدن المرأة، وقوم هجين ينادون بمساواة مسعورة. لقد انقضى الذكر القديم الصلب الذي لا يقهر. انطفأ توحّده الضاري. الشرارات الأخيره تخبو في ساردينيا وأسبانيا. لم يبق شيء سوى قطيع البروليتاريا وتهجين مساواة القطيع، والروح الحزين، السام، المثقف، الذي يضحي بذاته. كم هو مقيت (ص٩٣).

إن عدم رضاه عن جيله وحزنه لموت الروح القديمة التي كانت تحرك الرجال يجد متنفسا له في كتبه، التي تحفل بمثل هذه الاعترافات المباشرة التي تكشف لنا عنه كرجل.

والحقيقة أن كتب الرحلات أعطت لورانس إمكانيات لانهائية لتأدية دور المغامر الفكري دون أن تفسد اهتمام القارىء بالكتاب. فقد وجد فيها الفرصة للاستكشاف والتفسير وتأمّل الناس والأمكنة، والمجال الواسع لطرح فلسفته طرحا صريحا. ولهذا فإننا نجده حريصا على تفسير روح المكان كما يخبرها. ففي البحر وساردينيا يقول عن البلد:

هذا ما تجده جذّابا للغاية في الأماكن النائية، مثل منطقة أبروزي. الحياة بدائية للغاية، وثنيّة للغاية، وثنّية بشكل غريب للغاية ونصف متوحشة. وهي مع ذلك حياة إنسانية. وأشدّ أجزاء البلد قفراً نصف مدنية، نصف مروضة، إنها جميعا واعية. فحيثما كان المرء فى إيطاليا، يجد نفسه واعيا إمّا بالحاضر أو بتأثيرات العصور الوسطى أو بآلهة البحر الأبيض الأول الغامضة الموغلة في القدم. وحيثما كان المرء فإن المكان له نوعيته الواعية. فقد عاش الإنسان هناك وجلب وعيه إلى هناك وبشكل ما جعل المكان واعيا، أعطاه تعبيرا، وصقله حقا. (ص١٧٩).

وليس تفسير روح المكان فحسب هو ما يثير اهتمام لورانس، بل أيضا طبيعة الناس، ففي الفصل الذي يحمل عنوانا "الهنود والمسامرة" في الصباح في المكسيك نجده حريصا على استكشاف

حياة الناس الغريزية، وهدفه تحليل وعيهم. إنّه يضع مصير الإنسان الهندي، مصير الاعتقاد بأنّ الروح هي المبدأ الحيوي المنظم للكون، على النقيض من المصير الأوروبي، مصير العقل والنفس. ووصف مناظر الرقص يلقي ضوءا على تفسيره هذا. فما يهم لورانس الرحالة هو طبيعة الناس، نسيج حياتهم، رؤياهم في الحياة ومصيرهم. وهو يرى أبعد بكثير من أيّ رحالة آخر لعمق بصيرته في الأشياء. ولو أننا قارنّاه بجورج بورو لوجدنا بورو يمرّ على سطح الأشياء بحيث يأتي تحليله للناس أقلّ عمقاً بكثير من تحليل لورانس لهم.

وهو في نفس الوقت حريص على إعطاء صورة كاملة للناس. وفي هذا الإطار يأتي استكشافه لمعتقداتهم وأفكارهم. فهو يقول عن المكسيكيين الهنود في الصباح:

فالثعابين أكثر بدائية، أقرب إلى القوى المتشنجة الهائلة. أقرب إلى الشمس التي لا تحمل أسماء أكثر معرفة بدروب المطر المائلة، بدبيب الأقدام الخفية لوحش المطر الهابط من السماء. الثعبان أقرب إلى مصدر القدرة، شمس مركز الأرض السوداء الكامنة، الحادة. فالنسبة للشخص المثقف الذي يؤمن بحيوية المادة، والقرية الهندية الحمراء كذلك، فإن مركز الأرض يضمّ شمسه السوداء، مصدر وجودنا المنفصل، الذي يلف عالمنا حولها طياته مثل ثعبان هائل الحجم. والثعبان أقرب إلى الشمس السوداء، محيط بها (ص١٣٠)

ومثل هذا المعتقد تعبر عنه رقصة الثعبان.

غير أن تفسير لورانس للناس وأسلوب حياتهم وفكرهم ليس تفسيرا موضوعيا وهو يعترف بأنّ أماكن اتروريا ليست دراسة علمية موضوعية. لكنه "بعد أن نظر إلى القبور والأشياء الاترورية المتبقية بحساسية" (ص٣٩) فإنه يعطي تفسيرا ذاتيا أساسا لملاحظاته والمشاعر التي تولدت فيه عنها. فهو إعادة تقرير لكل ما كتبه في أعماله عن حياة الإنسان الغريزية. وقد ساعده موضوع استكشافه على إضفاء لمسة من الماضي على فكره الذاتي وهو يطبقه على الاتروريين. لكن هذا لايستتبعه أنّ تفسيره خاطىء تماما. فقد وجد مفهوماته عن الحياة الإنسانية من الممكن تطبيقها على جنس بشري قديم (ص ص٣٩، ٧٧، ٨١).

والحقيقة أنه أفسح جزءا كبيرا من كتب رحلاته لدراسة الجنس البشري. ولهذا يستهلّ الشفق في إيطاليا بدراسة الفلاحين، الغزّالة والرهبان، وأساليب حياة أناس من طوائف مختلفة وأفكارهم.

ويساعد هـذا على إلقاء الضوء على شخصيات رواياته، وإيضاح تصوره للقـوانين التي تحكم الحياه البشرية.

وإلى جانب استكشافه للحياة الغريزية، يحرص لورانس على استكشاف اللاوعي، وهذا وجه آخر من أوجه استكشـافه للناس وتصويـره لهم. فبعد أن يعطي تقريراً عن أسـاليب روز الينو ويقوم بتحليلها، يطبق الاستنتـاج الذي توصّل إليـه على الهنود إجمالا، فيقول إن المحـرك الأول الذي يحكم سلوك الناس هو:

ألا يؤخذ المرء. ألا يؤخذ المرء. لابدّ أن هذا كان الدافع السائد في الحياة المكسيكية الهندية قبل أن يسوق مونتزوما أسراه للتضحية بهم بكثير (ص ٦٤).

وفي هذا الإطار يربط لورانس بين الـروح الإنساني وروح العصر الذي يعيش فيه. ولهذا كانت الأحـوال بعـد الحرب العـالميـة الأولى من الموضـوعـات الأثيرة لـديـه في أعمالـه من الممكن دراستهـا كسجلات لرأيه في هذا الخصوص. فقد يصوّر د. هدسـون الحياة آمنة بين الرعاة في كتابه حياة راع، ويصور كاتبنا الحياة مضطربة عنيفة في أوسـاط العمال نتيجة للحرب. فهدسون يصوّر أحوال العمال التي تدعو للرثاء ويمسّ بذلك وترا عاطفيا في القارىء. يقول في معرض حديثه عن مزارع:

كـان معروفـا في كل الناحيـة على أنـه "الشيطان تيرنـر"، وحتى في ذلك الوقت، حين كـان المزارعون يدوسون رجالهم بكعوبهم على حد القول، كان معـروفا بمزاجه الوحشي الظالم، كان معروفا أيضا بفكاهته الساخرة التي تتبدّى في أشكال العقاب الذي ينزله بالعامل الذي أدّى به سوء حظه إلى الإساءة إليه (ص١٧٧).

أما لورانس فقد كان يظهر العمال، كما فى الكونغر، بوعيهم بحقوقهم وروح التمرد التى تسيطر عليهم. كـان مـدخلـه إلى العمال من خـلال السيـاسـة بصفتهم قـوة سيـاسيـة على وعي بهذه الحقيقـة. فالنسبـة لـه، على العكس من هـدسون، كـانت روح الماضي قـد ولت بعـد أن بدأ الـوعي بالتغيرات التى أعقبت الحرب.

ولعل موقفه هو ذاته من الحرب أحد الأسباب الرئيسية التى دعته إلى إنكار الحاضر والعودة إلى الماضى وتطوير فلسفتـه عن الفطرة حتى يعيد إلى العالم تـوازنا مفتقدا. ولهذا نجد كل تأمـلاته تحمل طابع التمرد على الروتين الذي نفرضه على حياتنا. يقول فى أماكن اترورية:

يبدو أنه كان هناك فى غريزة الاتروريين رغبة حقيقية فى الحفاظ على المزاج الطبيعي للحياة. ومن المؤكد أن هذه مهمة أكثر جدارة، بل وأكثر صعوبة على المدى البعيد، من قهر العالم أو التضحية بالذات أو خلاص الروح الخالد (٤٧)

«هو فى هذا يشبه ريتشارد جيفريز فى كتابه قصة قلبى التي يعطي فيها الكاتب انطباعه بتأثير الطبيعة عليه والتأملات التي يثيرها فيه مرأى الطبيعة.

ولو أننا حاولنا عقد مقارنة بين لورانس وكتاب رحلات آخرين، لرأينا أن كتبه لها ثقلها بسبب البصيرة العميقة التى تنفذ فى أعماق الأشياء والناس. وقد يتشابه لورانس وبورو فى أن لكل منهما وجهة نظر يتبناها. غير أن وجهة نظر كاتبنا أعمق كثيرا لأنها فلسفية أساسا فانشغال بورو بتوزيع الكتاب المقدس يجعله ينظر إلى الناس من وجهة نظر أخلاقية ولهذا يعجز عن نقل صورة كلية شاملة. هذا هو ما يحققه لورانس فى الشفق لانشغاله بمفهومه الأعمق للحياة والدوافع التى تتحكم فى سلوك الفرد.

ومقارنة رهبان ستيفنسون برهبان لورانس توضح هذه النقطة. إن ستيفنسون يعطينا صورة متكاملة لحياة الرهبان وأسلوب تفكيرهم فى رحلات على حمار. لكن رهبان لورانس أكثر عمقا. فقد ينتقد الأول المبدأ الديني في مثل هذا القول:

هناك إشارة، فى الاتجاه الذي يسير فيه الزوار، تقول لهم ألا يستاءوا من حديث من يقومون على خدمتهم المقتضب، حيث إنه من اللائق بالنسبة للرهبان أن يقتضبوا فى حديثهم. وقد كان من الممكن الاستغناء عن هذه الإشارة، فقد كان المضيفون يفيضون جميعا بحديث بريء، وحسب تجربتى بالدير كان من الأسهل أن تبدأ حديثا عن أن تنهيه (ص١٤٢)

أما نقد لورانس فيتميز بالعمق فى مثل هذه السطور من الشفق.

لم يكن وهج النهار ولا اكتمال الليل يصل إليهم، كانوا يذرعون درب الشفق الضيق وهم يطأون حياد القانون. لم تكن الروح ولا الدم يتكلمان بداخلهم، فقط القانون، التجريد الذي نجده فى الأشياء الوسط. فاللانهائى موجب وسالب لكن الوسط محايد. كان الرهبان يذرعون جيئة وذهابا خط الحياد (ص٥٠)

الجملة الأخيرة تتضمن صورة كما تتضمن تحليلا لتصوره للرهبان. فهو لا ينظر إليهم بعين تقليدية. إنها نظرة كاتب وفنان مبتكر وعميق في آن واحد.

BIBLIOGRAPHY

Primary Sources.

D.H. Lawrence, Twilight in Italy, Heinemann, London, 1916.
Sea and Sardinia, Heinemann, London, 1923.
Mornings in Mexico, Heinemann, 1927.
Etruscan Places Penguin Books, London, 1932.
Fantasia of the Unconscious, Secker, London, 1931.
Aaron's Rod, Secker, London, 1933.
Kangaroo, Penguin, London, 1950.
The Plumed Serpent, Secker, London, 1927.
Studies in Classic American Literature, Heinemann, London, 1924.
The First Lady Chatterley, Penguin, London, 1983.
Selected Essays, Penguin, London, 1950.
Secondary Sources:
Richard Aldington, ed., The Letters of D.H. Lawrence, Heinemann, London, 1932.
The Spirit of Place, London, 1955.
A Portrait of a Genius, Heinemann, London, 1950.
George Borrow, The Bible in Spain, Everyman, London, 1947.
W. Hudson, A Shepherd's Life, Methuen, London, 1910.
R. Jeffries, The Story of My Heart, C.H. Warren, London, 1949.
T. Mann, Nietzsche, Cassel & Co., London, 1952.
M. Muir, The Present Age, Cresset Press, London, 1939.
J.M. Murry, Son of Woman, J. Cape, London, 1939.
H. Reed, English Prose Style, London, 1947.
R. Rushdy, The Travel Book, Cairo, 1954.
S. Spender, The Creative Element, H. Hamilton, London, 1953.
S. Spender & Others, The God That Failed, Bantam, N. Y., 1954.
R.L. Stenson, Travel's with a Donkey, Everyman, London, 1955. An Inland Voyage, Everyman, London, 1994
Wellek & Warren, The Theory of Literature, London, 1943.

دعوة يوسف إدريس إلى مسرح مصري

د. ابراهيم حمادة *

* أستاذ النقد الأدبي بالمعهد العالي للفنون المسرحية ـ دولة الكويت .

نشر يوسف إدريس ثلاث مقالات متتابعات تحت عنوان: «نحو مسرح مصري» في ثلاثة أعداد من مجلة «الكاتب» القاهرية، صدرت على التوالي في شهور يناير، وفبراير، ومارس عام ١٩٦٤[1]. ولما كانت هذه المقالات تندرج تحت عنوان ثابت، وتتشابك خواطرها ـ وإن اضطربت في وضع موادها ـ فمن الأجدى لنا هنا أن نعدها مقالة واحدة مطولة، كما جاءت كذلك عند طبع النصوص الكاملة لمسرحياته عام ١٩٧٤ .

وتؤكد الرؤية الواعية، أن تلك المقالة ليست تنظيرية ـ كما يخطىء في وصفها بذلك بعض المتحمسين له ـ وإنما هي واهية الصلة بمفهوم التنظير الدرامي حسب سياقه العلمي، بل ولا تدخل في نطاق الدراسة الممنهجة، أو البحث الأكاديمي الذي يتوفر صاحبه على معالجة قضية ذات أطراف محددة، في خطوات منتظمة، تفضى مجادلة افتراضاتها ـ المدعمة بالأسانيد المرجعية ـ إلى نتائج معينة، أو وجهات نظر خاصة.

وإنما تدخل تلك المقالة فى منطقة الخواطر الصحافية المبسطة، التي تنثال فتافيت موضوعاتها المختلفة من الذهن، دون آصرة بنيانية شديدة التماسك، كما تتفجر فى ثناياها فروض ومسلمات بلا ترتيب أو تمحيص، أو حتى مراجعة لغوية ونحوية.

ويلاحظ أيضا، أن نُتف المعلومات الفنية والتاريخية المقدمة عن حركة المسرح، وعن أوجه الاجتماع والثقافة والفنون الأخرى، قد يتكرر بعضها، أو يتناقض، أو يثير الشك، أو يدعو إلى الرفض. ولكن بالرغم من أنها تتبعثر من غير تنظيم، إلا أن هناك وعاء يلمّها يتألف من مادتين: أولاهما، حماس متدفق تشعله عادة الانفعالات الذاتية الرغوية وثانيتهما المجاهدة فى دفع الأفكار وإرغامها على أن تثبت رؤية كاتبها الخاصة والكامنة فى ذهنه مسبقا، دونما اعتبار يذكر لحقائق العلم والتاريخ، أو برهنة العقل.

ولو كان يوسف إدريس قد اطلع على تاريخ المسرح العالمي والمصري في مظانه الموثوق بها اطلاعا متفهما، ولو لم يعتمد في بناء أفكاره على استرجاع بقايا معلومات قرأها قديما في مراجع ثانوية، لما كتب هذه المقالة على النحو المهلهل الذي جاءت عليه.

ويبدو لنا من مراجعة تلك المقالة المثلثة الأضلاع، أن كاتبها كان ينوي ـ قبل تدوينها ـ أن يضع مقدمة تحليلية تبريرية لمسرحية "الفرافير" التي عدّها بعض النقاد وتذاك، عملا متميزا في سلك الدراما المحلية المعاصرة، بينما عدّها مؤلفها الدرة الفريدة، والبداية الحقيقية للتأليف المسرحي الخالص المصرية.

وكان من المحتمل، أن تجيء المقدمة المستهدفة أقصر مما هي عليه الآن، لولا أن مؤلفها أقحم على وسطها حزمة ضخمة من الاعتراضات والتفسيرات، حين اضطر ـ بعد نشر مقالته الأولى ـ إلى الدفاع عن نفسه في المقالة الثانية، ضد معارضيه الذين وصفهم بالمستوربين، ردّا على اتهامهم له بمعاداة الحضارة الأوربية الحديثة. ولهذا، وضع للمقالة الثانية ـ دون المقالتين الأولى والثالثة ـ عنوانا إضافيا دعاه: "رد على المستوربين، وبداية التعرف على ملامحنا"، وذلك تحت العنوان الأساسي "نحو مسرح مصري".

ومن ثم، خرجت المقدمة/ المقالة، مطولة، ومترهلة، ومحتشدة بخواطر في المسرح وغير المسرح، ولكنها مذيلة بجزء رئيسي شديد الالتصاق بالمسرحية نفسها.

وللضرورة التي يراها المبحث الحالي، سوف تقسم المقالة قسمين، أولهما، هو الذى تعنينا هنا مدارسته لأهميته في تمييز ثقافة المؤلف المسرحية، وفي التعرف على مفهومه للمسرح، وهدفه من التجديد. أما القسم الآخر، فيكاد يكون بذاته المستقلة، التمهيد الأصلح للتعريف بالمسرحية المذكورة.

وبسبب تشرذم معلومات القسم المعنى، سنحاول جاهدين أن نتتبع أبرز فقراته في كل صفحة، وأن نجنب هذا التتبع ـ ما أمكننا ـ عدوى الإصابة بالتطويل، والبعثرة الفكرية.

يعتقد يوسف إدريس أن التساؤل عن احتمالية وجود المسرح في مصر خلال قرون حياتها الطويلة، أمر شديد الغرابة، يعادل في غرابته وسذاجته التساؤل: "هل هناك شعب مصري حقيقة؟؟ هل وجد أصلا؟ وأين اختفى إذا كان قد وجد؟؟ ولماذا؟؟"

وهـذا التسليم الضمني بـوجـود مسرح عـريق متصل الحياة في مصر، لايلبث أن يسوقه إلى التأكيد بحتميـة وجوده في كل شعب عـاش على وجه البسيطة، لأن المسرح ـ في رأيه ـ: "كـالطعام والشراب والضحك من خصائص البشر الحيوية ولزوميات وجوده".

ويبقى المرء دون إفاقـة من رجة هذه الانعطـافة الشديـدة الحادة نحو التعميم، إلى أن يتراجع أديبنا عن هذا الحكم الشمولي لحظة أن يدرك فضفضته وانسياحه الذي يجاوز المدلول العلمي لكلمة المسرح حتى في أدنى صورة بـدائية له، وذلك حين يصرح بأنه لايعنى بـالمسرح: "ذلك المكان العالي ذو القبوة والخشبة والممثلين والروايات". وإنما يعنى أشكـالا أخرى: "سرت ولا تزال سارية وستبقى سارية إلى الأبد. وهذه الأشكال ممكن جمعها تحت ظـاهرة واحدة" يطلق عليها: "غريزة التجمع بلا سبب فردي أو ذاتي، وإنما بتأثير الغريزة الجماعية".

وبهذا الاستدراك، استبعـد كاتبنـا من أذهاننا صورة المسرح على النحـو المعروف منـذ أجيال طويلة، كي تتهيأ لاستقبـال مفهوم آخر له. ترى ماهي تلك الأشكـال التي يراها مسرحية، ومنتشرة عالميا، وممتدّة تاريخيا وتخالف ما درجت على معرفته الثقافات العالمية المعاصرة، بل والقديمة أيضا؟؟

يـرى يـوسـف إدريس أن تجمعـات النـاس في الأفراح، والمآتم واحتفـالات الختـان، أو نـزول النقطة، أو أعيـاد الحصاد، والمناسبـات الدينية، والسهرات اليـومية في البيوت بعـد اليوم والعمل، وكذلك التجمعـات التلقائيـة الأخرى في الأسواق، وفي المقـاهي، والحانات، والنـوادي: "لحظات مسرحية، وأشكـال مسرحية".

ولا شك أن كل تراث العالم الفكري والفني، لايعـرف ولا يقر هذا المفهوم للمسرح، ولا حتى لظاهـرة التمثيل في أبسط هيئة جنينية لها. ان مجرد وجـود تجمع بشري لأيّ هدف، لايمكن أن يعنى بأي حال من الأحـوال ـ وجود شكل مسرحي ـ ولو في غاية البدائية ـ حسب المدلول العلمي المتعارف عليه، وإلا اعتبرنـا مشاهدة الجماهير للألعـاب الرياضيـة، وتجمهر الطلبة في المظاهـرات، واحتشاد الجنـود للتدريـب العسكـري، وقيـام الفلاحين بحفـر قنـاة السويـس، والعمال بالعمل في المصـانع المختلفة: "أشكـالا مسرحية".

إن مجرد وجود صياد واحد بدائي (يحاكي) بإيماءاته الجسمية أمام زميل له ـ معركة شرسة دارت بينه وبين حيـوان ما، يعد اصطلاحيـا مشكلا تمثيليا بسيطـا، حتى ولو لم يوجد تجمع انسـاني. فهو

لايعرض أناه الآنية على زميله، وإنما يحاكي أنا أخرى، كانت له نفسه ولكنها كانت في حالة صيد في زمن مضى. وتلك الغيرية في الأداء النفسي والحسي، هي النواة التي يتخلق منها الجنس المسرحي.

كما يعتقد يوسف إدريس أن ما أطلق عليه "الأشكال المسرحية" ـ والتي ذكر عينات منها "كان لابد بمرور الأزمان أن تتطور ويصبح لكل شكل منها تقاليد وتراث، وقدحدث أن أحدها وهو الصلاة لآلهة الاغريق، ظلت تتطور إلى أن أصبحت اليوم ما نسميه بالمسرح الذي كان إغريقيا، ثم أصبح أوربيا".

وتسليم كاتبنا بأن هذه التجمعات التي عددها "أشكال مسرحية" ـ تطورت منها صلوات اليونانيين القدامى لآلهتهم إلى أن تكون مسرحا ـ لم ينتبه إلى أن التجمعات الأخرى التي تمثل بها، لم يتطور قط أي تجمع منها إلى مسرح، بل ولن يتطور أبدا ولو بقي آلاف السنين. لماذا لم يتطور أي تجمع من تجمعات المقاهي والحانات والنوادي أو حفلات الختان والذكر إلى مسرح أسوة بالمسرح الإغريقي الذي تطور عن صلوات العابدين اليونانيين لآلهتهم؟؟ أم أن وقائع التاريخ وأقيسة العقل، تبرهن على أن التجمع لهذه الصلوات بالذات مختلف في صميم طبيعته عن التجمعات الأخرى التي ساقها كاتبنا، وأن تلك الصلوات تنفرد بوجود خمائر أساسية وفريدة لاستيلاد النوع المسرحي، لاتتوافر في أي من تلك التجمعات الأخرى؟؟ إن هذه الخمائر في أبسط عناصرها تنحصر أساسا في الرقص التعبيري، والأحفال الطقوسية الدينية التي تعد الجوهر الفريد الذي لم تتولد منه الدراما الإغريقية فحسب، وإنما كل الأشكال الدرامية في كل أنحاء العالم، مهما كانت بدائيتها أو فجاجتها. وعندما يقال مرارا، بأن جذور كل الفنون عقائدية، يستحيل نفي هذا القول عن الدراما.

إن أصول الدراما الصينية ـ مثلا ـ كأصول الدراما اليونانية ـ انبثقت جيناتها من الأحفال الشعائريةثم أخذت تمر في حلقات النمو والتطور إلى أن أصبحت سلسلة من الأحداث التي يؤديها أناس يحاكون، يسمون بالممثلين، بعد أن كانوا في بداية الأمر يدعون بالكهنة. ولانجد حاجة ملحة هنا، إلى التوغل في الحديث عن نشأة المسرح في اليابان والهند، وفي أوربا في عصورها الوسطى، أو في بعض بلدان آسياأو حتى عن مبادآته المبتسرة لدى بعض الشعوب التي لاتزال متخلفة عن ركب الحضارة الحديثة، كشعوب الغابات الأفريقية، وجزر البحار الجنوبية، وإلا رجعنا إلى نفس ما أشرنا إليه سابقا من أمر النشوء الذي يعود إلى المحاكيات الأولية في الرقص والطقوس العقائدية.

وبعد أن يتشكك أديبنا فيما إذا كان: " المصريون القدماء قد عرفوا المسرح الديني بمعناه الإغريقي"، يعزو اختلاف المسرح الفرعوني(الذي يتشكك في هيئته) عن المسرح الإغريقي (الذي

يجهل تماما ظروف نشأته) إلى سبب غريب من الناحيتين التاريخية والعقلية. فهو يقول: "ان الحياة المصرية القديمة كان طابعها التجمع على النطاق الشعبي الواسع والاحتفالات الضخمة التي يشهدها الشعب كله. بعكس الحياة في اليونان........ حيث كان طابع الحياة هو الاجتماعات المحدودة التي هي أصلح مادة خام لنشأة المسرح. لأن المسرح لابد أن يكون حضوره محدودي العدد".

وهذه الاستنتاجات العفوية، لاتتأسس على تحليل تاريخي أو اجتماعي لظاهرة التجمع لعقيم أو الخصب عند الشعبين العريقين ولا على استقراء عقلي، ولا حتى على تأمّل حدسى، وإنما هي محض تصورات مهزوزة تنافي طبيعة المبادآت المسرحية المستولدة لاعند الإغريق أو المصريين فحسب، وإنما أيضا لدى كل شعوب الأرض قاطبة، كما سبق أن قلنا.

ويعود كاتبنا إلى حديثه عن التجمعات البشرية التي أطلق عليها "الأشكال المسرحية"، زاعماأنها ظلت تمارس حياتها في تلقائية خلال العصور الطويلة: "مهما تغير شكل الحضارة في مصر أو نوع الحكم، أو تغيرت الديانات" ويأتي في مقدمة تلك الأشكال التجمعية - عنده -: "الخروج إلى المقابر لمزاولة غريزة التجمع، وحفلات الذكر."

ويبقى مفهوم "الشكل المسرحي" منقوص الهوية، حتى يفاجئنا الكاتب - لأول مرة، وفى سطور متأخرة - بإشارة عارضة تحدد الشكل المسرحي بأنه مجرد حضور تجمعات بشرية، يشترك كل أفرادها فى أداء مهمة معيّنة في مواسم وأوقات معلومة، بغض النظر عن طبيعة هذه المهمة. يقول سيادته: "إن المسرح ليس المكان أو الاجتماع الذي نتفرج فيه على شيء.....(وإنما) هو اجتماع لابد أن يشترك فيه كل فرد من أفراد الحاضرين، مثله مثل الرقص من بدائيته إلى احتفالات قصر الملكة فيكتوريا. لايسمى رقصاً إلا إذا اشترك فى الرقص كُل الحاضرين، أو الأغنية الجماعية لاتعد جماعية إلا إذا غناها كل الناس معا".

وبهذا يتعين على «الشكل المسرحي» - كما نص زاعمه على ذلك، وجوب: «توافر عنصرين: أولا، الجماعة والحضور الجماعي، وثانيا: قيام الجماعة كلها بعمل ما.»

وطبقا لهذه الرؤية العجيبة، هل يا ترى حضور طائفة من الناس للمشاركة في تشييع جنازة جار عزيز لديهم، أو للقيام بجمع القطن في الحقول، أو للذهاب إلى ساحة القتال، أو لتلقى

محاضرة علمية في إحدى الجامعات ، ضروب من الأشكال المسرحية لمجرد توافر «عنصري التجمع ، والمشاركة في عمل ما » ، كما يزعم الكاتب ؟؟

ويختلط الأمر في ذهن كاتبنا اختلاطاً مسيئا حين يضيف إلى مقولته السابقة تساؤله وجوابه :
" وماذا إذن عن الأشكال التي نذهب لنتفرج فيها على راقص أو نسمع مغنية تغنى أو نشهد فيها فيلما؟؟ أليست أشكالا مسرحية؟؟ والجواب : لا، ليست أشكالا مسرحية وليست إلا إشباعا فرديا لايمكن أن يغنى أو يحل محل الاشباع الجماعي "

وهذا الحكم يبدو في غاية الشذوذ إذا ما طبقناه على المسرح بمفهومه الحالي الذي نعرفه ـ والذي لاخلاف عليه أبدا ـ حيث توجد الخشبة وعليها ممثلوها ، وحيث تمتد أمامهم صالة الحضور التي يجلس فيها المتفرجون كي يشاهدوا العرض : فإن هذا التكوين المعتاد دائما لايعد " شكلاً مسرحيا " لأن المشاهدين ـــ حسب ادعاء كاتبنا ـــ لايشتركون بذواتهم في أداء العرض . هل من المعقول أو المقبول ، أن نعد جلوس جماعة في حانة يحتسون النبيذ شكلا مسرحيا لتوافر عنصري التجمع والمشاركة في الاحتساء؟ بينما فرجة نفس الجماعة على مسرحية معروضة فوق الخشبة ليست من أشكال المسرح لأن المشاهدين سلبيون ولا يشتركون مع الممثلين في تجسيد النص؟؟يقول يوسف إدريس مرةأخرى ـ :
" أما المسرح فهو اجتماع لابد وأن يشترك فيه كل فرد من أفراد الحاضرين " .

وتمتد غرابة هذا الحكم إلى الفقرة التي تلي مباشرة حيث يدّعى كاتبنا بأن أشكال التجمّع للفرجة على راقص أو لسماع أغنية أو لرؤية فيلم " ازدهرت فقط في بلادنا بالذات لأسباب لاعلاقة لها بالمسرح ازدهرت لأن الأديان السماوية اعتبرت كافة الاحتفالات الجماعية أشكالا وثنية متخلفة حرمت القيام بها " .

ومن البدهي أن هذا التعميم المتضارب في مدلولاته مجازفة فكرية أخرى تجافي واقعيات الشعب المصري بل وغير المصري أيضا . إذ أن أديانه السماوية ـ التي نعرفها ثلاثة ـــ لم تحرم " كافة " الاحتفالات الجماعية ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال :ـــ احتفالات الزواج ، والمناسبات الدينية والقومية ، ومهرجانات التتويج والانتصارات . . . الخ

ثم كيف تحرم الديانات السماوية الحفلات الجماعية البسيطة على المستويين المحلي والعالمي وتقف ضدها وتجعلها " تابو " محرما في الوقت الذي يسمح فيه ـ حسب قول كاتبنا ـ بازدهار: "لمجتمع الغوازى في سنباط أو العوالم في شارع محمد علي أو مجتمع الجيشا في اليابان " ؟

ويواصل كاتبنا مزاعمه بالتأكيد على أنه لمّا كانت الاجتماعات الكبرى للمصريين تسودها الرسميات، ولا يشترك فيها الحاضرون، والاجتماعات الصغرى في المناسبات الشعبية حرّمتها الأديان السماوية، وأصبح حق مزاولة الرقص فيها أو التمثيل أو الغناء مقصورا على الساقطين أو الساقطات، فإن لقاء الشلل والعائلات والأصدقاء في البيوت بقي قائما. وفي هذه اللقاءات كما يقول:
" كان الكل يغنّون ويرقصون ويسكرون ويمثلون. . . . . ولكنّ التمثيل في هذه الجلسات كان لايأخذ طابع الروايات. . . كان يأخذ أشكالا أخرى، مثل أن يروى كل حاضر نكتة. . . . بل إنه في مصر بالذات اخترعت المحاورة التي يسمونها (القافية) وهي شكل مسرحي بدائي جداً. "

ولا شك أنّ عدم تحديده ماهية الاجتماعات الكبرى الرسمية، أوالصغرى المحرمة دينيا، يقابله عدم تحديد أزمنتها، مما جعل دلالات العبارات سابحة في المطلق الذي يجردها من أية أهمية. كما أنّ ادعاءه بأن إلقاء النكات في مجالس الأصحاب، أو دخول اثنين منهما في (قافية) يعدّ شكلا مسرحيا بدائيا، أمر باطل، وإلا كان غالبية سكان العالم يعيشون لياليهم ونهاراتهم في حالة مسرحيّة دائبة، تعجز المهتمين برصدها عن متابعتها وتسجيلها للتاريخ نصوصا إبداعية كوميدية. ولو جمعنا - نحن المصريين - نكاتنا المتدفقة، وتعليقاتنا اليومية الساخرة، وقافياتنا الموسمية اللاذعة، ثم ترجمنا المحصلة الهائلة إلى لغة شعب متحضّر يتردّد على المسارح ويدرك طبيعة أبعادها، هل ياترى، يحسدنا على تراثنا المسرحي البدائي الضخم العريق العميق، أم سيتهمنا بالتخلّف والغفلة وسوء الفهم ؟ ؟

ويضيف كاتبنا إلى مازعمه عن لقاءات الأصدقاء والأهل في البيوت كلاما متخبّطاً لا يستحق التعليق. قال - سامحه الله - : " إن جميع هذه اللقاءات والاحتفالات وإن كان يصاحبها شرب الخمر - مثلا - أو تدخين المخدرات، وهي كلها وسائل تعجّل بحالة الأيوفوريا أو ارتفاع الروح المعنوية والمرح وتسهيل عملية الانزلاق من الذات الصغرى إلى الذات الأكبر. "

ثم يشتطّ يوسف إدريس اشتطاطاً ذهنياً غريباً، يصله بتخوم التخريف والتخليط حين يختم سطوره السابقة بقوله : " واجتماعات تدخين الحشيش فى مصر دائما يسمونها "القعدة" لأنها ليست أولا وأساساً لعملية التخدير أو التدخين إنها أولا وأساساً للحظتها المسرحية، للسمر، للونس. والحشيش ليس إلا الشراب الذي لم يرد تحريمه قاطعاً فى القرآن، ربما لأنه لم يكن معروفاً. "

يالها من هلوسة اذا تنبّهت وزارة الثقافة فى مصر إلى هذا الاستنتاج العجيب الذي لم يصل إليه باحث اجتماعي أو مسرحي من قبل ولا من بعد في جميع أنحاء المعمورة، فإنها ستسرع إلى ضمّ قعدات

الحشيش إلى هيئة المسرح وتمدّها بالتجهيزات الضرورية، والمعونات (العينيّة) الراقية، لأن تلك القعدات ـــ كما يؤكّد كاتبنا مرتين ـ ليست "أولا وأساساً" للحصول على حالة التخدير والغيبوبة (حاشا لله)، وإنّما لتحقيق "اللحظات المسرحية". وهل مهمّة هيئة المسرح إلا تحقيق اللحظات المسرحية، ومايصاحبها من انتعاش نفسي وفرفشة وجدانيّة على نحو جماهيرى عريض ؟ ؟

وبعد تلك المزاعم التي ساقها وتشى بسطحية فكرية، وركاكة فى الثقافة الدينيّة ـ انبثقت على مايبدو فى لحظة اغماء لا شعوريّة ـ يعود كاتبنا إلى طرح رؤوس موضوعات متنوعة ومشتجرة، فى الدين والتاريخ والفن والاجتماع والألعاب الشعبية، يصعب الفصل بينها ومتابعة كل منها على حدة رغم حاجة غالبيتها إلى التصويب أو المناقضة.

ويستهلّ ذلك بسؤاله : "أين المسرح المصرى إذن رغم كل ما قلناه ؟ ؟" وكأنه بهذا التساؤل يتخلّى عن مفهومه "للشكل المسرحي"، الذي ساقه من قبل، باعتباره مجرّد تجمّع بشرى، يشترك أفراده فى عمل ما، ليقرر ـ على نحو صحيح ـ بأنّ السامر المجهول الأصل لا يزال مسرحاً شعبيا في الريف المصري، وأن مسرح المدينة المتمثل في خيال الظل ـ مع الأشياء الأخرى ـ قد انقرض.

وبدلاً من الاسترسال في الموضوع ـ الذي يبدو في أمسّ الحاجة إلى توضيح ـ ينتقل إلى الحديث عن تاريخ مصر الطويل، وتوقّف سريان تقاليد الحضارة الفرعونية بسبب اعتراض كتلة صلبة سمكها مئات السنين، تتجسّم فى تقاليد العقيدة المسيحية والدين الإسلامى. ولكن في ظلّ العصر الفاطمي ـــ كما يقول ـ : "خفّ الإيمان المتعصب بالإسلام، ولم يسترجع الشعب عاداته في الرقص، ولكنه استرجع عاداته في تمجيد الموتى، "بإقامة المدافن على شكل مساجد للحكام والأعيان" كما أنّ ذكريات الحضارة الفرعونية القديمة، خرجت على شكل إسلامي المظهر والمحتوى، وتجلت في : "احتفالات رمضان، وحفلات الذكر، ووفاء النيل، وعودة مجالس القصاصين و الحكّائين وازدهار خيال الظل والأراجوز".

ولاشك أن تلك الطروحات ـــ والأخرى التي تلتها ـــ تترامى على نحو عفوي دون مدارسة، وخاصة تلك التي تربط الأحفال المستحدثة فى العصر الفاطمي، بنظائر لها مجهولة أو معلومة، ومتحدّرة من العصر الفرعوني.

كما أن شعب القاهـرة ـ الفاعل المؤثر فى ثقـافة هذا العصر ـ لم يكن هـو بذاته سلالـة الفراعنة القدامى، وإنما تداخلت فى تركيبته الاجتماعية، عناصر بشرية دخيلة، وفدت إليه من أنحاء مختلفة من العـالم الاسلامي وغير الاسـلامي. ومن ثم يصعب ـ بل يستحيل ــ فرزهـا وتصنيفها، والتعـرّف على مفردات تراثهـا الثقافي الذي هاجرت بـه، وعلى أثرة في الثقافة المحلية. وهل إذا سلمنـا ـ تجاوزاً ـ بأن خيال الظل كان معروفـاً في القرن العاشر الفاطمي في مصر، هل نسلّم أيضا بأن الأراجـوز كان مشاعاً أيضا فى نفـس القرن، مع (عودة) مجالـس القصاصين والحكّائين التـي كانت (مقطوعـة)، كما تفشى ادعاءات كاتبنا ؟ ؟ ومنذ متى ؟ ؟

ثم يعود ـ مـرة أخرى ـ إلى التخليط وسوء فهم جـوهر الظاهرة المسرحيـة كشكل فني ـ ولو فى أدنى أطواره الأولى ـ عنـدما يقرّر بأنه بالـرغم من أن فقهاء الإسلام فى ذلك العصر، اعتبروا التمثيل : " نوعـاً من الاعتراض على الخالق فى خلقه، ولكـن التمثيل نفسه لم يتوقـف. ظل يزاول بأشكـاله غير المحـدّدة"، من خلال "القـافية المصريـة". و "إلقاء النكتـة"، التي هى : "فن مسرحي، أو على الأقل نوع من الحضور المسرحي".

ترى، هل نصدّق مفهوم كاتبنا "للشكل المسرحـي" بأنه أية جماعة يشترك أفرادها فى أداء فعل مـا، كما سبق أن كـرر القـول فى ذلك ؟ ؟ أم نصـدّقــه عنـدمـا يخالف هـذا المدلـول، ويعـدّ خيـال الظل، والأراجوز، والحكّائين والقصّـاصين فنونا مسرحية، بالرغم من أنّ جماهير حضـورها لا يشتركون فى عمليات العرض ؟ ؟ أم عندما يصف القافية والنكتة بأنهما شكلان مسرحيان ؟ ؟

الواقع، أننا يجب ألا نصـدّقه إلا عندما يتنـاقض فجأة في ختام فقرته السـابقة، وينفى وجود المسرح صراحـة فى قــولـه : "إن محاولـة العثور على شكـل صريح للمسرح فى العصرين المسيحي والاسلامي تعتبر نوعا من الافتراء على الواقع".

ويعتقد كاتبنا ــ على نحو معقول ـ أنّ حركة تـرجمة النصوص المسرحية فى العصر الحديث، أو تمصيرهـا، أو تعـريبهـا، أو الاقتبـاس منهـا، مع مـا صـاحب تلك الحركـة من شيـوع لمصطلحـات غربية، ونقل لفنون الديكور وأسـاليب التمثيل، هى البداية الحقيقية للمسرح المصري المعاصر. ولكنه سرعان مـا يعيب تلك البداية ويتبرأ منها، فى مثـل قوله "إننا نستطيع أن نسمّيهـا بكل ثقة ولادة غير شرعيـة لـذلك المسرح بحيث نشأ مسرحنـا كحفيد ملفّـق للمسرح الفرنسي في القـرنين الثـامن عشر والتاسع عشر".

ولعل استخدامه عبارات غير دقيقة ـ مثل : "غير شرعية" ، و"حفيد ملفق" ـ باعثه حماس متهافت يتجاوز العمليات العقلية الواجب توافرها عند تقييم الظواهر الاجتماعية . فمن المسلّم به ، أنّ مسببات الظاهرة المسرحية في أي مجتمع على الإطلاق ، تعزى إلى أحد عاملين : إما أن يكون قد تطور من عناصر درامية بدائية محلية ، كانت كامنة ـ كالبذور ـ في الرقص الإيمائي أو الشعائر الدينية وما شابهها ـ كما هو الحال بالنسبة للمسرح اليوناني والصيني ، والأندونيسي مثلا ـ وإما أن تكون فسائله قد استجلبت من خارج موطنه ، ثم استزرعت فى التربية الثقافية الجديدة ، كما حدث بالنسبة للرومانيين الذين استجلبوا المسرح جاهزا من اليونان ، وغرسوه فى ثقافتهم ، بالرغم من أن مبادآتهم التمثيلية الشعبية الفجة ، كانت خصبة ، وشديدة القابلية للتطور والتنامى . ومع هذا ، لم يلطم الرومانيون الخدود ، ويشقوا الجيوب ، حسرة على أن مسرحهم مستورد من الجيران ، ولم يستنبت من المبادآت التمثيلية القومية مثل : الفابولا أتلانا التي كانت عبارة عن لقطات تمثيلية شعبية ، يكتنفها الغناء والرقص ، وتقوم على شخصيات مكررة ، كالمهرج ، والنقّاج ، والعجوز المغفّل ، والمخادع . . . الخ .

إن عناصر البدائية فى الألعاب والمسليات الشعبية المصرية ، كانت مزمنة فى عقمها وتحجّرها لأسباب ثقافية مختلفة . ولهذا ، بقيت عاجزة ـ خلال قرون طويلة ـ عن التطوّر والوصول إلى شكل مسرحي فني . وحينما سنحت الفرصة للثقافة المصرية ـ في العصر الحديث ـ بأن تحتكّ بالحضارة الأوربية ، عملت جاهدة على استيزاد ما استطاعته من عيّنات علمية وفكرية وأدبية وفنية متقدمة ، كان المسرح ضمنها . ولولا هذا الاستزراع الفكري والمسرحي فى منتصف القرن الماضي ، لتأخّر ظهور المسرح المحلي ظهورا تلقائيا حقبا طويلة ، لا يعلم مداها إلا الله .

ولا حاجة بنا إلى الاستنكار الدائم لهذا الاستقدام ، لأن المسرح الحديث في اليابان ـ كما فى غيرها من بلدان العالم ـ شكل فني ، استجلب على نحو ناضج من أوربا ، وليس تطويرا للأشكال التراثية الدرامية الخصبة المحلية . ولم يتأسف ياباني واحد قط ، على أن مسرحه ولد "سفاحا" ، مثلما خجل عارا يوسف إدريس ومعه بعض المسرحيين العرب ، ممن تأخذ فورة الحماس القومي بتلابيبهم الفكرية ، فى غيبة القدرة على استيعاب عقلاني لحركة تطور المسرح العالمي المعاصر.

ثم يروح كاتبنا يقدم نتفا وسيعة القفزات ، عن تاريخ المسرح المصري منذ الحرب العالمية الأولى ، وإلى ما بعد ثورة ١٩٥٢ . وهذه النتف المتسرّعة عن حركة التمصير ، والتعريب ، والاقتباس ، والتأليف ، تفتقر إلى الدقة ، ويعوزها التصحيح والمراجعة . بل إن أحكامه على مسار التأليف المسرحي وطبيعته ، تؤكّد عدم معرفته بمجهودات الرعيل الأول من مؤلفينا ، مثل : يعقوب صنوع ، وعثمان

جلال، وفرح أنطون، وأنطون يزبك، ومحمد تيمور، وابراهيم رمزى، وعباس علام، ومحمود تيمور، وعمر جميعي، وابراهيم المصري . . . وغيرهم .

يقول سيادته ـ عند إشارته إلى مزاحمة المسرحية الممصرة للمسرحية المؤلفة فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ـ: "كادت مسرحياتنا كمسرحيات أحمد شوقى تولد ميتة، وكاد توفيق الحكيم ـ وهو واحد من مؤلفى سنة ١٩١٩ ـ يتوب عن التأليف المسرحي كلية ويذهب إلى فرنسا حيث يتحول إلى كتابة الرواية" والمعلوم، أنّ ما عرض من مسرحيات أحمد شوقى فى أواخر العشرينيات على خشبة المسرح ـ كمسرحيتى "مصرع كليوباتره" و "مجنون ليلى" ـ حقق نجاحاً جماهيريا وأدبيا عريضا، ولم تولد مسرحياته ميّتة، ولم يتب توفيق الحكيم عن الكتابة للمسرح، أو يقلع عن مشاهدة عروضه، والاطلاع على تراثه الأوربي بل ولم يتحوّل ـ خلال دراسته في فرنسا ـ إلى كتابة الرواية .

ومن العيّنات العديدة الأخرى التي تحتاج إلى تصويب، رأيه الذي يقول فيه : "وهكذا حين عاد توفيق الحكيم عاد يكتب للمسرح أيضا ولكنه (وضع رواياته) فى كتب وسمّاها تمييزا لها وارتفاعا بها عن المسرح التجاري الناجح ـ المسرح المقروء ـ وتقريبا وعلى نفس هذا المنوال نسج محمود تيمور وعلى أحمد باكثير وعزيز أباظة قبل ثورة ١٩٥٢ . "

ونظرة خاطفة على مندرجات حركة التأليف الدرامى قبل عام ١٩٥٢؛ تنفى تماما عن أعمال تيمور وباكثير وعزيز أباظة صفة "المسرح المقروء" ـ أو "المسرح الذهني"، الذي عرفت به بعض أعمال توفيق الحكيم .

ومن الأغلاط الأخرى، ادعاؤه بأنّ : "فرقة المسرح الحرّ قد خرجت إلى الوجود، ولكنها لاتزال مواهب تمثيلية بغير تأليف مسرحي" . ويقول فى السطر التالي مباشرة : "وهكذا جاء تقديم (الناس اللى تحت) لنعمان عاشور. . . . . بمثابة بداية جديدة لمرحلة تطور هامة من مراحل المسرح المصرى" .

والمعروف أنّ فرقة المسرح الحر، ولدت وترعرعت فى كنف المؤلفات المسرحية المصريّة، وأنها هي التي قدمت "الناس اللى تحت" ـ التي أشاد بها سيادته ـ وقبلها "المغناطيس" لنفس المؤلف. كما قدّمت أعمالا مصرية صميمة لكل من : محمد كمال هاشم (الأرض الثائرة ـ و ـ الرضا السامى) وعزت السيد ابراهيم (حسبة برما) ورشاد حجازى (خايف إتجوز ـ و ـ مراتى بنت جنّ)، وأنور قزمان (عبدالسلام أفندى ـ و ـ ماهية مراتى ـ و ـ مراتى نمرة ١١)، ومحمود السعدنى (فيضان النبع)، ورشاد رشدى (الفراشة ـ و ـ لعبة الحب) . . . وغيرهم .

ولنتوقف ــ لضيق المساحة والوقت ـ عن ملاحقة الزلات التاريخية والتقييمية فيما قاله حتى الآن، والتي تدلّ على عجلة في التسجيل، وعلى ميل إلى إفراز الأحكام القسرية، بلا تمحيص منطق، أو الاحتكام إلى مرجع، ولكننا سنضطر ـ مرة أخرى ـ إلى الاكتفاء بالوقوف عند بعض الهفوات التي ترصّع ما بقي من الشطر الأول الذي اجتزأناه من المقالة، والذي آثرناه بالمحاورة.

ومع أنّ كاتبنا يعترف بأنّ المسرح المصري ـ خلال تطوره بعد ثورة ١٩٥٢ ــ قد وصل إلى نوع جديد من المسرحيات ذات المضامين الجديدة، والأبطال الجدد، والتي تتمثل ـ حسب قوله ــ في "الناس اللى تحت"، و "جمهورية فرحات"، و "ملك القطن"، و "الصفقة"، و "قهوة الملوك"، و "المحروسة"، و "الفراشة"، إلا أنه يسارع ـ فى السطور التالية مباشرةـ إلى اتهامها بالتأثّر بمدارس أوربية: و "أن القالب والموضوع لا يزالان فى حدود القوالب المسرحية الروسية، أو الفرنسية، أو الأمريكية."

ويبقى هذا الادّعاء المغلوط، بلا أدنى تفسير يوضّح ماهية ملامح تلك القوالب الثلاثة بالذات، ومدى انعكاساتها الموضوعية والصياغية المدّعاة، ـ على الأقل ــ فى مسرحيتيه: "ملك القطن"، "جمهورية فرحات"، اللتين تنبعث من ثناياهما رائحة التربة المصرية، مثلما تنبعث من المسرحيات الأخرى التى تمثل بها.

وقبل أن يقوم كاتبنا بالتفريق ـ على نحو بدهي ـ بين عالمية العلم وخصوصية الفن الشديدة المحلية، يؤكد ضمنيا ـ على اتهام المسرحيات التي ذكرها، بل والمسرح المصري برمته، بالغربة والعمالة الدخلية ومما يقوله في هذا الشأن: "إننى أعتقد أننا مهما غيرنا وبدلنا وطورنا في المسرح الأوربي، فستبقى طبيعته أوربية بعيدة عنا، بعد أوربا عنّا، لا تندمج معنا ولا نندمج معها، مثلنا مثل الماء والزيت".

وتلك المغالاة المتعمّدة في اتهام المسرح المصري كله بالخواجاتية، تخفى في طيّاتها نيّته التي عقدها مسبقا، عن تقديره الفائق لمسرحيته "الفرافير"، التي يعدّها ــ كما أشرنا من قبل ـ بداية المسرح المصري الصرف.

وبعد أن يعيّر المسرح الأوربي، بأنه لم يصبح عالميا ــ إلا بسبب انتشار الحضارة التي ينتمي إليها، يتّهمه بالوحشية وارتكاب جريمة إجهاض المسرح المصري قبل أن يولد. يقول سيادته: "هو

الذي قضى على مسرحنا الخاص بنا والذي كان محتما أن يظهر إلى الوجود يوما . وهذا المسرح أيضا ، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحلّ محلّ مسرحنا الخاص بنا أو يمنع ظهوره . "

وهذا الخطاب الحماسي - كبقية الأحكام المبعثرة في المقالة - أشبه بالصواريخ التالفة العشوائية . ترى ، كم كان يلزم من القرون الإضافية للمسرح المصري ، كي يتمّ فترة حمله في رحم الثقافة المحلية ، قبل أن يجهضها اعتداء المسرح الأوربي ، باقتحامه الغاشم ؟ ؟ وما هي العوامل البيئية التي كان ينتظر تهيؤها - وهو في علم الغيب - حتى يجيء المخاض ، ويولد ولادة طبيعية ؟ ؟ هل كان يلزمه عشرة قرون أخرى ، كي يولد بدائيا مثلما ولد المسرح الإغريقي ، ثم يأخذ في النمو خمسة قرون أخرى حتى يصل إلى سن الرشد بظهور يوروبيديس المصري ، ثم ينتظر عدّة قرون طويلة حتى يتطوّر ويصل إلى الشكل المسرحى الأوربي ، الموجود جاهزا للاستعمال العالمي ، والذي يعدّ الحقيقة العلمية للظاهرة المسرحية في أوج نضجها ؟؟ . . . يالها من رحلة شاقة ، متخبطة ومعتوهة !!!

ويسترسل أديبنا في الحديث عن أمور بدهية وثانوية خارج نطاق المسرح ، وان كانت - بدورها - في حاجة إلى مؤاخذة علوم أخرى . فهو يدافع - طويلا وفي حرارة - عن نفسه ، احتمالّية اتهام الآخرين له بالوقوف ضد الاستعانة بمنجزات الحضارة الأوربية . ثم يكرر رأيه السابق في أن لكل شعب خصوصياته الثقافية ، التي لاتفضل خصوصيات شعب آخر ، مما يعنى - بالتالي - أنّ لكل شعب فنونه الخاصة ، التي تعبّر عن إنسان معين ، نشأ في بيئة ، أكسبته طوابعها الشخصية ، بينما قوانين العلم عالمية وشاملة . يقول في هذا " إن أونيسكو يكتب للشعب الفرنسي ، وللحركة الثقافية الفرنسية . وكذلك يفعل بيكيت . واروين شو لا يكتب مسرحيات للشعب الانجليزي ، ولكنه يكتبها أولا للشعب الأيرلندى . " ومن الواضح ، أنه كان يعنى - في نهاية العبارة - جورج برناردشو الأيرلندي الأصل وليس الكاتب المسرحي الروائي اروين شو ، الأمريكي المولدوالمهات .

كما يرى يوسف إدريس - ورؤيته جدالية - أن انتشار الفنون الأوربية في أنحاء العالم ، لايرجع إلى أنها الأرقى من مثيلاتها المحلية ، وإنما لأنها صيغت في لغة واسعة الانتشار ، ولأن دولها تساندها سياسيا . ويضيف إلى ذلك : " إن العالمية في الأدب خرافة ، وأىّ كاتب يحاول أن يكتب أدبا يقرؤه العالم أجمع وينفعل به ، إنما هو كاتب أو فنان أفاّق (؟) ليفانتينى (؟) لايمكن أن يكون صادقا مع نفسه ، أو مع الشعب الذي أنشأه " .

ثم يندفع - دون تروّ - إلى اتهام غالبية أوجه النشاط الحضاري الحديث في مصر - بأنها أوربية قح ، بما في ذلك العمارة ، والأزياء ، والكتب ، والعلوم ، والموسيقا ، والنحت ، والفنون

التشكيلية، والموبيليا. ومن أقواله في هذا الصدد " إن فن العمارة عندنا لايزال أجنبيا مائة في المائة (؟؟) وإذا دققنا النظر في كافة مجالات حياتنا من السينما إلى برامج الإذاعة إلى الصحف وطريقة صدورها وكتابة أخبارها إلى التعليم الجامعي، إلى الحياة الاجتماعية التي يحياها الناس. لوجدنا أنّ الكثير من هذه المجالات يمشي على نسق أوربي مائة في المائة (؟؟) "

ولا شك أنّ نكران ملامح الشخصية المصرية، وروحها الساطعة في المجالات التي تمثل بها، محفوف بالتطرف والتجني على حركة الثقافات الإنسانية، وحتمية تمازجاتها وخاصة في العصر الحديث. فالتكنولوجيا المستخدمة عندنا في السينما والإذاعة والصحافة، لاتتعارض مع عالميّة العلم وشمولّيته، التي اعترف بها سيادته، وأكّدها في أكثر من موضع، كما غاب عن خاطره أنها تحمل مضامين صميمة المحلّية، سواء كانت في مصر، أو في الهند، أو السنغال. أم ترى نوصد الأبواب دون التيارات الحضارية الأوربية ــ المتسرّبة عنوة في شرايين أمم الأرض ــ وننهمك في التجريب والبحث دون الاستعانة بغيرنا، للوصول إلى اكتشاف تكنولوجيا مصرية (مائة في المائة)، ثم يتضح لنا بعد سنين عديدة من العناء الفكري، والقحط المادي، والتخلف الحتمي، أنها هي نفسها التكنولوجيا الأوربية التي كان يجب أن نستوردها في حينها ؟؟

ولكنه ـ في مقالة قصيرة يمكن أن تستقلّ بذاتها ـ يوقف استرساله، ويكرّر دفاعاته عن نفسه، بأنه لا يعادي وسائل الحضارة الأوربية الحديثة، ولا يعترض على استقدامها ـ كما اتّهمه ظلما معارضو دعوته وقتذاك ـ وإنما هو يناصر الدعوة الى المصالحة البدهيةالمشاعة بين كثير من المثقفين، والتي ترى وجوب استيعاب تلك الحضارة، وهضمها وإعادة صياغتها، بما يتواءم مع استقلال الشخصية المصرية. يقول سيادته : «إننا نريد إذن أن نفتح الباب على مصراعيه أمام الكتب والحضارة والثقافة الأوربية، ولكن لا لنتبنّاها كليّة حتى لننسى كياننا الخاص، تماما، ولكن لنستوعبها وندرسها، ونخرج منها بأفكار وثقافة يمكن أن نستعملها لكي ننمّي نحن ثقافة شعبنا الخاصة وفنونه بمختلف أنواعها.»

وهذا المأمل في تحقيق هذه المعادلة المستحيلة ـ أقرب مايكون إلى النظرة المثالية، أو إلى هواجس الفكر الرومانسي.

وبعد أن يفرغ كاتبنا ـ في القسم الأول الذى اجتزأناه من المقالة ـ من عرض شواغله المحدودة ـ التي تتعلق بنقاط معيّنة في موضوع المسرح المصري ـ ومما يحوطها من شؤون ثقافية عامة ـ يبدأ في القسم الثاني والأخير ـ بأحد العناوين الجانبية : " البذور المسرحية في حياتنا. " وهذا القسم، يخص ـ بصفة

أساسية ـ المسلّيات التمثيلية الشعبية في مصر، وعـلاقتها العضوية بمسرحية " الفرافير " كما سبق أن صرحنا في مستهلّ هذه الدراسـة . ومن ثمّ، فإنّ محاورته تستوجب ـ بالضرورة ـ مناقشة المسرحية ذاتها في ضوء معطياتها الشعبية . وهذا الأمر خارج عن نطاق هدفنا المعلن من قبل .

ونود أن نكرّر القـول ـ مرة أخرى ـ بأنّ الخيط الفكري الخفي الذي يتسلل في مـآرب المقـالة كلهـا ـ ويبـدو على نحـو بارز في قسمهـا الأخير ـ يكـاد يعلن في استعـلاء، بأن الحركـة المسرحيـة المصرية، منـذ ميلادهـا في أواسـط القـرن المـاضي، وحتى أوائل الستينيـات ـ أو بالأحـرى حتى ظهـور مسـرحية " الفـرافير" سنة ١٩٦٤ ـ خاليـة تماما، من أية مسرحيـة مصرية خالصـة شكلا وموضوعا، وبأن تاريخ التأليف الدرامي المحلي الحقيقي، يجب أن يبدأ من تلك المسرحية . أما ما جاء قبلها من مسرحيات، توسّم بأنها مؤلفة، إنما هي في صميمها من المسرح الأوربي، ولكنهاتتكلم اللغة الفصحى، أو اللهجة العامية . قال كاتبنا ـ عفـا الله عنه : " ومسرحنا كما ذكرنا نُقل نقل مسطرة ـ كما يقولون ـ من المسرح الأوربي، ورغم ما حدث فيه من تعديـلات وتغييرات إلا أن أصله الأوربي لايزال هو السمة الواضحة التي لايمكن أن تفلتها عين خبيرة " .

إن هـذه الأحكام العفـوية المجـرّدة من الحيثيّـات الموضوعيـة ـ ومثلها متعـدد وكثير ـ ذاتيـة تماما، وتتجاهل أهمّ الحقائق الأصولية في حركة اطراد التأليف المسرحي في مصر، طوال مايزيد على قرن من الـزمان، بل وتتهمهـا ـ ظلما ـ بـالمحْل، والغربـة، والتبعية العميـاء الذليلـة للمسرح الأوربي كما تغصب بعضها الآخر، على إفراز مغالطـات مجافية للتمحيص العقلي . كل ذلك من أجل المجاهدة في البرهنة على فكرة مفروضة سلفا ـ كما قلنا ـ ولكنها عاجزة عن الوقوف على ساقيها الموهومتين، لمناجزة الحقائق العلمية .

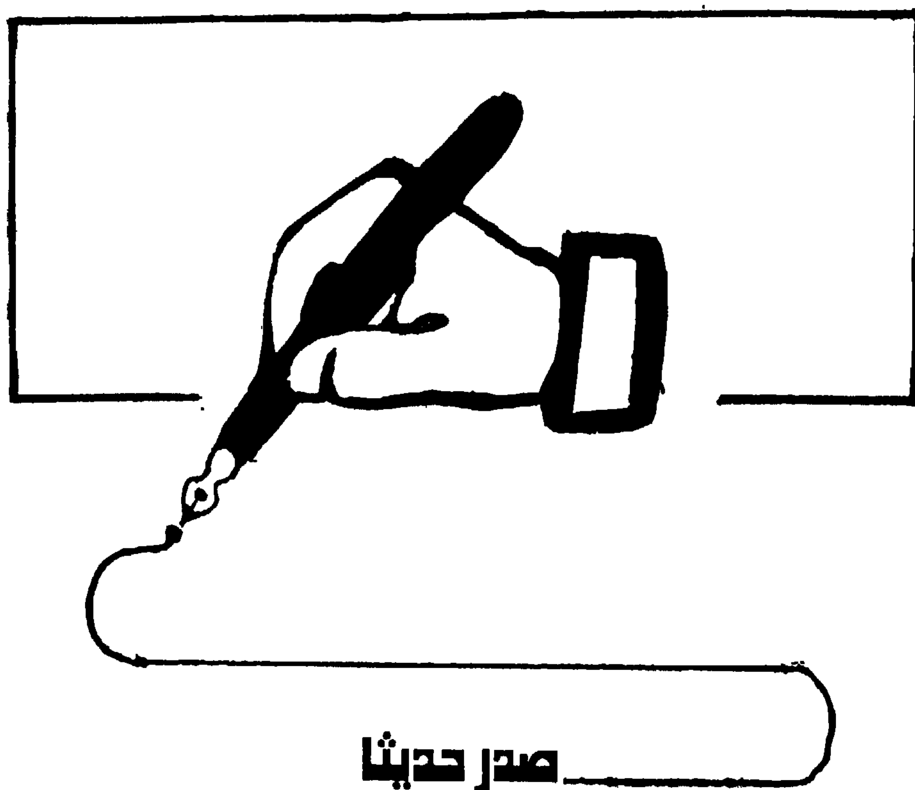
ولعل أهمّ ما تمخّضت عنه تلك المقالة الإدريسية، هو ظهور هوجات عشوائية التفكير، بين بعض المهتمين بالمسرح في أنحاء الوطن العربي، بقيت تنادي ـ طوال ما يزيد على ربع القرن ـ بالبحث عن قالب مسرحي عربي، وكأنّ كرامة كل لغة، أو كل قومية، لا تكتمل إلا بتوافر شكل خاص. ولن يعثروا على هذه العنقاء، ولو ظلّوا يبحثون قرنا آخر. وكان أسرع مَن استجابوا لدعوة يوسف إدريس، كاتبنا المسرحي الأول توفيق الحكيم، الذي أصدر بعد أعوام قليلة كتابه «قالبنا المسرحي» (١٩٦٧)[٢]، والذي تعدّ مادته ـ في رأينا ـ شطحة خياليةّ شديدة التعقيد والغرابة. ثم ترادفت بعده كتيّبات ومقالات وندوات سرابية الغاية، ليس منْ أهدافنا ـ في الوقت الحالي ـ حصرها ومحاورتها وتفنيد مزاعمها.

الهوامش

(١) يوسف ادريس . مجلة " الكاتب " . (نحو مسرح مصرى) القاهرة : دار التحرير للطبع والنشر ، عدد يناير ١٩٦٤ (ص ٦٧ـ١٧٩) ، وعدد فبراير ١٩٦٤ (ص ١٠٩ـ١٢٠) ، وعدد مارس ١٩٦٤ (ص ٨٦ـ٩٧) .

(٢) يمكن مطالعة تحليلها ونقضها ، في دراستنا المنشورة في مجلة " فصول " ، العدد ٣ يونيه ١٩٨٢ . أو في كتاب " من حصاد الدراما والنقد " الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٧) .





صدر حديثا

الشعر العربي الحديث

الشعر العربي الحديث: بنياته وإبدالاتها

تأليف: د. محمد بنيس

عرض وتحليل: عبدالسلام المساوي

تمهيـــد

مايزال الشعر العربي الحديث ـ بالرغم من الدراسات التي تمت إلى الآن في أقطار عربية كثيرة ـ محتاجـا إلى المزيد من الإضـاءة وضبط بنياته على ضـوء المناهج التي صـارت تفرزها الألسنيـة الحديثة والمعطيات التى تمد بها حقول العلوم الإنسانية الجوانب الإجرائية في الدراسات الشعرية المعاصرة .

ولا أحد ينكر اليوم النتـائج المحصل عليها في أعمال هامة ـ أغلبها بحـوث أكاديمية قامت بها نخبة من أجـود الأسماء العربية على امتـداد الوطن الكبير في إطـار انشغالها التنظيري والتطبيقي بهذا الزعم من الإبداع الشعـري العربي . ونحن ما نفتأ نذكر بتقديـر كبير أعمال النقاد الكبار من أمثال : د . إحسان عباس ود . عـز الدين إسماعيل ود . جابر عصفـور وكمال أبو ديب وأدونيس وغيرهم من أساتذة الجيل .

كما أن ثمة بحوثـا أخرى أنجزت هنا وهنـاك في رحاب الجامعات وأخرى تنجـز في مجال حر ـ ونأمل أن ترى النـور حتى تعم الفائدة وتكتمل الـرؤية حـول هذا الجنس الإبـداعي العصيّ أبدا على الضبط والانضباط .

أهمية الموضوع

في هـذا السياق يأتي كتـاب الشـاعر المغـربي محمد بنّيس الـذي يحمل عنـوان «الشعر العـربي الحديث : بنياتـه وإبدالاتها » ليسـد بعض الفراغ في حقل الدراسـات الشعرية العـربية . وقـد صدر مؤخـرا ـ في طبعة أنيقـة ـ عن دار توبقال بـالدار البيضاء . والكتـاب في أصله أطروحـة لنيل دكتوراة

الدولة صدر منها جزآن : الأول يحمل عنوان «التقليدية» . أما الثاني فعنوانه «الرومانسية العربية» ـ وينتظر أن يصدر في فترة لاحقة الجزآن الثالث والرابع ـ وهما ينصبّان بالدراسة والتحليل على الشعر المعاصر وأسئلة الحداثة .

وسنعمل في هذا العرض على تناول الجزأين الصادرين (١ ـ التقليدية) و (٢ ـ الرومانسية) بالعرض والتحليل ، على أن نستكمل عرض بقية الأطروحة عندما يصدر الجزآن المتبقيان . ولعلنا بذلك نساهم في إطلاع القاريء العربي على عينة هامة وجادة في ميدان التنظير النقدي وتطبيقاته على القصيدة العربية الحديثة .

الكاتب

والشاعر محمد بنّيس يقيم في الممارسة التنظيرية كما في الممارسة الإبداعية وقد صدر له حتى الآن ستة دواوين شعرية في الفترة الممتدة بين : ١٩٦٩ الى ١٩٨٩ ، وهي تجربة طويلة لا شك أنها أفادته ـ إجرائيا ـ في القبض على خفايا هذا الفن . كما صدر له في مجال الدراسات كتابان هامان ، أولهما : «ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب مقاربة بنيوية تكوينية» في طبعتين ، الأولى عام : ١٩٧٩ والثانية عام : ١٩٨٥ . وثانيهما : «حداثة السؤال ، بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة» وهو أيضا في طبعتين .

من هنا تأتي أهمية الكتاب الجديد ، ذلك أن الكاتب مؤهل للخوض في مجال الشعر العربي الحديث ، علاوة على نوعية المنهج الذي اختاره في قراءته ، إنه منهج يستفيد من الشعرية العربية القديمة ومن نظيرتها في الغرب وهو يطوعه بطريقة تراعي خصوصية المتن المدروس ، حتى لا تأتي الأحكام إسقاطية أو اعتباطية .

الكتاب

الجزء الأول : التقليدية (عدد الصفحات : ٢٦٩)

نفتتح هذا الكتاب على تمهيد ومقدمة مستفيضة عن «الشعر العربي الحديث والشعرية» اتسع القول فيها للإحاطة بموضوع الدراسة اختيارا وطرحا للإشكالية وتسييجا للحدود ثم تعيينا للمتن

وأقسام الدراسة . أما القسم الثاني من المقدمة فقد خصص للشعرية ، حيث عمل المؤلف فيه على مساءلة ابستيمولوجية لنظرية النص الشعري متتبعا لمراحلها الساخنة بدءا من أرسطو ووصولا إلى ما يروج على الصعيد العالمي من نظريات تبتغي الكشف عن مكنون القصيدة في علاقتها بالأشكال الأخرى للقول الإبداعي . وكان الهدف من تلك المساءلة الانتهاء الى التبشير بشعرية عربية مفتوحة، دشنها باحثون أمثال جمال الدين بنشيخ وأدونيس وكمال أبو ديب وجابر عصفور بأعمال «تتباين من حيث مكانها النظري وإشكاليتها » وينوي الباحث المضي في سراديبها بعتاد نظري مكتسب وبهاجس مغاير يسعى إلى الهدم والبناء « ابتغينا في هذه المقدمة، بسط مقترح إعادة بناء الشعر العربي الحديث من مكانة شعرية عربية مفتوحة كنظرية نقدية ، لها البحث والمغامرة والسؤال ، ولها أيضا تفكيك تصورات قديمة وحديثة . وصيغة الطروحات والأسئلة التي نهجناها كانت تحيلنا باستمرار على قضايا مختلفة منها ما سنجد له جوابا خلال الأجزاء الأربعة للدراسة ومنها ما ستكون الدراسة فرصة لضبط تفاصيلها في ضوء المعطيات النصية وإمكانيات التحليل معا. ص ٦٧»

ويتكون الكتاب بعد المقدمة، من ثلاثة فصول ، وخلاصة مركزة لما جاء في هذا القسم الخاص بالتقليدية وملحقين أحدهما يعرف بالشعراء - محور الدراسة - وثانيهما يعرض النصوص أمام القارىء ويوثقها ، لتكون العودة إليها مضمونة بين الفينة والأخرى في أثناء تتبع القارىء لفصول الدراسة .

الفصل الأول : سياج أولي

في الفصل الأول المعنون بـ «سياج أولي» يناقش المؤلف قضية «تسمية التقليدية » منتقدا الطابع الاستعجالي والانجذاب نحو سلطة ثقافية معينة اللذين ميزا مسألة تعدد التسميات من زمن لآخر ومن منطقة نقدية لأخرى في غياب تصور نظري شمولي ينتقل من الجزئي إلى الكلي ومن التسمية إلى النص ، مؤكدا بأن التقليدية لم ينته عصرها : «لم يكن نقد مدرسة الديوان لحافظ وشوقي ليقوض فتنة التقليدية . فالجواهري أعلن عن تجدد البداية واتساعها ، ولئن كان جبرا ابراهيم جبرا يطلق علية صفة (أنت آخر الفحول) فإن استمرارية المشهد التقليدي ستتأكد مع الجواهري ذاته ، فيما هي تنبثق مرة أخرى من صيحة البردوني ، هذا اليمني القادم من بين الجبال المسننة ، وتكون الثمانينيات ذهابا نحو التقليدية في أكثر من منطقة عربية ، حيث المهرجانات الشعرية في المشرق والمغرب معاً تفتتن بتماسك التقليدية وانغراسها في اللاوعي الجماعي .» ص: ٧٤ .

ويمضي المؤلف في تفسير قصور التسمية بغلبة النموذج الغربي واستدعاء أدواته وتصوراته، وسحبها على الشعرية الغربية بينما كان ينبغي البحث عن اللغة الواصفة meta langage داخل

سياق هذه الشعرية . ومن جملة أنماط التسمية الغربية المستدعاة نجد (كلاسيكية ، وكلاسيكية جديدة ، ونهضة ، وبعث ، وإحياء ، وانبعاث) ، وهي تسميات لا يصح تطبيقها على الشعر العربي ، لأن لها سياقها الخاص في أصولها الغربية والإغريقية «إن التمركز حول الذات الغربية ـ يقول المؤلف ـ من قبل المستشرقين أو بعض النقاد العرب ، هو ما أعطى الآخر ، الغرب ، شرعية تسمية هذا الشيء . والآخر بهذا المعنى هو الأدب الذي يختار الاسم ، بل إنه المتعالي الذي لا يقبل بالمعصية / أو البطلان . ألا تخفي التسمية في هذه الحالة ملكية المسمى ؟» ص ٧٦ . ولذلك يقترح محمد بنيس تجاوز الأخذ بهذه التسميات إلى ممارسة نظرية تأملية تنطلق من ثلاثة عناصر وهي : تقديمات الدواوين ، ثم تصنيف الدواوين ومواقع النصوص فيها ، وأخيرا عناوين الدواوين ، وهكذا يقوم بدراسة متفحصة للتقديمين اللذين كتبهما كل من البارودي وشوقي لديوانيهما ، ومناقشة مواقع النصوص داخل دواوين كل من البارودي وشوقي والجواهري وشاعر الحمراء (محمد بن ابراهيم) ، وأخيرا يتناول مسألة عناوين هذه الدواوين مستنيرا . بما قدمه «جيرار جينيت» G - Genette في كتابه الهام « عتبات seuils » في هذا الباب ، ليقرر في محور «طقوس التقليدية »بأن «هناك تسميتين تبدوان فاحصتين ، وهما الاتباع والتقليد ، يتردد استعمالها في النصوص الواصفة العربية في المشرق أو المغرب» ص : ٩٤ .

وبعد الحسم في إشكالية التسمية ينتقل إلى تقديم المتن الشعري ـــ محور التحليل في هذه الدراسة ـــ وهو كما ألمحنا إلى ذلك : للبارودي وأحمد شوقي ومحمد بن ابراهيم ومحمد مهدي الجواهري ، فعرف المتن كما ورد في لسان ابن منظور وعرف « المجموعة» استنادا على ما يقدمه معجم الدلائية . وذلك للإمكانيات التي يتيحها التعريف في الربط بين المتن والمجموعة ضمن الفضاء الذي يحاول ملامسته . وعقب تصنيف محكم للنصوص التمثيلية التي ينوي الاشتغال عليها ـ وإعادة ترتيبها بحسب معطيات الترابط والتوارد يعلن بلا تردد : «وبهذا المنظور نتجرأ على التعامل مع المتن كما لو كنا نتعامل مع قصيدة واحدة ، لما للبنية المشتركة بينهما من فاعلية . » ص ١٠١ :

ثم يختار المؤلف مسألة عناوين النصوص . بعد أن يمهد لذلك بفرش تاريخي يتتبع مسارب القصيدة العربية القديمة في علاقتها بالعنوان ، فيتوصل إلى أن القدماء أغفلوا تسمية قصائدهم قبل القرن الرابع الهجري وتركوها «حرة في اختيار مسار رحلتها ، مهما كان هذا المسار محددا بمعايير النقاد» إلا أنه وبمجيء القرن الرابع يتنبه بعض الشعراء لغياب العناوين ، فأطلقوا تسميات على قصائدهم ، وهذا ما يثبته بروكلمان في تاريخه عن الأدب العربي ويعزز ذلك بلائحة من العناوين.

وعلى أساس ذلك لاحظ محمد بنيس تفاوت أصحاب التقليد في عنونة قصائدهم فإذا كان البارودي قد صمتت قصائده عن عناوينها بالمعنى الحديث فإن شوقي قد عرفت بعض نصوصه عناوين فرعية

إلى جانب مطالع القصائد في الفهارس. وبالنسبة للشاعر المغربي محمد بن ابراهيم فقد اختار بنفسه عناوين لبعض قصائده بينما عنون الباقي جامعو ديوانه وتركوا بعضها غفلا. لكن: الجواهري «ينحاز في أغلب قصائده لإثبات العنوان مع عدم الاستغناء عن مطالع القصائد.»

الفصل الثاني: بنية البيت التقليدي

ويختص الفصل الثاني من الكتاب بـ«بنية البيت التقليدي» وفيه يسعى المؤلف إلى استنطاق البيت التقليدي وعلاقته بالقصيدة. ومن أجل ذلك يعمد إلى سبر أغوار الذات الكاتبة في انتقال «جسد الشاعر من وضعية الموات والالتئام إلى حالة الحياة والحساسية» ذلك أن أعضاء الجسم ووظائفها البيولوجية والنفسية هي المعنيّ الأول بالقول الشعري، ولكي لا يترك الأحكام مطلقة على عواهنها فإنه ينتقي جملة من حالات الشعراء ووصاياهم عن وضعية الجسد خلال عملية الخلق الشعري وهذه مسألة اكتشفها أبو تمام وأوصى بها تلميذه البحتري، وخبرها شوقي فأفاد منها الشيء الكثير، لما لذلك من علاقة بين إيقاع الذات وموسيقى الشعر «بهذا يكون الإيقاع عنصرا مؤسسا للنص الشعري في الوقت نفسه الذي هو مؤسس للذات الكاتبة. إنه أثر يفعل في جسد الكلمات، صاعدة من يباسها إلى انبعاث ابتهاجها ونشوتها وقد تدفق في أعضائها الماء الذي كثيرا ما ألمح الشاعريون العرب القدماء لصلته بجودة الشعر عنصر الماء المنسي في قراءتنا الحديثة للشعر.» ص: ١١٩.

وفي خضم تناوله لبنية البيت الشعري التقليدي، يعرض للاستهلال أو بداية القصيدة معرفا بالبيت عند التقليدية مذكرا بالتعريف الوزني الذي اقتصر عليه النقاد العرب القدماء وهو خلال ذلك يتحكم في عرض عناصر البيت من عروض وإيقاع، ويخلص في نهاية الفصل إلى القول: (إن هاتين الوظيفتين ـ العروض والإيقاع ـ المركزتين مستخلصتان من خطواتنا الأولية نحو ممكن التصور للنص الشعري، وهما في الوقت نفسه سفر نحو تمييز العلاقة بين العروض والإيقاع من ناحية وعلاقة الايقاع بالدلالية من ناحية ثانية والتباين بين التصور الشعري والتصور الدلائلي.) ص: ١٧٨.

الفصل الثالث: بين الدلالية ودورة الزمن

يشغل هذا الفصل حيزا هاما، ويتم الانتقال فيه من رصد بنية البيت إلى تحليل النص بكامله

أي انتقال من الجزء إلى الكل » ، وبين هذا الجزء والكل علاقة محكومة بالاندماج في : «نسيج حاكه نول واحد» ويختار محمد بنيس في هذا الفصل أربع قصائد من بين عينة المتن الشعري «للسفر معها في مغامرة التحليل» ، وللاختيار منطق التكامل والتمايز في آن . كما أن القصيدة المنتقاة لكل شاعر تتجاوب مع بقية القصائد الأخرى والقصائد المنتقاة هي :

١- تذكر الشباب ، لمحمود سامي البارودي .
٢- نكبة دمشق ، لأحمد شوقي .
٣- الدمعة الخالدة ، لمحمد بن ابراهيم .
٤- يادجلة الخير، لمحمد مهدي الجواهري .

والقصائد ـ كما يعلن بنيس ـ كتبت في فترات متباعدة وظروف متباينة إلا انها تنتمي لدورة الزمن « الزمن الفردي والإنساني لدى البارودي ، والزمن التاريخي والحضاري لدى شوقي ، والزمن الاجتماعي والسياسي لدى محمد بن ابراهيم ، والزمن الشعري والأخلاقي لدى الجواهري » ص : ١٨٤ . وتتفاوت هذه القصائد من حيث الطول . هذا الطول الذي يربطها باتباعية ملحوظة لجو الشعر القديم وخاصة منه المعلقات « التي هي شجرة نسب القصيدة العربية القديمة الطويلة » . وللطول أيضا علاقة بدلالية الخطاب . وبعد هذا التحديد الكمي ينتقل المؤلف لمعاينة الصفحة الشعرية كما تراها العين ، وكما يشكلها المكان والإيقاع ، ولدراسة « التكرير» في الأبيات وفي المجموعات (أو ما يمكن أن نسميه بالفقرات الشعرية) والتكرير في القافية وحرف الروي ويستخلص من ذلك عودة القصائد التقليدية إلى « ذاكرة المتن الشعري العربي » ويختم المؤلف هذا الفصل بدراسة نسق الدوال وإنتاج الدلالية في القصائد الأربع ـ الآنفة الذكر ـ ويفتتح هذا المحور بقوله : « تتهيأ دلالية النص الشعري من خلال نسق الدوال ، والفرق بين النص الشعري وغيره من الخطابات اللغوية يكمن في كثافة حضور إيقاع الذات الكاتبة في الخطاب ، حيث يكون تصعيد إيقاع الذات خصيصة النص الشعري ، فيما هو تعيين لموقع الذاكرة ودرجة إعادة البناء ، وبهذا كذلك ينفذ التاريخ إلى شقوق النص » ص : ١٩٩ . ويمضي بنا في التحليل مرة بمفتاح تكرير الأصوات وعلاقته بدلاليته كما في قصيدة «تذكر الشباب» للبارودي ، ومرة بالتقسيم المقطعي وعلاقته بدلالات الأزمنة ونوعيتها أو بالمعجم وما ينتج من دلالية الخطاب في قصيدة شوقي ومرة ثالثة بالانطلاق من تقسيم المقاطع الشعرية في إطار رصد اتجاه القصيدة« نحو بناء علاقة مباشرة بين اللغة والزمن » ومن مراقبة الصوتيات التي تتفاعل فيما بينها ، وهذا في قصيدة ابن ابراهيم . أما قصيدة « يا دجلة الخير للجواهري » فإن المؤلف اختار أن يحللها استنادا على الرؤية إلى المتتاليات « كدوال تنتج دلالية الخطاب » معتمدا على ما جاء في النص من آراء البارودي النظرية في الشعر .

ويتنهي جزء (التقليدية) بخلاصة مركزة لما تم ملامسته في الفصول السابقة ، وليقرر الحقيقة التالية : « إن التقليدية شعر حديث ، بمفاهيمه المشتركة مع المتون اللاحقة عليه (أو المتزامنة معه) يمهر حداثته » . وتصنيف التقليدية ضمن الشعر العربي الحديث تفصح عنه التصورات العامة التي يصدر عنها التقليديون في تسمية فعلهم الشعري ، وقد لامست المفاهيم المشتركة للحداثة بتأويلها الشخصي .

الجزء الثاني : الرومانسية العربية (عدد الصفحات :٢٠٨)

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة فصول وملحقين : أحدهما يعرف بالشعراء والثاني يعرض النصوص الشعرية ــ محور الدراسة ــ أمام القارىء للمتابعة خلال عملية التحليل . كما تضمن الكتاب في صدره إشارة تربط بين الجزء الأول الخاص بالتقليدية وبين الجزء الثاني الخاص بالرومانسية العربية .

كلنا يعلم أن موضوع الرومانسية لدى العرب عرضت له دراسات كثيرة وأبحاث جامعية لا يحدها حصر ، وكل تطرق إليها من الزاوية التي أغرته . وبعض النقاد ركزوا على شخصية واحدة في كتبهم كما حصل مع جبران والشابي ، أو بالتركيز على مدرسة أو حركة كجماعة أبو للو والرابطة القلميةفي المهجر . وتفاوتت النتائج المستخلصة بحسب المناهج المستثمرة في الدراسات والأبحاث ، وإن كان المنهج التاريخي والتعامل الفني في الدرس النقدي قد غلبا على معظم الأعمال التي تعرضت للرومانسية العربية .

من هنا تأتي أهمية هذا العمل الذي أنجزه الشاعر محمد بنيس ، إذ سار في مسلك لم يسر فيه غيره من الدارسين ، حيث أعد لرحلته في الرومانسية العربية جهازا نظريا يجد أغلبه في الشعرية وأقله في معطيات تاريخية مساعدة على ضبط المنعرجات وسبر محطات الانغلاق والكتمان . وهو وإن كان قد أعلن عن منهجه في بدايات كتابه عن (التقليدية) إلا أنه وبحذق الباحث المتمرس عمل على مراعاة خصوصية المرحلة الفنية المدروسة وطبيعة النصوص خلال عملية التحليل .

ومن أجل هذا وذاك كان لابد في الفصل الأول من تعيين الحقل الإجرائي وطرح فرش نظري يعينه على اكتشاف بناء الرومانسية العربية بإعادة النظر المتفحص إلى تاريخيتها ، وأكثر من ذلك العودة إلى الأصول الغربية ليرصد شكل الرومانسية فيها متعمدا الوقوف عند مراحلها الانتقالية .

الفصل الأول : تعيين الحقل الاجرائي

. وقد اشتمل الفصل على محورين ، هما : بناء الرومانسية العربية ، والمتن ـ المتن الشعري موضوع الدراسة .

١ـ بناء الرومانسية العربية

إن تسمية الحركة الشعرية بالرومانسية تجد مبررها في وضعيتين : وضعية عربية انطلاقا من التراكم النصي المشتمل على قالبه الفني وذاكرته . ووضعية أوربية تحكم انبثاق هذا التراكم بعد الهجرة المعممة للرومانسية الأوربية إلى العالم العربي وآسيا والأمريكتين ومناطق في أفريقيا .

لقد أصبح الشاعر والمثقف عموما في العالم العربي منشغلا بما سيكون عليه الشعر العربي لا بما كان . وفي ظل الوضعية الجديدة عثرت حداثة الشعر العربي على نموذجها في حاضر الشعر الأوربي ومستقبله معا . وهذا اللقاء بينهما سيشمل حتى القادمين من الشعراء المعاصرين ، ذلك أن الرومانسية العربية لم تكن تطويرا للتقليدية التي ظهرت في عصر النهضة ، وإنما هاجرت من مناطقها الأصلية لتعلن القطيعة والمواجهة ، وهذا ما يسوغ استمرار التقليدية إلى الآن ، بل إن الاختزال النظري في بعض الإشارات والتوجهات العامة في فهم الرومانسية الأوربية سيمد التقليدية بمناعة تجعلها في مأمن من تقويض تصوراتها عن الشعر والشاعر . ومن تجليات هذا الاختزال أن المتخيل الجماعي يحتفظ ــ وبفوضى ــ بما قرأه العرب عن الرومانسية في فرنسا وإنجلترا ، في حين تم إهمال الرومانسية الألمانية . كما أن فهم أهداف الرومانسية الأوربية عموما جاء مغلوطا . ففي الوقت الذي تهدف هي إلى ثورة «بلا تقسيط» ضد الكلاسيكية ، ينحو المتخيل العربي إلى تقديم الرومانسية «في صورة استسلام بدل المناهضة ، الانكفاء بدل إعلان تفجير اللغة والبحث في مجهول اللغة والثقافة» ص : ١٢ـ وبالإضافة إلى قصور الفهم عملت بعض السلطات الاجتماعية والسياسية والثقافية على تصوير دعاة الرومانسية (والتجديد عامة) في العالم العربي كعملاء ومتآمرين مع المستعمر ضد بلدانهم وأمنهم . ثم إنه إذا كانت الرومانسية الأوربية تتجه في مشروع الهدم والبناء من الداخل إلى الداخل ، فإن الرومانسية العربية ـ في انكفائها ـ كانت تتجه من الخارج إلى الداخل وفي فترة حرجة هي الاستعمار .

وهكذا تمخض عن كل ذلك تعددية تاريخ الرومانسية في العالم العربي ، فهذا لبنان يتعرف شعراؤه على الرومانسية في بداية القرن العشرين (مطران وجبران) ، في حين نجد بلدانا أخرى ومنها

المغرب يتأخر بها الوضع إلى الأربعينيات والخمسينيات ومن جهة أخرى ، انعكست الخلفيات السابقة على طبيعة المواجهة بين الرومانسية والتقليدية ، إذ أن هذه المواجهة في بعض الأحيان كانت منعدمة ، وهذا ما يفسر كون شوقي (التقليدي) يصبح المسؤول التنفيذي عن جماعة (أبوللو) ، وكون عبدالكريم بن ثابت وعبدالمجيد بن جلون ـ في المغرب ـ لم يحاكيا لأنهما مسؤولان عن الحركة الوطنية أو قريبان منها .

ولما كانت الرومانسية الأولى في العصور الوسطى مشتملة على لغات مبتذلة ، فإنها ستنتزع شرعية نصوصها الأدبية لاحقا وستتسمى هذه النصوص بتسميات romant و romanze و romancero أما تسمية Romantick و Romantisch في الأدبين الانجليزي والألماني فكانت تدل على القيمة المحتقرة لنوع الأدب العجائبي كما لأدب الفروسية والأحاسيس المتوقدة . وهذه التسمية ستكتسب في القرن ١٨ بالنسبة لألمانيا قيمة جمالية وتاريخية . وبالنسبة لإنجلترا فقد لعبت الطبيعة والمعمار الدور الأساسي في التسمية ، وصارت تدل على الإحساس بجلال المنظر ، وذلك من خلال الأطلال المندثرة في الأدغال . ويبقى للرومانسية مع جماعة (يينا) الألمانية مشروع كلي لبناء مجتمع مغاير ، وهي عموما تقترح الخطوات التالية :

١ـ تجديد الرؤية إلى القديم .
٢ـ إنتاج ما لم يقل .
٣ـ المطلق الأدبي : إلغاء الأجناس الأدبية .

والرومانسية في مشروعها المناهض لإمبريالية الدولة والعقل ، لم تبلغ هذه المرحلة إلا بعدما تهيأت لها العلاقة بين الفلسفة وعلم الجمال لدى الفيلسوف (كانط) . فعملت على تمجيد (الأنا) التي ستخط مسارها الشخصي . وبهذا إذا ، يمكن تعريف الرومانسية (كتشريف للذات) بعد أن كانت مقموعة ومهمشة من قبل . إن العلاقة المتفاعلة والمتمازجة بين الذات والكون هي (المركز والمحيط) هي ما يسمى الفردية والرومانسية بالكونية واللانهائية . وهذا ما سيحكم النظر في صميم كلية الكائنات بمعيار الحدس وإطلاق العنان للخيال بلا حدود .

أما في العالم العربي فستنقلب أوضاع الشعر رأسا على عقب لأن المجددين من الشعراء سيتوجهون مباشرة نحو النموذج الأوربي ، وستكف النماذج المعروفة في القديم عن الاشتغال كفاعلية مهيمنة . وهذا سيرسخ معيار (القدامة) و (الحداثة) لأن الرومانسية أتت من خارج بنية الشعر العربي . ويبقى أن نشير إلى نسبية ثورية الرومانسية العربية ، فمطران ثار على العثمانيين في لبنان بينما عمل على مراعاة المجال الاجتماعي في أثناء إقامته في مصر . والرابطة القلمية اتسمت بثورية

شاملة على الأوضـاع ـ ولكن من داخل المهجر ـ وفي مصر انفجرت اللغة دون المسـاس بالدين وغيره من المؤسسات الاجتماعية .

ومرد نسبية هذه الثورية إلى أن الرومانسية العربية لم تستند على رؤية فلسفية شمولية تبعا لغياب الخطاب الفلسفي في الثقافة العربية الحديثة . ولعل الممارسة النصية لكل من جبران والشابي هي وحدها المساعدة على ضبط تصور الرومانسية العربية كأفق للهدم والمغامرة .

وفي نهاية هذا المحور يحدد المؤلف موقفه النقدي ، متبنيا مصطلح (الرومانسية العربية) باعتبار أن التسمية في أصلها غربية ، كما يبدي بعض الملاحظات حول علاقة الفعل والانفعال بين الرومانسية الغربية (كفاعل) والرومانسية العربية (كمنفعل) .

١-المتن

ضمن محددات أولية يشير محمد بنيس إلى أن الوقوف عند الشعر الرومانسي سيكون وفق المعيار المتبع في الشعر التقليدي ، من حيث عدد الشعراء ، واعتماد المركز والمحيط من أجل تحليل البنيات العامة للشعر العربي الحديث ، سواء التي تحكم النص الأثر أو النص الصدى ويوضح طريقة عمله، فهو لا يتغيّى التأريخ للحركات أو المدارس ، وإنّما التحليل النصي . أما الشعراء الذين اتخذوا كعينة فهم : مطران وجبران والشابي وعبدالكريم بن ثابت .

وبالنسبة لعينة المتن فهي تراهن على لمس مختلف الممارسات الدالة في إطار نظري وتحليلي معا . فالنصوص تغطي فترة نصف قرن : من ١٩٠٢ الى ١٩٤٩ وهي مرتبة على الشكل التالي :

أ ـ خليل مطران : المساء ـ الحمامتان ـ الأسد الباكي ـ فنجان قهوة .
ب ـ جبران : المواكب ـ وعظتني نفسي ـ جمال الموت ـ أنشودة الزهرة .
ج ـ الشابي : الصباح الجديد ـ نشيد الأسى ـ الجنة الضائعة .
د ـ عبدالكريم بن ثابت : ليل وصباح ـ والمعاني باقيات ـ قيد . . . . ـ حبيبي .

الفصل الثاني : الحدود بين الشعر والنثر

١- الشعرية والتناول النظري

يفتتح المؤلف هذا الفصل بالإشارة إلى أن الرومانسية عملت على تذويب الحدود بين الشعر والنثر والغاء نظرية الأجناس . كما أن النثر فيها نجح في منازعة الشعر سلطته التي أقرتها التقليدية ، خصوصا عندما انكتبت به أجناس لم تكن معروفة من قبل كالرواية والصحافة والمسرح . وبعد ذلك ينتقل إلى تأطير موضوع الفصل من خلال التنظير للشعر والنثر في الشعرية الحديثة . وهكذا انطلق من فرضية (رومان ياكبسون) حول الوظيفة الشعرية للغة التي تتجاوز الشعر إلى النثر ، وهي فرضية يلاحظ (طودوروف) أنها متأثرة إلى حد بعيد بعلم الجمال (الكانطي) وبالرومانسية الألمانية . ويرى المؤلف بأن الشعرية البنيوية تبقى حبيسة الثنائية الأرسطية للشعر والنثر ، والتي تختزل الدليل في الاستعارة باعتبارها متحققة في الشعر دون غيره . وثمة فرضية أخرى يضطلع بها اللساني والفيلسوف الألماني (فون هامبولد) ومؤداها أن هناك صلة وثيقة بين الشعر والنثر في طريقة تعاملهما مع الواقع ، وهو بذلك (يمهد لنظرية الخطاب ولأسبقية الإيقاع في بنائه الذي منه تنبثق شعريته بتكثيف نغمه). كما يذكر بنيس بنظرية (ميشونيك) الشعرية في علاقتها بالشعر والنثر ، فهو يرى بأن الإيقاع يلزم الشعر كما يلزم النثر ، لأنه منفصل عن البحر العروضي .

في إطار هذه الطروحات النقدية يعلن المؤلف عن تقدمه لقراءة نصوص الرومانسية العربية التي أصبحت تنصت لتعدد الممارسات النصية العربية القديمة وتتفاعل مع الحداثة الشعرية الأوربية ، ثم يقترح فضاء الشعرية العربية القديمة كفرضية مساعدة على تسهيل المهمة . وضمنها ينطلق من نظرية الإعجاز التي قال بها الباقلاني وأتمها الجرجاني ، فلاحظ بأن الشعرية معهما تقرر مبدأ المفاضلة بين القرآن والشعر . فالباقلاني يؤكد على معطيات البلاغة والبراعة والفصاحة ثم التقليد ، بينما يسن الجرجاني قانوني (الاستعارة والتخييل) من أجل فصل النص المقدس (القرآن) عن غير المقدس (التخييلي) . وينتهي إلى إقرار البلاغيين والنقاد القدامى بمكونات الشعر المعرفية وعدم الاقتصار على الوزن .

وهناك نظرية (حل المنظوم ونظم المنثور) كمعيار آخر في الشعرية العربية القديمة ، وهي دعوة إلى ممارسة الحل والنظم خلال عملية الإبداع ، وقد قال بها كل من ابن طباطبا وأبي هلال العسكري ، ومن ذلك دعوتهما إلى تخير المعاني من الرسائل والخطب قبل نظمها في الشعر . وهنا نكون أمام تمجيد الكتابة (الصدق) وتهميش الشعر (الكذب) ، وهو موقف فرضته السلطة السياسية والدينية .

وإذا ، فبين الشعر والنثر في الخطابات الأدبية عند العرب القدماء تجاور ، فهذا ابن عربي يكتب الشعر والنثر معا و (خرج بالنثر إلى ما بعد النثر) .

٢ـ وضعية قصيدة النثر

كتب جبران وأمين الريحاني قصيدة النثر في المهجر الأمريكي ، ولعلهما كتباها بوحي من جو الحرية الذي تمتعا به هناك . ويشير المؤلف إلى أنه رغم مرور ما يقارب قرنا من الزمن فإن قصيدة النثر لم تحظ بدراسة مستقلة ، باستثناء بعض المواقف المبثوثة هنا وهناك . وأمام هذا التهميش فلا مندوحة من الجهر بوضعية هذه القصيدة في الرومانسية العربية. ذلك أن الصمت إلغاء للماضي والحاضر معا « لقد أصبح العروض في عصرنا العربي الحديث هو إعجاز الشعر، بعد أن تحول الإعجاز اللغوي لدى العرب الحديثين، من القرآن إلى الشعر، وهذا ما ساعدنا كيف أن كل خروج على الأنماط القديمة للأوزان «لأنماط الموشح أو القصيدة البديعية في العصور المتأخرة » كان يقابل بالهجوم الذي أسلحته هي الدين والعروبة بمعناها القومي . . . . » ص: ٤٩ .

وإلى جانب قصيدة النثر أو (الشعر المنثور) وجدت أنماط أخرى متحررة من القيود العروضية الصارمة هي الشعر الحر (التنويع في البحور والقوافي) والشعر المرسل (البحر الواحد مع التحلل من القافية) . ثم إن إلغاء الوزن أفرز نقاشا بين التقليديين والمعاصرين ـ وحتى بين المعاصرين أنفسهم .

وفي عنوان هامشي تعرض المؤلف لعلاقة أحمد شوقي بالشعر المنثور، إذ أكد أنه مارس كتابته في كتابه (أسواق الذهب)، لكنه عاد في الأخير ـ بعد مناقشته لقانوني الحدود والمركز بين الشعر والنثر واللذين يقرهما شوقي ـ ليبرىء قصيدة النثر من ممارسة شوقي النصية ، حيث قال: «إن شوقي بموقفه من تمجيد مركزية الشعر، عاد إلى القديم، ومعه التقليديون، بغاية إلغاء التاريخ الذي لا يقبل الإلغاء ـ . وتكون ممارسة قصيدة النثر في صيغة «الشعر المنثور» أقرب للسجع منها إلى قصيدة النثر التي هي بريئة مما يكتب. »ص : ٥٨ .

وتأسيسا على ذلك يكون التاريخ الحقيقي لقصيدة النثر قد دشنه جبران ، ذلك المتمرد المهجري ، الذي باغت سلطة الحدود بين الشعر والنثر، وواجه المجموع بتفرده ، والسائد بإبداعه الشخصي . وبإلغاء الحدود يكون جبران بالضرورة قد ألغى مركزية الشعر كذلك ، وفي نهاية الفصل لاحظ بنيس بأن النصّ التائب الموجه لكتابات جبران هو القرآن والكتاب المقدس وتساءل عما إذا كانت أصول جبران في ممارسته النصية غربية ، لكنه عاد ليظهر عدم جدوى التساؤل ما دام الكتاب.

المقدس ليس حكرا على الغربيين، بل إن الثقافة الدينية عموما (القرآن والكتاب المقدس)مشاعة بين الشرق والغرب. ويستشهد باستناد «دانتي» و «غوته» إلى القرآن والشعر العربي القديم والشعر الفارسي.

الفصل الثالث: البنيات النصية والطرائق الأقل

يتعرض المؤلف في هذا الفصل لدراسة البناء الإيقاعي في نصوص الرومانسيين العرب. فيلاحظ بأن الإيقاع هو الدال الأكبر في الخطاب الأدبي لأنه يحتوي العروض وغيره من العناصر. ومن جهة أخرى فإن الإيقاع يخترق الحدود بين الشعر والنثر «لتحقيق التجاوب بين الممارسات النصية المهاجرة من قانون لآخر». وعلى هذا الأساس ينبغي قراءة الشعر الرومانسي العربي من مكان المشترك النصي لهذا الشعر، أي ذلك الذي تلتقي فيه كل من القصيدة العروضية وقصيدة النثر على السواء. علما بأن قصيدة النثر ما تزال بعيدة ـ وعلى المستوى العالمي ـ عن التناول النظري.

ومن الإيقاع ينتقل المؤلف إلى مسألة «المقطع»، باعتبار أن الرومانسية العربية استبدلت «البيت الشعري» الحاضر في الممارسة الشعرية والتنظيرية القديمة بالمقطع كدال مفضل. وهذا ما يسمح باختراق الحواجز بين الشعر والنثر معا.

والمقطع وحدة دالة من بين وحدات الخطاب، والمؤلف يستقي هذا التعريف من «لسان العرب» لابن منظور، ومن مرويات في كتاب العمدة. ويستخلص بأن المقطع وجد عند القدماء في النثر والشعر معا، كما يستأنس بمنظور الرومانسيين الألمان في هذا الصدد وخاصة جماعة «يينّا» التي لاحظناه يركز عليها في فقرات كثيرة من هذا الكتاب نظرا لوضوح مشروعها الرومانسي. ويتوصل إلى أن المقطع كنموذج للإنتاج الأدبي له في أوربا تاريخ منغرس في التقليد، ومستمر لدى كتاب العصر الحديث ابتداء من «نيتشه» إلى «رولان بارط».

وبعد هذا التحديد النظري يفسح المجال لنصوص الرومانسيين العرب ليجري إحصاء على عدد المقاطع التي تتوفر عليها. وانطلاقا من رأي«تيتانيوف» وبعض الدارسين العرب المعاصرين، يلاحظ بأن المقطع في النص الرومانسي العربي له شجرة نسب قائمة على الأصل القديم وعلى التجارب مع الممارسة النصية الأوربية.

ويتجلى الاختلاف بين الشعراء في أن لكل واحد سمته الخاصة: فجبران يمتلك النفس

الطويل، وإيقاع الخطاب يستحوذ على نصه بالكامل، ولذلك يستحق «العتبة العليا» للمتن. ويظل الشابي مرتبطا بالدال العروضي، في حين تقتصر نصوص عبد الكريم بن ثابت على أن تكون صدى لنصوص أخرى، بينما تمثل نصوص خليل مطران «العتبة السفلى» للمتن.

واذا كان المقطع في النص الرومانسي العربي يستلهم نموذج الموشح، فإنه عمل على تحقيق إبدالات جعلته غير قابل للعد والقياس تماما كالنموذج المستلهم ـ أي الموشح ـ ولأن المقطع يدخل في صميم ممارسة الذات الكاتبة ـ وخاصة عند جبران ـ فإنه من الصعب ضبط القوانين التي يشتغل بها خلافا للبيت التقليدي. ومن خلال تحليل بنيوي للمقاطع الأولى من نصوص الشعراء ينتهي بنيس إلى أن تلك الممارسات هي تجاوز وإبدال لنمط الموشح القديم.

ويعالج المؤلف مسألة «الوحدة» حيث إنها كلمة تطلق على القول المختص بالوحدات الجملية للخطاب، وعلى البيت الذي هو وحدة محصورة ببياض نوعي على الصفحة، وقد يكون مبنيا على أساس عروضي أو على أساس إيقاعي. كما يثير قضية «المكان النصي»، ويعني به تموقع النص داخل المكان من الصفحة طباعيا وخطيا. لأن تلك الممارسة ليست مجرد تقنية لدعم النص، وإنما تدخل في صميم دلاليته، وهو يثير هذه القضية في ضوء تصور «يوري لوتمان».

أما «الطرائق الأقل» المشار إليها في عنوان هذا الفصل، فيقصد بها (لوتمان) عنصرا أو عناصر من القصيدة العروضية محذوفة في النص العروضي أو الإيقاعي كالقافية مثلا. وهوقانون مهيمن في النصوص الرومانسية العربية ولكن باختلاف بين القصيدة العروضية والقصيدة النثرية. وهذه النصوص تتجه نحو إفراغ القصيدة الحديثة من الطرائق السائدة فيها. ففي القصيدة العروضية مثلا تحققت إبدالات، منها غياب الاستهلال وإحلال المقطع مكانه، وحضور الأوزان الخفيفة ولكن من دون ربط ذلك بالطرب والغناء خصوصا في ظروف حياة العذاب والمعاناة في المهجر (الأمريكتين). كما يحضر الإدماج بين شطري البيت، فلا مجال للتقسيم بينهما.

وفي قصيدة النثر كانت الإبدالات في النصوص أكثر حظوة في الظهور، فهناك الاعتماد على تنميط البيت على المعايير الإيقاعية بدل العروضية ثم هناك تفاوت الأسطر داخل القصيدة من حيث الطول والقصر، وهذا ما يحدث في «أنشودة الزهرة» لجبران، وليس الأمر هنا متعلقا بالوقفة الوزنية أو المعنوية، وإلا لكان ذلك عودة إلى البيت التقليدي. وهذا الإبدال يطلق عليه محمد بنيس «عودة أقل إلى الوراء» إذ يتم في قصيدة النثر إلغاء العروض والاستعاضة عنه بالإيقاع الداخلي للغة.

ويختار المؤلف الحديث في نهاية هذا الفصل عن قضية «النص» فيرى أنه إذا كان ابن رشيق يفصل البيت المستقل عن سابقه ولاحقه على التضمين ـ باستثناء الأبيات الواردة في مواضع الحكايات أو ما شاكلها ، فإن الرومانسيين العرب تجاوزوا البيت إلى بناء النص كنسق متكامل لا يفصل بين وحداته. وهذا لا يمنع من أن هناك قصائد لمطران وجبران والشابي وابن ثابت لم تخرج عن النمط الأولي من البيت ، ولذلك ينسبها المؤلف إلى العتبة السفلى من المتن. إذ يتحقق فيها التكرير الوزني والربط والتضمين والحوار.

أما قصائد العتبة العليا في المتن الشعري الرومانسي العربي وتمثلها قصائد جبران والشابي وابن ثابت ، فإنها استبدلت نمط البيت الأولي بالتكرير المقطعي «قصيدة المواكب لجبران تتكون من ١٩ مقطعاً وكل مقطع عبارة عن موكب» وهو تكرير إن كان يتحقق أفقيا فإنه لا يتحقق عموديًّاباستمرار. وفيها يخص الربط والتضمين ، فمن حيث الربط تكثر أداتا «الواو» و «الفاء» وهذه خصيصة تجعل القصيدة الرومانسية الحديثة تبتعد بها عن القصيدة التقليدية . أما التضمين فهو يتمم الربط بين الأبيات دون أن يقوم بهذه المهمة بين المقاطع .

ويستمر المؤلف في رصد عناصر التكرير والربط والتضمين والحوار في بقية النصوص المدرجة مستخلصا إبدالاتها ومقدار ابتعادها عن النصوص القديمة . وختم هذا الفصل بطرح الصعوبات التي واجهته إبان ممارسته النقدية للنص الرومانسي العربي في إطار الانتقال من الدال العروضي إلى الدال الإيقاعي .

الفصل الرابع : المتخيل الشعري

ولهذا الفصل ارتباط منهجي بالفصل الذي يليه ، ذلك أن الفصل الرابع يختص بالتنظير النقدي للمتخيل الشعري ، في حين يختص الفصل الخامس بتطبيق تلك الأدوات الإجرائية على بنيات المتخيل في النص الرومانسي العربي .

ينبني النص الرومانسي العربي على أساس المتخيل ، ولذلك يتحتم الوقوف على تأطير نظري يمكّن من مشروعية الممارسة التطبيقية على النصوص . هذا التأطير الذي ينبغي أن ينطلق من تصور الشعراء الرومانسيين المدروسين ـ في الكتاب ـ للخيال ، لأنهم إلى جانب إبداعهم الشعري عملوا على التنظير المتجاوب معه .

مطران والاستعارة

لقد كتب خليل مطران بيانا موجزا ورد فيه حديث مقتضب عن الخيال ضمن توضيح طريقته في التجديد. وهو يعتبر بأن شعر التجديد هو شعر المستقبل لأنه حسب تعبيره «شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا» كما أنه شعر «الصور المخيلة».

جبران وملكة الخيال

ويورد المؤلف نصا كاملا لجبران يتحدث فيه عن ملكة الخيال، وهي ممارسة نظرية واضحة التصور. ويختزل النص إلى نقط أساسية تبرز لنا رأي جبران في الخيال ، وهو «مدينة مجسدة من خلال ثلاث صور» :

- مدينةالخيال عرس يخفر بابه مارد جبار. . .
- مدينة الخيال جنة يحرسها ملاك المحبة . . .
- مدينة الخيال حقل تصورات ، أنهاره طيبة كالخمر، وأطياره تسبح كالملائكة وأزهاره فائحة العبير .

الشابي والخيال الشعري

وللشابي علاقة تنظيرية بالخيال، إذ كتب دراسة مستفيضة بعنوان «الخيال الشعري عند العرب» وفيها يتناول مفهوم الخيال كما تحدده الرومانسية الأوربية ، وهذا في القسم الأول من الدراسة، بينما يطبق معطياته على الشعر والأدب العربيين في القسم الثاني منها. ويستخلص بنيس من تلك الدراسة مجموعة من النقط ، نوردها هنا باختزال :

أ ـ ضرورة الخيال لارتباطه بالموقف الإنساني .
ب ـ أصل اللغة هو المجاز والأساطير والاعتقادات، وذلك مجهود خيالي عظيم .
جـ ـ الخيال عنصر غريزي في الإنسان وبه تشتغل اللغة .

ابن ثابت ووثبات الخيال

يوضح المؤلف بأن ابن ثابت لم يتناول الخيال في نص نظري أو إبداعي مستقل. ولكنه يورد له مقالين يتعرضان للخيال بشكل عرضي. ففي الأول ينتقد الفنون الإسلامية الخالية «من وثبات الخيال» . وفي الثاني يعيب المحاكاة والتقليد في الفن الذي يغيب فيه «خيال الفنان». وفي ذلك يقول محمد بنيس: «هذا التنظير صدى لما قرأناه لدى جبران والشابي، وهو أقرب إلى الشابي في هدمه للفنون الإسلامية ومن بينها الشعر لأنها برأيه مفتقدة للخيال الذي هو نقيض الصنعة والقواعد والقيود وغياب الذات المبدعة. «ص: ١٢٤ .

بين الخيال والتخييل

هناك فرق حاصل في التسمية بين القدماء وبين الشعراء الرومانسيين العرب والنقاد المنشغلين بالرومانسية ، فالقدماء جاءوا بمصطلح «التخييل» بينما فضل المعاصرون مصطلح «الخيال».

لقد استعمل القدماء مصطلح «التخييل» ابتعادا عن «الخيال» الذي يقترن عندهم بمجافاة الحقيقة وبالاشتباه والوهم. والتخييل ذو نسب فلسفي قبل أن يكون مصطلحا نقديا وبلاغيا، وبانتقاله ذاك أصبح يشكل عنصرا دلاليا فيه الممارسة الشعرية والتنظيرية التي كانت فيها قبل مكتفية بالتعريف العروضي في البناء النصي «وهجرة تصور التخييل من الفلسفة إلى حقل الشعرية والبلاغة لم تمنع الشاعريين و البلاغيين العرب القدماء من إدراج التخييل ضمن السياق النظري العام الذي يصدرون عنه، فكانت الخصيصة غير المعرفية للشعر تجد في الكذب ما يقابلها ، كما أن خصيصة المعقول والمحسوس في التخييل عثرت على صيغتها التامة في الوضوح ، وهما معا يستهدفان القارىء أساسا. «ص: ١٢٥ .

وقد تداول التقليديون «الخيال» إلا أن تعريفهم له يتعارض مع تعريف الرومانسيين العرب. فالخيال عند التقليديين «ملزوم بالامتثال للعقل» بينما عند الرومانسيين «مناهض لامبريالية العقل». وانصب هذا الصراع على انتقاد الروح العربية من خلال كتاب أبي القاسم الشابي «الخيال الشعري عند العرب» الذي كان همه نقض صروح التقليدية، إلا أن تغافله عن الخيال في الممارسة الصوفية جعله بعيدا عن الشمول، فيما احتفل جبران بالنص الصوفي عند ابن سينا وابن الفارض.

وعلى كل فالمؤلف يوافق رأي جابر عصفور حول وجود اعتبارات دينية وميتافزيقية تؤكد التشابه الحاصل بين الرومانسيين ومتصوفة الإسلام من حيث النظرة إلى «الخيال» فكلاهما يعطي الأهمية للتصور الداخلي والتجربة الروحية في الرؤية إلى العالم « إلا أن تجاوب آليات الخيال لدى كل من الرومانسيين والمتصوفة لا يفضي حتما إلى تجاوب المقاصد. وهذا العنصر هو ما يترك الاختلاف بينهما حاضرا على الدوام. » ص: ١٣٣ ثمة تساؤل يطرح: هل تتم قراءة الخيال الرومانسي العربي في ضوء الشعرية العربية القديمة؟ إن التنظير الرومانسي (جبران والشابي) يلغي فورا إمكانية هذه القراءة. ذلك أن خيال القدماء «صناعي» بينما خيال الرومانسيين «فني» غير منضبط لمعايير العد والقياس.

نظرية الصورة

ويمكن مقاربة الخيال الفني عند الرومانسيين العرب على ضوء الصورة كما حددها أرسطو (وهومصدر الدراسات العربية القديمة والتقليدية) وصولا إلى «السوريالية والدادئية الداعيتين إلى بناء الصورة المضادة». والصورة «عنصر أسبق في تعريف الشعر وهي ما يميزه عن النثر» وقد تكونت أساسا من نظرية المحاكاة اليونانية، بالتشبيه كما في شعر امرىء القيس، وبالاستعارة كما في الشعر الأوربي. ومع مجيء الرومانسية العربية ستتجذر الصورة في المنحى النفسي لذلك ستحدث المؤالفة بين الخيال من ناحية والجنون والحلم والنبوة من ناحية ثانية مما سيجانب الاتزان العقلي في الشعر القديم وفي التقليدية العربية.

إن الصورة لديهم تقترب من مفهوم التصوف الإسلامي الذي قال «الحضرة المسكرة في حل من عقال العقل». وهي بذلك «مشهد للفتنة والغرابة والمتعة». ويحصر محمد بنيس أمكنة قراءة الصورة في ثلاثة، بحسب ما تفرضه توجهات البحث:

أ ـ المكان البلاغي: وهوممارسة تصنيفية بلاغية قديمة.
ب ـ المكان الشعري: وتمثله النظرة الباشلارية (نسبة الى باشلار).
جـ ـ المكان الانتربولوجي: وهو قصر الصورة على تحولاتها وانحرافاتها وتبدلاتها والبحث عن المصادر الإنسانية لها.

شعرية المتخيل وحدودها

هناك فرق بين الصورة والاستعارة، لأن الاستعارة مرتبطة بالماضي أي بما هو محدد في الذاكرة. بينما الصورة تبقى مفتوحة على المستقبل، أي على الحلم بما هو «واقع متجدد وفي حال صيرورة».

الفصل الخامس: بنيات المتخيل في النص

وهذا الفصل ـ كما نبهنا سابقا ـ خصصه المؤلف للتطبيق على نصوص الشعراء الرومانسيين العرب ـ ويفتتحه برصد لقاء القصيدة العروضية وقصيدة النثر. وفي ذلك يقول: «وسيكون التحليل فرصة لاختبار تعميم نموذج التحليل وتخصيصه في آن. فهو بانتقاله بين القصيدة العروضية وقصيدة النثر يتوخى بلوغ مشترك القصيدتين معا ومعرفة الحدود بينهما، فيما هو يستضيء بنقد كل نموذج معمم للتحليل، سواء أكان متوجها لمختلف القصائد العروضية أو لاختلاف هذه عن القصائد النثرية.» ص: ١٢٥.

وبعد ذلك يمضي في مقاربة واقع المتخيل الشعري في صيرورة نصوص أربعة (المساء لخليل مطران ـ جمال الموت لجبران ـ الجنة الضائعة للشابي ـ والمعاني باقيات لعبد الكريم بن ثابت) متعمدا عدم حصر أنماط تركيب المتخيل في نماذج نهائية، لأن للنصوص فرادتها وتوقيعها الشخصي.

وينتهي الكتاب بخلاصة مركزة لما ورد في صفحاته، ونورد هنا الفقرة الأخيرة منها لما لها من حكم عام واستشراق لما سيأتي في الجزأين الثالث والرابع، وهما عن الشعر المعاصر وأسئلة الحداثة. ونأمل أن يصدرا قريبا حتى نكوّن فكرة متكاملة عن هذه الأطروحة الهامة. يقول بنيس في الفقرة الأخيرة: «إن الرومانسية العربية أثر مشع في شعرنا الحديث وفي ثقافتنا الحديثة إجمالا، ولكنها هي الأخرى بلغت مأزقها. ويمتد الإشعاع والمأزق معا ليثير الأسئلة التي قد نجيب وقد لا نجيب عنها. لن نستعجل شيئا، والجزء الرابع قد يفتح أبوابا شرعنا في طرقها بمتعة أو هيبة أو مواربة.» ص: ١٧٤.

خاتمـــــــــة

لقد كـانت رحلتنا مع هـذين الجزأين من كتاب «الشعر العـربي الحديث : بنياتـه و إبدالاتها» رحلة في طريق مر منها نقاد كثيرون، اكتشفنـا على ضوء مصابيحهم بعض مكامن الطريق وأسراره، ولعل رحلتنا الجديـدة مع الشاعر المغربي محمـد بنيس، الذي تزود قبل السفر بعتـاد معرفي ومنهجي مسلح بالشعريـة العربية القديمـة وبأخرى غربية حديثـة، قد أضاءت لنا زوايـا ظلت طوال العقود المتوالية معتمة أو مسكوتا عنها. إن حركية الشعرية العربية المفتوحة ـ بتعبير بنيس ـ تبقى لحد الساعة على الأقل ـ تستقبل الركاب ممن يستهويهم «السفـر في ليل القصيدة». ولنا أن نحتفل بمشهد الرحلة في (التقليدية) و (الرومانسية العربية) ونشعل شمعتين.



عالم الفكر

ترحب المجلة بإسهام المتخصصين في الموضوعات التالية:

١ـ الفلكلور والفنون المعاصرة
٢ـ النظرية النقدية الحديثة
٣ـ الإعلام المعاصر
٤ـ الأدب والعلوم الإنسانية
٥ـ تفسير الظواهر اللغوية
٦ـ الفكر العربي المعاصر
٧ـ آفاق الأسلوبية المعاصرة
٨ ـ الديمقراطية .
٩ ـ النظام الدولي الجديد .
١٠ ـ التجليات الثقافية لأزمة الذات العربية .
١١ ـ اتجاهات معاصرة في دراسة التاريخ من البردى إلى الأرشيف .
١٢ ـ العدوان العراقي على الكويت وموقعه من التاريخ .
١٣ ـ الأدب العربي الحديث في علاقته بالفكر العربي الحديث .
١٤ ـ المسرح العربي وتحديات العصر التكنولوجية .

تمامات المجلة

تعنى المجلة بنشر الدراسات الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع في مجالات الآداب والفنون والعلوم التنظيرية والتطبيقيه .

شتراكات :

البلاد العربية : ٨ د . ك أو ٣٠ دولارا

البلاد الأجنبية ١٠ د . ك أو ٤٠ دولارا

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك الى

وزارة الإعلام ـ الإعلام الخارجي ـ ص . ب ١٩٣ الرمز البريدي ١٣٠٠٢ الكويت

العدد :

الأردن	٥٠٠ فلس	سوريا	٢٠ ليرة
الامارات العربية المتحدة	٧ دراهم	عمان	٥٠٠ بيسة
البحرين	٥٠٠ فلس	قطر	٧ ريالات
تونس	١ دينار	لبنان	٢٥٠٠ ليرة
الجزائر	٦ دنانير	ليبيا	٥٠ قرشا
السعودية	٦ ريالات	مصر	١٠٠ قرشا
السودان	١٠ جنيهات	المغرب	١٠ دراهم
اليمن	٢٠ ريالا		

وزارة الإعلام ـ مطبعة الحكومة